

مجلة

كلية الآداب



المجلد الحادى والعشرون — الجزء الأول

مايو سنة ١٩٥٩

مطبعة جامعة القاهرة
١٩٦٣





المجلد الحادى والعشرون — الجزء الأول

مايو سنة ١٩٥٩

مطبعة جامعة القاهرة
١٩٦٣

تصدر هذه المجلة مرتين كل سـنة ، فى مايو وديسـمبر ، وتطلب من مكتبة جامعة القـاهرة بالجيزة ، وتوجه المكاتبات الخاصـة بالناحية العلمية الى المشرف على تحريرها الأستاذ الدكتور محمد حمدى البكرى الأسـتاذ بكلية الآداب بجامعة القـاهرة ، وثمن الجزء الواحـد من أى مجلد ثلاثون قرشـا مصريا .

فهرس القسم العربى

من مباحث الهمزة فى العربيـــة

للدكتور عبد الحليم على محمد النجار

أختصت الهمزة بين حروف الهجاء العربى بأحكام كثيرة يختلف أمرها بين العسر واليسر . ومن أهم هذه الأحكام مايتصل بتحقيق الهمزة ووجوه تخفيفها ، وقد خفيت أسباب ذلك على عامة المثقفين حتى إنهم ليسمعون أنواع التخفيف فى بعض قراءات القرآن فيخفى عليهم وجهها بل ربما أنكروها ، كما أن لغتنا العامية وغيرها من ألسنة العربية الدارجة قد ورثت كثيراً من أحكام التخفيف حتى ُخيل لكثير من الناس أن هذه الظواهر من خصائص العامية وليس من حقها أن تنتسب إلى العربية الفصحى .

وقد حدانى ذلك إلى تناول أهم مباحث الهمزة ، مع إطالة النفس فى مبحث التخفيف ، لأبين جلية الأمر فى قراءة القراء ، ولأوضح أيضا ما تمت به عاميتنا إلى العربية الفصحى من نسب عريق ، وسبب وثيق فى هذا المضمار .

١ — تعريف :

الهمزة هى الصوت المجهور الشديد الخارج من أقصى الحلق والقابل للحركات .

هذا هو مقتضى كلام سيبويه فى باب الادغام والحديث عن عدد الحروف العربية ومخارجها ومهموسها ومجهورها الخ [١] .

وأقصى الحلق هو أبعده مما يلى الصدر . وهو المخرج الأول من مخارج الحروف العربية الستة عشر عند سيبويه ومن تابعه [٢] : وهو المخرج الثانى عند الخليل وأكثر النحويين والقراء ومنهم ابن الجزرى [٣] ، وكذلك عند ابن سينا [٤] . وهؤلاء يعدون

---

(١) أنظر الكتاب ٢ : ٤٠٤ وما بعدها .

(٢) أنظر الكتاب فى الموضع السابق .

(٣) أنظر كتاب : النشر فى القراءات العشر لابن الجزرى ١ : ١٩٨ وما بعدها .

(٤) أنظر كتاب : أسباب حدوث الحروف لابن سينا القاهرة ١٣٣٢ هـ .

المخرج الأول هو : الجوف ، الذى تخرج منه حروف اللين الثلاثة ، على حين يسقط سيبويه مخرج الجوف ، ويوزع حروف اللين على مخارج أخرى ، فالألف عنده من أقصى الحلق ، والياء من وسط اللسان ، والواو من الشفتين .

ويخرج من أقصى الحلق عند سيبويه ثلاثة أحرف : الهمزة . والهاء . والألف . فالهمزة والألف حرفان مجهوران ، والهاء ، حرف مهموس . ومن ناحية أخرى : الهمزة حرف شديد ، والألف والهاء رخوان .

والمجهور — كما يفسره سيبويه — هو حرف أشبع الاعتماد فى موضعه ومَنع النفس أن يجرى معه حتى ينقضى الاعتماد عليه ويجرى الصوت [1] . وبعبارة أخرى : الجهر هو انحباس جرى النفس عند النطق بالحرف لقوته ، وذلك من قوة الاعتماد على مخرجه [2] ، كما فى الهمزة والعين والغين والجيم والقاف وغيرها .

والشديد — كما يفسره سيبويه أيضاً — هو الذى يمنع الصوت (لا النفس) أن يجرى فيه [3] . وبعبارة أخرى : الشدة هى انحباس جرى الصوت عند النطق بالحرف لكمال قوة الاعتماد على المخرج [4] ، كما فى الهمزة والقاف والكاف الخ .

وإذاً فالهمزة عند سيبويه هى الحرف الوحيد الذى يخرج من أقصى الحلق مجتمعة فيه صفتا الجهر والشدة .

بقى أنه نقل عن الخليل أنه يرى أن العين هى أقصى حروف الحلق ، لا الهمزة ، خلافا لسيبويه . وقد نقل ذلك السيوطى (المتوفى ٩١١ هـ) عن المفضل بن سلمة الكوفى (المتوفى ٢٩٠ هـ) قال : « ذكر صاحب العين أنه بدأ كتابه بحرف العين لأنها أقصى الحروف مخرجا . قال : والذى ذكره سيبويه أن الهمزة أقصى الحروف مخرجا . قال : ولو قال بدأت بالعين لأنها أكثر فى الكلام وأشد اختلاطا بالحروف لكان أولى [5] » .

---

(١) أنظر : الكتاب ٢ : ٤٠٥

(٢) أنظر : نهاية القول المفيد فى علم التجويد لمحمد مكى نصر ص ٤٤

(٣) أنظر : الكتاب ٢ : ٤٠٦

(٤) أنظر : نهاية القول المفيد ص ٤٦

(٥) أنظر المزهر للسيوطى ١ : ٩٠ (ط . الحلبى) .

كذلك جاء فى شرح ابن يعيش (المتوفى ٦٤٣ هـ) على مفصل الزمخشرى (المتوفى ٥٣٨ هـ) : « روى الليث عن الخليل أن الألف والواو والياء والهمزة جوف ، لأنها تخرج من الجوف ولا تقع فى مدرجة من مدارج الحلق ولا اللهاة ولا اللسان ، إنما هى هواء وكان الخليل يقول : الألف والواو والياء هوائية ، أى أنها فى الهواء ، وأقصى الحروف العين ، ثم الحاء ، ثم الهاء ، فلولا بحةٌ فى الحاء لكانت كالعين ، ولولا هِهة فى الهاء لكانت كالحاء لقربها منها . فهذه الثلاثة فى حيز واحد [1] .

وجاء أيضا فى مقدمة لسان العرب : وقال الخليل بن أحمد : حروف العربية تسعة وعشرون حرفا ، منها خمسة وعشرون حرفا صحاح لها أحياز ومدارج ، وأربعة أحرف جوف : الواو والياء والألف اللينة والهمزة ، وسميت جوفا لأنها تخرج من الجوف ، فلا تخرج فى مدرجة من مدارج الحلق ولا مدارج اللهاة ولا مدارج اللسان الخ [2] » .

هذا ، ولا ندرى هل يصح هـذا القول عن الخليل ؟ ونحن لم نجد له ذكرا عند من تابعه من النحويين والقراء . فلم يشر إليه سيبويه ، وهو تلميذ الخليل وناقل علمه ، وإن صح أنه خالفه فى عد المخارج ستة عشر ، لا سبعة عشر كما نقله النحاة والقراء عن الخليل . ثم إن هؤلاء فى متابعتهم للخليل جعلوا الهمزة من أقصى الحلق ، لا من الجوف كما ورد فى النقول السابقة . بل لقد صرح ابن الجزرى فى كتابه : النشر فى القراءات العشر ، بما يخالف هذا القول عن الخليل ، حيث ذكر ابن الجزرى أن حروف الجوف هى الألف والواو والياء ، ثم نقل عن مكى بن أبى طالب قوله : « وزاد غير الخليل معهن (أى مع حروف الجوف الثلاثة المذكورة) الهمزة ، لأن مخرجها من الصدر وهو متصل بالجوف [3] » .

وإذاً فهذا مذهب ذهب اليه غير الخليل . وهو صريح فى أن الخليل لا يجعل الهمزة من مخرج الجوف .

وقد يكون عزو هذا القول للخليل إنما حصل بطريق الاستنباط من صنيعه فى ترتيب كتاب العين ، حيث بدأه بحرف العين ، وأتبعه بقية حروف الحلق : الحاء والهاء

---

(١) أنظر شرح المفصل لابن يعيش ١٠ : ١٢٤

(٢) أنظر لسان العرب ١ : ١٣ (ط . بيروت) .

(٣) أنظر كتاب النشر لابن الجزرى ١ : ١٩٩

والحاء والغين ، جاعلا الألف فى آخر الحروف التى وضع نظامه عليها ، مع الواو والياء[1] ، غير مفرق بين الألف المهموزة والألف اللينة ، فظن من قرنه الألف المهموزة بالواو والياء والألف اللينة أنه لا يفرق بين الألف الجوفية والألف المهموزة من حيث المخرج ، وأنه يعد الهمزة من حروف الجوف .

وربما أيد ذلك الاحتمال قول ابن كيسان محمد بن احمد النحوى البغدادى (المتوفى ٢٩٩ هـ) : « سمعت من يذكر عن الخليل أنه قال : لم أبدأ بالهمزة لأنها يلحقها النقص والتغيير والحذف ، ولا بالألف لأنها لا تكون فى ابتداء كلمة ولا فى اسم ولا فعل إلا زائدة أو مبدلة ، ولا بالهاء لأنها مهموسة خفية لا صوت لها ؛ فنزلت إلى الحيز الثانى وفيه العين والحاء ، فوجدت العين أنصع الحرفين ، فابتدأت به ليكون أحسن فى التأليف ؛ وليس العلم بتقدم شىء على شىء ، لأنه كله مما يحتاج إلى معرفته ، فبأى بدأت كان حسنا ، وأولاها بالتقديم أكثرها تصرفا[2] » .

ففى هذا الكلام اعتذار الخليل من البدء بالهمزة ، وما ذاك إلا أنه كان متوقعاً أن يبدأ بها ، أولا من جهة أنها أول حروف الأبجدية ، وربما أيضا لأنها أول الحروف المحققة مخرجا وهو الحلق ، لا أنها من حروف الجوف كما تقدم . واعتذاره واضح ، لأن الهمزة — كما قال — لا تثبت على حالة واحدة ، بما يلحقها من التخفيف والإبدال والحذف .

على أن من الحق أن هناك من علماء العربية من يرى أن الهمزة من الجوف كالألف اللينة ، غير أن فى الهمزة شدة رفعتها إلى الحلق ، كما أن النون من طرف اللسان ، وترتفع إذا شددت بالغنة إلى الخيشوم .

ولكن ذلك غير مذهب الخليل كما تقدم[3] .

٢ — الهمزة بين حروف الهجاء العربى :

اختلف علماء العربية فى الهمزة ، هل هى حرف مستقل عن الألف بين حروف الهجاء ، أو هما حرف واحد ؟ فعلى الأول تكون حروف الهجاء العربى تسعة وعشرين حرفا ، وعلى الثانى ثمانية وعشرين .

---

(١) أنظر المزهر للسيوطى ١ : ٨٩

(٢) أنظر المزهر للسيوطى ١ : ٩٠

(٣) أنظر كلام مكى بن أبى طالب عند ابن الجزرى فى النشر ١ : ١٩٩

وممن يرى ترادف الهمزة والألف ، وعد حروف الهجاء تبعاً لذلك ثمانية وعشرين حرفاً ، الامام الكوفى أبو زكريا يحيى بن زياد الفراء (المتوفى ٢٠٧ هـ) كما نقل ذلك عنه السيوطى [١] حيث يقول : « يرى (أى الفراء) ترادف الهمزة والألف ، فيقول الهمزة هى الأصل ، والألف الساكنة هى الهمزة ترك همزها » .

ولم تبد للفراء حجة فيما ذهب اليه إلا قوله إن الهمزة هى الأصل . وهذا لا يكاد يتضح له وجه إلا عند أكثر أهل الحجاز الذين يخففون الهمزة ، خلافاً للتميميين ومن يحققونها من العرب ، على أنها أيضاً فى حالة التخفيف عند الحجازيين لا تأخذ البتة صورة الألف الساكنة كما سيتبين فيما بعد .

وأياً ما كان فان الفراء يرى أن الهمزة هى الحرف الأصلى المستقل بنفسه فى حروف الهجاء ، أما الألف فهى حرف فرعى عنده غير مستقل بنفسه . وعلى ذلك فعدة الحروف — كما يرى الفراء — ثمانية وعشرون حرفاً .

ويوافق أبو العباس المبرد من البصريين (توفى ٢٨٥ هـ) الفراء فى عد الحروف ثمانية وعشرين ، ولكنه يذهب إلى عكس ما ذهب اليه الفراء فى جعل الهمزة هى الأصل والألف هى الفرع . فهو يسقط الهمزة من حروف الهجاء لأنها لا تثبت فى الخط على صورة واحدة ، وليست لها صورة مستقرة ، فلا يعتدها إذاً مع الحروف التى أشكالها محفوظة معروفة [٢] .

وقد رد عليه أبو الفتح عثمان بن جنى (المتوفى ٣٩٢ هـ) بأن العبرة فى إثبات الحروف بالنطق لا بالخط ، لوجود اللفظ قبل الخط ، والهمزة موجودة فى اللفظ كغيرها من الحروف ، وانقلابها فى بعض أحوالها لعارض كتخفيف أو إبدال لا يخرجها عن كونها حرفاً ، ألا ترى أن انقلاب غيرها فى بعض أحواله لعارض لا يخرجه عن كونه حرفاً [٣] .

أما جمهور النحاة واللغويين فعدة الحروف عندهم تسعة وعشرون حرفاً ، بعد الهمزة والألف جميعاً منها .

---

(١) فى همع الهوامع ٢ : ٢٢٨ وانظر حاشية الصبان على الأشمونى فى أوائل باب الابدال .

(٢) أنظر : سر صناعة الاعراب لابن جنى ١ : ٤٦

(٣) أنظر : سر صناعة الاعراب ١ : ٤٨

٣ - رسم الهمزة :

سبق لك قول أبي العباس المبرد إن الهمزة لا تثبت فى الخط على صورة واحدة وليست لها صورة مستقرة . وفى مثل ذلك يقول أبو منصور الأزهرى صاحب التهذيب (المتوفى ٣٧٠ هـ) : « اعلم أن الهمزة لا هجاء لها ، إنما تكتب مرة ألفاً ومرة ياء ومرة واواً » .

ولكن هذا لا يعنى أن الأزهرى أيضاً ممن يجعلون عدد الحروف ثمانية وعشرين كالمبرد أو الفراء ، بل هو يصرح بأنها تسعة وعشرون حرفاً بضم الهمزة اليها [١] .

وقد فسر ابن جنى سبب ذلك الاختلاف فى كتابه الهمزة حيث يقول . إن الألف التى فى أول حروف المعجم هى صورة الهمزة فى الحقيقة [٢] . وإنما كتبت الهمزة واواً مرة وياء أخرى على مذهب أهل الحجاز فى التخفيف ، ولو اريد تحقيقها البتة لوجب أن تكتب ألفاً على كل حال . يدل على صحة ذلك أنك إن أوقعتها موقعاً لا يمكن فيه تخفيفها ولا تكون إلا محققة لم يجز أن تكتب إلا ألفاً ، مفتوحة كانت أو مضمومة أو مكسورة . وذلك إذا وقعت أولا ، نحو : أَخَذَ ، وأُخِذَ ، وإبراهيم . فلما وقعت موقعاً لا بد فيه من تحقيقها اجتمع على كتبها ألفا البتة . وعلى هذا وجدت فى بعض المصاحف : « يستهزأون » بالألف قبل الواو ، ووجد فيها أيضاً : « وإن من شيأ إلا يسبح بحمده » بالألف بعد الياء . وإنما ذلك لتوكيد التحقيق [٣] .

ومما ذكر يتضح أن اختلاف صورة الهمزة فى الكتابة متأثر بلغة أهل التخفيف من عرب الحجاز ، وهى اللغة الفصحى وعليها رسم المصحف . ومرجع هذا الاختلاف إلى قواعد النحو والصرف واللغة ، وإذاً فقد كان ملحوظا فى كتابة الهمزة الرمز إلى أصلها الصرفى والاشتقاقى ، فصعب أمر كتابتها إلا على الواقفين على جلية ذلك .

ومن ثم نشأت منذ عهد جِد مبكر رغبة كثير من العلماء فى تيسير كتابة الهمزة على عامة الناس وجعلها فى متناول الجميع . ومن أقدم من عُرفت له كلمة فى ذلك الامام

---

(١) أنظر لسان العرب ١ : ١٧ (ط . بيروت) .

(٢) يعنى أن الألف فى بعض استعمالاتها تصور الهمزة ، وهذا لا يمنع أن تصور الألف اللينة أيضا فى نحو قام وجاء ، كما ذكره ابن جنى نفسه فى سياق النص .

(٣) أنظر : سر صناعة الاعراب ١ - ٤٦ - ٤٧ .

أبو زكريا الفراء حيث يقول : « يجوز أن تكتب (الهمزة) ألفا فى كل موضع[1] » .

واشتدت هذه الرغبة إلحاحاً فى عصرنا الحديث فشغلت المجمع اللغوى زمنا طويلا ، ثم انتهى فيها أخيراً إلى قرار يضبط قواعد رسم الهمزة فى مواقعها المختلفة .

ويمكن الرجوع فى رسم الهمزة واختلاف وجهات النظر فيه منذ كتابة القرآن حتى وقتنا الحاضر إلى المراجع التالية :

(ا) فى رسم المصحف : كتاب المقنع . وكتاب المحكم ، كلاهما لأبى عمرو عثمان ابن سعيد الدانى (المتوفى ٤٤٤ ﻫ) .

(ب) فى قواعد رسم الهمزة والخلاف فى ذلك بين اللغويين والنحاة : شرح الرضى الاستراباذى (المتوفى ٦٨٦ ﻫ) على كتاب الشافية لابن الحاجب المصرى (المتوفى ٦٤٦ ﻫ) ج ٣ ص ٣١٢ وما بعدها ، وكتاب همع الهوامع شرح جمع الجوامع للسيوطى ، وكتاب المطالع النصرية لنصر الهورينى ، وكتاب الاملاء للشيخ حسين والى ، وغير ذلك .

(ج) فى قواعد رسم الهمزة طبقاً للقرار الذى وافق عليه مؤتمر المجمع اللغوى فى الدورة السادسة والعشرين سنة ١٩٥٩ — ١٩٦٠ : مجموعة البحوث والمحاضرات للدورة السادسة والعشرين لمؤتمر مجمع اللغة العربية ١٩٥٩ — ١٩٦٠ ص ٢٠٩ — ٢١٠

٤ — أقسام الهمزة وحركاتها :

والهمزة قسمان :

فالقسم الأول : همزة الوصل ، وهى التى تثبت ابتداء وتسقط وصلا (أى عند وصل كلمتها بما يسبقها) ، ويقال أيضاً : هى التى تثبت فى أول الكلام وتسقط فى الدرج (أى فى وسط الكلام) . ولها مواضع قياسية ، وأخرى سماعية ، فتنقاس همزة الوصل فى :

(ا) ماضى الخماسى والسداسى ، نحو : انطلق واستخرج .

(ب) أمر الخماسى والسداسى ، نحو . ابتهج واستغفر .

---

(١) نقلا عن الأستاذ محمد بهجة الأثرى فى مجلة مجمع اللغة العربية ١٢ : ١١٣

(ح) مصدر الخماسى والسداسى ، نحو : انتظار واستكبار .

(ى) أمر الثلاثى الساكن ثانى مضارعه لفظا ، نحو : اكتب واضرب .

بخلاف ماتحرك ثانى مضارعه ، نحو : يعد ويزن ويقول ، فلايحتاج إلى همزة الوصل، نحو : عد وزن وقل .

(هـ) أل الموصولة ، ونظيرها : أم فى لغة حمير .

وسمعت همزة الوصل فى عشرة أسماء ، وهى :

ابن ، إبنة ، إبنم ، امرؤ ، امرأة ، اسم ، است (بالإفراد والتثنية والجمع فى جميع هذه الأسماء) ، اثنان ، اثنتان ، أيمن الله [1] .

والأصل فى همزة الوصل وجوب الكسر . وقد تدعو دواعى التخفيف والتيسير الصوتى إلى مخالفة هذا الأصل :

(ا) فهى واجبة الفتح فى أداة التعريف .

(ب) وهى واجبة الضم فى ماضى الخماسى والسداسى المبنيين للمجهول ، وكذلك فى أمر الثلاثى المضموم العين أصالة ، نحو : اكتب وانصر ، بخلاف نحو : امشوا ، لأن أصله : امشيوا .

(ح) ويترجح ضمها على كسرها فيما كسرت ضمة عينه عرضا ، نحو : اغزى .

(ى) ويترجح فتحها على كسرها فى : أيمن الله وأيم الله .

(هـ) ويترجح كسرها على ضمها فى لفظ : اسم

(و) ويجوز الكسر والضم والاشمام فى نحو : اختير ، وانقيد ، بالبناء للمجهول .

والقسم الثانى : همزة القطع ، وهى الهمزة الثابتة أصالة فى الابتداء والوصل والانتهاء . وهذا لا يمنع ما يرد عليها عرضا من تخفيف أو حذف كما سيأتى .

وهمزة القطع قابلة للحركات الثلاث ، كما هى قابلة للسكون .

---

(١) هذا على مذهب البصريين الذين يجعلون « أيمن » بجميع صوره اسما مفردا من اليمن والبركة . أما الكوفيون فهو عندهم جمع « يمين » كما نقل ذلك ابن هشام فى المغنى عن الفراء ؛ ولذا فهمزته عندهم همزة قطع ، كما نص عليه أيضا فى المصباح فى المادة .

٥ — (ا) تخفيف الهمزة :

تقع الهمزة فى الكلم العربى ابتداءاً ، ووسطا ، وآخرا ، نحو : أمر ، وسأل ، ونشأ . ومثلها فى ذلك سائر اللغات السامية .

وقد هدى الاحساس اللغوى علماء العربية الاقدمين ، ولا سيما من عرفوا اللغات الاعجمية ، إلى أن وقوع الهمزة فى وسط الكلم أوطرفه يكاد يكون من خصائص العربية[1]. ومن ثم يقول احمد بن فارس (المتوفى ٣٩٥ ﻫ) : « انفردت العربية بالهمزة فى عرض الكلام ، مثل : اقرأ ، ولا يكون فى شيء من اللغات إلا ابتداءاً [2]» .

ويجرى الشيخ طاهر الجزائرى (المتوفى ١٣٣٨ ﻫ) أيضا هذا المجرى فيقول : «فان الفارسية وأكثر اللغات المشهورة لا يوجد فيها مثل ذلك[3] » ، يعنى وقوع الهمزة وسطا أو طرفا .

ثم يقول : وقد نرى فى الفارسية ما وردت فيه الهمزة فى غير الصدر فيكون ذلك آية أنه مأخوذ من العربية .

كذلك قد تشتمل اللغات الهندية — الأوربية على الهمزة فى وسط الكلم ، ولكن ذلك يحدث فى الغالب عرضا لا أصالة ، كما فى نحو : reaction . بل كثيراً ما نجد الهمزة الواقعة ابتداء فى بعض هذه اللغات ، كما فى الفرنسية : homme ، تعامل معاملة همزة الوصل فى العربية ، فتسقط مثلا إذا دخلت عليها أداة التعريف : l'homme .

ولما كانت الهمزة حرفا ثقيلا — إذ يخرج من أقصى الحلق وله نبرة قوية — خففها بعض العرب فى غير الابتداء ، فكان للهمزة حالتان :

(ا) التحقيق . وهو أن تخرج نبرة لا ينحى بها نحو حرف من حروف اللين .

(ب) والتخفيف . وهو أن تزال تلك النبرة بحذفها أو إبدالها حرف لين أو الميل بها نحوه .

ولا يدخل فى حالات التخفيف إبدال نحو : آمن ، فإن هذا إبدال واجب لا تكون معه الهمزة ذات حالتين ، ولا نحو : وقتت ، فى : أقتت ، فان الابدال هنا وإن كان جائزا فهو جار عند جميع العرب ، أو هو على الأقل لغة لبعضهم . وإذاً فالتخفيف هو إزالة نبرة

(١) فى مقابلة اللغات الأعجمية التى كانت معروفة لهم حينئذ ، وهم لم تكن لهم دراية باللغات السامية.

(٢) أنظر كتابه : التقريب لأصول التعريب ص ١١

(٣) المرجع السابق .

الهمزة لغير سبب قوى يجرى على مقتضاه كلام سائر العرب . وعلى ذلك فليس من التخفيف أيضا أن تجتمع الهمزتان فى كلمتين ، نحو : أألجمى وعربى ، وسيأتى بيان ذلك .

كذلك ليس من التخفيف عنعنة تميم ، كما روى فى قول ذى الرمة :

أعن ترسمت من خرقاء منزلة ماء الصبابة من عينيك مسجوم

فان ذلك لغة لهم .

وقد ساعد على تخفيف الهمزة قربها من الألف ، وبذلك قربت أيضا من أخويها : الواو والياء ، فعاملها العرب معاملة أحرف العلة فى التغيير وأجروها مجراها . ومن ذلك أنها تبدل من ثانى المثلين ، كما فى قول الراجز :

يالك من تمر ومن شيشاء [١] ينشب فى المسعل واللهاء [٢]

أنشب من مآشر [٣] حداء [٤]

يريد : حداد . فهذا مثل قولهم : تقضى البازى ، فى تقضض ، وتظنى فى تظنن ، وهو باب معروف فى اللغة [٥] .

(ب) أهل التخفيف من العرب :

وأهل التخفيف هم أكثر أهل الحجاز ، وبخاصة قريش . ومن أهل الحجاز أيضا من يجرى على التحقيق . ويقول سيبويه : « واعلم أن الهمزة التى يحقق أمثالها أهل التحقيق من بنى تميم وأهل الحجاز ، وتجعل فى لغة أهل التخفيف بين بين ، تبدل مكانها الألف . . . [٦] » .

ومن أهل التخفيف من الحجازيين خزاعة ، ومنهم كثير عزة . روى المرزبانى

---

(١) هو التمر لا يشتد نواه .

(٢) بكسر اللام جمع لهاة ، وهى أقصى الحلق .

(٣) جمع مئشار ، وهو المنشار ، وأصله : مآشير ، فحذف الياء للشعر .

(٤) أنظر لسان العرب فى مادة (حدد) .

(٥) أنظر المزهر للسيوطى ١ : ٤٦١ — ٤٦٢ ، ٤٦٨ (ط . الحلبى) .

(٦) أنظر شرح الرضى على شافية ابن الحاجب ٣ : ٣١ وما بعدها .

فى الموشح أن كثيراً دخل على عبد العزيز بن مروان فأنشده شعرا ، فقال له بعض جلسائه : لحنت ، قال : فى أى شىء ؟ قال فى قولك :

لا أنزر النائل الخليل إذا ما اعتل ، نزر الظئور لم ترم [1]

وإنما هو : ترأم . فقال له : اسكت ، هكذا كلام قومى [2] .

هذا ، ومن العجب أن كثيراً يهمز مع ذلك فى غير موضع الهمز فيقول :

وللأرض أما سودها فتجللت بياضاً وأما بيضها فاسوأدت [3]

ويقول أيضا فى مدح عبد العزيز بن مروان :

وأنت ابن ليلى خير قومك مشهداً إذا ما احمأرت بالعبيط العوامل [4]

فتراه يهمز : اسواد واحمار ، وكأن هذا جرى مجرى التوهم عنده لعدم إلفه بالنبر ، وربما كان أيضاً لضرورة الشعر . وقد ورد كثير مثل ذلك فى كلام العرب على سبيل الشذوذ ، ومن قبيل التوهم [5] .

التخفيف فى لسان العامة

ويجرى التخفيف فى لسان العامة فى مصر . وكأن ذلك لأن النازلين الأولين بمصر كان معظمهم من الحجاز ، مع ميل العامة فى الغالب أيضاً إلى التخفيف فى كلامهم ، وقد عمد القاهريون ومن سار على منوالهم إلى إبدال الهمزة من القاف لأن القاف أثقل من الهمزة . ويجرى التخفيف عندهم بالحذف وبالابدال ، كما فى نحو : البير فى للبئر ، والمرة فى المرأة ، وكما يقولون : اشتريت الكتاب بربعة قروش ، أى بأربعة قروش ، ويقولون مية فى مائة ، فهذا إبدال مع تشديد .

(ج) أهل التحقيق :

وأهل التحقيق هم تميم وقيس وبعض أهل الحجاز على ما سلف .

---

(١) أى لا ألح على خليلى فى النائل أى العطاء ومسألته ، يقال : نزره أى ألح عليه فى السؤال ، وقوله النائل كأنه يريد : فى النائل . ونزر الظئور أى كنزر الظئور ، وهى العاطفة على غير ولدها فى الرضاع ، ولم ترأم أى لم تعطف على ولدها .

(٢) أنظر : الموشح للمرزبانى ١٤٦

(٣) أنظر الخصائص ٣ : ١٢٧ وانظر ديوان كثير .

(٤) أنظر ديوان كثير ٢ : ٩٧

(٥) أنظر : باب فى شواذ الهمز ، فى كتاب الخصائص لابن جنى ٣ : ١٤٢ وما بعدها .

على أن هناك ألفاظاً وردت مخففة عند الجميع ، نحو : يرى — على ما سيأتى بيانه — ونحو : النبى ، والبرية ، والخابية .

ويقع عند التميميين فى الهمزة ما يشبه التخفيف وليس به ، وهو : العنعنة كما سبقت الاشارة إلى ذلك . جاء فى القاموس : « وعنعنة تميم إبدالهم العين من الهمزة ، يقولون : عن موضع أن » [1] . وجاء فى اللسان بعد إيراد هذا أيضاً : وأنشد يعقوب (هو : ابن السكيت) :

فلا تلهك الدنيا عن الدين واعتمل لآخرة لا بد عن ستصيرها

وقال ذو الرمة :

أعن ترسمت من خرقاء منزلة ماء الصبابة من عينيك مسجوم

أراد : أأن ترسمت ، وقال جران العود :

فما أبن حتى قلن ياليت عننا تراب وعن الآرض بالناس تخسف

قال الفراء : لغة قريش ومن جاورهم : أن ، وتميم وقيس وأسد ومن جاورهم يجعلون ألف « أن » إذا كانت مفتوحة عينا ، يقولون : أشهد عنك رسول الله ، فاذا كسروا رجعوا إلى الألف . وفى حديث قيلة : تحسب عنى نائمة أى تحسب أنى نائمة . ومنه حديث حسين بن مشمت : أخبرنا فلان عن فلانا حدثه ، أى أن فلانا ، قال ابن الأثير : كأنهم يفعلونه لبحح فى أصواتهم [2] » .

وفى نوادر أبى زيد : وأنشدتنى أعرابية من بنى كلاب » :

فتعلمن وإن هويتك عننى قطاع أرمام الحبال صروم

فقلت لها : ما هذا ؟ فقالت هذه عننا . وبعضهم يقول : عنعنة بنى فلان [3] .

ويرى بعضهم أن رسم الهمزة برأس العين لهذا الإبدال . ومن ذلك أن اللغويين إذا أراد أن يبينوا عن الهمزة فى الكلام مثلوها بالعين فى الوزن ، فيقولون : الآء زنته : العاع .

---

(١) أنظر القاموس فى مادة (عنن) .
(٢) أنظر لسان العرب ١٣ : ٢٩٥ (ط . بيروت) .
(٣) أنظر نوادر أبى زيد ٢٨

وفى اللسان : « اللأى بوزن : اللعا : الثور الوحشى . . . والجمع : آلاء مثل : ألعاع ، مثل : جبل وأجبال والأنثى : لآة مثل : لعاة » [1] .

ويمتحن أصحاب رسم المصاحف الهمزة بالعين ، وذلك لأن الهمزة لم تكن لها صورة فى الرسم العثمانى . قال الدانى : « واعلم أن الهمزة يمتحن موضعها من الكلمة بالعين . فحيثما وقعت العين وقعت الهمزة مكانها . وسواء كانت متحركة أو ساكنة ، أو لحقها التنوين أو لم يلحقها . فتقول فى : آمنوا : عامنوا ، وفى : وآتى المال : وعاتى المال . وفى : مستهزئين : مستهزعين ، وفى : خاسئين : خاسعين ، وفى : مبرءون . مبرعون ، وفى قوله : متكئون : متكعون [2] » .

هذا ، ولا يدخل فى التخفيف الذى ينفى عن تميم ومن يليهم ما جاء من التخفيف لضرورة الشعر ، فإن هذه الضرورة يقع فيها كل الشعراء من تميم وغيرهم ، ومن المشهور فى ذلك قول الفرزدق وهو تميمى :

راحت بمسلمة البغال عشية فارعى فزارة لا هناك المرتع [3]

ومن هذا التخفيف أيضاً قول حسان :

فدونك فاعلم أن نقض عهودنا أباه الملا منا الذين تتابعوا [4]

فقد خفف لفظ : الملأ ، وهو حجازى .

(د) السبب فى التخفيف عند الحجازيين :

يعيا الباحث بالوقوف على السبب فى اطراد تخفيف الهمزة عند عامة أهل الحجاز . وقد يكون ذلك إلى أنهم ، وقد كانوا أفصح العرب ، كانوا يؤثرون الميل إلى السلاسة وسهولة التعبير ، وتجنب الثقل فى النطق على وجه العموم . وربما يبدو أيضاً أن الحجازيين كانوا بسبب من الروم فى جوارهم والتعامل معهم فى رحلاتهم إلى الشام للتجارة وغيرها ، فأخذوا عنهم التخفيف ، على حين ظلت تميم وقيس — وكانوا فى نجد — بمعزل عن الاختلاط بالأجنبى ، فبقيت على التحقيق والنبر .

---

(١) أنظر لسان العرب ١٥ : ٢٣٨ (ط . بيروت) .
(٢) أنظر المقنع لأبى عمرو الدانى ١٥٠
(٣) أنظر ديوان الفرزدق ٥٠٨ (ط . الصاوى) .
(٤) أنظر ديوان حسان بن ثابت .

(ه) حكم التخفيف :

التخفيف لمن يتكلم بالعربية من قبيل الاستحسان لا الوجوب . فليس ممنوعاً أن يترك التخفيف ويعدل الى التحقيق ، بل هو الأصل . غير أن الظاهر أن أهل التخفيف من العرب كانوا يلتزمونه ، لاسيما اذا صح ما روى عن أمير المؤمنين على بن أبي طالب رضى الله عنه من قوله : « نزل القرآن بلسان قريش ، وليسوا أصحاب نبر (أى همز) ، ولولا أن جبرائيل عليه السلام نزل بالهمزة على النبى صلى الله عليه وسلم ما همزنا [١] » .

وقد يجمع العرب على التزام التخفيف فى بعض الألفاظ ، كالخابية ، ألزموها التخفيف لكثرة الاستعمال . ومن ذلك : النبي والبرية ، عند الزمخشرى ؛ فقد قال فى المفصل : « وقد التزم ذلك (يريد التخفيف) فى نبى وبرية » ، ويقول ابن يعيش فى شرحه لهذا الموضع من المفصل : « يريد ترك الهمزة وقلبها إلى ما قبلها وإدغامها على حد خطية ، إلا أنه فى نبي وبرية لازم لكثرة الاستعمال بحيث صار الأصل مهجوراً ، فاعرفه [٢] » .

وقد رد هذا القول بوجوب التخفيف ابن الحاجب فى الشافية إذ يقول : « وقولهم : التزم (أى التخفيف) فى نبي وبرية غير صحيح ، ولكنه كثير [٣] » .

ولسيبويه مقال فى هذا ، وهو : « وقالوا نبي وبرية فألزمها أهل التحقيق البدل ، وليس كل شيء نحوهما يفعل به ذا ، إنما يؤخذ بالسمع . وقد بلغنا أن قوما من أهل الحجاز من أهل التحقيق يحققون نبيء وبريئة ، وذلك قليل ردىء [٤] » .

قال ابن سيده فى المخصص : « ولم يستردَّها سيبويه ذهابا منه إلى أن أصله غير الهمز ، وإنما استردأها من حيث كثر استعمال الجمهور من العرب لها من غير همز . قال أبو عبيد قال يونس : أهل مكة يخالفون غيرهم ، يهمزون النبيء والبريئة ، وذلك قليل فى الكلام [٥] » .

---

(١) أنظر شرح الرضى على الشافية ٣ : ٣٢
(٢) أنظر شرح المفصل لابن يعيش ٩ : ١٠٩
(٣) أنظر شرح الرضى على الشافية ٣ : ٣٢
(٤) أنظر الكتاب ٢ : ١٧٠
(٥) أنظر المخصص ١٤ : ٨

هذا ، ويرهى ابن الحاجب فيما ذكره من أبطال وجوب التخفيف فيما سبق إلى الذب عن نافع فى قراءته : النبىء بالهمز فى القرآن حيث وقع ، كما يقرأ هو وابن ذكوان : البريئة . فقراءة نافع توافق قراءة أهل مكة ، وإذاً فلا عيب عليها ولا غضاضة [1] . والزمخشرى مولع بتلحين المقرئين كما يقرر ذلك أبو حيان فى تفسيره [2] . والقراءة قد تأتى على القليل وعلى المرجوح فى الاستعمال العربى ، ومن ذلك قوله تعالى : « وجمع الشمس والقمر [3] » فالكثير تأنيث الفعل فى مثل ذلك ، وإن جاز الوجهان .

وقد ورد فى شأن همز : النبىء حديث عن أبى ذر ، وهو ما أخرجه الحاكم فى المستدرك أن أعرابيا جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا نبىء الله ، فقال : لست نبىء الله ولكن نبي الله [4] .

على أن هذا الحديث إن صح فهو يفيد أن همز : النبىء ، لغة عربية . قال أبو عبيد . « أنكر (النبى صلى الله عليه وسلم) عدوله عن الفصحى ، أى فيجوز الوجهان ولكن الأفصح بغير همز [5] » .

وقد يكون إنما كره ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم خشية أن يرمى به من يضمر السوء إلى أخذه من . نبأ من أرض إلى أرض أى خرج منها ، فاذا سمع : يا نبىء الله ، حمله على معنى : يا من خرج من مكة إلى المدينة ، وقد يكون غرض القائل من هذا أنه خرج على غير وجه التكرمة .

وفى كلام سيبويه السابق أيضاً ما قد يكون تعريضا بقراءة نافع ، إذ استردأ همز : النبىء ، الذى قرأ به نافع كما سبق . والنحويون مولعون بتخطئته فى القراءة ، قال أبو عثمان المازنى فى تعريفه : فأما قراءة من قرأ من أهل المدينة : معائش ، بالهمز فهى خطأ

---

(١) أنظر اتحاف فضلاء البشر فى القراءات الأربع عشر ٥٨ وما بعدها .

(٢) أنظر البحر المحيط لأبى حيان ٥ : ١٥

(٣) الآية ٩ من سورة القيامة ، وأنظر شرح الأشمونى على الألفية ٢ : ٣٥ – ٣٦ (على هامش حاشية الصبان ط . الحلبى) .

(٤) فى تفسير القرطبى ١ : ٤٣١ : « قال أبو على : ضعف سند هذا الحديث ، ومما يقوى ضعفه أنه عليه السلام قد أنشده المادح : ياخاتم النبئاء . .. » . يريد قول العباس بن مرداس :

يا خاتم النبئاء إنك مرسل ... بالحق كل هدى السبيل هداكا

فالنبئاء جمع نبىء بالهمز .

(٥) أنظر إتحاف فضلاء البشر ٥٨

فلا يلتفت إليها ، فانما أخذت عن نافع بن أبى نعيم ، ولم يكن يدرى ما العربية ، وله أحرف يقرؤها من نحو هذا [1] » .

على أن أكثر من روى عن نافع يروى : معايش ، بالياء ، وإنما روى عنه : معائش بالهمز ، خارجة بن مصعب كما ذكر ذلك ابن جنى فى شرح هذه النبذة من التصريف [2] .

وقد قيل فى : النبى ، إنه من النباوة أى الرفعة ، وعلى ذلك لا يكون فيه تخفيف . ورد ذلك بأنه يجمع على : نبئاء ، فهو مهموز أصالة كما حقق ذلك سيبويه وتبعه الرضى وابن الحاجب وعامة النحاة [3] .

وأما البرية فيقول الفراء : إن كانت من برأ الله الخلق فأصلها الهمز ، وإن كانت من البرىَ ، وهو التراب ، فالياء أصلية [4] .

ومن الذى أصله الهمز أيضا : الذرية ، إذا أخذت من : ذرأ الله الخلق . فان أخذت من الذر والياء للنسب ، لم تكن من هذا الباب [5] .

ومما التزم فيه التخفيف بالحذف ما صيغ من الرؤية مبدوءاً بزيادة غير همزة الوصل ، وكان فعلا متصرفا أو جاريا على الفعل . وذلك كالفعل المضارع الثلاثى والمزيد ، والفعل الماضى المزيد ، واسم الفاعل ، واسم المفعول ، نحو : يرى ، وأرى ماضيا ومضارعا ، ومر ، ومرى [6] .

وخرج عن الضابط المذكور : مرآة ، ومرأى ، وما أرآه ، وهو أرأى من فلان ، فنحو ذلك لا ينطبق عليه هذا الضابط ، لأنه إما جامد غير متصرف كفعل التعجب وأفعل التفضيل ، وإما غير جار على الفعل .

ويستثنى من ذلك الضابط ما لا يكثر استعماله ، إذ كان مناط الحذف كثرة الاستعمال . ومن هذا قولهم : أرأت الشاة والناقة فهى مرئية إذا استبان حملها .

---

(١) أنظر كتاب المنصف لابن جنى شرح تصريف المازنى ١ : ٣٠٧

(٢) أنظر الكتاب السابق ١ : ٣٠٨

(٣) أنظر شرح الرضى على الشافية ٣ : ٣٥

(٤) أنظر لسان العرب ١ : ٣١

(٥) أنظر اللسان فى الموضع السابق .

(٦) أنظر شرح الرضى على الشافية ٣ : ٤١

ومن الواضح أن ما خرج عن ضابط التزام التخفيف يجوز فيه التخفيف والتحقيق . ومن ذلك فعل الأمر ، لابتدائه بهمزة الوصل ، فلك أن تقول : رَ محمدا [1] ، وارأ محمدا . فأما أفعل التفضيل وفعل التعجب فالظاهر أن التخفيف يمتنع فيهما لما يترتب عليه من ضياع الصيغة .

ومما ورد فيه التخفيف الجائز قول الشاعر :

محمرّة عقب الصباح عيونهم ... بمرًى هناك من الحياة ومسمع

ويستثنى أيضا مما يجرى مجرى الفعل فى الضابط السابق اسم مفعول الثلاثى ، وهو : مَرئىّ ، حققه الإتمام ، والظاهر أنه لا يجوز فيه التخفيف لما يترتب عليه من التباسه بلفظ : مرى ، اسم مفعول من مراه يمريه إذا استخرجه .

وقد تقدم أن الأمر من الثلاثى يجوز فيه التحقيق ، وهو ما يفهم من كلام سيبويه ، وصرح به الفارسى فى الحلبيات . وفى التسهيل لابن مالك وشرحه للدمامينى أن الأمر كالمضارع يلتزم فيه الحذف . وعبارة التسهيل والشرح : « والتزم غالباً النقل (أى حذف الهمزة ونقل حركتها إلى ما قبلها) فيما شاع من فروع الرؤية . وهى (أى الفروع) : مصدر رأى البصرية ، والرأى ، والرؤيا (وهى مصدر رأى المنامية) والمراد بفروع ذلك كلمات المضارع نحو : أرى ، ويرى ، وترى ، ونرى ، والأمر نحو : ره » .

هذا ، والتزام الحذف والنقل فيما ذكر عند جمهرة العرب. وحكى سيبويه عن أبى الخطاب أن من العرب من يحقق ويقول : أرأها [2] . وفى شرح التسهيل أن هؤلاء هم : تيم اللات ، ومن ذلك قول سراقة البارقى :

أرى عينى ما لم ترأياه ... كلانا عالم بالترهات

فيما رواه أبو زيد [3] . وروى أبو حاتم عن أبى عبيدة : ما لم تبصراه . وإذا فلا شاهد فيه . وروى أبو زيد للأعلم بن جرادة السعدى :

---

(١) فى مثل : ر محمدا ، يرى أبو على الفارسى أنه يجب كتابة هاء السكت « ره محمدا » نظراً للوقف عليها . وأنظر الحلبيات .

(٢) عبارة سيبويه : وحدثنى أبو الخطاب أنه سمع من يقول : قد أراهم ، يجىء بالفعل من رأيت على الأصل ، من العرب الموثوق بهم .

(٣) أنظر نوادر أبى زيد ٨٥

ألم تر ما لاقيت والدهر أعصر ومن يتمل العيش برأ ويسمع [١]

وأنشد أبو زيد أيضاً عن رجل لم يسمه :

هل ترجعن ليال قد مضين لنا والعيش منقلب إذ ذاك أفنانا

إذ نحن فى غرة الدنيا وبهجتها والدار جامعة أزمان أزمانا

لما استمر بها شيحان مبتجح بالبين عنك بما يرآك شنآنا [٢]

ونقل عبد القادر البغدادى فى شرحه لشواهد الشافية هذا الشعر عن أبى زيد فى كتاب الهمز ، وأن أبا زيد رواه عن أعرابى من تميم لنفسه .

ومن هذا يتبين أن تحقيق الهمز فيما ذكر جاء فى شعر سراقة البارق ، ورجل من تميم ، والأعلم السعدى ، ولا يعرف واحد منهم من تيم اللات . فالظن أن نسبة التحقيق إلى تيم اللات وحدهم لا تصح .

(و) موضع التخفيف :

لا يكون التخفيف فى ابتداء الكلام . فاذا وقعت الكلمة المبدوءة بالهمزة فى بدء الكلام لم يكن سبيل إلى التخفيف ، لأنها فى حالة التخفيف إنما تدبر على حسب ما قبلها . وليس حذف همزة الوصل فى نحو : سل ، من باب التخفيف ، لأن همزة الوصل إنما حذفت لتحرك ما بعدها ، فاستغنى عنها .

وهناك ألفاظ سقطت الهمزة فى أولها حتى أصبحت فى الاستعمال عارية منها ، ولا يذكر بالهمزة فيها إلا ورودها فى بعض الاستعمال . ومن ذلك : الناس ، فان أصله الأناس . وقد ورد ذلك فى قول الشاعر :

إن المنـــايا يطلعـــ ـن على الأناس الآمنينا [٣]

ويؤيد ذلك الاشتقاق . فهو من الأنس . ويرى بعضهم أنه لا حذف هنا ، وإنما لفظ : الناس ، من ناس إذا تحرك [٤] .

(١) أنظر الشاهد ١٦٠ فى شرح شواهد الشافية للبغدادى ٤ : ٣٢٩

(٢) أنظر شرح شواهد الشافية فى الموضع السابق .

(٣) أنظر الخصائص لابن جنى ٣ : ١٥١ ، وأنظر اللسان فى مادة : نوس .

(٤) أنظر لسان العرب فى مادتى : أنس ونوس .

ومن ذلك : اللوقة للزبدة ، أو للزبدة بالرطب . فأصلها : الألوقة . وقد وردت الألوقة بهذا المعنى [1] . والذى يجعل الأصالة للألوقة الاشتقاق من التألق أى البريق . وإذاً فمثال لوقة عولة ، وألوقة فعولة :

وظن ابن سيده أن من يقول برد اللفظين إلى مادة واحدة يجعل الأصالة لكلمة : لوقة ، فيكون مثال ألوقة أفعلة . واعترض هذا بأن الواجب حينئذ التصحيح لا الاعلال . وهاك عبارته على ما فى اللسان : « وقد توهم قوم أن الألوقة ، لما كانت هى اللوقة فى المعنى وتقاربت حروفهما ، من لفظها ، وذلك باطل ، لأنها لو كانت من هذا اللفظ لوجب تصحيح عينها ؛ إذ كانت الزيادة فى أولها من زيادة الفعل والمثال مثاله ، فكان يجب على هذا أن يقال . ألوقة ، كما قالوا فى : أثوب وأسوق وأعين بالصحة ليفرق بذلك بين الاسم والفعل [2] » .

ومن ذلك جابة ، فى قولهم : أساء سمعا فأساء جابة ، فأصلها : إجابة ، ثم كثر فجرى مجرى المثل فحذفت همزته تخفيفاً ، هذا ما يراه أبو العباس المبرد . ويرى ابن جنى أن اجابة ، فعلة من : أفعل ، كأرزمت السماء رزمة ، وأجلب القوم جلبة . وجعل مما يؤيد رأيه قولهم: أطعت طاعة ، وأطقت طاقة ، وليس واحد منها بمثل ، ولا كثر فيجرى مجرى المثل فتحذف همزته [3] .

ومما يشبه الحذف فى مثل ذلك عند العامة قولهم : الميرى ، فى : الأميرى .

(ز) هل للتخفيف شرط ؟

يبدو أن التخفيف بالتسهيل حيث يتحقق موضعه لاشىء فيه ولا حاجز منه .

فأما التخفيف بالحذف ونقل الحركة فيقول فيه الرضى : « ولا يجوز نقل الحركة فى باب : انأطر [4] ، لإلزامهم نون انفعل السكون [5] » . وفى التسهيل أن هذا هو ما عليه الأكثر ، ومقتضاه أن قوما من النحاة يجيزون النقل فيه فيقولون : إنطر .

---

(١) أنظر لسان العرب فى مادة (ألق) .

(٢) أنظر لسان العرب فى مادة (ألق) .

(٣) أنظر الخصائص ٣ : ٧٤

(٤) مطاوع أطره يأطره أطرا – من باب ضرب ونصر – إذا عطفه فانعطف أى ثناه فانثنى .

(٥) أنظر شرح الرضى على الشافية ٣ : ٤١

ولكن هل يجوز النقل إذا كان يحدث لبسا فى الصيغ والأبنية ، كما فى نحو : استلأم ، أى لبس اللأمة أى الدرع ؟. فلو خفف لقيل : استلم ، فالتبس بالافتعال من السلم وهو الحجر ، يقال : استلم الحجر الأسود . وفى كتاب الكتاب لابن درستويه ما يقضى بجواز التخفيف[1] ، ولذلك يكتب استلأم : استلم ، وكذلك : يستلم ، فلا يثبت لها صورة فى الرسم ، وهذا يقضى عنده بثبوتها فى التخفيف . وكذلك : أسأر ، فهو يكتب : أسر يسر ، دون صورة للهمزة نظراً لذلك . وإذا خفف أسأر إلى : أسر ، التبس بفعل من الأسر .

(ح) التخفيف فى الجامد :

تقدم بعض القول فى أفعل التفضيل وفعل التعجب من رأى[2] . والظاهر أن فعلى التعجب لا يجرى فيهما التخفيف ؛ لأن الإعلال الجارى عند عامة العرب لا يجرى فيهما ، نحو : ما أقومه بالحق وأقوم به ، وداعى الاعلال أشد من داعى التخفيف . وأفعل التفضيل يجرى مجرى التعجب .

(ط) التخفيف فى لسان المتعلمين :

يجرى المتعلمون بمصر فى هذا العصر على تحقيق الهمز فى قراءتهم ، ولا يكادون يعرفون التخفيف . وكأن السبب فى هذا قراءة القرآن على رواية حفص عن عاصم . وتجرى هذه القراءة على التحقيق إلا فى قوله تعالى : « أأعجمىٌّ وعربى[3] » ، فهو هنا يسهل الهمزة ويجعلها بين بين .

(ى) أضرب التخفيف :

أضرب التخفيف ثلاثة

الأول التسهيل ، أو بين بين : وهو أن تأتى بالهمزة بينها وبين حرف حركتها (وهو الألف أو الواو أو الياء) وتجعل الحركة التى عليها مختلسة سهلة بحيث تكون كالساكنة :

---

(١) أنظر كتاب الكتاب لابن درستويه ص ١٤

(٢) أنظر ص ١٧ من هذا البحث .

(٣) فى الآية ٤٤ من سورة : فصلت .

والتسهيل — على هذا النحو — هو الأصل فى التخفيف ، ويقصر بعضهم التخفيف عليه ، وذلك لما فيه من المحافظة على جوهر الهمزة . ويأتى بعده الإبدال ، لما فيه من التعويض منها . ثم يأتى فى النهاية الحذف ، لما فيه من إضاعة الهمزة والاستغناء عنها بنقل الحركة ، ومن هذا يتضح أن إطلاق التخفيف على القسمين الأخيرين من باب التوسع .

وهل من التخفيف بالحذف قصر الممدود وفيه حذف الهمزة ؟

الظاهر أن التخفيف بالحذف لا يشمل ذلك ، لأن المراد الحذف بعد نقل الحركة . وأيضا فقصر الممدود إنما تجيزه الضرورة ، والتخفيف بالحذف يجرى فى اختيار الكلام على ما تقدم .

مواضع التسهيل :

يجرى التسهيل فى المواضع الآتية :

١ — إذا كانت الهمزة مكسورة بعد متحرك كيفما كانت حركته [١] ، نحو : سئم ، وسئل ، ومئين ، ونحو : قال إسحاق ، ورأيت إبلك ، وعلمت إيمانى . أى سواء أ كان ذلك فى كلمة واحدة أم كلمتين .

٢ — إذا كانت الهمزة مضمومة بعد متحرك كيفما كانت حركته [٢] ، نحو : لؤم ، ومئون ، وسئول ، ونحو : قال أسامة ، ورأيت أمه ، وكن خادما لأمتك .

٣ — إذا كانت الهمزة مفتوحة بعد فتح ، نحو : سأل ، وقال أبوه [٣] .

٤ — إذا كانت الهمزة متحركة بعد ألف كيفما كانت حركتها ، نحو : تساءل ، والتساؤل ، وقائل ، ونحو : رمى أباه ، ونادى أمه ، وسقى إبله [٤] .

وترى أن الهمزة المسهلة لا تقع بعد ساكن غير الألف ، وذلك لأنها قريبة من السكون ، ولا تقع همزة بين بين إلا فى موضع لو كان فيه ساكن لجاز ، ويستثنى من ذلك الألف .

---

(١) أنظر كتاب النشر لابن الجزرى ١ : ٤٣٣

(٢) المرجع السابق .

(٣) المرجع السابق .

(٤) المرجع السابق .

وينقل ابن الجزرى عن أبي حيان فى الارتشاف [1] أن الكوفيين أجازوا أن تقع همزة بين بين بعد كل ساكن (أى الفا أو غيره) كما تقع بعد المتحرك ، كما يذكر أن أبا حيان علق على ذلك بقوله : هذا مخالف لكلام العرب . والعجب أن الكوفيين يرون — كما سيأتى — همزة بين بين ساكنة ، فكأنهم يجيزون التقاء الساكنين فى هذا الباب إذ كانت الهمزة فى حكم المد .

ووافق الكوفيين من القراء أبو العلاء الهمدانى فيما وقع فيه الهمزة بعد حرف مد (نحو : يسوء ويجىء) ، قياسا لغير الألف على الألف . قال ابن الجزرى : « وذلك ضعيف جداً ؛ فانهم إنما عداوا إلى بين بين بعد الألف لأنه لا يمكن معها النقل ولا الادغام (يريد الابدال) ، بخلاف الياء والواو . والله أعلم » .

على أن الحافظ أبا عمرو الدانى حكى ذلك فى «موئلا [2] » و « الموءودة [3] » ، وقال إنه مذهب أبى طاهر بن أبى هاشم . وهو قريب فى « موئلا » من أجل اتباع الرسم عند من يأخذ به ، إذ كتب فى المصحف العثمانى دون همز . وسهل بعضهم للنبىء بين بين ، واستضعفه صاحب النشر [4] .

تعقيبات :

(١) يخالف الأخفش فى تخفيف الهمزة المكسورة بعد ضم ، نحو : سئل ، والمضمومة بعد كسر ، نحو . يستهزىء فيخفف بالابدال ، ففى الأول واو ، وفى الثانى ياء ، لما فى نقل شبه الياء الساكنة بعد الضم ، وشبه الواو الساكنة بعد الكسر . والمنقول عنه قوله بالابدال فى هذين الموضعين أينما كان الحرف . وقال ابن الجزرى : « والذى رأيته أنا فى كتاب معانى القرآن له (أى للأخفش) أنه لا يجيز ذلك إلا إذا كانت الهمزة لام الفعل ، نحو : « سنقرئك [5] » ، و « اللؤلؤ [6] » . وأما إذا كانت عين الفعل ،

---

(١) المرجع السابق .
(٢) فى الآية ٥٨ من سورة الكهف .
(٣) فى الآية ٨ من سورة التكوير .
(٤) أنظر النشر لابن الجزرى ١ : ٣٧٨
(٥) فى الآية ٦ من سورة الأعلى .
(٦) فى الآية ٢٣ من سورة الواقعة .

نحو : سئل ، أو من منفصل ، نحو : يرفع ابراهيم ، ويشاء أبى ، فانه يسهلها بين بين كمذهب سيبويه . والذى يحكيه عنه النحاة والقراء إطلاق الإبدال فى النوعين . وأجازه كذلك عن حمزة فى الوقف أبو العرب القلانسى وغيره ، وهو ظاهر كلام الشاطبى . ووافق أبو العلاء الهمدانى على جواز الابدال فى المضمومة بعد كسر فقط مطلقا أى فى المنفصل والمتصل ، فاء الفعل أو لامه وحكى أبو العز ذلك فى هذا النوع خاصة عن أهل واسط وبغداد ، وحكى تسهيل بين بين عن أهل الشام ومصر والبصرة . وحكى الاستاذ أبو حيان النحوى عن الأخفش الإبدال فى النوعين ، ثم قال : وعنه فى المكسورة المضموم ما قبلها من كلمة أخرى التسهيل بين بين ، فنص على الوجهين جميعاً فى المنفصل [1] » .

هذا ، ويرى بعضهم تسهيل الهمزة فى هذين الموضعين بجعلها بين الهمزة وحركة ما قبلها لا حركتها هى ، ويسمى هذا : بين بين البعيد . ويقول الرضى . انه (أى هذا البعض) آثر ذلك فراراً مما لزم سيبويه فى بين بين المشهور من مجىء شبه الواو الساكنة بعد الكسر ، وشبه الياء الساكنة بعد الضم ، ومما لزم الأخفش من مجىء الواو الصريحة متحركة بالكسر بعد الضم فى سول ومن مجىء الياء الصريحة متحركة بالضم بعد الكسر فى مستهزيون [2] .

ويرى ابن الجزرى أن بين بين البعيد غير ممكن لفظاً ، فانه لا يتمكن منه إلا بعد تحويل حركة الهمزة إلى حركة ما قبلها أو إشمامها إياها [3] . ففى نحو : سئل ، لابد من تحويل الكسرة إلى الضمة أو إشمامها للضمة حتى تناسب الواو . وهو يسمى هذا الوجه وجها معضلا . انظر قوله فى مسألة ينشىء وشبهه مما وقعت الهمزة فيه مضمومة بعد كسرة . وذكر أن فيها خمسة أوجه : « وخامسها الوجه المعضل ، وهو تسهيلها بين الهمزة والياء على الروم [4] » . ويقول مثل هذا فى ص ٤٧٥ من الجزء الأول من النشر .

ولا يعرف صاحب التسهيل بين بين البعيد . ويذكر الرضى أن بعضهم نسبه أيضاً إلى الأخفش [5] . وفى حواشى الجاربردى على الشافية أن صاحب هذا المذهب (أى بين بين

(١) أنظر النشر ١ : ٤٣٧
(٢) أنظر شرح الرضى على الشافية ٣ : ٤٦
(٣) أنظر النشر ١ : ٣٨٣
(٤) أنظر النشر ١ : ٤٦١
(٥) أنظر شرح الرضى على الشافية ٣ : ٤٦

البعيد) أبو الحسن شريح بن محمد بن شريح [1] . وفى النشر حكى هذا المذهب فى كافيه : وابن شريح هذا والد أبي الحسن السابق . وعبارة النشر : « وقد أبعد وأغرب ابن شريح فى كافيه حيث حكى تسهيلها (يريد الهمزة المكسورة بعد أخرى مضمومة) كالواو [2] » . فابن شريح حكى هذا المذهب فقط ، وإذا فهو مذهب قديم قبل أبي الحسن وأبيه .

(ب) همزة بين بين فى حكم المتحركة . يرى البصريون أنها متحركة وان كانت قريبة من الساكن . ويرى الكوفيون أنها ساكنة . وقد احتج سيبويه عليهم بقول الأعشى :

أأن رأت رجلا أعشى أضربه ريب المنون ودهر متبل خبل[3]

فقد جرى التسهيل فى الهمزة الثانية ، وهى فى حكم المتحركة ؛ إذ لو كانت فى حكم الساكنة لا لتقى ساكنان . ولا يكون هذا فى الشعر إلا فى المتقارب[4] ، كقول الشاعر :

فذاك القصاص وكان التقا ص فرضا وحتما على المسلمينا

وهذا الاحتجاج من سيبويه مبنى على ما يراه هو من وجوب التخفيف إذ يزعم أن أحدا من العرب لا يحقق الهمزتين فى هذا الموضع ، ولا يرى هذا الكوفيون . وهم يقرءون بالتحقيق نحو : « أأنذرتهم[5] » ، فقد احتج سيبويه عليهم بما لا يرون . وكان الأعشى من بلدة « منفوحة » باليمامة ، وهى بعيدة عن الحجاز ، فكان من أهل التحقيق .

وكأن الأخفش تأثر بالكوفيين فى همزة بين بين فلم يجز ذلك فى المكسورة بعد ضم والمضمومة بعد كسر ، وذهب إلى مذهب الابدال كما سبق . وإلى ذلك ينظر قول الرضى : « إذ لو سهلت لكانت الأولى (أى فى يستهزئون) كالواو الساكنة ولا تجىء بعد الكسرة ، والثانية (أى فى سئل) كالياء الساكنة ولا تجىء بعد الضمة ، كما لا تجىء الألف بعد الضمة والكسرة [6] » . وقد عقب الرضى على هذا القياس بقوله : « وهذا الذى ذهب اليه قياسا على مؤجل ومائة وإن كان قريبا ، لكن لسيبويه أن يفرق ويقول :

---

(١) ص ٢٥٧
(٢) أنظر النشر ١ : ٣٨٣
(٣) أنظر الكتاب ٢ : ١٦٧
(٤) أنظر الكامل للمبرد ١ : ٢٠
(٥) فى الآية ٦ من سورة البقرة .
(٦) أنظر شرح الرضى على الشافية ٣ : ٤٦

المسهلة المفتوحة لم يستحل مجيئها بعد الضم والكسر ، لكن لما استحال مجيء الألف الصريحة بعدهما منع مجيء شبه الألف ايضا بعدهما . وأما الواو الساكنة فلا يستحيل مجيئها بعد الكسرة بل يستثقل ، وكذلك الياء الساكنة بعد الضمة ، فلم يمنع مجيء شبه الواو الساكنة بعد الكسرة وشبه الياء الساكنة بعد الضمة [1] » .

هذا ، والأحسن فى الاحتجاج على الكوفيين قول أبى طالب — كما أنشده فى اللسان :

أمن أجل حبل لا أباك ضربته بمنسأة قد جر حبلك أحبلا [2]

وأبو طالب قرشى من لغته تخفيف الهمزة ، فالهمزة فى : منسأة ، لو كانت فى حكم الساكنة لم يستقم وزن البيت ، والهمزة هنا صدر مفاعيلن فى الطويل .

(حـ) التسهيل عند القراء . أخذ به بعض القراء فى بعض الحروف . فقرأ به نافع وأبو جعفر فى (رأيت) إذا وقع بعد همزة الاستفهام . وكذلك سهل بعضهم فى نحو (أفأصفاكم ربكم) [3] . ونحن نقرأ لحفص عن عاصم بالتسهيل فى (أأعجمى وعربى) [4] .

* * *

٢ — والضرب الثانى من ضروب التخفيف هو : الحذف . وحذف الهمزة يسبقه نقل حركتها إلى ما قبلها لتكون دليلا عليها . ومن ثم كان شرط هذا الضرب أن يكون ما قبل الهمزة ساكنا يقبل الحركة . وهو يكون فيما يأتى :

(ا) أن تكون الهمزة بعد ساكن صحيح ، نحو : مسلة فى مسألة ، وخب فى خبء .

(ب) أن تكون الهمزة بعد واو أو ياء غير زائدتين للمد ، نحو : شى وسو فى شىء وسوء . ويدخل فى ذلك نحو : « فيرضكم » بدل : فى أرضكم ، واتبعو مركم ، بدل : واتبعوا أمركم » مما جاء فى كلمتين لا كلمة واحدة .

ونقل السيرافى — كما فى الرضى [5] — أن بعض العرب ينقل شذوذا حركة الهمزة المنفصلة (أى فى كلمتين) إلى آخر الكلمة المتحركة بحركة بنائية ، نحو : قال سحاق ،

---

(١) الموضع السابق .

(٢) أنظر لسان العرب فى مادة (نسأ) .

(٣) فى الآية ٤٠ من سورة الإسراء .

(٤) فى الآية ٤٤ من سورة السجدة .

(٥) أنظر شرح الرضى على الشافية ٣ : ٣٧

وقال سامة (بدلا من : قال اسحاق وقال أسامة) ؛ وأن بعضهم يحذف فى هذا دون نقل للحركة (أى قال سحاق وقال سامة) . وقد بينا من قبل أن قياس هذا هو التسهيل بين بين .

ويرى القراء أن النقل والحذف لا يكونان إذا كان الساكن قبل الهمزة حرف مد ، سواء أكان مزيدا للمد أم لم يكن . وإذا فلا نقل فى نحو : « فى أنفسكم [١] » ، بخلاف : « يابنى آدم [٢] » ، لأن الياء فى الأخير ليست مدا [٣] .

تعقيبات :

(ا) عدل بعض العرب عن النقل والحذف فى نحو : يسألون ، استكراها للحذف ، فآثر القلب المكانى ، ليتسنى له التخفيف بالابدال ، فقال : ياسلون ، قال الشاعر :

إذا قام قوم يا سلون مليكهم　　عطاء فدهماء الذى أنا سائله [٤]

ومن هذا : يايس ، فى : ييأس . وقد قرأ البزى فيما روى عنه ربيعة [٥] : « ولا تايسوا من روح الله [٦] » ، وكذلك : « فلما استايسوا منه خلصوا نجيا [٧] » .

(ب) الحركة المنقولة من الهمزة على الساكن قبلها تعد حركة غريبة عن الحرف ، فلا تستثقل على الواو والياء فى مثل : شى وسو . ولا ينقلب لها الحرف فى نحو : جيل مخفف : جيأل للضبع ، وتوم مخفف توأم .

(ج) ومما يتصل بالمسألة الأخيرة مسألة : الأحمر . وذلك إذا أدخلت أل المعرفة على المبدوء بالهمزة ، ونقلت حركتها على أل فتحركت اللام بها ، ثم ابتدأت بالكلمة ، فهل تبقى همزة الوصل فى النطق أو تحذف ؟ فعلى الأول تقول فى الابتداء : ألحمر خير من

---

(١) كما فى الآية ٢٣٥ من سورة البقرة .
(٢) كما فى الآية ٢٧ من سورة المائدة .
(٣) أنظر النشر لابن الجزرى ١ : ٣٩٩
(٤) أنظر شرح الرضى على الشافية ٣ : ٣٩ وأنظر أيضا الشاهد ١٥٨ فى شر شواهد الرضى على الشافية ٣٢٢
(٥) أنظر النشر لابن الجزرى ٢ : ٢٩٦
(٦) فى الآية ٨٧ من سورة يوسف .
(٧) فى الآية ٨٠ من سورة يوسف .

سواه ، وألرض مستديرة ، وعلى الثانى : لحمر ولرض . وأكثر العرب على الأول . وعلى هذا قول الرقاشى :

ألان استرحنا واستراحت ركابنا　　وأمسك من يجدى ومن كان يجتدى[1]

ومحمل ذلك عدم الاعتداد بالحركة العارضة .

ومن عدم الاعتداد بالحركة العارضة هنا أيضا بقاء حذف ما حذف لالتقاء الساكنين قبل التخفيف ، نحو (فلرض) فى (فى الأرض) و (من لرض) فى (من الأرض) . وعلى ذلك قراءة : « قاللان جئت بالحق[2] » فى : « قالوا الآن » ، وهى قراءة نافع فى إحدى الروايتين عنه[3] . وقد قال ابن جنى عن هذه القراءة : « إنها القراءة القوية[4] » . ويؤخذ من النشر أن جمهرة القراء على ذلك[5] . ولم يشذ إلا بعض ألفاظ سنذكرها فى الوجه الثانى .

أما الوجه الثانى وهو الاعتداد بالحركة العارضة — ويعبر عنه باجراء غير اللازم مجرى اللازم — فيقال عليه : فى لرض ، ومن لان . وجاء منه قول الشاعر :

وقد كنت تخفى حب سمراء حقبة　　فبح لان منها بالذى أنت بائح[6]

فأسكن الحاء التى كانت متحركة لالتقاء الساكنين فى : بح الآن ، لما تحركت اللام للتخفيف . ومنه قول الآخر :

حدبدبى حدبدبى منكم لان　　إن بنى فزارة بن ذبيان

قد طرقت ناقتهم بإنسان　　مشيأ سبحان ربى الرحمن[7]

فتراه سكن ميم (منكم) لما تحركت لام : الآن ، وقد كانت مضمومة عند التحقيق فى قولك : منكم الآن . قال ابن الجزرى فى النشر : « وعلى ذلك قرأنا لابن محيصن

---

(١) أنظر كتاب الوزراء للجهشيارى ٢٣٦

(٢) فى الآية ٧١ من سورة البقرة .

(٣) أنظر البحر المحيط لأبى حيان ١ : ٢٥٧

(٤) أنظر الخصائص ٣ : ٩١

(٥) أنظر النشر لابن الجزرى ١ : ٤٠٩

(٦) أنظر الخصائص ٣ : ٩٠

(٧) أنظر الخصائص ٣ : ٩١

(يسألونك عن لهلة) [١] و (عن لنفال)[٢] (من لاثمين) [٣] . وشبهه بالاسكان فى النون وإدغامها . وهو وجه قراءة نافع ومن معه : (عادا لولى) فى النجم [٤] .

وأشار ابن جنى فى الخصائص إلى وجه آخر ، وهو أن يكون التنوين فى (عادا) كان مكسوراً لسكون اللام بعده فى الأصل ، وإن كانت الآن متحركة ، ثم سكن للادغام . قال . ومثله ما أنشده أبو زيد :

ألا يا هنـد هنـد بنى عمير أرث لان وصلك أم جديد

أدغم تنوين (رث) فى لام (لان) [٥] . ومن ذلك قراءة نافع فى رواية ثانية : « قالوا لان [٦] » .

هذا ، والاعتداد بحركة اللام العارضة فى إبقاء همزة الوصل فى الابتداء بنحو « ألحمر » بناء على أن أداة التعريف هى اللام ، وهو رأى سيبويه . فأما على رأى الخليل : أن الأداة أل ، وأن الهمزة همزة قطع بدليل فتحها ، فانها تبقى سواء أأهمل العارض أم اعتد به . وقد ذكر ذلك الجعبرى [٧] ، وتبعه ابن الجزرى [٨] . وإذا كان الوجهان واردين فى العربية — أى الاعتداد بحركة اللام العارضة وإهمالها — فلا يسع الخليل إنكار عدم الابتداء بالهمز . فاما أن يبطل مذهبه فى أداة التعريف ، وإما أن يجعل للهمزة هنا حكم همزة الوصل فى كل شىء ، فيستوى هنا إذاً وجها الخليل وسيبويه .

ويذكرنا باب : ألحمر ، مما خففت فيه همزة القطع ، بباب الاستغفار ، مما دخلت فيه أداة التعريف على همزة الوصل لا القطع . فهل يقال فى الابتداء : ألستغفار من الذنوب واجب ، أو : لستغفار ؟ أى إذا حركت اللام بحركة التخلص من التقاء الساكنين فهل يكون الحكم كما لو تحركت بحركة النقل فى جواز الوجهين على ما سبق ، أو لهذه المسألة حكم آخر ؟

---

(١) فى الآية ١٨٩ من سورة البقرة .
(٢) فى الآية ١ من سورة الأنفال
(٣) فى الآية ١٠٩ من سورة المائدة .
(٤) فى الآية ٥٠ من سورة النجم وأنظر النشر ١ : ٤١٠
(٥) أنظر الخصائص ٣ : ٩١
(٦) أنظر البحر المحيط لأبى حيان ١ : ٢٥٧
(٧) أنظر حواشى الجاربردى على الشافية ٢٥٨
(٨) أنظر النشر فى الموضع السابق .

يؤخذ من كلام ابن يعيش على المفصل أنه لا عبرة بهذه الحركة ، وأنه يؤتى بالهمزة البتة . ومن كلامه قوله : « ومن ذلك الانطلاق ، حركوا اللام لالتقاء الساكنين ومع ذاك همزة الوصل ثابتة لم تحذف[1] » . ويقول الجاربردى : « والأظهر أن باب الاقتدار والاستغفار كذلك فى جواز ألستغفار ولستغفار[2] » . وكتب فى حواشيه : « قوله الأظهر الخ ، كذا فى شرح الشريف أيضاً . ومقابل الأظهر فى هذا الباب وجوب الحذف ، لأن حركة اللام لموجب وهو التقاء الساكنين بخلاف باب الأحمر ، فانها لمجرد التخفيف » .

فترى مما ذكر أن مسألة الانطلاق فيها ثلاثة أقوال : قول بوجوب الهمزة فى الابتداء ، وقول بوجوب حذفها ، وقول بجواز الأمرين مع ترجيح إثباتها . فأما القول بوجوب إثبات الهمزة فلأن حركة التخلص من الساكنين لم يعتد بها فى نحو لم يقم الرجل حيث لم تعد العين المحذوفة من فعل يقوم بسببها ، فكذلك لا يعتد بها هنا ، فتبقى الهمزة كما لو كانت اللام ساكنة ، وهو رأى ابن يعيش واحتجاجه . وأما القول بوجوب حذف الهمزة فلأن حركة اللام حركة واجبة فأشبهت الأصلية ، فكان معها حذف الهمزة . وقد علمت أن العرب لم تسر وراء هذا النظر ؛ إذ لو سارت إليه وقصدت قصده لأعادت ما حذف للسكون فى نحو لم يقم الرجل ، ولم يكن الذين . فأما قياسها على مسألة الحمر فله بعض الوجه ، وإن كان الأوجه عدم الاعتداد بها كما سبق .

وقد عرض القراء لهذه المسألة ، قال فى النشر : « وأما الابتداء بالاسم من قوله تعالى : (بئس الاسم) ، فقال الجعبرى : وإذا ابتدأت بالاسم فالتى بعد اللام على حذفها للكل ، والتى قبلها فقياسها جواز الإثبات والحذف ، وهو الأوجه لرجحان العارض الدائم على العارض المفارق . لكن سألت بعض شيوخى فقال : الابتداء بالهمز وعليه الرسم انتهى . قلت : الوجهان جائزان مبنيان على ما تقدم فى الكلام على لام التعريف . والأولى الهمز فى الوصل والنقل ، ولا اعتبار بعارض دائم ولا مفارق ، بل الرواية ، وهى بالأصل الأصل . وكذلك رسمت . نعم الحذف جائز[3] » .

---

(1) أنظر شرح المفصل لابن يعيش ٩ : ١١٥

(2) أنظر حواشى الجاربردى ٢٥٩

(3) أنظر النشر لابن الجزرى ١ : ٤٠٩

ويتضح من هذا أن الجعبرى يميل إلى ترجيح الحذف نظرا إلى أن حركة التقاء الساكنين دائمة . وابن الجزرى يرى رجحان الإثبات قياسا على مسألة الأحمر ، كما يرى الجاربردى ، وابن يعيش يرى أنها حركة التقاء الساكنين وهى لا يعتد بها . فأما حركة الحمر فحركة تخفيف فهى تخالف تلك . وقد يقال إن الحركتين تتساويان فى أنهما جميعا عارضتان ، فما الفرق بينهما ؟ ويفرق بينهما الجاربردى بأن حركة اللام أشبهت حركة سل ، إذ كانت اللام كالجزء من الكلمة لفظا لكونها على حرف واحد ، ومعنى لأنها غيرت مدلولها من التنكير إلى التعريف . وكأنه يرى أن مسألة : الحمر اجتذبها قياس آخر ، وبقى نظيرها وهو حركة التقاء الساكنين على حكمه . ولكن هل هذا القياس يجرى فى اللام المحركة بحركة التقاء الساكنين ؟ نعم يجرى عنده . ويدل على ذلك أنه يقول : « والأظهر أن باب الاقتدار والاستغفار وكذلك الخ » . فالجاربردى يفرق فى حكم حركة التقاء الساكنين ، وابن يعيش يسلك بهما منهجا واحدا .

بقى وجه الاعتداد بالحركة العارضة فى (سل) فلا يؤتى معها بهمزة الوصل التزاما عند غير الأخفش . فلا يقال فى الابتداء : إسل . وقد ذكر ابن الحاجب فى الجواب عن ذلك أن فى (سل) اتحاد الكلمة فى الحرف المنقول عنه والحرف المنقول اليه ، فكان الحركة فى مكانها ، بخلاف باب الأحمر ، فإن الحركة انتقلت من كلمة إلى أخرى (وهى أداة التعريف) فلم تكن فى مكانها وكانت على شرف الزوال فلم يعتد بها . وكذلك اعتد بالحركة العارضة فى (قل) لما تقدم فى (سل) . ولما كانت الحركة هنا لازمة واجبة لوجوب الإعلال وجب طرح همزة الوصل دائما [1] .

ومن فروع الاعتداد بالعارض وإجراء غير اللازم مجرى اللازم فى هذا الباب الادغام فى قوله تعالى : (لكنا هو الله ربى [2]) ، وأصله : لكن أنا ، خففت الهمزة بحذفها وإلقاء حركتها على نون لكن فصارت : لكن نا ، فأجرى الادغام [3] .

وقيل : حذف الهمزة من (أنا) على غير قياس ، فالتقت نون (لكن) وهى ساكنة ، ونون (أنا) فأدغمت فيها [3] . وقد دعا إلى هذا التخريج وأن أصلها (لكن أنا) الوقف

---

(١) أنظر شرح الشافية ٣ : ٤٢
(٢) فى الآية ٣٨ من سورة الكهف .
(٣) أنظر الخصائص ٣ : ٤١ وانظر الكشاف للزمخشرى فى تفسير الآية من سورة الكهف . وانظر أيضا البحر المحيط لأبى حيان ٦ : ١٢٨

بالألف . وأيضا فقد قرأ ابن عامر وغيره باثبات الألف وصلا ووقفا ، وخرج الوصل على لغة تميم فى إثبات ألف أنا ، قال الشاعر :

أنا شيخ العشيرة فاعرفونى حميداً قد تذريت السناما [1]

وروى عن أبى عمرو أنه وقف بالهاء لا بالألف .

قال « الزمخشرى » ونحوه قول القائل :

وترميننى بالطرف أى أنت مذنب وتقليننى لكنَّ إياك لا أقلى

أى لكن أنا إياك لا أقلى [2] . وقال أبو حيان فى ذلك : « لا يتعين ما قاله (الزمخشرى) فى البيت لجواز أن يكون التقدير : لكننى ، فحذف اسم لكن ، وذكروا أن حذفه فصيح إذا دل عليه الكلام ، وأنشدوا على ذلك قول الشاعر :

فلو كنت ضبيا عرفت قرابتى ولكن زنجى عظيم المشافر [3]

وقد قرىء : « لكننا هو الله » ، بناء على عدم الاعتداء بالعارض ، ويظهر أن وجهه هو أن الحركة كأنها لا تزال على الهمز فكأنها فاصلة بين النونين ، فلم يكن سبيل إلى الادغام [4] .

الحذف بدون نقل الحركة :

حكى سيبويه عن العرب أن منهم من يقول : هو يجيك ويسوك ، فى يجيئك ويسوءك ، ويقول فى النصب : يريد أن يجيك ويسوك ، كرهوا الضمة فى الأول لثقلها ، وأظهروا الفتحة لخفتها . ويقول هؤلاء فى الجزم : لم يج ولم يس ، بحذف حرف العلة كما لو كان آخر الفعل [5] . ويروى أن بعض العرب قال : من أراد أن يأتينا فليبج » [6] . ويقول فى الوقف : لم يج ولم يس ، بالاسكان . وإذا خففت على هذا نحو : يرمى إخوانه ، بدون إظهار الحركة على ما قبل الهمزة ، قلت : يرم خوانه ، بحذف الياء إذ تسكن مع الخاء .

(١) أنظر البحر المحيط لأبى حيان ٦ : ١٢٨

(٢) أنظر الكشاف فى تفسير آية الكهف .

(٣) أى لكنك زنجى ، وأنظر الكشاف فى الموضع السابق والبحر المحيط ٦ : ١٢٨

(٤) أنظر المحتسب لابن جنى فى الآية من سورة الكهف .

(٥) أنظر الكتاب ٢ : ١٧١

(٦) أنظر المخصص لابن سيده ١٤ : ١٥

وضابط هذا الباب أن تقع الهمزة لام كلمة وقبلها واو أو ياء ساكنتان ، أو صدر كلمة وقبلها واو أو ياء ساكنتان . وذكر الرضى من هذا الباب أيضا أن تكون قبل الهمزة ألف نحو : يشاء ، فتحذفها فتقول : هو يشا ، ولم يش ، وتقول على قياس هذا : هو يش سئلة سهلة [1] .

وظاهر كلام سيبويه أن هذا التخفيف قياسى إذ كان منسوبا إلى فريق من العرب[2].

وقد جاء من الحذف الشاذ نحو : قال سحاق ، وقال سامة ، أى قال إسحاق وقال أسامة [3] .

ومن الشاذ أيضاً حذف الهمزة إذا وقعت بعد ألف من كلمة أخرى ، نحو : محسن زيدا ، فى : ما أحسن زيدا ، ومرك يا محمد ، أى ما أمرك . فان كان بعد الهمزة متحرك بقيت الألف ، كما فى قول الشاعر :

ما شد أنفسهم وأعلمهم بما ... يحمى الذمار به الكريم المسلم

ذكر الشذوذ فى هذا صاحب المخصص [4] . وظاهر عبارة الرضى أنه قياس إذ يقول : « وقال بعضهم : تحذف الهمزة المنفصلة أى التى فى أول الكلمة إذا وقعت بعد الألف الخ [5] » .

ومما يلتحق بهذا الحذف لضرورة الشعر . ومن ذلك قول الشاعر :

نحن اللذو بعكاظ طيروا شرراً ... من روس قومك ضربا بالمصاقيل

فروس أصله : رءوس ، فحذفت الهمزة . ووزنها الآن : فول لا فعول .

ومن الحذف للضرورة أيضاً قول الراجز :

بصرية تزوجت بصريا ... يطعمها المالح والطريا

وجيد البر لها مقليا ... حتى نتت سرتها نتيا

---

(١) أنظر شرح الرضى على الشافية ٣ : ٣٦

(٢) أنظر الكتاب ٢ : ١٧١

(٣) أنظر شرح الرضى على الشافية ٣ : ٣٧

(٤) أنظر المخصص ١٤ : ١٦

(٥) أنظر شرح الرضى على الشافية ٣ : ٣٧

فقوله: نتت أصله: نتأت، فحذف الهمزة للشعر. ويقول الجواليقي: «ونتت أصله نتأت، فأبدل الهمزة ألفاً وحذفها لالتقاء الساكنين[1]». والظاهر أنه لا داعى لهذا الإبدال ثم الحذف، وأنه يقال بالحذف أولا كما قدمنا.

ومن حذف الهمزة سماعاً بلا ضابط، ما ذكرناه فى كلمة: الناس[2]. ومن ذلك أيضاً: سامة، فى: أسامة. وقد جمع الشاعر فيه بين الهمز وحذفه فى قوله:

عين بكى لسامة بن لؤى علقت من أسامة العلاقة
لا أرى مثل سامة بن لؤى حملت حتفه اليه الناقة[3]

وقيل إن سامة من سام يسوم، والأكثر على الأول.

ومن الحذف الشاذ قولهم: ويلمه، وأصله: ويل لأمه، فحذفت لام ويل وتنوينه، وحذفت همزة أم، فبقى ويلمه، فاللام لام الجر، ألا تراها مكسورة[4].

وقد يجوز أن تكون اللام المحذوفة لام الجر، كما حذف حرف الجر من قولهم: الله لا أفعل، وفى قول رؤبة: خير عافاك الله، جواباً لمن قال كيف أصبحت؟ يريد: بخير، وقول الشاعر:

رسم دار وقفت فى طلله كدت أقضى الغداة من جلله[5]

وعلى هذا — فيما يظهر — تكون اللام فى: ويلمه، مضمومة.

ولم يجعل أصل هذا: وى لأمه، لما صرح بالأصل المذكور فى قول عبد الله بن عنمة الضبى:

لأم الأرض ويل ما أجنت غداة أضر بالحسن السبيل[6]

ومن ذلك أيضاً ما حكاه ثعلب فى خبر له مع ابن الأعرابى بحضرة سعيد بن سلم عن امرأة قالت لبنات لها، وقد خلون إلى أعرابى كان يألفهن: أفى السوتنته! قال ثعلب

---

(١) انظر شرح أدب الكاتب للجواليقى ٢٩٦
(٢) انظر ص ١٨ فيما سبق.
(٣) ديروى: علقت ساق سامة العلاقة وانظر اللسان فى مادة: فوق.
(٤) انظر الخصائص ٣ : ١٥٠
(٥) الموضع السابق.
(٦) الموضع السابق.

فقال لي ابن الأعرابي : تعال إلى هنا اسمع ما تقوله . قلت : وما في هذا ؟ أرادت أفي السوءة أنتنه ، فألقت فتحة أنتن على كسر التاء فصارت بعد تخفيف همزة السوءة كما قالت [1] .

وكان قياس التخفيف في ذلك : أفي السوة ينته ، بابدال همزة أنتن ياء ، لانفتاحها بعد كسرة ، كما سيأتي في باب الابدال .

ومن الحذف الشاذ أيضاً قراءة ابن كثير : « أنها لحدى الكبر » [2] ، إذ كان ما قبل الهمزة متحركا . ومنه قول الشاعر :

تضب لثات الخيل في حجراتها　　وتسمع من تحت العجاج لها ازملا[3]

وكذلك قول الراجز :

ان لم أقاتل فالبسوني برقعاً

الحركة المنقولة :

ينبغي المحافظة على هذه الحركة ؛ إذا كانت دليلا على الهمزة المحذوفة ، كما تقدم . غير أنه قرئ : « أرنا » [4] ، بسكون الراء . وجاء ذلك — كما يرى الفارسي في الحلبيات — لعدم لزوم هذا الاسكان ، فانه يزول في قولك : أر زيداً ، والقارئ بالاسكان في الكلمة المذكورة هو ابن كثير ، كما في البحر المحيط [5] ، وفي ذلك يقول أبو حيان : « وقد أنكر بعض الناس الاسكان من أجل أن الكسرة تدل على ما حذف فيقبح حذفها . يعني أن الأصل كان : أرإ ، فنقلت حركة الهمزة إلى الراء وحذفت الهمزة ، فكان في إقرارها دلالة على المحذوف . وهذا ليس بشيء ؛ لأن هذا أصل مرفوض ، وصارت الحركة كأنها حركة الراء : وقال الفارسي : ما قاله هذا القائل ليس بشيء ؛ الا تراهم أدغموا في : لكنا هو الله ربي ، والأصل : لكن أنا ، ثم نقلوا الحركة وحذفوا ثم أدغموا . فذهاب الحركة

---

(١) الخصائص في الموضع السابق .

(٢) الخصائص ٣ : ١٥١

(٣) الخصائص ٣ : ١٥١

(٤) كما في الآية ١٢٨ من سورة البقرة .

(٥) انظر البحر المحيط لأبي حيان ١ : ٣٩٠

فى (أرنا) ليس بدون ذهابها فى الادغام . وأيضا فقد سمع الاسكان فى هذا الحرف نصاً عن العرب ، قال الشاعر :

أرنا إداوة عبد الله نملؤها ... من ماء زمزم إن القوم قدظمئوا

وأيضا فهى قراءة متواترة ؛ فإنكارها ليس بشىء [1] .

وإذا فالفارسى وأبو حيان يريان أن كسر الراء بعد حذف الهمزة كأنه حركة أصيلة فيجوز تسكينها ، كما يجوز تسكين كتف .

التخفيف بالحذف والنقل عند القراء :

اختص بهذا الضرب من القراء ورش . وهو لا يأخذ القاعدة على عمومها ، بل يخصصها بأن تكون الهمزة أول الكلمة والساكن قبلها آخر الكلمة وليس حرف مد . وتعتبر أداة التعريف كلمة فى هذا الباب ، نحو : (ومتاع لى حين) [2] و (الآخرة) [3] و (من امن) [4] . فأما إذا كان حرف مد فلا نقل ولا حذف ، نحو (فى أنفسكم) [5] و (قالوا آمنا) [6] ، وأما إذا كان الساكن والهمز فى كلمة واحدة فلا حذف ولا نقل إلا فى كلمات معروفة ، ردأ فى (ردءاً) [7] والقران فى (القرآن) [8] وسل فى (اسأل) [9] وملء فى (ملء الأرض ذهباً) [10] .

وتفصيل ذلك فى كتاب النشر لابن الجزرى [11] . وتقدم تخريج (لكنا هو الله ربى) على النقل والحذف [12] .

* * *

---

(١) الموضع السابق .
(٢) فى الآية ٣٦ من سورة البقرة .
(٣) فى الآية ٤ من سورة الضحى .
(٤) كما فى الآية ٦٢ من سورة البقرة .
(٥) كما فى الآية ٢٣٥ من سورة البقرة .
(٦) كما فى الآية ١٤ من سورة البقرة .
(٧) فى الآية ٣٤ من سورة القصص .
(٨) كما فى الآية ١٨٥ من سورة البقرة .
(٩) كما فى الآية ٨٢ من سورة يوسف .
(١٠) فى الآية ٩١ من سورة آل عمران .
(١١) انظر النشر لابن الجزرى ١ : ٤٠٣
(١٢) انظر ص ٢٠ فيما سبق .

٣ — والضرب الثالث من ضروب التخفيف : الابدال . وقاعدة هذا الضرب من التخفيف أن تبدل من الهمزة حرف حركة ما قبلها ، أى واوا إذا كان ما قبلها مضموما ، وألفا إذا كان مفتوحا ، وياء إذا كان مكسوراً . وذلك كله إذا لم يكن ما قبلها حرف علة ، أو تبدل من الهمزة مثل الحرف الذى قبلها إذا كان حرف علة .

ومواضع الابدال ما يأتى :

(١) أن تكون الهمزة ساكنة ، فتبدل من جنس حركة ما قبلها فى المتصل والمنفصل ، نحو : بئر ، وسؤل ، وكأس ، ونحو : قال ائنا ، نزيد قال أئتنا ، و « الذى ائتمن [١] » فى : الذى أئتمن ، و « قال وتنا [٢] » أى : قالوا أئتنا . وسواء أكان السكون أصليا نحو : بئر ، أم كان عارضا للبناء أو الجزم ، نحو : أنبئ ، وإن يشأ . ولا يعتد أبو عمرو بسكون البناء أو الجزم ، فهو يحقق الهمزة فى نحو : « نبئ عبادى [٣] » ، و « يهيئ لكم من أمركم مرفقا [٤] » .

وسكون الوقف مجوز للابدال أيضا . قال سيبويه : « فأما الذين لا يحققون الهمزة من أهل الحجاز فقولهم : هذا الحبا فى كل حال ، لأنها همزة ساكنة قبلها فتحة . فإنما هى كألف (رأس) إذا خففت . ولا تشم لأنها ألف كألف مثنى . ولو كان ما قبلها مضموما لزمها الواو ، نحو : أكمو (أى جمع كمأة) . ولو كان مكسورا لزمت الياء نحو : أهنى ، وتقديرها : أهنع . فانما هذا بمنزلة جونة وذيب . ولا إشمام فى هذ الواو لأنها كواو يغزو [٥] » . والحبا فى كلام سيبويه معناه جليس الملك ، وجمعه : أحباء . وأهنئ أى أعطى ، يقال : هنأه يهنؤه ويهنئه ، وفى المثل : إنما ستميت هانئا لتهنئ ، ويروى : لتهنأ ، أى لتعطى ، يضرب لمن عرف بالاحسان [٦] . ومعناه : اجر على عادتك ولا تقطعها . ويقال أيضا : هنأ الإبل يهنؤها ويهنئها ، أى طلاها بالهناء ، وهو ضرب من القطران .

---

(١) فى الآية ٢٨٣ من سورة البقرة .
(٢) فى الآية ٢٩ من سورة العنكبوت .
(٣) فى الآية ٤٩ من سورة الحجر .
(٤) فى الآية ١٦ من سورة الكهف .
(٥) انظر الكتاب ٢ : ٢٨٦
(٦) انظر اللسان فى مادة (هنأ) .

(ب) أن تكون الهمزة مفتوحة بعد كسرة ، نحو : مية فى : مئة ، قال :

ليت الحمام ليه إلى حمامتيه ونصفه قديه تم الحمام ميه .

ومنه قراءة أبي جعفر : « رياء الناس[1] » و « خاسيا[2] » ، و « ناشية[3] » ، و « شانيك[4] » ، و « استهزى[5] » ، و « مليت[6] » ، و « مئة[7] » ، و « فئة[8] » وتثنيتهما ، وفى غير ذلك .

(ج) أن تكون مفتوحة بعد ضم ، نحو : مؤذن ، تقول : مؤذن ، وفؤاد ، تقول : فواد .

ويجرى ورش على هذا إذا كانت الهمزة فاء الكلمة ، نحو : ، « يوده » ، فى : « يؤده[9] » ، ويواخذه فى : « يؤاخذ[10] » ، ويولف فى : « يؤلف[11] » . ويروى عنه أيضا الابدال فى : الفؤاد وفؤاد ، مما الهمزة فيه عين . فأما اللام فقد اختص بابدالها حفص فى : « هزواً » أنى وقعت فى القرآن . وكذلك أبدل حفص فى « كفوا » فى سورة الإخلاص .

(د) أن تكون مضمومة بعد كسر عند الأخفش ، فتبدل ياء ، نحو : يستهزيون فى « يستهزئون » . وقد تقدم كلام فى هذا فى مواضع بين بين[12] .

(هـ) أن تكون مكسورة بعد ضم عند الأخفش أيضا ، على ما تقدم[13] .

(و) أن تكون الهمزة بعد واو أو ياء مدتين ، أى مزيدتين لمحض المد والاشباع

---

(١) فى الآية ٢٦٤ من سورة البقرة .
(٢) فى الآية ٤ من سورة الملك .
(٣) فى الآية ٦ من سورة المزمل .
(٤) فى الآية ٣ من سورة الكوثر .
(٥) فى الآيات ١٠ من الأنعام و ٣٢ من الرعد و ٤١ من الأنبياء .
(٦) فى الآية ٨ من سورة الجنى .
(٧) كما فى الآية ٢٥٩ من سورة البقرة .
(٨) كما فى الآية ١٣ من آل عمران .
(٩) فى الآية ٧٥ من آل عمران .
(١٠) كما فى الآية ٦١ من سورة النحل .
(١١) فى الآية ٤٣ من سورة النور .
(١٢) انظر ص فيما سبق .
(١٣) انظر ص فيما سبق .

وإطالة النفس ، نحو : قروء ، وخطيئة ، ونسيء ، فتبدل من مثل ما قبلها ويجرى الادغام ، فتقول : قرو ، وخطية ، ونسى .

(ز) أن تكون الهمزة بعد ياء التصغير ، نحو : أفيس فى : أفيئس تصغير : أفؤس جمع فأس ، ونحو : خطى تصغير : خطء أو خطأ . والسبب فى هذا أن ياء التصغير تجرى مجرى المدة فى لزوم السكون وعدم قبول الحركة ، فلم يكن سبيل إلى تخفيف الهمزة معها غير الإبدال .

(ح) أن تكون الهمزة بعد واو أو ياء أصليتين ساكنتين ، نحو : سوء وشىء ، تقول : سو وشى . وهذا من إجراء الأصلى مجرى الزائد . وروى عن أبى جعفر فى إحدى الروايتين : كهية فى « كهيئة الطير [1] » فى سورتى آل عمران والمائدة . والتخفيف فى هذا الضرب لغة لبعض العرب حكاها سيبويه [2] . والظاهر أنه سماعى . وأما القياس فالحذف والنقل كما تقدم [3] .

(ط) أن تكون الهمزة مفتوحة فى أول كلمة وقبلها واو أو ياء ساكنتان ، نحو : فى أنفسكم ، تقول : فى نفسكم ، ونحو : يدعو أباه ، تقول : يدعوباه . وقال الشاعر :

هل انت محيى الربع أونت سائله

وهذا بإجراء المنفصل مجرى المتصل ، وخص بحالة الفتح لخفتها . وظاهر كلام سيبويه أن هذا الضرب قياسى [4] .

تعقيب :

الحرف المبدل حرف عارض . ومن أثر ذلك أنه لا يجرى الإدغام فى نحو : الرويا ، تخفيف : « الرؤيا [5] » ، وفى نحو : رييا ، تخفيف : « رئيا [6] » .

وقد يجرى مجرى الأصلى فيجرى الادغام . وقرىء بالوجهين فى هذين الحرفين :

---

(١) انظر النشر لابن الجزرى ١ : ٣٩٩

(٢) انظر الكتاب ٢ : ١٧٠

(٣) انظر ص فيما سبق .

(٤) انظر الكتاب ٢ : ١٧٠

(٥) كما فى الآية ٤٣ من سورة يوسف .

(٦) فى الآية ٧٤ من سورة مريم .

ففي رئيا روى عن السوسي إبدال الهمزة ياء ، فيجمع بين الياءين من غير إدغام [1] . وقرأه أبو جعفر: ريا ، بإبدال الهمزة واواً ثم قلب الواو ياء وإدغامها في الياء التي بعدها [2] وفي الوقت أجيز الوجهان : الرويا ، بالابدال دون إدغام ، والريا بالادغام [3] . وقد أبان الداني عن هذا بقوله : واختلف أصحابنا في إدغام الحرف المبدل من الهمزة وفي إظهاره في قوله (ورئيا) ، و (تؤوى) [4] ، و (تؤويه) [5] ، فمنهم من يدغم الثاني للخط ، ومنهم من يظهر لكون البدل عارضاً . والوجهان جائزان [6] » . وإنما كان في الإدغام اتباع للخط لأن الهمزة لا صورة لها في هذه الألفاظ في الرسم العثماني .

وكان قياس ما تقدم أن يجرى الوجهان في نحو : مخبوء وخطيئة ، فيقال : مخبوو ، ومخبو ، وخطييه ، وخطية وقد عرض لذلك الرضى فقال : « فان قيل : إذا كان المد الجائز انقلابه عن الهمزة حكمه حكم الهمزة فلم وجب الادغام في : برية ومقروة بعد القلب ، وهلا كان مثل : رييا غير مدغم مع أن تخفيف الهمزة في الموضعين غير لازم ؟ قلت : الفرق بينهما أن قلب الهمزة في برية ومقروة لقصد الادغام فقط حتى تخف الكلمة بالادغام ، ولا مقتضى له غير قصد الادغام . فلو قلبت بلا إدغام لكان نقضاً للغرض . وليس قلب همزة رئيا كذلك لأن مقتضيه كسر ما قبلها كما في بئر ، إلا أنه اتفق هناك كون ياء بعدها [7] » .

ومن آثار الحكم بعروض البدل من الهمزة أن الهاء المضمومة في نحو : أنبيهم مخفف أنبئهم ، يجوز كسرها اعتداداً بالعارض ، والوجهان عند القراء . قال الداني : « واختلف أهل الأداء أيضاً في تدبير حركة الهاء مع إبدال الهمزة ياء قبلها في قوله (أنبئهم) و(نبئهم) فكان بعضهم يرى كسرها من أجل الياء ، وكان آخرون يقرونها على ضمها لأن الياء عارضة ، وهما صحيحان [8] » .

---

(١) انظر النشر ١ : ٣٨٧
(٢) انظر النشر ١ : ٣٨٩
(٣) انظر النشر ١ : ٤٩٣ .
(٤) في الآية ٥١ من الأحزاب .
(٥) في الآية ١٣ من سورة المعارج .
(٦) انظر كتاب التيسير للداني ٣٩
(٧) انظر شرح الرضى على الشافية ٣ : ٤٧
(٨) انظر التيسير للداني ٣٩

الإبدال الشاذ :

والابدال الشاذ أنواع :

(١) ما ينقاس في الشعر وحقه غير الابدال . وقد قال فيه سيبويه : « وقد يجوز في ذا كله البدل حتى يكون قياسا متلئبا (أي لازما) إذا اضطر الشاعر ، قال الفرزدق :

راحت بمسلمة البغال عشية   فارعى فزارة لا هناك المرتع

وقال القرشي زيد بن عمرو بن نفيل :

سالتاني الطلاق إذرأتاني   قلّ مالي قد جئتماني بنكر

فهؤلاء ليس من لغتهم سِلت ولا يسال . وبلغنا أن سِلت تسال لغة [١] » .

ويتضح من كلام سيبويه أن العبرة في هذا الابدال للشعر بأن تكون الهمزة متحركة مطلقاً ، فتبدل بعد الضمة واوا ، وبعد الكسرة ياء وبعد الفتحة ألفا ، أياً كانت حركتها هي. ويدل على ذلك أنه فسر البدل قبيل ذلك بقوله : « واعلم أن الهمزة [التي يحقق أمثالها أهل التحقيق من بني تميم وأهل الحجاز [٢] وتجعل في لغة أهل التخفيف بين بين تبدل مكانها الألف إذا كان ما قبلها مفتوحا ، والياء إذا كان ما قبلها مكسوراً ، والواو إذا كان ما قبلها مضموما » .

وذا يقول الشاعر في سئم مثلا : سام ، وفي لؤم : لام .

ولكن ابن يعيش — ويوافقه الرضي [٣] — يقيد ذلك بأن تكون حركة الهمزة موافقة لحركة ما قبلها ، يقول ابن يعيش : « فيبدلون من المفتوحة المفتوح ما قبلها ألفا فيقولون في سأل : سال ، وفي قرأ : قرا ، وفي منسأة : منساة ، ومن المضمومة المضموم ما قبلها واوا ، ومن المكسورة المكسور ما قبلها ياء [٤] » .

---

(١) انظر الكتاب ٢ : ١٧٠ ، هذا وقد خلت على هذه اللغة التي يذكرها سيبويه قراءة : « سال سائل بعذاب واقع » ، فهذه القراءة نفسها دليل على أن سال يسال لغة وليست من ضرورة الشعر ، بل لقد زعم الزمخشري أنها لغة قريش ، ولكن رد ذلك عليه أبو حيان ؛ ولم يأخذ سيبويه بهذه اللغة في الشعر لأنها ليست لغة الشاعرين ، وأنظر البحر المحيط ٨ : ٣٣٢

(٢) أي بعضهم وهم قليل منهم كما سبق في ص ١٠

(٣) انظر شرح الرضي على الشافية ٣ : ٤٧

(٤) انظر شرح المفصل ٩ : ١١٢

والحق مع إطلاق سيبويه ، فقد جاء (ترجى) فى قوله تعالى : « ترجى من تشاء »[1] قرىء بالهمز وغير الهمز ، ويقول الزجاج : « أرى ترجى مخففا من ترجىء لمكان تؤوى[2] » ، أى فذلك شبيه بالازدواج بين ترجى وتؤوى فى الآية . وهذا ليس ببعيد مما نحن فيه ، إذ الازدواج يحمل على ما يحمل عليه الشعر ، كما فى قوله صلى الله عليه وسلم: أرجعن مأزورات غير مأجورات ، ومثل الفدايا والعشايا ، وهو باب معروف فى العربية[3] . وإذا ففى الآية إبدال الهمزة المضمومة ياء لكسر ما قبلها ، وهو يتفق مع إطلاق سيبويه . وقال جبار بن جزء أخى الشماخ :

رب ابن عم لسليمى مشمعل　　　يحبه القوم وتشناه الابل

وإنما هو تشنؤه . .

وقد استشهد سيبويه فى ذلك أيضا بقول عبد الرحمن بن حسان :

وكنت أذل من وتد بقاع　　　يشجج رأسه بالفهر واجى

يريد : واجىء . وانتقد هذا عليه بأن الهمزة ساكنة للوقف ؛ فتخفيفها بالإبدال قياسى . وقد أجاب عنه الزمخشرى فى مناهيه[4] على المفصل فقال : « لا يقال : وقف على الهمزة فى واجىء ثم قلبها ياء لكسرة ما قبلها ، لأنه لو وقف لوقف على الجيم الذى هو حرف الروى[5] » . يريد الزمخشرى ان الياء فى (واجى) لو كانت مخففة من الهمزة لكانت هى الروى ، إذ الهمزة المخففة تخفيفا قياسيا فى حكم المحققة ، فكانت الياء رويا ، وروى القصيدة الجيم بدليل ما قبله :

فأما قولك الخلفاء منا　　　فهم منعوا وريدك من وداج
ولولاهم لكنت كحوت بحر　　　هوى فى مظلم الغمرات داجى[6]

---

(١) فى الآية ٥١ من سورة الأحزاب وأنظر البحر المحيط فى الآية .
(٢) انظر لسان العرب فى مادة (رجأ) .
(٣) انظر النوع الثامن والعشرين (معرفة الاتباع) فى المزهر للسيوطى ١ : ٤١٤
(٤) هى جمع مولد لكلمة : منه ، والمراد تعليقات الزمخشرى على المفصل التى يختم كل تعليق منها بقوله . انتهى منه (أى من المؤلف) فجمعت وسميت : مناهى الزمخشرى على المفصل .
(٥) انظر شرح شواهد الشافية للبغدادى ٣٤٢
(٦) انظر شرح الرضى على الشافية ٣ : ٤٩

فالروى إذاً هو الجيم ، ويجب أن تكون الياء فى (واجى) ياء محضة أبدلت من الهمزة إبدالا غير قياسى ، ولا يكون فيها شائبة التخفيف .

(ب) ألفاظ ورد فيها الابدال وحقها الحذف أو بين بين . ومن ذلك : الكماة فى : الكمأة ، والمراة فى : المرأة ، والقياس : الكمة ، والمرة . وقد جاء : المرة ، على القياس فى قول دعبل :

فاحفظ عشيرتك الأدنين إن لهم   حقا يفرق بين الزوج والمرة[1]

وطريق الابدال فى هذا — على شذوذه — أن تنقل حركة الهمزة إلى ما قبلها ، فتسكن ، فيأتى الابدال . وبعضهم يقدر توهم حركة الهمزة على ما قبلها يداعى المجاورة ، فيبدل ألفا ، ثم يجلب حركة لمناسبة الألف . وكان فى ذلك شذوذ لأن إبدال الهمزة لم يكن ليصار اليه بعد نقل الحركة ، بل كان القياس حذفها مبالغة فى التخفيف واكتفاء بدليلها على الوجه الأول . والتوهم لا يبنى عليه قياس ، على الوجه الثانى .

والكوفيون يقيسون هذا الابدال . فيجيزون : يسالون ، ويجارون (فى يجأرون) والنشاة (فى النشأة) قال ابن الجزرى : « ولم يوافق على ذلك أحد من القراء إلا أبو العلاء الهمذانى ، فذكره وجها آخر ، وقد ذكره كثير منهم فى (النشاة) فقط ، من أجل أنها كتبت بالألف[2] » .

ومما جاء فيه أيضا الابدال وحقه بين بين : المنساة فى : المنسأة . والمنسأة هى العصا الغليظة التى تكون مع الراعى من نسأت البعير إذا زجرته ليزداد سيره . وفى تفسير أبى حيان أنها سميت بذلك لأنها ينسأ بها أى يؤخر ويطرد . قرأ نافع وأبو عمر : « منساته[3] » على الابدال . وقرأ باقى السبعة بالهمزة مفتوحة .

ومما ورد على الإبدال فى الشعر قول الشاعر :

إذا دببت على المنساة من هرم   فقد تباعد عنك اللهو والغزل[4]

---

(١) انظر شرح الكامل للمرصفى ٢ : ٢٤٩ .
(٢) انظر كتاب النشر ١ : ٤٣٥
(٣) فى الآية ١٤ من سورة سبأ .
(٤) انظر اللسان فى مادة (نسأ) .

فهذا إن كان من أهل التحقيق كان الابدال لضرورة الشعر ، وإن كان من أهل التخفيف لم يكن للضرورة ، بل جرى على لغته .

ومن هذا أيضا : ذوائب ، وأصلها : ذآئب ، إذ كان واحدة : ذؤابة . عمد العرب إلى الابدال فرارا من اجتماع شبه ثلاث همزات أو ألفات ، وكان الابدال إلى الواو نظرا — فيما يظهر — إلى تخفيف المفرد : ذؤابة ؛ إذ كان تخفيفه بالواو ، فتحصل المشاكلة بين المفرد والجمع .

(ج) ألفاظ ورد فيها البدل على غير وجهه . من ذلك نحو : قريت في : قرأت . والوجه في إبدالها أن يقال : قرآت بالألف . وقد سمع هذا التخفيف أبو زيد فقال : سمعت العرب تقول : قريت وتوضيت ، وجعل أبو زيد ذلك قياسا ، وكذلك الكوفيون . وظاهر عبارة المصباح في الخاتمة أن هؤلاء يرون قلب الهمزة ياء ، وكأن ذلك لأن الياء أقرب إلى الألف من الواو ، ولأن اللام ياء أكثر منها واوا . ولكن السيرافي — وتبعه الرضي — يرى أنهم يبدلون على غير منهج واحد ، قال : « وقد أجاز الابدال الكوفيون وغيرهم من البصريين نحو أبي زيد على وجوه مختلفة ، فمنه ما يبدلونه واوا ، ومنه ما يبدلونه ياء ، على غير قياس محصل ، يقولون في مصدر : رفأت الثوب : رفو ، وفي خبء : خبو ، كما قالوا في رفأت : رفوت ، وفي نشأت : نشوت ، وفي خبأت : خبيت ، وفي قرأت : قريت [1] » . والذي في شرح السيرافي على سيبويه : خبي ، ولكن الرضي — كما رأيت — نسب إليه : خبو ، كما نسب إليه : نشوت ، والذي نسبه إليه صاحب المصباح : نشيت . ونشا ينشو بمعنى نشأ ينشأ ، حكاها قطرب كما في اللسان في المادة . وقوله عن أبي زيد والكوفيين إنهم يقولون في رفأت : رفوت ، فالذي في نوادر أبي زيد : « رفأت الثوب أرفؤه رفئا ، وقال بعضهم : رفيت الثوب أرفيه رفيا على التحويل ، وهو قول بني كعب بن عبد الله بن أبي بكر [2] » .

ولم يرض سيبويه قول أبي زيد وقياسه لهذا الضرب : ويقول السيرافي في ذلك : « وهذا عند سيبويه رديء كله ، وليس له أصل يطرد عليه » .

---

(١) انظر شرح الرضي على الشافية ٣ : ٤٠

(٢) انظر كتاب النوادر لأبي زيد ١٩٣

وظاهر كلامهم أن التخفيف لمهموز اللام ، سواء أسند إلى الضمير أم لم يسند ، فيقول أصحاب هذا المذهب : قرا محمد الكتاب ، وبدا على القراءة ، كما هى لغة العامة . وقد سأل سيبويه أبا زيد معترضا على مذهبه : سيبويه : كيف تقول فى المضارع من قرأ مخففا ؟

أبو زيد : أقول : أقرا بالألف .

سيبويه : القياس : أقرى مثل أرمى ، فقد تركت مذهبك [1] .

يريد سيبويه أنه لو كان هذا الإبدال قويا ،ومنهجا سويا لعومل الحرف معاملة المختوم بالألف ، فلا يكون منه فعل يفعل بفتح العين فيهما . وفى شرح شواهد الشافية للبغدادى : « وإنما أنكر سيبويه هذا لأنه إنما يجىء فعلت أفعل (بفتح العين فيهما) إذا كان لام الفعل أو عينه من حروف الحلق ، ولا يكاد يكون هذا فى الألف ، إلا أنهم قد حكوا : أبى يأبى ، فجاء على فعل يفعل [2] » .

ولا يقال إن الذى جوز ذلك أن الألف فى حكم الهمزة إذ كانت مخففة عنها ، أى فهى فى حكم حروف الحلق ؛ وذلك أن هذا التخفيف على غير ما نهجت العرب فى أمثاله ، فهو إبدال محض لا تخفيف ، فتمت حجة سيبويه على أبى زيد . وبذلك يبطل تعقيب صاحب المصباح على سيبويه ، إذ يقول : « وجوابه — مع التعويل على السماع — أنهم إن التزموا الحذف جُرى على القياس ، مثل : قريت الماء فى الحوض أقربه ، وإلا أبقوا الفتحة فى المضارع تنبيها على انتظار الهمزة ، فلو قيل : أقرى ، زالت الحركة التى تنتظر مع الهمزة ، فلهذا حافظوا عليها » [3] . وإنما تجعل الحركة دليلا على الهمزة فى حالة التخفيف بالحذف كما تقدم .

وليس من الابدال الشاذ قول الرسول عليه الصلاة والسلام حين ضرب فى الخندق :

بسم الله وبه بدينا ، ولو عبدنا غيره شقينا ، حبذا ربا وحبذا دينا [4] .

---

(١) انظر المصباح المنير فى الخاتمة .

(٢) انظر شرح شواهد الشافية للبغدادى ١١

(٣) انظر المصباح المنير فى الخاتمة .

(٤) انظر الروض الأنف للسهيلى ٢ : ١٨٩

فقد أبدل الهمزة ياء لكسر ما قبلها ، والكسر فى هذا الفعل لغة أنصارية : بدىء كما فى اللسان[1] ، فهو إبدال قياسى .

(د) ومن الابدال الشاذ لكونه على غير وجهه ، ولكونه فى غير مكانه ، الابدال فى نحو : الأحمر ، وفى : جزء . ففى الأول حكى الكسائى والفراء أن من العرب من يقلب الهمزة لاما فى مثل هذا ، فيقول : ألحمر ، والرض ، وهكذا فى بقية الباب . حكى ذلك السيرافى وقال : « فان كانت هذه الرواية صحيحة فالقائلون بها إنما قلبوها ولم يلقوا حركتها على اللام لأنه ليس من شأن هذه اللام أن تتحرك فقلبوها من جنس اللام على جهة المجاورة للتكثير ، كما يقولون : لو ، إذا جعلوها اسما فيزيدون واوا من جنس الواو التى فى : لو » .

وظاهر هذا أن يكون قياسا ، إذ نسب إلى قوم من العرب . والظن أن الفراء والكسائى سمعا بعض العرب ينطق بذلك على غير ماينطق الناس ، فظنا أن قبيلا ينطق بهذا فحكيا ما تقدم ، فلذلك أدرج هذا فى قسم الشاذ .

وفى : جزء ، قرأ أبو جعفر والزهرى[2] : « ثم اجعل على كل جبل منهن جزاً[3] » ، و « جزٌ مقسوم[4] » ، و « من عباده جزاً »[5] . وحمل أبو حيان ذلك على غير الابدال ، فهو يقدر أنه حذفت الهمزة ثم ضعفت الزاى ، كما يقال فى الوقف : هذا فرج ، بالتشديد[6] . والشذوذ فى هذا ظاهر .

إبدال لا تجيزه العربية :

يقول العامة : تايب ، وبايع ، وقايل ، وصايم ، ونحو ذلك ، فيبدلون من الهمزة فى اسم الفاعل من الأجوف ياء ، سواء أكانت عينه واوا أم ياء . وقد يرد عنهم الوجهان : الواو والياء فى اسم الفاعل من الواوى ، يقولون : عاوز وعايز ، من عاز يعوز . وقد عرض لذلك ابن الجزرى فى بحث نفيس نسوقه هنا ، قال : « فاما إبدال الهمزة ياء فى نحو : خائفين ، وجائر ، وأولئك ، وواوا فى نحو : أبناؤكم ، وأحباؤد ، فانى تتبعته من كتب

---

(١) انظر لسان العرب فى مادة (بدأ) .
(٢) انظر النشر لابن الجزرى ١ : ١٩٩
(٣) فى الآية ٢٦٠ من سورة البقرة .
(٤) فى الآية ٤٤ من سورة الحجر .
(٥) فى الآية ١٥ من سورة الزخرف
(٦) انظر البحر المحيط لأبى حيان ٢ : ٣٠٠

القراءات ونصوص الأئمة ومن يعتبر قولهم فلم أر أحداً ذكره ولا نص عليه ولا صرح به ولا أفهمه كلامه ولا دلت عليه إشارة سوى أبي بكر بن مهران ، فانه ذكر فى كتابه فى وقف حمزة وجها فى نحو : تائبات بابدال الياء ، وفى نحو : رءوف بابدال الواو ، ورأيت أبا على الأهوازى فى كتاب : الايضاح ، حكى هذا عن شيخه أبي إسحاق ابراهيم ابن أحمد الطبرى ، وقال : ولم أر أحداً ذكره ولا حكاه من جميع من لقيت غيره . قلت : ثم إنى راجعت كتاب الطبرى — وهو : الاستبصار — فلم أره حكى فى جميع ذلك سوى بين بين لاغير . والقصد أن إبدال الياء والواو محضتين فى ذلك مما لم تجزه العربية ، بل نص أئمتها على أنه من اللحن الذى لم يأت فى لغة العرب ، وإن تكلمت به النبط . وإنما الجائز من ذلك هو بين بين لا غير [١] » .

وقال الأشمونى فى مبحث إبدال الهمزة : « وأما إبدال الهمزة فى ذلك (يريد نحو : قائل) ياء محضة فنصوا على أنه لحن . وكذلك تصحيح الياء فى نحو : بائع ، . ولو جاز تصحيح الياء فى : بائع لجاز تصحيح الواو فى : قائل .

ومن ثم امتنع نقط الياء ، من قائل وبائع [. قال المطرزى : نقط الياء من قائل وبائع عامى ، قال ومر فى بعض تصانيف أبى الفتح بن جنى أن أبا على الفارسى دخل على واحد من المتسمين بالعلم ، فإذا بين يديه جزء مكتوب فيه : قائل بنقطتين من تحت ، فقال أبو على لذلك الشيخ : هذا خط من ؟ فقال : خطى ، فالتفت إلى صاحبه وقال : قد أضعنا خطواتنا فى زيارة مثله ، وخرج من ساعته [٢] » .

اجتماع همزتين :

وهذا الباب ليس من التخفيف المقصور على أهل التخفيف من العرب . وإنما هو من قبيل الاعلال الصرفى الواجب عند النحاة فى معظمه ، والجارى على ألسنة العرب جميعا فى الجملة . وإنما نذكر أحكامه هنا تتميما للكلام ، ولما فى بعض أحكامه من الخلاف كما سترى :

إذا اجتمع همزتان ازداد الثقل واشتدت داعية التخفيف . ومن ثم يجرى التخفيف

(١) انظر النشر لابن الجزرى ١ : ٤٥٤

(٢) انظر الأشمونى فى مبحث ابدال الهمزة (٤ : ٢١٦ بحاشية الصبان) .

فى ذلك حتى عند أهل التحقيق . ويقول سيبويه : « فليس من كلام العرب أن تلتقى همزتان فتحققا [1] » . ولا يبيح سيبويه وأكثر النحاة أن يقرأ بالتحقيق (أئمة) و (أأنذرتهم) ويرون ذلك لحنا لا يقر القارىء عليه ؛ ويحملون على الشذوذ ما حكاه أبو زيد : غفر الله له خطائئه ، ودرائىء فى جمع : دريئة [2] ، ولفائىء فى جميع : لفيئة [3] ، وما أنشدوا :

فإنك لا تدرى متى الموت جائىء إليك ولا ما يحدث الله فى غد [4]

ويرى قوم صواب القراءة بالتحقيق ، وهى قراءة الكوفيين : عاصم وحمزة والكسائى ، ووافقهم ابن عامر الشامى . وكذلك يرى قوم فى نحو : أئمة ، تسهيل الثانية بتقريبها من الياء ، كما يرى قوم زيادة ألف بين الهمزتين . ورد هذا فى القراءة كما ورد أيمة بالياء الصريحة [5] ، وهو القياس كما يلتزمه البصريون ، وان انكر الزمخشرى الوجه الأخير فقال فى سورة التوبة : « وأما التصريح بالياء فليس بقراءة ولا يجوز أن تكون . ومن صرح به فهو لاحن محرف [6] » . وقد رد عليه صاحب النشر فقال : « وهذا مبالغة منه ، والصحيح ثبوت كل وجه من الوجوه الثلاثة ، أعنى : التحقيق ، وبين بين ، والياء المحضة ، عن العرب ، وصحته فى الرواية [7] » . كما رد عليه أبو حيان فقال : « وذلك دأبه (يعنى الزمخشرى) فى تلحين المقرئين ، وكيف يكون ذلك لحنا وقد قرأ به رأس البصريين النحاة أبو عمرو بن العلاء ، وقارىء مكة ابن كثير ، وقارىء مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم نافع [8] » .

نحو آئب :

هذا ، وليس من اجتماع الهمزتين نحو : آئب ، وآئل ، ورئاء الناس ، مما يفصل بينهما الألف . فالهمزتان هنا تحققان وتخففان كما لو كانت كل منهما مفردة . فالهمزة الثانية

---

(١) انظر الكتاب ٢ : ١٦٧
(٢) هى حلقة يتعلم الرمى عليها ، وما يستتر به من الصيد ليختل .
(٣) هى قطعة لحم لا عظم فيها .
(٤) انظر الخصائص ٣ : ١٤٣
(٥) انظر البحر المحيط لأبى حيان ٥ : ١٥
(٦) انظر الكشاف ١ : ٥٤٦
(٧) انظر النشر لابن الجزرى ١ : ٣٧٤
(٨) انظر البحر المحيط ٥ : ١٥

فى : آئب وشبهه تكون بين بين عند إرادة التخفيف ، وفى : رئاء تبدل الأولى ياء ، والثانية بين بين .

وقد جاء فى جمع ذؤابة : ذوائب ، بقلب الأولى واوا لكونه أقصى الجموع وهو مظنة التخفيف ، ولكون واحده تقلب همزته واوا على سبيل التخفيف القياسى . ومحمل هذا الشذوذ ، ونقل الرضى أن الأخفش يرى الابدال فى مثله قياسا ، لاجتماع الهمزتين والفاصل ضعيف . قال : وليس بوجه ، لأن القياس مع اجتماع الهمزتين تخفيف الثانية لا الأولى .

وكأن صاحب المطالع النصرية رأى الإبدال فى : ذوائب ، قياسا ، فطرد القياس إذ يقول : « نعم إذا كان قبلها ألف مسبوقة بالهمزة ، نحو : آيل وآيس وآيب ، تبدل ياء حقيقة بمقتضى القياس الصرفى . نظيره ما قالوه فى جمع ذؤابة على ذوائب ، حيث لم يجمعوه على أصله : ذآئب . وقد ورد من حديث الصحيحين قوله صلى الله عليه وسلم : (آيبون تائبون عابدون) ولم يروه أحد بالهمز [1] » . وتعقبه صاحب الجاسوس على القاموس بأن الصرف يقضى بالتزام الهمز بلا استثناء [2] . وعد صاحب المطالع آيسا من هذا الباب ليس على ما ينبغى ، فان الياء تصح فيه اصحتها فى فعله : أيس ، وبه استدل على القلب من : يئس ، كما هو معروف ، فليس فيه همزتان . وفى المخصص : « قال ابن جنى : وينبغى أن يكون قوله :

وما أنا من سيب الإله بآيس

فيمن رواه هكذا ، غير مهموز العين وأن بعد ألف فاعل ياء صحيحة . وذلك أنهما لما صحت فى : أيس ، صحت فى : آيس ، كما أنها لما صحت فى : عور وصيد ، صحت فى : عاور وصايد . قال ابن سيده : إنما قال : فيمن رواه هكذا لأن الرواية المعروفة : يائس [3] » .

---

(١) انظر المطالع النصرية لنصر الهورينى فى مبحث : الهمزة فى الحشو .
(٢) الجاسوس على القاموس لأحمد فارس الشدياق ٨٣
(٣) انظر المخصص لابن سيده ٣ : ١٧٠

التخفيف بالحذف فى اجتماع الهمزتين :

جاء التخفيف بالحذف فى مضارع : أفعل الرباعى المبدوء بهمزة المتكلم ، نحو : أكرم وقياسه كما يأتى : أؤكرم . وهاك تفصيل القول فى التخفيف عند اجتماع الهمزتين :

أحوال التخفيف عند اجتماع الهمزتين :

الهمزتان المجتمعتان تكونان فى كلمة أو كلمتين :

الهمزتان فى كلمة :

قد يجب التحقيق فيهما جميعا ، وذلك إذا سكنت الأولى وتحركت الثانية فى صيغة موضوعة على التضعيف كسآل ، ورآس . ولا يكون ذلك إلا إذا اتصلت الأولى بالفاء من الكلمة . وذلك أن الهمزة ثقيلة ، ولا سيما إذا ضعفت ، فإذا وليت الأولى أول الكلمة خفت ، وأما فى غير ذلك فلا يجوز . فلا يبنى من قرأ نحو : قمد ولا فلز .

ويجوز اجتماع الهمزتين فى صيغة غير موضوعة على التضعيف ؛ وحينئذ فلا تحقيق ، وعند ذلك تقلب الثانية ياء ولا تدغم ، نحو قراى على وزن سبطر من : قرأ . وحاصل ماذكرناه من وجوب تحقيق الهمزتين أن تكونا جميعا فى موضع العين .

ويجرى التخفيف فيما وراء ذلك :

(١) فتبدل الهمزة الثانية من جنس حركة ماقبلها إذا سكنت بعد همزة متحركة؛ نحو : آثر ، وأومن وإيمان . وسبيلها فى ذلك سبيل الهمزة الساكنة المفردة . ولاجتماع الهمزتين فضل يحتم هذا التخفيف ؛ وهو كذلك يدخل فى باب الاعلال الصرفى عند الجميع ، فليس مقصوراً على أهل التخفيف ، وإنما ذكر هنا لاستكمال الكلام ، وفيه يقول ابن مالك :

ومدا ابدل ثانى الهمزين من ... كلمة أن يسكن كآثر وائتمن

وقد شذ من ذلك قراءة عاصم فى رواية عنه : « لإئلاف قريش » بهمزتين ، وقراءة العامة « لايلاف » على القياس[١] . قال ابن إياز فى شرح تصريف ابن مالك : « ولا يقال : إيلاف فيعال كضيراب ، وآلف فاعل كضارب ، لأنا نقول : لا يجوز ذلك لوجهين . أحدهما أنه كان يلزم أن يجىء فيه إلاف كضراب ، إذ ضراب أكثر

---

(١) أنظر البحر المحيط فى سورة قريش .

من ضراب ، وإن كان الأصل ، والثانى أن فاعل يجىء مصدره على مفاعلة كمضاربة ، ولم ينقل ذلك فى : آلف » . ومما يؤيد هذا تحقيق الهمزتين فى القراءة السابقة على شذوذه . وإذا فوزن إيلاف إفعال ، لا فيعال .

وتبدل الثانية ياء فى أحوال :

(ب) أن تكون مكسورة بعد همزة متحركة ، كيفما كانت الحركة ، نحو المجهول لمثل أكرم من : أن وأم ، تقول : أين فى السوق ، وأيم محمد فى المجلس . والكسر عارض فى هذين المثالين . فأصل أين : أو نن ، نقلت حركة النون إلى الهمزة توصلا إلى الادغام . وكذلك القول فى : أيم . وكذلك نحو : أيمة جمع إمام .

والأخفش يبدل المكسورة بعد ضم واوا ، فيقول : أوم ، وأون ، كما يصنع فى الهمزة المفردة إذ يقول فى سؤل : سول .

(ح) أن تكون الهمزة الثانية لاما ، كيفما كانت حال الهمزة الأولى وكيفما كانت حركتها . وذلك نحو مثال جعفر من قرأ ، تقول : القرأى ، ومثال جخدب منه : القرئى ، وأصله : القوؤو ، فأبدلت الضمة كسرة ، كما فى الأدلى (جمع دلو) ، ومثال زبرج منه : القرئى ، ومثال قمطر منه : قرأى ، وفى مثال معد : قرأى ، وأصله : قرأأ . ولم يخفف مثل هذا بنقل حركة الهمزة الثانية إلى الأولى وحذف الثانية فيقال : قرأ ، لأن الحركة دليل الهمزة المزالة ومذكرة بها ، فكأن الهمزتين لا تزالان على الاجتماع .

وهنا بحث . وذلك أنه فى مثل : قرأأ ، التزم القلب إلى الياء ، فهلا جاز الادغام كما كانت الهمزتان فى موضع العين ، نحو : سأل ورأس ، على ما سبق ؟

وتدع الكلام هنا لابن إياز فى شرح تصريف ابن مالك : « فان قيل » : لم لم يدغم الأولى فى الثانية ويستغنى بها عن القلب ، كما فى سأل ورأس ؟ فالجواب من وجهين : أحدهما أن أبا عثمان ذكر أنه سأل أبا الحسن عن ذلك فأجابه بما معناه : أن العينين لا تكونان إلا بلفظ واحد . وأما اللامان فقد يكونان مختلفين كسبطر ودرهم ، ومتفقين كقعدد ورعدد ، وجلبب ، فلذلك افترقت الحال بينهما . الثانى أنه يجوز فى الحشو ما لا يجوز فى الطرف . ألا ترى أنه لا يجوز اجتماع الواوين أولا ويجوز ذلك حشواً ، نحو هووى وطووى ، فى النسب إلى هوى وطوى » . وهاك كلام أبى عثمان المازنى فى تصريفه : « وتقول فى مثل قمطر من قرأت : قرأى كما ترى ، ومثل معد : قرأى ،

فتغير الهمزة . فسألت أبا الحسن — وهو الذى بدأ بهذه المقالة — فقلت : ما بال الهمزة الأولى إذا كان أصلها السكون لا تكون مثل همزة سأل ورأس ؟ فقال : من قبل أن العين لا تجىء أبدا إلا و بعدها مثلها ، واللام قد يجىء بعدها لام ليست من لفظها . ألا ترى أن قمطرا وهدملة وسبطرا قد جاءت بلامين مختلفين . وكذلك جمع الأربعة والخمسة . والعينان لا يكونان كذلك ، فلذلك فرقت [1] » . وقال أبو الفتح بن جنى فى شرحه : « كأن أبا الحسن لما اعتبر الكلام فوجد أن العين لا تكون إلا من لفظ العين ، نحو طاء قطع ، ولام سلم ، ووجد اللامين قد يختلفان نحو : هدملة وبابها ، وكان اجتماع الهمزتين فى كلمة واحدة مكروها ، قال فى مثل قمطر من قرأت : قدرأى وأصلها : قرأأ بوزن قرع ، بقلب الأخيرة ياء ، ويقلبها ياء دون الواو لأن هذا موضع تقلب فيه الواو إلى الياء لأنها رابعة . ولولا أنه لا يوجد فى كلامهم عينان بلفظين مختلفين لقيل فى سأل ونحوه : سأوال ، بقلب الثانية ، ولكن هذا غير موجود فى كلامهم . فأ رت العينان بلفظ واحد . وقلبت الثانية من نحو : قرأى ، كما قلبت فى جاء ونحوه ، ولولا ثقل الهمزة لما وجب تغيير نحو : قرأى ، ألا ترى أنك تقول فى مثل قمطر من غزوت : غزو ، ولا تغير الواو ، لأن من كلامهم إدغام الواو فى الواو وهما غير عينين ، ولا يوجد ذلك فى الهمزة [2] » .

ومن أمثلة ما يقلب ياء لموضع اللام نحو جاء على رأى سيبويه . إذ يرى سيبويه أن (جاء) أصله : جائىء ، قلبت الثانية ياء على قاعدة اجتماع الهمزتين . فأما الخليل فيقول بالقلب المكانى ، فيرى أن أصله : جايىء ، ثم قدمت الهمزة على الياء فراراً من اجتماع الهمزتين وهو ثقيل . ولكن سيبويه يقول أنه بعد اجتماع الهمزتين تقلب الثانية ياء قلبا لازما ، فاجتماع الهمزتين ليس بلازم ضربة لازب حتى يفر منه لأن عندنا قاعدة تخلص منه [2] .

وتبدل الهمزة واوا فى مواضع :

(د) أن تكون مضمومة بعد همزة مضمومة أو مفتوحة أو مكسورة فى غير موضع اللام ، نحو مثال أبلم من : أم ، تقول : أوم ، ونحو : أوب جمع أب ، ونحو مثال إصبع من أم أيضا : إوم . والابدال فى هذا على منهج التخفيف .

---

(١) أنظر المنصف لابن جنى ٢ : ٢٥٢ وما بعدها .

(٢) الموضع السابق .

(ه) أن تكون مفتوحة بعد ضم أو فتح نحو : أويدم وأوادم ، مصغر آدم من الأدمة وجمعه ، ونحو مثال أفعل من أم ، تقول : أوم .

ويخالف المازنى فى المفتوحة بعد فتح فيقول : أيم ، وهذا مع موافقته الجمهور وأبا الحسن فى جمع آدم على أوادم ، مخالفا قاعدته . وهو يرجع الواو فى أوادم إلى أن الهمزة الثانية فى آدم قلبت ألفا ، وروعيت هذه الألف فى الجمع فقلبت واوا ، كما يقال فى جمع خاتم : خواتم . وقد جعل القياس عنده أن يراعى فى الفرع حال الأصل . فيقول فى تصغير أيمة : أييمة . وفى جمعها لو جمعت : أيام .

ويرى الجمهور أن التصغير والتثنية والجمع ترد الألفاظ إلى أصولها ، وأن داعى قلب الهمزة ألفا فى المفرد قد زال فى الجمع . فالواو فى أوادم مبدلة من الهمزة لا من الألف ، ألا ترى إلى : ميزان وموازين ، فقد رجعت الواو إلى أصلها فى الجمع لما زال موجب القلب فى المفرد . وسأسوق كلام أبي عثمان وتعقيب أبي الفتح عليه : « قال أبو عثمان : وزعم الخليل أنهم حين أبدلوا الهمزة ألفا جعلوها كالألف الزائدة التى فى خالد وخاتم . فحين احتاجوا إلى تحريكها فعلوا بها ما فعلوه بألف خالد حين قالوا : خوالد وخواتم . قال الشاعر :

أخالد قد علقتك بعد هند فشيبنى الخوالد والهنود

فكذلك فعلوا بألف آدم حين قالوا ، أوادم . . . قال أبو عثمان : وسألت أبا الحسن عن : هذا أفعل ، من أممت أى قصدت ، فقال : هذا أوم من هذا ، فجعلها واوا حين تحركت بالفتحة ، كما فعلوا ذلك فى : أويدم . فقلت له : كيف تصنع بأيمة ، ألا تراها : أفعلة ، والفاء منها همزة . فقال : لما حركوها بالكسرة جعلوها ياء ، وقال : لو بنيت مثل أبلم من أممت لقلت : أوم ، أجعلها واوا . فسألته كيف تصغر أيمه ؟ فقال : أويمة ، لأنها قد تحركت بالفتح . وليس القول عندى كما قال ، لأنها حين أبدلت فى آدم وأخواتها ألفا ثبتت فى اللفظ ألفا كالألف التى لا أصل لها فى الياء ولا فى الواو ، فحين احتاجوا إلى حركتها فعلوا بها ما فعلوا بالألف . فأما ما كان مضاعفا فأنه تلقى حركته على الفاء ولا تبدل همزته ألفا ، ولو أبدلت ألفا لما حركوا الألف ، لأن الألف قد يقع بعد المدغم ولا بغير . فتغييرهم أيمة يدل على أنها لا تجرى مجرى ما يبدل منه الألف . والقياس عندى أن أقول فى هذا أفعل من ذا من أممت وأخواتها : هذا أيم من ذا ، وأصغر أيمة : أييمة ،

ولا أبدل الياء واوا لأنها قد ثبتت ياء بدلا من الهمزة ، إلا أن هذه الهمزة إذا لم يلزمها تحريك تبعت ما قبلها . فلو بنيت من الأدمة مثل أبلم قلت : أودم ، ومثل إصبع : إيدم ، ومثل أفكل : آدم ، فاجعلها ألفا إذا انفتح ما قبلها ، وياء ساكنة إذا انكسر ما قبلها ، وواوا ساكنة إذا انضم ما قبلها . فإذا احتجت إلى تحريكها فى تكسير أو تصغير جعلت كل واحدة منهن على لفظها الذى بنيت عليه ، فأترك الياء ياء والواو واوا ، وأقلب الألف واوا ، كما فعلت ذلك العرب فى تصغير آدم وتكسيره . فهذا هو القياس عندى . وأبو الحسن يرى أنها إذا تحركت بالفتحة أبدلها واوا كما ذكرت لك . وإذا قال العالم قولا متقدما فالمتعلم الاقتداء به والاحتجاج لقوله ، والاختيار بخلافه إذا وجد لذلك قياسا ، والله الموفق[1] » .

وقال أبو الفتح بن جنى فى الاحتجاج لأبى الحسن والرد على أبى عثمان : « يقول أبو عثمان : لما ثبتت الياء فى أيمة بدلا من الهمزة فسبيلها أن تجرى مجرى الياء التى لاحظ لها فى الهمزة ، كما أن ألف آدم لما ثبتت بدلا من الهمزة جرت مجرى ما لاحظ له فى الهمزة وهو ألف خالد . وهذا القول ليس بمرضى من أبى عثمان ، لأن الياء فى أيمة انما انقلبت عن الهمزة لانكسارها ، فإذا زالت الكسرة زالت الياء التى وجبت عنها ، كما أن الياء فى ميزان لما وجب انقلابها عن الواو لانكسار ما قبلها زالت عند زوال الكسرة فى قولهم : موازين ومويزين . فإن قال قائل : فإن الياء فى ميزان إذا فارقت هذا الموضع رجعت إلى الواو فى نحو قولهم : موازين ومويزين ، فما تنكر أن يكون البدل فى أيمة اقوى منه فى ميزان ، فلا يزول وإن زالت الكسرة ؟ قيل : هذا إلزام فاسد ، لأنك لو جمعت آدم على فعل وفعلان لقلت : أدم وأدمان ، فرجعت الهمزة لما زالت الأولى ، كما رجعت الواو فى موازين لما زالت الكسرة . وإنما لم ترد فاء الفعل فى أوادم وأويدم إلى الهمزة لأنه كان يلزم ما منه هربوا ، وهو اجتماع همزتين ، ألا ترى أنهم لو قالوا : أآدم وأؤيدم لزمهم اجتماع همزتين ، كما كان يلزمهم قبل التكسير والتحقير فى آدم . فلما كان يجب فى التحقير والتكسير اجتماع همزتين لم يكن إقرار الهمزة فى الجمع والتحقير كما لم يكن ذلك فى الواحد . والعلة الموجبة للقلب فى الواحد هى موجودة فى الجمع والتحقير ، وهى اجتماع همزتين ، وليس كذلك ميزان ، لأن الياء إنما وجب انقلاب الواو اليها لانكسار ما قبلها . فإذا جمعت أو حقرت زالت الكسرة فرجعت الواو . فهذا الفصل بين رد الواو فى تحقير

(١) أنظر المنصف لابن جنى ٢ : ٣١٥ وما بعدها .

ميزان وتكسيره وترك الهمز فى تحقير آدم وتكسيره . فإن قال قائل : فإذا كان القياس عند سيبويه أن تقول فى تحقير مثل قائم : قويئم ، فيقر الهمزة ولا يحذفها ، وإن كانت الألف التى عنها وجبت الهمزة قد زالت ، ويحتج فى لزوم الهمزة بأنها قوية لكونها عينا والعين أقوى من اللام ، فما تنكر أن يكون النقل فى أيمة لازما أيضاً ، وإن زال ما يوجب البدل من الكسرة فتقرها ياء فتقول : أييمة ، بل يكون هذا أحرى لأن الفاء أقوى من العين ؟ قيل : هذه المسألة لم ينطق فيها سيبويه لأنها محدثة بعده . على أنه لو كان لسيبويه فيها قول مخالف لقول أبى الحسن لم يلزمه ما أوردته يا أيها السائل . وذلك أن سيبويه شبه ياء التحقير بألف التكسير فجرت الياء فى قويئم مجرى الألف فى قوائم . فلما كان يقول : قوائم فيهمز ، كذلك قال : قويئم فهمز . ونظير هذا تصحيحهم لتحقير نحو : أسود وقسور ، فى قولهم : أسيود وقسيور . وإنما ذلك لتشبيههم ياء التحقير بألف التكسير . وأيضاً فان الياء قريبة من الألف . ولذلك قالوا فى طيء : طائى ، وفى الحيرة : حارى ، فأبدلوا الياء ألفا . فلما كان بين ياء التحقير وألف التكسير هذا الاشتباك وهذه المناسبة أقر سيبويه الهمزة فى قولهم : قويئم ، وإن زالت ألف فاعل . هذا مع ما احتج به من أن العين قوية . وليس كذلك الياء فى أيمة . لأنها إنما وجبت عن الكسرة ، كما وجبت ياء ميزان عن الكسرة ، فمتى زالت الكسرة زالت الياء من أيمة كما كان ذلك فى ميزان . وأنت إذا حقرت فقلت . أوَيمة ، فقد أزلت الكسرة ولم يكن موضعها يجرى مجراها فتقر الياء كما شبهت ياء التحقير بألف التكسير وأقررت الهمزة ، وإنما قبلها فى أوَيمة ضمة ، والضمة إنما تجب عنها الواو لا الياء .

ولو جاز لقائل أن يقول : لا أزيل الياء فى أيمة إذا زالت الكسرة ، لجاز لآخر أن يقول : لا أزد الواو فى ميزان إذا زالت الكسرة بتحقير أو تكسير . وهذا لا يقوله أحد ، لوضوح سقوطه . وقياس قول أبى عثمان أن يقول فى جمع ايدم : أيادم ، فيقر الياء ولا يقلبها ، لأنها قد ثبتت ياء فى إيدم كالياء التى لاحظ لها فى الهمز ، فكما يقول فى جمع فعلل من بعث : بياعث ، كذلك يلزمه أن يقول فى جمع إيدم : أيادم . والحجة عليه فى هذا كالحجة التى مضت قبيل ، لأن الكسرة التى أوجبت الياء قد زالت فينبغى أن تزول الياء بزوالها . وقياس قول أبى الحسن : أوادم ، لأنها قد تحركت بالفتح ، وفى التحقير : أُويدم . وأبو عثمان يلزمه أن يقول : أُييدم ، ولا يرد الهمزة كما شرط فيما كتبناه عنه . ولا يلزم أبا الحسن أن يرد الهمزة عند زوال الكسرة كما رد واو ميزان عند زوال الكسرة ، لأنه

لم يكن قلبها ياء لأن قبلها كسرة ، وإنما استحق القلب فى الجملة لئلا تجتمع همزتان ، ووجب انقلابها ياء دون الواو لانكسار ما قبلها ، فاذا زالت الكسرة لم يجب رد الهمزة وإنما يجب زوال الياء التى عدل اليها عن أختيها الواو والألف بعد وجوب القلب ، فاذا زالت الكسرة وتحركت الفاء بالفتحة جعلت واواً ، كما قالو : أوادم وأويدم ، ولو لم يقلبوا لقالوا : أآدم وأؤيدم ، وهذا لا يجوز ، فلم يكن للقلب بد لذلك .

ويؤكد قلب الهمزة واوا هنا قولهم فى ذؤابة : ذوائب . فالواو فى ذوائب بدل من الهمزة ، كأنها كانت : ذآئب ، فكرهوا اجتماع همزتين بينهما ألف ، فأبدلوا الأولى واوا ، كما أنهم لما كرهوا أواول جمع أول ، أبدلوا الثانية همزة ، وكما أنهم لما أرادوا البدل فى تثنية مثل حمراء وجمعه والنسب اليه قالوا : حمراوان ، وحمراوات وحمراوى ، وقالوا فى علباء : علباوان ، وقالوا أيضاً : رداوان ، وقالوا أيضاً فى تثنية قراء : قراوان ، فهذا يدل على كثرة انقلاب إحداهما إلى الأخرى . قال أبو العباس : إنما كان ذلك فيهما لأن الهمزة فى مخرجها نظير الواو فى مخرجها ، يريد أنهما طرفان ، هذه أسفل الحروف ، وهذه أعلاها [1] » .

ومما ينبغى ملاحظته أن قول أبى عثمان فى شأن ألف آدم وانقلابها فى أوادم قال به سيبويه ، وقد عزاه هو إلى الخليل . وهاك عبارة الكتاب : « وإذا جمعت آدم قلت : أوادم ، كما أنك إذا حقرت قلت: أويدم ، لأن هذه الألف لما كانت ثانية ساكنة وكانت زائدة لأن البدل لا يكون من أنفس الحروف فأرادوا أن يكسروا هذا الاسم الذى قد ثبتت فيه هذه الألف صيروا ألفه ألف خالد [2] » .

وقد رأيت فيما تقدم أن التخفيف لحق الهمزة الثانية ولم يلحق الأولى ، وأنه انحصر فى الابدال . وقد يكون بالتسهيل كما مر بك فى بعض القراءات[3] ، وقد يكون فى الأولى كما فى قراءة رواها صاحب البحر المحيط فى سورة قريش (ليلاف قريش) بحذف الهمزة الأولى شذوذا .

وظاهر أن الهمزة الأولى ينالها من التخفيف ما ينالها لو كانت مفردة . ففى نحو :

---

(١) أنظر المنصف لابن جنى ٢ : ٣١٨ وما بعدها .

(٢) أنظر الكتاب ٢ : ١٦٩

(٣) أنظر الكتاب ٢ : ١٦٨

من آمن ، تخفف بالنقل (من امن) وفى نحو (وأمنوا) يكون بالتسهيل بين بين ، وفى نحو (يأهل الكتاب آمنوا) تخفف : يأهل الكتابيا منوا .

ونكرر فى ختام هذا البحث أن التخفيف فى معظم هذا الباب يلتحق بالابدال ويخرج من التخفيف الجائز ، وفى ذلك يقول سيبويه : « واعلم أن الهمزتين إذا التقتا فى كلمة واحدة لم يكن بد من بدل الآخرة ولا تخفف ، لأنهما إذا كانتا فى حرف واحد لزم التقاء الهمزتين الحرف ، وإذا كانت الهمزتان فى كلمتين فإن كل واحدة منهما قد تجرى فى الكلام ولا تلزق بهمزتها همزة ، فلما كانتا لا تفارقان الكلمة كانتا أثقل ، فأبدلوا من إحداهما ، ولم يجعلوهما فى الاسم الواحد والكلمة الواحدة بمنزلتهما فى كلمتين[1] » .

فترى من هذا أن الابدال فى هذا الضرب ليس مقصوراً على أهل التخفيف بل هو عام عند جميع العرب .

الهمزتان فى كلمتين :

إذا اجتمعت الهمزتان فى كلمتين فلهما حالتان : أن تكون الأولى همزة الاستفهام ، وأن تكون فى آخر الكلمة .

(١) فإن كانت الأولى همزة الاستفهام فالتخفيف إنما يلحق الثانية ، أما الأولى فمبتدأ بها . وقد ذكرنا من قبل أن التخفيف لا يكون فى الابتداء . هكذا يرى الرضى . ويقول سيبويه : وإن جاءت ألف الاستفهام وليس قبلها شىء لم يكن من تحقيقها بد ، وخففوا الثانية على لغتهم[٢] » .

فترى من هذا أنه اشترط فى التزام تحقيق الأولى ألا يكون قبلها شىء .

والتخفيف هنا واجب عند البصريين يلتحق بالابدال القياسى ، إذ كانت الهمزتان فى حكم ما فى الكلمة الواحدة ، من حيث كانت همزة الاستفهام كالجزء مما بعدها لكونها حرفا واحدا . ولا يجيز البصريون تحقيق الهمزتين ، وإنما ورد فى قراءة الكوفيين . وعليها قراءة حفص : (أأنذرتهم) بالتحقيق .

والتخفيف يجرى هنا على حد ما جرى فيما سبق فى أغلب أحواله . فتبدل من جنس حركة ما قبلها إذا كانت ساكنة ، نحو : آئمن محمد ؟ وإذا كانت متحركة خففت بجعلها بين بين . وجاز الفصل بين الهمزتين بألف .

---

(١) الموضع السابق .

فأما تحقيق الهمزتين فهو عند الكوفيين كما ذكرنا ، ويفصل بعضهم بين الهمزتين بألف أيضا . وقد قرئ بهذه الأوجه الأربعة قوله تعالى : (أأنذرتهم) ، وقرأ بعضهم بإبدال الثانية ألفا . وقد أنكر هذه القراءة الزمخشري وجعلها لحنا لكون الهمزة متحركة فلا مكان لقلبها ألفا ، وللزوم التقاء الساكنين على غير حده . وقد رد على الزمخشري بصحة الرواية بذلك ، فتحمل على الشذوذ .

ويقول الرضى : إن حكم الهمزة الثانية المتحركة هو حكمها مسبوقة بهمزة فى كلمة واحدة سواء ، إلا أن تخفيف الثانية هنا أكثر . ويقتضى هذا أن يقال فى : أأنت : أونت ، أو : أينت ، كما فى : أوم وأين . ولم يعرف هذا لغير الرضى .

وإذا دخلت همزة الاستفهام على المبدوء بهمزة الوصل فان كانت همزة الوصل مضمومة أو مكسورة سقطت وخرج الأمر عن اجتماع الهمزتين . وإن كانت مفتوحة أبدلت ألفاً أو سهلت . وذلك فى الداخلة على (أل) أو (أيمن الله) . ومن ذلك قوله تعالى : (آلذكرين حرم أم الأنثيين) . وتقول : آيمن الله لأفعلن . والتسهيل مرجوح ، وقد قرئ به . وإنما لم تسقط همزة الوصل مع الفتح لئلا يلتبس الاستخبار بالخبر .

(ب) أما إذا لم تكن الهمزة الأولى همزة الاستفهام ، وحينئذ تكون آخر الكلمة ، فيرى البصريون التزام التخفيف . وعندهم أن التميميين يخففون احداهما ، الأولى أو الثانية ، والحجازيين يخففونهما جميعا . وجاء فى قراءات الكوفيين التحقيق لهما . ونحن نقرأ لحفص عن عاصم — وهى قراءة كوفية — : «إذا جاء أشراطها» .

وتخفيف الهمزتين على لغة الحجازيين يكون باعتبار كل منهما كما لو كانت مفردة . فتقول فى قارئ أبيك : قارى ابيك ، بابدال الأولى ياء وتسهيل الثانية .

وحكى شيخ الإسلام وغيره وجها آخر : أن تخفف كل منهما كما لو كانت ملتقية مع همزة فتقول فى قارئ أبيك السلام : قارى وبيك على رأى أبى الحسن ، و : قارى يبيك على رأى أبى عثمان المازنى .

وقد نقل عن أبى عمرو فى قراءة حذف أولى المتفقتين فى الحركة نحو : إذا جا أشراطها . وعن ورش وقنبل قلب الثانية من جنس حركة ما قبلها . والله أعلم .

حرف الضاد وكثرة مخارجه فى اللغة العربية

بقلم الدكتور خليل يحيى نامى

تمتاز اللغات السامية عن غيرها من اللغات الأخرى بوجود حروف الإطباق كاملة فيها وهى الصاد والضاد والطاء والظاء ، ولا توجد الضاد إلا فى لغات الشعبة الجنوبية وهى اللغة العربية واللغات العربية الجنوبية واللغات الحبشية ، ولا توجد الظاء إلا فى اللغة العربية بلهجاتها القديمة والحديثة وفى اللغات العربية الجنوبية القديمة منها والحديثة وكذلك فى اللغة الأوجريتية التى هى من اللغات السامية الشمالية .

وإذا تتبعنا إبدال الضاد بالحروف المماثلة لها فى المخارج فى اللغات السامية وجدنا أن الضاد العربية تقابل صادا فى اللغات الأكادية وفى اللغة العبرية [١] ، كما تقابل صادا أيضا وظاء فى اللغة الأوجريتية [٢] ، وكانت الضاد تكتب صادا فى الكتابات النبطية وكذلك فى الكتابات العربية القديمة الجاهلية منها والاسلامية [٣] إلى أن فرق العرب بين الحروف المتشابهة فى الشكل والصورة بوضع الإعجام فى القرن الثانى الهجرى ، وقد تدل كل هذه الاستشهادات على أن الضاد العربية كانت منذ أقدم الأزمنة قريبة فى المخرج من مخرجى الظاء والصاد ، وكان مخرج الظاء فى الأصل كما نعرف عبارة عن ذال مطبقة [٤] ، كما أن الظاء فى المخارج مثل الذال والثاء وهى من حيز واحد هو ما بين طرف اللسان وأطراف الثنايا [٥] ، وتعرف هذه الحروف الثلاثة باسم الحروف اللثوية لأن مبدأها

---

(١) انظر : Brockelmann, Grundriss, 1. Band, S. 128-29

(٢) انظر : Cyrua H. Gordon, Ugsritic Manual, p. 23

(٣) انظر خليل يحيى نامى : أصل الخط العربى ص ٨٧

(٤) انظر قول سيبويه فى الكتاب جـ ٢ ص ٤٠٦ وهو : ولولا الاطباق لصارت الطاء دالا والصاد سينا والظاء ذالا . . . الخ

(٥) انظر سيبويه جـ ٢ ص ٤٠٥

من اللثة [١] . والصاد حرف مطبق مهموس وهى من حروف الصفير ، وحروف الصفير هى الصاد والسين والزاى ، وتسمى هذه الحروف أيضا أسلية لأن مبدأها من أسلة اللسان وهو مستدق اللسان[٢] ، ومخرج الضاد كما جاء فى الكتاب لسيبويه هو : من بين أول حافة اللسان وما يليه من الأضراس[٣] ، مع أن ابدال الضاد بغيرها من الحروف المماثلة لها فى المخارج يدل على أنها كانت تنطق فى القديم كالذال المطبقة أو كالزاى المفخمة أى أن مخرجها كان من طرف اللسان لا من حافته كما وصفه سيبويه فى الكتاب ، كما أننا نجد فى الكتب العربية ما يثبت أنها كانت تنطق كالذال المطبقة أو كالزاى المفخمة ، فقد جاء فى الجزء العاشر من شرح المفصل لابن يعيش صحيفة ١٢٧ ما يلى : والضاد الضعيفة من لغة قوم اعتاصت عليهم فربما أخرجوها ظاء وذلك أنهم يخرجونها من طرف اللسان وأطراف الثنايا، وربما راموا إخراجها من مخرجها فلم يتأت لهم ذلك فخرجت بين الضاد والظاء.

ورسم الضاد فى الكتابات العربية الجنوبية القديمة وفى الكتابات الثمودية والصفوية يكاد يكون قريبا فى الشكل من رسم حرفى الصاد [٤] والذال ، وقد يدل هذا على أن حرف الضاد كانت قريبة فى المخرج فى زمن هذه الكتابات من مخرجى الذال والصاد ، كما أن إبدال الضاد بالزاى فى نقش سبأى متأخر يدل على أن مخرج الضاد عند العرب الجنوبيين كان عبارة عن ذال [٥] مطبقة ، وكذلك عند الثموديين والصفويين ، غير أن رسم الضاد فى الكتابات اللحيانية وهى من الكتابات العربية الجاهلية المشتقة من القلم المسند كان عبارة عن رسم الطاء العربية [٦] الجنوبية ، وقد نفهم من ذلك أن مخرج الضاد فى أيام اللحيانيين كان قريبا من مخرجى الدال والتاء أى أن مخرج الضاد كان فى ذلك الوقت برفع طرف اللسان إلى الفك الأعلى أو إلى جهة الحنك . ويقول الأستاذ ليتمان عن نطق الضاد ما يلى : كان اللفظ الأصلى بالذال المفخمة لا ضاد بالدال المفخمة ويظهر هذا من نطق الأعراب فى البادية ومن تاريخ هذا الحرف عند الفرس وعند الأتراك حيث نجدهم رسموه زاداً ولفظوه

---

(١) انظر : شرح المفصل لابن يعيش ج ١٠ ص ١٢٥

(٢) انظر : شرح المفصل ج ١٠ ص ١٢٥ .

(٣) انظر سيبويه ج ٢ ص ٤٠٥

(٤) انظر : G. R. Driver, Semitic Writing, p. 145 Enno Littmann, Thamud und Safa, S. 20 Van den Branden, Les Insecriptions Thamoudéennes لوحة ١

(٥) انظر : ص ١٨ و Maria Hafner, Altüsdaröbische Grammatik

(٦) انظر ص ٣٣ — ٣٤ Werner Cascel, Lihyan und Lihyanisch

كالزاى ، وفى زمان النبى كان القرشيون يلفظونها ضاداً لأن (tad) صارت (dad) كما صارت الذال فى بعض اللهجات العربية دالا ، وكذلك كلمة (thing) صارت بالألمانية (ding) [1] .

وتحدثنا الكتب العربية أن مخرج الضاد كان قريباً من مخرج اللام ، فقد جاء فى الجزء الثانى من الكتاب لسيبويه ص ٤٢٩ مايلى : ومثل ذلك قول بعض العرب : الطجع فى اضطجع أبدل اللام مكان الضاد كراهية التقاء المطبقين فأبدل مكانها أقرب الحروف منها فى المخارج والانحراف وقد بُين ذلك .

وقال فى صحيفة ٤١٦ من ذلك الجزء ما يلى : واللذان خالطاها [2] الضاد والشين لأن الضاد استطالت لرخاوتها حتى اتصلت بمخرج اللام .

وجاء فى لسان العرب فى مادة (ضجع) ما يلى : قال أبو عثمان المازنى : إن بعض العرب يكره الجمع بين حرفين مطبقين فيقول : الطجع ، ويبدل مكان الضاد أقرب الحروف إليها وهى اللام .

وجاء فى الجزء الأول من كتاب النشر فى القراءات العشر لابن الجزرى ص ٢٠٥ ما يلى : والحرف المستطيل هو الضاد لأنه استطال عند النطق به حتى اتصل بمخرج اللام وذلك لما فيه من القوة بالجهر والاطباق والاستعلاء ، والاستعلاء هو أن تتصعد هذه الحروف فى الحنك الأعلى .

وجاء فى صحيفة ٢١٩ من ذلك الجزء ما يلى : والضاد انفرد بالاستطالة وليس فى الحروف ما يعسر على اللسان مثله فإن ألسنة الناس فيه مختلفة ، وقلّ من يحسنه ، فمنهم من يخرجه ظاءاً ومنهم من يمزجه بالذال ، ومنهم من يجعله لاما مفخمة ، ومنهم من يشمه بالزاى ، وكل ذلك لا يجوز . اه .

ويتبين لنا من الأقوال التى ذكرناها كثرة مخارج حرف الضاد ، ولذلك اختلف العرب فى وصفها فى الكتب العربية ، ومما يستحق الذكر أن الضاد متعددة المخارج فى اللهجات العربية الحديثة .

---

(١) الأستاذ الدكتور انوليتمان : بقايا اللهجات العربية فى الأدب العربى — مجلة كلية الآداب — المجلد العاشر — الجزء الأول مايو سنة ١٩٤٨ ص ٢ — ٣

(٢) الضمير فى (خالطاها) يعود على اللام .

واختلف الباحثون فى أصل مخرج الضاد فقال بعض المستشرقين إنه كان عبارة عن لام مطبقة ويتبين ذلك من قول المستشرق برجستراسر فى كتابه التطور النحوى حيث يقول فى صحيفة ١٠ من ذلك الكتاب ما يلى : فالضاد العتيقة حرف غريب جداً غير موجود حسب ما أعرف فى لغة من اللغات إلا العربية ، ويغلب على ظنى أن النطق العتيق للضاد لا يوجد الآن عند أحد من العرب ، غير أن للضاد نطقاً قريباً منه جداً عند أهل حضرموت وهو كاللام المطبقة . اهـ .

ونضيف على ذلك بالقول : إن هذا النطق موجود أيضاً فى لهجات منطقة ظفار كالمهرية والشحرية كما هو موجود أيضاً فى منطقة دثينة بناحية أبين بجنوب بلاد العرب . وهو موجود أيضاً فى لهجات الجزيرة بالسودان [1] ويقول بعض المستشرقين الآخرين إن أصل مخرج الضاد كان ذالا مطبقة أى أن مخرجها كان من طرف اللسان لا من حافته كما وصفه العرب فى كتبهم ، ويدللون على ذلك بتاريخ الحرف عند الفرس وعند الأتراك فإنهم رسموه زاداً ونطقوا به كالزاى ، كما أن بعض قبائل البدو ينطقونه ذالا مطبقة أى أنهم احتفظوا بنطقه القديم ، ويضيف بعض المستشرقين إلى ذلك قائلين : إن الضاد العربية أبدلت ظاءاً فى اللغة الأوجريتية التى كان يكتب بها فى القرن الرابع عشر قبل الميلاد فكانوا يقولون يظحك عوضاً عن يضحك ، أى أن نطق الضاد فى القرن الرابع عشر قبل الميلاد كان قريبا من نطق الظاء أى أنهـا كانت تنطق فى ذلك الوقت ذالا مطبقة أو كالزاى المفخمة .

وفى ضوء ما سبق أن ذكرناه لكم نقول نه من الجائز أن نطق الضاد باللام المطبقة كان من خصائص جنوب بلاد العرب فى عهودها الأولى ، وأنه نشأ من أثر اختلاط الشعوب العربية السامية بالجماعات الحامية وغير الحامية ، ولذلك نراه موجودا الآن فى بعض المناطق المتصلة اتصالا وثيقا بالجماعات غير السامية كبعض أنحاء حضرموت وفى لهجات منطقة ظفار وفى بعض لهجات الجزيرة بالسودان .

وتحول مخرج الضاد فى اللغات العربية الجنوبية القديمة إلى ذال مطبقة فى الألف الأول قبل الميلاد لأن أصحاب تلك اللغات كانوا يقومون بنقل التجارة من جنوب الجزيرة

---

(١) انظر رسالة الدكتوراه التى تقدم بها عبد الحميد طلب لكلية الآداب وهى: لهجات الجزيرة بالسودان ـ مخطوطة بمكتبة الجامعة .

العربية إلى وسطها وشمالها واختلطوا بالشعوب العربية الشمالية التي كانت تنطق الضاد بمخرج قريب من مخرج الظاء أي بذال مطبقة أو بزاي مفخمة ولذلك نجدها في اللغات العربية الجنوبية القديمة تبدل زايا ، وعلى الرغم من ذلك فقد ظل سكان بعض المناطق اليمنية المنعزلة أو المتصلة اتصالا وثيقا بالجماعات الحامية وغير الحامية ينطقون الضاد بالنطق اليمني القديم الذي يشبه اللام المطبقة ، وقد انتقل ذلك النطق القديم للضاد إلى شمال بلاد العرب في أيام الفتح العربي ، أو قبل ذلك التاريخ عندما أخذت الجماعات اليمنية تنزح إلى الشمال طلبا للرزق ، ولذلك انتشر النطق القديم للضاد في شمال بلاد العرب ورواه علماؤهم القدماء في كتبهم .

أما نطق الضاد بالذال المطبقة أو بالزاي المفخمة فالظاهر أنه كان عند عرب الشمال منذ الألف الثاني قبل الميلاد كما يتبين ذلك من ابدال الضاد بالحروف المماثلة لها في المخارج عند الجماعات السامية الأخرى كالأكاديين والأوجريتيين والعبريين . أما نطق الضاد بمخرج قريب من مخرج الطاء وهو النطق المصري للضاد فقد كان موجودا كما سبق أن ذكرنا عند اللحيانيين العرب الذين كانوا يقطنون شمال بلاد العرب منذ القرن الثالث قبل الميلاد تقريبا أي أنه كان قديما عند العرب . وبهذا القول نكون قد انتهينا من الكلام عن حرف الضاد وعن تاريخ مخارجه المختلفة .

فى تاريخ الأديان (رؤوس أقلام)

ملخص محاضرات ألقاها الأستاذ الدكتور اسماعيل راجى الفاروقى

الأستاذ بجامعة ماجل بمونتريال

فى كلية الآداب بجامعة القاهرة

المحاضرة الأولى :

إن التراث العربى فى علم الأديان غنى جداً . إن معظم رجال الفكر الإسلامى العربى ألفوا فى الأديان وقدموا لمؤلفاتهم بأبحاث فى علم الأديان . وهذه المصنفات جديرة بأن تبعث وتنشر ، بدل من أن تترك للغبار والزمن فى مجموعات المخطوطات .

كلنا نعرف ابن حزم والشهرستانى ؛ إلا أن قليلا منا يعرفون نقد ابن حزم للكتاب المقدس ويقدرون ان مبادىء نقده هذا هى الآن مبادىء علوم النقد الكتابى فى الغرب .

ومنذ ابن حزم والعرب فى سبات عميق . لكن الغرب أيقظته يقظة العرب وبهره ما حققوه فى الآداب والعلوم . فأخذ يتعلم وينمو . وجاء القرن السادس عشر وعصر الفتوحات العلمية ، ثم عصر التنوير ثم عصر العقلية ثم الثورة الصناعية وقربت التجارة والمواصلات أطراف الأرض لبعضها البعض . فكان عصر الاستعمار وجاء بعده عصر الاستقلال والانبعاث .

فاليوم يتقابل العالم كله بعضا ببعض مقابلة الند للند . والمقابلة بالدرجة الأولى ثقافية ، ايديولوجية . ولا يخفانا ما للدين من أثر فى الثقافة ، فهو الثقافة بمعناها الأوسع ، بمعناها القيموى العميق . والأمم كلها فى حالة انبعاث جديدة . فعصرنا إذا عصر انبعاث الأديان .

فإذا ما أردنا تفهم العالم حولنا ، وجب علينا تفهم الأديان . فهى حصيلات الثقافة وبلوراتها .

قد يعترض على هذا ان الأديان موضوع ديني ، محله فى المعاهد الدينية لا فى الجامعات أو المعاهد العلمية . يرتكز هذا الاعتراض على تفهم خاطىء لموضوع الأديان . علم الأديان علم موضوعى ، غايته تفهم الدين كظاهرة انسانية وتتبع هذه الظاهرة فى المجتمع والتاريخ ودراسة ما أنتجته من تعبيرات عن ماهيتها وأهدافها .

ويعترض أيضا ان علمية علم الأديان تفترض ان هذا التهذيب سيعالج الإسلام كبقية الأديان ، دون اعتبار ان هذا الدين هو دين الله ، أى فوق الحقائق الطبيعية والاجتماعية والعلمية . فهو ليس من صنع البشر بل من صنع الله .

ولا شك ان الإسلام دين الله . ولكنه أيضا دين الفطرة والنظر . يتوصل الإنسان اليه ارتقاء إذا حكم عقله ، لا إذا أغفله . الإسلام لا يأمرنا بخلع العقل بل الفعل ، وليس فى العربية كلمة بمعنى faith أو credo ، فالايمان دائما يقين ، واليقين دائما معرفى لا نقلى . فإذا تقدم المسيحى والهندوكى بشجاعة إلى قاعة التحليل العقلى ، فحرى بالمسلم أن يسبقهما اليها .

وللمسلم أن يخشى كيف يشاء إذا كان لا يميز بين الإسلام كدين الله والإسلام كدين السلف . أما المسلم العاقل فهو يميز بينهما وينسب الناموسية الأول فقط مع احترامه للثانى كمحقق كامل أو غير كامل للأول .

وقضية تقابل العقل بالدين قضية قديمة فى الإسلام . ورأت الأمة ان حلها فى الطريق الوسط فقالت ، متميزة عن المعتزلة والاشاعرة على السواء ، ان العقل الفردى يخطىء ويصلح بالوحى . أما العقل كعقل فلا يتعارض قط مع الوحى . وليس الوحى إلا أعلى درجات الوعى العقلى .

وللدين فى وطننا مقام وأثر كبير يجدر بنا درسه بشكل علمى ، موضوعى . وبما أن جمهوريتنا قاعدة حركات الانبعاث فى العالم العربى والعالم الآسيوى الأفريقى ، يجدر بنا أن نتفهم أديان هذه العوالم لنتفهم القوى المحركة فيها ، لنتفهم منطق ثقافتها .

المحاضرة الثانية :

لعلم الأديان ، كبقية العلوم ، مناهج بحث تغير بتغير الفلسفات . فهنالك الطريقة السيكولوجية والاجتماعية والفلسفية والفينومينولوجية والتاريخية .

يفسر المذهب السيكولوجى ظاهرة الدين كأنها حالة نفسانية . وعليه ، يخرج الدين من كونه وعيا لملكوت غير ملكوت الظواهر إلى كونه مجرد حالات انفعالية شبيهة بالأحلام والعقد النفسية . ولكن الدين وعى ملكوت آخر تصدر عنه أوامر أعىَ أنها ليست منى ، ولست قادراً على التحكم فيها بل على العكس هى التى تتحكم بى . لذلك قال علماء النفس ، ومنهم يونج ، أن الدين حقيقة وجودية مثلما وصفت . وأنهم لا يهدفون من قولهم أنها ظاهرة نفسية تحويل مكانتها الميتافيزيقية بقدر ما يهدفون إلى تحليلها وتفهمها فحسب ، قال يونج ان النفس تسير بين قطبين ، من جهة ، العالم الخارجى والمعرفة الواعية ، ومن جهة أخرى اللاوعى ، وهو جماعى ، يتألف من مجموعة صور الوجود . ومشكلة الإنسان فى رأيه ، هى التوفيق بين القطبين فى الحياة . إلا أن اللاوعى لا وجود له سوى فى الوعى الشخصى . فالمشكلة وحلها سواء فى كونهما فى ذات الفرد . فكلاهما ذاتيان . وإن لاءم هذا التفسير قانون الأخلاق المسيحية والبوذية الأول — إلى ارضاء الضمير واطمئنان النفس إلى ما تفعله الذات الفردية — فهو لا يتفق مع نظريات الأخلاق الأخرى التى ترى فى الفلاح أمراً موضوعياً بالإضافة إلى كونه ذاتى . ونتيجة ذلك ان كل ما قاله يونج فى الله عبث بعد أن هوى به من صعيد التنزيه إلى الصعيد الذاتى . وتعريفه له على طريقة الاشراق الافلوطينية عرفها تراثنا ورفضها .

ويقول المذهب الفلسفى بأن للأديان جميعاً ماهية واحدة ، يمكننا أن نكتشفها بالتحليل المنطقى ، وانها القسطاس الذى نقيس به الأديان ونحكم به عليها . وأول استنتاج يستنتجه أصحاب هذه النظرية هو أنه طالما الماهية واحدة فلا بأس أن تتعدد الظواهر . وفى الواقع ، خلاص الظواهر هو الهدف . وان جر ذلك نسبية القيم والأخلاق . فغاندى — مثلا ، الذى يقول بالمذهب الفلسفى ، يقول بأن الدين لا يمكن إلا أن يكون سواد يشى ، أى اقليمى . وفى هذا المنهج ضعفان : الأول ، انه يفرض نظرية عقلية على ظاهرة وجودية عرفيا ؛ والثانى ، أنه يزيل حقانية الدين بالمعنى الظاهرى أو المقاديرى . ولا عجب فإن معظم الداعين لهذا المذهب فى الشرق والغرب متصوفون . أما الفلاسفة ، أمثال كانت وهيجل فكلامهم فى الأديان مرتبط بكلامهم عن المعرفة ، وقد سقط الأول بسقوط الثانى .

ويقول المذهب الفينومينولوجى ، وهو مذهب جيمس وأوطو وفان درلوف واليادى وسميث ، ان كل دين من الأديان مجرى تاريخى يتألف من الحالات الانفعالية للأشخاص

الأعضاء فيه . فالدين جديد فى كل صباح . لعلم الأديان أن يدرسه ويتبين القوى المحركة فيه وظواهرها ونتائجها . وإن فعل ذلك فإنه يستطيع توجيه المجرى إلى حيث يريد ، أو على الأقل أن يؤثر فى اتجاه المجرى أو يتنبأ به . والضعف الأكبر فى هذا المذهب أنه ينكران للدين جوهر أو ذات . ولكن ، كيف له فصل الظواهر عن بعضها البعض وفرز ما هو دينى منها ثم فرز الظواهر الدينية عن بعضها البعض لمعرفة ما هو بوذى وهندوكي وإسلامى ومسيحى منها ؟ لا بد له إذا من أن يفترض خلسة ما ينكره علنياً .

وهنالك طائفة من المذاهب الأخرى ، الحيوانى ، والاجتماعى والارتقائى والنفسانى — الجنسى ، وكلها طبيعية وصفية .

والطريقة المثلى ، هى الطريقة التاريخية ، وبالتالى ، « تاريخ الأديان » . فهى تتقبل كل ما تجمعه الطرق الوصفية من معلومات عن الأديان . وتتقبل النظريات المنطقية العقلية لا كنهائية بل كأدوات بحث تساعدها على الوصول إلى الحقيقة . وهى تحافظ على ماهية الدين وناموسيته كشىء جاء من عل . وهى مع هذا ، تعتبر أن للدين تاريخ وتطور فهى تدرسه بقصد تبين منطق حركته فى التاريخ البشرى . وهى ، وإن جمعت بين فضائل الطرق الأخرى ، لا تتعرض لنقائصها لأنها تصر على اعتبار الدين ظاهرة وجودية من جهة ، وتأخذ بقول رجال الدين بأن الدين أمر لا كأمر الظواهر الأخرى .

المحاضرة الثالثة :

يقسم تاريخ الأديان العالم إلى ثلاثة أقسام كبيرة : العالم الشرقى أو الهندى ، والعالم الغربى أو الاغريقى . والعالم السامى أو العربى . وإن كانت هذه التقسيمات غير محكمة الدقة فهى ذات معالم بينة . فهى العالم الشرقى ، يتألف الوجود من عالمين متضادين فى الطبيعة والقيمة . عالم الواقع وهو خيالى وشر . والعالم الآخر وهو حقيقى وخير . يجب التخلص من الأول إلى الثانى وهذا هو الأخلاق والفلاح . وهذا قرار يكتشفه العقل ، فالعالم الآخر صامت لا يدعو ولا يدعى .

ويرى العالم الغربى أن الوجود ملكوتان تربطهما صلة التكامل ، باتجاه الملكوت الآخر . فأصل الاله بشرى أرضى وقد أصبح إلهاً عندما بلغت قواه البشرية درجة تفوق سائر البشر . فالعالم الآخر إذاً تجسيد لما يريد هذا العالم أن يكون فى الواقع إذاً ، ليس هناك

ثنائية بالمعنى الصحيح . فالملكوت الآخر ليس إلا امتداداً لهذا الملكوت . وتجد هذه النظرة إلى الوجود فى القسم الأكبر من التراث الفرعونى والتراث الإغريقى .

أما العالم العربى فيرى أن الوجود ملكوتان منزهان عن بعضهما كل التنزيه ومع هذا فهو يرى أيضاً أن بينهما علاقة وطيدة جداً ، علاقة أمرية . فالأمر الخلقى ، يصدر من الملكوت الآخر إلى هذا الملكوت . والعوالم الثلاثة ليست جغرافية ، وليس لها وحدات تاريخية معروفة . إلا أنها وحدات فكرية . وليست دينية بمعنى مِللية .

لننظر إلى العوالم الثلاثة مرة أخرى . فى العالم الشرقى ، يعرف هذا الملكوت بالواقع ويعرف الملكوت الآخر بالنرفانا . الأول ظاهرى ، موقت ، شر ، والثانى حقيقى ، أزلى ، خير . الأول هو الأصل والثانى صدفة ، وعلى الإنسان أن يعود لأصله . ومن السطحية أن ينسب هذا إلى الدين العربى . « إن إلى ربك الرجعى » ليست إخباراً ميتافيزيقيا ، بل أمراً أخلاقياً .

وفى العالم الغربى ، العكس تماماً هو الصواب . الملكوت الآخر هو هذا الملكوت ولكن على غير حالته الطبيعية . أى على حالته الينبغية . لذلك جاءت الآلهة تشخيصاً للقوى الطبيعية . وهذا هو واقع الدين الاغريقى قبل الحركة الفلسفية السقراطية المطهرة ، وهو أيضاً واقع الدين الفرعونى فى النزعة الغالبة فيه ، وهى نزعة ميمفس . وصلت الينا آثارها فى « لوحة شباكا » ، فقد بقيت هذه النزعة متسلطة مدى ٢٥ قرناً . والذى تعبر عنه لوحة شباكا كلامياً ، هو نفسه الذى تعبر عنه « لوحة الملك نارمر » فنياً تصويرياً فى الألف الثالث قبل الميلاد . والأخيرة تمثل الملك كموحد للارضين بلباس تاجيهما وبحجم غير طبيعى — فهو إله لا بشر — وكمحرك للناس والمخلوقات . وهذه هى مادة وفحوى الفن الفرعونى — مدى العصور ، أما فى الفن السابق لعصر نارمر ، مثل « لوحة الصيد » المعروفة ، فلرموز الالهة أيدى تعمل مع الملك على تحريك الناس والمخلوقات . ويدل هذا على أن تأليه الملك حدث فى التاريخ . وتعطينا لوحة شباكا قصة هذا التأليه . فتقول بأن مانس وحد الأرضين وبنى العاصمة ميمفس . وأنه الاله . إلا أن مانيس لم يكن إلا ملكا غزا الارضين بمساعدة عقرب ووحداهما شيئاً فشيئاً . فالعمل السياسى إذاً ، أو الواقعى ، عكس على الاله أو الملكوت الآخر ، وأصبح هو . أى أن الملك أصبح الاله ، « والحيطان البيضاء » أصبحت مكان موت اوزيرس وبعثه فى كل سنة ،

وأصبحت العاصمة السماء . ولا ينكران هنالك نزعة أخرى فى الدين الفرعونى ، مغايرة لهذه ، أى ثنائية فيها تنزيه للملكوت الآخر ، إلا أنها ليست بالنزعة الغالية .

وفى العالم العربى بلغ التنزيه وبلغت الثنائية أوعى مراحلها . « ليس كمثله شيء » ليست إسلامية فحسب بل عربية ، سامية ، ويتلقى الواقع أوامر من الملكوت الآخر ، هى ما يجب عليه أن يكون . إلا أن الأوامر ليست الملكوت الآخر . فعلى الواقع أن يبقى هو بنفسه ، فهو خير فى ذاته ، إلا أنه يجب عليه أن يمتثل للينبغى أن يكون الصادر إليه . ليس الإله رجلا كاملا ولا الرجل إشراقاً وحدثاً للاله . هو خليفة الله فى الواقع .

ويقسم تاريخ الأديان العالم العربى إلى خمسة عصور : ما قبل ابراهيم — حتى ١٨٠٠ ، الابرهيمى — حتى ١٢٨٠ ، الموسوى — حتى الميلاد ، العيسوى — من الميلاد ، وأخيراً ، المحمدى — من الهجرة .

المحاضرة الرابعة :

يقوم الدين العربى على الوعى الماورائى . ويتألف هذا الوعى من خمسة عناصر . التنزيه ، ارتباط الملكوتين ، امرية اليجب أن يكون ، خيرية الواقع وقابليته للتكميل . وعلينا أن نتبين هذه العناصر فى كل من العصور الخمسة .

ويجب علينا التخلص من الحكم بأن الإسلام بدأ ببعث سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، فالاسلام قديم ، والدين ذو تطور ومحمد رسول مكمل . إذا لا بد لجوهر الإسلام من أن يكون موجوداً فى العصور السابقة ، ولا بد من أن يكون هناك تطور جاء الرسول لا كماله . وبرهان الأولى الآيات « ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا .. وإن من أمة إلا خلا فيها نذير .. وما أهلكنا من قرية إلا لها منذرون ... ولقد أرسلنا من قبلك فى شيع الأولين » .. الخ ودليل الثانية ، عدم معقولية امكانية تنزيل القرآن على الأولين ، أو على ابراهيم أو موسى أو عيسى عليهم السلام .

المسلمون يبغضون الجاهلية — وبحق . إلا أن هذا يجب أن لا يحول دون تبينهم القيم الحقيقية فى تاريخ ما قبل الهجرة . وليس كل ما قبل الهجرة جاهلية . وللاسلام تاريخ قبل محمد ، غير ما قاله القرآن عن ذلك التاريخ ؛ لأن : « .. ورسلا قد قصصنا عليك من قبل ورسلا لم نقصصهم عليك ... ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا ان اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت » .

إذاً ، وجب علينا أن نبحث عن دين الله في ما قبل الهجرة . ولكننا لن نتزع وجود قرآن عربي مبين ، ولا فقه مالك وكلام الأشعري . فإسلام هذه الأزمان مطابق لعقلياتها . إذاً ، علينا أن نترك الآثار تحدثنا بلغتها وثقافتها ومفاهيمها . وعلى الأقل ، علينا أن نقتلع من عقليتنا ما قاله الطبرى عنها .

وهذه الآثار مع كل أسف ، لم تدرس من قبلنا ، وعلومها كلها غربية ، مسيحية . ولن ننتظر أن يعاملها الغرب معاملة صادقة . فمع أنها « علوم » و — « تهذيبات علمية » فهي لن تخلص للحقيقة ، لا لأنها ليست علمية كفاية ، بل لأنها علمية . فالعلمية ليست صفة البحث المطلوبة هنا فحسب . بالاضافة اليها يلزم التفهم العاطف المقدر . ذلك لأن المبحوث ليس أحجاراً أو مساطر نباتية أو حيوانية أو فلكية ، بل معاني الهية انسانية .

ويجب علينا ، ثالثاً ، أن لا نرتعد من تعدد ما يسميه الأولون بالآلهة . فالآله في تلك العهود لم يكن « الله » . « فالله » تعني تعريفيا كائنا لا شريك له ، أي أحدا . أما عندهم ، فتعني كلمة « اله » أما كنية لله الأحد وأما رمزا لبشر ، في الأولى ، الاله صفة من صفات الله ، وفي الثانية ، كانت تعني زعيما أو ملكا أو شعبا من الشعوب . فدوموزى وأنكمدوليسا الهين بل رمزين لشعب البادية المتنقل وشعب الفلاحة المستقر . علينا في مطالعتنا لآثار الأولين ، أن نوقف مقولات تفكيرنا وثقافتنا الحاضرة في epoché ونقفز إلى داخل الظاهرة فنحسب نفسنا جالسين مع أجدادنا السومريين والأكاديين والعموريين يحدثوننا عن أنفسهم فنفهم ما يقولون .

فمن سومروا كاد ، ولا يجوز فصلهما عن بعض (ترمز القصة إلى كل منهما باسم جلجاميش واسم أوتنابشتيم وتؤكد وحدتهما قائلة :

Gilgamesh said to him, to Utnapishtim, the faraway

As I look upon thee Utnapishtim

Thy features are not strange, even as I art thou

Thou art not strange at all, even as I art thou.

وصلت الينا ملحمة مطلعها « عندما السماء لم يكن لها اسمها » . . تقص كيف خلق العالم وجعل فيه البشر . وفيها ان مجلسا إلهيا أعضاؤه الآلهة الخمسون اجتمع لمبايعة مردوك الها عليهم . وفي هذه الملحمة تتجلى عناصر الوعي الماورائي الخمسة .

المحاضرة الخامسة :

لنقرأ ملحمة « عندما السماء لم يكن لها اسمها » فى كتاب

Pritchard, James, B., *Ancient Near Eastern Texts Relating to the old Testament*, Princeton University Press, Princeon, New Jersey, 1950, pp. 67 ff.

نجد الثنائية فى الأبيات ... Verily, he is supreme , ص ٧٠ وما يليها . ونجد التنزيه للملكوت الآخر فى الأبيات ...No one among the gods is his equal وما يليها . ونجد امرية اليجب أن يكون فى الأبيات His commands we have exalted ...above the gods وما يليها ، ص ٦٩ ، ونجد فى ص ٦٨ ، ٦٧ ، ٦٦ ما يثبت أن المؤلف اعتبر مردوك خالقاً مواد الآلهة ومدبراً لأمورها . ونجد خيرية ملكوت الواقع وقابليته للتكميل ووقوع واجب التكميل على الانسان فى الأبيات A likeness on Earth ...of what he has wrought in Heaven ، وما يليها .

وفى سومر واكاد ، وصلت علاقة الملكوتين ببعضهما أروع الصور . وهناك تمثلها الدين العربى كامرية ، كقانون ، مصدره الملكوت الآخر . وليس قانون ليبيت — إيشطار وقانون حمورابى إلا بلورة لهذه الامرية . لنقرأ نص القانونين فى الكتاب المذكور ص ١٥٩ وما يليها وص ١٦٥ و ١٧٨ وما يليها .

ولا بد من الملاحظة أن هذا الوعى الماورائى الذى يتجلى فى الآثار أصل المدنية السامية — أو العربية . هو حياتها وتعبيرها الدائم عن كيانها . ووحدة هذه الآثار هى وحدة الأمة التى أخرجتها ، أى الأمة العربية خلال سبعة آلاف من السنين . فالتاريخ القديم هو تاريخها . وهى أمة واحدة لا لوحدة لغتها فحسب ، أو لوحدة جغرافيتها ، أو وحدة البشرية فيها فحسب بل — وهذا هو الأهم — لوحدة الدين أو الايديولوجيا .

ولا شك أن الثنائية والتنزيه والامرية وجدت فى التراث المصرى القديم . إلا أنها لم توجد فيه بمثابة المجرى الأم ، بل كالفرع المناوىء للأم أحياناً كما فى عصر الهيكسوس والعمارنة ، والدفين المغلوب على أمره غالباً . فلآمون راع صفات لا تقل تنزيهية عن صفات مردوك ، ذى الأسماء الحسنى « الخمسين » . وكذلك نشيد آتون الشهير وأناشيد توتمسيس التوحيدية .

لنقرأ شيئاً من هذه الأناشيد ، لا سيما ...Whilst thou wert alone ص ٣٧١ من الكتاب المذكور ما يليها وص ٣٧٣ وما يليها . نرى أن لنشيد آتون نزعة pantheistic هندية ، لا عربية ، ونجد أن الممجد فى الأناشيد التوحيدية هو إما فرعون أو النيل أى الطبيعة ، أى ملكوت الواقع .

المحاضرة السادسة :

مراجع دراسة تاريخ الأديان فى العالم العربى فى العصر الابرهيمى هى : آثار تل الحريرى (مارى) ، آثار راس شمرا (أوجاريت) ، آثار فلسطين ، آثار تل العمارنة ، التوراة ، القرآن الكريم .

تقول الآثار بأن موجات متتالية من المهاجرين من الصحراء الغربية ومن العراق نزلت فى ديار الشام . وتعرف هذه الهجرات بالهجرات الآرامية . وتقول الآثار أيضاً أن هؤلاء المهاجرين نزلوا فى سوريا وشرق الأردن وتغلغلوا إلى الداخل شيئاً فشيئاً وعلى دفعات . وقد أسسوا ممالك صغيرة على تخوم الصحراء عرفها عصر موسى كموآب وعيلام ، وآدوم ، وحشبون وفاران ، الخ وعرفها العصر العيسوى . كغسان والحيرة والبقراء وتدمر الخ . وتدل الآثار على أن القوانين والعادات بين هذه القبائل المهاجرة كانت متشابهة وقريبة من بعضها البعض ، بل واحدة . مما لاشك فيه أن دين معظم هذه القبائل كان نفس دين البلاد التى هاجروا منها ، كما أنه لابد أن يكون المهاجرون ذوى رأى خاص مندفع فى اتجاه ما أو غيره ، وبذلك يكونون متميزين بعض الشىء عن إخوانهم الباقين . فالهجرة تفترض نوعاً من الاختلاف فى الحيوية أو وجهة النظر بين المهاجر والقاعد .

وهنا ، جاءت التوراة وجاء القرآن الكريم يؤديان رسالتيهما . كلاهما توجه إلى حوادث التاريخ التى هى واحدة . وكلاهما تفهم هذه الحوادث بطريقته الخاصة ، تحت مؤثرات ومبادىء مختلفة . فالتوراة صورت هذه الحقائق التاريخية فى قالب يؤكد العنصرية ، أما القرآن الكريم فقد قدمها فى قالب يؤكد الحنيفية . ولكن المسألة ليست مجرد اختلاف وجهه النظر بين الكتابين . فالتوراة ، يوما ما ، هى أيضا قدمت الحقائق من وجهة نظر الحنيفية . إلا أنها غيرت نفسها على مرور الزمن . وهذا دليل على ان الحنيفة ، أو الخبر التاريخى كما قاله القرآن الكريم ، هو الحق . فوجود الحنيفية فى التوراة بشكل محرف ، دليل خارجى على صدق خبر القرآن الكريم .

ولكن ما هى العنصرية وما هى الحنيفية ؟ العنصرية هى تمثل حزب أو قبيلة من المهاجرين انفسهم كنوع أفضل من المخلوقات واتباع نظام أخلاق يقضى بالحفاظ على سلامة عنصرهم وعدم الانصهار فى أية قبيلة أو شعب أو أمة أخرى . أما الحنيفية ، فهى تمثل المهاجرين أنفسهم كذوى رسالة ، يحملونها إلى البشر أجمع ، ويحققونها بالانصهار فى جسم البشرية انى كانوا وباهداء الذين ينصهرون معهم عن طريق المصاهرة والمؤاخاة ، لغتهم وثقافتهم ورسالتهم .

لذلك ، جاءت التوراة بعد أن بلورتها العنصرية تقول بأن ابراهيم هاجر لأن يهوه أمره بذلك . ولكنها تتعمد السكوت على أمر يهوه . فهى تقول أنه أمر تلقائى عرفى ، أى لا سبب له . فالله ، فى نظرها ، فضله لأنه هو . وقد فضل ذريته لأنها ذريته ، بل قطع عهدا (لا ميثاقا ، والفرق بين العهد والميثاق ان الأول ذو اتجاه واحد أى يلزم جهة واحدة فقط) على نفسه بتفضيلها مهما حصل إلا الأبد . حتى الاله ، تمثلته كاله هذا العنصر من دون الناس . أما القرآن الكريم ، فجاء يعلن ان الله اله الجميع لا قدرة وقهرا بل حبا ورحمة . وجاء يؤكد ان هجرة ابراهيم لسبب وجيه ، هو التوحيد ، وان الله أعطى له ميثاقا بأنه تعالى سيجازيه أحسن الجزاء إذا قام وقومه بتحقيق أمانة السموات ، وأنه تعالى سيعاقبه أشد العقاب ، بل سيستبدله وقومه ، إذا لم يحققوا هذه الأمانة .

إذاً ، أمامنا نزعتان: نزعة أقلية متعنتة ونزعة أكثرية متفتحة أخلاقية . لولا الأولى ، لما استطاع المهاجرون الذين تابعوا سيرهم إلى مصر الابقاء على عنصرهم فى مصر ولما اضطهدهم المصريون - خلافا لما قاله الدكتور محمد كامل حسين فى كتابه ، متنوعات ؛ ولولا استمرارها لما قامت الدولة الداودية المؤلهة ولما كان تاريخ اليهود المعروف . فاليهود أبناء هذه النزعة . ولولا الثانية ، لما جاءت ثورة اخناتون على الدين الفرعونى ، ولما استطاع الخارجون من مصر أن ينصهروا فى قبائل سيناء ومدين وممالك التخوم الشامية كما فعلوا .

محافظات الجمهورية العربيـــة المتحدة

فى العصر الإســـلامى

للدكتورة سعاد ماهر

التقسيم الإدارى للإقليم المصرى فى العصر الإسلامى

تنقسم مصر من الوجهة الجغرافية منذ أقدم العصور إلى قسمين أساسيين ، هما الوجه البحرى أو أسفل الأرض أو الريف ويقع فى دلتا نهر النيل ، والوجه القبلى أو الصعيد أو أعلى الأرض . وقد أجرى حاكمو القسمين تقسيمهما إلى عدة أقسام صغيرة ليسهل حكمها والاشراف عليها ، وأطلقوا على هذه الأقسام أسماء تغايرت بتغير الزمان وتعدد الحكام ، ولما دخل العرب مصر وجدوا ان الرومان قد قسموها إلى أقسام إدارية صغيرة يعرف كل منها باسم (Nome) ، جريا على سياستهم الحميدة التى انتهجوها فى البلاد التى فتحوها ، فأبقى العرب النظام الإدارى والمالى على ما هو عليه وأبدلوا باسم (نوم) كلمة كوره .

وفى أوائل العصر الإسلامى كانت مصر مقسمة إلى سبعة أقاليم أولها الجفار وقاعدته الفرما وآخرها الواحات[1] . وكانت هذه الأقاليم السبعة تنقسم بدورها إلى ثمانين كوره[2] . واستمر هذا التقسيم حتى عهد الخليفة الفاطمى المستنصر بالله فى القرن الخامس الهجرى فعدل عنه وقسمت البلاد إلى كور كبيرة بلغ عددها ٢٢ كورة ، اثنتا عشرة منها فى الوجه البحرى وعشر فى الوجه القبلى وكان عدد القرى فى الوجهين ٢١٤٨[3] قرية منها ١٦٠١ فى الوجه

---

(١) أحسن التقاسيم ص ١٩٣ ، المقريزى ج ١ ص ٣٠٥

(٢) صبح الأعشى ج ٣ ص ٣٧٩ ، المقريزى ج ١ ص ٧٢ و ٧٣ و ٧٤

(٣) أبو صالح الأرمينى : ص ٩

البحرى و٥٤٧ فى الوجه القبلى . ولما جاء الأيوبيون أضافوا إلى هذا التقسيم كورتين فأصبح عددها ٢٤ كورة [١] .

وفى العصر المملوكي أمر الناصر محمد بن قلاوون سنة ٧١٥ هـ أن يفك زمام الأراضى وأن يعاد مسحها وتقسيمها إلى أقسام يعرف كل منها باسم « عمل » على أن يكون عددها ٢١ عملا بدلا من ٢٤ كورة . فكان الوجه البحرى ١٢ عملا والوجه القبلى تسعة أعمال ، وقد عرف هذا الأمر أو المرسوم باسم (الروك الناصرى [٢]) . وقد استمر هذا التقسيم طوال العصر المملوكي أى حتى سنة ٩٢٣ هـ .

وفى العصر العثمانى فك زمام القطر وأعيد مسحه وتقسيمه إلى ١٣ قسما سمى كل قسم باسم ولاية [٣] ، منها سبعة فى الوجه البحرى وستة فى الوجه القبلى ، ودوّن ذلك فى دفاتر عرفت باسم (دفاتر التربيع) . ويشمل الوجه القبلى ولايات : الاطفيحية والفيومية والبهنساوية والاشمونين والمنفلوطية وجرجا ، ويشمل الوجه البحرى ولايات : القليوبية والشرقية والدقهلية والغربية والمنوفية والبحيرة والجيزة ، هذا بالاضافة إلى ست محافظات هى الإسكندرية ورشيد ودمياط والعريش والسويس والقصير ، وكان يرأس كل ولاية حاكم أو كاشف ويرأس المحافظة محافظ أما القاهرة فكان يرأسها شيخ البلد .

وفى عصر محمد على أعيد تقسيم البلاد إلى ٣٤ قسما سمى كل منها مأمورية . وفى سنة ١٨٣٣ أعاد التقسيم مرة ثانية وجعلها ١٤ قسما وسمى كل منها مديرية .

وقد ظلت هذه التسمية سارية إلى أن عدل عنها سنة ١٩٦٠ فى عهد ثورتنا المجيدة ، فقد أبدل بكلمة مديرية كلمة محافظة وقسمت البلاد إلى ٢٥ محافظة على نحو ما كانت عليه فى عهد الفاطميين والأيوبيين من حيث العدد ، إذا كانت ٢٤ كورة وان اختلفت الأقسام فى المساحة والحدود . وسأتناول فيما يلى كل محافظة على حدة فاذكر تاريخها وآثارها وأعلامها وأقسامها الادارية .

---

(١) ابن مماتى ص ١٤

(٢) المقريزى جـ ١ ص ١٤١

(٣) ابن اياس ص ٧

محافظة القاهرة

أسس الفاطميون بعد فتحهم مصر سنة ٣٥٨ هـ مدينة القاهرة لتكون عاصمة لملكهم الجديد ومركزاً لنشر دعوتهم الدينية . وقد عملوا منذ اللحظة الأولى على حماية هذه العاصمة فأحاطوها بسور وكان ذلك على يدى قائدهم الصقلى. ولما تهدم ذلك السور بعد ثمانين عاما ، أعاد بدر الجمالى وزير الخليفة المستنصر بالله سنة ٤٨٠ هـ بناءه بالحجر والآجر ، ولا تزال بعض أجزاء هـذا السور الأخير باقية حتى اليوم . عند باب زويله وباب النصر وباب الفتوح ، كما عمل خلفاء الفاطميين على تعمير المدينة فشيدوا الدور والقصور والمناظر، وزرعوا البساتين والمتنزهات ، وأقاموا المساجد والجوامع وأنشأوا المكتبات العامة ودور العلم وأهمها الجامع الأزهر ، وجامع الحاكم ، ودار الحكمة . كذلك أقطعوا أتباعهم وأشياعهم الخطط ، فسكنوها وعرفت بأسمائهم .

ولما تولى صلاح الدين الأيوبى ملك مصر سنة ٥٦٧ هـ ، كان عليه أن يحصن عاصمة البلاد حتى يطمئن عليها أثناء غيابه فى محاربة الصليبيين فى بلاد الشام ، فأنشأ قلعة الجبل على صخرة مفصولة من جبل المقطم ، ثم أحاط عواصم مصر الاسلامية الاربع ، وهى مدينة الفسطاط والعسكر والقطائع والقاهرة بسور واحد . وعلى ذلك يمكننا القول أن عاصمة صلاح الدين شملت عواصم مصر الاسلامية الاربع السابقة ، وأطلق عليها جميعا اسم القاهرة ، أما أسماء العواصم الأخرى فقد تضاءلت إذ أضحت كأنها أحياء فى قاهرة صلاح الدين . ولما كانت الدولة الأيوبية سنية المذهب ، فقد عملت منذ توليها مقاليد الحكم على نشر هذا المذهب ومناهضة المذهب الشيعى الذى كان سائداً فى العصر الفاطمى ، فأنشىء لذلك كثير من المدارس المذهبية .

وفى عهد دولتى المماليك البحرية والجراكسة ، بلغت مدينة القاهرة شأوا كبيراً من الناحيتين المادية والأدبية ، جعلها محط أنظار العالم كله ، خاصة بعد أن أفل نجم مدينة بغداد باستيلاء المغول عليها سنة ٦٥٦ هـ ، وسقوط مدينة قرطبة على يد الفرنجة سنة . وقد نتج عن ذلك أن أضحت مدينة القاهرة السوق الكبير للبلاد الاسلامية والعربية ، فكان عليها أن تنشىء مبانى عامة لاستضافة الوافدين عليها من التجار والرحالة ، ومن أجل هذا كثر فى هذا العهد إنشاء الخانات والوكالات والفنادق ، التى لايزال الكثير منها باقياً حتى اليوم . ومما لا شك فيه أن العصر المملوكي يعد بحق العصر الذهبى لمدينة القاهرة ،

على الرغم مما تخلله من المنازعات والثورات والشغب الذى كان يحدث عند تولية كل سلطان جديد .

وعلى الرغم من التدهور السياسى والأدبى والاجتماعى الذى عانته مدينة القاهرة أثناء الحكم العثمانى ، فانها ظلت محتفظة بمكانتها العمرانية ، فقد قام كثير من السلاطين وولاتهم فى مصر بتشييد كثير من العمائر الدينية ، كما انتشر فى ذلك العصر عادة بناء الأسبلة والتكايا التى تجلت فيها طرز الفن العثمانى .

وفى القرن التاسع عشر ضاقت مدينة القاهرة بساكنيها فامتدت مبانيها شمالا وجنوباً وضمت اليها من الناحية الادارية وعرفت بضواحى القاهرة . وفى سنة ١٩٦٠ ضمت لمحافظة القاهرة بعض الأعمال التى كانت تتبع غيرها من الأقسام الادارية ، وفيما يلى بيان بضواحى القاهرة .

الضواحى الجنوبية :

حلوان : [١] أنشأ عبد العزيز بن مروان والى مصر مدينة حلوان سنة ٦٨ هـ ، ويقول ياقوت « إن حلوان قرية من أعمال مصر مشرفة على النيل من جهة الصعيد بينها وبين الفسطاط فرسخان ، وأول من اختطها عبد العزيز بن مروان ، وضرب بها الدنانير وبنى بها دوراً وقصوراً واستوطنها وزرع بها بساتين وغرس فيها كروماً ونخلا » . ويستفاد مما ذكره المقريزى[٢] نقلا عن ابن عبد الحكم، أنه كان يوجد بصحراء حلوان عيون ماء عذبة غير عيونها الكبريتية . ثم يضيف ، إن عبد العزيز بنى هناك سنة ٧٠ هـ مقياساً للنيل . وجاء فى الخطط للمقريزى[٣] «إن عبد الله (المأمون) أمير المؤمنين لما قدم مصر أقام فى حلوان». وقد سعدت حلوان طوال العصور الوسطى وازداد عمرانها بإقامة الأمراء والأعيان فيها ، ثم أخذت بعد العصر المملوكي فى القرن ١٦ م تتقهقر حتى تخربت قصورها ومساجدها وكنائسها ويقول الجبرتى « إن شيخ البلد أحرقها سنة ١٧٨٦ م ، أما الآن فانها قرية عادية مدفونة فى غابة من النخيل » . وظلت حلوان قرية مهجورة ومتخربة حتى القرن ١٩ م

---

(١) معجم البلدان ج ٤ ص ١٩ ، المقريزى ج ١ ص ٣٣٧ ، أحسن التقاسيم ج ص ١٧ ، الكندى ص ٤٩

(٢) المقريزى ج ١ ص ٣٣٩

(٣) المقريزى ج ١ ص ٣٣٨

ففيه اكتشفت عيونها الكبريتية وأنشئت الحمامات سنة ١٨٩٩ م . وقد زادت أهميتها عندما نقل اليها المرصد من مكانه بالعباسية إلى مقره الحالى بحلوان وأنشئت بها مصانع للنسيج والحرير وللحديد والصلب .

طره : قرية قديمة منذ العصر الفرعونى ، ولما جاء العرب استعملوا اسمها القبطى (Troyo) ومعناه (أرض المغارات المخيفة) أى المحاجر ، وهى تقع على شاطىء النيل الشرقى وهى شهيرة بمحاجرها التى تخرج الحجر الجيرى الأبيض الجميل . ووردت فى معجم البلدان [1] (طرا) قرية فى شرقى النيل قريبة من الفسطاط من ناحية الصعيد . وجاءت فى معاجم البلدان الأخرى (طرا) من الاعمال الاطفيحية . وقد عثرت مصلحة الآثار فى مغارة قديمة فى جبل طره على بعض الأوراق البردية تتضمن تفسيرا للكتاب المقدس وترجع إلى القرن الرابع أو الخامس الميلادى ، ولعل وجود هذه المخطوطات فى تلك المغارة يشير إلى الدير الذى ذكر أبو صالح [2] أن القديس ارسنيوس كان يقيم به فى تلك المغارات ، والذى عرف فيما بعد باسم دير القصير . ويقول المقريزى أن الحاكم بأمر الله أمر سنة ٤٠٠ هـ بهدم دير القصير ، ومع ذلك ظل أجزاء منه باقية حتى القرن (١٤ م) ، حيث اندثرت تماما .

المعادى : قرية قديمة عرفت باسم منية السودان [3] . ويقول أبو صالح الأرمنى [4] أن دير العدوية واقع بأرض منية السودان ، ولا يزال هذا الدير موجوداً بين المعادى وطره ، وقد سمى بهذا الاسم نسبة إلى سيدة مغربية أنشأته تسمى العدوية ويسميه النصارى الآن كنيسة العذراء . وقد وردت فى كثير من معاجم البلدان [5] العربية باسم العدوية ، ووردت فى الانتصار [6] « العدوية ضمن ضواحى القاهرة بين بركة الحبش (دير الطين) وطرا » . وفى العصر العثمانى عرفت العدوية باسم (معادى الخبيرى) حيث كان بها مرسى المراكب المخصصة لتعدية الناس ، وكان يتولى رياسة تلك المعادى رجل يسمى على الخبيرى فنسبت إليه واشتهرت باسمه . وكانت المعادى تابعة لناحية البساتين ومنذ سنة ١٩٦٠ أصبحت تابعة لمحافظة القاهرة .

---

(١) معجم البلدان ج ٧ ص ٣٧
(٢) الديورة والكنائس : ص ١١٩
(٣) الادريسى نزهة المشتاق ص ١٩٦ ، القاموس الجغرافى ج ٣ ص ١٧
(٤) الديورة والكنائس ص ١٣٧
(٥) ابن مماتى ص ١٧٢
(٦) ابن دقماق ص ١٨٤

أثر النبى [١] : قرية صغيرة كانت تتبع مديرية الجيزة ، وهى على الشاطىء الشرقى للنيل ، وملاصقة لدير الطين أخذت اسمها من وجود حجر قديم على هيئة قدم تزعم الناس أنه أثر قدم النبى عليه الصلاة والسلام . وقد أدخل هذا الحجر فى المسجد الذى أقامه الملك الظاهر بيبرس وبنى قبة فوق هذا الأثر . وفى القرن (١٦ م) ضمت الأراضى الزراعية فى منطقة البستان المعشوق وبركة شطا وبركة الشعبية إلى بعضها ، وتكون منها زمام خاص باسم ناحية أثر النبى [٢] ، وهى الآن تتبع محافظة القاهرة ويسميها العامة أثر النبى بالتاء بدل الثاء .

الضواحى الشمالية :

عين شمس والمطرية : عين شمس [٣] مدينة مصرية قديمة عرفت باسم (أون) أى الشمس وترجم البطالمة الاسم فصارت تعرف فى وقتهم باسم (هليوبوليس) ، وفى العصر المسيحى استعمل الأقباط الاسم القديم (أون) . ولما دخل العرب مصر ترجموا الاسم إلى العربية فأصبحت تعرف باسم مدينة الشمس . وكان بجوار المدينة عين ماء معروفة سماها العرب عين شمس فغلب اسمها على اسم المدينة وعرفت به .

وقد نقل ابن سعيد عن كتاب « لذة الملمس فى حلى كورة عين شمس » انها كانت فى قديم الزمان عظيمة الطول والعرض ومتصلة البناء بمدينة مصر حيث قامت مدينة الفسطاط ، ومعنى هذا ان مدينة عين شمس كانت إلى ما قبل الفتح العربى تمتد من موقعها الحالى جنوبا حتى حصن بابليون ، والآن يطلق اسم عين شمس على محطة عين شمس وعلى المساكن المجاورة لها الواقعة على السكة الحديدية فى شمال المطرية .

والمطرية من المدن المصرية القديمة قال عنها ياقوت [٤] « انها من قرى مصر وبأرضها يزرع شجر البلسان يستخرج منه نوع من الدهن الطيب » . وقال عنها ابن الجيعان [٥] ، انها من ضواحى مصر وذكرها المقريزى [٦] باسم منية مطر .

---

(١) المقريزى جـ ٤ ص ٢٩٥ ، القاموس الجغرافى جـ ٣ ، ص ٣
(٢) الخطط التوفيقية جـ ٥ ص ٦
(٣) نزهة المشتاق ص ١٧٦ ، معجم البلدان جـ ٦ ص ١٩٥ قوانين ابن مماتى ص ١٦٧
(٤) معجم البلدان جـ ٨ ص ١٦١
(٥) التحفة السنية ص ١٨٢
(٦) الخطط جـ ٣ ص ٢٢٧

مصر الجديدة : يستفاد مما جاء فى خطط المقريزى[1] ان الريدانية اسم يطلق على بستان كبير انشاه ريدان الصقلى أحد خدام العزيز بالله الفاطمى ، وجاء فى القاموس[2] الجغرافى ان اسم الريدانية كان يطلق على البستان وما جاوره من الأرض الرملية التى كانت تمتد فى ذلك الوقت ما بين باب الحسينية وبين الصحراء التى بها الآن مصر الجديدة . ويؤيد ذلك جميع الوقائع والأحداث التاريخية التى وقعت فى الريدانية منذ نهاية عصر المماليك سنة ١٥١٧ وفى سنة ١٨٠٠ عندما التقت الحملة الفرنسية بجيوش العثمانيين هناك . أما اسم مصر الجديدة فلم يطلق عليها إلا فى سنة ١٩٠٦ عندما اشترتها الشركة البلجيكية ، وقد أممت أملاك الشركة البلجيكية الآن وأصبحت ملكا للدولة .

* * *

محافظة أسوان

أسوان لغة الحزن ، من قولهم أسى الرجل إذا حزن ، ورجل اسيان وأسوان أى الحزين . ومن الطريف ان المقريزى[3] يحاول تفسير اسم أسوان على هذا الأساس اللغوى دون النظر إلى اشتقاق الاسم من الاسم الفرعونى . فقد كانت تعرف باسم سونو[4] (أى السوق) وذلك لشهرتها بحركتها التجارية بين مصر وبلاد النوبةوالسودان ، ثم حرفت الكلمة وأصبحت أسوان . ويقول البعض أنها مشتقة من كلمة صوان ، وذلك لوجود محاجر الصوان والجرانيت فيها بكثرة . وكانت أسوان فى العصر الإسلامى ثغرا من ثغور كورة القوصية[5] واستمرت كذلك حتى نهاية العصر المملوكى ، وفى العصر العثمانى أصبحت ثغرا لولاية جرجا ، وذلك لأن أعمال الأسيوطية والاخميمية والقوصية ضمت بعضها إلى بعض وجعلت ولاية واحدة باسم جرجا . وفى عصر محمد على ضمت إلى مديرية اسنا . وفى سنة ١٨٨٨ م أصبحت قاعدة لمديرية الحدود وفى سنة ١٩٠٠ جعل اسم المديرية أسوان وقاعدتها أسوان واستمرت حتى سنة ١٩٦٠ فأصبحت محافظة . وقد انتشر الإسلام بأسوان منذ بدء ظهوره ، فقد عثر على شاهد قبر يرجع إلى سنة ٣١ هـ كما عثر على شواهد

---

(١) الخطط جـ ٣ ص ٢٢٩

(٢) القاموس الجغرافى جـ ١ ص ١٧

(٣) المقريزى جـ ١ ص ٣١٩

(٤) سليم حسن جـ ١ ص ٧٥

(٥) معجم البلدان جـ ١ ص ٢٤٨ ص والنجوم الزاهرة ص ٢٩٢ جـ ٥ حاشية

قبور أخرى مكتوب عليها الاسم ثم تجيء بعده كلمة الانصارى[1] ، ومعنى ذلك ان مدينة أسوان سكنها أقوام من العرب من القرن الأول الهجرى ممن عاصروا الرسول عليه الصلاة والسلام .

ازدهرت أسوان فى العصر الاسلامى ، إذ ظلت منذ الفتح حتى القرن السادس الهجرى طريقا إلى عيذاب حيث تبحر السفن إلى الحجاز والهند ، واشتغل أهلها بالتجارة وخاصة العطارة وسن الفيل والصمغ وريش النعام . كما كانت تمتاز بالتمر ، ويقول المقريزى[2] فى ذلك ، والبلد كثير النخل خصيب كثير الخير ، تودع النواه فى الأرض فتنبت نخلة ويؤكل من ثمرها بعد سنتين ، ويقول القاضى الفاضل ، ان متحصل ثغر أسوان فى سنة واحدة ثلاثون ألف أردب من التمر . وكانت حدود أسوان متداخلة مع بلاد النوبة ، ولذلك كان على من يملك من أهلها ضياعا داخلة بأرض النوبة أن يؤدى خراجها إلى ملك النوبة ، وقد ابتيعت هذه الضياع من بعض رجال النوبه فى صدر الاسلام فى عهد الدولة الأموية والعباسية . وقد أغار ملك النوبة[3] سنة ٣٤٤ ﻫ فى العهد الاخشيدى على أسوان فخرج اليه محمد بن عبد الله الخازن بجنوده براً وبحراً وهزمه وأسر وسبى كثيرا من النوبيين وسار جنوبا حتى وصل ابريم وفتحها . وكان ثغر أسوان حتى نهاية العصر الفاطمى خاضعا خضوعا تاما للدولة فقد كان بأسوان دائما قوات من الجيش على أهبة الاستعداد لحمايته ضد غارات النوبة والسودان ، فلما زالت الدولة الفاطمية أهمل أمر الثغر مما شجع ملك النوبة على الهجوم والاستيلاء عليه . وفى سنة ٧٩٠ ﻫ استطاع بنو الكنز أن يستردوا الثغر من ملك النوبة ولكنهم احتفظوا به لأنفسهم فقامت بينهم وبين ولاة أسوان من قبل دولة المماليك عدة حروب حتى كانت محنة سنة ٨٠٦ ﻫ عندما انخفض منسوب مياه النيل وحدثت مجاعة وخرب اقليم الصعيد وتخلت الدولة عن الثغر ولم يبق للسلطان فى المدينة وال[4] ، واستمر الحال على ذلك بضع سنين حتى زحف أهل هواره على بنى الكنز سنة ٨١٥ ﻫ وهزموهم وهدموا سور المدينة وتركوها خرابا يبابا . وفى نهاية القرن (٩) ﻫ استعادت المدينة مكانتها التجارية .

---

(١) Monneret de Villard : La Musulmama di Aswan. P 2

(٢) معجم البلدان ج ١ ص ٢٤٩ ، المقريزى ج ١ ص ٣٣١

(٣) المقريزى : ج ١ ص ٣٢٠

(٤) النجوم الزاهرة ج ١٢ ص ٣٠١ ، اغاثة الأمة ص ٤٢

وسكن أسوان قبائل من قحطان ونزار وربيعة ومضر والأنصار وبنى هلال وكثير من القرشيين ويقول الأدفوى [1] أنه كان بأسوان ثمـانون رسولا من رسل الشرع ، كما عثر على وقف مكتوب عليه اسم أربعين شريفاً ووقف آخر عليه اسم ستين شريفاً .

وكما كانت أسوان مركزاً تجارياً كانت كذلك مركزاً ثقافياً مهماً فى القرنين السادس والسابع للهجرة ، فقد كانت بها ثلاث مدارس [2] لتدريس علوم الشريعة واللغة العربية أقدمها مدرسة أسوان وقد درس بهـا العلامة اسماعيل بن محمد بن حسان الانصارى ، والمدرسة السيفية وقد تولى التدريس فيها العلامة عمر بن محمود الانصارى المتوفى سنة ٦٦٧ هـ والمدرسة النجمية وقد درس بهـا علماء أجلاء منهم العلامة الحسن بن محمد بن عبد العزيز ابن المفضل المتوفى سنة ٧٠٢ هـ وقد تخرج فى هذه المدارس عدد عظيم من العلماء والأدباء .

وقد يكون من الطريف أن نذكر أن فكرة بناء خزان بأسوان نشأت فى عهد الحاكم بأمر الله ، فقد بلغه أن الرياضى الكبير والمهندس البصرى الحسن بن الهيثم ، قال ، لو كنت فى مصر لعملت فى نيلها عملا يصلح به النفع فى كل حالة من حالاته من زيادة ونقص ، فأرسل إليه الحاكم بأمر الله يدعوه إلى الحضور ويرغبه فى ذلك فلمـا حضر استقبله الخليفة وأكرمه وطالبه بما وعد به فى أمر النيل فسار ومعه الصناع حتى وصل إلى الشلال وعاين الموقع الذى تخيره ولأمر ما امتنع بعد ذلك عن تنفيذ فكرته وتظاهر بالجنون .

ولا تقتصر الآثار الباقية فى أسوان على تلك التى ترجع إلى العصر الفرعونى والبطلمى والرومانى ، بل أنها تزخر كذلك بالآثار المسيحية والاسلامية . ومن أهم آثارها القبطية دير الأنبا سمعان [3] الذى يطلق عليه أهل أسوان اسم الأنبا هدرا نسبة إلى رئيس الرهبان الذين عاشوا فى القرن (٥ م) فى البقعة التى أقيم فيها الدير فيما بعد . ويقع الدير على تل مرتفع فى الصحراء الغربية قبالة جزيرة (الفنتين) ولهذا الدير أهمية خاصة لأنه يعطينا فكرة شاملة عن حالة الأديرة فى مصر العليا فى العصور الوسطى إذ أنه ظل آهلا بسكانه منذ إنشائه حتى القرن (١٢ م) ويتكون الدير من الكنيسة وسكن الرهبان الذى يتكون من طابقين العلوى لسكنى الرهبان ، أما الطابق الأول فكان يستعمل كمخازن لحفظ الأطعمة ومعاصر

(١) الطالع السعيد ص ١٣
(٢) النوبة : عبد الله بن أحمد بن سليم الاسوانى ص ٢١٧ ، الطالع السعيد ص ١٤
(٣) أبو صالح الأرمينى ص ١٧

للزيوت وأفران وما إلى ذلك مما يمكن الرهبان من المعيشة داخل أسوار الدير مستقلين عن العالم الخارجى ومتفرغين للعبادة .

أما عن الآثار الاسلامية فإن أقدمها يرجع إلى القرن الاول الهجرى . وهو شاهد قبر من الحجر الجيرى عليه كتابة باسم ابن حجر الاسوانى ومؤرخ سنة ٣١ هـ وهو يمثل أقدم كتابة على الحجر فى مصر الاسلامية كذلك احتفظت لنا جبانة أسوان بعدد كبير من القبور وشواهدها التى يمتد تاريخها من القرن الثانى للهجرة حتى العصر المملوكي . وبهذه الجبانة توجد أول محاولة لإقامة القباب على الأضرحة فى مصر وكان ذلك فى العصر الفاطمى [1] . ومن أهم هذه المبانى (السبعة وسبعين ولى) ويقول الأسوانيون عنه أنه ضريح ، ولكنه فى الواقع مسجد كما يتضح من تخطيطه ، فهو يتكون من شكل رباعى تبلغ مساحته ١٢ متراً مربعا وقد غطيت هذه المساحة بتسع قباب وله مدخلان . ويشبه هذا المبنى مشهد طباطبا ، غير أن الدعائم ذات التخطيط الصلبى قد حل محلها اعمدة من الجرانيت ، كما أن المحراب مستدير من الخارج بخلاف طباطبا فهو مربع وبذلك يمكن إرجاع هذا الأثر إلى العصر الفاطمى [2] .

وبالقرب من (السبعة وسبعين ولى) يوجد ضريح كبير يعرف باسم المشهد ، الذى يشبه من حيث أقبائه وقبابه أضرحة السيدة عائكة والجعفرية والشيخ يونس والسيدة رقية بالقاهرة ، ويمكن إرجاع هذا الأثر إلى نهاية العصر الفاطمى [3] . وعلى بعد نصف ميل جنوب فندق « كاتاركت » يوجد فناء غير منتظم التخطيط فى ركنه الشمالى مئذنة تعرف باسم الطابية [4] وهى مبنية من الطوب من الخارج ومن الطمى من الداخل ، وقد سقطت الطبقة الثالثة للمئذنة وكذا القبة . وتمتاز هذه المئذنة بوجود كتابات على الطبقة الثانية ، وقد حدثت هذه الكتابة من استعمال قوالب الطوب بأوضاع مختلفة ، وقد تكون هذه المئذنة من عمل بدر الجمالى . وعلى الجانب الشرقى لنهر النيل جنوب الشلال يوجد مشهدان يعرفان عند أهل النوبة باسم المشهد البحرى (أو الباب) وباسم (مئذنة بلال [5]) ،

---

(١) Creswell. III p. 142

(٢) المرجع السابق ص ١٤٤

(٣) المرجع السابق ص ١٤٥

(٤) المرجع السابق ص ١٥٢

(٥) المرجع السابق ص ١٤٧ – ١٤٩

للمشهد القبلي . وقد كان من نتائج التعلية الثانية لخزان أسوان ، أن غمرت المياه المشهدين ولم يعد يظهر منهما غير المئذنتين ، والمشهدان من عمل بدر الجمالى أيضاً .

وفى شرق المدينة وعلى التل المعروف باسم جبل هارون أقام محمد على طابيه ، كما أقام قلعة فى وسط المدينة لتعليم وتدريب الجنود الذين أتى بهم من السودان .

* * *

محافظة قنا

قنا مدينة مصرية قديمة شهيرة بالصعيد الأعلى[١] ، تقع على الشاطىء الشرقى للنيل ، وكانت منذ عهد الدولة الفاطمية حتى نهاية الحكم المملوكى من أعمال القوصية ، وفى العصر العثمانى كانت من أعمال ولاية جرجا ، وفى سنة ١٨٣٣ ضمت مأمورية قنا إلى مأمورية اسنا وتكون منهما مديرية واحدة تارة باسم مديرية نصف ثانى قبلى وأخرى باسم مديرية عموم قنا واسنا وفى سنة ١٨٥١م سميت المديرية باسم قنا وقاعدتها قنا وفى سنة ١٩٦٠ أصبحت محافظة .

وقال ابن جبير[٢] عن قنا ، انها من مدن الصعيد المشهورة وكانت بيضاء أنيقة ذات مبان مشيدة وكانت معظم مبانى المدينة طوال العصور الوسطى بالآجر واللبن وأكثرها مكون من طابقين . ولما أصبحت المدينة عاصمة للمديرية فى القرن (١٩م) . بنيت بها القصور لذوى الجاه والثروة والاشراف[٣] ، وكثرت أسواقها وازدحمت الحوانيت بأنواع البضائع الثمينة . وكان بها كثير من أرباب الحرف ولكل طائفة شيخ ، وكان بها نحو اثنتى عشرة وكالة لاستقبال التجار الأجانب والوافدين عليها . وبمدينة قنا قطعة أرض تقرب مساحتها من الفدان تؤخذ منها طينة طفلية تصنع منها الأوانى الفخارية التى تشتهر بها المدينة ، وعلى الرغم من استمرار الأخذ من هذا الفدان فإن مساحته لا تنقص وذلك لأن مياه الفيضان ترسب فيه كل سنة كمية من الطمى تعادل تقريبا ما يؤخذ منه ، كما أنه قريب من مصرف قنا فعندما تنزل السيول من جبال البحر الأحمر تحمل معها طينة طفلية ترسبها فى ذلك الفدان قبل أن تتجمع فى المصرف القريب منها .

---

(١) معجم البلدان جـ ٧ ص ١٦٣ النجوم الزاهرة جـ ٥ ص ٢٩٢

(٢) رحلة ابن جبير ص ٣٤

(٣) الخطط التوفيقية جـ ١٤ ص ١٢١

وكان يوجد بمدينة قنا طريق يوصل إلى القصير يمر أولا بين الجبل والساحل متجها إلى الجنوب حتى يصل إلى بئر عنبر شرقى نفط ثم يستقيم إلى جهة الشرق حتى يصل إلى القصير . وبالمدينة عدد كبير من الأضرحة والمقامات المشهورة ، إلا ان المبانى المقامة عليها ليست قديمة ، وذلك لكثرة ما توالت عليها من أيدى الاصلاح والتعمير . ومن أجل من ينسبون إلى قنا السيد عبد الرحيم القنائى[1] من مواليد نزعا من أعمال سبتة بالأندلس ، وهو شيخ مشايخ المسلمين وامام العارفين رحل من المغرب وأقام بمكة سبع سنين ثم قدم قنا أقام بها وتزوج وله أولاد توفى سنة ٥٩٢ هـ .

قوص : مدينة هامة فى محافظة قنا وقد كان لها فى العصور الوسطى شأن عظيم ليس فى المحافظة فحسب بل فى الصعيد[2] فقد كانت قوص قاعدة الاقاليم منذ العصر الفاطمى حتى القرن التاسع عشر . ويقول عنها ابن جبير[3] ، انها مدينة حافلة بالأسواق متسعة المرافق كثيرة الخلق لكثرة الصادر والوارد من الحجاج والتجار اليمنيين والهنود وتجار الحبشة لأنها محط للرحال ومجتمع الرحال وملتقى الحجاج المغاربة والقاهريين والاسكندريين ومن يتصل بهم ، ومنها يفوزون بصحراء عيذاب وإليها انقلابهم . وقال ابن الكندى ، كان يوجد بقوص سائر أصناف التمر والحطب الكارمى الذى لا رماد له والفحم الجافى والكروم ، ومعادن الذهب والجوهر والنفط الذى ظهر سنة ٨٣٤ هـ . وجاء فى مسالك الابصار[4] ، أنه كان بقوص كثير من الفنادق والبيوت الفاخرة والحمامات ومزارع الخضروات والبساتين كما كان بها مائة وخمسون مغلقاً[5] ولكل مغلق ساقية ذات أربعة وجوه . وكان بقوص دار للضرب ، ويقول الادفوى أنه عثر فى سنة ٦٧٢ هـ فى عهد السلطان الملك الظاهر بيبرس على فلوس مدفونة ويرجع تاريخها (وقت قراءتها) إلى الف وثلثمائة سنة .

ويقول أبو صالح[6] الارمينى ، أن كلمة قوص كلمة قبطية معناها الدفن ، وسميت كذلك

---

(١) الطالع السعيد ص ١٩

(٢) المقريزى جـ ١ ص ٣٨١ النجوم الزاهرة جـ ٥ ص ٢٩٢ (حاشية) ، جـ ٦ ص ٣٨٣

(٣) ابن جبير ص ٣٥

(٤) لابن فضل العمرى جـ ٣ ص ٨١

(٥) المغلق هو الحديقة التى لا تقل مساحتها عن عشرين فدانا .

(٦) أبو صالح الأرمينى ص ٨٧

لتخصص أناس من أهلها فى دفن الملوك (الفراعنة) كما كان بها قوم لهم معرفة تامة بصيد الثعابين والحيات والعقارب بواسطة عزائم وأقسام سحرية يقرأونها عليها . ويقال [1] أن طائفة الحواه فى القطر المصرى من قوص ويؤيد ذلك ما رواه المقريزى [2] عن الأمير تكتباى حاكم قوص فى عهد السلطان محمد بن قلاوون وقصة المرأة الساحرة معه

وكان بقوص ستة مدارس [3] ودار للحديث وكثير من المدارس الجامعة والزوايا ولا تزال تحتفظ المدينة بجامع يعرف بالجامع العتيق يرجع تاريخ إنشائه إلى العصر [4] الفاطمى وبالجامع منبر خشبى يرجع إلى ذلك العصر ، وهو تحفة فنية رائعة فى فن زخرفة الأخشاب بالحشوات المجمعة ، ومن الشخصيات الهامة التى تنتسب لقوص [5] ، العلامة أبو الفضل بهاء الدين زهير بن محمد بن على بن يحيى بن الحسن بن جعفر بن المنصور بن عاصم الأزدى المكى القوصى النشأة المصرى الدار الكاتب الشاعر المعروف بالبهاء زهير صاحب الديوان المشهور . وهناك طائفة كبيرة من العلماء ورجال الدين ممن ينتسبون لقوص ولا يتسع المجال لذكرهم . ولم يقتصر طلب العلم والفضل فى قوص على الرجال فحسب بل تعداه إلى النساء كذلك ، فقد انجبت قوص سيدات فضليات خلفن وراءهم ذكريات عاطرة تشهد بما كانت عليه المرأة المصرية فى العصور الوسطى من مكانة مرموقة بين العلماء وأهل الرأى ومن أشهرهن تاج النساء ابنه عيسى بن على بن وهب القوصية ، كانت فقيهة فى علوم الدين والقراءة وتوفيت سنة ٦٧٩ هـ . وكذلك السيدة خديجة بنت وهب الشقير توفيت بالقاهرة سنة ٦٩٩ هـ . والسيدة رقية بنت محمد بن على بن وهب ولدت وتربت فى قوص واستوطنت القاهرة وتوفيت بها سنة ٧٤١ هـ .

اسنا : مدينة مصرية قديمة بالصعيد الأعلى اسمها القبطى (اسنى) وكانت فى العصر الفاطمى قاعدة كوره اسنا [6] ، وفى العصر المملوكي كانت من أعمال القوصية ، وفى العصر العثمانى أصبحت من أعمال ولاية جرجا . وفى سنة ١٨٣٣ م أصبحت اسنا قاعدة مأمورية

---

(١) الخطط التوفيقية جـ ١٤ ص ١٢٨

(٢) المقريزى جـ ١ ص ٣٨٢

(٣) الطالع السعيد ص ١١

Creswell. III p. 236 (٤)

(٥) الطالع السعيد ص ١٢

(٦) النجوم جـ ٦ ص ٣٦٠

قائمة بذاتها وكانت هذه المأمورية تضم أحيانا إلى قنا ويتكون منهما مديرية واحدة وفى سنة ١٨٦٨ فصلت اسنا عن قنا وأصبحت مديرية اسنا . وكانت تتكون من أربعة أقسام وهى اسنا وادفو والكنوز وحلفا ، ولما ظهرت أخطار الثورة المهدية فى السودان ألغيت مديرية اسنا وأضيفت إلى مديرية قنا ، وكان ذلك سنة ١٨٨٨ م .

كانت اسنا ولا تزال مدينة عظيمة بلغ عدد منازلها فى القرن (١٤ م) ثلاثة عشر ألف منزل كلها مبنية بالآجر وكان بها سبعون[١] حارة كبيرة . وكان بها ثلاثمائة وسبعون فدانا مغروسة نخيلا وكرما وقصبا . قال الادفوى [٢] انه كان يتحصل سنويا من اسنا أربعون ألف أردب تمرا واثنا عشر ألف أردب زبيبا . وكان بها كثير من المتاجر والحوانيت والخانات . ترد اليها البضائع من القاهرة والأقاليم القبلية وأهمها الأقمشة كالبرد والأردية المسماة الشقق الخاصة بالرجال والنساء ، وكان بها كثير من الحرف كصناعة المنسوجات الصوفية السميكة المعروفة (بالكليم) وصناعة المقاطف ونحوها مما يصنع من سعف النخيل . كذلك كان يرد إلى اسنا القوافل الآتية من سنار تحمل اليها الحاصلات السودانية كما كانت تشتهر بأبراج الحمام[٣] . ومن الأحداث الهامة التى وقفت باسنا وذكرها ابن تغرى بردى[٤] ، خروج ابن الصوفى العلوى بالصعيد ودخوله اسنا سنة ٢٥٥ ﻫ فنهبها وقتل أهلها فبعث اليه أحمد بن طولون بجيش التقى به فى ناحية (هو) فانهزم جيش ابن طولون فأرسل اليه جيشا آخر فالتقيا باخميم وانهزم ابن الصوفى وفر إلى أسوان ثم إلى مكة . ويقيم باسنا عدد غير قليل من الأقباط وبها دير وكنيسة منعزلان عنها من الجهة القبلية وتعرف باسم كنيسة مقتلة النصارى نسبة لاستشهاد كثير منهم بها فى العصر الرومانى[٥] ، كما ان ديرها من أشهر الأديرة وبالمدينة كثير من المساجد الجامعة ، أقدمها الجامع العمرى الكبير[٦] وبه لوحة تأسيسية من الرخام ومحفور عليها كتابة كوفية باسم بدر الجمالى سنة ٤٤٧ ﻫ فى عهد الخليفة المستنصر . ومن المساجد الهامة هناك جامع الضوى نسبة

---

(١) معجم البلدان ج ٩ ص ٢٦٦
(٢) الطالع السعيد ص ١٧
(٣) الخطط التوفيقية ج ٨ ص ٦٠
(٤) النجوم الزاهرة ج ٣ ص ٦
(٥) أبو صالح الأرمنى ص ٨٧
(٦) Creswell. III p. 146

إلى الشيخ الضوى المدفون بداخله ، وله قبة . وكان باسنا كثير من البيوتات المعروفة بالاصالة والرياسة والفضل حتى قيل أنه كان بها فى وقت واحد سبعون شاعرا وخرج منها جمع كبير من أهل العلم والأدب . ومن بيوتها العريقة بنو السديد ، وبنو الخطيب وبنو أشراق وبنو النضر . فقد تولى معظم أعضائها مراكز رئيسية وهم الذين بنوا جامع الخطبة فى سنة ٤٢٠ هـ ثم أضافوا إليه زيادة سنة ٤٩٥ هـ وإن كانت يد الاصلاح والتعمير قد توالت عليه فلم تترك أثرا للمبنى القديم. وكان المذهب الشيعى منتشرا باسنا حتى العصر المملوكي وقد استطاع الشيخ بهاء الدين هبة الله القفطى عندما وفد اليها أن يخفف من حدة التشيع .

* * *

محافظة سوهاج

سوهاج مدينة مصرية قديمة فى الصعيد الأوسط ، كانت تابعة لكورة القوصية فى العصر الفاطمى ثم أعمال القوصية فى العصر المملوكي ، وبعد أن ألغيت ولاية القوصية سنة ١٥١٧ م أصبحت تابعة لولاية جرجا . وفى القرن العشرين أصبحت سوهاج قاعدة مديرية جرجا وفى سنة ١٩٦٠ أصبحت عاصمة محافظة سوهاج . وتشتهر سوهاج بصيد السمك ، الذى يعمل منه نوع من الطعام يعرف باسم الملوحة ، ويقبل أهل الصعيد وخاصة الأقباط منهم على تناوله ، ويقول الفيروزبادى عن الملوحة انها تصلح المعدة ، أما القزوينى فيقول ان التمضمض بها نافع فى إزالة النتن من الفم . وفى جزيرة التبل شرقى مدينة سوهاج توجد نزلة صغيرة يسكنها جماعة من عرب بنى واصل يقال لهم أولاد محروس ، وقد عمر أولاد محروس النزلة وبنوا فيها المساجد والبيوت وغرسوا النخيل والأشجار ، وزرعوا قصب السكر وأنواع الخضر التى كانوا يبيعونها لسوهاج واخميم . كما كانوا يزرعون فيها أنواعا من الخشخاش الذى يستخرج منه الأفيون ، وكان مشهوراً فى القاهرة باسم الأفيون الاخميمى . وبمدينة سوهاج مساجد جامعة وزوايا عامرة ومن أشهرها مسجد الشيخ العارف[٢] بالله ، ويضم المسجد كتابا لتعليم الأطفال الصغار كما يضم مكتبة ، ومن حسنات الشيخ العارف أنه رتب للأطفال جرايات ، فى الصباح وترديدا فى المساء واستمرت ذريته من بعده تؤدى هذه الجرايات للأطفال ، ويقول الجبرتى[٣] أنه يوجد بجوار مسجد

---

(١) النجوم الزاهر جـ ٦ ص ٤٠ حاشية

(٢) الخطط التوفيقية جـ ١٢ ص ٦٧

(٣) الجبرتى جـ ٢ ص ١١٢

العارف ، مدافن للأمراء والصناجق ممن ولوا حكم سوهاج وان مراد بك ، الذى حرض المماليك ضد محمد على عند توليه الحكم ، ثم فر إلى سوهاج مدفون عند الشيخ العارف .
وكان يوجد فى غرب سوهاج ديران[1] هما الدير الأحمر والدير الأبيض (أو دير الأب شنوده) وقد تهدمت معظم مبانى الديرين ولم يبق سالما غير كنيسة الدير الأبيض .

ويذكر السخاوى[2] ان من شيوخ سوهاج الأفاضل الشيخ محمد بن محمد بن أبى بكر الشمس الانصارى السوهائى (نسبة إلى سوهاج) ولد بسوهاج سنة ٨٠٥ هـ وهو خطيب مدرستى الجائى ، والخانيكية كما تولى عدة وظائف بها ثم استقر به المطاف بمشيخة مدرسة الاتيمشية بباب الوزير .

اخميم : بلدة مصرية قديمة من مدن الصعيد الأوسط على الشاطىء الشرقى للنيل ، وكانت فى العصر الفاطمى قاعدة كورة الاخميمية ، واستمرت كذلك حتى نهاية العصر المملوكي وفى العصر العثمانى ألغيت الاخميمية وأضيفت بلادها إلى ولاية جرجا ، وأضحت اخميم إحدى المدن التابعة لمركز سوهاج وفى سنة ١٩٠٣ فصلت البلاد الواقعة شرقى النيل من مركز سوهاج وجعلت مركزا باسم اخميم وهى قاعدة المركز منذ ذلك التاريخ وتتبع الآن محافظة سوهاج[3] .

قال أبو الفداء ، مدينة اخميم من المدن الكبيرة بيوتها مبنية من الطوب اللبن ومساجدها وزواياها من الحجر وحاراتها متسعة ونظيفة . كما كانت من أشهر مدن الصعيد فى صناعة المنسوجات فى العصرين القبطى والاسلامى وكانت منتجاتها تصدر إلى جميع أنحاء العالم الاسلامى ، وكانت بها مصانع حكومية لصناعة النسيج تعرف (بالطراز) وكان ثمن الثوب من الطرز الصوف الرقيق ، أو المعلم أو المطرف من الكتان يبلغ عشرين دينارا[4] .
كذلك اشتهرت اخميم بالانطاع ، كما اشتهرت بتمرها وغلالها ، إذ كانت من أكبر المدن المنتجة للغلال فى الصعيد ، وكانت بها معاصر لزيت السلجم[5] .

---

(١) أبو صالح ص ٩١
(٢) الضوء اللامع جـ ٩ ص ٧١
(٣) النجوم الزاهرة جـ ٩ ص ٤٠ (حاشية) .
(٤) المقريزى جـ ١ ص ٣٨٧
(٥) معجم البلدان جـ ١ ص ١٥٣

وكان باخميم عدد غير قليل من الأقباط ولهم بها كنيستان عظيمتان[1] إحداهما تعرف باسم كنيسة سوتير (أى المخلص من العذاب) والثانية كنيسة القديس ميخائيل وكان من عادتهم فى الاحتفال بعيد الشعانين أن يخرجوا من الكنيستين مع القساوسة والقمامصة فى هيئة محفل حاملين المباخر والعطر والصلبان والأناجيل والشموع ويقفون أمام بيت قاضى القضاة برهة من الزمن يتلون فيها بعض صفحات من الانجيل وينشدون بعض المقطوعات فى مدحه ، ثم يتابعون بعد ذلك الوقوف أمام بيوت أعيان البلد ووجهائها من المسلمين . ويوجد باخميم كثير من الأديرة منها دير السبع جبال ، وكان خارج ذلك الدير عين ماء تظلها شجرة الصفصاف وتعرف المنطقة باسم وادى الملوك ، وذلك لأنه ينمو بها نبات يشبه نبات السلجم ، له عصارة حمراء داكنة تستعمل فى الصباغة وقد عرف النبات باسم (ملوك) لأن عصارته كانت تستعمل فى صباغة الحرير القرمزى الذى اقتصر لبسه على الملوك والأباطرة فى العصر الرومانى . وفى الجبال ، إلى الشرق من اخميم مغارات كثيرة بعضها مقابر والبعض الآخر كان يسكنه الرهبان هربا من ظلم أباطرة الرومان ، ويقول المقريزى[2] ان بطرك قسطنطين واسمه نسطورس نفى إلى اخميم لخلاف فى العقيدة بينه وبين بطرك الاسكندرية وروما ودمشق ، وأقام بها سبع سنوات ثم مات ودفن بها وقد دان بمذهب نسطورس ، نصارى إيران والعراق والموصل والجزيرة والفرات ، وعرفوا بالنساطرة .

وجاء فى كتاب البيان والاعراب[3] أنه كان باخميم جماعة من بنى قرة فصيلة من بنى هلال بن عامر بن صعصعه الذى ينتهى نسبهم إلى معد بن نزار بن معد بن عدنان جد النبى عليه السلام ، كما كان بها نقيب اشراف يقال أنه من ذرية الشيخ كمال الدين ابن عبد الظاهر صاحب المقام الشهير بهذه البلدة . ومن أشهر أعلام مدينة اخميم أبو الفيض ذو النون بن ابراهيم المصرى ، يقول عنه ابن خلكان ان أباه كان نوبيا من أهل اخميم وأنه كان أعظم علماء عصره أدبا وعلما توفى سنة ٢٤٨ ﻫ ودفن بالقرافة الكبرى .

جرجا : مدينة مصرية قديمة على الضفة الغربية للنيل ، كانت تتبع كورة القوصية فى العصر الفاطمى ولما ألغيت أعمال القوصية فى العصر العثمانى أنشىء بدلها ولاية جديدة باسم جرجا ، وفى سنة ١٨٩٠ أصبح اسمها مديرية جرجا ، وقاعدتها جرجا وفى القرن العشرين

---

(١) أبو صالح الأرمنى ج ٩٢ ، المقريزى ج ٤ ص ٤١٧
(٢) المقريزى ج ٤ ص ٤٠٧
(٣) المقريزى ص ٧٣

أصبحت سوهاج قاعدة مديرية جرجا وفى سنة ١٩٦٠ أصبحت جرجا مركزاً فى محافظة سوهاج .

كانت مدينة جرجا فى العصرين الفاطمى والمملوكى من أكبر مدن الصعيد الأوسط وأشهرها [١] وكانت رقعتها متسعة وأسواقها غاصة بالبضائع المحلية وخاصة صناعة الجلود وصناعة الأثاث من الأخشاب ، وبالبضائع المستوردة من السودان . وكانت منازلها تتكون من طابقين وأحيانا من ثلاثة وهى مبنية من الآجر كما استعمل الزجاج للنوافذ والفتحات وبها عشرون مسجداً وقد عرف أحدها باسم الجامع الصينى وذلك لتغشية جدرانه الداخلية ببلاطات القاشانى الملون [٢] كما كان يوجد بها مساجد معلقة .

كانت ولاية جرجا طوال العصور الوسطى مقراً لإقامة الولاة والحكام والصناجق كما أنها كانت ملجأ وملاذاً للعاصين من الأمراء الخارجين على سلطة الملك أو السلطان ، وكان حاكمها يقع تحت نفوذه هواره ، وكذا أهل الواحات الجنوبية والوادى الكبير الذى يؤدى إلى طريق القوافل السودانية ويقول المقريزى [٣] أن الظاهر برقوق فى سنة ٧٨٥ ﻫ أنزل عرب هواره ببلاد الصعيد بعد أن نزحوا من طرابلس الغرب وأقطعهم ناحية جرجا فأقاموا بها وعمروها واستقروا بها وجاء فى الجبرتى [٤] أن عرب هواره كانت لهم مواقف مشرفة فى محاربة الحملة الفرنسية حين زحفت على الصعيد .

* * *

محافظة أسيوط

أسيوط بلدة مصرية قديمة على الشاطىء الغربى للنيل كانت طوال العصر الاسلامى حتى نهاية العصر المملوكي قاعدة لأعمال الأسيوطية وفى العهد العثمانى ألغيت الأسيوطية وأضيفت إلى ولايتى المنفلوطية وجرجا ، وفى سنة ١٨٢٦ أعيد إنشاء مأمورية أسيوط وفى سنة ١٨٣٣ سميت مديرية وفى سنة ١٩٦٠ أصبحت محافظة قاعدتها أسيوط .

عرفت أسيوط منذ أقدم العصور بخصوبة أرضها وكثرة خيراتها فقد ذكر الكندى [٥] ، أن أحد عمال الخليفة هارون الرشيد وصف له بلاد الدنيا فما استحسن غير أسيوط ،

---

(١) النجوم الزاهرة ﺟ ٥ ص ٣١٣
(٢) الخطط التوفيقية ﺟ ١٠ ص ٥٣
(٣) البيان والاعراب ص ٣٧
(٤) الجبرتى ﺟ ١ ص ٥١
(٥) النجوم الزاهرة ﺟ ٥ ص ٣١٣ (الحاشية)

وقال[1] ياقوت ان كورة أسيوط كانت إحدى متنزهات أبى الجيوش خمارويه . ويقول المقريزى[2] إن أبا بكر الماردانى وزير هارون بن خمارويه حبس على الحرمين ضياعا تبلغ غلتها السنوية ما يقرب من مائة ألف دينار ، منها أسيوط وأعمالها . ويقول ياقوت ، ان خراج أسيوط ٣٦ ألف دينار أو زيادة ، ويضيف ، حدثنى بعض النصارى من أهلها ان فيها خمسا وسبعين كنيسة وهم بها كثير . وكانت أسيوط فى العصر المملوكي غاصة بالبضائع المحلية مثل الابزاز (التوابل) وقصب السكر والكتان والنيلة والأفيون ، والحبوب والبقول ، وكذا البضائع المستوردة ، ولعل السبب فى ازدحام مدينة أسيوط بالتجارة هو وقوعها عند نهاية درب الأربعين الذى يمتد من دارفور جنوبا واليها شمالا .

ويقول المقريزى[3] ان فى أسيوط طائفة من أولاد اسماعيل بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن الحسين بن على ابن أبى طالب يعرفون باسم الشريف قاسم . وكانت أسيوط منبع العلماء وذوى الفضل ومن أجل علمائها أبو بكر كمال الدين السيوطى تولى منصب القضاء بها وتوفى سنة ٨٥٥ هـ وترك ابنه جلال الدين السيوطى وهو لم يولد بأسيوط . وإنما تنسب اليه من جهة أبيه ، ويظن الكثيرون ان جلال الدين دفن بأسيوط ولكنه توفى بالقاهرة ودفن بحوش قوصون خارج باب القرافة سنة ٩١١ هـ . ومن النصارى نبغ أسعد بن مهذب ابن زكريا بن قدامة بن نينا شرف الدين مماتى اتصل جده بأمير الجيوش بدر الجمالى وتولى استيفاء الديوان ، ولما مات تولى ابنه زكريا ديوان الجيش فى آخر دولة الفاطميين ثم خلفه ابنه اسعد بن مهذب على ديوان الجيش فى عهد صلاح الدين الأيوبى ، وابنه الملك العزيز عثمان ثم ولى النظارة وتوفى سنة ٦٠٦ هـ . ومن أبناء أسيوط البررة عمر مكرم ولد بها سنة ١٧٥٥ م وتعلم بالأزهر وقضى حياته الأخيرة فى خدمة القضايا الوطنية واستمر يناضل حتى توفى سنة ١٨٢٢ م وكأنما كانت الأقدار لتحفظ لأسيوط دائما حظها من المجد والذكر الحسن ، فلم تكد الأحداث تتوالى على مصر نتيجة خيانة الحاكم واغتصاب المستعمر الدخيل لحقوق الشعب وأقواته حتى أشار التاريخ بأصبعه إلى وليد من بنى مر إحدى قرى أسيوط ، إلا وهو جمال عبد الناصر الذى ولد فى ١٥ يناير سنة ١٩١٨ م وتولى قيادة ثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ المباركة ، كما تولى رياسة الجمهورية العربية المتحدة سنة ١٩٥٨ .

---

(١) ياقوت جـ ١ ص ٢٥١
(٢) المقريزى جـ ٢ ص ١١٧
(٣) البيان والاعراب ص ٣٤

وإذا كان العالم العربي يفخر بالرئيس جمال عبد الناصر ويشيد بفضله الكثيرون من أقطاب السلام وأنصار التحرر فى العالم فإن لأسيوط أن تتيه به تقديرا واكبارا .

وبأسيوط كثير من الآثار التى ترجع إلى العصر الاسلامى ، أهمها الجامع المعروف باسم سيد محمد البقلى وهو مهجور اليوم ويتبين من الأجزاء الباقية من أعمدته الجرانيتية وأرضيته الفسقية الرخامية أنه من الكنائس التى تحولت إلى جوامع فى أوائل العصر الاسلامى ، على أنه من المؤكد أنه عمر فى العصر المملوكي ، إذ وجد بجواره أحواض المياه التى كانت تشرب منها معسكرات المماليك [1] ، ومن العمائر المدنية قنطرة تعرف اليوم باسم قنطرة المجذوب كانت توصل المياه إلى بركة المجذوب ويرجع تاريخ هذه القنطرة على أقل تقدير إلى العصر العثمانى إذ وجدت صورتها فى خرائط الحملة الفرنسية . ومن المساجد التى ترجع إلى القرن ١٩ م مسجد سليم الكاشف الذى يقول عنه الجبرتى [2] ، أنه من المبانى العظيمة المزخرفة على هيئة مساجد مصر ، ومسجد السنجق الذى يقع فى سوق الحمام ، ويمتاز هذا المسجد بأنه مبنى بالطوب الأسود اللون الذى لا شبيه له بأسيوط ومن حيث التخطيط فهو يشبه مسجد محمد على بالقاهرة .

أبو تيج : مدينة مصرية قديمة إسمها باشنا أى المخزن أو الشونة وترجمها الرومان إلى بوتيكى ومنها إسمها العربى أبو تيج [3]. وفى سنة ١٨٢٣ م أنشىء قسم أبو تيج وجعلت أبو تيج قاعدة له ، وما زالت أبو تيج قاعدة لمركز أبو تيج أحد مراكز محافظة أسيوط . ذكرها ياقوت [4] فقال : بوتيج بلدة بالصعيد ، عامرة نزهة ذات نخيل كثير وشجر وثير . وقال ابن دقماق بوتيج من المدن المليحة بها جامع كبير قديم (اندثر الآن) وبهـا مدارس وحمام مليحة وقيسارية وفنادق ولها سوق أسبوعى كبير ويقوم بها قاض ، ويقول المقريزى [5]، أنه كان بالمدينة كنائس كثيرة تهدمت الآن (أى فى القرن ١٥ م) إلا القليل . وكان بها دير يعرف باسم الحواريين فى مكان قفر وقد اختط الشيخ أبو بكر الشاذلى بجواره بلدة

---

(١) الخطط التوفيقية جـ ١٢ ص ١٠٨

(٢) الجبرتى جـ ١ ص ٩٢

(٣) القاموس الجغرافى جـ ٢ ص ١٥٧

(٤) معجم البلدان جـ ٩ ص ١٠٩

(٥) المقريزى جـ ٣ ص ٤٠٩

أسماها منشاة الشيخ . وينسب إلى هذه المدينة الشيخ عبد الرحمن عنبر البوتيجى الذى يقول عنه السخاوى [1] أنه حضر دروسه بالمدرسة الفاضلية وتوفى سنة ٨٦٤ هـ .

منفلوط : مدينة مصرية قديمة كانت تسمى منبالوط وهى كلمة قبطية معناها الحمر الوحشية ، وفى الروك الناصرى سنة ١٣١٥ م أنشىء إقليم جديد فصلت قراه من أعمال الأشمونين ومن السيوطية وعرف بالأعمال المنفلوطية . وفى سنة ١٨٣١ م ضمت مأمورية منفلوط إلى أسيوط وأصبحت من وقتها قسما من أسيوط [2] . ويقول ابن جبير [3] أن منفلوط ذات أسواق فيها سائر ما يحتاج إليه ، وفى نهاية من الطيب وليس فى صعيد مصر مثلها ، ويقول المقريزى [4] أن عرب الجهات القبلية زاد تعديهم وإفسادهم وفى سنة ٧٠١ هـ فرضوا ضريبة على البياعين وأرباب الحرف والصنائع بمدينة منفلوط وأسيوط واحتقروا الحكام وعطلوهم عن جمع الأموال وجعلوا منهم رئيسين سموا أحدهم بيبرس والآخر سلار وجعلوا من تحت الرئيسين أمراء لبسوا السلاح على هيئة العساكر وأطلقوا المسجونين فاجتمع أولو الأمر وسيروا إليهم عدة جيوش فقضت عليهم قضاء مبرما ولم تقم لهم قائمة منذ ذلك التاريخ .

ومن علماء منفلوط المشهورين [5] محمد بن أبى بكر بن محمد بن حريز ولد بها سنة ٨٠٤ هـ ثم انتقل إلى القاهرة لطلب العلم ، ثم عاد إلى منفلوط وولى القضاء بها ، ثم تولى القضاء بالديار المصرية .

* * *

محافظة المنيا

المنيا مدينة مصرية قديمة قال اميلينو وجوتييه أن اسمها Moone ومعناها المرضعه وخالفهما فى ذلك ماسبيرو إذ قال ان كلمة المنيا اسم عربى وجاء فى خطط المقريزى [6] منية الخصيب نسبة إلى الخصيب بن عبد الحميد صاحب خراج مصر من قبل الرشيد ،

---

(١) الضوء اللامع .
(٢) القاموس الجغرافى .
(٣) ابن جبير ص
(٤) السلوك ص ٩٥
(٥) الضوء اللامع جـ ٧ ص ١١٣
(٦) المقريزى جـ ١ ص ٣٣١

وجاء فى قوانين[1] الدواوين منية بنى خصيب من أعمال الاشمونيين ، وجاءت[2] فى نزهة المشتاق أنها قرية عامرة حولها ، جنات وأرض متصلة العمارات وقصب وأعناب كثيرة ومتنزهات ومبان حسان ، وقال ياقوت منية[3] أبى الخصيب مدينة كبيرة على شاطىء غربى النيل فى الصعيد الأدنى بمصر ، وهى مدينة ذات مرأى جميلة وبها مدارس وحمامات وأسواق ، وأضاف ، ويقال ان الخصيب عمرها أيام ولايته وأنشأها لابنه وسماها باسمه فعرفت به . وفى سنة ١٨٢٢ م قسمت ولاية الاشمونين إلى قسمين سمى القسم البحرى منه المنيا ومقره مدينة المنيا ، وفى سنة ١٨٩٠ صارت قاعدة لمديرية المنيا وفى سنة ١٩٦٠ أصبحت عاصمة محافظة المنيا . وذكر ابن بطوطة[4] فى رحلته قصة طريفة عن مدينة المنيا رأيت أن أذكرها على ما فيها من أحداث تشبه الأساطير : يقال ان بعض خلفاء بنى العباس تغير على أهل مصر فأراد أن يوليها أحقر عبيده إذلالا لهم وتنكيلا بهم ليسير فيهم سيرة سوء ، وكان أحقر عبيده الخصيب ، إذ كان يتولى تسخين الحمام فخلع عليه وولاه مصر فلما استقر خصيب بمصر سار فى أهلها أحسن سيرة واشتهر بالكرم فكان أكابر أهل البلاد وأقارب الخلفاء يقصدونه فيجزل لهم العطايا . وافتقد الخليفة يوما بعض أقاربه وغاب عنه ثم حضر بعد مدة فسأله عن مغيبه فذكر أنه قصد خصيبا بمصر وذكر له ما أعطاه وكان قدرا عظيما وأثنى عليه ، فغضب الخليفة وأمر بسمل عينى خصيب واخراجه من مصر إلى بغداد وأن يطرح فى أسواقها فلما أتاه الأمر بالقبض عليه حيل بينه وبين دخول منزله وكان معه ياقوتة عظيمة فخبأها عنده وخاطها فى قميصه ليلا . وسملت عيناه وطرح فى سوق بغداد ، فمر عليه بعض الشعراء وهو مطروح فقال له يا خصيب انى كنت قد قصدتك من بغداد إلى مصر ممتدحا فوافقت انصرافك عنها وأحببت أن تسمع القصيدة فقال كيف لى بسماعها وأنا على ما تراه قال انما قصدى سماعك لها أما العطاء فقد أعطيت الناس وأجزلت لهم جزاك الله خيراً ، وأنشد :

أنت الخصيب وهذه مصر . . فتدفقا فكلاكما بحر

فلما أتى على آخرها قال له افتق هذه الخياطة ففعل فقال خذ هذه الياقوتة فأبى ، فأقسم عليه فأخذها وذهب إلى سوق الجوهريين ليبيعها فلما عرضها عليهم قالوا له هذه لا تصلح

---

(١) قوانين الدواوين ص ١٢٢

(٢) ابن دقماق ص ٩٧

(٣) معجم البلدان ج ٨ ص ١٨٨

(٤) رحلة ابن بطوطة ص ١٩٨

إلا للخليفة فرفعوا أمرها اليه فأمر باحضار الشاعر واستفهم عن أمر الياقوتة فأخبره بخبرها فتأسف على ما فعله بخصيب وأمر باحضاره بين يديه وأجزل له العطاء وحكمه فيما يريد فرغب أن يعطيه هذه المنية ففعل فسكنها خصيب إلى أن توفى وأورثها عقبة .

وقال المقريزى[1] انه كان بها ، ست كنائس منها كنيسة معلقة وهى كنيسة السيدة ، كما كان بها كثير من الأديرة أهمها دير الراهب ومشهور بدير سواده ، وسواده عرب نزلوا هناك (بالمنيا) فخربوا ذلك الدير . وبالمنيا كثير من الأضرحة ذات القباب أهمها ضريح الشيخ الفولى .

الفشن : مدينة مصرية قديمة اسمها القبطى فنشى[2] بتقديم النون على الشين ويؤيد ذلك انها وردت فى كتاب المباهج باسم الفنش من الأعمال البهنساوية ثم حرفت إلى الفشن ، وهو اسمها الحالى . وجاء فى معجم البلدان[3] ان الفشن قرية من أعمال البهنسى . وفى قوانين ابن مماتى[4] الفشن من أعمال البهنساوية . وفى العصر العثمانى أصبحت الفشن قاعدة ولاية البهنسا وذلك لأن مدينة البهنسا تقع على بحر يوسف وبعيدة عن النيل ، أما الفشن فتقع على النيل وتتوسط بلاد ولاية البهنسا وفى سنة ١٨٢١ نقلت عاصمة الولاية من بلدة الفشن إلى المنيا وصارت الفشن قاعدة لقسم الفشن ، وفى سنة ١٨٤٤ جعلت الفشن قاعدة لمديرية الواسطى وفى سنة ١٨٥١ قسمت المديرية إلى قسمين وعادت الفشن قاعدة لقسم الفشن وفى سنة ١٨٩٠ سمى مركز الفشن . وبمدينة الفشن كثير من المساجد ذات المآذن الرشيقة[5] أشهرها جامع الشيخ شمردن وبه ضريحه . وكانت أسواقها عامرة بالسلع فى العصور الوسطى[6] .

البهنسا : كانت البهنسا قاعدة لكورة البهنسا ثم قاعدة للأعمال البهنساوية فى العصر المملوكي ، ثم لولاية البهنسا فى العصر العثمانى ، ولما اضمحلت البهنسا لوقوعها على بحر يوسف

---

(١) المقريزى ج ٤ ص ٤١٧
(٢) الخطط التوفيقية ج ١٤ ص ٧٥
(٣) ياقوت ج ٦ ص ٣٨٥
(٤) ابن مماتى ص ٢٩٧
(٥) الخطط التوفيقية ج ١٤ ص ٧٦
(٦) وتتبع مدينة الفشن الآن محافظة بنى سويف.

وبعدها عن النيل نقلت القاعدة إلى الفشن مع بقاء الولاية باسم البهنسا ، وفى سنة ١٨٣٠ اختفى اسم البهنساوية من الأقسام الادارية . وأصبحت البهنسا قرية من قرى مركز بنى مزار . ذكرها الادريسى ، البهنساوية عامرة بالناس جامعة لأمم شتى ، وهى واقعة على الضفة الغربية من خليج المنهى (بحر يوسف) وينسج بها للخاصة الستور المعروفة بالبهنسية ، والمقاطع السلطانية والمضارب الكبار والثياب المتخيرة . ويضيف المقدسى ويصنع بها الستور والانماط من مزارع بوصير . ويقول المقريزى [١] ان الستر الواحد منه كان يبلغ طوله ثلاثين ذراعا وقيمة الزوج منه مائتا مثقال ذهب ، ويضيف أنه كان باقليم البهنسا مائة وعشرون قرية غير الكفور ، ويجمع قبط مصر على ان السيد المسيح والسيدة العذراء كانا بالبهنسا ثم تركاها ورجعا إلى القدس . وقال بعض المفسرين عن الربوة فى قوله تعالى « وجعلنا ابن مريم وأمه آية وآويناهما إلى ربوة ذات قرار ومعين » إنها البهنسا ، وقيل أنها دمشق أو بيت المقدس . وكانت البهنسا حين فتحها العرب ، كما يقول بن عبد الحكم عالية الجدران حصينة الأسوار والبنيان ، منيعة الأبراج والأركان وكان لها أربعة أبواب ، ولكل باب ثلاثة أبراج وبين كل برجين شرافات وكان بها أربعون رباطاً وكنائس وقصور ، فلما أخذت بالفتح تغيرت معالمها وأندثر كثير من آثارها . وقد أقيمت بها كثير من المساجد والعمائر الاسلامية وقد بقيت هذه الآثار حتى مجيء الحملة الفرنسية [٢] . وكانت مدينة البهنسا تشتهر بزراعة أشجار السنط التى كان يؤخذ أخشابها لبناء سفن الأسطول المصرى ، وقد ورد فى قوانين ابن مماتى [٣] أن خراج البهنسا كان يدفع سنطا .

وقد ظهر بالبهنسا كثير من جهابذة العلماء منهم الامام القرافى شهاب الدين أبو العباس أحمد بن ادريس الصنهاجى البهنسى الذى انتهت إليه رياسة المالكية فى عصره توفى سنة ٦٨٤ هـ . وجاء فى تاريخ الجبرتى [٤] أن الامام الشيخ عبد الحى بن الحسن بن زين العابدين الحسينى

---

(١) المقريزى جـ ١ ص ٣٨٢ ، ٣٨٣

(٢) الخطط التوفيقية جـ ١٠ ص ٢

(٣) ابن مماتى ص ٣٧

(٤) الجبرتى ص ٤٩

البهنسى جاء إلى مصر ونزل ببولاق وتتلمذ على علماء عصره ودرس بالجامع الخضيرى وتوفى سنة ١١٨١ هـ ودفن بمقابر الخلفاء .

القيس : وردت فى كتاب البلدان [١] والمسالك أن مدينة قيس تقع غربى النيل وهى حسنة البناء جميلة الجهات فيها قصب السكر وأنواع التمور والخيرات الكثيرة . قال ابن عبدالحكم أن عمرو بن العاص بعث قيس بن الحرث إلى الصعيد فسار حتى أتى القيس فنزل بها فسميت به ، وقد وردت هذه الرواية فى كثير من المراجع العربية ، ويقول محمد رمزى [٢] أن هذه الرواية غير صحيحة لأن القيس كانت معروفة بهذا الاسم قبل الفتح الاسلامى لمصر ، وإنما يحتمل أن الذى فتحها بعد دخول العرب لمصر هو قيس بن الحارث المرادى ولمصادفة تشابه اسمه باسم القيس ظن مؤرخوا العرب أنها نسبت إليه . ووردت فى قوانين ابن مماتى [٣] أن قيس من أعمال البهنساوية وهى الآن قرية بمحافظة المنيا بمركز بنى مزار ويقول الكندى عن أهل قيس ، ولهم ثياب صوف وأكسية مرعزية وليست هى بالدنيا إلا بمصر ويضيف أن معاوية بن أبى سفيان لما كبر كان لا يدفأ فاجمعوا أن لا يدفئه إلا أكسية تعمل بمصر صوفها المرعزى العسلى الغير مصبوغ فعمل له منها عدد بقيس فما احتاج منها إلا إلى واحدة ، ولهم طراز القيس فى الستور والمضارب يعرفون به .

ومن القصص [٤] التى تروى عن القيس أنه ظهر بها فى عهد الملك الكامل محمد بن العادل الأيوبى سرب [٥] فأمر متولى البهنساوية بكشفه فجمع ما ينيف عن مائتى رجل فلم يجدوا له قراراً فأمر بعمل مركب طويل دقيق وحملوا معهم ما يلزمهم من الآلات والزاد وغابوا فى السرب ستة أيام أربعة منها دخولا إلى جوفه ويومين رجوعا إلى رأس السرب . ولم يقفوا فى هذه المدة على نهايته فكتب بذلك والى البهنسا إلى الملك الكامل فتعجب عجباً كثيراً ولما انتهى من محاربة الصليبيين فى دمياط خرج إلى القيس وشاهد السرب المذكور .

---

(١) المسالك ص ٨١

(٢) القاموس الجغرافى جـ ٣ ص ٢١٤

(٣) ابن مماتى ص ٧٨

(٤) المقريزى جـ ١ ص ٣٣٠

(٥) السرب بفتح السين وسكون الراء ومعناها الطريق فى الماء كأنه الكهف الممتد .

محافظة بنى سويف

بنى سويف مدينة مصرية قديمة ذكرها أميلينو فى جغرافيته باسم Pouphisa بوفيسا وقال أنها منية بوش وبما أن بنى سويف معروفة بالنسبة إلى موقعها بأنها موردة قديمة ولا تزال محتفظة بأهميتها التجارية فإنه يرجح أن كلمة بوفيسا هى الاسم المصرى القديم لمدينة بنى سويف ، وأنها هى بذاتها التى سماها العرب منفسوية وهو الاسم الذى ورد فى قوانين ابن مماتى (١) وأنها من أعمال البهنساوية .

وكان اسمها على لسان العامة بنمسوية ، ثم حرفت فى القرن التاسع الهجرى إلى بنى سويف للتخفيف ولتسهيل النطق ، دون مراعاة للأصل حتى ليتبادر إلى ذهن من يسمع كلمة بنى سويف أنها عربية فى صدرها وعجزها ، ولكن الحقيقة أن اسمها مصرى قديم وحرف (٢). وذكر السخاوى (٣) فى الضوء اللامع عند الكلام على ترجمة محمد بن عبد الكافى بن عبد الله ابن أحمد بن على العبادى : قال : ويعرف بالبنمساوى بالنسبة إلى قرية تعرف قديما باسم بنمسوية واشتهرت ببنى سويف حتى صار يقال فى النسبة إليها السويفى ومحمد بن الكافى هذا من فقهاء القرن الرابع عشر الميلادى .

ولما فك زمام القطر المصرى استسهل المساحون اسم بنى سويف وقيدوا أطيانها بهذا الاسم فعرفت به رسمياً من ذلك الوقت . وفى سنة ١٨٣٣ أصبحت بنى سويف مديرية وعاصمتها بنى سويف وفى سنة ١٩٦٠ صارت محافظة .

وكانت مدينة بنى سويف تشتهر بمبانيها وعمائرها المبنية بالحجر الجيرى وأعمدتها المرمرية . وكانت كثيرة القيساريات والفنادق والحمامات . . وكانت مساجدها عامرة . . . ومن أشهرها الآن جامع البحر ، وبها عدة مزارات أهمها عند أهل بنى سويف مقام الشيخة حورية التى يحتفل بمولدها كل سنة (٤) .

وفى الجبال القبلية لبنى سويف فى ناحيـة البياض توجد محاجر المرمر ، والمرمر المستخرج من هذه المنطقة متعدد الألوان وخاصـة اللون المائل إلى الصفرة والخضرة و (المعرق) وهو أقل جودة من المرمر المستخرج من محجر أسيوط .

---

(١) ابن مماتى ص ٣٩
(٢) القاموس الجغرافى ج ٣ ص ١٥٥
(٣) الضوء اللامع : ج ٩ ص ١١٧
(٤) الخطط التوفيقية ج ٩ ص ٩٢

ومن الفقهاء الذين ينتسبون إلى بنى سويف الشيخ محمد عبد الكافى الانصارى العبادى البنمساوى والمعروف بالسويفى وقد سبقت الاشارة إليه .

ومن أشهر رجالها فى القرن التاسع عشر الميلادى مصطفى بك السراج ، ولد بها سنة ١٨٢٤ ، وكان أبوه انكشاريا وأمه سويفية . عين مترجما تحت رئاسة رفاعة الطهطاوى وتوفى سنة ١٨٦٨ م ودفن بالاسكندرية .

ببا : قاعدة مركز ببا ذكر اميلينو فى جغرافيته فقال ان اسمها القبطى ببا Baba بفتحتين . وكانت ببا قرية مصرية قديمة وردت فى معجم[١] البلدان ببا بفتحتين مدينة بمصر من جهة الصعيد غربى النيل من كورة البهنسا ووردت فى قوانين[٢] ابن مماتى وفى العصر العثمانى ببا الكبرى من الأعمال البهنساوية ،وقد حذف من اسمها كلمة الكبرى . ولما أنشىء قسم ببا سنة ١٨٥٧ م جعلت ببا مقراً له وفى سنة ١٨٩٠ م سمى مركز ببا .

وبمدينة ببا الآن كنيسة قبطية قديمة مشهورة باسم دير الشهيد كما يوجد بها مسجد أثرى يرجع تاريخ إنشائه إلى القرن السابع الهجرى ولا تزال واجهته تحتفظ ببعض النقوش التى ترجع إلى ذلك التاريخ[٣] . وكانت معظم مبانى المدينه من الآجر واللبن وأسواقها عامرة بأنواع الحبوب والمواشى والمنسوجات الصوفية والقطنية واللحم والعقاقير وحصر الحلفاء واللوف والحبال كما يكثر بها النخيل وزراعة الدخان البلدى وقصب السكر التى قامت عليه صناعة السكر .

الوسطى : كانت قرية قديمة اسمها الأصلى جزيرة الواسطا وردت فى قوانين ابن مماتى[٤] وغيرها من المراجع انها من أعمال الاطفيحية وبسبب قوة جريان ماء النيل بعدت هذه الجزيرة عن الشاطىء الشرقى للنيل واتصلت بالشاطىء الغربى منه وقد وردت فى كتاب وقف السلطان الغورى ضمن أراضى الشاطىء الغربى باسم الواسطى من أعمال الجيزية لأنها كانت تابعة للجيزة فى ذلك الوقت[٥] . وفى سنة ١٨٨٦ أصبحت قاعدة مركز الواسطى

---

(١) ياقوت ج ١ ص ١٩٢

(٢) ابن مماتى ص ٣٩

(٣) الخطط التوفيقية ج ٩ ص ٣

(٤) ابن مماتى ص ١٥٩

(٥) القاموس الجغرافى ج ٣ ص ١٢٩

وينطقها العامة الواسطة ، ومن القرى التابعة لمركز الواسطى أنفسط وبنو حبين وبنو جين جماعة من العرب المستوطنين بها نسبت اليهم ، وكذا زاوية المطلوب وقد وردت فى وقف السلطان الغورى . إنها كانت تسمى منية بنياس .

***

محافظة الفيوم

الفيوم قاعدة محافظة الفيوم ، وهى من المدن المصرية القديمة ويقول جوتيه واميلينو وغيرهما من المؤرخين الذين كتبوا عن الفيوم ، ان اسم الفيوم فى العصر الفرعونى كان (Chdat) أو (Chsdit) ، ومعناها الجزيرة ، لأنها كانت وقت تكوينها واقعة فى بحيرة موريس ، ثم سماها القبط (Piôm) ومعناه مركز أليم ، ومنها أخذ العرب كلمة فيوم وأضافوا اليها أداة التعريف فصارت الفيوم[١] . ويزعم المسعودى[٢] ان معنى الفيوم ألف يوم ، ويبدو أنه بنى هذا الزعم على القصة التى ذكرها المقريزى[٣] ، وتتلخص فى أن فرعون مصر طلب من سيدنا يوسف الصديق أن يستصلح أرض الفيوم لابنته ، فحفر يوسف خليجا يصل الفيوم بالنيل كي تصرف فيه المياه الزائدة وقت الفيضان ، مما أصلح أرض الفيوم ، وقد استغرقت تلك العملية من يوسف سبعين يوما فلما راى فرعون تلك الأعمال التى أتمها يوسف قال لوزرائه « هذا عمل ألف يوم » فسميت الفيوم . وقد غاب عنهم ان فرعون مصر لم يكن يعرف العربية . ومدينة الفيوم ظلت منذ نشأتها فى العصر الفرعونى حتى الآن قاعدة لاقليمها ، وردت فى معاجم[٤] البلدان أنها ضمن كور مصر ، وجاء فى أحسن[٥] التقاسيم ، الفيوم بلد جليل به مزارع الأرز الفائق ، والكتان الدون[٦] ولها قرية سرية تسمى الجوهريات وقال الادريسى[٧] ، الفيوم مدينة كبيرة ذات بساتين وأشجار وفواكه وغلات ، وأكثر غلاتها الأرز وهو أكثر من سائر حبوبها ، ولها جانبان على وادى اللاهون (بحر يوسف) . ويقول القضاعى « الفيوم

---

(١) القاموس الجغرافى جـ ٣ ص ٩٦

(٢) مروج الذهب جـ ٢ ص ١١٥

(٣) المقريزى جـ ١ ص ٣٩٩ – ٤٠٢

(٤) المسالك لابن حرداذبه ص ٢٣٧ ، تقويم البلدان جـ ص ١١٤

(٥) المقدسى : ص ١٩٩

(٦) الدون : الجيد .

(٧) نزهة المشتاق ص ١٧٣

وهى مدينة دبرها يوسف النبى عليه الصلاة والسلام بالوحى وكانت ثلثمائة وستين ضيعة تمد كل ضيعة منها مصر يوما واحدا فكانت تمد مصر السنة . وكانت تروى من اثنى عشر ذراعا (وهو أقل منسوب لمياه الفيضان) ولا يستبحر ما زاد عن ذلك لأن يوسف عليه السلام اتخذ لهم مجرى ورتبه ليدوم لهم دخول الماء فيه وقومه بالحجارة المنضدة وبنى به اللاهون . ويضيف الكندى وليس فى الدنيا ما بنى بالوحى غير هذه الكورة ولا بالدنيا بلد أنفس منه ولا أخصب ولا أكثر خيرا ولا أغزر أنهارا ، ولو قايسنا بأنهار الفيوم أنهار بصرة ودمشق لكان لنا بذلك الفضل . ولقد عد جماعة من أهل العقل والمعرفة مرافق الفيوم وخيرها فإذا هى لا تحصى فتركوا ذلك وعدوا ما فيها من المباح مما ليس عليه ملك لأحد من مسلم ولا معاهد ، فإذا هو فوق السبعين صنافا » .

ولعل المراد بالوحى فى عبارتى القضاعى والكندى الالهام لأنه من معانى الكلمة لغة . وقال عبد الحكم[1] ان الفيوم أقامت سنة بعد الفتح لا يعلم المسلمون بمكانها حتى أتاهم رجل فذكرها لهم فأرسل عمرو بن العاص جيشا ، (وقد اختلفت الروايات فى اسم قائد الجيش فقيل ربيعة بن حبيش بن عرفطة الصدفى ، وقيل مالك بن ناعمة الصدفى ، وذكر قيس بن الحارث الذى سار حتى أتى قيس فنزل بها والتى تزعم المراجع العربية أنهـا سميت باسمه) ، ويقول ابن عبد الحكم فلما هجموا عليها لم يكن عندهم قتال وألقوا بأيديهم .

أما عن خراج مدينة الفيوم ، فتجمع المراجع[2] العربية على أنها كانت أغنى كور مصر ، قال ابن زولاق ، حدثنى أحمد بن محمد بن طرخان الكاتب قال ، عملت على الفيوم لكافور الأخشيد فى هذه السنة (يعنى سنة ٣٥٦ هـ) فعقدت بها ستمائة ألف دينار ، وعشرين ألف دينار ، ومنها المباح الذى يعيش الناس فيه من أهل ما لا يضبط ولا يحاط بعلمه ، وذلك غير المرافق والخيرات التى تحت أيدى الملاك . وقال القاضى الفاضل فى كتاب متجددات الحوادث ، ان متحصلات الفيوم بلغت فى سنة ٥٨٥ هـ مائة ألف واثنين وخمسين ألف دينار وسبعمائة وثلاثة دنانير . وقال البكرى ، والفيوم معروف هناك يغل فى كل يوم ألفى مثقال ذهباً . وقد أطنب كل من تكلم عن تاريخ مصر عن خيرات مدينة الفيوم حتى أصبح اسمها يقرن باسم مصر ، فيقول اليعقوبى مثلا[3] كان يقال فى متقدم الأيام مصر والفيوم

(١) فضائل مصر ص ٢٧ ، معجم البلدان جـ ٦ ص ٤١٤
(٢) معجم البلدان جـ ٦ ص ٤١٦ ، تقويم البلدان ص ١١٤ ، المقريزى جـ ١ ص ٤٠٢
(٣) البلدان جـ ١٤٥

لجلالة الفيوم وكثرة عمارتها ، وبها القمح الموصوف ، وبها يعمل الخيش ، ويقول على مبارك [1] ، أن صناعة الخيش ظلت قائمة بالفيوم حتى نهاية القرن التاسع عشر ، وأنها كانت تمون الميرى به . وورد فى الخطط التوفيقية ، أن بالفيوم سمكا كثيراً ، فقد ذكر مؤرخ بطارقة الاسكندرية فى تاريخ الشهداء أنه انكشف فى الفيوم بركة متسعة بها كثير من البلطى ، ينقل منه إلى الفسطاط فى كل يوم مقدار عظيم ، فكان ما ينقل إليها يحمل على عشرين جملا ، وكانت تعطى لمن يلتزمها فى السنة بستين ديناراً ، وكان البلطى نوعين كبير وصغير ، فالذى تزن الواحدة منه أربعة أرطال تباع العشرة منه بتسعة دراهم ، وما فوق العشرة منه بعشرة دراهم ، والكبير تباع العشرة منه بخمسة عشر درهما ، وكانت الواحدة منه ربما تزن خمسة عشر رطلا أو أكثر . على أن شهرة الفيوم بالسمك ترجع إلى ما قبل العصر الاسلامى . فقد تكلم هيردوت عن سمك الفيوم ، فقال أن السمك كان يملح ويبقى طوال السنة وأن الأهالى تستهلكه بكثرة فضلا عما يطعم به الحيوانات المقدسة . وقد بلغت مدينة الفيوم من الأهمية فى القرنين السادس والسابع للهجرة أن عمل برج للحمام بالقاهرة خاص بها وسمى باسمها لتلقى البريد عن طريق الحمام الزاجل ، فقد ورد [2] بالمقريزى أنه كان بالقاهرة فى موضع يعرف بالبرقية ، برج حمام يسمى ببرج الفيوم ، وكان بناؤه بأمر الأمير فخر الدين عثمان الاستادار فى سلطنة الملك الكامل بن صلاح الدين وكانت الفيوم من إقطاعاته ، فكان حمام البريد يأتى بأخبار المديرية إلى هذا الأمير فينزل بهذا البرج .

وذكر أبو صالح الأرمنى [3] ، أنه يوجد بالفيوم كثير من الأديرة والكنائس ومن أهمها دير بالقرب من حجر اللاهون باسم دير إسحق وهو على جبل فى جنوب الفيوم بموضع يعرف باسم بيربنوده يحيط به ثلاثة أسوار من الحجر وإليه يذهب الناس ، ومن الكنائس الهامة بها كنيسة ميكائيل وتقع بالقرب من الباب المسمى بباب السور ، وهى عظيمة الاتساع بوائكها محمولة على عمد غاية فى الدقة ، والجمال وهى نادرة المثال بصعيد مصر ، ويشق مدينة الفيوم بحر يوسف إذ يمر بوسطها وعليه قنطرتان قديمتان إحداهما فى أول المدينة توصل إلى الأسواق والثانية عند نهايته وعلى هذه القنطرة جامع .

---

(١) الخطط التوفيقية ج ١٤ ص ٨٤

(٢) المقريزى ج ١ ص ٤٠١

(٣) أبو صالح ص ٧٨

ومبانى المدينة من الآجر وحاراتها ضيقة وغير مستقيمة ، وكان بهـا كثير من الخانات والحوانيت العامرة بأصناف البضائع . وبمدينة الفيوم كثير من المساجد الجامعة ، أشهرها جامع الروبي سمى باسم الشيخ الروبى المدفون بجواره وضريحه مزار مشهور ، ويزعم العامة أنه من نسل روبيل أخى يوسف عليه السلام ، وذكر المقريزى ، أن صلاح الدين الأيوبى ، أنعم على على ابن أخيه الملك المظفر تقى الدين ، بالفيوم وأعمالها ، وأن هذا الأخير أقام بها مدرستين إحداهما للشافعية والثانية للمالكية .

وقد كان بمدينة الفيوم كثير من العلماء والفقهاء من مختلف النحل والأديان ، فقد جاء فى كتاب الفهرست لأبى الفرج ، أن من علماء اليهود وأفاضلهم ابن سعيد الفيومى كان متمكنا فى اللغة العربية وله كثير من المصنفات ، ومن العلمـاء المسلمين الشيخ شعبان الفيومى [1] الأزهرى الامام الفقيه والشيخ سليمان الفيومى ومن شعرائها المطبوعين ، عبد البر بن عبد القادر وهو من أدباء الفيوم المعدودين .

***

محافظة الجيزة

كانت محافظة الجيزة ، فى عهد الفراعنة والبطالمة والرومان ، ثلاثة أقسام منفصلة بعضها عن بعض . وهى قسم أوسيم وقسم منف وقسم أطفيح ، وبقى هذا التقسيم أيام العرب أيضا . وفى العصر الفاطمى ضم قسما أوسيم ومنف وتكون منهما قسم واحد باسم الجيزة وبقى قسم أطفيح قائما بذاته . واستمر هذا التقسيم طوال العصر الأيوبى والمملوكي وكان يقال لهـا الأعمال الجيزية ، وفى العصر العثمانى سميت ولاية الجيزة وفى سنة ١٨٥٩ م ألغيت مديرية الجيزة ، وأحيلت أعمالها إلى مديريتى القليوبية وشرق أطفيح وفى سنة ١٨٨٩ م أعيد تكوين مديرية الجيزة وفى سنة ١٩٦٠ أصبح اسمها محافظة الجيزة [2] .

والجيزة من المدن القديمة التى أنشئت وقت الفتح العربى ، قال ياقوت [3] ، الجيزة بالكسر لغة العرب أى أفضل موضع فيه كله . والجيزة بليدة فى غربى الفسطاط مصر قبالتها ولها كورة كبيرة واسعة وهى من أفضل كور مصر ، وجاء فى الخطط [4] المقريزية

---

(١) الطالع السعيد ص ٧٦

(٢) القاموس الجغرافى .

(٣) معجم البلدان ج ٣ ص ١٩٢

(٤) المقريزى ج ١ ص ٣٣٢

الجيزة الناحية ، والجانب الجيز جانب الوادى وقد يقال فيه الجيزة ، ثم قال والجيزة اسم لقرية كبيرة جميلة البنيان على النيل من جانبه الغربى تجاه مدينة الفسطاط . وورد فى الانتصار[1] ، أن مدينة الجيزة هى مدينة إسلامية بنيت سنة ٢١ هـ ، وفى أحسن [2] التقاسيم أن الجيزة مدينة خلف العمود (مقياس النيل بالروضة) كانت الطريق اليها من الجزيرة (جزيرة الروضة) على جسر إلى أن قطعه الخليفة الفاطمى .

ويقول ياقوت [3] وكذا القضاعى عن السبب الذى من أجله أنشئت مدينة الجيزة ، ولما رجع عمرو بن العاص من الاسكندرية ونزل الفسطاط جعل طائفة من جيشه بالجيزة خوفا من عدو يغشاهم فى تلك الناحية . فلما استقر عمرو فى الفسطاط أمر الذين خلفهم بالجيزة أن ينضموا إليه فكرهوا ذلك وقالوا هذا مقدم قدمناه فى سبيل الله وأقمنا به ما كنا بالذين نرغب عنه ونحن به منذ شهر . فكتب عمرو بن العاص إلى عمر بن الخطاب يخبره بذلك فرد عليه عمر ، كيف رضيت أن تفرق عنك أصحابك وتجعل بينك وبينهم بحراً لا تدرى ما يفاجئهم فلعلك لا تقدر على غياثهم ، فاجمعهم إليك ولا تفرقهم فإن أبوا وأعجبهم مكانهم فابن عليهم حصنا من فىء المسلمين ، فجمعهم عمرو وأخبرهم بكتاب عمر فامتنعوا من الخروج من الجيزة فأمر عمرو ببناء الحصن عليهم ، فكرهوا ذلك وقالوا لا حصن أحصن لنا من سيوفنا ، وكرهت ذلك همدان ويافع ، فأقرع عمرو بينهم فوقعت القرعة على يافع فبنى فيهم الحصن فى سنة إحدى وعشرين وفرغ من بنائه فى سنة اثنتين وعشرين . وأمرهم عمرو بالخطط بها فاختطت كل قبيلة خطة لها .

ومما تقدم ، يتبين لنا أن مدينة الجيزة هى ثانية اثنتين اختطهما العرب بمصر بعد فتحهم لها ، ومن القصص التى يرويها المقريزى [4] عن الجيزة ، يقال أن مسجد التوبة الذى بالجيزة كان فيه تابوت موسى عليه السلام الذى قذفته أمه فى النيل ، وبها النخلة التى أرضعت مريم تحتها عيسى عليه السلام . كما ورد فى المقريزى نقلا عن القضاعى ، سجن يوسف عليه السلام ببوصير من عمل الجيزة ، أجمع أهل المعرفة من أهل مصر على صحة هذا المكان (كذا) وفيه أثر نبيين أحدهما سجن يوسف ، وذكر أنه سجن به سبع سنين ،

---

(١) ابن دقماق ص ٥٧

(٢) المقدسى ص ١٩٣

(٣) معجم البلدان جـ ٣ ص ١٩٣

(٤) المقريزى جـ ١ ص ٣٣٣

وكان الوحي ينزل عليه والنبي الآخر موسى عليه السلام ، وقد بنى على أثره مسجد هناك يعرف بمسجد موسى . (وهو مسجد التوبة) . ولا يعنينا فى هذا البحث أن نحقق ما جاء فى هذه القصص ، ولكن الذى نستطيع أن نقول به ان هذه المنطقة ظلت طوال العصر الاسلامى ينظر اليها كمنطقة مباركة « يرجى أن يستجاب فيها الدعاء ويقول القضاعى فى ذلك ، ان كافور الاخشيدى سأل أبا بكر بن الحداد عن موضع معروف بإجابة الدعاء ليدعو فيه فأشار عليه بالدعاء على سطح سجن يوسف ، ثم يضيف وكان لسجن يوسف وقت ، يمضى الناس اليه يتفرجون عليه . وذكر المسبحى [1] فى حوادث سنة ٤١٥ هـ ان الخليفة الفاطمى ، الظاهر لاعزاز دين الله ، خرج وعدى فى سائر عساكره إلى الجيزة فى أربع عشاريات ، وأربع عشرة بغلة من بغال النقل ، وفى جميع من معه خاصته وحرمه إلى سجن يوسف عليه السلام ، وأقام هناك يومين وليلتين ، ويقال ان كعب الأحبار الصحابى مدفون بالجيزة [2] . ويقول المقريزى [3] ان أول مسجد جامع بنى بالجيزة أنشأه محمد بن عبد الله الخازن سنة ٣٥٠ هـ بأمر الأمير على بن الاخشيد وأشرف عليه كافور ، وكان الناس قبل ذلك يصلون الجمعة فى مسجد همدان . ثم بنيت بعد ذلك عدة جوامع أشهرها الجامع القديم المعروف بجامع أمير الجيوش . وجاء فى الجبرتى [4] ، إن بالجيزة جامعا يعرف بجامع أبى هريرة الذى جدد سنة ١١٨٨ هـ . وأبو هريرة هذا ليس هو الصحابى المعروف . فقد ذكر ابن جبير [5] ، وفى سنة ٧٢٤ هـ ، منع الناصر محمد بن قلاوون الوزير أن يتعرض إلى شىء مما يتحصل من مال الجيزة فصار جميعه يحمل اليه ، وأضاف ، وبخارج الجيزة موضع يعرف بأبى هريرة فيظن من لا علم له أنه أبو هريرة الصحابى وليس كذلك ، بل هو منسوب إلى ابن ابنته . وجاء فى تحفة الأرباب [6] وبغية الطلاب ، ان أبا هريرة الصحابى مات على فراسخ من المدينة وحمل اليها ودفن بالبقيع ويقول على مبارك [7] ، ومدينة الجيزة كثيرة الأسواق والوكائل والخانات وحوانيت مملوءة

---

(١) تاريخ مصر ص ٢١٧

(٢) معجم البلدان جـ ٣ ص ١٩٤

(٣) المقريزى جـ ١ ص ٣٣٤ ، النجوم الزاهرة .

(٤) الجبرتى ص ٦٣

(٥) ابن جبير ص ٢٢

(٦) السخاوى ص ٥٩

(٧) الخطط التوفيقية جـ ١٠ ص ٥٨

بالتجارة والبضائع من جميع الأصناف ، كما يوجد بها كثير من أرباب الحرف ، فيوجد بها تجار البز والحرير والنحاس والعقاقير والدخان ومعاصر الزيوت وطواحين بخارية ، ومعامل للفخار وأنوال لنسج القطن وغيره . وقد اتخذت سكناً للأمراء والمماليك وكبار رجال الدولة منذ العصر العثمانى . ومن العلماء الأفاضل الذين ينتسبون إلى الجيزة الربيع الجيزى صاحب الامام الشافعى ، وهو أبو محمد الربيع بن سليمان بن داود بن الأعرج الأزدى توفى سنة ٢٥٦ هـ بالجيزة ودفن بها . ومنهم بهاء الدين أبو الحسن على بن هبة الله خطيب مصر وأعلم اهل زمانه وقد مدحه كثير من المؤرخين فقال أبو المحاسن [١] أنه كان كثير الصحبة بالملك الصالح نجم الدين أيوب . ولما سافر إلى الحج أهدى اليه ملك اليمن هدية فقبلها فخنق عليه وفارق صحبته وتوفى سنة ٦٤٩ هـ . ومنهم أيضاً الطبيب على بن رضوان [٢] بن على بن جعفر ، كان عالم مصر فى أوانه فى أيام الخليفة المستنصر بالله الفاطمى ، وكان أول أمره منجما ، ثم قرأ شيئاً من الطب وشيئاً من المنطق ، وصنف كتبا بلغت اثنين بعد المائة كلها مبتكرة مستنبطة توفى سنة ٤٦٠ هـ .

بولاق الدكرور : قال المقريزى [٣] عند ذكر جامع التكرورى ، أن هذه الناحية من قرى الجيزة ، كانت تعرف بمنية بولاق ، ثم عرفت ببولاق التكرورى ، بعد أن نزل بها الشيخ أبو محمد يوسف بن عبد الله التكرورى فى عهد العزيز بالله الفاطمى ، وكان الناس يعتقدون فيه الخير والصلاح ، فلما مات بنى عليه قبة وعمل بجانبها جامع ، فاشتهرت هذه القرية من ذلك الوقت باسم بولاق التكرورى . ويقول محمد رمزى [٤] ، أن بولاق قرية مصرية قديمة اسمها بيلاق Bilaq وهى كلمة مصرية قديمة معناها المرساة والموردة واطلق هذا الاسم على بيلاق هذه لأنها كانت الموردة قبل إنشاء مدينة الجيزة ثم حرف اسمها إلى بولاق . ولما أنشأ الملك الناصر محمد بن قلاوون [٥] سنة ٧١٣ هـ مدينة جديدة على النيل تجاه القاهرة سماها بولاق لأنها مورده ترسو فيها السفن القادمة إلى القاهرة والمسافرة منها . وذكر المقريزى أنه بعد سنة ٧٩٠ هـ طغى ماء النيل على بولاق التكرور ،

---

(١) النجوم الزاهرة جـ ٥ ص ١٩٢

(٢) عيون الأنباء لابن أبى أصيبعة جـ ٢ ص ٩٩ ، تاريخ الحكماء لابن القفطى ص ٤٤٣

(٣) المقريزى جـ ١ ص ٣٣٢

(٤) القاموس الجغرافى جـ ٣ ص ٩

(٥) النجوم الزاهرة جـ ١٢ ص ٨٧ ، المقريزى جـ ١ ص ٣٣٤

فأخذ منها قطعة عظيمة كانت كلها مساكن ، فخاف أهل البلد أن يأخذ (النيل) ضريح الشيخ التكروري والجامع لقربهما من النيل ، فنقلوا الضريح والجامع إلى داخل البلد ، ولا يزال ضريح الشيخ التكروري فى مكانه الذى نقل إليه بالبلد القديمة وليس فى بولاق الدكروري كما يظن البعض . ويقول محمد رمزى أنه فى سنة ١٨٦٣ م حول مجرى النيل من الغرب إلى الشرق لإمكان توفر المـاء اللازم لشرب سكان القاهرة ، وبذلك أصبحت مساكن قرية بولاق التكرور بعيدة عن شاطىء النيل وفى سنة ١٨٦٨ م هدمت مساكن هذه القرية وعوض أهلها فانتقلوا إلى مكانها الحالى بجوار محطة بولاق الدكرور ، ويتضح لنا من هذا أن قرية بولاق الدكرور هذه ليست فى مكانها الأصلى القديم ، وأن الجامع الذى جدده الملك الناصر محمد بن قلاوون سنة ٧١٥ هـ قد اندثر وأن اللوح الرخام الذى كان مركبا على بابه نقل إلى باب ضريح الشيخ يوسف التكرورى الموجود الآن مع أضرحة أخرى بين مبنى وزارة الزراعة ومبنى المتحف الزراعى .

المناوات : وهى قرية مصرية قديمة اسمها الأصلى منية أندونه ، ذكرها المقريزى [١] فقال ، إنها إحدى قرى الجيزة ، عرفت بأندونة كاتب احمد المدايني . كان يتقلد ضياع موسى ابن بغا التى بمصر فقبض أحمد بن طولون على أندونة هذا وأخذ منه خمسين ألف دينار . ووردت هذه القرية فى قوانين ابن مماتى [٢] مع منية قادوس المجاورة لها باسم منيتى قادوس وأندونة من أعمال الجيزة ، وفى الروك الناصرى ، فصلت من منية قادوس ، وذكرها ابن اياس [٣] باسم المناوات ، وفى تاريخ سنة ١٨٣٨ ميت اندونة وهى المناوات . ويقول محمد رمزى ان المناوات جمع منية وكانت تطلق على ثلاث قرى متجاورة فى السكن وكل قرية منها تسمى منية وهى منية اندونة ، ومنية قادوس ومنية الشماس ، ولما اختفى اسم منية اندونة أصبح اسم المناوات خاصاً بهذه الناحية .

العزيزية : هى من القرى القديمة وردت فى كتب أحسن التقاسيم [٤] قال ، ان العزيزية وهى من مدينة منف القديمة ، وقد اختفت وخربت وكانت مصر فى القديم وبها كان ينزل فرعون ، وفيها قصره ومسجد يعقوب ويوسف . وذكرها ياقوت [٥] ان العزيزية خمس

---

(١) المقريزى جـ ١ ص ٣٣٥
(٢) ابن مماتى ص ٢٣٧
(٣) ابن أياس جـ ٣ ص ١١٢
(٤) المقدسى ص ١٩٤
(٥) معجم البلدان جـ ٦ ص ١٧١

قرى بمصر ، تنسب إلى العزيز بالله الفاطمى ومنها قرية بالجيزة . وورد فى صبح[1] الأعشى ، أنه يوجد فى شمال منف بلدة صغيرة تعرف بالعزيزية يقال أنها كانت منزلة العزيز وزير الملك ، وهناك مكان على القرب يعرف بزليخا ، ويقول محمد[2] رمزى أنه لما خربت مدينة منف منذ آخر أيام الحكم الرومانى بمصر ، أقيم على أطلالها وفى أراضيها قرى العزيزية ومنية رهينة والبدرشين وصقارة ، ثم يضيف ، والظاهر أنه لما تولى العزيز بالله الفاطمى اختاروا له خمس مدن قديمة وأطلقوا عليها اسمه تخليداً لذكره وكانت احداهما العزيزية هذه . ووردت العزيزية فى دواوين ابن مماتى[3] ، العزيزية من أعمال الجيزة .

ساقية مكى : هى من النواحى القديمة ، اسمها الأصلى ساقية مكه[4] ، سميت بهذا الاسم لأن أراضيها كانت وقفا على اشراف مكة المكرمة . وفى بدء تكوين هذه الناحية كان عليها ساقية فعرفت بساقية مكة ، وحرفت إلى مكى فى العصر العثمانى . ووردت باسمها الحالى فى مصنف الحملة الفرنسية لمصر .

ميت القايد : وهى من القرى القديمة اسمها الأصلى منية القائد ، أنشأها القائد فضل ابن صالح[5] أحد قواد جيش الخليفة العزيز بالله الفاطمى . وردت فى قوانين ابن مماتى[6] منية القائد من الأعمال الجيزية . وفى تاريع سنة ١٨١٣ م حرف اسمها من منية إلى ميت ومن القائد إلى القايد .

ميت عقبة : هى من القرى القديمة اسمها الأصلى منية عقبة ، ذكرها المقريزى[7] ان الذى أنشأها هو عقبة بن عامر الجهنى والى مصر من قبل الخليفة معاوية بن أبى سفيان سنة ٤٥ هـ ، ولأنها كانت واقعة فى ذلك الوقت على الشاطىء الغربى للنيل قبل تحويله إلى الشرق ، عرفت باسم منية عقبة . وردت فى قوانين ابن مماتى[8] منية عقبة من أعمال الجيزية ، وفى تاريع سنة ١٨١٣ حرف اسمها إلى ميت عقبة .

---

(١) صبح الأعشى جـ ٦ ص ١٤٧
(٢) القاموس الجغرافى جـ ٣ ص ٦
(٣) ابن مماتى ص٩٧
(٤) القاموس الجغرافى جـ ٣ ص ١٥
(٥) ياقوت جـ ٦ ص ١٧٢
(٦) ابن مماتى .
(٧) المقريزى جـ ١ ص ٣٣٤
(٨) ابن مماتى ص ٩٧

محافظة المنوفية

تكونت كورة المنوفية فى العصر الفاطمى نسبة إلى مدينة منوف التى كانت قاعدة لهـا ، وفى سنة ٧١٥ هـ سميت الأعمال المنوفية وفى العصر العثمانى أطلق عليها ولاية المنوفية ، وفى سنة ١٨٣٣ م سميت مديرية المنوفية وأصبحت قاعدتها شبين الكوم بعد أن كانت [١] منوف وفى سنة ١٩٦٠ أصبحت تعرف باسم محافظة المنوفية .

منوف : مدينة قديمة ذكر جوتييه وكذا أميليشو أن اسمها القبطى Banoufris وهى منوف العليا ، وقال ابن حوقل [٢] ، أن منوف مدينة كبيرة بها حمامات وأسواق وأهلها أهل تناية [٣] ويسار ، وفيهم من وجوه الناس ولها إقليم عظيم وعمل ، يليه عامل كبير وقاض . ووردت فى ابن مماتى [٤] ، منوف من أعمال المنوفية ، وفى معجم [٥] البلدان منوف من قرى مصر القديمة بأسفل الأرض من بطن الريف ويقال لكورتها المنوفية . وذكرها القلقشندى [٦] فقال ، عمل المنوفية أوله من الجنوب القرية المعروفة بشطنوف ، على أول الفرقة الغربية من النيل ، ومقر ولايته مدينة منوف ، وهى مدينة إسلامية بنيت بدلا من مدينة قديمة كانت قد خربت ، وبقيت آثارها كيمانا ، وولايتها من أنفس الولايات وقد أضيف إليها عمل إبيار وهى جزيرة بنى نصر ، ثم أضاف ، ومنوف مدينة حسنة ذات أسواق ومساجد ، ومسجد جليل للخطبة وحمام وخانات . وجاءت فى تاريخ [٧] سنة ١٨١٣ باسم منوف العلا ، لأنهـا تقع بالقرب من رأس الدلتا فى مكان أعلى مما تقع فيه منوف السفلى التى تعرف اليوم باسم محلة منوف بمركز طنطا . وكانت منوف قاعدة الاقليم من الفتح العربى حتى سنة ١٨٢٦ ثم صارت قاعدته شبين الكوم لتوسطها بين بلاد الاقليم .

---

(١) القاموس الجغرافى ج ٢ ص ٢٢٢
(٢) ابن حوقل ص ٢٣٧
(٣) تنايه أى أهل فلاحة وزراعة.
(٤) ابن مماتى ص ٢٧٨
(٥) ياقوت ج ٨ ص ١٧٨
(٦) صبح الاعشى ج ٩ ص ١٢٧
(٧) القاموس الجغرافى ج ٢ ص ٢٢٢

شبين الكوم : من القرى المصرية القديمة اسمها الأصلي شبين السرى ، وردت فى قوانين ابن مماتى[1] شبين السرى من أعمال المنوفية ، وفى تاريع سنة ١٨١٣ م وردت باسمها الحالى ، وفى سنة ١٨٢٦ ، أصبحت شبين الكوم قاعدة المديرية ثم قاعدة المحافظة فى سنة ١٩٦٠

وجاء فى الخطط التوفيقية [2] عن شبين الكوم ، أن الجغرافيين اتفقوا على أن هذه المدينة هى محل قرية قديمة سماها هيرودوت (أتربيشس) وأنها فى جزيرة اسمها (بروزيتيس) ويعارض محمد رمزى [3] هذا الرأى فيقول ، أن ما جاء فى الخطط التوفيقية خاصا بشبين غير صحيح لأن جزيرة (بروزيتيس) هى التى تسمى جزيرة نصر وأن شبين الكوم لم تكن من قرى تلك الجزيرة .

الشهدا : جاء فى معجم البلدان [4] ، مقابر الشهداء موضع بأرض مصر وقعت فيه حروب بين مروان بن الحكم وجنوده وبين الزبيرية من أهل مصر سنة ٦٥ هـ وقتل من الفريقين عدد عظيم ، فدفن المصريون قتلاهم فى هذا الموضع وسموه مقابر الشهداء . وإذا تتبعنا الأحداث التاريخية وجدنا إن مصر كانت فى القرن الأول الهجرى تحت حكم الدولة الأموية ، ولما مات الخليفة يزيد بن معاوية بن أبى سفيان دعا عبد الله بن الزبير لنفسه بالخلافة فصار أنصاره بمصر وأظهروا دعوته وسار اليه جماعة منهم ، فأرسل إلى مصر عبد الرحمن بن عتبة بن جحدم واليا عليها فوصلها فى شعبان سنة ٦٤ هـ فى جمع كبير من أنصار عبد الله بن الزبير الذين يسمونهم الخوارج . ولما بويع مروان بن الحكم الأموى بالخلافة جهز جيشاً آمر عليه ابنه عبد العزيز بن مروان وأرسله إلى مصر ، فأجمع ابن جحدم على حربه ومنعه من دخول مصر ، ثم جاء الخليفة بنفسه إلى مصر وحارب ابن جحدم فى عدة مواضع ، كان من بينها موضع بالمنوفية [5] سنة ٦٥ هـ . قتل فيه من الفريقين عدد عظيم ، وانتهت المعركة بانتصار مروان بن الحكم ودخوله الفسطاط سنة ٦٥ هـ وبعد انتهاء المعركة دفن أنصار ابن الزبير قتلاهم ، فى ذلك الموضع بجوار قرية بسرسنا ،

---

(١) ابن مماتى ص ٢٧٩

(٢) الخطط التوفيقية جـ ١٦ ص ٤٧

(٣) القاموس الجغرافى جـ ٢ ص ١٨٢

(٤) ياقوت جـ ٥ ص ٢٥٨

(٥) النجوم الزاهرة جـ ٢ ص ٩٥

فاشتهر بين أهلها باسم مقابر الشهداء . وكان يوجد بجوار تلك المقابر كفر صغير عرف من ذلك الوقت باسم الشهداء وكان من توابع سرسنا ثم أخذ هذا الكفر يتسع بزيادة مبانيه ، وعدد سكانه إلى أن أصبح قرية وورد ذكرها فى تاريخ سنة ١٨١٣ م باسم سرسنا والشهداء ثم فصلت الشهداء عن سرسنا وأصبحت ناحية قائمة بذاتها .

أشمون : قرية مصرية قديمة اسمها القبطى ، كما ذكرها اميلينو Gemouni ثم حرف إلى أشموم . وردت فى نزهة المشتاق [1] باسم اشمن جريس ، بين أم الدينار ، والجريس ، وهى مدينة صغيرة فى الغرب كثيرة العمارات والبساتين والجنات ، وذكرها ياقوت [2] باسم أشموم قال ، وهى أشموم الجريسات بالمنوفيـة بمصر . وفى تاريخ ١٨١٣ [3] وردت باسم أشمون جريس لمجاورتها لناحية جريس وتميزاً لهـا من أشمون الرمان التى بمركز دكرنس .

وقد أنجبت محافظة المنوفية كثيراً من العلمـاء والأعلام فى الطب والسياسة والاجتماع والقانون ، نذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر ، الشيخ محمد موسى البجيرمى ولد فى بلدة بجيرم إحدى قرى مركز قويسنا ، ونشأ نشأة دينية فحفظ القرآن ثم التحق بالأزهر وتخرج فيه وانكب على البحث والاطلاع فى العلوم الدينية واللغوية حتى عين عضواً بهيئة كبار العلماء وشيخاً للمذهب الشافعى وتوفى سنة ١٣٢٩ هـ . ومن علمائها الفقهاء كذلك الشيخ محمد الخضرى الذى تولى القضاء فى السودان ، كما تولى تدريس التاريخ الاسلامى فى الجامعة المصرية وتوفى سنة ١٩٢٧ م . ومن أبناء المنوفية المناضلين البررة عبد العزيز حجازى عمر ، الذى لقبه ناظر المدرسة الخديوية بلقب فهمى لذكائه وفطنته فعرف بعبد العزيز فهمى ، ولد بقرية كفر المصيلحة سنة ١٨٨٢ ، وتخرج فى كلية الحقوق وعين بوظائف الحكومة ولكنه استقال وآثر المحاماة ، فاستطاع أن يؤدى واجبه نحو وطنه بالاشتراك مع الوفد المصرى فى المطالبة بحقوق البلاد كما اشترك فى وضع الدستور الأول للدولة . ومن أقواله المأثورة ، منيت البلاد باستعمارين ، الاستعمار الانجليزى واستعمار أسرة محمد على ، وان الاستعمار الأخير أشد خطراً على البلاد من الاستعمار الأول .

---

(١) الادريسى ص ٢٧٩

(٢) معجم البلدان جـ ١ ص ٢٦٠

(٣) القاموس الجغرافى جـ ٢ ص ١٥٧

محافظة الغربية

تكونت كورة الغربية في العصر الفاطمى ، وأطلق عليها اسم الغربية لوقوعها غربى فرع النيل ، وعرفت بأعمال الغربية فى العصر المملوكي ثم ولاية الغربية فى العصر العثمانى . ثم فى سنة ١٨٣٣ سميت مديرية الغربية ثم أصبحت محافظة الغربية سنة ١٩٦٠ . وكانت المحلة الكبرى قاعدة لاقليم الغربية من عهد الدولة الفاطمية حتى سنة ١٨٣٦ التى نقل فيها ديوان المديرية من المحلة إلى طنطا ، وكان يشرف فى ذلك الوقت على مديريتى المنوفية والغربية مدير واحد باسم مدير روضة البحرين[1] . وقد تواضعت بعد ذلك شهرة المحلة واعتبرت قرية صغيرة من توابع قسم سمنود ، ثم عادت اليها شهرتها وزاد عدد سكانها بسبب المحالج والمصانع الكبيرة التى أنشأتها فيها شركة مصر من سنة ١٩٢٠ ، فأصبحت المحلة الآن من أكبر المدن المصرية وأشهرها .

المحلة الكبرى : من المدن المصرية القديمة اسمها القبطى دقلا ، ولما فتحها العرب سموها محلة دقلا ، وعرفت بمحلة شرقيون ثم سميت المحلة الكبرى لأنها أكبر البلاد المسماة باسم المحلة [2] بمصر . وذكرها المقدسى[3] باسم المحلة الكبرى وقال انها مدينة على نهر الاسكندرية (أى فرع رشيد) ، بها جامع لطيف وليس بها أسواق كثيرة غير أنها عامرة نزيهة الشط حسنة النهر يقابلها صندفا عامرة كذلك وبها جامع ،شبهها بمدينة واسط إلا أنه ليس بينهما جسربل يعبرون فى المراكب ووصفها الادريسى[4] فقال ، المحلة مدينة ذات أسواق عامرة وتجارات شاملة ، وذكرها ياقوت[5] المحلة عدة مواضع بمصر منها محلة دقلا وهى أكبرها وأشهرها تقع بين القاهرة ودمياط ، ثم ذكر بعدها محلة أبى الهثيم ، ثم محلة شرقيون بمصر أيضا وهى المحلة الكبرى مدينة مشهورة بالديار المصرية وهى ذات جنبين أحدهما سندفا والآخر شرقيون . ويعلق محمد رمزى على ياقوت فيقول يفهم من عبارة ياقوت ان محلة دقلا هى بلدة أخرى غير المحلة الكبرى فى حين أنهما بلدة واحدة . والظاهر ان ياقوت

---

(١) الخطط التوفيقية جـ ١٤ ص ٥٨

(٢) القاموس الجغرافى جـ ٢ ص ٨

(٣) المقدسى ص ١٩٨

(٤) الادريسى ص ١٧٥

(٥) ياقوت جـ ٦ ص ١٦٩

لم يتنبه لذلك وقت وضع معجمه . ووصفها ابن دقماق[1] وصفا شاملا ، قال ، وتعرف بمدينة المحلة وهى قصبة اقليم الغربية من الديار المصرية . وولايتها قديما تعرف بالوزارة الصغيرة . ثم يضيف وفى بلاد مصر نحو المائة قرية تعرف كل منها بالمحلة تتميز بلقب تعرف به أو بنسبة تعرف بها . والمحلة هذه مدينة كبيرة ذات أسواق وبها جامع ومدارس وقياسر وبزازين وفنادق ، ومنارة وبساتين ويشقها نهر من النيل .

طنطا : هى قاعدة محافظة الغربية اسمها القديم (Tantant) ويقول محمد رمزى[2] إذا قارنا اسمها القديم بالأسماء التى جاءت فى المعاجم وكتب المؤرخين تبين لنا أن اسم طنطا هو الاسم المصرى القديم لهذه المدينة . وجاءت فى كتاب[3] المسالك باسم طندتا بين فيشة بنى سليم وبين محلة المرحوم . وأضاف وهى ضيعة حسنة عظيمة بها جامع لطيف وحمام ولها ضياع وأسواق . ووردت فى نزهة المشتاق[4] باسم طنطنه . وهى مدينة متحضرة صغيرة ذات أسواق ورزق داره وأحوال صالحة وأهلها فى رفاهة وخصب . وجاءت فى قوانين[5] ابن مماتى طندتا من أعمال الغربية ، وفى الضوء اللامع[6] طنتدا ؛ وفى تاريخ[7] الجبرتى طنتداء والنسبة إليها طنتدائى . وفى العصر العثمانى حذفت الدال من طندتا لتسهيل النطق فصارت طنتا ، ثم نخمت التاء لتوافق ذوق العامة فصارت طنطا وهو اسمها الحالى الذى وردت به فى تاريخ[8] ١٨١٣ وقد زادت شهرة مدينة طنطا وارتفع شأنها من يوم أن دفن بهـا ولى الله السيد أحمد البدوى المتوفى سنة ٦٧٥ هـ وقبره مزار ويحتفل سنويا بإحياء ذكرى مولده فيقصدها خلق كثير ، وضريح السيد البدوى تعلوه قبة وله جامع كبير وإليه ينسب المعهد الدينى الأحمدى .

---

(١) ابن دقماق ص ١٧٢
(٢) القاموس الجغرافى جـ ٢ ص ١٠٢
(٣) المسالك لابن حوقل ص ٢٢١
(٤) الادريسى ص ١٩٧
(٥) ابن مماتى ص ١٢٧
(٦) السخاوى جـ ٧ ص ١٧٣
(٧) الجبرتى جـ ٢ ص ٧٧
(٨) القاموس الجغرافى جـ ٢ ص ١٠٢

كفر الزيات : كان فى إقليم الغربية قرية قديمة تسمى جريسان [1] وردت فى قوانين ابن مماتى أنها من أعمال جزيرة بنى نصر ، وفى القرن الحادى عشر الهجرى طغى النيل على بلدة جريسان فأكل مساكنها عن آخرها ، فاضطر أهلها إلى السكنى فى أراضيها الزراعية الواقعة فى الجهة الشرقية من جريسان المندثرة ، وأنشأوا بدلها قرية جديدة عرفت باسم كفر الزيات نسبة إلى الحاج على الزيات صاحب مصانع الزيت الموجودة بها فى ذلك الوقت . وكانت كفر الزيات تابعة لمركز بسيون وفى سنة ١٨٧١ م نقل المركز من بسيون إلى كفر الزيات وذلك لوقوعها على السكة الحديدية الرئيسية . وكفر الزيات اليوم من أشهر مدن مصر ، إذ يوجد بهـا معامل لاستخراج الزيت والسمن الصناعى من بذرة القطن وبها مصانع الصابون ، ومحالج القطن .

النحارية : من القرى القديمة اسمها الأصلى النحريرية [2] ، وكانت فى بدء تكوينها ضيعة أنشاها نحرير الأرغلى الأخشيدى المعروف باسم الشويزانى وذلك فى القرن الرابع الهجرى ، فعرفت بالنحريرية نسبة إليه ، ثم صارت أرضها تتنقل فى أيدى المقطعين إلى أن صارت فى إقطاع الأمير شمس الدين سنقر السعدى ذكرها ابن أياس [3] قال ، وفى سنة ٧٢٦ هـ عمرت القرية المعروفة بالنحريرية من أعمال الغربية ، وكان سبب إنشائها أن أرض الضيعة كانت جارية فى اقطاع الأمير شمس الدين سنقر السعدى نقيب الجيوش المنصورى فبنى بهـا جامعا وطاحونا وخانا وتزايدت العمائر حتى صارت بلداً كرسيا ، وسكن بها جماعة كبيرة من الفلاحين فبلغ خراجها فى كل سنة خمسة عشر ألف دينار فبلغ ذلك الملك الناصر محمد بن قلاوون فأخذها من الأمير سنقر السعدى وصارت من جملة بلاد السلطان . وجاءت فى الخطط المقريزية ، النحريرية قرية من الأعمال الغربية أسس حكرها الأمير شمس الدين سنقر السعدى نقيب الجيش فى أيام الملك الناصر محمد بن قلاوون وبالغ فى عمارتها فبلغت فى أيامه عشرة آلاف درهم فضة . ثم خرج عنها للسلطان الناصر محمد فعمرت واتسعت أمرها حتى أنشىء فيها ما يزيد على ثلاثين بستانا ووصل حكرها لكثرة سكانها إلى ألف درهم فضة لكل فدان . وصارت بلدا كبير العمـل يبلغ فى السنة

---

(١) القاموس الجغرافى جـ ٢ ص ١٠٢

(٢) المقريزى جـ ١ ص ٤٠٣ ، التحفة السنية ص ٧٠

(٣) ابن أياس جـ ٣ ص ١٦١

ما بين خراجى وهلالى ثلاثمائة ألف درهم فضة ، وخمسة عشر ألف دينار ذهباً ومات سنقر السعدى سنة ٧٢٨ ﻫ . وذكرها ابن دقماق قال ، التحريرية مساحتها ١٢٧٠ فدانا وعبرتها ثلاثون ألف دينار وهى مدينة كبيرة ذات أسواق وقياس وفنادق وجامع وبها تجار مياسير . ويضيف على مبارك [١] على ذلك ، وبنى بها السلطان الناصر محمد جامعاً سماه المحمودية وكان به ٣٥٠ عموداً ورتب فيه عشرين درساً وبنى حول المسجد الدكاكين والفنادق ووقفها عليه . وجعل له كذلك مائه فدان طينا يؤخذ خراجها ويصرف على العلماء والمدرسين ، وكان بها ١٢٠ مسجداً كباراً وصغاراً وعشرون حماما وستون معصرة للزيت وغير ذلك من الأسواق والدكاكين وكانت من أجمل المدائن الاسلامية وهى آخر ما بنى فى مصر من المدائن . والآن استولى عليها الخراب من ظلم الولاة والكشوفية . وقد حرف اسم هذه البلدة من التحريرية إلى النحارية فى العصر العثمانى [٢] . وهى تتبع الآن مركز كفر الزيات .

* * *

محافظة القليوبية

هى من أقاليم الوجه البحرى بمصر استحدثت فى سنة ٧١٥ ﻫ بمرسوم من الملك الناصر محمد بن قلاوون حين أمر بعمل الروك الناصرى ، وكانت نواحيها قبل ذلك تابعة لإقليم الشرقية ، ثم فصلت عنها باسم أعمال القليوبية نسبة إلى مدينة قليوب التى كانت قاعدة لها . وفى العصر العثمانى أطلق عليها ولاية القليوبيه ثم مأمورية القليوبيه وفى سنة ١٨٣٣ سميت مديرية القليوبية وقاعدتها بنها وفى سنة ١٩٦٠ سميت محافظة القليوبية وظلت قاعدتها بنها .

بنهـا : من القرى المصرية القديمة اسمها القبطى (Banaho) ومنه اسمها العربى بنها . وردت فى كتاب البلدان [٣] أنها ضمن مدن أسفل الأرض . وذكرها الادريسى [٤] منية العسل وهى جليلة كثيرة الأشجار وتتصل بها العمارات. وجاءت فى قوانين ابن مماتى [٥]،

---

(١) الخطط التوفيقية ج ١٧ ص ٥
(٢) القاموس الجغرافى ج ٢ ص ١٢٢
(٣) اليعقوبى ص ٥٧
(٤) الادريسى ص ٦٩
(٥) ابن مماتى ص ٤٧

بنها العسل من أعمال الشرقية ويقول محمد رمزى [1] فى معنى كلمه بنها ، ويتكون اسم بنها المصرى من مقطعين بى ومعناها بيت أو حظيرة ونها ومعناها شجر الجميز ، فكأن بنها معناها حظيرة شجر الجميز ، ولا يخفى أن شجر الجميز كان له شأن يذكر عند قدماء المصريين فكانوا يصنعون منه التوابيت والأثاث والتماثيل . ثم يضيف ويحتمل أن تكون بى أداة التعريف ونها جميز فيكون بنها الجميزة . ولها مثيل وهى الجميزة التى بمركز السنطة بمديرية الغربية .

أتريب : مدينة قديمة اسمها (Atrebi) ومنه اسمها العربى . وكانت أتريب قاعدة أبرشية فى القرن الثامن الميلادى ، وقد بدأ الخراب يدب فى مساكنها منذ القرن الثالث عشر الميلادى . ثم اندثرت بعد ذلك إلا أن اسمها ظل باقيا بين البلاد المصرية على اعتبارها ناحية قديمة ذات وحدة مالية ، وردت فى الانتصار ، أتريب من التلال المجموعة مساحتها ٧٥٨ فدانا من أعمال الشرقية . وفى تاريخ ١٨١٣ لختفى اسمها فلم يرد فى عداد النواحى المصرية ولكنه ظهر بعد ذلك ، ففى سنة ١٩٤٢ فصلت عن بندر بنها من الوجهة الادارية وعادت بلدة باسمها أتريب .

شبين القناطر : قرية قديمة اسمها الأصلى شيبين ذكرها ياقوت [2] شيبين من قرى الحوف بمصر بين بلبيس والقاهرة ، ولأجل تميزها عن شبين التى بالمنوفية ذكرها بن مماتى [3] باسم شبين القصر من أعمال الشرقية . وتكلم بن أياس [4] عن شبين القناطر فقال ، أنها سميت شبين القناطر لأنهسا اشتهرت بالقناطر التى أنشأها عندها على بحر أبى المنجا الملك الناصر محمد بن قلاوون فى سنة ٧٣٥ هـ .

قليوب :من القرى القديمة وردت فى كتب معاجم البلدان أنها من أعمال الشرقية وجاءت فى الانتصار [5] قليوب مدينة عظيمة حسنة يقال أنه كان بها ١٧٠٠ بستان وقد خرب أكثرها وهى كرسى الاقليم وبها يقيم متولى الحرب السعيد ، وبها من أنواع الفواكه

---

(١) القاموس الجغرافى جـ ٢ ص ١٢٨
(٢) ياقوت جـ ٥ ص ٢٦٠
(٣) ابن مماتى ص ١٤٧
(٤) ابن اياس جـ ١ ص ١٧٥ ، جـ ٣ ص ٢١٠
(٥) ابن دقماق ص ٢٣٧

شيء كثير رخيص وبها خليج السردوس وهو أحد نزهات الدنيا لأنه يسار فيه بين بساتين متشابكة وأشجار ملتفة وفواكه دانية . وجاء فى الخطط التوفيقية [1] ، أن محمد الشواربى من أهالى قليوب كان عنده وثيقة عليها علامة قاضى مصر ومؤرخة سنة ٨٩١ هـ وكذا وثيقة أخرى مؤرخة سنة ١٠٦١ هـ تشيران إلى وجود البحر السردوسى بمدينة قليوب . ويضيف على مبارك ، ولا يعلم هل كان الماء إذ ذاك يجرى فيه أو كان يدخله وقت الفيضان ، وأن محله الآن ترعة صغيرة تسمى الردوسية . وقال ابن جبير من أحسن البلاد التى مررنا عليها موضع يعرف بقليوب على بعد ستة أميال من القاهرة فيه الأسواق الجميلة ، ومسجد جامع كبير حافل مشيد البنيان . وقال النابلسى صاحب كتاب دواوين الديار المصرية أن قليوب كانت ذات بساتين وسنط وأشجار كثيرة وأنها كانت كأنها ذخيرة لهم (للملوك الدولة الأيوبية) وحكمها حكم المعادن (يعنى أشجار السنط) وهى لبيت مال المسلمين ليس لأحد فيها اختصاص وكان لها ديوان وقد أهملها أولو الأمر وصار الناس يقطعون منها ما يختارونه ويحضرونه إلى ساحل مصر ويصالحون ديوان ساحل السنط عن الثلث المقرر للديوان بشيء يسير ويبيعونه بالأموال الكثيرة . ويقول أنه كان بقليوب وضواحيها سنط يساوى ما يقرب من مائة ألف دينار .

ويقول ابن أياس [2] أن أكثر أهل قليوب مسلمون ، ومنهم عائلة مشهورة من عدة أجيال تعرف بعائلة الشواربية ، يقولون أنهم من قبيلة تسمى بهذا الاسم من عرب الحجاز القاطنين الصفراء والجديدة تنقل جدهم الأعلى إلى الشام ثم إلى مصر وكان دخوله بلاد مصر بذريته وأتباعه فى القرن السابع للهجرة فنزل أولا على بحر أبى المنجى وأقام هناك ثم انتقل إلى قليوب . ويضيف أن السبب فى توطنهم تلك الجهة أنه لما شرع السلطان الملك بيبرس البندقدارى فى بناء قناطر أبى المنجى جعل دركها عليهم وأنعم عليهم بأطيان رزقة هى إلى الآن (القرن السادس عشر) تحت أيدى ذريتهم وتسمى رزقة الشواربية من أطيان ناحية البرادعة ورتب لهم فى مقابلة ذلك بالروزنامة مبلغاً من النقود يصرف لهم كل سنة .

وينسب إلى قليوب جماعة من أهل العلم والفضل نذكر منهم الشيخ محمد بن محمد الشمس القليوبى ثم القاهرى الشافعى وجاء فى الضوء [3] اللامع أنه كان يعرف بالحجازى ،

---

(١) الخطط التوفيقية جـ ١٢ ص ١٤٧
(٢) ابن أياس جـ ٢ ص ٥٤
(٣) السخاوى جـ ٩ ص ٢٥٩

وكان إماماً عالماً فاضلا ماهراً فى الفرائض والحساب والعربية توفى سنة ٨٤٩ هـ ودفن بالقاهرة . ومنهم الشيخ أحمد القليوبى العالم الفقيه المحدث كان جامعاً للعلوم الشرعية متضلعاً فى العلوم العقلية ، وكان خبيراً بشئون الطب ، وله مصنفات كثيرة منها حاشيه على شرح المنهاج وكتاب فى الطب ومناسك الحج . توفى سنة ٨٦٦ هـ .

* * *

محافظة كفر الشيخ

كفر الشيخ من القرى القديمة اسمها الأصلى دمينقون ، وردت فى قوانين ابن مماتى [١] باسم دمنيفون وورد فى تاريخ ١٨١٣ م دميلاقون وهى كفر الشيخ طلحه نسبة إلى الشيخ طلحة الشاذلى صاحب المقام الموجود بها . ويقول محمد رمزى أنه لاحظ أن الكثير من القرى المصرية القديمة قد تغيرت أسماؤها فى العصر العثمانى وسميت بأسماء المشايخ أصحاب المقامات الموجودة بها ، مثال ذلك دمينقون هذه التى سميت كفر الشيخ والطا التى سميت أبو العز بمركز كفر الزيات نسبة إلى الشيخ أبو العز المدفون بها ، وديروط بلهاسة التى سميت الشيخ زياد بمركز مغاغة نسبة إلى الشيخ زياد بن مغيرة المدفون بهـا وأهريت التى سميت الشيخ فضل بمركز بنى مزار نسبة إلى الشيخ فضل المدفون بها . ويعالج محمد [٢] رمزى السبب فى هذا التغير هو رغبة أهالى هذه البلاد فى إحياء ذكرى أصحاب هذه المقامات ولفت نظر الناس إليهم لزيارتهم والتبرك بهم فى الموالد التى تقام سنوياً . ولا يخفى ما يعود على خدمة هذه المقامات من فائدة وما يكسبه أهل البلد من رواج لمحاصيلهم وتجارتهم . هذا بالاضافة إلى رغبة الأهالى فى التخلص من الأسماء المستهجنة التى لا يعرفون لهـا معنى . وفى سنة ١٨٣٣ م ضمت كفر الشيخ لمديرية الغربية وفى سنة ١٩٣١ انفصلت عن مديرية الغربية ثم أصبحت فيما بعد مديرية مستقلة تماما عن الغربية وفى سنة ١٩٦٠ تغير اسمها إلى محافظة .

بلقاس : يستفاد مما ورد فى كتاب الضوء [٣] اللامع عند الكلام على ترجمة الشيخ أحمد بن سليمان بن نصر الله ابراهيم الشهاب البلقاسى أن هذه المدينة قديمة وأنها كانت موجودة قبل القرن التاسع الهجرى ويقول محمد رمزى أنها كانت من كفور ناحيتى

(١) ابن مماتى ص ٢٨٣
(٢) القاموس الجغرافى ج ٢ ص ١٤٣
(٣) السخاوى ج ٣ ص ١٤٧

المبا والعسكر قيد زمامهما فى العصر العثمانى باسم بلقاس لشهرتها بين القرى فى ذلك الوقت. وفى سنة ١٨٩٢ نقل ديوان مركز بلاد الأرز شرقا إلى بلقاس ثم نقل المركز إلى شربين. وفى سنة ١٩٤٣ فصلت بلقاس عن شربين وأصبحت قاعدة المركز وهى تتبع الآن محافظة كفر الشيخ.

فوة : ذكرها أميلينو باسم (Poei) ثم قلبت الباء المثلثة فاء كما قلبت فى الفيوم وفاو وغيرهما من المدن المصرية القديمة [١]. ووردت فى معجم [٢] البلدان ، فوة بليدة على شاطىء النيل من نواحى مصر قرب رشيد بينها وبين البحر ستة فراسخ وهى ذات أسواق ونخيل كثير. ثم أضاف فى تفسير معنى كلمة فوة قال ، والفوة العروق التى تصبغ بها الثياب الحمر. ووردت فى نزهة [٣] المشتاق أنها على فرع النيل الغربى وهى مدينة حسنة كثيرة الفواكه والخصب بها أسواق وتجارات ولما أنشىء قسم بلاد الأرز غرب جعلت مدينة فوة مقراً له.

البرج : كانت هذه القرية تسمى البرلس وهى من الثغور المصرية القديمة التى تقع على شاطىء البحر الأبيض المتوسط بين دمياط ورشيد وإليها تنسب بحيرة البرلس [٤] وكان اسمها القديم (Paralos) ومنه اسمها العربى. ويطلق اسم البرلس أيضا على المنطقة الساحلية المعروفة باسم إقليم البرلس الممتد على ساحل البحر الأبيض المتوسط بينه وبين بحيرة البرلس التى كانت تسمى قديما بحيرة نسترو وهى التى كان العرب يسميها نستراوه وكان لها إقليم منسوب إليها.

وفى العصر الأيوبى أنشأ صلاح الدين ببلدة البرلس هذه حصنا على ساحل البحر الأبيض للمحافظة على الشواطىء المصرية من غارات الصليبيين عليها وقد عرف هذا الحصن باسم البرج. ومنذ ذلك الوقت عرفت بلدة البرلس باسم البرج واختفى اسمها الأصلى.

دسوق : من القرى القديمة وردت فى قوانين ابن مماتى [٥] أنها من أعمال الغربية ، وهى قرية كبيرة عامرة من أعمال مصر ، وإليها ينسب سيدى ابراهيم الدسوقى صاحب

---

(١) القاموس الجغرافى ج ٢ ص ١١٣
(٢) ياقوت ج ٦ ص ٤٠٦
(٣) الادريسى ص ١٥٩
(٤) القاموس الجغرافى ج ٢ ص ٣٣
(٥) ابن مماتى ص ١٤٧

المقام العظيم الكائن بها . وفى سنة ١٨٤١ أنشىء بمديرية الغربية قسم إدارى باسم قسم المندورة وجعل مقره بلدة دسوق لأنها أكبر بلاده وفى سنة ١٨٩٦ سمى بمركز دسوق بدلا من المندورة .

سخا : قرية قديمة اسمها القبطى (Sekhôeu) ومنها اسمها العربى . ووردت فى كتاب المسالك [١] والبلدان ، سخا من كور مصر القديمة وذكرها ابن حوقل [٢] صخا (بالصاد) مدينة كبيرة ذات حمامات وأسواق وعمل واسع ، وأقليم جليل له عامل بعسكر وجند وغلات وبها الكتان الكثير وزيت الفجل وقموح عظيمة .

وفى قوانين [٣] ابن مماتى وفى التحفة ، سخا كورة بمصر وقصبتها سخا بأسفل مصر وهى الآن (القرن الثالث عشر) قصبة كورة الغربية ودار الوالى بها . وفى تاريخ ١٨١٣ م وردت باسمها الحالى وهى تتبع الآن مركز كفر الشيخ .

* * *

محافظة الدقهلية

تكوّن إقليم الدقهلية باسمه الحالى فى عهد الدولة الفاطمية ، وكان قبل ذلك مقسما إلى كور صغيرة كل كورة قائمة بذاتها ثم ضم بعضها إلى بعض وسميت الدقهلية نسبة إلى قاعدتها دقهلة . وكان يجاور إقليم الدقهلية من الجهة الشمالية كورة الابوانية ، وهى إقليم المنزلة الحالى وسميت بالأبوانية نسبة إلى قاعدتها أبوان التى خربت بسبب طغيان بحيرة المنزلة عليها ، وكانت منطقة صناعية آهلة بالسكان ، وقد اختفت هذه الكورة من الأقسام الادارية المصرية فى الروك الناصرى سنة ٧١٥ هـ وضمت بلادها إلى إقليم الدقهلية . وكان يجاور إقليم الدقهلية من الجهة الجنوبية كورة المرتاحية وكانت فى المنطقة التى تشمل اليوم بلاد مركزى المنصورة وأجا وقاعدتها بلدة نوسا الغيط . وسميت المرتاحية نسبة إلى الطائفة من الجنود المغاربة الذين دخلوا مع جيش جوهر الصقلى ، قائد الدولة الفاطمية ، ورغبوا فى الاشتغال بالزراعة فأنزلهم ببلاد تلك الكورة فعرفت بهم منذ ذلك الوقت . وقد ضمت هذه الكورة إلى إقليم الدقهلية الذى كان يشمل مراكز فارسكور ودكرنس والمنزلة فى الروك الناصرى ، وصار الجميع إقليما واحداً باسم كورة المرتاحية والدقهلية وكانت قاعدته

(١) اليعقوبى ص ٧٨ ، ابن خرداذبة ص ٨٦
(٢) ابن حوقل ص
(٣) ابن مماتى ص ٥٩ ، التحفة السنية ص ١٦٠

أشمون الرمان إلى آخر دولة المماليك . وفى العصر العثمانى أطلق عليها ولاية الدقهلية ونقلت قاعدتها من أشمون الرمان إلى المنصورة [1] . وفى سنة ١٨٣٣ عرفت باسم مديرية الدقهلية وفى سنة ١٩٦٠ أصبح اسمها محافظة الدقهلية .

المنزلة : قرية من القرى المصرية القديمة اسمها القبطى (Mendjôili) ومعناها دار الضيافة ، ويقول محمد رمزى [2] ، أن كلمة المنزلة العربية تؤدى إلى شىء من هذا المعنى ، وهى بذلك قريبة الشبه لفظا ومعنى من الاسم القبطى . وقد ذكرها المقريزى [3] عند الكلام عن تطهير الملك الظاهر بيبرس لبحر أشموم الذى يعرف اليوم بالبحر الصغير ، باسم منزلة ابن حسون ، ووردت فى التحفة السنية [3] باسم منيتى راضى وعصفور وهى المنزلة من أعمال الدقهلية ، ولا تزال هذه البلدة إلى اليوم تتكون من قريتين متجاورتين واقعتين على الشاطىء الشرقى للبحر الصغير وبينهما فضاء وتقع المنزلة فى نهاية البحر الصغير من جهة بحيرة المنزلة ، وكانت تابعة لمركز دكرنس ، وفى سنة ١٩٢٩ أنشىء مركز سابع بمديرية الدقهلية سمى بمركز المنزلة .

أشمون الرمان : اسمها القبطى شمون أرمان ومنه اسمها العربى أشمون الرمان ، وقد عرفت فى العصر الاسلامى باسم أشموم طناح ، وردت فى معجم البلدان [4] ، أشموم طناح مدينة فى الدقهلية قرب دمياط بمصر ، كذلك وردت فى قوانين ابن مماتى وفى التحفة السنية [5] ، أشموم طناح مدينة من أعمال الدقهلية والمرتاحية . ولما تكلم عليها ابن دقماق [6] قال : أشموم طناح وتعرف بأشموم الرمان قصبة كورة الدقهلية وهى مدينة ذات حمامات وأسواق وجامع وفنادق . وقد أعيد إليها اسمها القبطى أشمون الرمان فى العصر العثمانى .

وكانت أشمون الرمان من أشهر المدن المصرية وظلت كذلك حتى أوائل العصر العثمانى ثم أخذت تضمحل عندما أصبحت المنصورة قاعدة الاقليم ، وأصبحت أشمون الرمان قرية تابعة لمركز دكرنس .

---

(١) القاموس الجغرافى جـ ١ ص ٢٦

(٢) القاموس الجغرافى جـ ١ ص ٢٠٣

(٣) السلوك ص ١٩٥

(٤) ياقوت جـ ١ ص ٢٦٣

(٥) التحفة السنية ص ١٠٠

(٦) ابن الانتصار ص ٢٧

شطا : من القرى القديمة جاءت فى كتب البلدان والمعاجم [1] ، شطا بقرب دمياط على البحيرة يسكنها القبط وإليها ينسب الجنس الشطوى . وجاء فى المقريزى [2] ، أن شطا مدينة عند تنيس ودمياط وإليها تنسب الثياب الشطوية . ويقال أنها عرفت بشطا ابن الهاموك ، وكان أبوه خال المقوقس ، وكان وقتها على دمياط (أى حاكما عليها) فلما ملكها المسلمون انضم إليهم ثم اشترك معهم فى موقعة ضد أهل تنيس فاستشهد فى سنة ٢١ هـ ودفن حيث هو الآن (القرن الخامس عشر) خارج دمياط وبنى على قبره ، ولا يزال قبره يزار حتى اليوم ، واليه تنسب هذه القرية ، ويقال له الشيخ شطا أو سيدى شطا ، وهى تتبع الآن مركز فارسكور .

ميت غمر : قرية قديمة اسمها الأصلى منية غمر ، وردت فى نزهة المشتاق [3] ، منية غمر قرية لها سوق ومتاجر ودخل وخرج قائم . ووردت فى التحفة السنية [4] ، منيتا غمر وحماد من أعمال الشرقية ، ويقول محمد رمزى ، وأما منية حماد التى ذكرت مع منية غمر فقد اشتركت معها بسبب اشتراكهما معاً فى السكن والزمام ، وفى الروك الناصرى ألغيت منية حماد وأضيفت إلى زمام منية غمر ، وفى العصر العثمانى حرفت منية إلى ميت ، فأصبحت ميت غمر .

المنصورة : أنشأ هذه المدينة الملك الكامل محمد بن الملك العادل أبى بكر بن أيوب من ملوك الدولة الأيوبية سنة ٦١٦ هـ عندما احتل الصليبيون مدينة دمياط ، وقد جعلها ثكنات لعسكره وسماها المنصورة تفاؤلا بانتصاره على الصليبيين . ولم يزل بها حتى استرجع مدينة دمياط . وقد صارت المنصورة بعد ذلك مدينة كبيرة بها المساجد والحمامات والفنادق والأسواق .

وأول من كتب من الجغرافيين عن المنصورة هو ياقوت الحموى [5] فقد ذكرها فى معجمه الذى كتبه بعد إنشائها بست سنوات ، المنصورة بلدة أنشأها الملك الكامل

---

(١) ياقوت جـ ٥ ص ٢٦٤ ، التحفة السنية ص ٣٠
(٢) المقريزى جـ ١ ص ٣٦٤
(٣) الادريسى ص
(٤) التحفة السنية ص
(٥) ياقوت جـ ٨ ص ١٧٧

ابن العادل ابن أيوب بين دمياط والقاهرة ، ورابط بها فى وجه الأفرنج لما ملكوا دمياط وذلك سنة ٦١٦ هـ . وقال ابن دقماق [١] ، أن المنصورة بناها الملك الكامل بن العادل قبالة جوجر عند مفترق النيل إلى دمياط وأشموم وبينهما جزيرة تسمى البشور ، بناها فى وجه العدو لما حاصرت الفرنج دمياط ، وهى مدينة بها حمامات وأسواق وفنادق وهى على ضفة النيل الشرقية .

وذكرها المقريزى [٢] فقال : أن هذه البلدة على رأس بحر أشموم ، تجاه ناحية طلخا ، بناها الملك الكامل بن الملك العادل سنة ٦١٦ هـ عندما ملك الفرنج مدينة دمياط ، فنزل فى موضع هذه المدينة وخيم به وبنى قصراً لسكناه وأمر من معه من الأمراء والعساكر بالبناء فبنيت هناك عدة دور ونصبت الأسواق ، وأدار عليها سوراً مما يلى البحر (فرع النيل الشرقى) وستره بالآلات الحربية والستائر ، وسميت هذه المنزلة المدينة المنصورة تفاؤلا بالنصر ، ولم يزل بها حتى استرجع مدينة دمياط ثم صارت مدينة كبيرة بها المساجد والفنادق والحمامات والأسواق .

وقد شهدت مدينة المنصورة معارك أخرى للصليبيين ، عندما جاءت الحملة الصليبية السابعة لغزو مصر بعد مضى ثلاثين عاما من انهزامهم فى دمياط ، فقد جاءت الحملة سنة ١٢٤٩ م بقيادة لويس التاسع ملك فرنسا واستولت على دمياط ، ثم تقابل الجيش الصليبى مع الجيش المصرى فى المنصورة حيث دارت بين الفريقين معركة حامية الوطيس انهزم فيها الصليبيون هزيمة منكرة ، لم تقم لهم بعدها قائمة ، ولذلك اعتبر المؤرخون معركة المنصورة فى سنة ١٢٥٠ م بداية نهاية الصليبيين فى الشرق وأنها كانت سبباً فى خروجهم من آخر معاقلهم فى عكا سنة ١٢٩٢ م . ولا تزال دار ابراهيم بن لقمان كاتم سر السلطان ، التى أسر فيها لويس التاسع باقية بالمنصورة بجوار مسجد الشيخ الموافى ، ويقوم فيها اليوم متحف تاريخى تخليداً لآثار تلك المعركة .

وجاء فى الخطط التوفيقية [٣] . أنه كان بمدينة المنصورة نحو عشرين مسجداً عامرة بالجمعة والجماعة ومن أقدمها مسجد عبد الله الموافى ، ويقال أن الملك الصالح أيوب

---

(١) ابن دقماق ص ٢٦٥

(٢) المقريزى جـ ١ ص ٣٧٣

(٣) الخطط التوفيقية جـ ١٦ ص ٥١

هو الذى بنى هذا المسجد ، ثم جدد فى العصر العثمانى سنة ٩٩٨ هـ ، ومن المساجد الهامة أيضا مسجد الشيخ يسن المشهور بصنجق الأوليا ، وهناك مسجد المحمودية الذى أنشأه محمود بيك أحد أتباع الملك الصالح نجم الدين ، وغيرها من المساجد مما لا يتسع المجال لذكرها ، كما يوجد بها كثير من الزوايا والمزارات .

وينسب إلى المنصورة كثير من العلماء والفقهاء منهم محمد بن محمد بن أحمد بن عمر ابن كميل المنصورى الشافعى ويعرف بابن كميل ولد سنة ٨٢٠ هـ بالمنصورة ، وتولى القضاء ببلده وبمنية سليل ودمياط ومنهم الشيخ رمضان بن محمد المنصورى الأحمدى المشهور بالحمامى ، وكان شاعراً مطبوعا ينشد فى الجموع ، ولد بالمنصورة وتوفى سنة ١١٩١ هـ .

* * *

محافظة الشرقية

عرف إقليم الشرقية باسمه الحالى فى عهد الدولة الفاطمية ، وكان قبل ذلك مقسما إلى عدة كور صغيرة كل كورة قائمة بذاتها ، ثم ضم بعضها إلى بعض وسميت الشرقية لوقوعها فى الجهة الشرقية من الوجه البحرى ، وفى سنة ١٨٢٦ قسمت الشرقية إلى مأموريات وكانت كل مأمورية قائمة بذاتها ، وفى سنة ١٨٣٣ ضمت هذه المأموريات بعضها إلى بعض فأصبحت إقليما واحداً باسم مديرية الشرقية وقاعدتها مدينة الزقازيق [١] وفى سنة ١٩٦٠ تغير اسمها إلى محافظة وظلت قاعدتها مدينة الزقازيق .

وعندما جاء عمرو بن العاص لفتح مصر سار على رأس جيش مكون من أربعة آلاف مقاتل حتى هبط رفحا فالعريش التى استولى عليها بسهولة على الرغم من أنهـا كانت مدينة ذات حصون . ويقول بتلر أن الروم خسروا ألف قتيل وثلاثة آلاف أسير فى معارك بلبيس حين نشوب الحرب كما قتل من المسلمين عدد ليس بالقليل . وقيل أن إبنة المقوقس كانت فى بلبيس حين اشتداد المعارك فأرسلها عمرو إلى أبيها معززة مكرمة ، فكسب بذلك محبة المصريين . وبعد أن أمضى العرب فى بلبيس قرابة شهر هبطوا منها إلى أم دنين لاستكمال الفتح حتى تم لهم ما أرادوا وأصبحت مصر قطراً إسلاميا كان ولا يزال درة فى تاج الدول الاسلامية .

---

(١) القاموس الجغرافى جـ ١ ص ٢٢

وقد سلك عمرو بجيشه بعد استيلائه على الفرما طريق بلدة القنطرة ملتزما بذلك جانب الصحراء ، وحدث فى أثناء الفتح العربى أن كانت مياه بحيرة المنزلة قد طغت على ما حولها فأصبح الطريق من هناك صعب المسالك ، وكان جيش عمرو كله من الفرسان ولم تكن لديهم وسائل بناء القناطر على الترع والأنهار ، فسار من القصاصين جنوباً واجتاز تلال وادى الطميلات فى موضع قريب من التل الكبير حتى بلغ بلدة بلبيس .

وقد جاء مصر فى العهد الأموى مروان الثانى آخر خلفاء بنى أمية بعد هزيمته أمام خصومه العباسيين فى واقعة الزاب الأكبر المشهورة . وقد أقام فى طريقه فترة فى بعض قرى الشرقية ومنها أرسل قوات للاستيلاء على مصر الوسطى والاسكندرية ولكن دهمته جيوش العباسيين بقيادة صالح بن على فى بلدة بوصير بإقليم الفيوم حيث لقى حتفه . وقد أرشد عنه أعراب الشرقية الذين كان قد انتشر فى ربوعهم المذهب الشيعى ولم تقف ثورات أعراب الشرقية بزوال الدولة الأموية بل كانت أكثر التهابا فى عهد العباسيين ، وعلى أثر وفاة الرشيد ونشوب الخلاف بين ولديه الأمين والمأمون عاد أعراب الشرقية إلى ثورتهم القديمة لأن الأمين قد تحبب إليهم بأن عهد ببعض الوظائف الكبرى إلى رؤسائهم فضمن بذلك ولاءهم حتى ثاروا فى وجه والى مصر من قبل المأمون وتغلبوا عليه وقتلوه ولما استتب الأمر للمأمون عين عبد الله بن طاهر واليا على مصر فاستطاع بحزمه وسداد رأيه أن يقف ثورات المصريين عامة ويعيد الهدوء إلى ربوع القطر بأجمعه .

وفى غضون القرن الثالث الهجرى انقطع ما بين مصر ودولة بنى العباس من أسباب وانفصم ما كان يربط مصر بمركز الخلافة ببغداد من عرى الروابط وتربع على عرش مصر إذ ذاك أحمد بن طولون الذى أنشأ له فى مصر دولة دانت لها الشام وبعض أقطار أخرى وخشى بأسها الخليفة العباسى .

وفى نهاية الدولة الفاطمية عمت الفوضى والاضطراب ربوع البلاد إثر النزاع بين الوزيرين المصريين شاور وضرغام وامتد النزاع خارج حدود مصر إذ عوّل كل منهما — إمعاناً فى الكيد لخصمه — على أن يستعين بجيوش غير مصرية للانتقام والفتك من منافسه فطلب ضرغام من الصليبيين الحضور إلى مصر ليضمنوا له الوزارة دون غريمه شاور الذى استعان بدوره بسلطان حلب (نور الدين) لنفس الأمر ، فما كان من نور الدين إلا أن أرسل جيوشه بقيادة أسد الدين شيركوه وصلاح الدين الأيوبى فالتقى بجيوش ضرغام

من المصريين عند بلبيس حيث انتصر شيركوه وهبط بعد ذلك إلى الفسطاط . ولم يلبث أن قتل ضرغام وفاز شاور غير أنه تنكر لحلفائه وناصريه ، ومد يده إلى الصليبيين واتخذ منهم أعوانا له ضد شيركوه فتقدم ملك بيت المقدس إلى بلبيس وضيق الخناق على جيش نور الدين ولم يرفع الحصار عن المدينة إلا بعد أن جاءته الأنباء بأن نور الدين استولى على أملاك الصليبيين فى الشام عند ذلك أسرع (أماريك) ملك الفرنجة فى العودة .

العرب فى الشرقية

زعم كثير من المستشرقين أن العروبة فى وادى النيل بشطريه لا يتجاوز تاريخها عصر الفتوح الاسلامية الأولى ، ولو درس هؤلاء الهجرات الآتية من طريق سيناء إلى مصر الفرعونية دراسة عابرة لكفاهم ذلك فى دحض هذا الزعم على أنه من الثابت والمتفق عليه اليوم أن موجات الساميين قد انبعثت منذ فجر التاريخ من جزيرة العرب إلى البلاد التى تدخل اليوم فى نطاق الوطن العربى الأكبر ، بل إلى بلاد أخرى غيرها ، وكل ما فى الأمر أن الذى أطلق على هذه الشعوب كلمة (الساميين) هو عالم نمساوى فى القرن الثامن عشر ، اقتداء بما ورد فى بعض أسفار التوراة من أن هذه الشعوب تنتمى إلى سام بن نوح عليه السلام .

ومن بين هذه الشعوب العرب المقيمون فى جزيرتهم ، وجزيرة العرب ، هى المهد الأول للساميين أنفسهم ، فلا معنى لأن نفرق فى الاصطلاح بين العرب المقيمين فى الجزيرة وبين العرب النازحين منها . وغاية ما نفهمه من هذا الاصطلاح ، أن الساميين عرب سموا كذلك نسبة إلى جدهم الأول ، أما لفظ العرب ، فهو فى الأصل نسبة إلى (العربة) أى الصحراء ، أو مكان يقع فى الشمال الغربى من جزيرة العرب كان يسمى بهذا الاسم [1] .

وفى مدة فتح عمرو بن العاص لمصر لم تكن قناة السويس موجودة ، وكان النيل يغمر البلاد مدة الفيضان ، فاذا انحسرت مياهه تركت مستنقعات وأراضى مغطاة بالكلأ والحشائش صالحة لرعى الأغنام فى معظم أراضى الشرقية ، وبخاصة الشمالية منها والمجاورة للصحراء مما شجع القبائل العربية بعد الفتح على الرحيل إليها لقربها منهم فأخذوا يتنقلون فيها ولم يجدوا فارقا بينها وبين صحارى بلادهم .

---

(١) البيان والاعراب ص ٣٧

وقد استوطن كثير من العرب بعد الفتح فى الجهات الشرقية من مصر ، واستمروا بها حتى أواخر الدولة العباسية حيث سادت الفوضى بالبلاد العربية وحل القحط بمصر ، فرحل بعض القبائل من الشرقية ومن مصر كلها متجهين ناحية الغرب وبخاصة إلى طرابلس ، ولما عاد الأمن والرخاء إلى مصر فى عهد الفاطميين عاد بعض هذه القبائل إلى مصر ، ومن ذلك العهد سمى العرب الذين لم يرحلوا إلى الغرب عرب الشرق بينما سمى من عاد منهم إلى مصر عرب الغرب .

لبث حال العرب على الحال التى بيناها حتى أحضر ابن الحيحاب [1] عامل الخراج فى العصر الأموى مائة بيت من قيس ، وأقطعهم أرضا فى بلبيس وزودهم بالخيل والإبل وجعل مهمتهم حراسة القوافل بين ساحل البحر الأحمر وداخل البلاد ، فأفادوا من ذلك فائدة كبيرة الأمر الذى جذب بيوتا أخرى من قيس لتلحق بهم .

وعند تولى الدولة العباسية زمام الخلافة كافأ عبد الله السفاح الخليفة العباسى عرب بنى هلال ، فمنحهم منطقة بلبيس ، وذلك لمناصرتهم له وانضمامهم لصفوفه عند محاربته بنى أميه فى موقعة الزاب .

ولما ضعفت الدولة الفاطمية ثار عليها المعز بن باديس زعيم بربر صنهاجة ، فأرسل الخليفة المستنصر سنة ١٠٤٩ م إلى بنى هلال وسليم ليمنحهم أرض المغرب ، وكان غرضه من ذلك تخفيف وطأة القحط الذى حل بالبلاد ، كما كان يبغى من وراء ذلك تأديب الثوار المغاربة لخروجهم عن طاعته ، فهاجر كثير من عرب الشرقية إلى شمال أفريقية تحت رياسة بنى هلال ، فقاومهم ابن باديس ولكن مقاومته باءت بالفشل ، وتوغل العرب فى طرابلس وتونس وتصاهروا مع القبائل البربرية .

ولما فتح صلاح الدين الشام انتقلت طائفة من قبيلة ثعلبة ونزلوا بالشرقية وكان فيهم من ذاع صيته وأمر (بالبوق والقلم) أى أصبحت له الكلمة فى الجيش والديوان) . وفى عهد المماليك قام عرب الشرقية بثورات كثيرة قتل فيها عدد كثير منهم سنة ١٢٥٤ م أيام سلطنة المعز أيبك التركمانى ، إذ أن العرب ثاروا بزعامة حصن الدولة العربى على المماليك وذلك لموالاتهم للأيوبيين ورغبتهم فى الثأر لمقتل توران شاه الذى قتله المماليك

---

(١) الولاة والقضاه ص ١٧ ، النجوم الزاهرة جـ ٢ ص ١٣

بعد موقعة المنصورة ، غير أن العرب هزموا عند التحامهم بالمماليك ومنذ ذلك الوقت تفرق العربان وخمدت جذوتهم .

وفى عهد الحكم العثمانى قام عرب الشرقية وغيرهم بثورات كثيرة بقيادة ابن بقر وفى عهد محمد على ساهم عرب الشرقية فى حملته على بلاد العرب ، إذ قدموا له الخيل ودربوا الجند على طريقة الكر والفر المعهودة فى الحروب عند الوهابيين ، وكانوا فى ذلك العهد يقومون أيضا بخفارة الدروب وطرق القوافل ، ويحملون البريد والمعدات وكانوا خبراء فى معرفة الطرق والمسالك والدروب . وعندما قامت ثورة عرابى اندفع العرب وانضموا إلى جانب الثوار وذلك لميلهم بسليقتهم للحرب فقاتلوا فى كفر الدوار وعند القتال فى التل الكبير .

ومن أشهر قبائل العرب فى الشرقية الهنادى وقبيلة سمالوى والطمبلات والعبابدة والسماعنة والصوالح والحرابى .

الزقازيق : الزقازيق من المدن الحديثة الكبيرة فى مصر ، تقع على بحر مويس وكانت قاعدة مديرية الشرقية وهى الآن عاصمة محافظة الشرقية . وجاء فى الخطط التوفيقية [1] أن السبب فى نشأتها يرجع إلى إنشاء كثير من الترع والقناطر وتعميم طرق الرى والصرف فى مديرية الشرقية فى القرن التاسع عشر ، وذلك لإصلاح أراضيها وتوسيع دائرة العمران فيها لزيادة إيرادات الحكومة من ضرائب الأطيان ، ويقول على مبارك : « لما بدأ العمل لإقامة قناطر محل سد بحر مويس وحضر العمال والمستخدمون أحدثوا بجوارها عششا من الطين والأخصاص على جانبى بحر مويس لإقامتهم وتبعهم فى ذلك الباعة ونحوها وتكاثرت الناس شيئا فشيئا وازدادت الأبنية الخفيفة وبعد الانتهاء من عمل القناطر سنة ١٢٤٨ هـ ١٨٣٢ م بقيت تلك المنازل مسكونة وازداد العمران بها . وأقامت الدولة مسجداً مبنى خاصاً بها وأخذت المدينة فى الاتساع والعمران حتى أن الدولة جعلتها قاعدة المديرية بدلا من مدينة بلبيس .

وعلى الرغم من أن مدينة الزقازيق تعد من المدن المصرية الحديثة إلا أنها نشأت فى مناطق وأماكن عريقة فى القدم ففى الجنوب الشرقى للزقازيق يوجد تل قديم يعرف باسم

---

(١) الخطط التوفيقية جـ ١١ ص ٢٣

تل بسطة ، يبلغ متوسط ارتفاعه نحو ٢٥ متراً ومساحته نحو ستمائة فدان وهو غنى بما عثر عليه وما يزال يعثر من آثار ترجع إلى العصر الفرعونى والبطلمى والرومانى . وكان هذا التل يعرف عند الفراعنة باسم (بيرباست) حيث أقاموا عليه مدينة كانت من أكبر مدنهم فقد اتخذها بعض الحكام قاعدة لهم ومقراً لحكمهم .

أما عن سبب تسمية المدينة باسم الزقازيق فقد جاء فى القاموس الجغرافى [1] أن جماعة من العمال الذين قاموا ببناء قناطر بحر مويس كانوا من كفر الزقازيق الواقع فى شمال مكان القناطر وكان من بينهم رجل مقدام اسمه الشيخ زقزوق اختاره الباشمهندس رئيسا للعمال ، وقد عرف المكان الذى أقيمت فيه مساكن العمال باسم نزلة الزقازيق نسبة إلى أفراد عائلة زقزوق المذكور من جهة وإلى كفر الزقازيق موطنهم الأصلى بالقرب من القناطر ، ولما تم بناء القناطر سنة ١٨٣٢ أصبح من الضرورى تسميتها ، فاختير لها اسم قناطر الزقازيق نسبة إلى نزلة الزقازيق . ويضيف محمد رمزى وأما القول بأنها سميت الزقازيق نسبة إلى نوع من السمك يعرف بالزقزوق وجمعه الزقازيق كان يخرجه الصيادون من قناطرها أو من مستنقع بالقرب منها ، فيرجع إلى الصدفة من وجود هذا النوع من السمك الذى كان ولا يزال يصاد بكثرة من خلف القناطر السابق ذكرها كما يصاد من خلف أغلب القناطر بالوجه البحرى ، فظن بعض الناس أن الاسم نسبة إلى السمك المذكور ثم انتشرت هذه الرواية البعيدة عن الصواب . وكانت مدينة الزقازيق منذ نشأتها تابعة من الناحية الادارية إلى مركز القنايات ، وفى سنة ١٨٩٠ فصلت عنها وأصبحت مأمورية قائمة بذاتها وفى سنة ١٨٩٦ نقل المركز من القنايات إلى الزقازيق لتوسطها بين بلاد المركز ثم صارت كما قدمنا عاصمة الشرقية .

التل الكبير : عرفت هذه الناحية بهذا الاسم لوقوعها فوق التل المتخلف من أطلال مدينة بيتوم القديمة ، وكان يوجد ناحية قديمة تسمى وادى السدير وردت فى التحفة [2] وفى الانتصار وفى الخطط المقريزية ، أنها من أعمال الشرقية . وفى تاريخ سنة ١٥٣٣ م ورد هذا الوادى باسم وادى العباسة لمتاخمته لأراضى ناحية العباسة ، ويقال له اليوم وادى الطميلات نسبة إلى جماعة من العرب نزلوا به يقال لهم الطميلات .

---

(١) محمد رمزى ج ١ ص ٨٩

(٢) التحفة السنية ص ١٧ ، ابن دقماق ص ١٥

وفى تاريخ ١٨٢٤ م ألغى اسم وادى العباسة وأضيف إلى ناحية العباسة ، وكان الوادى المذكور يشتمل على قريتين قديمتين هما التل الكبير هذه والظاهرية وفى سنة ١٨٧٠ م قسمت منطقة التل الكبير من الوجهة الادارية إلى قسمين التل الكبير والشرق ، وفى سنة ١٨٩٢ م ضمتا إلى بعضهما وصارتا ناحية واحدة إدارية باسم الشرق ، وفى سنة ١٩٣٢ تغير اسم الشرق إلى التل الكبير لشهرتها ، حتى أن المعركة التى وقعت بين المصريين والانجليز سنة ١٨٨٢ عرفت به . وكانت هذه الناحية تابعة لمركز الزقازيق فلما انشىء مركز أبو حماد سنة ١٩٤٠ ألحقت به لقربها منه .

العباسة : من القرى القديمة وردت فى معجم البلدان [١] : العباسة هى بليدة من الديار المصرية أول ما يلقى القاصد لمصر من الشام ، ذات نخل طوال . وسميت بعباسة نسبة إلى بنت أحمد بن طولون ، لأن خمارويه بن أحمد بن طولون لما زوج ابنته قطر الندى من الخليفة المستنصر العباسى ، وخرج بها من مصر إلى العراق عملت أخته عباسة فى هذا الموضع قصراً وأحكمت بناءه وبرزت إليه لوداع بنت أخيها ، فلما سافرت قطر الندى عمر ذلك الموضع بالقفر وصار بلداً لأنه فى أول أودية مصر من جهة الشام . كذلك وردت هذه القصة فى تاريخ الملوك للطبرى فى حوادث سنة ٢٨٢ ﻫ سنة ٩٠١ م . ومن هذه الرواية يفهم أن مدينة العباسة لم يكن لها وجود قبل ٢٨٢ ﻫ .

وذكر المقريزى فى خططه [٢] رواية تخالف الرواية السابقة قال : أن هذه البلدة ولد بها العباس بن أحمد بن طولون ولذلك سماه أبوه العباس ، أى أن بلدة العباسة كانت موجودة فى زمن أحمد بن طولون ، ولكن أحمد بن طولون توفى سنة ٢٧٠ ﻫ مما يجعل رواية المقريزى غير صحيحة . ووودت العباسة فى كتاب أحسن التقاسيم للمقدسى هى قصبة الريف عامرة طيبة رفعه سرية شرب أهلها من النيل فى موضع الريف والخصب ، وبنيانهم أفرج من بنيان مصر ولها تجارات تحمل إليها وجامع حسن من الآجر . كذلك وردت فى تاريخ ١٨٢٤ م ولا تزال معروفة باسم العباسة من يوم إنشائها حتى الآن ، وتتبع الآن مركز أبو حماد .

---

(١) ياقوت ﺟ ٦ ص ١٠٦

(٢) المقريزى ﺟ ١ ص ٣٧٤

بلبيس : قاعدة مركز بلبيس ، وهى من المدن القديمة تقع بين عين شمس وبين بسطة فى حدود الصحراء الشرقية ووردت فى المصادر العربية باسم بلبيس ، وجاءت فى كتب معاجم البلدان[1] بلبيس مدينة مليحة وهى قصبة الحوف (أى قاعدة إقليم الشرقية) وبها والى الحرب وبها جامع ومدارس وأسواق وفنادق وبساتين وبها نخل كثير وعر بها نهر من النيل أيام زيادته وهى مسورة . ويضيف المقريزى[2] فى خططه « أن بلبيس سميت فى التوراة أرض جاشان » وكانت بلبيس قاعدة الحوف الشرقى فى أوائل العصر الاسلامى ، ثم قاعدة الأعمال الشرقية من العصر الفاطمى حتى نهاية العصر المملوكى ، ثم قاعدة ولاية الشرقية فى سنة ١٨٣٢ م حين نقل ديوان المديرية إلى مدينة الزقازيق ، وبذلك أصبحت بلبيس قاعدة لقسم بلبيس وفى سنة ١٨٧١ م سمى مركز بلبيس .

وينسب إلى محافظة الشرقية كثير من العلماء والفقهاء قديما وحديثا ، ومن أشهر المحدثين الشيخ عبد الله الشرقاوى ، ورد فى الجبرتى أنه ولد سنة ١١٥٠ (القرن الثامن عشر الميلادى) ، فى قرية (الطويلة) من إقليم الشرقية (تتبع مركز فاقوس الآن) ولذا لقب بالشرقاوى ، وقد أظهر من الكفاية والنبوغ ما أهله لتولى منصب مشيخة الأزهر سنة ١١٠٨ هـ وكانت له مواقف مذكورة مشكورة ضد الظلم فى العصر العثمانى كما كانت له مواقف خالدة مع الحملة الفرنسية .

ومن أبناء محافظة الشرقية الذين تفخر بآثارهم العلمية مصر الحديثة ، محمود الفلكى الذى ولد ببلدة الشبانات بالشرقية سنة ١٨١٥ م ومن أهم مصنفاته التقويم العربى الذى وضعه سنة ١٨٤٦ وطبع بمطبعة بولاق ، ووضع رسالة فى المكاييل والمقاييس المصرية . ومن آثاره العلمية الجليلة أن وضع مدفع الظهر فى خط الزوال بالقلعة ، وتوفى سنة ١٨٨٥ م بالقاهرة ومن أبناء الشرقية الأبطال أحمد عرابى الذى ولد سنة ١٨٤١ م بقرية (هريه رزنة) من أعمال مركز الزقازيق . تلقى علومه بالأزهر ، ثم انقطع عنه وبقى فى قريته يرتل القرآن ، ثم التحق بالخدمة العسكرية ، وتزعم حركات الجيش ضد الخديو توفيق ، ثم قاد الجيش ضد الغزو البريطانى سنة ١٨٨٢ م ونفى عرابى ورفاقه إلى جزيرة سيلان ، حيث قضى نحو ١٩ سنة حتى صدر العفو عنه سنة ١٩٠١ ، وتوفى سنة ١٩١١ ،

---

(١) معجم البلدان جـ ٦ ص ١٦٢ ، المقدسى ص ١٩٦

(٢) المقريزى جـ ١ ص ٢٩٦

وقد وضع قبل وفاته مذكرات عن الثورة العرابية سماها (كشف الستار عن سر الأسرار) ضمنها وقائعه الحربية ومشكلات السياسة فى أيامه، ومن أبناء الشرقية النابهين الذين كان لهم قصب السبق فى ميدان المال والاقتصاد طلعت حرب الذى ولد فى (ميت أبو على) من قرى الزقازيق، وتخرج فى كلية الحقوق سنة ١٨٨٩ م واشتغل فى قلم قضايا الدائرة السنية مترجما، وأخذ يترقى فى قلم القضايا حتى ظهرت طلائع الأزمة الاقتصادية سنة ١٩٠٦، فأسس سنة ١٩٠٨ شركة مالية مصرية بحتة هى شركة التعاون المالى وفى ٧ مايو سنة ١٩٢٠ افتتح بنك مصر، وسار البنك منذ هذا التاريخ سريان الشريان فى الجسد بفضل روح طلعت الوثابة يؤازره تشجيع المصريين.

* * *

محافظة البحيرة

هى من الأقسام الادارية التى استجدت فى العصر الاسلامى باسم كورة البحيرة وفى عهد الدولة الفاطمية أضيف إليها كور أخرى مجاورة لها، فصارت إقليما كبيراً باسم البحيرة، وفى سنة ٧١٥ هـ أطلق عليها اسم أعمال البحيرة، وفى سنة ٩٣٣ هـ = سنة ١٥٢٧ م سميت ولاية البحيرة وفى سنة ١٨٣٣ تغير اسم الولاية إلى مديرية وفى سنة ١٩٦٠ أصبحت تعرف باسم محافظة البحيرة وقاعدتها دمنهور.

دمنهور: قاعدة محافظة البحيرة، وهى من المدن المصرية القديمة، ذكرها جوتييه فى قاموسه فقال، ان اسمها المصرى دمنهور Deomn Hor، أى مدينة الإله هور واحتفظ القبط بالاسم المصرى ومنه اسمها العربى الحالى. وردت فى تقويم البلدان [1]، أن دمنهور بلدة بينها وبين الاسكندرية يوم واحد فى طريق مصر، وكانت بها وقعة بين عبيد بن السرى ابن الحكم (والى مصر من قبل الخليفة المأمون سنة ٢١١ هـ) وبين خالد بن يزيد بن مزيد. وجاء فى الانتصار لابن دقماق [2]: دمنهور مدينة قديمة عامرة وبها جامع ومدارس وحمامات وفنادق وقياسر وغير ذلك، وهى قاعدة البحيرة. وبها مقام نائب الوجه البحرى، وهى فى الجنوب الشرقى من الاسكندرية وبينهما مرحلة (أى سفر يوم) وتعرف بدمنهور المدينة. وجاء ذكرها فى قوانين ابن مماتى [3] وفى التحفة دمنهور الوحش من أعمال البحيرة.

(١) تقويم البلدان ص ١٠٦
(٢) ابن دقماق ص ٨٥
(٣) ابن مماتى ص ٩٦

وجاء فى الخطط التوفيقية أنه أضيف إلى اسمها كلمة الوحش لأنه كان بقربها محل كان يعرف بذلك . وجاء فى كتاب السلوك [1] أنه حدث فى زلزال سنة ٧٢١ هـ (١٣٢٠ م) : أن بطاقة وقعت من والى البحيرة بأن كنيستين فى مدينة دمنهور قد هدمتا والناس فى صلاة الجمعة ، ويضيف ان السلطان برقوق جدد أسوار دمنهور فى سنة ٧٩٢ هـ . وكانت دمنهور ذات وحدة مالية ولها زمام خاص ، إلا أنه لم يكن متصلا بسكنها ، بل يفصلها عنه أراضى ناحية شبرا الدمنهورية ، ولذلك فصل فى تاريخ ١٢٧٣ هـ زمام دمنهور عنها ، وتكون منه ومن أراضى نواحى أخرى — ناحية جديدة — عرفت باسم أبعادية دمنهور ، فأصبحت دمنهور مقصورة على سكنها القائم على قطعة أرض ، يتلاقى عندها زمام نواحى شبرا الدمنهورية وسكنيده وقرطسا ونقرها وطاموس ومنشية غربال . وفى سنة ١٩٣٥ أصبحت دمنهور مدينة قائمة بذاتها ، على أرض خاصة بها فصلت من زمام النواحى الست السابقة الذكر [2].

وفى مدينة دمنهور دفن الشيخ عبد الرحمن الحلبى ، وكان يقال له الدمنهورى ، لأنه تولى قضاءها زمنا طويلا ، وجاءت ترجمته فى الضوء اللامع للسخاوى أنه ولد بحلب سنة تسعة وخمسين وسبعمائة هـ ، لحفظ القرآن وتفقه بحلب ثم بالقاهرة ، ثم ولى قضاء دمنهور الوحش زمنا ، وكان فاضلا كيسا .

ومما تجدر الاشارة إليه أن مدينة دمنهور كانت قاعدة لإقليم البحيرة من العهد الفرعونى حتى اليوم ، فكانت قاعدة لمركز دمنهور من سنة ١٨٢٦ وقاعدة للمأمورية دمنهور من سنة ١٩١٢ وقاعدة للمديرية ثم للمحافظة من سنة ١٩٦٠

إيتاى البارود : من القرى المصرية القديمة ، ذكرها اميلينو فى جغرافيته فقال : أن اسمها القبطى إيتى وهى إيتاى ووردت فى قوانين ابن مماتى [3] إيتيه من أعمال حوف رمسيس ، وجاءت فى التحفة السنية ، أنها من أعمال البحيرة . والظاهر أنه أنشىء بها فى العصر العثمانى معمل للبارود فعرفت باسم إيتيه باروت ، وباروت كلمة تركية معناها البارود ، وفى تاريخ ١٢٢٨ هـ وردت معربة باسم إيتاى البارود ، وهو اسمها الحالى . وينطقها العامة تيه البارود [4] .

---

(١) المقريزى ص ١١٥
(٢) القاموس الجغرافى جـ ٢ ص ٢٨٤
(٢) ابن مماتى ص ١٧
(٤) القاموس الجغرافى جـ ٢ ص ٢٣

وفى سنة ١٨٨٤ نقل المركز من بلدة الدلنجات إلى إيتاى هذه لوقوعها على السكة الحديدية ، وبذلك أصبحت ايتاى قاعدة للمركز مع بقائه باسم الدلنجات ، وفى سنة ١٨٩٦ سمى مركز إيتاى البارود .

رشيد : هى من الثغور المصرية القديمة ، وردت فى جغرافية استرابون باسم Bolbitine وأنها تقع على مصب فرع بوليتين . وذكرها اميلينو فى جغرافيته فقال أن اسمها القبطى Raschit ومنه اسمها العربى رشيد ، ويقال أن رشيد كانت تقع إلى الشمال من موقعها الحالى ، الذى نقلت إليه فى سنة ٢٥٦ ﻫ فى عهد أحمد بن طولون .

وجاء فى كتاب المسالك لابن حوقل [١] ، أنها مدينة على النيل قريبة من مصبه فى البحر المالح من فوهة تعرف بالأشتوم ، وهى المدخل من البحر ، وبها أسواق صالحة وحمامات ونخيل كثير وارتفاع (إيراد) واسع . ووردت فى نزهة المشتاق [٢] ، رشيد مدينة متحضرة بها سوق وتجار وفعله ، ولها مزارع وغلات ، وحنطة وشعير وبها بقول حسنة كثيرة وبها نخيل كثير . ووردت فى معجم البلدان [٣] : رشيد بليدة على البحر والنيل قرب الاسكندرية بمصر ، وفى الانتصار [٤] ، ثغر رشيد المحروس من الأعمال النستراوية عند مجمع البحرين (يعنى بذلك النيل والبحر الأبيض) وبها جامع وحمام وأمير مركز ، وبها كوم الأفراح وبأعلاه منار يرى منه مراكب الفرنج القادمة ، وهى على شاطىء النيل ، وأهلها كلهم مرابطون وعامتهم صيادون فى السمك والطير .

ومما يذكر بالفخر لأهل هذا الثغر انتصارهم على الحملة الانجليزية التى جاءت سنة ١٨٠٧ م . وكانت مدينة رشيد محافظة من محافظات مصر القديمة وفى سنة ١٨٩٥ ألغيت محافظة رشيد وجعلت مركزا ثانيا من مراكز مديرية البحيرة ، ومنذ سنة ١٨٩٦ أصبحت رشيد قاعدة مركز رشيد .

وينسب إلى رشيد على بن ابراهيم الخياط الرشيدى الشافعى الشيخ الامام الحجة الولى المتفنن فى علوم الدين واللغة ، ولد برشيد وبها نشأ وحفظ القرآن وتصدر للتدريس بها وتوفى سنة ١٠٩٤ ﻫ ودفن بها .

---

(١) ابن حوقل ص ٢٣٨
(٢) الادريسى ص ١٤٧
(٣) معجم البلدان ج ٤ ص ٢٥٢
(٤) ابن دقماق ص ٥٨

وادى النطرون : وتمتاز الصحراء التى تقع إلى الغرب من محافظة البحيرة باحتوائها على كثير من الكنائس والأديار وخاصة المنطقة التى تعرف باسم وادى النطرون . ويعرف هذا الوادى أيضا بالأسماء الآتية (وادى هبيب) و (بريه الأسقيط) ومعناها برية النسك (وبريه شيهات) وهى محرفة من اللغة المصرية القديمة (شيهيت) ومعناها ميزان القلوب [1] . وقد ذكر استرابون الذى زار مصر فى القرن الأول الميلادى أن هذا الوادى كان يقال له إقليم النطرون ، وأنه يوجد به منبعان يستخرج منهما مقادير كبيرة من ملح البارود (النطرون) .

وكان بهذا الوادى فيما بين القرنين الرابع والسابع الميلادى ، عدد عظيم من الأديار وكان بعضها مخصصاً لإقامة الرهبان الأجانب مثل الروم ، والأرمن والسريان والأحباش ، ولا يزال بوادى النطرون حتى الآن ٣٤ ديراً ، أربعة منها عامرة والباقى خرب ، وإن كانت آثارها باقية . أما الأربعة القائمة الآن بوادى النطرون فهى دير البرموس ، سمى بهذا الاسم لأن القديسين مكسيموس ودمايوس ، إبنى ملك الروم ، كانا أول من ترهب به . ويرجع تاريخ هذا الدير إلى أواخر القرن الرابع الميلادى . وتبلغ مساحته ١٠٧٠٠ متر مربع ، وهو يقع على مسيرة ساعة غرب ملاحات وادى النطرون فى البقعة التى تدعى نتريا أو جبل برنوج الذى ورد ذكره فى سير الشهداء [2] .

ودير السيدة العذراء المعروف بدير السريان ، أنشىء كغيره من أديار برية شيهات فى القرن الرابع الميلادى ، ثم هدم وأعيد بناؤه وأدخلت عليه تعديلات فى أزمنة مختلفة . وتبلغ مساحته ٧٠٠٠ متر مربع ويقع إلى الجنوب من دير البرموس وقد اعتنق السريان المسيحية على يد بطرس الرسول واتحدوا مع الأقباط فى العقيدة ويعتبر دير السريان من أهم أديار وادى النطرون من الوجهة الأثرية والفنية ، ومن المرجح أنه كان يوجد بهذا الدير عند تأسيسه فى القرن الرابع الميلادى جماعة من الرهبان السريان ، ولذا سمى باسمهم .

ودير أنبا بشوى وينسب إلى بشوى مؤسس الدير الأحمر بالقرب من سوهاج . أسسه أتباعه فى القرن الرابع ، وقد أعيد بناؤه فى عهد الأنبا يعقوب سنة ٨٢٠ م .

---

(١) أبو صالح الأرمينى ص ٦٨

(٢) المقريزى ج ٤ ص ٤٠٩

ورمم سنة ١٣١٩ وكان آخر تجديد له منذ ١٧٠ سنة . وتبلغ مساحته ١٣٠٠ متر مربع وهو أكبر أديرة وادى النطرون .

ويقع دير أبو مقار إلى الجنوب الغربى من دير أنبا بشوى وتبلغ مساحته ٨٠٠٠ متر مربع ، أنشأه القديس مكار يوس (أبو مقار) الذى عاش فى القرن الرابع . ومما يذكر عن هذا الدير ، أنه ترجم به الكتب المقدسة من اليونانية إلى القبطية ومن القبطية إلى الحبشية وقد اشتهر رهبانه بالتبحر فى العلوم اللاهوتية .

* * *

محافظة مطروح

كانت مرسى مطروح تتبع مصلحة الحدود التى أنشئت فى سنة ١٩١٧ على أثر الاضطرابات التى سادت الصحراء فى خلال الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ — ١٩١٨م) وكان نظام هذه المصلحة يهدف إلى توحيد الاختصاصات الحكومية على اختلافها فى إدارة واحدة فأصبحت جميعها مركزة فى يد المصلحة . وفى سنة ١٩٤٦م غير اسم المصلحة وأصبحت تعرف باسم سلاح الحدود الملكى وقد تولى بدوره جميع السلطات الحكومية ، ثم تقرر فى هذه السنة تعميم القضاء المصرى الجارى العمل به فى وادى النيل وتطبيقه فى أنحاء الصحراء المصرية .

ثم أطلق على المنطقة الممتدة من البحر الأبيض المتوسط شمالا إلى واحة سيوه والفرافرة والبحرية جنوبا اسم محافظة الصحراء الغربية وكانت مرسى مطروح عاصمة لهـا ، وفى سنة ١٩٦٠ انفصلت عنها الواحات البحرية والفرافرة وأصبحت تعرف باسم محافظة مطروح مع بقاء مرسى مطروح قاعدة لها .

ومرسى مطروح بلدة قديمة ، كان لها شأن كبير فى عهد البطالمة والرومان ، واشتهرت بتصدير الشعير والاسفنج والبلح والأغنام ، كما كانت مصيفاً للملوك والأمراء منذ العصر البطلمى ، ومطروح ميناء صغير يحمى مدخلها سلسلة من الصخور الطبيعية ، وفى وسط هذه الصخور مدخل صغير يسمح بمرور المراكب الصغيرة الحجم . وحول الميناء عدد من البحيرات يفصل بينها حاجز رملى بسيط لا يلبث أن يغطيه البحر أحياناً فيملأ هذه البحيرات بمياهه فتصبح وكأنها بحيرة واحدة . وتحد هذه البحيرات من الجهة البحرية تلال من الرمال المتحجرة تمتد شرقا وغربا لمسافات طويلة فتحجب هذه البحيرات عن ساحل البحر

وتجعلها كملجأ أمين للسفن وقوارب الصيد . وعلى رابية مرتفعة فى مطروح يوجد بقايا حصن أثرى قديم قد يكون من العصر الرومانى .

والقسم الساحلى من المحافظة ليس له اسم معين ، وهو يمتد من الاسكندرية شرقاً إلى السلوم غرباً ، فقد سماه القرطاجيون باسم ساحل (ليبيا) وورد ذكره فى كتاب هيرودوت . وكان هذا الساحل طريق القوافل والغزاة منذ العصر الرومانى ، كما اتخذه العرب عند غزوهم الأندلس ثم طرقه الفاطميون عند فتحهم لمصر وكانت هى المرة الوحيدة التى نجحت فيها غزوة من الغرب فى تاريخ مصر . وتخترق هذا الطريق عدة وديان ، ويمتاز باحتوائه على عدة آبار ، ولذلك كثر استعمال العربان له حتى الآن لسهولة العثور على الماء والحطايا به (الحطايا واحات صغيرة متلاصقة) كما يوجد به كثير من الزوايا التابعة للطريقة السنوسية . وقد أسس هذه الطريقة محمد بن على السنوسى المعروف بالسنوسى الكبير فى سنة ١١٠١ هـ [١] ، ونشر مبادئه بين البدو والقبائل ، وجعل منهم قوة روحية وعاملا على بث السلام والاخاء بينهم . وانتشرت الزوايا السنوسية فى الصحراء المصرية حتى بلغت العشرين .

ويسكن مطروح قبائل عربية من أولاد على وجماعة كبيرة من المهاجرين من طرابلس وبعض المغاربة وجالية يونانية . كما يقيم بها جماعة من السنوسية . وهم يتمتعون بمركز دينى ممتاز وبتقدير واحترام الأهلين . وتعتبر مطروح أكبر مركز تجارى بالمحافظة لسهولة مواصلاتها . ووجود طريق للقوافل بينها وبين سيوه .

برج العرب : أنشئت هذه المدينة عقب العمليات الحربية التى قامت بين القوات البريطانية وبين السنوسيين سنة ١٩١٦ م ، وانتهت بطرد السنوسيين من الصحراء الغربية . ولما كان السنوسيون هم الذين أثاروا هذه الحرب ، فقد تقرر هدم الزوايا السنوسية وتشتيت رجالها حتى تقف الدعوة السنوسية بين العربان ، وكان من بين هذه الزوايا زاوية مهمة مشهورة هدمت وأقيم مكانها بلدة « برج العرب » . ولما استقرت الأحوال واستتب الأمن بالصحراء عادت العربان إلى محلاتها المهجورة واستأنفوا حياتهم العادية كرعى الماشية وزراعة الشعير ، وغزل الصوف ، وصناعة الأكلمة .

---

(١) المرابطون للدكتور حسن محمود ص ١٣٨

السلوم : يقول المقريزى [1] « أن الساحل الممتد بين الاسكندرية وأرض انطابوليس (وصحتها انطينيوبوليس) وهى برقة تشتمل على مائة وأربع وعشرين قرية غير الكفور . وأن مدينة (مراقية) كورة من كور مصر الغربية وهى آخر حد لهـا ، وفى آخر أرض (مراقية) توجد أرض (انطينيوبوليس) وهى برقة وبعدها عن مدينة (سنتريه) (سيوه) نحو بريدين » . واعتمادا على الأوصاف التى ذكرها المقريزى نرجح أن تكون مدينة (مراقية) التى ذكرها هى مدينة السلوم . وبمدينة السلوم عدة مسارب (يطلق اسم مسرب عادة فى الصحراء على أحسن الطرق وأشهرها) تصلها بعدة مدن بالصحراء شرقا وغربا ، كما توجد بها عدة مدقات (دروب متعرجة) .

* * *

واحة سيوه

عرفت سيوه منذ أقدم العصور باسم جنة الصحراء ، فقد قصدها الملوك والغزاة الفاتحون طلباً للراحة ، والاستجمام الجسدى والروحى ، ويؤيد هذا القول ما تركوه من معابد وآثار . ويرجع تاريخ اتصال سيوه بالعالم إلى سنة ١٥٠٠ ق م . وبلغت شأوا عظيما فى عهد رمسيس الثالث . وظلت خاضعة للحكم المصرى حتى سنة ٥٥٠ ق م . وفى سنة ٥٢٥ ق م حاول قمبيز ملك الفرس غزوها فسير إليها جيشان من جنوده وفرسانه الأقوياء ، وكان غرضه من إرسال هذا الجيش هو تحطيم معبد آمون ، إلا أن الجيش هلك عن آخره ، ولم يبق من جنوده من يعود إليه ليحكى المصير الرهيب الذى لقيه الجيش . وفى سنة ٣٣١ ق م يمم الاسكندر المقدونى وجهة شطر سيوه مخترقا الصحراء من ساحل البحر الأبيض ، ولم يكن غرضه من هذه الزيارة التدمير والتخريب كقمبيز ، ولكنه كان يبغى التودد إلى المصريين عن طريق أمون وكهنته . ولما جاء الرومان إلى مصر ، استعمروا الواحة كذلك فقد كانت تمدهم بالحاصلات الجيدة من الزيتون والبلح .

ولما ظهرت المسيحية وبدأ عهد الاضطهاد الدينى الذى كان يلقاه المسيحيون على أيدى أباطرة الرومان ، فر كثير من القساوسة والرهبان إلى سيوه واتخذوها ملجأ لهم وأنشأوا فيها الكنائس والأديار واستتبع ذلك دخول كثير من أهلها فى الدين المسيحى ؛

---

(١) المقريزى ج ١ ص ٢٧٤

وفتح العرب [1] مصر سنة ٦٤١ م إلا أن واحة سيوه ظلت مجهولة لهم حتى سنة ٥٠ هـ = ٦٦٠ م فقد حدث فى عهد عبد العزيز بن مروان ، أن أخبره بعض العرب أنهم ضلوا طريقهم فى الصحراء ، وأنهم عثروا على بلد غنى بالمحصولات والفواكه ، فأرسل عبد العزيز جيشاً للبحث عنها . ولكن الجيش عاد بعد شهر دون أن يعثر على الواحة المختفية فى الصحراء وظلت سيوه مجهولة لا يدركها أحد ، حتى كان سنة ٨٠ هـ إذ عثر عليها موسى بن نصير بعد مسيرة سبعة أيام ، وأشرف عليها فرأى فيها مدينة حصينة ، أبوابها صعبة المرتقى ، حاول أن يغزوها ولكن جهوده باءت بالفشل ، فحاصرها ، وظل على حصارها مدة طويلة ، ولم يفلح فى دخولها ، واضطر أخيراً إلى العودة دونها ، وفى القرن الثالث الهجرى = التاسع الميلادى تمكن العرب من دخولها عن طريق بنى هلال وبعض القبائل العربية ، ومن ثم بدأ انتشار الاسلام بها ، إلا أنها لم تخضع خضوعا تاما للحكم الاسلامى فى مصر إلا فى أواخر العصر الفاطمى سنة ١١٠٠ م .

ومنذ نهاية العصر الفاطمى انقطعت أخبار سيوه ولم نسمع عنها شيئا يذكر حتى كان عام ١٨٢٠ م حين اشتد الخلاف بين أهلها وانقسموا فريقين واستنجد فريق منهم بوالى مصر ، فأرسل إليها جيشا أخضعها خضوعاً تاماً وضمت سيوه إلى حكم مصر نهائياً ، وفرضت عليها الجزية وقدرها (١٠٠٠) الف ريال سنوياً ثم زيدت إلى (٦٠٠٠ ريال) ، وظلت سيوه على هذه الحال حتى ظهر السنوسى الكبير ، الذى سبقت الاشارة إليه ، فنشر تعاليمه فى أرجاء سيوه وأقام فيها كثيراً من الزوايا ، وامتد سلطانه بين العرب حتى أقام فى الواحة محكمة لمعاقبة المذنبين . وفى أواخر أيامه قدم القاهرة وعسكر بالقرب من أهرام الجيزة حيث استقبل الملوك وتوفى سنة ١٨٦٥ م . وجاء فى الخطط التوفيقية [2] أن « سيوه كانت قاعدة الواحات البحرية التابعة لمديرية البحيرة . وفى سنة ١٩١٧ ضمت لمحافظة الصحراء الغربية . وفى سنة ١٩٦٠ أصبحت تتبع محافظة مرسى مطروح .

وقد وردت سيوه فى المراجع العربية باسم (سنتريه) ، فيقول المقريزى [3] أن مدينة (سنتريه) من جملة الواحات وهى الآن (أى القرن ١٥ م) بلد صغير يسكنه نحو ستمائة رجل من البربر يعرفون بسيوه ولغتهم تعرف بالسيوية وهى تقرب من لغة زناته ،

---

(١) سيوه للدكتور أحمد فخرى ص ٣٩ — ٤٣

(٢) الخطط التوفيقية جـ ١٢ ص ١١١

(٣) المقريزى جـ ١ ص ٣٧٩

وبها حدائق نخل وأشجار من زيتون وتين ، وغير ذلك وكرم كثير . وبها الآن (القرن ١٥ م) نحو عشرين عينا تسبح بماء عذب . ومن طريف ما يقوله المقريزى عن أهلها : « وتعبث الجن بأهلها كثيراً وتختطف من انفرد منهم وتسمع الناس بها عزيف الجن » . وجاء فى معجم البلدن [1] : (سنتريه) بلد فى غربى الفيوم دون فزان السودان وهى آخر أعمال مصر وتعد من نواحى واح الثالثة وهى قصبة الواحة ، وقد نسب إليها بعض « أهل العلم » . وقال البكرى : « سنتريه كثيرة الثمار والعيون والحصون وأهلها كلهم بربر لا عرب فيهم » .

ويقول الأستاذ Derry أن أهل سيوه خليط من البربر والبدو والسودانيين ، وأنهم ، منذ أقدم العصور ، يختلفون عن سكان مصر ، وأنهم أكثر اتصالا بشمال إفريقية منهم بوادى النيل . ويقول الدكتور فخرى ، أن سكان سيوه الحاليين يختلفون عن سكان باقى الواحات المصرية ، كما أن لهم عاداتهم ولغتهم الخاصة . ويقول أهل سيوه الحاليون أنهم من سلالة قبيلة (الحاميد) البربرية وقبائل (أمرات) و (اليجا) و (الهندوا) البدوية ، وينقسم أهل سيوه الآن إلى شعبتين ، الشعبة الشرقية أو (التحسيب) والغربية أو (اللافيا) .

وواحة سيوه عبارة عن منخفض عظيم فى صحراء ليبيا يحدها شرقا واحة الزيتون وغربا ناحية المراغى (المراقى) والأرض المزرعة بها تبلغ ربع مساحتها والباقى عبارة عن أرض سنجه وتلال رملية وبحيرات مالحة . وتتألف الواحة نفسها من عدة واحات صغيرة أهمها سيوه وتنقسم إلى سيوه شرق وسيوه غرب ، وواحة الاغورمى ، والمراغى وخميسة وأبو الشروف ، وقوريشت ، والزيتون . ويتبعها إدارياً عدة واحات صغيرة متلاصقة من الشرق والغرب وتسمى الحطايا وأهمها من الشرق الجارة وتسمى (جارة أم الصغير) والقطارة والبحرين وسترا وواطيا والعرج وتبجيج وتاميرا . ومن الغرب لليج والمراقى وأم عشة ودهيبه . والجربا وأم غزلان وشياطا . والأراضى المزرعة ترتفع من نحو ثلاثة إلى أربعة أقدام عن الأراضى السبخة ، وتحاط دائما بسياج من جريد النخيل ليمنع عنها هبوب سفن الرمال الخفيفة . وللوصول إلى سيوه عدة طرق ، ويسمى العرب هذه الطرق بالمسارب ، التى تسمى عادة بأسماء الآبار التى تقع عليها ، فمسرب الاسطبل نسبة إلى بئر الاسطبل الشهير ، ومسرب الخمسة نسبة إلى بئر الخمسة ، الذى يحتوى على خمس فتحات

---

(١) ياقوت جـ ٥ ص ١٤٣

يردها السابلة والعربان ، أما مسرب الاخوان ، فقد سمى كذلك نسبة إلى الاخوان السنوسيين لأن هذا المسرب يصل إلى واحة جغبوب قلعة السنوسيين . على أن أهم المسارب وأحسنها هو طريق مطروح — سيوه ، وهو الطريق الذى سلكه الاسكندر المقدونى ، ويحتوى على كثير من الخزانات التى يرجع معظمها إلى العهد الرومانى . والتى أعيد حفرها بعد أن كان قد طمس معظمها .

ومن الآثار الاسلامية التى لا تزال باقية حتى الآن بسيوه الجامع العتيق ، ويقال أنه يرجع إلى العصر الفاطمى ، أى أنه قد مضى عليه نحو الف عام ، والمسجد مبنى من اللبن والطمى (الجالوص) ومئذنته على شكل مخروطى وهى تشبه مآذن مساجد شمال إفريقية ، ويسميها أهل سيوه (الصومعة) وهو نفس الاسم الذى يسمى به المآذن مسلمو شمال إفريقية .

وأهالى سيوه [1] وشعبها بسطاء وديعون نشأوا على الفطرة ، وكان لانقطاعهم عن العالم مدة طويلة تأثير عظيم على أخلاقهم . ولذلك فان الكثير من معتقداتهم ، هى فى الواقع من رواسب الماضى البعيد ، الذى يرجع إلى عهد الفراعنة ، ففى سيوه يكثر المنجمون والسحرة من الرجال والنساء ، وهم متخصصون فى كتابة الأحجبة والتمائم بأنواعها ويعتقدون فيها اعتقاداً كبيراً ، ويحملها الجميع بلا استثناء . وهم يعتقدون فى تناسخ الأرواح فيؤمنون بتقمص الأرواح الشريرة فى الحيوانات كالماعز والبقر والحمير ، وأنها إذا قابلت إنساناً فانها تأخذ فى التضخم حتى تبلغ أبواب السماء .

ولأهل سيوه [2] تقاليد خاصة بهم ، منها أن العروس تتوجه بعد عقد القران إلى العين وتستحم وتلبس رداء أبيض وتمكث فى حجرة منفردة بحيث لا تراها البنات العذارى . ويطلقون على الأرملة اسم (الغولة) ويتجنبون رؤيتها مدة أربعين يوما من وفاة زوجها . وعندما يريد الرجل السفر ترش والدته أو أقرب الناس اليه لبناً وتدير رغيفاً من الخبز حول رأسه سبع مرات وكل من تسلم عليه من النساء تضع فى يده بيضة ويخرج معه الرجال بعد صلاة العصر إلى خارج البلد ويدعون له بالسلامة والتوفيق ثم يؤذن أحدهم الآذان الشرعى ثم ينصرفون . وعند عودته ينتظر خارج البلد ويرسل رسولا إلى أهله ، فيخرج أقاربه لمقابلته .

---

(١) الدكتور أحمد فخرى ص ٥

(٢) المرجع السابق ص ٧

ويقول رؤساء القبائل وأعيان الواحة أن نظامهم القضائى مستمد من النظام القضائى الذى وضعه المسلمون فى شمال إفريقية وبلاد الأندلس ، منذ فتحهم لتلك البلاد . كما يقال أن هذا القانون سجل بالخط الكوفى وبقى فى الواحة تتوارثه طبقة معينة من القضاة . وكان القانون يتألف من ستة وثلاثين مادة . ولما اضمحل نفوذ القضاة نتيجة للاستعمار العثمانى والايطالى لصحراء ليبيا بطل تنفيذ القانون القديم ، وحل محله القضاء بالعرف واستمر الحال على ذلك سنة ١٨٧٣ م حين شكل مجلس من الأعيان عرف بالمجلس الكبير ، ومجلس آخر يضم مشايخ الواحة عرف بمجلس المشايخ . يعمل تحت إشراف مجلس الأعيان . ولما أصبحت سيوه تتبع مديرية البحيرة ، وضع لها قانون جديد سنة ١٨٩٧ م وبعد الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٧ اتبعت سيوة قوانين حاكم الصحراء . وفى سنة ١٩٤٦ تقرر تعميم القضاء المصرى فى أنحاء الصحراء .

* * *

محافظة الاسكندرية

ورد فى معجم البلدان [١] لياقوت أن الاسكندر المقدونى بنى ثلاث عشرة مدينة سماها كلها باسمه ثم تغيرت اسماؤها من بعده ، ولم يبق ما يعرف بهذا الاسم الآن (أى فى القرن ١٣ م) غير الاسكندرية العظمى التى بمصر . ثم يقول ياقوت أن بعض المفسرين ذكروا أن مدينة الاسكندرية هى المعنية فى الآية الكريمة : « ارم ذات العماد التى لم يخلق مثلها فى البلاد » ويضيف (وقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « خير مسالحكم الاسكندرية » ، (المسلحة = المرقب) ويعزو المقريزى [٢] السبب فى فتح العرب لمصر والاسكندرية إلى القصة التالية « أنه لما كانت سنة ثمانى عشرة من الهجرة وقدم عمر بن الخطاب عند الجابية (ببلاد الشام) خلا به عمرو بن العاص واستأذنه فى المسير إلى مصر وكان عمرو قد دخل مصر فى الجاهلية وعرف طرقها ورأى كثرة ما فيها وكان سبب دخوله إياها ، أنه قدم مرة إلى بيت المقدس لتجارة فى نفر من قريش ، فاذا هم بشماس من أهل الاسكندرية قدم للصلاة فى بيت المقدس ، فبينما عمرو يرعى إبله

---

(١) ياقوت ج ١ ص ٢٣٥

(٢) المقريزى ج ١ ص ٢٣٢

إذ مر به ذلك الشماس وقد أصابه عطش شديد فسقاه عمرو ، فشرب حتى روى ونام الشماس مكانه وكانت إلى جنب الشماس حفرة فخرجت منها حية عظيمة فقتلها عمرو ، فلما استيقظ الشماس أخبره عمر بخبر الحية فقبل الشماس رأسه وقال له ، قد أحيانى الله بك مرتين ، مرة من شدة العطش ومرة من هذه الحية ، ثم سأله ، كم دية أحدكم بينكم ، فقال له عمرو مائة من الابل فقال الشماس « إنى رجل غريب فى هذه البلاد ، فهل لك أن تتبعنى إلى بلادى ، ولك على عهد الله وميثاقه أن أعطيك ديتين ، فقال له عمرو ، وأين بلادك ، قال مصر فى مدينة يقال لها الاسكندرية » ، فسأله عمرو « وكم يكون مكثى فى ذلك قال شهراً تنطلق معى ذاهباً عشراً وتقيم عندنا عشراً وترجع فى عشر . فانطلق عمرو مع الشماس حتى انتهيا إلى مصر . ومضى إلى الاسكندرية فنظر إلى كثرة ما فيها من العمارة والأموال وكثرة أهلها فأعجب بها ، ووافق دخول عمرو ، عيداً عظيما يجتمع فيه ملوكهم وأشرافهم فى ملعب المدينة العظيم . وفى هذا العيد يترامى الملوك والأمراء بكرة من ذهب مكللة يترامى بها ملوكهم وهم يتلقونها بأكمامهم ، فمن وقعت الكرة فى كمه واستقرت لم يمت حتى يملكهم ، فلما قدم عمرو الاسكندرية أكرمه الشماس الاكرام كله وكساه ثوب ديباج ، وذهب به إلى الملعب وجلس عمرو والشماس مع الناس ، فرمى رجل الكرة فأقبلت تهوى حتى وقعت فى كم عمرو فعجبوا من ذلك وقالوا ما كذبتنا هذه الكرة قط إلا هذه المرة ، أترى هذا الأعرابى يملكنا ، هذا ما لا يكون أبداً ، ثم أعطى الشماس لعمرو ألفى دينار ثمن مائتين من الابل . حيث لا يوجد ابل بمصر . فقبضها عمرو ، وانطلق عائداً .

ومهما يكن من أمر هذه القصة فان الذى تستطيع أن تؤكده فى ثقة واطمئنان هو أن عمرو بن العاص زار مصر والاسكندرية قبل الفتح العربى لهما ، وأنه كان يوجد بمدينة الاسكندرية ملعب كبير يحضر احتفالاته الأمراء ووجهاء القوم . كما نستخلص من هذه القصة مبلغ ما كانت عليه مدينة الاسكندرية من الثروة والبذخ ، إذ استطاع شماس أن يفتدى نفسه ألفى دينار . ولما جاء عمرو بن العاص لفتح مصر سار إلى حصن (بابليون) فقابله المصريون كمنقذ لهم من ظلم الرومان وجورهم فاستتب له الأمر فى مدينة منف بسهولة واستسلم له المقوقس وسلمه البلاد بلا مقاومة تذكر . ثم توجه عمرو إلى الاسكندرية ودخلها منتصراً بعد حصار دام أربعة عشر شهراً من باب كانوب فوجد أمامه مدينة لم تزل رغم ما قاسته فى العصر الرومانى عامرة خلابة ، فأراد جعلها عاصمة لمصر ، فكتب إلى الخليفة

عمر يستأذنه فى ذلك فسأل عمر الرسول الذى أوفده عمرو « هل يحول بينى وبين المسلمين ماء ، قال نعم يا أمير المؤمنين إذا جرى النيل فكتب عمر إلى عمرو إنى لا أحب أن تنزل بالمسلمين منزلا يحول الماء بينى وبينهم ، فتحول عمرو من الاسكندرية إلى الفسطاط وكان عمر بن الخطاب يبعث فى كل سنة حامية من أهل المدينة (المنورة) ترابط بالاسكندرية ، وكان لا يغفل عن أمرها خشية أن يرتد الروم إليها .

ولما دخل عمرو مدينة الاسكندرية وسار فى شارع كانوب الرئيسى ذى التماثيل الجميلة على الجانبين والأعمدة الجرانيتية الرشيقة وأقواس النصر الفخمة ، رأى عن يساره ميدانا عظيما به قبر الاسكندر وقبور ملوك البطالمة ، وعن يمينه منارة الاسكندرية يعلوها الشاهد ، فاتخذ منها مسجداً لإقامة الصلاة ، ثم رأى أمامه قصور الملوك وكنائس الاسكندرية وبقايا مدرسة الاسكندرية ومكتبتها ، وكتب إلى الخليفة يقول ، لقد فتحت مدينة لا أقول عنها إلا أنها تحتوى على أكثر من ٤٠٠٠ قصر ، ٤٠٠٠ حمام ، ٤٠٠٠ مسرح ، ١٢٠٠٠ حانوت ومخزن ، ٤٠٠٠٠ يهودى ، ومع ما قد يكون فى هذه الأرقام من المبالغة إلا أنها تدل على أهمية المدينة عند الفتح العربى .

ولما تولى عثمان الخلافة بعد عمر ، أعطى ولاية مصر جميعها إلى عبد الله بن سعد ابن أبى سرح أخيه من الرضاع ، فطمع أهل الاسكندرية ونقضوا العهد ، فقيل لعثمان ليس لها إلا عمرو بن العاص فان هيبته فى قلوب أهل مصر قوية فانقذه عثمان ، ففتحها ثانية عنوة وسلمها إلى عبد الله بن سعد بن أبى سرح وخرج من مصر فما رجع إليها إلا فى عهد معاوية [١] .

ولقد كان للنزاع الذى قام بين الأمين والمأمون ولدى هارون الرشيد سنة ١٩٦ هـ أثر كبير فى الفوضى والشغب الذى ساد مدينة الاسكندرية سنة ١٩٩ هـ ، فقد كتب كل من الأخوين إلى الولاة بمصر والاسكندرية يدعوهم إلى القيام بالدعوة له ، فأدى ذلك إلى تنازع الأمراء للحصول على ولاية المدينة . ومما دعا إلى تفاقم الحالة فى الاسكندرية رغم استقرار الأمور فى الدولة العباسية بعد قتل الأمين وتولى المأمون الخلافة ، وفود جماعة إليها من أهل قرطبة بالأندلس بعد هزيمتها فى موقعة الربض سنة ١٨٢ فى عهد الخليفة الحكم بن هشام ، وكان عددها عشرة آلاف رجل . فلما نزلت هذه الجماعة بالاسكندرية

---

(١) فتوح مصر ص ٤٢ ، النجوم الزاهرة جـ ١ ص ٧٦ ، المقريزى جـ ١ ص ٢٦٣

صارت تنصر والياً على آخر طمعاً فى كسب النفوذ على حساب المتنازعين ، وانتهى الأمر بهذه الجماعة أن صارت تولى وتعزل من تشاء من ولاة الاسكندرية . وما زالت الاسكندرية[1] وأعمالها فى اضطرابات وفوضى إلى أن قدمت جيوش المعز لدين الله بقيادة جوهر الصقلى سنة ٣٥٨ ﻫ = ٩٦٩ م فملكتها وما برحت إلى أن قام بها نزار بن المستنصر . فقد حدث بعد وفاة الخليفة المستنصر بالله سنة ٤٨٧ ﻫ أن بادر الأفضل شاهنشاه بن بدر الجمالى بالمناداة بالأمير أحمد أصغر أبناء المستنصر خليفة ولقبه بالمستعلى بالله ، فلما علم بذلك الأمير نزار أكبر أبناء المستنصر ، خرج من مصر مغاضبا واستنجد بوالى الاسكندرية افتكين الذى بايع نزار بالخلافة ونعته بالمصطفى لدين الله وأحضر أهل الثغر لمبايعته ، فبلغ ذلك الأفضل بن بدر الجمالى فخرج فى جيش إلى الاسكندرية لمحاربتهم ولكنه انهزم ورجع بمن معه إلى القاهرة ، وأخذ يتجهز ثانية إلى المسير لمحاربة نزار . واستطاع فى هذه المرة من دخول الاسكندرية والقبض على نزار وافتكين وبعث بهما إلى القاهرة حيث قتلا .

ويقول المقريزى فى حوادث سنة ٥٦٢ ﻫ « وقعت موقعة البابين بين شاور وزير الخليفة العاضد الفاطمى وبين أسد الدين شيركوه قائد جيوش نور الدين زنكى ، فانهزم عسكر شيركوه ومضى إلى الاسكندرية فخرج اليه أهل الثغر وسروا بقدومه وسلموه المدينة ثم سار منها يريد بلاد الصعيد واستخلف ابن أخيه صلاح الدين يوسف بن أيوب على الثغر فى ألف فارس فنزل عليه شاور ومعه (أمرى) ملك الفرنجة (الصليبيين) فقام معه أهل الثغر واستعدوا لقتال شاور فكان ما أخرجوه أربعة وعشرين ألف فرس ، فوعدهم شاور أن يضع عنهم المكوس والواجبات ويعطيهم الخمس إذا سلموه صلاح الدين ، فأبوا ذلك وألحوا فى قتاله فحاصرهم حتى قل الطعام عندهم . فتوجه اليهم شيركوه وقد حشد من العربان جموعا كثيرة فبعث اليه شاور وبذل له خمسة آلاف دينار على أن يرجع إلى الشام فأجابه إلى ذلك وفتحت المدينة وخرج صلاح الدين إلى أمرى ملك الفرنجة وجلس معه ، فما زال به شاور أن يسلمه صلاح الدين فلم يوافقه بل سيره إلى عمه شيركوه ، ودخل شاور الاسكندرية .

وفى سنة ٦١٢ ﻫ = (القرن ١٣ م) اجتمع بالاسكندرية ثلاثة آلاف من تجار الفرنج ، وقدمت بطسة (سفينة حربية) إلى الميناء تحمل ملكين من ملوك الفرنجة ،

---

(١) المقريزى ج ١ ص ٢٧٨

وحاولوا الثورة وقتل أهل البلد وامتلاك الثغر ، فتوجه الملك العادل أبو بكر بن أيوب اليها وقبض على التجار المذكورين وعلى البطسة وصادر أموالهم وسجنهم وسجن الملكين وعاد إلى القاهرة .

وفى سنة ٦٧١ ﻫ (القرن ١٣ م) وردت الأنباء بخروج الفرنجة إلى الثغور المصرية . فاهتم الملك الظاهر بيبرس بأمر الشوانى (السفن الحربية) ونصب على أسوار الاسكندرية نحو مائة منجنيق . من هذا السرد التاريخى يتبين لنا أن مدينة الاسكندرية كانت طوال العصور الوسطى ، أكثر المدن تأثراً بالأحداث السياسية التى تتعرض لها مصر وذلك لقوتها ومناعتها ووفرة ثروتها مما جعلها ملجأ أمينا لكل ثائر أو هدفا لكل غاز . كما أن موقعها الجغرافى كميناء على ساحل البحر الأبيض المتوسط مكنها من التأثير فى مجريات الحوادث لسهولة اتصالها بالعالم الخارجى .

وقد أدت هذه الأحداث والحروب المتواصلة إلى إهمال العناية بآثار المدينة القديمة أو صيانتها فكانت المدينة تسير فى طريق الخراب بخطوات كبيرة ، حتى أن المؤرخ ياقوت (المتوفى سنة ١٢٢٩ م) لم يجد فى مدينة الاسكندرية عندما زارها شيئا يذكر سوى (عمود السوارى) . فاذا أضيف إلى ذلك الهزات الأرضية العنيفة أو الزلزال الذى حدث فى بداية القرن الرابع عشر والذى أتى على كافة مبانى ومعالم المدينة وسبب إنخفاضا هائلا فى أرضها ، حتى أن الرحالة (برناردى بريدنباخ) الذى زارها سنة ١٤٨٣ م لم ير إلا أنقاضا شاسعة وخرابا عاما . وكانت دهشته كبيرة عندما شاهد السور الهائل الذى يحيط بالمدينة .

ولم يقتصر الأمر على المبانى والآثار بل تعداها إلى المشروعات العمرانية ، فقد طمس فرع النيل الكانوبى وانقطعت المياه العذبة عن بحيرة مريوط ، وجفت هذه البحيرة وأصبحت غير صالحة للملاحة ، وبذلك احتلت مدينة رشيد مكانها كميناء بحرى ونهرى .

ومنذ بداية القرن التاسع عشر بدأت الحياة تدب فى المدينة من جديد وعادت إليها شهرتها وصفتها الأولى (عروس البحر الأبيض المتوسط) على أن عمارها السريع أدى إلى ضياع معالم المدينة اليونانية والرومانية .

كثر الجدل حول موضوع حريق مكتبة الاسكندرية ، فذهب فريق من مؤرخى الفرنجة إلى القاء تبعة هذه الجريمة الشنعاء على كاهل العرب عند فتحهم مصر ، وهو أمر

لا يتفق مع الحقيقة أو الواقع ففضلا عما نعرفه — وتؤكده المراجع التاريخية والأثرية كلها من محافظة العرب على كل تراث الأمم والشعوب التى خضعت لهم والاستفادة منه فى شئون دولتهم الناشئة ، فاننا لم نسمع أن شعبا من الشعوب القديمة قد اهتم بترجمة علوم الأسبقين وحرص على الاستفادة منها كما فعل العرب حتى عرف العصر العباسى الأول الذى بدأ سنة ٧٥٠ م بعصر الترجمة وإحياء التراث . ولست أريد فى هذا المجال أن أسير وراء العاطفة فى الحكم وإنما اعتمد على الوقائع الثابتة التى لا تقبل الجدل أو النقاش (١) .

ان أول ضربة أصيبت بها مكتبة الاسكندرية الشهيرة كانت سنة ٤٨ ق . م عند قدوم (يوليوس قيصر) إلى هذه المدينة لتأييد (كليوباترة) ضد أخيها صاحب العرش الشرعى ، فقد لجأ هذا الأخير إلى الشعب لنصرته ضد الغاصب ، فقام (أشيلاس) القائد المصرى لنجدته وحاصر قيصر وكليوباترة فى القصور الملكية ، ورأى قيصر أن لا نجاة له إذا استولى المصريون على المواصلات ، وقطعوا عليه خط الرجعة من جهة البحر ، فعمد إلى إضرام النار فى ٧٢ قطعة من المراكب الحربية الكبيرة التى كانت راسية فى الميناء الشرقية بالاضافة إلى تلك التى كانت على وشك الانتهاء من البناء فى الترسانة . وقد كان لهيب النار شديداً حتى امتد إلى الأرصفة فأحرقت النار مخازن الجمرك والشون ومخازن الكتب التابعة للمكتبة التى كانت تطل على الميناء الشرقية بجانب القصور الملكية ، وقد قدر عدد المجلدات التى احترقت بما مقداره ٤٠٠٠٠٠ مجلد ، وقد اعترض كثير من مؤرخى الفرنجة على صحة هذه الواقعة وعلى القول بوصول النيران إلى المكتبة بحجة أنه لم يذكرها أحد من كتاب ذلك العصر ، وان موقع المكتبة كان بعيدا عن رصيف الميناء الشرقية ، ولكنهم لم يستطيعوا نفى واقعة احتراق هذا العدد الهائل من الكتب ، وقالوا انها كانت معروضة للبيع فى محلات التجارة العادية لأن تجارة الكتب كانت رائجة جدا فى ذلك الوقت ، وللرد على ذلك نقول ، (أولا) بعد المكتبة عن الرصيف لا يمنع وصول النار اليها خاصة بعد أن وصلت إلى الجمرك والشون ، ما دامت المكتبة داخل نطاق الميناء . (ثانيا) إذا كان من المستبعد وصول النيران إلى المكتبة رغم وجودها داخل الميناء ، فمن المستحيل إذن وصولها إلى المحلات التجارية داخل البلد ، (ثالثا) ان عدم ذكر المراجع

---

(١) تصدى عبد اللطيف البغدادى المتوفى سنة ٦٢٩ هـ فى كتابه (الافادة والاعتبار) لذكر مكتبة الاسكندرية ، ويعتبر عبد اللطيف أول عربى نسب حريق المكتبة إلى عمرو ، وأيده فى روايته المؤرخ الملطى المتوفى سنة ٦٨٥ هـ فى كتابه المسمى « مختصر تاريخ الدول »

المعاصرة لهذه الواقعة ، فمن المرجح بل ومن المعقول أن يكون ذلك تدبيراً سياسياً قصد به عدم إثارة الشعور وخلق الاضطرابات .

وفى ثنايا تاريخ كليوباترة نجد ان (انطونيو) بعد أن استولى على (برجام) أهدى كليوباترة مجموعة كبيرة من مجلدات مكتبتها . ولعل اهداء أنطونيو لهذه المجموعة الكبيرة من الكتب لها ، كان يعنى شبه تعويض للمكتبة التى احترقت والتى كانت كليوباترة السبب غير المباشر فى حرقها ، وإلا فبماذا نفسر سر اهداء الكتب إلى كليوباترة إذا كانت المكتبة سليمة لم تحرق . وقد وضعت هذه الهدية فى مكتبة أنشئت بالسيرابيوم وسميت بنت المكتبة الأولى .

ومن المحقق ان حالة مكتبة الاسكندرية قد انحطت كثيرا بعد الاحتلال الرومانى خاصة عند نهاية القرن الثانى الميلادى ، وذلك بسبب نقل كثير من الكتب إلى روما ، نتيجة لحوادث السلب والنهب التى حدثت فى عهد الأمبراطور (كراكالا) . وفى سنة ٢٧٠م هدم الحاكم الرومانى (أوريليان) حى (البروشيون) — وهو حى القصور الملكية والمكتبة بالميناء الشرقية هدما تاما انتقاما من المدينة لثورتها ، فلجأ بعض رجال جامعة الاسكندرية ومكتبتها إلى معبد السيرابيوم وسافر البعض الآخر إلى القسطنطينية .

وعلى ذلك نستطيع أن نقرر بصفة قاطعة أنه منذ نهاية القرن الثالث الميلادى على الأكثر . كانت مدرسة الاسكندرية ومكتبتها الرئيسية قد تلاشتا وزالتا من الوجود نتيجة للاضطرابات السياسية ، وانتشار المسيحية ولما قام به المسيحيون من هدم آثار الوثنية والقضاء عليها .

وفى سنة ٣٨٩ هدم البطريرك (ثيوفيل) بناء على أمر الأمبراطور ثيودييسوس معبد السرابيوم وكسر تمثال (سرابيس) الشهير وأضرم النيران فى هذا الملجأ الأخير للوثنية . ويقال أنه نجا من الحريق بعض أجزاء المعبد ، وربما جزء من المكتبة الملحقة به ، وعلى أية حال فإن ذلك لا يمكن اعتباره مكتبة عمومية ذات أهمية تذكر .

أما عن القصة التى وردت فى المراجع الأجنبية عن حرق عمرو بن العاص لمكتبة الاسكندرية فهى تقول : ان قسيسا كان بمدينة الاسكندرية اسمه (جون فيلوبونوس) وكان صديقا حميا لعمرو بن العاص ، طلب إليه أن يرخص له بنقل بعض الكتب التى أصبحت بحكم الفتح من أموال الحكومة الجديدة ، فأرسل عمرو يستأذن الخليفة

عمر بن الخطاب فى ذلك ، فأجابه الخليفة بهذا الجواب « إذا كان ما جاء بهذه الكتب مطابقا لما جاء به القرآن الكريم فهى تكرار لا فائدة منه ، وإذا كان ما جاء بها مخالفا لما جاء بالقرآن فهى خطر فأحرقها » . ويكفى فى تفنيد ما جاء بهذه القصة أن نعلم أن (جون فيلو بونوس) كان قد مات قبل الفتح العربى .

من هذا السرد التاريخى نستطيع أن نقول فى ثقة واطمئنان أن عمرو بن العاص برىء من قصة حرق مكتبة الاسكندرية براءة الذئب من دم ابن يعقوب ، وأن هذه الاسطورة إنما أريد بها الحط من قدر العرب والمسلمين فلم يعرف عن العرب فى تاريخهم الطويل أنهم أحرقوا كتبنا وإنما التاريخ الأوروبى هو الملىء بحوادث حرق الكتب وتكفى لمحة من تاريخ محاكم التفتيش لمعرفة أن حرق الكتب كان نظاما ومبدءا لدى الأوروبيين ولعل مؤرخى أوروبا نسبوا إلى عمرو حرق مكتبة الاسكندرية قياسا على نظامهم هذا ومبدئهم فى إحراق الكتب .

لقد عثر فى الحفريات التى أجريت سنة ١٨٦٦ م [1] على أسوار المدينة القديمة التى أقامها الاسكندر وأتمها ملوك البطالمة من بعده وكان عرض أساسات هذه الأسوار يبلغ خمسة أمتار وكانت مبنية بالأحجار الجيرية المنحوتة المأخوذة من محاجر المكس أما المونة فكانت من الجير والحمرة . وكانت الأسوار متعددة الأبراج والكبيرة منها فى الزوايا والأركان أما الصغيرة فتتخلل الأبراج الكبيرة ، وكانت الأسوار تتبع الشاطىء مبتدئة من الغرب حتى نهاية شارع كانوب (طريق الحرية الآن) وممتدة شرقا حتى رأس لوكياس (مدخل الميناء الشرقى الآن) بمحاذاة شاطىء البحر ثم تنحدر جنوبا حتى تقابل ترعة الاسكندرية (حلت محلها المحمودية الآن) ثم تسير معها حتى تصل إلى ابتداء الأسوار مكونة بذلك شكلا مستطيلا .

وقد هدمت أجزاء كثيرة من الأسوار القديمة وأعيد بناؤها فى القرن الثانى للميلاد فى عهد الامبراطور هدريان وعهد انطونيو كما أجريت لهـا بعض الترميمات فى القرن الثالث الميلادى . وفى القرن التاسع الميلادى أعاد أحمد بن طولون بناء الأجزاء التى تهدمت من الأسوار . كذلك كشفت الحفريات عن أحد عشر شارعا رئيسيا ، تمر عرضا من الشمال إلى

---

(١) الخطط التوفيقية جـ ٨ ص ٥٩

الجنوب وسبعة شوارع طولية كانت تمر من الشرق إلى الغرب . وكانت هذه الشوارع مرصوفة بطريقة واحدة من أحجار البازلت الأسود والأصفر . وكان الشارع الأوسط من الشوارع السبعة الطولية هو أهم الشوارع وكان اسمه شارع (كانوب) وهو محل طريق الحرية الحالى وكانت المدينة مقسمة إلى خمسة أحياء يرمز لكل حى منها بحرف من الحروف الهجائية اليونانية فيقال حى « الفا » وحى « دلتا » الخ [١] .

وفى العهد البطلمى ، ربطت جزيرة فاروس بالشاطىء بواسطة رصيف عرف باسم الهيبتاستاد ، وقد قسم هذا الرصيف حوض الاسكندرية إلى ميناءين مستقلين وبقى هذا التقسيم حتى [٢] الآن . وعلى جزيرة قريبة من جزيرة فاروس أنشأ بطليموس الثانى سنة ٢٨٠م منارة الاسكندرية واستمرت تؤدى عملها حتى القرن (الرابع عشر) . وقد استطاع الرحالة المعمارى أبو الحجاج يوسف البلوى الأندلسى المعروف بابن الشيخ الذى زار مدينة الاسكندرية فى القرن الثانى عشر الميلادى ، أن يعطينا وصفاً دقيقاً للمنارة ، فيقول ، أن المنارة تتكون من ثلاثة أدوار ، الأول مربع الشكل والثانى على شكل مثمن والثالث اسطوانى وتعلوه قبة ضخمة بداخلها فانوس كبير يضىء طريق المراكب ، ويبلغ ارتفاع المنارة ١٢٠ متراً وبها ٣٠٠ غرفة . واعتماداً على الأوصاف والمقاييس الدقيقة التى أعطاها ابن الشيخ ، لا سيما وأنه كان بناء قادراً وراوية دقيقا ، استطاع بعض الباحثين الاسبان اعطاءنا صورة جديدة لشكل المنارة ، لعلها أدنى إلى الحقيقة من كل ما عرفناه عنها حتى الآن [٣] .

وفى نفس البقعة التى كانت بها منارة الاسكندرية ، وعلى أنقاضها ، بنى السلطان قايتباى طابية الاسكندرية التى تعد من أهم القلاع المصرية على الاطلاق والتى تناظر قلعة الجبل التى بناها صلاح الدين بالقاهرة . ويرجع تاريخ هذه الطابية إلى سنة ١٤٧٧ ه عندما رأى قايتباى تفوق العثمانيين ومحاولتهم تأسيس دولة استعمارية تهدد الدول المجاورة لها لذلك فكر فى حماية أهم ثغور ساحل مصر الشمالى .

---

(١) المقريزى ج ١ ص ٢٧٢ ، زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك لخليل بن شاهين الظاهرى ص ٣٩

(٢) دراسات فى تاريخ مصر فى عهد البطالمة للدكتور نصحى ص ١١ (مطبعة الانجلو سنة ٩٥٩) .

(٣) كتاب ألف باء لابن الشيخ ج ٢ ص ٥٣٧ ، ٣٨ (طبعة القاهرة سنة ١٢٨٧ ه) .

وتتكون الطابية من شكل شبه مربع يبلغ طولها ١٥٠ متر وعرضها ١٣٠ متراً وتبلغ مساحتها ما يقرب من ٢٠ ألف متر مربع . ويحيط البحر الأبيض بالطابية من جهات ثلاث ، وقد تآكلت الجهتان الشمالية والشرقية ، فى بعض أجزائهما ، أما الجهة الغربية فتكاد تكون سليمة . وبداخل الطابية وبالجهة الشمالية الشرقية منها يوجد برج المسجد ، وهو مربع الشكل وفى كل زاوية من زواياها الأربع يوجد برج صغير مستدير ، وتبلغ مساحة المسجد ٣٠ متراً مربعاً . وفى الجدار الجنوبى الغربى يوجد باب المسجد وهو قليل الغور ويعلوه عقد مدبب . ومن هذا الباب ندخل إلى درقاعه ومنها إلى صحن المسجد . ويحيط بالصحن أربعة ايوانات ، لها تخطيط متعامد . وفى الجهة الغربية من المسجد توجد حجرة بها ضريح لا يعرف صاحبه . وفى الدور الأرضى للمسجد يوجد دوران بهما حجرات وممرات ودهاليز مسقوفة بالاقبياء المتقاطعة ويوجد فى حوائط البرج جميعها فتحات لرمى السهام ، كما يعلو الجدران الشرافات والمزاغل التى تسمح بوضع المكاحل ، وبأعلى واجهة برج المسجد يوجد أربعة مسافط . وقد بنيت جدران المسجد من الحجر المنحوت أما السقوف المقبية فقد بنيت من الآجر ، وكان يوجد على باب المسجد لوحتان من الحجر منقوش عليها « عز لمولانا السلطان الملك الأشرف أبو النصر قايتباى عز نصره[١] » ، وللأسف فقدت اللوحتان .

ويقع المدخل الرئيسى للطابية فى الركن الجنوبى الغربى (المستعمل الآن مخازن مهمات) . وهناك مدخل آخر يوصل إلى فناء الطابية ، وعلى امتداد هذا الباب يقع باب المسجد . وفى الزاوية الشمالية الشرقية يوجد برج كبير ، يستعمل الآن كمنظرة لاستطلاع البواخر الحربية ولمراقبة الميناء . ويقول ابن أياس أنه كان يوجد فى البرج الشمالى المطل على البحر مقعد ، يستطيع من يجلس فيه أن يرى المراكب على مسيرة يوم قبل دخولها الميناء . وكان يحيط بالطابية من الداخل حجرات للجند . ومطابخ وحواصل ، وقد أجريت للطابية عدة ترميمات وإصلاحات فى مختلف العصور وقد كتب عنها كثير من الرحالة فى العصور الوسطى [٣] وصفها ابن أياس [٤] فقال وجعل حول هذا البرج (الطابية) مكاحل معمرة

---

(١) نصحى ص ١٢

Van Bercham: Materiaux pour un Corpus Lnserptionum Arabicarum I P. 37 (١)

(٣) قلعة صلاح الدين وقلاع اسلامية معاصرة للدكتور عبد الرحمن زكى ص ١٥٥ — ١٦٠

(٤) ابن اياس ص ١٩٨

بالمدافع ليلاً ونهاراً لئلا تطرق الأفرنج الثغر ، وجعل شاراً من خواصه وهو باش عليهم يقال له قنصوة المحمدى الخاصكى ، وقيل أن السلطان صرف على بناء هذا البرج زيادة على مائة الف دينار وأوقف عليه الأوقاف الجليلة ، وجاء من أحسن الآثار .

وفى عهد السلطان الغورى سنة ١٥١٠ م نالت الطابية كثيراً من عنايته وزاد فى عدد جندها والضباط المنتظمين وعين لها صناع للأسلحة والزرد لعمل الدروع الواقية ، كما كانت الطابية فى ذلك الوقت تضم سجنا لكبار المماليك الذين يهملون فى الدفاع عن البلاد . وقد أصدر الغورى مرسوما عسكريا ينهى فيه عن إخراج السلاح من الطابية وقد جاء فيه « لا أحد يأخذ من البرج الشريف بالاسكندرية سلاح ولا مكاحل ولا بارود ولا آلة ولا غير ذلك ومن خالف ذلك من جماعة المماليك والعبيد والزردكاشية وخرج منه بشىء شنق على باب البرج وعليه لعنة الله » (١) .

أما فى العصر العثمانى فقد أهمل أمر الطابية وأصبحت فى حالة يرثى لها بعد أن كانت منيعة مهابة أيام المماليك . وعندما استولى الفرنسيون على الاسكندرية ووضعوا يدهم على قلعة قايتباى عثروا فى أبراجها وأقبيتها على أسلحة كثيرة مكدسة وسيوف علاها الصدأ واستدل من شكلها وما عليها من نقوش على أنها أسلحة الصليبيين ومن مخلفات حملة لويس التاسع التى جاءت إلى مصر سنة ١٢٥٠ م وباءت بالفشل .

وفى القرن التاسع عشر زاد الاهتمام بالطابية فرممت قلاعها وأبراجها وزاد ما تحتويه من مدافع فأصبحت تحتوى على ٢٠ مدفع حصون و ١٢ مدفع هاون ، وفى النصف الثانى من القرن ١٩ م زاد عدد مدافع الحصون حتى بلغت ١١٠ بينما نقصت مدافع الهاون فصارت ستة .

ويوجد بمدينة الاسكندرية ٤٩ مسجداً جامعاً ، ٩٧ زاوية وعدد لا يحصى من الأضرحة ومن أقدم مساجد الاسكندرية جامع العطارين الموجود بشارع سوق العطارين وقد جدده بدر الجمالى وزير الخليفة المستنصر بالله الفاطمى سنة ٤٧٧ هـ كما هو ثابت فى اللوحة التأسيسية الموجودة فى قاعة المنارة على يسار الداخل من الباب الشرقى .

ولما كان مسجد العطارين ، هو المسجد الجامع للفاطميين فى الاسكندرية ، فقد نقل الأيوبيون الخطبة من هذا الجامع إلى المسجد الذى أنشأه صلاح الدين الأيوبى سنة ٥٧٧ هـ = ١١٨١ م جريا على السياسة التى اتبعوها فى محاربة الشيعة ونشر المذهب السنى .

Van Bercham : P. 67 (١)

وإلى جانب الناحية الدينية ، فقد كان هذا الجامع مركزاً ثقافياً تولى التدريس فيه نخبة ممتازة من العلماء ، منهم أبو العباس المرسي وكان من أولياء الله الصالحين . وكذلك قام بالتدريس فيه قاضي قضاة الاسكندرية أحمد بن أبي المعالي ، والعلامة ابراهيم بن محمد ابن عبد الواحد ، والشيخ أبو محمد الصعيدي شيخ قراء الاسكندرية كما تولى التدريس فيه العلامة محمد بن سليمان بن أحمد الصنهاجي المراكشي ، واتخذه مسكناً له إلى أن توفى سنة ٧١٧ ﻫ ودفن فيه ، وأقيمت فوق ضريحه قبة ما زالت باقية حتى اليوم . ويتكون الجامع من خمسة أروقة . وبجوار المحراب منبر بسيط ، وفى الطرف الشمالى الشرقى قبة وفى الجدار الغربى توجد دكة المبلغ التى تعرف فى الاسكندرية باسم الصندرة .

ومن المساجد المشهورة بمدينة الاسكندرية جامع سيدى أبى العباس المرسى ، ويوجد برأس التين وكان فى الأصل مسجداً صغيراً ، ولكنه جدد سنة ١١٨٩ ﻫ على أيدى بعض الحجاج المغاربة ، ثم تولت وزارة الأوقاف بعد ذلك ترميمه وإقامة الشعائر الدينية به . وكان الشيخ مرسى أبو العباس من العارفين بالله ، أخذ الطريق عن الشيخ أبى الحسن الشاذلى ، توفى سنة ١٧٦ ﻫ ودفن فى جامعه . وقبره مشهور يزوره أهل الاسكندرية وغيرهم من المترددين عليها ولا سيما المغاربة .

ومسجد سيدى ياقوت العرش ، المدفون فيه الشيخ ياقوت الذى كان إماما عارفا عابدا زاهدا وهو من أجل من أخذ عن أبى العباس المرسى ، وكان حبشياً ولد بالحبش وهو مشهور بين الطائفة الشاذلية توفى سنة ٧٠٧ ﻫ ودفن بمسجده وقبره مشهور يزار وله مولد فى رمضان من كل سنة .

ومن المساجد الهامة كذلك مسجد البوصيرى ، وهو مسجد الامام شرف الدين محمد بن سعيد البوصيرى صاحب البردة ، والهمزية وله مصنفات كثيرة ، وكان أبوه من دلاص وأمه من بوصير قرية بقرب دلاص بمديرية بنى سويف .

وبمدينة الاسكندرية كنائس كثيرة المشهور منها ثلاث عشرة كنيسة ، عشر منها للنصارى وثلاث لليهود .

بحيرة مريوط : حفرت هذه البحيرة فى العصر الفرعونى وكان ماء النيل يأتى اليها من الجهة القبلية والبحرية فتسير فيها السفن بأنواع البضائع والتجارة . وكان يخرج من البحيرة عدة فروع منها ما هو للرى ومنها ما هو للملاحة والرى معاً ، ويقول المقريزى[1] ان الماء

---

(١) المقريزى جـ ١ ص ٢٧٣

كان يصل إلى البحيرة عن طريق خليج الحافر ، ولا تختلف سعة البحيرة الآن عما كانت عليه قديما إلا أن السفن لا تجرى فيها بكثرة كما كان الحال فى العصور السابقة . وكانت البحيرة تجف فى بعض الأحيان ، كما حدث سنة ١٨٠١م[1] حين جفت جفافا تاما ، ثم ملئت بالمياه المالحة الواردة من قطع (أبو قير) . فقد حدث عندما جاءت الحملة الفرنسية إلى مصر أن حاصر الأسطول الانجليزى شواطىء الاسكندرية ورابطوا فى منطقة (أبو قير) وعمدوا إلى قطع جسر بحيرة المعدية بقصد منع الامدادات والذخيرة التى كانت تأتى للجيش الفرنسى من القاهرة ، فامتلأت البحيرة بالماء المالح ودخل فيها كثير من السفن الانجليزية . ولما رحل الجيش الفرنسى والأسطول الانجليزى عن مصر سد القطع فجفت البحيرة قليلا . وفى سنة ١٨٠٧ قطع الانجليز السد مرة ثانية بعد انهزامهم فى موقعة رشيد ، وبعد خروجهم من مصر سد القطع مرة أخرى وبقى على ذلك حتى الآن .

وذكر استرابون أنه كان يوجد بالبحيرة ثمانى جزر والمعروف منها الآن سبعة الأولى جزيرة الطفلة والثانية يقال لها كوم الحمار وكوم الخرز والثالثة تسمى جزيرة السعران وهى تجاه كفر الدوار وينضم إليها كوم الويلى وكوم العبسة وقد دلت آثارها على أنها كانت أكبر الجزائر ، والرابعة تقع تجاه بركة أبى الخير على يمين المتوجه إلى الاسكندرية . أما الجزر الثلاث الباقية فتقع فى المكان المعروف باسم ذراع البحر .

وعلى البحيرة توجد مدينة مريوط ، وهى من المدن القديمة فقد ذكرها هيرودوت كما ذكرها مؤرخو العرب ، وتقع بالقرب من الاسكندرية وموضعها الآن فى مواجهة بركة الشيخ أبى الخير . وكانت المدينة من أهم المراكز التجارية ، كما أنها كانت تقع فى منطقة استراتيجية هامة بالنسبة لمدينة الاسكندرية، فقد مر بها قيصر الروم كما مر بها عمرو بن العاص عند توجهه لفتح الاسكندرية ، وفى القرن التاسع عشر كانت الطريق الذى سلكته جيوش الحملة الفرنسية فى طريقها من الاسكندرية إلى القاهرة .

ترعة الاسكندرية[2] : كانت ترعة الاسكندرية تمر فى خط يكاد يكون هو خط ترعة المحمودية الحالية وعند حجر النوتية تقريباً كانت تتفرع إلى فرعين ، فرع منها واسمه ترعة كانوب وكان يمتد بمحاذاة شاطىء البحر الأبيض ليغذى مدينة كانوب .

---

(١) الخطط التوفيقية جـ ١٥ ص ٤١

(٢) المقريزى جـ ١ ص ٢٧٣

وهى مدينة أبو قير ، التى سميت بهذا الاسم لأن رفات الأنبا كير نقلت ودفنت بها ، وذلك فى القرن (١٥ م) ، والفرع الثانى يمتد إلى الاسكندرية وكان اسمه ترعة الاسكندرية . وكانت هذه الترعة الأخيرة تدور حول المدينة من الجنوب وتصب فى ميناء كيبوتوس الداخلية بالقرب من مصب ترعة المحمودية الحالى ، كما كان لها فرع آخر يصب فى الميناء الشرقى ، وكان هذا الفرع يمر فى خط يكاد يكون هو خط ترعة الفرخة الحالية التى تغذى المدينة الحديثة بمياه الشرب .

وكانت ترعة الاسكندرية دائماً محل عناية ورعاية جميع الملوك والولاة الذين توالوا على حكم مصر فى العصر البطلمى والرومانى والاسلامى . ولكن الثورات والفتن التى سادت مدينة الاسكندرية فى العصر الاسلامى والتى انتهت بطمى فرع النيل الكانوبى فى القرن الثانى عشر الميلادى وعجز الحكومة عن كسح هذا الطمى ومداومة أعمال الصيانة ، كل هذه العوامل أدت إلى ردم ترعة الاسكندرية . وفى العصر المملوكى أعاد السلطان الأشرف فتح ترعة الاسكندرية وأصلحها وأطلق عليها اسم الترعة الأشرفية وجعل فمها عند مدينة الرحمانية . وبعد انقضاء العصر المملوكي أهملت الترعة الأشرفية فردمت مرة أخرى وبقى الحال على ذلك حتى كان سنة ١٨١٧ فأنشئت ترعة المحمودية فى نفس مكان ترعة الاسكندرية تقريبا . وقد سميت بهذا الاسم نسبة إلى السلطان محمود العثمانى ، وكان الغرض من إنشاء هذه الترعة هو إمداد المدينة بمياه النيل للشرب ، وإيجاد طريق ملاحى بين الاسكندرية وباقى أنحاء القطر .

* * *

محافظة دمياط

مدينة دمياط من ثغور مصر القديمة على الشاطىء الشرقى لفرع النيل المعروف بفرع دمياط ، وبينها وبين مصب هذا الفرع فى البحر الأبيض ١٥ كيلو متراً واسمها القبطى Tamiat ومنه اسمها العربى .

وكانت دمياط القديمة تقع إلى الشمال من دمياط الحالية ونقلت إلى مكانها الحالى منذ سنة ٦٣٣ هـ . وهى من المحافظات القديمة التى تولى إدارتها محافظ باعتبار أنها من الثغور التى أنشئت سنة ١٨١٠ م . وفى سنة ١٩٠٦ ألغيت محافظة دمياط وألغى مركز فارسكور

وضمت بلاده إلى دمياط وجعلت مركزاً واحداً باسم مركز دمياط وقاعدته مدينة دمياط ولكن هذا التغيير لم يدم طويلا ففى سنة ١٩٠٩ أعيدت محافظة دمياط وجعلت فارسكور[١] قاعدة له .

وقد خضعت مدينة دمياط للحكم الاسلامى منذ فتح العرب مصر ، فقد ورد فى كتاب فتوح البلدان للبلاذرى : لما فتح عمرو بن العاص الفسطاط ، وجه عمير بن وهب الجمحى إلى تنيس ودمياط وتونه ودميره وشطا ودقهله وتنا وبوصير ، فغلب على أرضها وصالح أهل قراها على مثل حكم الفسطاط .

ومنذ أن دخل العرب مصر ، أخذت بعض القبائل العربية تنزح اليها لاستيطانها وكان بعضهم قد قدم مع عمرو بن العاص . وجاء البعض الآخر بعد ذلك وكانت لهم عدة اقطاعيات فى جميع الولايات والأعمال . فانتقلت بطون من قريش ، ومنهم قوم من نصر ابن معاوية من هوازن سكن حول دمياط وتنيس ، ونزل بنو نصر فى وسط الدلتا ، ومنذ سنة ٦٤٢ م بدأت دمياط تتعرف إلى العرب المهاجرين اليها من شبه الجزيرة العربية ، وإلى المرابطين من رجال الجيش الفاتح ، كما بدأت بناية المساجد بها ، (ولا يزال يوجد بدمياط اليوم مسجد قديم يسمى جامع فاتح ، يقال أنه يرجع إلى عهد عمرو بن العاص ، جدد عدة مرات فاندثرت معالمه الأثرية) . على أنه من الواضح أن العرب لم يجدوا فى دمياط وتنيس وسائر جزر بحيرة المنزلة ما يرغبهم فى الهجرة اليها فى جموع كثيرة ، ولعل ذلك راجع الى اشتغال أهلها بالملاحة والصناعة وهى حرف تركها العرب لأربابها ، جرياً على السياسة التى استنوها لأنفسهم ، وهى ترك الحرف والصناعة والادارة فى أيدى أهلها وأن يتولوا هم الاشراف والحرب ، ولذلك فقد ظلت أكثرية أهل دمياط حتى القرن العاشر الميلادى من القبط . وشملت كورة دمياط مثلثا شمالياً يشطره فرع دمياط شطرين ويحده البحر الأبيض المتوسط من شماله وجانبيه ، فكانت بذلك تشمل مساحة من محافظتى الرقهلية والغربية الحاليتين . وكان يدخل فى زمامها من البلدان ، شطا وبورة البستان ، وفى شرقها كورة تنيس وحاضرتها مدينة تنيس ببحيرة المنزلة وإلى غربها كورة البجوم وجنوبها كورة دقهلة ، وقد ظل هذا التقسيم الادارى على حاله حتى أوائل العصر الفاطمى .

---

(١) القاموس الجغرافى ج ١ ص ٨

وقد لاقت مدينة دمياط الشيء الكثير من غارات الروم المدمرة المتوالية وكانت أولاها سنة ٩٠ هـ والثانية سنة ١٢١ هـ . ويصف المقريزى [١] الغارة الأولى بقوله : وما زالت مدينة دمياط بين المسلمين إلى أن نزل عليها الروم فى سنة ٩٠ هـ فأسروا خالد بن كيسان (واليها من قبل الدولة الأموية) وكان على البحر هناك وسيروه إلى ملك الروم ، فانفذه الى أمير المؤمنين الوليد بن عبد الملك من أجل الهدنة التى كانت بينه وبين الروم » .

وعلى الرغم من فشل الدولة الرومانية فى هذه الحملة ، إلا إن أساطيلها عادت ثانية إلى دمياط بعد نحو ثلاثين سنة فى خلافة هشام بن عبد الملك ، وقد جاء فى خطط المقريزى أن مراكب الروم كانت ثلاثمائة وستين مركباً وأنهم قتلوا وسبوا وذلك فى سنة ١٢١ هـ . ويرجع السبب فى هذه الغارات التى كانت تشنها الدولة الرومانية الشرقية بين الحين والحين إلى أنها لم تنس منذ أن أخرجت من مصر ، أنها فقدت أكبر ولاياتها وأكثرها خيراً . فظلت تتطلع إلى استردادها ، فكانت محاولتها الأولى فى القرن السابع الميلادى بعد الفتح ثم أغار أسطولهم مرتين على دمياط فى القرن الثامن الميلادى . ثم عادوا فغاروا عليها ثلاث مرات فى القرن التاسع ومرة أخرى فى القرن العاشر ، وانتهت تلك الغارات كلها بالفشل ، ولكنها أدت إلى عناية الخلفاء وولاة مصر بتحصين الموانى وتزويدها بالحاميات المرابطة .

وفى القرن التاسع الميلادى ، فى عهد الدولة العباسية ، قسم الوجه البحرى الى ثلاثة أقاليم بدلا من الاقليمين الكبيرين (وهما الحوف والريف) ، ففصل من الحوف بعض الكور وأطلقوا عليها اسم (الحوف الشرقى) ، وكذلك فصلت بعض الكور من شرق الريف وأطلقوا عليها اسم (الحوف الغربى) ثم ضم ما فصل من الحوف والريف وجعل منه إقليما ثالثاً ، عرف باسم (بطن الريف) وكانت كورة دمياط جزءاً من بطن الريف . ثم عادوا فقسموا بطن الريف إلى قسمين سمى الشرقى منهما باسم بطن الريف وأما الغربى فسمى (الجزيرة) وبقيت دمياط كما كانت جزءاً من بطن الريف [٢] .

ولما تولت الدولة الفاطمية كان أول ما وجهت اليه عنايتها بعد استقرار الأمور ، هو وضع نظام جديد للضرائب ، وتحصيل ما تأخر منها . فقد جمع من دمياط وتنيس

---

(١) المقريزى جـ ١ ص ٣٤٤

(٢) القاموس الجغرافى جـ ١ ص ٨

والاشمونين فى يوم واحد من سنة ٩٧٣ م أكثر من مائتين وعشرين ألف دينار ، وذلك أمر لم تعهده مصر من قبل ، وقد أدت حالة الهدوء والاستقرار التى نعمت بها البلاد فى العصر الفاطمى إلى ازدهار الصناعة والتجارة ولا سيما فى المدن العريقة كدمياط ومدن بحيرة المنزلة ، التى اشتهرت منذ أقدم العصور بصناعة المنسوجات الجميلة ، والتى أفرد لها كل من تكلم عن مصر من مؤرخى العصور الوسطى صفحات طوال يعدد فيها أنواع منسوجات دمياط وخاماتها وطرزها . وأثمانها وما إلى ذلك .

ذكر المقدسى[1] ، وأما الثياب الشطوية (شطا قرية بين دمياط وتانيس) ، فلا يمكن أن ينسج منها شىء إلا بعد ما يختم عليها بختم السلطان ، ولا تباع إلا على يد سماسرة قد عقدت عليهم ، وصاحب السلطان يثبت ما يباع فى جريدته ، ثم تحمل إلى من يطويها ، ثم إلى من يشدها بالقشر ، ثم إلى من يشدها بالسنط ، وإلى من يحزمها وكل واحد منهم له رسم يأخذه ، وكل واحد يكتب على السفط علامته ، ثم تفتش المراكب عند إقلاعها .
ويتحدث ابن حوقل [2] عن دمياط وبحيرتها عام ٩٧٦ م فيقول : ومن جليل مدن مصر تنيس ودمياط ، وهما مدينتان لا زرع فيهما ولا ضرع لأنهما جزيرتان فى وجه النيل ، غربهما وجنوبهما وشرقيهما وشماليهما البحر . وبهما يتخذ رفيع الدبيقى والشرب ، والمصبغات من الحلل السنية التى ليس فى جميع الأرض ما يدانيها فى الحسن والقيمة ، وربما بلغ الثوب من ثيابهم مائتى دينار إذا كان فيه ذهب وما لا ذهب فيه يبلغ المائة دينار . وأصلها من الكتان .
كذلك وردت أسماء مدن وقرى كثيرة تابعة لناحية دمياط ، اشتهرت بصناعة المنسوجات ، مثل دبيق وتونة ودميرة وغيرها من مدن جزائر بحيرة المنزلة . فيذكر الكندى [3] أنه كان يصنع هناك (بناحية دمياط) الكتان الدبيقى والمقصور الشفاف والأردية وأصناف المناديل الفاخرة للأبدان ، والأرجل والمخاد والفرش المقلم والطراز ويبلغ الثوب المقصور منها خمسمائة دينار وأقل وأكثر .

ولم تقتصر نهضة دمياط وكورها فى العصر الفاطمى على الناحية الفنية والصناعية فحسب بل شملت كذلك الناحية الثقافية ، فقد كانت مساجد دمياط حافلة بطلاب العلوم الدينية

---

(١) المقدسى ص ١٩٥
(٢) ابن حوقل ص ٢٣٧
(٣) الكندى ص ١٧

وبالزوار من الفقهاء والشعراء والكتاب الذين سجل بعضهم مشاهداته كما فعل شمس الدين المقدسي في كتابه (أحسن التقاسيم) أو من القضاة مثل أحمد بن مطرف أبو الفتح العسقلاني الذي تولى القضاء في دمياط سنة ٤١٢ هـ. ومن أدباء دمياط في القرن الثاني عشر الميلادي، أشهر شعراء الدولة الفاطمية، ابن قادوس الدمياطي، والأنبا ميخائيل أسقف دمياط في سنة ١١٨٤ م وله عدة مؤلفات أخلاقية ودينية.

وقبيل نهاية الدولة الفاطمية، بدأت دمياط فترة جديدة في تاريخها الاسلامي، هي فترة الجهاد ضد الحروب الصليبية، فقد تعرضت دمياط لغزو روجر ملك صقلية سنة ١١٥٥ م، في عهد الخليفة الفائز الفاطمي ووزيره ابن زريك، ولم تمنع أسوار دمياط أو حصنها الذي بناه المتوكل من اقتحام روجر لها لضعف الحامية، وعلى الرغم من ذلك فانه لم يستطع البقاء فيها طويلا وانسحب. وفي سنة ١١٧٠ عاود الصليبيون الكرة مرة أخرى، فقد أرسل إمبراطور القسطنطينية أسطولا لحصار دمياط تمهيداً لفتح مصر، فاستنجد الخليفة العاضد، (آخر خلفاء الفاطميين) بنور الدين زنكي، فأرسل اليه جيشاً بقيادة أسد الدين شيركوه وابن أخيه صلاح الدين الأيوبي. ولما علم بذلك الفرنج وهم حول دمياط خشوا على أملاكهم التي استولوا عليها على سواحل الشام من غزو نور الدين فاضطروا إلى الرحيل عن دمياط، بعد أن غرق لهم عدد من المراكب وتفشى بينهم المرض، ويروى المقريزي أن صلاح الدين انفق على صد هذه الحملة أكثر من نصف مليون دينار.

ولما استقل صلاح الدين بحكم مصر، وكانت الأنباء قد وصلت باستعداد جديد للفرنج لغزو مصر، أمر بتحصين قلعة تنيس وأسوارها، وترميم سور دمياط وتزويد برجيها بالمقاتلة. وفي سنة ٥٧٧ هـ (١١٨١ م) سار صلاح الدين إلى دمياط ليشرف بنفسه على إصلاح سورها وأبراجها وسلسلتها، وقبل وفاته بعام واحد (٥٨٨ هـ = ١١٩٢ م) أمر السلطان صلاح الدين بإخلاء مدينة تنيس ونقل أهلها إلى دمياط وقطع أشجار وبساتين دمياط وأخرج النساء منها ثم حفر خندقا حول دمياط وأنشأ جسراً عند السلسلة لوصل البرج بها. وخلت تنيس إلا من المقاتلة وانتقلت مناسجها وصناعها إلى دمياط ورحل بعضهم إلى المحلة الكبرى وكانت هذه الهجرة مقدمة للضربة القاصمة التي حلت بهذه المدينة عندما أمر الملك الكامل ابن العادل سنة ١٢٢٨ م بهدمها فزالت من الوجود حتى لا تقع في أيدي الصليبيين الذين ظلوا يهددونها عدة قرون.

ولما اتضح للصليبيين من انتصارات صلاح الدين عليهم فى الشام واستعادته لبيت المقدس وغيره من المدن ، أن مصر هى حصن الاسلام ومورد الرجال والسلاح ، قرروا فى سنة ١٢١٨ الذهاب إلى دمياط للاستيلاء عليها على اعتبار أنها مفتاح مصر وقلعتها الأمامية ، فاستولوا عليها وظلوا بها ستة عشر شهراً ولكنهم اضطروا أخيراً للرحيل عنها سنة ١٢٢١ م بعد أن عقدوا الصلح مع السلطان الكامل . وعاد الصليبيون بعد ثلاثين سنة يحاولون الاستيلاء على مصر تمهيدا للاستيلاء على بيت المقدس وبلاد الشام ، فجاءت حملة لويس التاسع سنة ١٢٤٩ إلى دمياط ، وانتهت هذه الحملة بالفشل الذريع وأسر فيها لويس التاسع وأنزلوه دار ابن لقمان فى المنصورة ولم يفك أسره إلا بعد دفع فدية كبيرة ، وخرجت آخر فلول هذه الحملة من مصر فى مايو سنة ١٢٥٠ م . وكان من أثر هذه الحملات المستمرة على دمياط والتى انتهت بغزوة لويس التاسع أن تخربت المدينة ، مما دعا إلى إنشاء بليدة صغيرة بالقرب منها تسمى بالمنشية [١] وكانت مدينة ذات أسواق وحمامات وما زال بدمياط حتى اليوم حى بهذا الاسم يعرف بالقرية القديمة .

ولما تولى بيبرس البندقدارى أمر الدولة المملوكية ، رأى ان دمياط الجديدة لم تعد تحميها أسوار منيعة ، وان السلاسل الحديدية التى تعترض النهر لا تقوى وحدها على المقاومة فأمر فى سنة ١٢٦١ م بسد مصب النيل بالأحجار حتى لا تستطيع سفن الأعداء أن تعبر إلى داخل البلاد . وكان من أعمال بيبرس المدنية ان اهتم بالطريق الزراعى الذى يصل دمياط بالقاهرة وأنشأ به ست عشرة قنطرة ، كما نظم البريد على ظهور الابل والجياد . وكانت أهم الخطوط البريدية فى عصره ، الخط بين القاهرة ودمياط وبين القاهرة وكل من أسوان والاسكندرية ، وكان يخرج البريد من دمياط الى غزة ومنها تتفرع سائر خطوط البريد فى بلاد الشام وترسل المراسيم السلطانية إلى أنحاء السلطنة . كما كانت هناك خطوط جوية بواسطة الحمام الزاجل . وكانت مدينة دمياط فى القرن الخامس عشر ملجأ للمهاجرين من العراق بعد ان استولى عليها التتار . ويقول ابن إياس [٢] : وكانوا (أهل العراق) يجتمعون ويترافقون ويخرجون من دمشق إلى مصر ، فكان أكثرهم ينزل إلى البحر ، ويجىء من جهة دمياط ويدخلون مصر وهم فى أتعس حال .

---

(١) معجم البلدان ج ٤ ص ٨٥

(٢) ابن اياس ج ٢ ص ٣٠

ويروى السيوطى[1] فى حوادث سنة ٨٢٨ هـ (١٤٢٥) فى أوائل حكم برسباى : وقع بدمياط حريق عظيم حتى احترق قدر ثلثها وهلك بها من الناس والدواب شىء كثير ومن سلاطين المماليك الذين أقاموا بمدينة دمياط الملك المنصور ، الذى خلعه السلطان اينال (١٤٥٣ م) ونفاه إلى الاسكندرية ، ثم نقله السلطان قايتباى مكرما إلى دمياط وبقى بها حتى توفى سنة ١٤٨٧ حيث نقلت جثته إلى القاهرة . وقد زار المؤرخ المشهور تقى الدين المقريزى دمياط فى القرن الخامس عشر ، ووصفها شعرا ونثرا فى خططه حيث أفرد لها فصلا شائقا ، وقد جمع فى هذا الفصل مجمل ما وقع لها من أحداث فى نحو عشرين صفحة وأشار إلى المصادر التى نقل عنها ، ولكنه لم يفصل بين الحقيقة والخرافة .

ولما ضعفت دولة المماليك الشراكسة فى القرن السادس عشر ، أضحت دمياط منفى للمتمردين من المماليك ، وأهمل أمرها كما أهمل غيرها من الموانى ووقفت حركة التصدير والتوريد نتيجة لفرض الضرائب الباهظة ولانتشار الظلم وعبث القراصنة الأجانب بالشواطىء ، وظلت كذلك حتى دخل العثمانيون مصر واستولوا عليها سنة ١٥١٧ م .

وقد عانت دمياط فى العصر العثمانى ما عانته البلاد كافة ، ولكنها كانت نسبيا بمنأى عن الفتن وتقاتل المماليك وأحزابهم ، والصراع بين الهيئات الثلاث الحاكمة ، (وهى الوالى والديوان والمماليك) ، ولهذا انصرفت إلى تجارتها وصناعاتها بالرغم من تدهور الاحوال الاقتصادية ، نسبيا نتيجة لاهمال أمر الميناء وانسداده بالرمال ، ومع كل هذا فإن الحركة التجارية فى الميناء لم تنقطع ، فقد كان يصدر منها الأرز والمنسوجات والقمح والبطارخ والملح كما كانت ترد اليها السفن محملة بالأخشاب والصابون والتبغ والفواكه والنقل .

ولما جاءت الحملة الفرنسية إلى مصر سنة ١١٩٨ ، أدلت دمياط بدلوها فى الدفاع عن كيانها ، والذود عن استقلالها ، ولكنها اضطرت فى النهاية إلى التسليم سنة ١٨٠٠ . وبدأ نابليون فى تحصين منطقة دمياط وإنشاء القلاع بها ، ويحدثنا على مبارك[2] فى خططه عن الحصون التى أنشأتها الحملة الفرنسية فى دمياط وما تبقى منها فى عصره فيقول : إن قلعة البوغاز الكبرى أنشئت زمن دخول الفرنساوية فى القرى القديمة المسماة بعزبة البرج ، التى هدمها بونابرت لقيام أهلها ليلا على عساكره وذبحوا منهم جملة ، وبنى بأنقاضها تلك

---

(١) السيوطى ص ٩٦

(٢) الخطط التوفيقية جـ ١٠ ص ٧٧

البقعة ، ولم يبق من آثارها إلا الجامع الذى يوسطها ومنزل صغير . وفى جهتى البوغاز شرقاً وغرباً ، قلعتان أنشئتا فى زمن الفرنساوية بصورة الاستحكامات الدائمة . وقد تولى الجنرال كليبر الاشراف على تحصين دمياط خشية استيلاء الانجليز أو العثمانيين عليها .

وكانت دمياط يوم تولى محمد على الحكم سنة ١٨٠٥ أهم الثغور المصرية وأعظمها تجارة بل إنها كانت أعظم من الاسكندرية شأناً ، فلما أصلح ميناء الاسكندرية وحفرت ترعة المحمودية ، أخذت السفن التجارية الكبرى تفد اليها ، وكان من نتيجة هذه المشروعات عودة العمران والحركة التجارية إلى الاسكندرية ، والقضاء على معظم تجارة دمياط ورشيد ، وأصبحت تجارة دمياط مقصورة على ما تحمله اليها المراكب الشراعية التى تقف خارج البوغاز المسدود بالرمال . وقد زاد فى إهمال ثغر دمياط إنشاء الخط الحديدى بين الاسكندرية والقاهرة ، فأصبحت الاسكندرية ميناء مصر الأول كما زاد فى إضعاف شأن ميناء دمياط إنشاء بورسعيد عند مدخل قناة السويس ، كذلك كان لإنشاء الخط الحديدى الذى وصل بين مدن فلسطين وبين القنطرة عن طريق العريش أثر ملحوظ مما أصاب ميناء دمياط من الاهمال وإضعاف حركته التجارية والعمرانية .

* * *

محافظة بورسعيد

أنشئت مدينة بورسعيد سنة ١٨٥٩ فى الموضع الذى اختاره المهندس دى لسبس حين ابتدأ فى حفر قناة السويس . وكانت بورسعيد قاعدة محافظة القنال وفى سنة ١٩٦٠ أصبحت محافظة مستقلة وأصبح على القنال ثلاث محافظات هى بورسعيد والاسماعيلية والسويس .

وقد جاء فى الخطط التوفيقية [١] أن مدينة بورسعيد بنيت فى منطقة قديمة معروفة فهى تقع على بعد ٢٨ كيلومتراً غربى مدينة الطينة ، التى كانت تقوم فى النهاية الشرقية لبحيرة المنزلة . وجاء فى معجم البلدان لياقوت [٢] : الطينة بليدة بين الفرما وتنيس من أرض مصر . « ويضيف على مبارك فى خططه : أنها كانت من أعظم مدن مصر وكانت تعرف أولا باسم (بيلوز) ومعناها الطينة ، ومن ثم فقد أطلق عليها العرب اسم الطينة . كذلك

---

(١) الخطط التوفيقية ج ١ ص ٧٧

(٢) معجم البلدان ج ٢ ص ٣٧

ذكرها استرابون وقال أنهـا كانت تبعد عن البحر قدر ميلين وانها كانت عامرة وبها الحصون المنيعة ، وذلك لوقوعها على حدود مصر الشرقية . ويضيف على مبارك ، ان مدينة الطينة لاقت الكثير من أهوال الحروب التى تعرضت لها مصر طوال العصور التاريخية ، من العصر الفرعونى والبطلمى والرومانى ، والاسلامى ، ومع ذلك ظلت عامرة آهلة بالسكان حتى الحروب الصليبية (فى القرن الثالث عشر الميلادى) فقد أغار عليها الصليبيون ونهبوها وتكررت غاراتهم ونهبهم وسلبهم لها ، مما أدى إلى خرابها ، ولم يبق بها غير قلعة واحدة من القلاع التى بناها العرب وتعرف باسم قلعة الطينة وكانت تقع عند مدخل بحر الطينة لمنع دخول المراكب اليها ، ومن الآثار التى ترجع إلى العصر الاسلامى ببلدة الطينة ، سور مربع يقع على تل عال ، وبجهته البحرية باب يفتح على البحر ، ويعرف هذا السور باسم القصر . وذكر ابن اياس[1]: انه كان بها : (أى الطينة) قلعة وناس متوطنون إلى سنة اثنتين وعشرين وتسعمائة (١٥١٧ م) حتى الفتح العثمانى فقد أشيع فى تلك السنة بعد موت السلطان الغورى ان أوائل عساكر ابن عثمان (السلطان سليم الأول) قد وصلوا إلى قطيا وتملكوا قلعة الطينة وهرب من كان بها من السكان . وجاء فى نزهة الناظرين : أنها لم تزل موجودة إلى أول القرن الثانى عشر الهجرى (الثامن عشر الميلادى) ويروى قصة لأحد وزراء الدولة العثمانية وأنه نفى إلى مدينة الطينة .

مما تقدم نستطيع أن نقول ان مدينة بورسعيد ليست من المدن الحديثة الناشئة بل هى قديمة وموغلة فى القدم ، وإنما الحديث هو اسمها فقط . لأنها حلت محل ثغر بيلوز فى العصر القديم وثغر الطينة فى العصور الوسطى والتى امتدت حتى القرن الثامن عشر ، ثم اضمحلت فى القرن التاسع عشر وأصبحت قرية صغيرة للصيادين عرفت باسم اشتوم الجميل ، وكانت قرية اشتوم الجميل هذه تقع إلى الغرب من بورسعيد عند نشأتها ، أما الآن فهى منطقة عزيزة فى بورسعيد يشغلها المطار المعروف باسم مطار الجميل .

ويصف على مبارك فى خططه عن بورسعيد فيقول : وكانت أرضها التى هى عليها الآن قطعة من بحيرة المنزلة فيما عدا أجزاء قليلة منها ، وهو الجزء القريب من البحر (البحر

---

(١) ابن اياس جـ ١ ص ٣٢٣ ، جـ ٢ ص ٩٨ ، جـ ٣ ص ٦٢

الأبيض المتوسط) وقد أقيم عليه مساكن للشغالة المتوطنين بمزاولة الأعمال هناك ، ثم أخذت رقعة المدينة تزداد شيئاً فشيئاً وذلك نتيجة لردم الأجزاء المنخفضة منها بالطين الناتج من حفر القناة ، وكلما ظهرت أرض جديدة ظهرت عليها المساكن حتى كان بها سنة ١٨٦٣ م مائة وخمسون بيتا غير مائة وخمسون عشة وجامع قديم يعرف باسم جامع قرية العرب (لعلهم يعنون بقرية العرب الطينة) .

وجاء فى الخطط التوفيقية ان ميناء بورسعيد يعد من أوائل العمائر فى مصر التى بنيت بالأحجار الصناعية . ويقول فى ذلك : ولما كانت الجبال التى تستخرج منها الصخور اللازمة للعمل بعيدة عن بورسعيد بعدا بينا يلزم للنقل منها اليه صرف أموال جسيمة جدا اخترع لذلك عمل صخور صناعية من رمال البحر والجير المائى المعروف بجير (توى) وماء البحر ، وكانت الأحجار الناتجة تقرب من الصوان فى المتانة ، وكان قدر الصخرة عشرة أمتار مكعبة ووزنها عشرون طنا . ويضيف : ولما قرب انتهاء أشغال القنال رأوا ضرورة تنوير ساحل البحر فيما بين الاسكندرية وبورسعيد ببناء فنارات فى نقط معينة من الساحل ليهتدى بنورها السفن التى ترد على القنال ، فعمل أربعة فنارات واحد فى ساحل رشيد وآخر فى البرلس على الرأس الخارج فى البحر والثالث بقرب برج العزبة عند مصب فرع دمياط والرابع فى مدينة بورسعيد وقد جعل ارتفاع الفنارات الأربعة ٥٥ مترا . ونور كل واحد منها يرى عن مسافة عشرين ميلا (أى ٣٦ كيلو متراً تقريباً) . وأنوارها متواصلة بمعنى أنه متى غاب من المراكب نور أحدها ترى نور الآخر فلا ينقطع عنها الاهتداء بأنوارها فى سيرها من الاسكندرية إلى بورسعيد . ولأجل التمييز بينها وعدم التباس أحدها بالآخر لرائيها ، جعل لكل واحد منهـا وضع يخصه (من حيث الاضاءة) ففنار رشيد آلاته متحركة بدوران بطىء وأنواره متنوعة إلى أبيض وأحمر تتغير الحمرة إلى بياض وعكسه بعد كل عشر ثوان . وفنار البرلس ثابت الآلات بنور واحد ويضىء فى خمسة أثمان الأفق ، أما آلات فنار دمياط فمتحركة ونوره أبيض غير ثابت بل يظهر ويختفى بعد كل دقيقة ، وفنار بورسعيد مضطرب مرتعش كهربائى له بعد كل ثلاث ثوان غمضة وانفتاح (أى أن تياره متقطع) .

***

محافظة الاسماعيلية

كانت مدينة الاسماعيلية فى أول أمرها (كما جاء فى الخطط التوفيقية) عبارة عن اختصاص كان يقيم بها عمال ترعة البرزخ من مهندسين وغيرهم ولما اتسع ميدان الأعمال وكثر العمال قامت بقربها قرية ريفية تعرف بقرية العرب .

وجاء فى دائرة المعارف [1] ، أن مدينة الاسماعيلية قامت على أنقاض قرية كانت تسمى التمساح ويؤيد هذا القول كل المؤرخين المحدثين [2] ، فيقول محمد رمزى ، وفؤاد فرج أن موقع مدينة الاسماعيلية الحالى كان عبارة عن تلال مرتفعة تعرف باسم تلال الجسر وتقع إلى شمال بحيرة التمساح ، ولما ابتدأ العمل فى مشروع قناة السويس نشأت قرية عرفت فى أول الأمر باسم قرية التمساح وفى عهد الخديو اسماعيل سميت الاسماعيلية .

وبحيرة التمساح هذه عبارة عن حوض هائل منخفض وسط البرزخ تتسرب اليه مياه النيل فى الفيضانات العالية من ترعة الوادى عن طريق وادى الطميلات . ولكنها بعد فتح القناة صارت ميناء لمدينة الاسماعيلية وأقيمت بها أحواض واسعة وأرصفة وورش وغيرها مما يلزم لشئون الملاحة ، وكان افتتاح الميناء يوم ١٨ نوفمبر سنة ١٨٦٩ م وهو خاص بالسفن إذ كان يرسو به أكثر من خمسين باخرة من جميع الجنسيات وعليها الملوك وكبار الشخصيات العالمية .

أما مدينة الاسماعيلية فكان لها ولا يزال مركز ممتاز ففى أثناء تنفيذ مشروع قناة السويس كانت — وهى لا تزال ناشئة — المركز الرئيسى لجميع الأعمال وبها مقر المهندس المقيم ، كما كان بها بعد ذلك مركز إدارة الشركة بمصر وما يتبعه من مكاتبها الرئيسية ومخازنها . وكان من المنظور وقد تأسست سنة ١٨٦٣ أن تأخذ فى النمو بخطوات واسعة ولكن كثرة المستنقعات فى ضواحيها وتوالد ناموس الملاريا فيها حد من نموها بضع سنين . وما وافت سنة ١٨٧٠ حتى أصبحت مدينة الاسماعيلية مدينة الحدائق والمبانى الفخمة تزخر بقصورها وبأشجارها وفاكهتها .

وكانت مدن هذه المنطقة الواقعة على مدى قناة السويس فى حاجة قصوى إلى مياه النيل العذبة الصالحة للشرب ، فان من هذه البلاد ما حرم من مياه النيل كالسويس منذ ردم خليج

---

(١) دائرة المعارف لفريد وجدى .

(٢) القاموس الجغرافى ج ١ ص ٦

أمير المؤمنين فى عهد أبى جعفر المنصور[1] (٧٧٥ م) . لذلك كان فى شق ترعة الاسماعيلية لتغذية هذه البلاد بمياه النيل تحقيق أمنية غالية لسكانها الذين حرموا منها أبدا طويلا . وقد كان إنشاء هذه الترعة من المشروعات الرئيسية التى نص عليها مشروع قناة السويس .

وقد استعملت ترعة الاسماعيلية أولا فى تغذية المدن الواقعة على قناة السويس ثم استعملت لرى الأراضى الواقعة بين ترعة الشرقاوية والصحراء وتبلغ نحو ١٨٠ ألف فدان وهى الى جانب ذلك طريق ملاحى هام .

ويبلغ طول هذه الترعة من القاهرة الى مدينة الاسماعيلية ١٥١ كيلو مترا ، وطول الفرع الجنوبى من الاسماعيلية إلى السويس ٨٧ كيلو مترا ، وطول ترعة العباسية التى تغذى مدينة بورسعيد بالمياه الحلوة تبلغ ٩٠ كيلو مترا . وتشق ترعة الاسماعيلية طريقها على الحد الفاصل بين الوادى والصحراء فتمر بمدينة بلبيس ثم الى بلدة العباسة ثم تخترق وادى الطميلات الى مدينة الاسماعيلية حيث تصب فى بحيرة التمساح . ويخرج منها قبيل وصولها المدينة فرعان أحدهما يتجه شمالا ويعرف باسم ترعة العباسية التى تغذى بورسعيد والقنطرة ومحطات القنال الأخرى بالمياه الحلوة . والآخر يتجه جنوبا ويسمى ترعة السويس .

ومتحف القناة بالاسماعيلية زاخر بالآثار التى عثر عليها أثناء حفر القناة وأهمها تماثيل تل المسخوطة وتماثيل الملك دارا (ملك الفرس) . وشواهد الترع التى أقيمت لتوصيل مياه النيل الى تلك المنطقة والتى كانت تقوم مقام ترعة الاسماعيلية الحالية منذ العهد الفرعونى ، وغير ذلك من الآثار التى كانت فى تلك المنطقة منذ أقدم العصور التاريخية . هذا بالاضافة الى آثار حفلات افتتاح القناة وما تركته الامبراطورة أوجينى من أدوات الزينة ومخلفات فرديناند دى لسبس .

وعلى بعد بضعة كيلو مترات الى جنوب المدينة يوجد نصب تذكارى أقيم تخليدا لذكرى الدفاع عن قناة السويس التى حاول الأتراك الاغارة عليها سنة ١٩١٥ ولكنهم فشلوا . وقد وقع الهجوم التركي فى المنطقة المعروفة الآن بمحطة طوسون ومزار سيدى النديك وهو مزار له شهرته بين سكان المنطقة .

ويتصل بالاسماعيلية طريق مصر فلسطين ، ذلك الطريق الحربى الذى نصت عليه المعاهدة الانجليزية المصرية سنة ١٩٣٦ . وقد ألغيت هذه المعاهدة أثناء العدوان

---

(١) المقريزى جـ ١ ص ٣٤٣

سنة ١٩٥٦ . ويبدأ هذا الخط من الشاطىء الشرقى للقناة مقابل مدينة الاسماعيلية إلى ناحية عوجه الحفير بالقرب من حدود فلسطين بطول ٢٢٣ كيلو متراً . وتصل من الاسماعيلية إلى بوابة هذا الطريق بواسطة معدية تجتاز عليها القناة من الغرب إلى الشرق . وهذا الطريق صالح لسير السيارات ذات الاطارات المفتوحة مهما يكن ثقلها . وينتهى الطريق على بعد ٧ كيلو مترات من عوجه الحفير بالقرب من الحدود المصرية الشرقية ، وعلى بعد ٢٠٠ كيلو متر من الاسماعيلية توجد نقطة بوليس الحدود المعروفة باسم (أبو عجيلة) .

وكانت الاسماعيلية تابعة إدارياً لمحافظة القنال ، وكانت تمثل قسما من أقسامها ، وهى تشتمل على عدة شياخات كالتمساح وفردان ونفيشة . كما تحتوى على نقطتى بوليس وهما نقطة أبو صوير ويتبعها السبع آبار الشرقية والغربية والمحسمة الجديدة والقديمة ونقطة فايد ويتبعها سرابيوم وفايد ، وظلت الاسماعيلية تابعة لمحافظة القنال إلى سنة ١٩٦٠ وفى سنة ١٩٦١ جعلت محافظة مستقلة وسيكون لوضعها الجديد أثره الطيب فى المستقبل القريب .

* * *

محافظة السويس

السويس بصيغة التصغير كما وردت فى الخطط التوفيقية [١] مدينة على الجانب الغربى لخليج السويس المسمى بالبحر الأحمر ، وثغر من ثغور مصر ، وفرضة لتجارات جزيرة العرب والهند والسودان . واقعة فى شرق القاهرة وقد خلفت مدينة القلزم . وجاء فى الخطط المقريزية [٢] : ان مدينة القلزم قد خربت ويعرف الآن (القرن الخامس عشر) موضعها بالسويس ، وان اسم القلزم كان باقيا لها من زمن الفاطميين .

وقد كان لمصر فى عصورها التاريخية ميناء عند النهاية الشمالية لخليج السويس ، ففى العصر الرومانى لما استمر انسحاب البحر الأحمر إلى الجنوب ، وانفصلت عنه البحيرات المرة ، كانت ميناء مصر الجنوبية هى مدينة « كليسما » التى سماها العرب مدينة القلزم وسموا بحرها بحر القلزم . ومدينة القلزم كما وصفها المقدسى [٣]: بلد يابس لا ماء ولا كلأ ولا زرع له . وكان الماء يحمل إلى أهله فى المراكب من موضع على بعد بريد يسمى السويس .

---

(١) الخطط التوفيقية جـ ١٢ ص ٦٩

(٢) المقريزى جـ ١ ص ٣٤٣

(٣) المقدسى ص ٥٨

وكانت القلزم نقطة عسكرية هامة على البحر الأحمر ، وان التل المرتفع القائم بجوار السويس لا يزال يعرف باسم قلعة القلزم . وفى القرن العاشر الميلادى نشأت قرية صغيرة جنوبى مدينة القلزم اسمها السويس ، وما لبثت أن طغت على القلزم وأصبحت هى ميناء مصر على البحر الأحمر . ويقول ياقوت (١) : أن السويس بليدة على ساحل بحر القلزم ، (البحر الأحمر) وهو ميناء أهل مصر إلى مكة والمدينة . بينها وبين الفسطاط سبعة أيام فى برية معطشة ، ويحمل اليها الميرة من مصر على ظهور الجمال ثم تطرح فى السفن ويتوجه بها إلى الحرمين .

وفى القرن السادس عشر ، كان الأتراك بعد احتلالهم مصر سنة ١٥١٧ م يشعرون بأنهم مهددون من جهة البحر الأحمر فكانوا يرسلون من القسطنطينية سفناً حربية كانت تصل إلى دمياط ورشيد ثم تفك قطعاً قطعاً وترسل براً على ظهور الجمال إلى السويس حيث يعاد تركيبها . ولم تكن السويس فى هذا العصر صالحة للاقامة بها لعدم توافر مقومات الحياة وقلة المياه العذبة بها . ولذلك اعتبرت موقعاً حربياً تقيم فيه حامية من الجند ، وقد بنى بها على أحد المرتفعات قلعة حصينة ، وأقيمت بها دار لصناعة السفن (ترسانة) . وتشير الخطط التوفيقية (٢) إلى ذلك فتقول : كان لها أهمية فى جميع العصور وفيها دائماً من طرف حاكم مصر رباط من العسكر المحافظين . ولها حاكم يقيم بها ومحل للجمرك يؤخذ فيه عوايد البضائع الواردة لمصر . وكان ينقل اليها من مصر على ظهور الابل المراكب التى يقتضى الحال انشاءها فى ميناها .

وكان يسكن السويس قليل من أهل الحجاز والطور ومصر وكانت بيوتهم مبنية من الدبش قليلة الارتفاع أكثرها من طبقة واحدة وفى بعض منها غرف قليلة يتخذونها من تقفيصات الخشب مملوء وسطها بالمونة والأحجار الصغيرة وهى المعروفة (بالسويسية) نسبة إلى السويس . وفى موسم الحج يرد اليها كثير من العرب لبيع أشياءهم ثم يعودون إلى أوطانهم لعدم وجود الماء العذب بها ، وكانوا يشربون من عيون مستملحة ، بعيدة عنها كعين غردقة وعين بهوق وعين موسى وقيل إنها خمس عشرة عيناً .

وكانت مدينة السويس وغيرها من البلاد الواقعة على منطقة قناة السويس الحالية تغذى

---

(١) معجم البلدان جـ ٥ ص ١٨١

(٢) الخطط التوفيقية جـ ١٢ ص ٩٥

بالمياه العذبة بعد الفتح العربي لمصر ، من قناة تعرف باسم خليج أمير المؤمنين ، ذلك أن عمرو ابن العاص بعد أن استتب له الأمر فيها استأذن الخليفة عمرو بن الخطاب فى حفر قناة تصل البحر الأحمر بالبحر الأبيض المتوسط مباشرة ولكن الخليفة رفض خشية أن يستخدم الروم هذه القناة فى أغراض عسكرية ضد العرب ، إلا أنه حين عم الجدب جزيرة العرب، أمر عمرو بن العاص بإعادة حفر القناة القديمة التى كانت تصل القلزم بالنيل مارة بالبحيرات المرة وبوادى الطميلات لإرسال الطعام والغلال إلى الحجاز .

وكانت هذه القناة قد أهمل أمرها وخفيت معالمها ، وقيل أن عمرو بن العاص استعان بمن يدله على موضعها من القبط وأجازه برفع الجزية عنه . وسرعان ما تم حفرها واستخدمت فى فيضان سنة ٦٤٤ م . وهكذا نعمت مدينة السويس وغيرها من بلاد المنطقة بالمياه العذبة . وظل خليج أمير المؤمنين ينتفع به حتى أمر الخليفة العباسى أبو جعفر المنصور بسده سنة ٧٥٣ م حين خرج عليه محمد بن عبد الله بن حسن بالمدينة ليقطع عنه الطعام . وقيل أن هذا الأمر نفذ فى الجزء الأخير من الخليج بمنطقة برزخ السويس فقط ، قبلى بحيرة التمساح ، وبذلك حرمت بلاد هذه المنطقة من مياه النيل .

وفى سنة ١٨٦٣ عادت إليها المياه العذبة من ترعة الاسماعيلية فعاد إلى مدينة السويس نشاطها وحيويتها وزاد عمرانها وعدد سكانها . وفى سنة ١٨٦٩ م افتتحت قناة السويس وأضحت مدينة السويس نقطة هامة فى الاتصال بين الشرق والغرب ومحطة عالمية لتغذية البواخر والمصانع بالمازوت . كما أن الحركة التجارية فى مينائها زادت زيادة كبيرة بسبب الصلات التجارية مع الهند ، واستراليا واليابان ، وما نشأ من علاقات تجارية مع موانى افريقيا الشرقية وهى من الناحية الادارية صارت محافظة مستقلة .

ويقول بعض الباحثين أن السويس كانت قبل فتح قناة السويس ذات قيمة تجارية كبيرة ، فكانت تجارة الهند والصين واليابان الذاهبة إلى أوروبا تنصب إليها ثم تحمل منها على الخطوط الحديدية إلى الاسكندرية ومنها توجه إلى أوروبا فكانت حركتها فى ذلك العهد نشيطة . أما بعد فتح القناة فصارت السفن تخترق القناة دون أن تعرج على السويس ولا ينزل إليها من البضائع إلا ما هو خاص بمصر ، لذلك اعترى هذه المدينة فتور تجارى بقيت معه بطيئة الحركة . وتنحصر قيمة السويس اليوم فى كونها المدينة المتوسطة بين مصر والحجاز فيجتمع بها حجاج بيت الله الحرام فى مواعيد مقررة من كل عام ، فتروج تجارة

المدينة وتنشط حركتها وتكون أشبه بمعرض لكثير من الأمم . ولكن النظام الذى وضعته الحكومة مراعاة للصحة العامة أفضى إلى أنه لا يشخص الحاج إلى السويس إلا قبيل سفره بيوم واحد ، وقد كان الحاج قبل ذلك يمكث فى السويس عدة أيام ، فعاد هذا كله بالكساد على التجارة .

قناة السويس : وفى سنة ١٨٥٤ حصل المهندس الفرنسى فرديناند دى لسبس من الخديو محمد سعيد باشا على امتياز بحفر قناة السويس واستغلالها لمدة ٩٩ سنة تبدأ من يوم افتتاح القناة ثم استبدل سنة ١٨٥٦ بعقد آخر أتم وأكثر وضوحا ، وكانت شروطه الامتيازية مجحفة بمصر كل الاجحاف . ويكفى أن تضع الشركة يدها على مساحة واسعة من الأراضى المصرية تكاد تكون شبه مستعمرة فرنسية شرقى الدلتا بلا مقابل وبدون ضرائب وأن يستغل المناجم والمحاجر بلا ثمن ولا ضريبة ولا تعويض . وفى سنة ١٨٥٨ م تم تأليف شركة القناة الدولية وطرحت أسهمها للاكتتاب فاكتتبت مصر فى ١٧٧٦٤٢ سهما قيمتها ٩٠ مليون فرنك أى حوالى نصف رأس المال . وفى عهد اسماعيل وقع نزاع بينه وبين الشركة بإيعاز من السلطان الموعز اليه من الحكومة الانجليزية لتخفيف بعض شروط الامتياز وانتهى النزاع بتحكيم نابليون الثالث أمبراطور فرنسا فأقر الحكومة المصرية على معظم مطالبها ولكن مقابل تعويض مالى فادح بلغ ٨٤ مليون فرنك ، وعلى ذلك صدرت موافقة السلطان على عقد الامتياز فى سنة ١٨٦٦

وافتتحت القناة رسميا فى سنة ١٨٦٩ م فى حفل عظيم دعا اليه اسماعيل كثيرا من ملوك أوروبا ومن الأمراء والوزراء وقد أنفق على حفلات الافتتاح مبالغ باهظة قيل أنها تقرب من ١٦ مليون جنيه .

ولما حدثت الثورة العرابية ، احتل الانجليز قناة السويس ومنعوا إستعمالها للتجارة فحمل ذلك الدول على عمل اتفاق دولى يحتفظ فيه للقناة بحريتها التامة زمن الحرب والسلم ، وكان ذلك فى معاهدة القسطنطينية سنة ١٨٨٨ ، كما أنها أعطت مصر الحق الأول فى الدفاع عن القناة وتنفيذ أحكام الاتفاقية .

وقد كان لمصر ما يقرب من نصف رأس مال الشركة إذ كانت تملك ١٧٧٦٤٢ سهما وكان فى هذا الضمان الكافى لسيطرة الحكومة المصرية على الشركة وعلى أعمالها وضمان الحصول على نصف أرباح المشروع . ولكن مما يؤسف له أن الخديو اسماعيل باع هذه الأسهم

إلى الحكومة الانجليزية فى سنة ١٨٧٥ م بثمن بخس وهو أربعة ملايين من الجنيهات وهو ما يعادل نحو ربع ما أنفقه على حفلات الافتتاح . ونحمد الله ان استردت مصر قناتها فى عهد الثورة المجيدة إذ أممت سنة ١٩٥٦ ودفعت للمساهمين فى الشركة تعويضات مجزية .

والسويس بلدة جميلة المنظر بها حدائق كثيرة غرست حديثاً بعد إتصال ترعة الاسماعيلية بها ، وقد بذل السويسيون فى غرسها نفقات كثيرة وجهداً شاقا لأن أرضهم قاحلة بطبيعتها . والسويس من المناطق الساحلية المعروفة باعتدال جوها وجفافه صيفاً وشتاء ، فهو الثغر الوحيد فى مصر الذى تجمعت له من البحر والصحراء والجبال ما يصح أن تفاخر به أشهر أماكن الاصطياف فى العالم .

ومن مصايفه : مصيف جبل عتاقة ومصيف السخنة وهى مصيف ومشتى فى آن واحد إذ توجد فى هذه المنطقة عين ساخنة ولذلك سميت السخنة تتدفق منها مياه ساخنة فيها كثير من الكبريت ، وقيل ان هذه العين تشبه عيون المياه فى بيريه باليونان .

وقد تكونت قرية الجناين من الوجهة الادارية سنة ١٩٢٢ وفى سنة ١٩٢٦ انفصلت من زمام مدينة السويس من الناحية المالية ومن تلك السنة أصبحت ناحية قائمة بذاتها تابعة لمحافظة السويس .

* * *

محافظة الوادى الجديد

تشتمل هذه المحافظة على عدد كبير من واحات الصحراء الممتدة غربى وادى النيل بالجمهورية العربية المتحدة . وكان بعض هذه الواحات يتبع من الناحية الادارية محافظة الصحراء الغربية التى تكونت سنة ١٩٤٦ ، وكانت قاعدتها مدينة مرسى مطروح . وفى سنة ١٩٦٠ فصلت الواحات البحرية والفرافرة عن محافظة الصحراء الغربية ، التى تغير اسمها وأصبحت تعرف باسم محافظة مطروح وضمت إلى الواحات الداخلة والخارجة وأصبحت تكون محافظة الوادى الجديد .

ويقال أن لفظة (واحة) كلمة مصرية قديمة معناها مكان للراحة والواح مفرد جمعها واحات وهى عبارة عن قطع متفرقة من الأراضى الزراعية وسط الصحراء ، وتروى

أراضيها من ماء يخرج طافيا من عيون تتفجر من باطن الأرض. وجاء فى معجم البلدان [1]:
أن الواحات ثلاث كور غربى مصر، ثم غربى الصعيد، ألواح الأول أوله مقابل الفيوم ممتد إلى أسوان وهى كورة عامرة ذات نخيل وضياع حسنة وفيها تمر جيد أنفر تمور مصر، وهى أكبر الواحات. ووراؤها كورة أخرى يقال لها واح الثانى وهى دون تلك فى العمارة وكورة أخرى يقال لها واح الثالثة وهى دون الأولين فى العمارة ومدينة الواح الثالثة يقال لها سنتريه (سيوة).

ويقول المقريزى [2] فى خططه « الواحات منقطعة وراء الوجه القبلى فى مغاربة ولا تعد فى الولايات ولا فى الأعمال ولا يحكم عليها من قبل السلطان وال وإنما يحكم من قبل مقطعها. وبلاد الواحات بين مصر والاسكندرية والصعيد والنوبة والحبشة، بعضها داخل ببعض وهو بلد قائم بنفسه غير متصل بغيره، ولا يفتقر إلى سواه، وأرضها شبة وزاجية وعيون حامضة الطعم تستعمل كاستعمال الخل، وعيون مختلفة الطعوم من الحامض والقابض والمالح ولكل نوع منها خاصية ومنفعة، وهى على قسمين واحات داخلة وواحات خارجة.

ويقول المسعودى فى كتابه [3] مروج الذهب: « وصاحب الواحات فى وقتنا هذا وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة عبد الملك بن مروان، وهو رجل من لواته (اسم قبيلة) إلا أنه مروانى المذهب (أى إنه يميل إلى الدولة الأموية القائمة فى ذلك الوقت فى بلاد الأندلس) ويركب فى آلاف من الناس خيلا ونجبا » ثم يضيف « إن بالواحات شجرة نارنج يقطف منها فى سنة واحدة أربعة عشرة الف حبة نارنج صفراء سوى ما يتناثر وسوى ما هو أخضر. » ويقول أنه فى سنة تسع وثلاثين وثلاثمائة سار ملك النوبة فى جيش عظيم إلى الواحات فأوقع بأهلها وقتل منها وأسر كثيراً » ويقول المقريزى « وبالواحات الشب الأبيض بواد تجاه مدينة ادفو ».

ومن أهم الظواهر الطبيعية فى الواحات غرود الرمال أو تلال الرمال السيالة المتحركة، وهى تلال رملية هلالية الشكل لها خاصية الحركة البطيئة نحو الجنوب لذلك كان

---

(١) معجم البلدان ج ٨ ص ٣٧١
(٢) المقريزى ج ١ ص ٣٧٧
(٣) المسعودى ج ٢ ص ٢٢٣

خطرها عظيما على المزارع والمبانى ، وكم من بلدة زالت ونخيل طمس وطريق ردم تحت رمال هذه الغرود ، التى تعد أخطر أسلحة ضد الانسان فى الواحات . وتتجمع هذه الغرود فى شكل مجاميع ، كالبحر المتماوج وتختلف فى الارتفاع وقد تصل أحياناً إلى (٥٠) متراً وفى الاتساع نحو (١٠) كيلو مترات .

وقد ردمت الغرود كثيراً من العيون والآبار بجهة (باريس) بالواحة الخارجية واكتسحت النخيل بناحية (عين القضاء) بالواحة الداخلة وهى الآن تهدد بلدة جناح بالواحة الخارجية . كما ردمت طريقاً للقوافل بين الواحة الداخلة والكفرة ، ويقال أن جيش قمبيز ملك الفرس الذى أتى لغزو مصر سنة ٥٢٥ م ، وكان عدده ٥٠ ألف محارب اختفى تحت هذه الرمال ولم يعثر له على أثر ، عندما كان متجها لغزو واحة سيوه قادماً من جهة طيبه .

ويسكن أرض الواحات الممتدة غربى النيل فريقان من البدو[1] السعادى والمرابطين . السعادى وهم أولاد (سعدى) وقد اتفق المؤرخون على انهم انحدروا جميعاً من (أبو ديب) الذى ينتسب إلى قريش ، وإن والدتهم سعدى بنت غازية الهلالية (من نسل قبيلة بنى هلال المنتسب إليها أبو زيد الهلالى) . ويظهر أن هذه القبائل سمت نفسها بالسعادى تمييزاً لها عن القبائل الأخرى من سلالة (أبو ديب) من زوجاته الأخريات فقد ذكر ابن خلدون فى تاريخه ، إنه كان بمدينة مسراطة زعيم عربى كبير يسمى أبو ديب وكان له نفوذ عظيم ، فى إقليم برقة وطرابلس . وقد أنجبت سعدى ثلاثة أولاد وهم جبريل وبرغوث وعقار ، ومن ذرية جبريل : العواقير والعربيات والمغاربة والجوافى وفروعهم ومن ذرية برغوث : عبيد والعرفة والفوائد وفروعهم ومن ذرية عقار : على وخديجة وبنى عونة والهنادى والحرابى وفروعهم . أما « المرابطين » فقد اختلف الرواة فى أصلهم فبعضهم يقول أنهم أقدم من السعادى ، وإنهم متفرقون وهذا سبب ضعفهم وأن كل قبيلة منهم فى حمى قبيلة من السعادى . ويقول بعض الرواة أن السعادى كانوا أقوياء وجاءوا البلاد فاتحين فدخلت بعض القبائل الأخرى فى حمايتها لضعفها فسموا (بالصدقان) أو الأصدقاء ، ولما كانت قبائل السعادى تقوم بالغزو فكانت تكلف قبائل الصدقان بالمحافظة على الحدود فى نقط معينة ترابط فيها فمن ذلك سموا بالمرابطين . ويقول حسن محمود فى كتابه « دولة المرابطين »

---

(١) البيان والاعراب ص ٨٧

فى تفسير كلمة الرباط: الرباط معناه ملازمة ثغر العدو ومعناه أيضاً المحافظة على أوقات الصلاة ، فقد ذهب الامام الطرطوشى أمام هذا المذهب حين فسر الآية الكريمة «يا أيها الذين آمنوا أصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون» بقوله «ورابطوا فيه قولان قيل رابطوا على الجهاد وقيل رابطوا على انتظام الصلوات . والجهاد فى سبيل الله من أخص صفات المرابطة ، الجهاد فى الثغور حيث ترابط خيل المقاتلة تحمى حياض المسلمين وترد عادية « المعتدين » .

وكان « المرابطين » موزعين على الآبار والزوايا فتفرغوا فيما بعد للمعيشة الزراعية والدينية وفقدوا الروح البدوية العسكرية ، فى حين أن السعاى احتفظوا بعادتهم من رعى الغنم والانتقال فى الفيافى والجبال . وكان على كل قبيلة من قبائل المرابطين أن تدفع لقبيلة السعاى التى تحميها جملا سنوياً يعرف (بالصدقة) ، على أن المرابط ملزم فى الوقت نفسه أن يحارب مع السعاى فى حالات الغزو والحرب .

وأهم قبائل المرابطين [1] هى المنفة والموالك والشواعر والقطعان والجوابيض والجرارة والحوتة والحبايل والتراكى والشهيبات والفواخر وترهونة والعوامة والقدادفة والسمالوس والصريحات والقريضات وحبون والشربصات وخريتهم .

ولقد بلغت قبائل السعادى والمرابطين من الشهرة وقوة النفوذ أن استطاعت أن تضع قانوناً بدوياً ، هو التشريع المعمول به الآن فى منطقة الصحراء الغربية ، فقد اجتمع شيوخ قبائل السعادى والمرابطين ومعهم بعض الفقهاء وكان ذلك بجهة (الحجفة) التى تقع جنوبى مدينه درنة باقليم بنى غازى حيث تم وضع أسس القضاء البدوى الذى ظل معمولا به بينهم حتى أنشئت مصلحة الحدود سنة ١٩١٧ م فأقرتهم عليه لما لاحظته من أنه مناسب لأحوالهم . أما الآن فقد أصبحت محافظة الوادى الجديد تتبع القانون والقضاء المعمول به فى باقى أنحاء الجمهورية العربية المتحدة .

الواحات البحرية : تعرف الواحات البحرية باسم واح البهنسا [2] ، وهى تقع غربى محافظة المنيا والمسافة بينها وبين بلدة البهنسا على بحر يوسف بمحافظة المنيا تبلغ ٣٠٠ كيلو متر وكانت هذه الواحات تتبع محافظة الصحراء الغربية وفى سنة ١٩٦٠ فصلت منها وأصبحت

---

(١) المرابطون — حسن محمود ص ٩٦

(٢) الخطط التوفيقية جـ ١٧ ص ٣٠

تكوّن قسماً من محافظة الوادى الجديد ومركزها قرية الباويطى . كما تتبع الواحات البحرية واحة صغيرة تسمى واحة الفرافرة تقع إلى الجنوب منها ومقرها قصر الفرافرة .

ويوجد بالواحات البحرية (أو الصغيرة كما وردت فى الخطط التوفيقية) خمس قرى وهى منديشة والذبو ومنديشة العجوز والباويط والقصر . يزرع فيها الشعير والأرز والبرسيم الحجازى ، وقليل من القمح ، كما يزرع بها بعض الخضر مثل البامية والملوخية والقرع والمقاتى والبصل . وبساتينها عامرة بمختلف الفواكه .

وبالقرب من الواحات البحرية يوجد عدة أودية متسعة بها ماء ومراع وربما زرع بها الأرز ، ومن أهم هذه الوديان ، وادى الحارة وهو يتبع قرية منديشة ووادى عيون يجوم ، ويتبع قرية الذبو ووادى الحيوز ويتبع قرية القصر .

الواحات الداخلة : تقع إلى الغرب من الواحات الخارجة والمسافة بينهما تبلغ ١٨٠ كيلو متراً والمسافة بينها وبين وادى النيل ٣٨٠ كيلو متراً ، وعرفت بالداخلة لأنها متوغلة فى الصحراء . وهى أكبر الواحات وأكثرها محصولا ، وكانت تتبع محافظة الصحراء الغربية الجنوبية أما الآن فهى تتبع محافظة الوادى الجديد . وتشتمل الواحات الداخلة على عشر قرى ، وهى : بلاط وبدخلو وأسمنت والقصر والمعصرة وقلمون والهنداوى والجديدة والمنديشة وموط وهى القاعدة .

ويوجد بمعظم تلك القرى حدائق غنية بفاكهتها مثل المشمش والبرتقال والرمان والعنب والعناب والتين والزيتون والموز والبرقوق والتفاح والكمثرى والنبق وغير ذلك . ويوجد فى الواحات الداخلة نحو من ٤٦٤ عينا تسيح مياهها على الأرض . وربما اشترك جماعة فى عين فيقتسمون الماء لسقى زرعهم ونخيلهم وجاء فى الخطط التوفيقية ان الضرائب التى كانت تدفعها الواحات الداخلة فى أوائل القرن العشرين كانت تبلغ ٨٤٦١١ قرشاً وكانت الضريبة تفرض على العيون وليست على الأرض . وكان عدد النخيل فى الواحات الداخلة يبلغ ٢١٣٫٩٥٣ نخلة ، تحصل عليها الدولة ضريبة مقدارها ١٦٨ جنيهاً . أما أشجار الفاكهة فكانت تدفع عليها ضريبة أخرى هذا بالاضافة إلى ما كانت تدفعه الواحات للصيارفة ورجال الحملة الذين يأتون لحماية الصيارفة ، ويبلغ مجموع ما كانت تدفعه الواحات الداخلة من الضرائب ٥٤٥ جنيهاً وهو مبلغ لا يستهان به فى ذلك الوقت .

وبقرية بدخلو طائفة تعرف باسم (الشريجية) تزعم أنها من سلالة المماليك الشراكسة، وهي تتمتع بمركز ممتاز في هذه القرية وكانوا يلبسون الملابس الفاخرة. وتتصل الواحات البحرية بمحافظة أسيوط عن الطريق المسمى بالدرب الطويل الذى يبتدىء من ناحية بنى عدى ويمر بقربه بلاط.

الواحات الخارجة: تقع غربى قنا وتتصل بوادى النيل عن طريق خط سكة حديدية طوله ١٩٨ كيلو متراً يخرج من (محطة مواصلة الواحات) الواقعة شمالى محطة فرشوط بمركز نجع حمادى بمحافظة قنا وتشتمل الواحات الخارجة على أربع قرى هى الخارجة وهى القاعدة وجناح وبولاق وباريس.

ويوجد بالواحات الخارجة ٦٦٩٣٠ نخلة (كما يقول على مبارك فى أوائل القرن العشرين) عليها من الخراج مبلغ ٥٢٧ جنيها كما يوجد بها ٦٥ عين ماء تدفع كل عين خراجا سنوياً مقداره ٣٥٩ قرشا، وبذلك يكون مقدار خراج العيون هو ٢٣٣ جنيها.

وإلى الجنوب من الواحات الخارجة وعلى مسيرة ثلاثة أيام من عين الماء المرة التى توجد جنوب بلدة باريس يوجد المكان الذى يستخرج منه معدن الشب من أقدم العصور. فقد ورد فى خطط المقريزى [1] : « أنه كان على مقطعى الواحات فى أيام الملك الكامل محمد بن العادل وأيام ابنه الملك الصالح نجم الدين أيوب حمل ألف قنطار من الشب كل سنة إلى القاهرة » وجاء فى قوانين ابن مماتى [2] « الشب حجر يحتاج إليه فى أشياء كثيرة أهمها الصبغ، ومعادنه بصحراء صعيد مصر، وعادة الديوان (ديوان الخراج) أن ينفق فى تحصيل كل قنطار منه ثلاثين درهما وربما كان دون ذلك. وتهبط به العرب من معدنه (موطنه) إلى ساحل قوص وإلى ساحل أخميم وسيوط وإلى البهنسا ويحمل من أى ساحل كان إلى الاسكندرية أيام جرى الماء فى خليجها ».

وكان طريق القوافل الآتية من دارفور بالسودان، والذى كان يعرف باسم درب الأربعين، ينتهى عند باريس، فكان الحاكم الموفد من قبل حاكم جرجا يرسل عند ورود القافلة بشيرا الى مدينة أسيوط، فترسل جماعة من العسكر لتلقاها لتجرى حصر البضائع الواردة معها ثم يؤخذ الجمرك عنها. وكانت الواردات السودانية تتكون من الإبل والرقيق وسن الفيل وريش النعام وسن الخرتيت والتمرهندى والنطرون والصمغ وجلود التماسيح والأفاعى.

(١) المقريزى ج ١ ص ٣٨٠
(٢) ابن مماتى ص ٢١٧

محافظة البحر الأحمر

كان ولا يزال يسكن فى بادية الصحراء الشرقية الجنوبية بين النيل والبحر الأحمر قبائل البجه أو البجاه التى ترجح معظم الروايات أنهم من سلالة أولاد كوش بن حام الذين هاجروا الى السودان بعد الطوفان . ومن المقطوع به أنهم من سلالة غير السلالة الزنجية وأنهم من أقدم شعوب أفريقيا وان لم ينشأوا فيها بل هاجروا اليها من آسيا عن طريق البحر الأحمر من عهد بعيد . وكلمة البجا محرفة من كلمة (المجا) المشتقة من كلمة (الماجوى) ومعناها فى الفرعونية الحارس أو المحارب ، وقد استخدمهم المصريون القدماء فى أعمال الحرب وحراسة حدود الصحراء ، وكان المصريون القدماء يطلقون على هذه القبائل اسم (المازوى) أو (الماجوى) بتعطيش الجيم ويقول الأستاذان (بترى) و (سلجمان) بأن الفراعنة والبجا شعب واحد . وقد عاش هذا الشعب طوال تلك العصور منعزلا عن العالم القريب منهم حتى فى أشد أوقات العسر ، عند انقطاع الأمطار وجفاف الوديان ، وظلوا ملتصقين بأرضهم فى عزم وصلابة وهذه إحدى ميزاتهم . والمنطقة التى يعيشون فيها على ساحل البحر الأحمر (أو الصحراء الشرقية) يكاد يحدها شمالا الطريق بين قنا والقصير وجنوبا إلى حدود الهضبة الحبشية ، ويقدر عددهم الآن بنحو مليون ونصف يقطن ثلثهم تقريبا داخل حدود الجمهورية العربية المتحدة . ويدل تاريخ شعب البجة [1] على أنهم محاربون دائبو المعارك فى كل العصور ، كما يستدل على ذلك مما عثر عليه فى أوراق البردى التى ترجع إلى الدولة المتوسطة ، فقد عثر على خطاب أرسله الملك (خانى) إلى ولى عهده وسماهم الأعراب (بأن لا تعادهم ولا تحاربهم لأنهم يضربون ضربتهم ويهربون فى الجبل وحربهم غير مجدية لأنهم لا يملكون غير أرواحهم) . وكان ولا يزال سلاحهم السيف والدرع وهى ترس يردون بها عن أنفسهم ضربات الأعداء .

ومضى القرنان الأخيران من حكم الرومان فى مصر ، ولم يسمع عن قبائل البجة صوت فى التاريخ ولعل ذلك راجع إلى انشغال الرومان فى حروبهم مع الفرس ، فعادت قبائل البجة إلى حياتها القديمة حول الجبال .

---

(١) المقريزى جـ ١ ص ٣١٣

وبعد فتح العرب [1] لمصر سنة ٦٤١ م تدفق العرب على مصر وبلغ عدد القبائل التى نزلت مصر وشمال افريقية نحو ٢٢ قبيلة ما بين عدنانية وقحطانية . وبعد الفتح بأربعة أعوام استأذن عبد الله بن أبى السرح عمرو بن العاص ، فى غزو الجنوب فسار فى عشرين الف مقاتل من مختلف القبائل العربية ، وانحدر الجيش نحو بلاد النوبة وكان بينهم ثلاثة من أبناء الصحابة يسمون باسم عبد الله وهم : عبد الله بن عمر بن الخطاب ، وعبد الله بن عمرو بن العاص ، وعبد الله بن الزبير بن العوام ، وغزوا مملكة النوبة وتغلبوا عليها واستوطن بعضهم جنوب مصر واندمجوا مع قبائل البجة وسار بعضهم إلى السودان . وقد أدى هذا الاندماج إلى إسلام قبائل البجة ، بل إن القبائل فى مصر والسودان أصبحت تفخر بأنها تنسب إلى قريش وقد اختارت البجة الزبير بن العوام للانتساب اليه ، وقد قوى هذا النسب بمجىء عبد الله بن الزبير بن العوام على رأس الجيش الذى غزا النوبة ، وبذلك تجاهلت البجة أصلها العريق واصطنعت النسبة إلى الزبير بن العوام .

وتنقسم قبائل البجة المقيمة بمصر إلى قسمين كبيرين هما العبابدة والبشاريين وينسب العبابدة أنفسهم إلى الزبير بن العوام ، وأن جدهم (عباد) المدفون فى وادى عباد بالقرب من مدينة ادفو ويقال أنه من نسل الزبير بن العوام ، ومن أجداد العبابدة عزاز الذى ينحدر من (كهيل) وهو جد قبيلة الكواهلة إحدى القبائل العربية المستوطنة كردفان بالسودان . ويقول ابن بطوطة [2] فى رحلته (سنة ١٣٥٣ م) أنه شاهد بعض قبائل أولاد كهيل (الكواهلة) تقيم على ساحل البحر الأحمر بالقرب من عيذاب .

ويسكن العبابدة فى الصحراء الجنوبية الشرقية ويفصلهم عن قبائل المعازة شمالا خط يمتد تقريبا من قنا على النيل إلى بلدة الغردقة على البحر الأحمر . وجنوباً إلى حدود السودان كما يقيم بعضهم بالقرب من شواطىء النيل . وهناك جماعة من قبائل العبابدة تسكن الدلتا فى محافظات الشرقية والدقهلية والغربية . ويقال أنهم انفصلوا من قبائلهم الأصلية سنة ١٥١٩ م عقب فتح الاتراك لمصر . وتنقسم العبابدة إلى أربعة فروع (أو بطون) تعرف بالعمائر أو البدنات ، وهى العشاباب والمليكاب والفقرا والعبوديين ويلاحظ أنها تنتهى دائما بكلمة آب وكلمة (آب) بالبجاوية معناها أبناء أو أولاد .

---

(١) البيان والاعراب ص ٣٥

(٢) ابن بطوطة ج ٢ ص ١١٧

والقسم الثانى من البجة وهم البشاريين أو البشارية ، فهم مثل العبابدة ويرجعون نسبهم إلى الزبير بن العوام كذلك ، وإن جدهم كاهل ، ويقال أن « كاهل » أعقب ثلاثة عشر ولداً وأن أحدهم اسمه (بشار) وهو جد البشاريين (ويقال) أنه من نسل الزبير . وصلة البشارية بمصر قوية وهم يعتبرون بلدان أسوان ودراو أسواقا لهم . وهم ثلاث فرق ، واحدة تسكن على البحر الأحمر من القصير شمالا إلى سواكن جنوبا والثانية على نهر عطبرة بالسودان والثالثة فى جزيرة عتباى وكل فرقة تنقسم إلى عدة بدينات . (أو بطون) ، وأهم هذه البطون الحميد وراب ، التى تسكن منطقة المراعى عند جبل علبة وعلى السهل الساحلى من بئر الشلاتين إلى حدود السودان . والعائلة الحاكمة فى قبائل البشارية تدعى (بطراناب) نسبة إلى العمدة بطران على تويف .

ومن الواضح أن قبائل البجة بقسميها (العبابدة والبشارية) قد تأثروا بالاسلام تأثيراً شديداً ولكنهم احتفظوا بلغتهم الحامية رغم معرفتهم العربية ، كما أنهم تأثروا أيضاً بالثقافة العربية إلى حد كبير ظهر واضحاً فى حياتهم الاجتماعية مع الاحتفاظ ببعض عاداتهم الأصيلة التى نشأت معهم أو التى اقتبسوها من المصريين القدماء . ولغة البجة تسمى (البتداوى) أو (بداويت) وهى للمخاطبة فقط ولا تكتب ولذلك فليس لهم تاريخ قومى مسجل ، إلا ما يرويه جيل عن جيل .

البحر الأحمر : كان البحر الأحمر أحد الطرق الثلاثة المتبعة فى التجارة بين الشرق والغرب فى العصور الوسطى ، وكان البيزنطيون يشجعون هذا الطريق لمقاومة احتكار أعدائهم الفرس لتجارة الهند ، فكانت المتاجر الهندية تفرغ فى موانى بيزنطة ، ففى الشمال كانت تفرغ فى القلزم ، ثم تنقل المتاجر بواسطة القناة التى تصل القلزم بالنيل ، والتى وجدت منذ عهد الفراعنة . وأعاد حفرها البطالمة والرومان وقد ظلت موجودة إلى أوائل القرن السادس الميلادى على الأقل . وفى الأوقات التى كانت تردم فيها أجزاء من هذه القناة ، كانت تنقل المتاجر على ظهور الابل وعند وصولها إلى النيل ، تحمل حتى البحر الأبيض المتوسط ، وكذلك كان يفرغ بعض متاجر الشرق فى ميناء Berenice القديمة والتى ظلت محتفظة بأهميتها التجارية إلى القرن الرابع الميلادى على الأقل .

ولما فتح العرب مصر فى القرن السابع الميلادى أصبح البحر الأحمر ، أو بحر القلزم

أو بحر جده (كما كان يسميه العرب[1]) أشبه ما يكون ببحيرة تفصل بين مركز الدولة الاسلامية فى المدينة المنورة وبين أهم الأقاليم الخاضعة لها ألا وهى مصر . لذلك فقد ظهرت موان وثغور على الشاطىء الغربى للبحر الأحمر ونالت شهرة واسعة طوال العصر الاسلامى . ومن أهم هذه الثغور عيذاب[2] .

عيذاب : ورد فى رحلتى ابن جبير وابن بطوطة[3] وفى الخطط المقريزية ، أن عيذاب كان فرضة (ميناء) على بحر القلزم ، وأنه لا عمارة فيها ، ولكنها كانت من أشهر المراسى فى البحار ، تأتى إليها سفن اليمن والحبشة والهند . وكانت طريق الحج المصرى يسير إليها الحجاج عن طريق قوص ثم يركبون البحر منها إلى جدة . وقد أقام حجاج مصر والمغرب أكثر من مائتى سنة يتوجهون إلى الحجاز عن طريق عيذاب ، ثم بطل استعمال هذا الطريق فى سنة ٧٦٦ ﻫ (القرن الرابع عشر الميلادى) . وجاء فى الخطط التوفيقية[4] ، ان عيذاب كانت فى محل مدينة برنييس القديمة (برنيقة) (التى أنشئت فى العصر البطلمى) الواقعة على البحر الأحمر تجاه مدينة أسوان . ولكن محمد رمزى يعقب على ذلك فيقول : ان عيذاب لم تكن محل مدينة (برنييس) كما ذكر على مبارك ، لأن هذه تقع على البحر الأحمر عند رأس بناس على خط عرض ٢٣° درجة ، يقابلها من الغرب على النيل أسوان ، وأما عيذاب فكانت واقعة على البحر الأحمر جنوبى رأس أبو فاطمة على خط عرض ٢٢° درجة ، يقابلها من الغرب على النيل قرية أبو سنبل التى بمركز الدر . وقد اندثرت عيذاب من القرن العاشر الهجرى (السادس عشر الميلادى) وتلاشى طريقها وتحول عنها طريق الحجاج والقوافل التى كانت تسير بين عيذاب وقوص ، إلى طريق السويس فالعقبة فالساحل الشرقى للبحر الأحمر إلى جدة .

وقد جاء وصف عيذاب فى (درر الفوائد المنظمة فى أخبار الحاج وطريق مكة المعظمة) انها مدينة على ساحل بحر جدة غير مسورة أكثر بيوتها الأخصاص ، وفيها بعض البيوت من الجص وهى من أجل مراسى الدنيا ، وهى فى صحراء لا نبات ولا يؤكل بها شىء إلا المجلوب ، ولأهلها ضريبة على التجار والحجاج ، وما من أهلها من ذوى اليسار إلا من له

---

(١) معجم البلدان ج ٩ ص ١٥٤

(٢) المقريزى ج ١ ص ٣٤٣ ، رحلة ابن جبير ص ٢٨ ، المسالك والممالك ص ٨١

(٣) ابن بطوطة ج ٢ ص ٢١٩ ، المقريزى ج ١ ص ٣٢٧ ، معجم البلدان ج ٦ ص ٢٤٦

(٤) الخطط التوفيقية ج ١٤ ص ٥٤

الجلبة (السفينة) . وفى بحر عيذاب مغاص على اللؤلؤ فى جزائر قريبة منها يستخرج منه جوهر اللؤلؤ النفيس . وجاء فى رحلة ابن جبير [1] وفى غيره أنه يوجد بصحراء عيذاب (الصحراء الشرقية) معدن الزمرد ومعدن النحاس . ثم يصف الطرق الموصلة بين قوص وعيذاب فيقول : المقصد من قوص إلى عيذاب على طريقين أحدهما يعرف بطريق العبدين وهو أقصر ، أما الطريق الآخر فيعرف بالجمينزى وهو طريق وعر . وذكر ابن خلكان فى وفيات الأعيان ، أن الشاعر أبو الفتوح نصر الله بن مخاوف بن على بن عبد القوى بن قلاقس اللخمى الأزهرى الاسكندرى القاضى ، المشهور بابن قاقس توفى ودفن بعيذاب سنة ٥٦٧ هـ = (١١٧١م) . وكذلك ذكر ابن بطوطة ، أن فى طريق عيذاب بمنزله حميثرى قبر الولى الشيخ أبى الحسن الشاذلى العلوى الفاطمى المتوفى سنة ٦٥٦ هـ .

* * *

محافظة سيناء

سيناء لغة الحجر ، قيل أنها سميت بهذا الاسم لكثرة جبالها ، وقيل أن إسم سيناء مأخوذ من سيمن بمعنى القمر فى العبرانية ، وسميت كذلك لأن أهلها كانوا قديما يعبدون القمر . ومن أسمائها شبه جزيرة طور سيناء أو جزيرة سيناء [2] .

وكانت سيناء فى أكثر عصورها التاريخية ، بل وبعد الفتح العربى تابعة لمصر . وفى الآثار الباقية بها مما أقامه المصريون من القلاع والأبراج ما يشهد بذلك ، وأقدم هذه القلاع الفرما من عهد الفراعنة وقلعة جبل المغارة وقلعة خربة الرطيل من آثار الرومان وقلعة الباشا وقلعة مبعوق من أعمال صلاح الدين الأيوبى وقلعة نخل أقامها السلطان الغورى فى درب الحجاج لحمايتهم وقلعة الطور المنسوبة إلى السلطان سليم ، وقلعة العريش التى بناها السلطان سليمان لحماية طريق العريش بين مصر والشام ، وأكثر هذه القلاع قد تهدم ولم يبق منها غير ثلاث وهى قلعة الطور وقلعة نخل وقلعة العريش .

ولسيناء شهرة قديمة حفظها لها التاريخ وذكرت فى الكتب المقدسة ففى القرآن الكريم جاء ذكرها فى أكثر من سورة . ففى سورة التين قوله تعالى : « والتين والزيتون وطور سنين

---

(١) رحلة بن جبير ص ٢٩

(٢) نعوم شقير ص ١٧

وهذا البلد الأمين لقد خلقنا الانسان فى أحسن تقويم » ، وفى سورة الطور « والطور وكتاب مسطور فى رق منشور . . الخ » ، وفى سورة مريم « واذكر فى الكتاب موسى انه كان مخلصا وكان رسولا نبيا وناديناه من جانب الطور الأيمن وقربناه نجيا » ، وفى سورة المؤمنين : « وشجرة تخرج من طور سيناء تنبت بالدهن وصبغ للآكلين » ، وذكرت فى التوراه باسم « حوريب » ونزلت بها الوصايا العشر .

ومن سيناء عبر بنو إسرائيل عند خروجهم من مصر مع سيدنا موسى عليه السلام . وفيها جبل طور سيناء، وإليه تنسب شبه الجزيرة كلها ، حيث كلم الله موسى وناجاه فعد من الأراضى المقدسة وغدا الجبل محجاً لأهل الشرق والغرب من اليهود والنصارى والمسلمين . وما زال هناك دير مشهور يزار إلى اليوم .

وفى سيناء منذ أمد بعيد طريقان تجاريان وحربيان يصلان بينها وبين الشام وجزيرة العرب وهما « طريق الفرما » على شاطىء البحر الأبيض إلى الشام فالعراق وطريق « النميرا » يخترق بلاد الطور إلى الحجاز . وبعد الفتح الاسلامى قام منها « طريق الحج » يخترق بلاد التيه إلى الحجاز ، و « طريق العريش » مارا بقطيه والعريش إلى الشام فالعراق ، وهى ما زالت الطريق البرى الوحيد الذى يصل مصر بالبلاد الشرقية عامة وبالبلاد العربية خاصة .

وسيناء غنية بثروتها المعدنية ، إذ يكثر فى تلالها الحديد والمنجنيز ومادة الكاولين التى تصنع منها الأوانى الخزفية وفيها النحاس ومناجم الفيروزة وكان الفراعنة يعرفونه فى بلاد الطور وأقاموا فى بعض مناجمها هيكلا من أنفس هيا كلهم وما زال من أهل الطور من يتجرون فى الفيروز إلى اليوم وإن لم يعد دخلهم منه كما كان من قبل .

وفى باطن سيناء من البترول أو الذهب الأسود ما يكفل لسكان هذه المنطقة الحياة الكريمة فى المستقبل القريب فقد اكتشفت بعض آبار البترول فى واحة فيران فى منطقة بئر عسل وغيرها . وما زال اكتشاف الآبار يتوالى مما يؤيد أهمية سيناء الاقتصادية فضلا عن أهميتها العسكرية .

ولسيناء ثروتها المائية من بحيراتها المتصلة بالبحر الأبيض ومنها بحيرة « البردويل » وبحيرة « الزرانيق » ويبلغ طول الأولى نحو ٧٠ كيلومتراً وعرضها نحو ٤٠ كيلومتراً وعرض الفتحة التى تصلها بالبحر ٨٠ متراً وعمق الماء فيها نحو ثلاثة أمتار وتصدر الأسماك

إلى بورسعيد والعريش لبيعها وتعد البطارخ فى صناديق خاصة فى بلدة الزرانيق القريبة من البحيرة . ويقدر الدخل السنوى لأسماك هذه البحيرة بحوالى عشرة آلاف جنيه .

ولأهل سيناء تجارتهم وأهمها الإبل والخيل والغنم يهتمون بتربيتها ويستولدونها ويتجرون بمواليدها الذكر ، ثم الفيروز وحجارة الرحى والعجوة والسمار ، ولهم موارد أخرى من تأجير الإبل للسياح والحجاج وغيرهم من قاصدى زيارة دير سانت كترين وغيره من الآثار الجمة فى سيناء ، وإن كان فى استعمال السيارات اليوم قد أضعف هذا المورد إلى حد كبير ، ومن بيع ما يفيض عن حاجتهم من الأنسجة الصوفية ، فمن صناعتهم غزل الصوف وصبغه وحياكته ويقوم بهذا كله النساء .

وزراعة سيناء تعتمد على المطر ويقع أكثره فى بلاد العريش فى جهاتها الشرقية وأهم ما يزرع الشعير وهو المحصول الرئيسى . وفى سيناء أرض خصبة تمتد لمسافة عشرين ميلا من شاطىء البحر الأبيض . ولو أمكن تعميم طلمبات الرى فى سيناء لنشأت بها مستعمرات زراعية تفوق المستعمرات الصهيونية فى فلسطين .

والبدو تعيش على النظام القبلى ؛ فشيخ القبيلة هو رئيسهم يأتمرون بأمره ويعملون بمشورته وهو من جانبه يعمل لصالح القبيلة ويساعدهم فى شئونها ويشاورهم .

وليس لهم شريعة مكتوبة بل يحكمهم قضاتهم بمقتضى العرف والعادة . والقضاء عندهم موكول إلى قضاة من خواص رجالهم فمنهم « القصاص » وهو قاضى العقوبات أو قاضى الجروح و « الزيادى » وهو قاضى الإبل يقضى فى كل ما يتعلق بها كسرقتها ووثاقها وغيره ، و « العقبى » وهو قاضى النساء يقضى فى مسائل المهر والطلاق والتعدى على العرض ويسمى بالعقبى لأن أكثر قضاة هذا النوع من بنى عقبة .

و « المبشع » وهو قاضى الجرائم المنكورة والتى لا بينة عليها . ودرجات القضاء عندهم ثلاث لكل درجة قاض ، فيرفع المتنازعان دعواهما إلى الأول فاذا لم يقبلا حكمه رفعا الدعوى إلى الثانى وهو بمثابة محكمة الاستئناف وإذا لم يرضيا بحكم الثانى رفعا الدعوى إلى الثالث وهو بمثابة محكمة النقض والابرام فحكمه نهائى .

وهناك « كبار العرب » وهم بمثابة رجال الصلح لتسوية المسائل الهامة التى لا يمكن صرفها إلا بالصلح كقضايا القتل والسلم والحرب .

ومادة الأحكام عند جميع قضاتهم الغرم بالمال فليس عندهم حبس ولا ضرب ولا قتل لا فى القضايا الجنائية ولا المالية . ولعل فى قصر العقوبات كلها على المال ما لا يساعد على استتباب الأمن والسلام فى البلاد .

وقد ظل القضاء فى سيناء فى أيدى قضاة البدو ما عدا بلاد العريش ومدينة الطور فكانتا تابعتين للقضاء المصرى . وأما سائر بلاد سيناء فقد وضع لها نظام قضائى خاص فى سنة ١٩١١ بنى على العرف والعادة مع مراعاة حالة البدو وتحقيق العدالة وعهد بالقضاء فيها إلى مأمورين قضائيين . أما الآن فيطبق عليها من الناحية الجنائية قانون الأحكام العسكرية وتعليمات الصحراء .

وكانت سيناء تمثل فى الأصل البلاد الواقعة بين خليج العقبة وخليج السويس وهى المعروفة ببلاد الطور ثم امتدت إدارياً فشملت حتى العريش من الشمال .

وكانت بلاد الطور تابعة فى الادارة لمحافظة السويس ولما تهدمت قلعتها سنة ١٨٢٦ م ألحقت إدارياً ببلاد التيه وولى عليها ضابط من الضباط العظام للجيش المصرى ويلقب « قومندان جزيرة سيناء » ومركزه نخل . أما العريش فقد جردت حاميتها من العساكر بعد انسحاب مصر من سوريا فى سنة ١٨٤٣ وألحقت العريش بنظارة الداخلية وجعل عليها محافظ مدنى ومعه نفر من البوليس .

وظل الحكم فى سيناء على هذه الصورة إلى أن كانت حادثة الحدود سنة ١٩٠٦ وخلاصتها أنه وقع خلاف بين مصر والدولة العثمانية على حدود سيناء الشرقية وتدخلت الدولة البريطانية فى الأمر فتعظم الخلاف حتى كاد يؤدى إلى حرب وانتهى الأمر بتعيين الحدود بعمد على طول الخط بين العقبة ورفح . وبعد تعيين الحدود ضمت بلاد العريش إلى قومندانية نخل والطور وجعل عليها ناظر فأصبحت بلاد سيناء كلها قومندانية واحدة بثلاث نظارات تحت إدارة نظارة الحربية . وفى سنة ١٩٠٧ سميت القومندانية مديرية ولقب حاكمها مديراً وفى سنة ١٩١١ أبدل بلقب مدير سيناء لقب محافظ وسميت البلاد محافظة إلى اليوم .

وتنقسم سيناء إدارياً كما يلى :

(١) قسم القنطرة : ويبدأ من القنطرة شرق وينتهى عند نقطة بئر العبد على ساحل البحر الأبيض المتوسط . (٢) قسم سيناء الشمالى ومركزه العريش وهى عاصمة محافظة سيناء . (٣) قسم سيناء المتوسط ومركزه نخل . (٤) قسم الطور ومركزه بلدة الطور .

العريش : مدينة قديمة تعد أشهر بلاد سيناء قامت على اطلال مدينة مصرية قديمة تدعى « رينوكلودا » أى مجدوع الأنف ، قيل سميت كذلك لأنها كانت منفى لمن حكم عليهم بالاعدام واستبدل بالحكم جدع الأنف ، أما اسم العريش فقد أطلقه عليها العرب [1] . قال المقريزى [2] فى خططه « إن العريش مدينة فيما بين أرض فلسطين وإقليم مصر وهى مدينة قديمة من جملة المدن التى اختطت بعد الطوفان .

وقد ذكر مؤرخوا العرب روايات طريفة عن سبب تسميتها بالعريش نذكر منها الرواية الآتية وقد تكون أطرف الروايات قال البيهقى فى كتابه المحاسن والمساوىء : كان دخول أخوة يوسف وأبويه — عليهم السلام — على يوسف بمدينة العريش . وهى أول أرض مصر وكان يوسف قد خرج للقياهم حتى نزل المدينة بطرف سلطانه وكان له هناك عرش وهو سرير السلطنة فأجلس أبويه عليه . وكانت تلك المدينة تسمى مدينة « العرش » فحرفتها العامة إلى العريش فغلب ذلك عليها .

والعريش بلدة تجارية تبعد بنحو ١٫٥ كيلومتر عن شاطئ البحر ومبانيها باللبن الجيرى وشوارعها رملية متسعة نظيفة — ولكل بيت فناء مسور بباب كبير لإيواء الابل والخيل والغنم وأسوارها مرتفعة جداً . ومن أهل العريش من يتجرون مع البدو فى البادية ومنهم من يتجرون فى سوق المدينة وأكثرهم يقتنون الابل ويشتغلون بها .

ولمدينة العريش ضواح أهمها : نخل أبو صقل ، وحلة المساعيد وقبة النبى يأسر ، وقيل عن هذه القبة إنها بمكان يدعى « البدك » وقال عبد الغنى النابلسى (١١٤٣ هـ) (القرن الثامن عشر الميلادى) فى رحلته عند ذكر مدينة العريش « فى تلك البلاد مكان مبارك يقال له آلبيزك . . ويقال أنه متصل بالغار الذى فى بلاد الخليل .

وفى العريش قلعة مشهورة قريبة من البلدة وفوق باب القلعة لوحة تذكارية باللغة العربية والتركية تبين اسم منشئها وسنة الانشاء .

رفح : جاء فى معجم البلدان لياقوت الحموى [3] : « رفح منزل فى طريق مصر بينه وبين عسقلان يومان لقاصد مصر : وهو أول الرمل .

---

(١) معجم البلدان ج ٦ ص ١٧١ ، المقدسى ص ١٩٤ ، المسالك ص ٢٣٧ ، تقويم البلدان ص ١٠٩

(٢) المقريزى ج ١ ص ٣٤٠

(٣) ياقوت ج ٤ ص ٢٦٦

وهى تلى مدينة العريش فى الأهمية على بعد نحو ثلاثة كيلومترات من الشاطىء وموقعها الحربى سيجعل منها مركزاً هاماً . وقد كانت فى معظم عصورها التاريخية الحد بين مصر والشام وكانت ميدانا لمواقع حربية (انتصرت فيها مصر فى عهد البطالمة على ملوك سوريا) . وفى تاريخها الحديث انتصر فيها الجيش المصرى على قوات اسرائيل وبها أطلال رومانية قديمة وقد عثر فى تربتها على كثير من قطع من النقود الفضية والنحاسية والزجاجية من عهد الرومان والبيزنطيين والدول الاسلامية الأولى .

ومن آثارها : « عامود الحدود » وهما على بعد نحو ٣٦٠ مترا إلى الجنوب الغربى من بئر رفع وهما من الجرانيت الأسمر وعرفا بعمودى الحدود وطول كل منهما سبعة أقدام ومحيطه نحو ثلاثة أقدام أحدهما يتجه إلى الشمال والآخر إلى جهة مصر فلما وقعت حادثة الحدود سنة ١٩٠٦ أزال الجنود التركية العمودين من مكانهما ، وطمروهما فى الرمال ولما سويت الحادثة أبقى الحد ونصب فى مكانه العمودين المذكورين عمودان آخران من الجرانيت من عمد رفح القديمة .

وقد أطلق مؤرخوا [1] العرب على معظم بلاد العريش الجفار لكثرة الجفار بأرضها وهى الآبار الواسعة القريبة القعر .

وجاء فى كتاب أحسن التقاويم [2] : « فأما الجفار فقصبتها الفرما ومدنها البقارة والورده والعريش » .

وقال ياقوت الحموى [3] « الجفار مسيرة سبعة أيام بين فلسطين ومصر أولها رفح من الشام » .

قطية : من بلاد العريش الشهيرة على بعد نحو ٢٦ ميلا من القنطرة فى طريق العريش وكانت قبل فتح قناة السويس تابعة لمديرية الشرقية ، ولما فتحت الترعة الحقت بالعريش ولا تزال ، وبها حدائق متسعة من النخيل . وجاء فى رحلة النابلسى : « قطية (بفتح القاف بعدها طاء مهملة ساكنة) هى مكان أخذ المكوس من كل من يمر من ذلك الطريق ، فيأخذ الكاشف من جهة الأخباء المصرية خفارة الأموال والخيل والدواب التى للتجار وغيرهم ممن يمر فى تلك البرية .

---

(١) تقويم البلدان ص ١٠٨ ، ١٠٩ ، المقريزى ج ١ ص ٣٠٥

(٢) المقدسى ص ١٩٣

(٣) ياقوت ج ٣ ص ١١٣

الفرما : كانت قديما من أشهر مدن مصر البحرية وأكثرها عمارة . وكانت بحكم موقعها على شاطىء البحر الأبيض فى أقصى فروع النيل الشرقية — عرضة لغارات الأمم المهاجمة برا وبحرا . وللملوك مصر فيها مواقف مشهورة لرد هجمات الغزاة من الآشوريين والفرس وفى العصور الوسطى أيام الحروب الصليبية . ويدل تاريخها على أنها عريقة جدا فى القدم وان أهلها الأصليين كانوا من البحارة الفينيقيين .

وقد عرفت عند اليونان باسم بلوسيوم وإليها نسب فرع النيل القائمة عليه (الفرع البليوسى) وقد جف هذا الفرع من عهد بعيد ، وعرفت عند القبط باسم فرومى ومنه أخذ العرب اسم الفرما وهو الاسم المعروف الى اليوم . وذكر المقريزى[1] فقال :

« وكانت الفرما على شط بحيرة تنيس وكانت مدينة حصينة وقد بنى بها المتوكل على الله حصنا على البحر تولى بناءه عنبسة بن اسحق أمير مصر فى سنة تسع وثلاثين ومائتين (٨٥٣م) عندما بنى حصن دمياط وحصن تنيس . ولما فتح عمرو بن العاص عين شمس انفذ الى الفرما أبرهة بن الصباح فصالحه أهلها على خمسمائة دينار هرقلى واربعمائة ناقة وألف رأس من الغنم فرحل عنهم إلى البقارة .

وفى سنة ٥٤٥ هـ ١١٥٠ م نزل الفرنج على الفرما فى جمع كبير وأحرقوها ونهبوا أهلها . كما أن الوزير شاور خربها كما خرج منها متوليها عليهم أخو الضرغام حوالى سنة ١١٦٥ م فاستمرت خراباً ولم تعمر بعد ذلك[2] .

وطريق الفرما أقدم طرق مصر إلى سوريا وكان قديما عامراً بالمدن والحصون[3] والأبراج ولما جف الفرع البليوسى خربت المدن والحصون . وفتح طريق البر المعروف بطريق العريش وقل استعمال طريق الفرما كما قل استعمال طريق العريش[4] بتقدم الملاحة .

نخل : وهى مركز بلاد التيه وتعرف أيضا ببرية التيه وقيل سميت بالتيه لأنها كما قيل أن بنى إسرائيل تاهوا فيها أربعين سنة ، وهى سهل عظيم مقفر جامد التربة يشغل وسط شبه الجزيرة ويخترقه من الجنوب إلى الشمال وادى العريش وفروعه وفى وسطه بلدة نخل .

(١) المقريزى ج ١ ص ٣٤١
(٢) تقويم البلدان ص ١٠٦ ، الكندى ص ٢٨
(٣) معجم البلدان ج ٦ ص ٣٦٨ ، المقدسى ص ١٩٥
(٤) الخطط التوفيقية ج ١٤ ص ٧٣

وقد كانت مقر محافظة سيناء إلى ما قبل الحرب العالمية الأولى وهى بلدة صغيرة مبنية بالطوب النيء وبها شارع واحد وقد جددت بها عدة منازل سنة ١٩٠٦ ، وبنيت بالحجر على الطراز الحديث .

وقد اختلف بعض الباحثين فى أصل تسميتها بنخل فقال بعضهم أنها متخلفة عن « نخل مصرايم » الاسم الذى أطلقه العبرانيون على وادى العريش ، وقيل كانت تدعى قديما نخر ولكن هذا الاسم اندثر ولم تعد تعرف به الآن . وهى قرية ليس بها نخل ولا شجر يسكنها نفر من الناس ، وبها خان أنشأه السلطان قانصوه الغورى فى سنة ٩١٥ هـ (١٥٠٩ م) وكان الخان ضيقاً فأمر السلطان العثمانى بتوسيعه فى سنة ٩٥٩ هـ ١٥٥٢ م .

وفى نخل قلعة وهى إحدى القلاع الجميلة التى بناها السلطان قانصوه [1] الغورى سنة ١٥١٦ م فى درب الحج المصرى وكانت تعرف قديما بالخان .

وكان درب الحج المصرى الذى أنشأه السلطان الغورى يبدأ من القاهرة ويخترق صحراء العريش إلى سيناء ماراً بالنواطير الثلاثة إلى وادى الحيطان إلى سهل التيه فوادى السحيمى فالنهدان فقلعة نخل إلى ثقب العقبة إلى العقبة فمكة .

وكان ركب الحج المصرى يقطع هذا الدرب فى ستة أيام وقد أصبح الآن طريق تجار الإبل والأغنام من الحجاز إلى مصر .

أما أول طريق اتخذه الحاج المصرى إلى مكة فهو طريق عيذاب فكان الحجاج يركبون النيل من ساحل الفسطاط إلى قوص بمصر العليا ثم يركبون الإبل من قوص فيقطعون صحراء عيذاب إلى البحر الأحمر حيث ينزلون إلى جده . وهكذا طريقهم فى العودة . وهو أيضا طريق قوافل التجار من اليمن والحبشة والهند . وظل الحاج المصرى يتبع هذا الطريق حتى عهد السلطان الملك الظاهر فإنه بعد أن استرجع إبله من الصليبيين سنة٦٦٥ هـ ١٢٦٧م زار مكة عن طريق السويس وايلة ، فصارت ايلة طريق الحج من ذلك الحين إلى سنة ١٨٨٥ م إذ اتخذ طريق آخر وهو طريق البحر من السويس إلى جده وما زال هذا الطريق متبعا إلى الآن .

وقد اعتاد سلاطين مصر من أمد بعيد أن يرسلوا مع ركب الحج للكعبة كسوة كل سنة وكان أول من نظم المحمل مع الحج المصرى وأرسل الكسوة للكعبة وحماها بالعساكر

---

(١) ابن اياس ص ٢٧٣

شجرة الدر زوجة الصالح نجم الدين الأيوبي (أى من أكثر من ٧٠٠ سنة) التى حكمت مصر سنة ٦٤٨ هـ ١٢٥٠ م وقد عنى ملوك مصر باصلاح طريق الحج وتمهيدها فأنشأوا فيها الخانات والقلاع وحصنوها بالعساكر تأمينا للطريق وحفروا الآبار وبنوا البرك لسقى الحجاج وركائبهم وعملوا على صيانتها بمن يرسلون من العمال والنجارين لترميم السواقى وملء البرك قبل وصول الركب .

الطور : بلدة قديمة وهى مركز بلاد الطور التى تقع بين خليج العقبة وخليج السويس وهى بلاد جبلية وعرة وقيل أنها قد تكون أوعر بلاد جبلية على سطح الكرة الأرضية ، وجبالها الشرقية تقتحم خليج العقبة ولا تترك وراءها إلا طريقا ضيقا على شاطئه . أما جبالها الغربية فتنحسر عن طريق خليج السويس فى أكثر جهاته فتترك وراءها ثلاثة سهول رملية عظيمة منها سهل « المرخاء » والمشهور أنه السهل المعروف فى التوراة ببرية سين حيث تذمر بنو اسرائيل من الجوع فأرسل إليهم المن والسلوى لأول مرة .

وأشهر جبالها جبل طور سيناء وإليه تنسب شبه الجزيرة كلها ويزعم رهبان سيناء أنه الجبل المعروف فى التوراة بجبل حوريب أى الجبل الذى نزل عنده موسى عليه السلام بعد خروجه بالاسرائليين من مصر وتجلى له الرب فأنزل عليه الشريعة .

ولهذا الجبل قمم كثيرة عالية نذكر منها جبل موسى وهو أعلى هذه القمم ويبلغ ارتفاعه نحو ٧٣٦٠ قدما فوق سطح البحر وقد بنيت على رأسه كنيسة صغيرة وجامع أصغر منها وجبل المناجاة ويزعم البدو أنه الجبل الذى عليه كلم الله موسى وناجاه وبهذا الجبل تصدع ظاهر ولهذا زعم البدو أنه تصدع من خشية الله وجبل الصفصافة : وسمى كذلك لأن فى سفحه الشرقى صفصافة ويطل على سهل فسيح يدعى « سهل الراحة » به تل صغير عليه كوخ من الحجارة يدعى (مقام النبى هارون) .

وجاء فى كتاب تاريخ سيناء « والذى عليه أكثر المحققين الآن أن جبل الصفصافة هو الجبل الذى وقف عليه موسى عند إلقائه الوصايا العشر على الاسرائيليين . وأن سهل الراحة هو السهل الذى وقف فيه الاسرائيليون عند تلقيهم تلك الوصايا وأن التل الذى

---

(١) معجم البلدان جـ ٦ ص ٦٧ ، الكندى ص ٣٤

(٢) تقويم البلدان ص ١٠٧ ، المسالك ص ٢٣٧

(٣) ابن اياس جـ ٣ ص ٧٧

عليه مقام النبى هارون الآن هو التل الذى عليه عبد الاسرائيليون العجل الذهب فى غياب موسى » .

وجبل سربال : وهو أشهرجبال سيناء بعد جبل موسى يطل على مدينة الطور وله خمس قمم تمثل تاجاً عظيماً فى شكل نصف دائرة ارتفاع أعلاه نحو ٦٧٣٠ قدماً من سطح البحر وفى سفحه الشمالى وادى فيران الشهير . وقيل إن اسم سربال مختزل من سرب بعل أو نخيل الاله بعل إشارة إلى نخيل فيران فى سفحه .

وجبل حمام موسى : وهو جبل صغير على خليج السويس على بعد أربعة أميال من مدينة الطور فيه سبعة ينابيع كبريتية حارة وقد بنى فوق إحداها فى القرن (١٩ م) حماماً لا تزال آثاره باقية إلى الآن . ويقرب هذا الجبل ميناء « أبو صورة » .

ومن أودية بلاد الطور « وادى فيران » أو فاران وهو أشهر أودية شبه الجزيرة كلها قديماً وحديثاً وأغزرها ماء ونخيلا حتى سمى « واحة الجزيرة » .

ومن الضواحى العامرة لمدينة الطور محجر الطور يقع على شاطىء البحر وعلى بعد نحو ٦٤٠ متراً جنوبى المدينة ومساحته نحو ٤ كيلو مترات . أسس سنة ١٨٥٨ وهو يتسع لآلاف من الحجاج فى وقت واحد وهو محجر للحجاج المصريين .

* * *

أهم الآثار الباقية بشبه الجزيرة

دير طور سيناء : يعد هذا الدير أشهر ما فى شبه الجزيرة من بناء أو أثر ، بناه الإمبراطور يوستيفيانوس فى نحو سنة ٥٤٥ م ليكون معقلا لرهبان سيناء على سفح قمة من قمم جبل طور سيناء ويدعى أيضاً « دير القديسة كاترينا » وقد غدا محجا لزوار المسلمين والنصارى وبخاصة نصارى الروس .

وفوق الباب الحالى للدير حجران تاريخيان من الرخام نقش عليهما إسم بانيه وتاريخ بنائه أحدهما بالعربية والثانى باليونانية .

وللدير سور عظيم داخله أبنية كثيرة أهمها الكنيسة الكبرى وتعرف بكنيسة الاستحالة وعلى جانبيها من اليمين والشمال عدة كنائس صغيرة للرسل والأنبياء والقديسين

وبالقرب من الكنيسة جامع صغير بمنارة أقل ارتفاعاً من قبة الكنيسة . وفى الجامع أثران تاريخيان يرجعان إلى عهد الدولة الفاطمية وهما كرسى ومنبر من الخشب الساج وقد نقش على جوانب الكرسى الأربعة سطران وعلى واجة المنبر ستة أسطر وجميعها بالخط الكوفى وجاء فى نص الكتابة التى على الكرسى أن بانى الجامع هو الأمير أنوشتكين الآمرى أحد أمراء الخليفة الآمر بأحكام الله الفاطمى (٤٩٥ - ٥٢٤ هـ ١١٠١ - ١١٣٠ م) وان صاحب المنبر هو الأفضل أبو القاسم شاهنشاه وزير الخليفة الفاطمى الآمر بأحكام الله وتاريخ إنشائه ٥٠٠ هـ ١١٠٦ م .

ويقوم بخدمة الجامع جماعة من قبيلة أولاد سعيد يتناوبون العمل فيه لكل منهم أسبوع يكنسون الجامع ويعنون بنظافته ويقومون بإضاءته طوال شهر رمضان . ويلقب خادم الجامع (بالخوجه) وله جراية من الدير يومية وأسبوعية .

وللدير مكتبة بها مجموعة نفيسة من الكتب الدينية والتاريخية والأدبية تبلغ نحو ٣٠٠٠ كتاب بين مخطوط ومطبوع وبلغات متعددة وأكثرها بالعربية واليونانية ومنها « العهدة النبوية » أو كتاب العهد الذى كتبه النبى محمد للرهبان وقالوا أن الأصل كان محفوظاً فى الدير إلى أن فتح السلطان سليم مصر سنة ١٥١٧ م وأعطاهم نسخة منه مع ترجمتها التركية . وفى المكتبة عدة نسخ منها بعضها على ورق غزال وبعضها فى دفتر خاص وسنتكلم عليها فيما بعد .

وللدير أملاك واسعة موقوفة عليه فى سيناء وفى خارجها منها فى سيناء الدير وضواحيه من البساتين ونخيل . وفى القاهرة مركز للرهبان تجاه جامع الظاهر يقيم فيه مطران سيناء معظم أيام السنة ومعه بعض الرهبان لتدبير المؤن ومطالب الدير وتسهيل وسائل السفر للسياح والزوار .

العهدة النبوية : يوجد بدير طور سيناء صورة عهد قديم منسوب إلى نبى الإسلام محمد صلى الله عليه وسلم يعرف « بالعهدة النبوية » ويزعم رهبان الدير أن النبى محمداً كتب لهم هذا العهد أماناً لهم وللنصارى كافة على أرواحهم وأموالهم وبيعهم وأن السلطان سليم العثمانى أخذه منهم عند فتحه مصر سنة ١٥١٧ م وحمله إلى الاستانة وترك لهم صورة منه مع ترجمتها التركية .

ويقول نعوم شقير فى كتابه « تاريخ سيناء » ان العهدة التى رآها استعملت بعد البسملة بما يأتى : (هذا كتاب كتبه محمد بن عبد الله إلى كافة الناس أجمعين بشيراً ونذيراً ومؤتمناً على وديعة الله فى خلقه لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزاً حكيما كتبه لأهل مكة ولجميع من ينتحل دين النصرانية من مشارق الأرض ومغاربها كتاباً جعله لهم عهد الخ . . .) .

ثم اختتم العهد بالجملة الآتية (وكتب على بن أبى طالب هذا العهد بخطه فى مسجد النبى صلى الله عليه وسلم بتاريخ الثالث من المحرم ثانى سنى الهجرة) .

وقد أنكر بعض الباحثين صدور هذا العهد عن النبى صلى الله عليه وسلم وقالوا ان رهبان سيناء اختلقوه للاستعانة به على ما قد ينالهم من ظلم أو اجحاف واستندوا فى اختلاقه إلى أنه مؤرخ فى السنة الثانية للهجرة مع أن الهجرة لم يؤرخ لها إلا فى السنة الثامنة عشرة أى بعد وفاة النبى بسبع سنوات وإلى أن بعض الشهود المذكورين فى ذيل العهد كأبى هريرة وأبى الدرداء لم يكونوا قد أسلموا فى السنة الثانية للهجرة وإلى أن لغة العهد تختلف عن لغة عصر النبى ففيها من التراكيب والألفاظ ما لم يكن مألوفاً فى ذلك العهد .

على أن الرهبان لا يدعون أن هذه العهدة هى الأصل الذى صدر عن النبى ولا أنها صورة طبق الأصل وإنما هى الصورة التى أعطيت اليهم بعد أخذ الأصل منهم وإن ثانى سنى الهجرة تحريف من النساخ والظاهر أنه ثامن لا ثانى سنى الهجرة وأنه منذ أخذ أصل العهد منهم كان يشار اليه فى كل فرمان أو منشور يعطى إلى الرهبان .

على أنه بغض النظر عن هذه العهدة فان فى كتاب الله الكريم والأحاديث النبوية الصحيحة وفى تعاليم الشريعة الاسلامية السمحاء من الوصايا بأهل الذمة من النصارى وغيرهم فى أنفسهم وفى أموالهم ومعاملتهم ما يغنى عن هذه العهدة المشكوك فيها .

المراجع العربية

١ – ابراهيم نصحى ، دراسات فى تاريخ مصر فى عهد البطالمة (مطبعة الانجلو ١٩٥٩ م) .
٢ – ابن فضل العمرى ، مسالك الأبصار (مطبعة دار الكتب سنة ١٩٢٤ م) .
٣ – ابن بطوطة ، رحلة ابن بطوطة (مطبعة باريس سنة ١٨٩٣) .
٤ – ابن جبير ، رحلة ابن جبير .
٥ – ابن ميسر ، أخبار مصر (مطبعة المعهد العلمى سنة ١٩١٩ م) .
٦ – ابن دقماق ، الانتصار بواسطة عقد الأمصار (مطبعة القاهرة سنة ١٣٠٩ م) .
٧ – ابن الجيعان ، التحفة السنية (مطبعة بولاق سنة ١٨٩٨ م) .
٨ – ابن عبد الحكم ، فتوح مصر .
٩ – ابن خرداذبة ، المسالك والممالك (مطبعة ليدن سنة ١٣٠٩ هـ) .
١٠ – ابن شاهنشاه ، تقويم البلدان (مطبعة باريس سنة ١٨٩٠ م) .
١١ – ابن خلكان ، وفيات الأعيان (مطبعة النهضة سنة ١٩٤٨ م) .
١٢ – ابن حوقل ، المسالك والممالك (ليدن سنة ١٨٣٣ م) .
١٣ – ابن مماتى ، قوانين الدواوين .
١٤ – ابن أياس ، بدائع الزهور .
١٥ – أبوالمحاسن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة (طبعة دار الكتب سنة ١٩٥٦ م) .
١٦ – الإدريسى ، نزهة المشتاق (مطبعة يوما سنة ١٥٩٢ م) .
١٧ – الأدفوى ، الطالع السعيد (مطبعة الجمالية سنة ١٩١٤ م) .
١٨ – البيهقى ، المحاسن والمساوىء (مطبعة السعادة سنة ١٩٠٦ م) .
١٩ – الجبرتى ، عجائب الآثار (طبعة سنة ١٢٩٧ هـ) .
٢٠ – السخاوى ، الضوء اللامع (مطبعة القدسى سنة ١٣٥٣ هـ) .
٢١ – عبد الرحمن زكى ، قلعة صلاح الدين وقلاع اسلامية معاصرة – (مطبعة النهضة ١٩٦٠ م) .
٢٢ – عمر بن محمد الكندى ، فضائل مصر المحروسة .
٢٣ – على مبارك ، الخطط التوفيقية (مطبعة بولاق سنة ١٣٠٥ هـ) .
٢٤ – القلقشندى ، صبح الأعشى (المطبعة الأميرية سنة ١٩١٨ م) .
٢٥ – المقريزى ، الخطط والآثار (مطبعة النيل سنة ١٣٢٤ هـ) .
٢٦ – المقريزى ، البيان والاعراب (مطبعة الفجالة سنة ١٩١٦ م) .
٢٧ – محمد رمزى ، القاموس الجغرافى (طبعة وزارة التربية سنة ١٩٥٨ م) .
٢٨ – المسعودى ، مروج الذهب (طبعة القاهرة سنة ١٨٨٢ م) .

٢٩ – المقدسى ، أحسن التقاسيم (طبعة ليدن سنة ١٩٠٩ م) .
٣٠ – نعوم شقير ، تاريخ سيناء (طبعة القاهرة سنة ١٩١٦ م) .
٣١ – ياقوت الحموى ، معجم البلدان (مطبعة السعادة سنة ١٩٠٦ م) .
٣٢ – اليعقوبى ، البلدان (طبعة ليدن سنة ١٨٩٢ م) .

References

(1) Abu Saleh, the Armenian : Churches & Monasteries of Egypt (Oxford 1895.
(2) Ahmed Fakery : The Oasis of Siwa (Cairo).
(3) Amelineau, F : Geographie de l'Egypt à l'Epoque Copte (Paris 1895).
(4) Breceia, F. : Guide to ancieut & Moderu Alexandria (Bergamo 1922).
(5) Cres well : The Muslim Architecture of Egypte : (Oxford).
(6) Deseription de l'Egypt, Paris, 1809-1817.
(7) Grouthier Henri : Les Nomes & d'Egypte depuis Herodote jusqu'a'la Conquête Arabe (Le Caire 1935).
(8) Grohmann, A. Arabic Papyr'l'n the Egyptian Library Cairo 1932).
(9) Quatremaire, E : Histoire des Suttans Mamelouks del'Egypte (Paris 1837).
(10) Wiet, G. : L'Egypt Arabe. (Paris 1937).

دراسة لبعض التحف الإسلامية

للدكتور عبد الرحمن فهمى محمد
أمين متحف الفن الاسلامى
والمدرس المنتدب بكلية الآداب بجامعة القاهرة

مقـــدمة :

إن ما أقوم بنشره اليوم ليس وليد اللحظة التى يتم فيها طبع هذا البحث ، وإنما هو دراسة لبعض التحف الإسلامية بمتحف الفن الإسلامى بالقاهرة ، تكشفت لى أثناء قيامى بفحص بعض مجموعات المتحف منذ مدة طويلة ، وظلت هذه المعلومات مختزنة فى مودع الآمال حتى تهيأت الفرصة الآن لنشرها .

وهى فى مجموعها دراسة جديدة لتحفة خشبية من العصر الفاطمى وأخرى معدنية من العصر المملوكي وأرجو أن يكون فى بحثى هذا كل ما أرجوه من فائدة علمية .

١ ـ تحفة فاطمية من مدفن شجر الدر

لا شك أن الأخشاب الفاطمية المزخرفة التى وصلت الينا على درجة كبيرة من الحفظ تمثل مجموعة رائعة من التحف الإسلامية فى مصر ، ويزيد فى روعتها ، إذا عرفنا أنها صنعت خاصة لتزيين القصور أو المساجد أو الكنائس ، فضلا عن أن كثيراً منها يحمل كتابات تاريخية أو مثبت فى عمائر مؤكدة التاريخ ، لذلك أصبح فى الإمكان تحديد المراحل الفنية التى مرت فيها زخرفة هذه الأخشاب ، كما أمكن نسبة المجموعة الأخرى غير المؤرخة إلى تاريخ معين على أساس من الدراسة التحليلية للعناصر الزخرفية أو الدراسات المقارنة .

ويحتفظ متحف الفن الإسلامى بالقاهرة بأجمل التحف الخشبية الفاطمية التى تتمثل فى مجموعة من الألواح يزيد طولها مجتمعة على ٣٣ متراً ، عثر عليها فى بيمارستان قلاوون

وضريح ابنه السلطان الناصر محمد منذ سنة ١٩٠٩م [١] . وهذه المجموعة على حد تعبير الأستاذ ديماند Dimand « كانت فى الأصل جزءاً من زخرفة القصر الغربى الفاطمى الذى بدأه الخليفة العزيز (٩٧٥ — ٩٩٦ م) وأتمه الخليفة المستنصر بين عامى ١٠٥٨ و ١٠٦٥ م » [٢] .

ويعتقد الأستاذ لام Lamm استناداً إلى الطراز الزخرفى لهذه الألواح أنها صنعت بأمر الخليفة المستنصر [٣] . وقد قام الأستاذ بوتى Pauty بنشر هذه المجموعة من الألواح سنة ١٩٣١ وأشار إلى أنها ترجع إلى القرن ١١ م [٤] بينما أرجعها المرحوم الدكتور زكى محمد حسن إلى القرن الرابع أو بداية الخامس الهجرى (١٠ / ١١ م) [٥] ولكن أستاذنا الدكتور فريد شافعى اعتبرها من أهم أمثلة المرحلة الفاطمية الثانية التى حدد تاريخها بالنصف الثانى من القرن ١١ م والربع الأول من القرن ١٢ م [٦] وتمتاز هذه المرحلة الفاطمية

---

(١) هذه المجموعة مسجلة بمتحف الفن الإسلامى بالأرقام : ٣١٩٦ و ٣٤٦٥ و ٣٤٦٦ و ٣٤٦٧ و ٣٤٦٨ و ٣٤٦٩ و ٣٤٧٠ و ٣٤٧١ و ٣٤٧٢ و ٣٤٧٣ و ٤٠٦٣ وأطوالها بالأمتار على التوالى ٢,٢٠ و ٣,٣٠ و ٤,٤٥ و ٣,١٠ و ٣,١١ و ٣,٤٨ و ٣,٥٧ و ٣,٥٠ و ٣,١٩ و ٠,٧٠ و ٢,٥٥ ومجموعها كلها ٣٣,١٥ مترا ويوجد من هذه الألواح مجموعة فى متحف فكتوريا والبرت ، أنظر

Lane-Poole : The art of the Saracens (London 1886) pp. 123 ff.

وقد تناول كثير من علماء الآثار الإسلامية هذه الألواح بالدراسة والتحليل ولعل أهمهم :

M. Hertz : Boiseries fatimites aux sculptures figurales (Orientalisches archiv) t., III (1912/1913) pp. 169-73.

E. Pauty : Bois Sculptés jusqu'à l'époque Ayyubides. pp. 48 ff.

C. Lamm : Fatimid woodwork B. I. E. T., XVIII (1935/6) pp. 59-91

G. Marcais : Les figures d'hommes et de bêtes dans les bois sculptés d'époque fatimites conservés au Musée Arabes du Caire (Melanges Maspero) T. I, pp. 242. ff.

زكى محمد حسن (المرحوم) : كنوز الفاطميين القاهرة ١٩٣٧ ص ٢٠٩ وما بعدها .

الدكتور فريد شافعى : مميزات الأخشاب المزخرفة فى الطرازين العباسى والفاطمى فى مصر ، مجلة آداب القاهرة ١٩٥٤م ١٦ جـ ١ ص ٦٧ وما بعدها .

وعن قيام مارستان قلاوون مكان القصر الفاطمى الغربى أنظر زكى حسن : كنوز ص ٢٠٧ والمقريزى خطط جـ ٢ ص ٤٠٦ ، القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٢ ص ٣٦٩

(٢) Dimand : A Handbook of Muhammedan Art (N. Y. 1947). p. 113.

ويذكر الأستاذ Creswell كذلك أن القصر الغربى الذى لا شك أن هذه الأخشاب قد وردت منه هو القصر الذى بدأه العزيز وأتمه المستنصر فى ٤٥٠ هـ (١٠٥٨ م) Creswell : The M. A. of Egypt I pp. 128/9

(٣) Lamm : *op. cit.* p. 73

(٤) Pauty : *op. cit.* pp. 48 ff., Pls 46-59

(٥) زكى حسن : فنون الاسلام ص ٤٥٧ وكنوز الفاطميين اللوحات من ٤٥ — ٤٧

(٦) دكتور فريد شافعى : مميزات الأخشاب المزخرفة ص ٧١ — ص ٧٤ والأشكال من ١٥—١٨

الثانية ، كما حللها الدكتور شافعى ، بامتداد العروق فى أمواج وحلزونات صريحة مع كثرة ظهور ورقة العنب الثلاثية الفصوص ، وظهور العناصر النباتية المركبة كالورقة التى يتوسطها عنصر برعمى ، فضلا عن عودة ظاهرة خروج العروق النباتية من الأوانى ، وقد اتضحت فى هذه المرحلة أيضاً أرضيات العناصر الزخرفية وانتشرت الكائنات الحية من آدمية وحيوانية وطيور ، وازداد نضوج الدروع مع تأنق محيطها وزخارفها ، كما ازداد اتساع الثقب الأوسط فى العناصر الكأسية .

والحق أن كل هذه الخصائص تتوفر فى مجموعة الاخشاب الفاطمية من بيمارستان قلاوون رغم احتفاظها ببعض البقايا الطولونية من حيث تلاصق بعض العناصر والإبقاء على الحفر المشطوف ، ولا يهمنا هنا من هذه الألواح مناظر الصيد والرقص ومجالس الطرب والموسيقى والتجار ، والحيوانات ، والطيور التى تغطى معظم المساحة الوسطى فى هذه الألواح الخشبية ، وإنما الذى يعنينا حقاً هو تلك الاشكال الهندسية التى تفصل الزخارف بعضها عن بعض ، وهى عبارة عن مناطق هندسية سداسية أشبه بمستطيلات أفقية مدببة الطرفين بالتبادل مع نجوم ذات ثمانية رؤوس [1] أربعة منها مثلثة ، وأربعة أنصاف دوائر فى وضع متبادل ، وقد ملئت أرضية تلك العناصر بزخارف نباتية دقيقة فى مستوى منخفض عن مستوى المناطق الهندسية ، وتغطى هذه العناصر الزخرفية الشريط الأوسط العريض بينما يحصره من أعلا ومن أسفل شريطان رفيعان مزينان بعروق على هيئة أمواج مطردة أو متقابلة ، تخرج منها أوراق نخيلية وأنصاف نخيلية (لوحة رقم ١٩) .

وقد أوحت إلىّ زخرفة الإفريزين العلوى والسفلى والمناطق الهندسية فى أخشاب بيمارستان قلاوون ، التمسك بتحفة خشبية مماثلة تقدم أحد التجار فى صيف ١٩٦٢ لتصديرها إلى الخارج (اللوحة رقم ١ و٥ و٩) ، وقد نجح متحف الفن الاسلامى بالقاهرة فى الإبقاء عليها واقتنائها من بين مجموعاته برقم سجل ٢٢٦٦١ ، ومنذ ذلك الحين سنحت الفرصة لدراستها [2] .

---

(١) يصف الدكتور زكى حسن هذه النجوم « بجامات رباعية الشكل » ويشير إلى أن الأستاذ G. Marçais يعتقد أن هذه المربعات القائمة على إحدى زواياها ، والتى يقطع كل ضلع من أضلاعها قوس صغير إلى الخارج تظهر فى الزخارف الجصية التى كشفت فى سامرا ، ويظن أنها انتقلت منها إلى زخارف العصر الفاطمى ومن مصر إلى صقلية . أنظر زكى حسن : كنوز الفاطميين ص ٢١١ . G. Marcais : Les figures d'hommes, p. 242

(٢) لا يفوتنى أن أشكر الزميل الأستاذ أحمد ممدوح حمدى أمين أول المتحف والذى بعهدته هذه التحفة على سماحه لى بنشرها .

والتحفة عبارة عن لوح من خشب الكتلة الصماء طوله ٥٥ر٢ متر وعرضه ٥ر٣٤ سم والتكوين الزخرفى فى هذا اللوح هو نفسه الموجود فى ألواح قلاوون فهو مقسم إلى ثلاثة أشرطة ، الأوسط عريض (١٩ سم) ويحده من أعلا ومن أسفل شريطان رفيعان عرض كل منهما (٥ سم) مزخرفان بعروق على هيئة أمواج مطردة أو متقابلة وتخرج من أعلاها أوراق نخيلية وأنصاف نخيلية بينما تخرج من أسفلها فروع فى هيئة أقواس تحصر بينها أوراق عنب ثلاثية ، وتشبه هذه الزخارف تلك التى سبق أن ذكرناها فى ألواح قلاوون ، وقد قسم الشريط الأوسط العريض إلى نفس المناطق الهندسية التى سبقت الاشارة اليها كذلك فى ألواح قلاوون إلا أن المناطق الهندسية فى هذا اللوح وكذلك النجوم ذات الثمانية رؤوس قد ملئت كلها بكتابات كوفية عبارة عن معظم الآية الرابعة من سورة الفتح ونصها :

(هو الذى أنزل السكينة فى قلوب المؤمنين ليزدادوا إيمانا مع إيم[انهم])

أما الأرضيات حول الكتابه فقد ازدحمت بالعروق النباتية على هيئة تموجات وحلزونات بداخلها أوراق العنب الثلاثية (لوحة رقم ٦ و ٧ و ٨)، وهى نفس زخارف الأرضيات فى الأشرطة الوسطى بألواح قلاوون، غير أننا نجد هنا اختلافا فى المستويات فعددها فى مجموعة بيمارستان قلاوون ثلاثة مستويات أما فى هذا اللوح فعددها اثنان فقط ولكن السؤال الآن:

ما هو تاريخ هذا اللوح ؟ وهل يمكن التعرف على مصدره ؟

لقد سبق أن نشر الأستاذ الدكتور فريد شافعى مجموعة من الالواح المشابهة لهذا اللوح تماما نشرها لأول مرة سنة ١٩٥٤ فى مجلة كلية الآداب بجامعة القاهرة بعد أن اكتشف وجودها فى مدفن شجر الدر[1] ٦٤٨ هـ (١٢٥٠ م) وذكر أنه « ليس هناك شك فى أن

---

(١) شجر الدر هى أول من ملك مصر من ملوك الترك المماليك بعد مقتل ترنشاه آخر الأيوبيين فى (٣ مايو ١٢٥٠م) ٢٩ محرم ٦٤٨ هـ وتلقبت رسميا على سكتها بلقب « المستعصمية الصالحية ملكة المسلمين والدة الملك المنصور خليل أمير المومنين » وظلت تتولى أمر مصر حتى تولية زوجها عز الدين أيبك فى (٣١ يونيو ١٢٥٠م) ٢٩ ربيع الثانى ٦٤٨ هـ وقد دبرت مقتل زوجها بنفسها ثم لقيت هى نفس المصير من مماليكه فى (١٤ أبريل ١٢٥٧م) ٢٧ ربيع الأول ٦٥٥ هـ ودفنت بقايا جثتها فى ضريحها الذى كانت قد شيدته سنة ٦٤٨ هـ (١٢٥٠م) بجوار المشهد النفيسى أنظر : المقريزى : السلوك (نشر زياد) جـ ١ قسم ٢ ص ٣٦١ وما بعدها انظر :

Creswell : The Musl. Arch. of Egypt vol. II, p. 135.

وانظر فى تفسير تلقيبها بشجر الدر حسن عبد الوهاب : أثر المرأة فى العمارة الإسلامية (٤) مجلة الهندسة عدد ٢ فبراير ١٩٣٧ ص ٥٥

هذه الألواح قد صنعت فى العصر الفاطمى وانتزعت من مكانها الأصلى لاستعمالها فى هذا المدفن »[1] وحدد فى تخطيط خاص لمسقط المدفن مواضع هذه الألواح المثبتة فى جدران مدفن شجر الدر من الداخل فى مستوى أعتاب الأبواب وتحت قبة المحراب . ولم يعد لدينا شك بعد استعراض هذه الألواح فى مكانها من المدفن ومقارنتها بالصور التى نشرها الدكتور فريد شافعى فى اللوحات من ١ — ٥ فى بحثه أن اللوح الذى نحن بصدده هو واحد من هذا الإزار الخشبى المثبت فى مدفن شجر الدر ، بل هو أول هذه الألواح وبداية نصوصها ، ويحدد مكانه بالضبط فى الجهة الجنوبية من المحراب بالمدفن وطول هذا المكان هو نفس طول اللوح ٢٫٥٥ متر ، وقد ظهرت أول صورة لجزء من هذا اللوح وهو مثبت فى مكانه فيما كتبته ديفونشير Devonshire عن بعض مساجد القاهرة سنة ١٩٢١[2] كما أن الأستاذ كريسول يحتفظ بسلبية لجزء كبير من هذا اللوح وهو مثبت فى واجهة المحراب منذ سنة ١٩٢٥[3] كما نشر هوتيكور وفييت لوحات لمدفن شجر الدر سنة ١٩٣٢ توضح وجود هذا اللوح فى مكانه بجوار المحراب[4] ثم نشر الأستاذ كريسول مدفن شجر الدر بعد ذلك فى كتابه عن العمارة الاسلامية فى مصر سنة ١٩٥٩ فظهر مكان هذا اللوح بالمدفن خالياً منه[5] ، كما نشر الدكتور فريد شافعى صورة جزء كبير من هذا اللوح فى حدود سلبية الأستاذ كريسول التى اعتمد عليها وذكر أنه « لا وجود لهذا اللوح فى الوقت الحاضر فى مدفن شجر الدر ولا يعلم المصير الذى آل اليه منذ أن انتزع من مكانه فى فترة الثلاثين عاماً الماضية[6] » ولعلنا بنشر هذا اللوح ودراسته نلقى بعض الضوء على مصدر هذا اللوح

---

(١) دكتور فريد شافعى : مجلة آداب القاهرة م ١٦ ج ١ ص ٧٥ ، وهناك أمثلة متعددة أخرى حدث فيها مثل هذا الانتزاع لأخشاب من آثار قديمة وأعيد استعمالها فى آثار أخرى أحدث منها تاريخيا مثل القطع الطولونية فى مدفن الخلفاء العباسيين ومثل الأشرطة الفاطمية التى أعيد استعمالها فى بيمارستان قلاوون .

(٢) R. L. Devonshire : Some Cairo Mosques and their Founders (London 1921) p. 32 اللوحة المواجهة

(٣) دكتور فريد شافعى : البحث السابق ص ٧٧ واللوحة ٢ ا وهو رقم ١٢ فى التخطيط المبين فى شكل ١٩ ص ٧٦

(٤) Hautecoeur et Wiet : Les Mosquées du Caire (Paris 1932) Pls. 39, 62.

(٥) Creswell : Mus. arch. of Egypt (Oxford 1959) Vol. II, Pl. 41, b.

(٦) دكتور فريد شافعى : البحث السابق ص ٧٧

ومكانه الذى أصبح حالياً متحف الفن الاسلامى بالقاهرة . وسنحاول الآن مناقشة تاريخ هذا اللوح ، إذ أنه بالرغم من ارتباط زخارفه بأخشاب بيمارستان قلاوون الفاطمية التى أعتبر أقصى تاريخ لها ١٠٦٥ م أى أواخر القرن الحادى عشر الميلادى ، ورغم اعتبار الأستاذ الدكتور شافعى زخرفة الألواح الفاطمية بمدفن شجر الدر والمكملة لهذا اللوح من مميزات المرحلة الفاطمية الثانية فى النصف الثانى من القرن ١١ م والربع الأول من القرن ١٢ م ، فإننا نلاحظ تأريخه لهذه الأشرطة الفاطمية يقع فى الربع الثالث من القرن ١١ م [١] ، وعلى هذا الأساس يكون طراز الزخرفة والكتابة فى هذه المجموعة التى منها اللوح الذى ننشره لا يتعدى القرن الحادى عشر الميلادى فى رأيه ، غير أن هناك اعتبارات رئيسية لا يمكن إغفالها حين تأريخ هذا اللوح وهى :

١ — إرتباط زخرفة وكتابة هذا اللوح بلوح آخر من العصر الفاطمى مثبت فى قاعة الدردير التى ترجع إلى النصف الأول من القرن ١٢ م وقد اكتشف إزارها الخشبى الفاطمى الأستاذ حسن عبد الوهاب فى ١٥ سبتمبر سنة ١٩٤١ وكان يغطيه إزار خشبى آخر من العصر التركي [٢] .

٢ — اختلاف الطراز الفنى للخط الكوفى فى هذا اللوح عن طراز الكتابة فى ألواح أخرى واردة من مجموعة بيمارستان قلاوون [٣] التى اتفق على تأريخها بحيث لا يتعدى القرن ١١ م وكذلك اختلاف هذا الطراز من الكتابة على اللوح الذى ننشره عن كتابة نفس الآية المنقوشة فى جامع الحاكم بأمر الله على الجص (٣٩٣ هـ / ١٠٠٣ م) أو الكتابة التاريخية على باب الأزهر باسم الحاكم (٤٠٠ هـ / ١٠١٠ م) [٤] .

٣ — ارتباط طراز الكتابة فى هذا اللوح بطراز الكتابة فى الألواح الخشبية التى ترجع إلى القرن ١٢ م كتابوت السيدة رقية المؤرخ ٥٣٣ هـ (١١٣٨ م) وجامع الصالح طلائع ٥٥٥ هـ (١١٦٠ م)

---

(١) دكتور فريد شافعى : البحث السابق اللوحات من ١ — ٥

(٢) Creswell: Mus. arch. of Egypt vol. I (Oxford 1952) pp. 261, 263 Pl. 94 C

وكان المعتقد قبل اكتشاف الأستاذ حسن عبد الوهاب لإزار هذه القاعة الخشب أنها ترجع إلى القرن ٨ هـ — ١٤ م أنظر تقرير اللجنة الدائمة للاثار رقم ٨٠٣ (٦ / ٧ / ١٩٤٢)

(٣) E. Pauty : Dipositif de Plofond Fatimite. B. I. E. vol. XV pp. 99-107 Pls. I, II.

(٤) Flury : Die Ornamente der Hakim und Ashar-Moschée (Heidelberg 1912) Tafel II nº 3, David Weill : *op. cit.* pl. XI.

وفى ضوء هذه الإعتبارات كلها يمكن مراجعة الجداول التحليلية الواردة فى هـذا البحث (اللوحات ١٠ و ١١ و ١٢) عن تحليل الحروف الكتابية فى هذا اللوح ومقارنتها بتلك التى وردت فى أخشاب الحاكم وأخشاب بيمارستان قلاوون ولوح قاعة الدردير وأخشاب تابوت السيدة رقية وجامع الصالح طلائع . وسنخرج من هذه المقارنة بأن الحروف الكتابية على اللوح الخشبى الذى ننشره اليوم لأول مرة تختلف فى تنفيذها عن حروف الكتابة فى جامع الحاكم وأخشاب بيمارستان قلاوون ذات الكتابات ، بقدر ما تقترب من طراز الكتابة بلوح قاعة الدردير [1] والألواح الخشبية فى تابوت السيدة رقية وجامع الصالح طلائع . فبينما نجد الكتابات من النوع الأول تظهر فيها بقايا الحروف الطولونية الصلبة [2] أو التوريقات التى لم يكتمل نضوجها واستدارتها فى حلزونات حول الحروف، نجد كتابات النصف الأول من القرن الثانى عشر [3] تبدو فيها الرشاقة واللیونة رغم سمك الحروف المحفورة ، هذا إلى جانب امتزاج الحروف الكتابية أحيانا بالحلزونات والتوريقات العربية الملتفة حولها على الأرضيات بحيث تتشابك معها فيصعب تخليص الحروف من مهادها الزخرفى الذى يتألف من العروق النباتية وأوراق العنب الثلاثية كما هو واضح خاصة فى لوح قاعة الدردير وتابوت السيدة رقية وألواح الصالح طلائع واللوح الخشبى الذى ننشره هنا .

لذلك يمكن القول بأن هذا اللوح الخشبى الذى اقتناه متحف الفن الاسلامى بالقاهرة فى صيف سنة ١٩٦٢ يرجع إلى منتصف القرن ١٢ م هو وبقية المجموعة الفاطمية المكملة له والمثبتة فى مدفن شجر الدر .

---

(١) لا يزال هذا اللوح مثبتا فى حائط القاعة من الناحية الشرقية على ارتفاع ٣,٥ متر من الأرض وعرض هذا اللوح ٣٥ سم وطوله فى دخلة الدر قاعة ٢,٤٨ مترا بينما يستمر إلى اليمين واليسار بزاوية إلى امتداد ٣٥ سم ثم ينقطع فجأة ويبدو من لحامات الزوايا لهذا اللوح أنه صنع خاصة ليناسب المكان المثبت به من القاعة حاليا .

(٢) زكى حسن : الفن الاسلامى فى مصر ج ١ (القاهرة ١٩٣٥) اللوحات رقم ١٢، ١٣ ورقم ٢٠ وانظر Creswell : Early Muslim Architecture vol. II, Pl. 123 .

(٣) انظر كذلك أخشاب عهد الحافظ إلى عهد الفائز فى David Weill : Les Bois à Epigraphies jusq'à l'époque Mamlouke (Caire 1931) Pls. XV, XIX.

٢ — شمعدان لاجين تحفة دمشقية

لفت الأستاذ جاستون ڤيت G. Wiet الأنظار إلى أهمية مجموعة متحف الفن الإسلامي بالقاهرة من التحف المعدنية، وذلك منذ أن نشر كتابه Objets en Cuivre سنة ١٩٣٢ من بين مطبوعات المتحف. والحق أنه رغم أهمية هذا السفر فى الوقوف على كثير من كتابات وزخارف التحف المعدنية من أوانى ومقلمات وشماعد وثريات وغيرها، إلا أن كثيراً منها أصبح فى حاجة ماسة إلى دراسة جديدة فاحصة تهدف إلى أبعد من نشر التحفة فى كتالوج عام قد لا يتسع للدراسة التفصيلية، كما أن كتاب الأستاذ ڤيت قد نشر قبل أن يقتنى المتحف مجموعته العالمية التى اشتراها من المستر رالف هرارى سنة ١٩٤٥.

وقد تبين لى أثناء دراستى لبعض مجموعات المتحف من التحف المعدنية أن الشمعدان النحاس المسجل برقم ١٢٨ بالمتحف تحفة تستحق الدراسة بحق فهو مطعم بالفضة ويحمل كتابات باسم السلطان المملوكى لاچين (٦٩٦—٦٩٨ هـ) (١٢٩٦—١٢٩٨ م) وقد ورد ذكر هذا الشمعدان فيما كتبه مكس هرتس ومحمود عكوش قبل إشارة الأستاذ ڤيت اليه محاولا تاريخه بسنة ٦٩٦هـ (١٢٩٦م) [١] غير أننى لاحظت وجود نص رئيسى من الكتابة النسخية المملوكية لم يسبق لأحد من الباحثين دراسته من قبل مع أهميته البالغة فى التعرف على تاريخ هذه التحفة ومكان صناعتها بل واسم الصانع أيضاً، لذلك رأيت من المفيد أن أنشر هذا الشمعدان محققاً كى يساعد فى التعرف على مكانته الرائعة بين التحف المملوكية بعامة والدمشقية بخاصة سيما إذا لاحظنا أن التحف المعدنية المملوكية المصنوعة فى دمشق نادرة جداً [٢].

والشمعدان الذى نحن بصدد نشره (لوحة رقم ١٣) مصنوع من النحاس الأصفر وهو خليط من النحاس الأحمر والزنك، وزخارفه وكتاباته مكفتة بالفضة وقطره

(١) مكس هرتس : فهرس دليل دار الآثار العربية (ترجمة على بهجت) القاهرة ١٣٢٧ هـ ص ٢٠٢ — ٢٠٣، محمود عكوش : الجامع الطولونى (القاهرة ١٩٢٧) ص ٩٨،
G. Wiet : Objets en cuivre pp. 7, 8, 9 Pl., XXX.

(٢) نلاحظ أن الثبت الذى أورده الأستاذ Wiet فى كتابه سالف الذكر ص ٤٨ لم ترد فيه أية تحفة معدنية مسجل عليها اسم «دمشق» فى العصر المملوكى بل أن «دمشق المحروسة» لم ترد فى غير تحفة أيوبية باسم الملك الناصر يوسف وهى التحفة التى صنعها حسين بن محمد الموصلى سنة ٦٥٧ هـ (١٢٥٩ م) بمتحف اللوفر.

من أسفل ٣٥ سم وارتفاع الشمعدان كله ٤٢ سم وهو وارد للمتحف من القلعة بالقاهرة وربما كان قد نقل إلى القلعة من جامع ابن طولون حيث كان مكانه الأصلى الذى وقف عليه ويتألف شكله العام من أجزاء رئيسية ثلاثة :

١ — البدن : وهو الجزء الذى اصطلح على تسميته بالقاعدة .

٢ — العمود : وهو رقبة الشمعدان فقط دون الجزء العاوى .

٣ — الشماعة : وهى الجزء العلوى الذى يتوج العمود ويخصص لتثبيت الشمعة فيه .

وسنتناول بالبحث هذه الأجزاء كل على حدة

البدن : أسطوانة على شكل مخروط ناقص قطره من أسفل ٣٥ سم ومن أعلا ٢٦ سم وارتفاعه ٢٥ سم ويزين البدن شريط محدّد عرضه ١٤ سم يدور حول الوسط ويحتوى على كتابة نسخية مملوكية بقلم كبير وهى كتابة بارزة بالحفر على أرضية من زخارف نباتية من فروع وأوراق دقيقة (لوحة ٢٣ شكل ب) يبدو على بعضها أثر التكفيت بالفضة بينما تحتفظ الكتابة بكثير من فضتها ونص الكتابة [1] :

١ — (مما عمل برسم الجامع المعمور بيقا[ء] سيد ملوك المسلمين مولانا السلطان الملك المنصور حسام الدنيا والدين أبى عبد الله لاجين الذى تقرب إلى الله تعالى بعمارته) .

ويحيط بشريط الكتابة من أعلا البدن وأسفله شريطان عرض كل منهما ٤ سم ويزين كل شريط فرع نباتى متموج تخرج منه أوراق جناحية متبادلة (لوحة ٢٣ شكل د) وبالشريطان أثر تكفيت بالفضة ، وبسطح البدن قرص من النحاس الأصفر مثبت فى وسطه عمود الشمعدان ، ويحيط بالقرص قرب محيطه الخارجى شريط بعرض ٢ سم محدد بخطين من النقط المحفورة ، ومزين بزخارف محفورة قوامها طيور البط الطائر وتحصر كل اثنتين منها طائر صغير يمشى على رجليه أشبه بالكتكوت (لوحة ٢٣ شكل هـ) ، ويقطع زخرفة هذا الشريط ثمان مناطق مستديرة بها أثر زخارف هندسية من خطوط تشع من مركز واحد ، ويلى هذا الشريط إلى الداخل شريط آخر محدد بعرض ٣,٥ سم يدور حول العمود وعليه كتابة نسخية دقيقة على أرضية من زخارف نباتية محفورة بالبارز ، ويفصل بين الكتابة وبعضها أربع جامات مستديرة يخرج محيط كل منها عن حدود الشريط من أعلا ومن أسفل ،

---

(١) أشار إلى هذه الكتابة محمود عكوش : الجامع الطولونى ص ٩٨ وكذلك Wiet : *op. cit.* p. 7.

وتزينها زخارف نباتية من بينها زهرات اللوتس المتفتحة (لوحة ٢٣ شكل حـ) ، وبهذا الشريط أثر تكفيت بالفضة ونص الكتابة .

٢ — (المعروف بابن طولون — تقبل الله ذلك منه وأحسن [١] — إليه فى الدنيا والآخرة — وجعله فى صحائف حسناته —) .

العمود : اسطوانة من نفس المعدن النحاس الأصفر ارتفاعها ١٠ سم يدور حول أسفلها شريط غير محدد من كتابة نسخية مملوكية دقيقة محفورة حفراً غير عميق ولعل ذلك هو السبب فى أنه لم يتنبه إلى قراءتها الاستاذ فييت ، ونص الكتابة (انظر لوحة ١٩ و ٢٠) :

٣ — (عمل على ابن كسيرات الموصلى سنة سبعة وتسعين وستماية بدمشق المحروسة خلد الله ملك مالكها) .

وسنناقش هذا النص فيما بعد .

ويدور حول وسط العمود شريط محدد بعرض ٦سم عليه كتابة بقلم النسخ المملوكي الدقيق محفورة بالبارز على أرضية تزينها فروع وأوراق نباتية بارزة ونص الكتابة (لوحة رقم ١٧ و ١٨).

٤ — (العبد الفقير إلى الله تعالى شادى [٢] بن شيركوه أثابه الله الكثير) [٣]

الشماعة . (لوحة رقم ١٥ و ١٦) اسطوانة على شكل مخروط ناقص ارتفاعها ٧ سم وبها فتحة من أعلا لوضع الشمعة قطرها ٦٢ مم ويدور حول الشماعة من الخارج شريط زخرفى عرضه ٣٧ مم محدد من أعلا ومن أسفل بشريطين رفيعين خاليين من الزخرفة ، ويزين الشريط الأوسط كتابة بالخط النسخي المملوكي الدقيق يفصلها عن بعضها أربع جامات مستديرة فى هيئة ميمات مزينة بزخارف نباتية قوامها فروع وأوراق نباتية (لوحة رقم ٢٣ شكل ا) وبهذا الشريط أثر تكفيت بالفضة ونص الكتابة .

٥ — (تقرب بوقفيته على — جامع ابن — طولون فى — المحراب —) .

---

(١) يذكر محمود عكوش : المرجع السابق هذه العبارة على الوجه التالى (تقبل الله منه ذلك وأحسن) وكذلك قرأها Wiet فى ص ٧ مع أن كلمة (منه) لا تسير فى نفس مستوى السطر النسخى المكتوب بل هى فى مستوى أعلى بين كلمة (الله) و (ذلك) فرأيت الأجدر قراءة النص هكذا بإجمال الكتابة التى فى مستوى واحد ثم أكملها بما فوقها والمعنى يستقيم فى كلا القراءتين .

(٢) قرأها Wiet ص ٧ (شاذى) ولكنى قرأتها هكذا (شادى) بعد تحقيق اسمه .

(٣) قرأها عكوش (الكبير) على أساس أنها اسم من أسماء الله الحسنى وأضاف قبلها كلمة (تعالى) مع أنها غير موجودة فى النص المنقوش وكذلك قرأها Wiet (الكبير) غير أننى أميل إلى قراءتها (الكثير) اشارة إلى الثواب وتكملة للدعاء الذى بدأ به النص للعبد الفقير شادى .

ومن الملاحظ على زخارف هذا الشمعدان أن الفروع والأوراق النباتية تشكل فى مجموعها عنصرا ثانويا يصحب الموضوع الزخرفى الرئيسى الذى يسود الشمعدان كله وهو الكتابة النسخية التى تتفاوت أحجامها حسب الفراغ المحدد لها فوق سطح الشمعدان ولـكنها لا تخرج عن طراز الكتابة المملوكية النسخية فى مختلف حروفها المطلقة أو المركبة أو المجموعة أو المقطوفة أو المحققة أو المدغمة أو المبسوطة أو الملوزة أو المربعة أو المعلقة (س) كما تبدو فى الجدول التحليلى للنصوص الواردة على الشمعدان[1] (لوحة رقم ٢٤) ويظهر أن السبب فى شيوع هذا النوع من الزخارف الكتابية والنباتية وحسب هو أن الشمعدان عمل خاصة ليوضع فى محراب مسجد ابن طولون[2] كما يبدو من النص (رقم ٥) وينهض ذلك دليلا على أن هناك شمعدانا آخر يطابق الشمعدان الذى ننشره هنا كى يوضع كل منهما فى جانب من المحراب نفسه، ولـكن لم يصلنا غير شمعدان واحد، وظاهرة وضع الشماعد على جانبى المحاريب قد سجلتها كثير من التحف الإسلامية منذ العصر المملوكي وما بعده سواء فى التحف الرخامية، أو الخزفية أو السجاجيد[3] (لوحة رقم ٢١ ولوحة رقم ٢٢).

ويبدو من استعراض النقوش الكتابية أنها تشكل خمسة أسطر وليس أربعة كما ذكر الأستاذ ڤيت وعكوش (لوحة رقم ١٤)، اثنان منها على البدن، واثنان على عمود الشمعدان ومن بينهما النص الهام الذى ننشره هنا لأول مرة محققا، وسطر واحد على الشماعة، وكل هذه

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٣ ص ٦٣

(٢) روعى فى زخرفة المساجد وأثاثها استبعاد الرسوم الحيوانية والآدمية حتى أضحت خلوا من الصور والتماثيل التى يستعان بها على شرح العقائد الدينية وتوضيح تاريخ الدين وحياة أبطاله كما فى المسيحية. أنظر زكى حسن : فى الفنون الإسلامية ص ٢٧

(٣) ورد للمتحف شماعد كل اثنين منها متماثلين ويظهر أنهما لهذا الغرض نفسه أى لوضعهما على جانبى المحاريب ومنها الشمعدانان رقم سجل ٢٣٣١ و ٢٣٣٢، وأنظر توزيع الشمعدانين على المحراب الرخامى المملوكى رقم سجل ١٩ وعلى بلاطات الخزف رقم سجل ٢٠٩٥ ورقم ٦٩١٤ وعلى السجادة الاسلامية بالمتحف رقم ١٥٧٧٤ وقد أشارت وثائق وقف كثيرة منها وثيقة لاجين بمحكمة القاهرة للأحوال الشخصية رقم ١٧ محفظة ٣ إلى تعيين أمين عدل لحفظ آلات الإضاءة بالجامع وخصصت مبالغ معينة لشراء ما تحتاجه الشماعد من الشمع الأبيض المسبوك على القطن المفتول برسم الوقود أنظر عن حجج وقف أخرى وردت فى بحث الدكتور عبد اللطيف ابراهيم : المكتبة المملوكية ص ٤٤ وحاشية رقم (١).

النصوص تسير مترابطة المعنى ومتكاملة بترتيبها من أسفل إلى أعلا فى النصوص من (١ - ٣) ثم من أعلا إلى أسفل فى النصين (٥ و ٤) وتبدأ النصوص الأولى الرئيسية من (١ - ٣) بالاشارة إلى اسم السلطان المملوكى لاجين كما تشير إلى ارتباط الشمعدان بعمارة الجامع الطولونى التى أجراها هذا السلطان فى ٦٩٦هـ (١٢٩٦م) « وكان إذ ذاك مهجوراً لا يوقد به سوى سراج واحد فى الليل ، ولا يؤذن أحد بمنارته وإنما يقف شخص على بابه ويؤذن[١] كما يشير النص الثالث إلى اسم الصانع وتاريخ ومكان صناعة الشمعدان . أما النصين الخامس والرابع فيشيران على التوالى إلى وقف « شادى بن شيركوه » لهذا الشمعدان على محراب الجامع الطولونى .

أما شادى هذا فقد ذكر المرحوم على بهجت أنه « لم يستدل مع كثرة البحث فى كتب الوفيات على شادى بن شيركوه الذى أوقف هذا الشمعدان على الجامع »[٢] كما ذكره الأستاذ ڤيت Wiet باسم « شاذى » وأكد أنه غير معروف تماماً فى كتب التراجم[٣] .

والحق أننى جهدت فى البحث عن هذه الشخصية التى أمرت بصنع الشمعدان فى دمشق المحروسة تقربا إلى الله وطمعا فى ثوابه ، وذلك لوقفه « على جامع بن طولون فى المحراب » ويغلب على الظن أن هذا الشخص هو الملك الأوحد شادى أحد أمراء دمشق نفسها الذى عاصر كتبغا ولاجين ، وقد تولى هذه الإمرة بدمشق منذ ١٦ رمضان سنة ٦٩٤هـ (١٢٩٤م) فيذكر المقريزى فى كتابه السلوك أنه « فى سادس عشرى رمضان [٦٩٤ هـ] . .. أنعم (كتبغا) على الملك الأوحد شادى بن الزاهر مجير الدين داوود بن المجاهد أسد الدين شيركوه بن ناصر الدين محمد بن أسد الدين شيركوه الأيوبى بإمرة فى دمشق ، فاستقر من جملة أمراء الطبلخاناه بها وهو أول من أمر طبلخاناه من بنى أيوب فى الدولة التركية (المملوكية) »[٤] .

---

(١) المقريزى : السلوك (زيادة) جـ ١ قسم ٣ ص ٨٢٧

(٢) « فهرس مقتنيات دار الآثار بالعربية » لمكس هرتس وترجمة على بهجت (القاهرة ١٣٢٧هـ) ص ٢٠٣

(٣) G. Wiet : *op. cit.* pp. 7, 8. حيث يذكر :

« ... un certain, Shadhi, fils de Shirkuh, complétement inconnu des chroniques ».

(٤) المقريزى : السلوك (زيادة) جـ ١ قسم ٣ ص ٨٠٩ وأنظر عن تسمية الدولة المملوكية بالدولة التركية مقال الدكتور زيادة عن " ملاحظات جديدة فى تاريخ دولة المماليك " مجلة آداب القاهرة مايو ١٩٣٦ ص٧٤ ، ابن حجر العسقلانى: الدرر الكامنة جـ ٢ ص ١٨٣ - ١٨٤ (طبعة حيدر آباد ١٣٤٩ هـ) .

وقد ذكر القلقشندى تعريفا للطبلخاناه وأميرها عند الحديث عن رسوم الملك وآلاته أنها « بيت الطبل ويشتمل على الطبول والأبواق وتوابعها من الآلات ويحكم على ذلك أمير من أمراء العشرات يعرف بأمير علم ، يقف عليها عند ضربها فى كل ليلة ويتولى أمرها فى السفر »(١) ويعتبر أمير الطبلخاناه من جملة أرباب السيوف فى الدولة المملوكية كما يعتبر من أمراء الطبقة الثانية الذين « عدة كل منهم فى الغالب أربعون فارسا ... وقد يزيد بعضهم على ذلك إلى سبعين فارسا ... ومن أمراء الطبلخاناه تكون الرتبة الثانية من أرباب الوظائف والكشاف بالأعمال وأكابر الولاة »(٢) وهذه هى رتبة شادى بن شيركوه الذى أرجح أنه أوقف الشمعدان الذى ننشره هنا وقد ذكر ابن حجر العسقلانى أن شادى هذا توفى عن تسع وخمسين سنة (٣) .

ومن الملاحظ فى النص (رقم ٤) أن اسم شادى ورد مسبوقا بعبارة « العبد الفقير إلى الله تعالى » وقد استعمل لفظ « العبد » هنا كلقب قصد إظهار الصلة بين شادى كأمير وبين لاجين كسلطان وكثيراً ما ورد هذا اللقب ليترجم به السلاطين عن أنفسهم فى مكاتباتهم إلى الخلفاء (٤) وقد أضيف إلى اللقب هنا فى النص عبارة « الفقير إلى الله تعالى » إمعاناً فى التواضع والتذلل ، وهناك نص مشابه من عصر المماليك ورد فيه اللقب هكذا من بين ألقاب نائب السلطنة سيف الدين سلار فى نقش على مشكاة مموهة بالمينا بمتحف الفن الاسلامى (٥) .

أما لاجين الذى سجل الشمعدان اسمه فهو أحد أبناء البلاد الواقعة على البحر البلطى بالشمال الغربى من أوربا وكان قد انخرط فى سلك فرقة الفرسان التيوتون المسيحية Ordre des Chevaliers Teutoniques وحارب فى صفوفها ضد الوثنيين على البحر البلطى وجاء إلى الشام صليبياً يبتغى مع الصليبيين تخليص بيت المقدس من المسلمين ثم اعتنق

(١ ، ٢) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ١٣ ، ص ١٥ ، وأنظر مادة « طبلخاناه » فى Dozy : Suppl.

(٣) ابن حجر : المرجع السابق ص ١٨٤

(٤) أبو شامة : الروضتين ج ١ ص ١٧٢ ، والدكتور حسن الباشا : الألقاب ص ٣٩٢

(٥) G. Wiet : Lampes et Bouteilles en verre Emaillé (Le Caire 1929) ورقم سجل هذه المشكاة (٢٨١) وأرخها فيت ٧٠٣ هـ (١٣٠٣م) p. 25.

ويعتقد الدكتور حسن الباشا أن غالب ورود اللقب بهذا النص فى النصوص الجنائزية وكان لا يأتى فى النقوش المملوكية ضمن ألقاب سلطان قائم أنظر حسن الباشا : الألقاب ص ٣٩٣

الإسلام بعد ذلك وصار من زمرة مماليك قلاوون بمصر وتقلب فى الخدم المملوكية حتى عينه قلاوون نائباً بدمشق حيث عرف بلاجين الصغير [1] . وما لبث أن اشترك مع بعض المماليك فى قتل السلطان الأشرف خليل بن قلاوون فى ١٢ محرم سنة ٦٩٣ هـ ، ولجأ مختفياً إلى منارة الجامع الطولونى كمكان مهجور يلوذ به ، فأقام مدة لم يظهر خبره حتى عفى عنه السلطان الناصر محمد بن قلاوون ، وفى عهد سلطنة كتبغا (٦٩٤—٦٩٦ هـ) بقى لاجين نائباً للسلطنة بل قسيم المملكة مع كتبغا [2] غير أن لاجين دبر مؤامرة لقتل كتبغا نفسه ففر الأخير إلى دمشق وتولى لاجين سلطنة الديار المصرية والشامية فى صفر ٦٩٦ هـ (١٢٩٦ م) « فأراد أن يكون من شكر نعمة الله عليه عمارة هذا الجامع (الطولونى) فعمر » [3] وصرف على عمارته ٢٠٫٠٠٠ عشرين الف دينار ووقف عليه قرية منية أندونة من أرض الجيزة [4] للصرف منها على المدرسين والمشتغلين والموظفين فى الجامع ، ورتب فيه دروساً للحديث والتفسير والفقه على المذاهب الأربعة ، ومدرساً للطب وأنشأ مكتباً وسبيلا كما أمر بعمل إصلاحات أخرى فى الشبابيك والمئذنة [5] ووضع منبراً للجامع أمر بعمله فى ١٠ صفر سنة ٦٩٦ هـ وسجل لاجين تاريخ عمارته التى أجراها بالجامع الطولونى على لوح خشبى فوق القبة بالصحن مؤرخ سنة ٦٩٦ هـ (١٢٩٦ م) وعلى باب منبره بالجامع .

---

(١) دكتور زيادة : ملاحظات جديدة فى تاريخ دولة المماليك ص ٧٤ ، المقريزى : السلوك (زيادة) جـ ١ قسم ٣ ص ٨٢٠ — ٨٢١

(٢) عزل « كتبغا » السلطان الناصر محمد بحجة أنه لم يبلغ سن الرشد وبقى كتبغا فى السلطنة سنة إلا ثلاثة أيام (النجوم الزاهرة) جـ ٨ ص ٨٦ ، دكتور جمال سرور : دولة بنى قلاوون ص ٣٨

(٣) السلوك جـ ١ قسم ٣ ص ٨٢٧ ويذكر ابن تغرى بردى النجوم جـ ٨ ص ١٠٧ تعليقا على هذا التعمير « لولاه لكان دثر وخرب » .

(٤) أنظر وثيقة السلطان لاجين بمحكمة الأحوال الشخصية بالقاهرة رقم ١٧ محفظة ٣ ورقم ١٨ محفظة ٣

(٥) المقريزى : خطط جـ ٢ ص ٢٦٩ ، Creswell : E. M. A. II, pp. 354/5 ، دكتور فريد شافعى : مئذنة مسجد ابن طولون (مجلة آداب القاهرة م ١٤ جـ ١ مايو ١٩٥٢) ص ١٦٧ وما بعدها حيث يذكر سيادته أن « الرأى قد انتهى إلى أن المئذنة كلها من ضمن أعمال الإصلاح والتعمير التى قام بها لاجين فى جامع ابن طولون فى ٦٩٦هـ (١٢٩٦م) » ، حسن عبد الوهاب : تاريخ المساجد الأثرية جـ ١ ص ٤٥

ومن بين أعمال لاجين التى تهمنا فى عمارة هذا الجامع ذلك المحراب الأيسر بجامع ابن طولون بالرواق الأول ناحية الصحن وهو المحراب الذى أمر به لاجين ليكون مطابقاً للمحراب الأيمن المستنصرى الفاطمى ، فبينما يشير النصان الأول والثانى من نصوص الشمعدان إلى عمارة لاجين بالجامع الطولونى بصفة عامة نرى أن النصين الرابع والخامس يشيران إلى محراب لاجين بصفة خاصة ، إذ أن شادى بن شيركوه وقف الشمعدان على هذا المحراب الذى نتج عن عمارة لاجين بالجامع الطولونى ٦٩٦ هـ (١٢٩٦ م) . وقد سجل لاجين اسمه وألقابه على هذا المحراب فى كتابة كوفية زخرفية فى الهامش الخارجى للمحراب الجصى تخلف منها « . . . هذا المحراب المبارك مولانا السلطان الملك المنصور حسام الدنيا والدين لاجين سلطان الإسلام . . » [1] ، ونحن نخص هذا المحراب — بالشمعدان الذى أوقفه شادى ابن شيركوه — من بين المحاريب الخمسة بالجامع الطولونى سواء الطولونية منها أو الفاطمية أو المملوكية ، لأنه لا يعقل أن يوقف شادى شمعداناً باسم لاجين على غير المحراب الكبير الجصى الذى أنشأه لاجين نفسه بالجامع الطولونى ، سيما وأن شادى وهو أمير دمشق يرغب فى استرضاء السلطان لاجين بهذه التحفة التى أمر بصنعها بدمشق نفسها فى مناسبة خاصة .

ومن الملاحظ أن كتابات النصين (١ و ٢) تضمنت كثيراً من ألقاب لاجين والدعاء له بالإحسان اليه فى الدنيا والآخرة بسبب عمارته للجامع الطولونى « المعمور [2] » ففى النص رقم (١) مثلا ورد « سيد ملوك المسلمين مولانا السلطان الملك المنصور حسام الدنيا والدين أبى عبد الله لاجين » ويقترب هذا النص بما أضفى على لاجين من ألقاب من نص مماثل ورد فى وثيقتى لاجين بمحكمة الأحوال الشخصية بالقاهرة برقم مسلسل ١٧ و ١٨ محفظة ٣ ، ففى الوثيقة رقم ١٧ وردت ألقابه هكذا « السلطان لاجين بن عبد الله المنصورى قسيم أمير المؤمنين صاحب الديار المصرية والبلاد الشامية والفراتية والحلبية

---

(١) محمود عكوش : الجامع الطولونى ص ٦٨ ، Creswell : E. M. A. vol. II, pp. 348-9

(٢) ورد هذا اللفظ فى شمعدان لاجين هنا فى النص رقم (١) والواقع أن هذه الكلمة من الألقاب التى « كانت تجرى مجرى التفاؤل . . تفاؤلا بدوام عمارها وبدوام عز صاحبها وبقائه » أنظر حسن الباشا : الألقاب الاسلامية ص ٤٧٨ ، والقلقشندى : صبح الأعشى جـ ٦ ص ١٨٥ وكذلك أنظر وثيقة لاجين رقم ١٨ محفظة ٣ محكمة القاهرة حيث نجد وصف بيت المال بنفس اللفظ فى عدة مواضع « بيت المال المعمور » . كما ورد اللفظ على مشكاة زجاجية بمتحف الفن الإسلامى رقم سجل ٣١٥٤ باسم الماس الحاجب حيث ذكر « مما عمل برسم الجامع المعمور » أنظر :
Wiet : Lampes et Bouteilles en Verre Emaillé (Le Caire 1929) p. 123.

والساحلية وما مع ذلك من المدائن والقلاع والأمصار والثغور »[1] بينما وردت ألقاب لاجين على السكة التى ضربت باسمه من الدنانير والدراهم بمتحف الفن الاسلامى بالقاهرة والمكتبة الأهلية بباريس (السلطان الملك المنصور ناصر الملة المحمدية حسام الدنيا والدين لاجين[2]) ، و (السلطان الملك المنصور حسام الدنيا والدين أبو الفتح لاجين المنصورى ، خلد الله سلطانه[3]) .

ولن نمعن فى تحليل ألقاب كل هذه النصوص التى وردت على سكة لاجين أو منشآته أو وثائق وقفه ، وإنما قد أوردتها هنا فقط لمعرفة مدى التقارب بين مختلف النصوص الوثائقية للاجين ، وكذلك لمعرفة مدى ارتباطها بالنص الذى ورد محفوراً بارزا على شمعدان لاجين ، وهو الذى يهمنا هنا ، وبمقارنة هذا النص بغيره من نصوص لاجين نرى أنه أكثر قربا من النص الوارد على محراب لاجين بالجامع الطولونى وهو ذلك المحراب الذى عمل الشمعدان من أجله ، وخاصة فى الجزء الذى ينص على « مولانا السلطان الملك المنصور حسام الدنيا والدين لاجين » فيما عدا أن نص الشمعدان قد أضفى على لاجين لقب (أبى عبد الله) الذى لم يرد إلا فى وثيقتى لاجين بمحكمة القاهرة التى أشرت إليهما وقد ورد اللقب فى الوثيقتين مصحفاً « لاجين بن عبد الله » بينما ورد على الشمعدان مصحفاً « أبى عبد الله »[4] ونقشت كلمة (أبى) بشكل لا يدع مجالا للشك فى قراءتها بغير ذلك . إذ تظهر الياء الراجعة واضحة بحيث لا يمكن افتراض قراءتها (نونا) كما لا يمكن افتراض

---

(١) وثيقة رقم ١٧ محفظة ٣ بمحكمة الأحوال الشخصية بالقاهرة مؤرخة ٢١ ربيع الآخر سنة ٦٩٧ هـ على رق غزال وكذلك وردت القابه على الحجة رقم ١٨ بنفس المحفظة والمحكمة وهى على رق كذلك وتعتبر نسخة أخرى من رقم ١٧ مسلسل وتاريخها أيضا ربيع آخر سنة ٦٩٧ هـ وفى وجه هذه الوثيقة ذكر « حسام الدنيا والدين سلطان الإسلام والمسلمين » وإنى أسجل هنا شكرى للزميل الدكتور عبد اللطيف ابراهيم الذى أعارنى سلبية هاتين الوثيقتين .

(٢) دينار بالمكتبة الأهلية بباريس ضرب دمشق المحروسة ٦٩٦ هـ وزن ٤,٨٥ جرام برقم (٨٥٣) وآخر بدون تاريخ وزن ٥,٣٧ جرام برقم (٨٥٤) أنظر
Lavoix : Catologue des monnaies Musulmanes vol III. pp. 345, 346. Pl. VII (Paris 1896).

(٣) دينار رقم سجل ٢٠ / ١٤٧١٣ بمتحف الفن الاسلامى ضرب سنة ٦٩٦ هـ ودراهم رقم سجل ١٠٨٢١ بمتحف الفن الاسلامى . وعلى الدينار وردت القابة (السلطان الملك المنصور حسام الدنيا والدين أبو الفتح لاجين المنصورى خلد الله سلطانه) وعلى بعض الدراهم وردت (السلطان الملك المنصور ناصر الله المحمدية حسام الدنيا والدين لاجين) وعلى بعضها مثل ما وردت على الدينار تماما .

(٤) يذكر الأستاذ فيت أن هذا اللقب لم يرد فى أى كتابه باسم لاجين انظر: Wiet : Objets p. 8

قراءتها (واوا) إلا فى حالة عدم وجود (عبد الله) بعدها فيقال «أبو الفتح» مثلا كما فى سكة لاجين التى سبقت الإشارة إليها أو يقال « أبو المظفر » كما ورد فى نص مؤرخ ٦٩٦هـ باسم لاجين [١] وعلى ذلك فلا مناص من اعتبار (الياء) هنا فى (أبى) خطأ وقع فيه النقاش ما دام يقصد إضافة (عبد الله) إليها ، وذلك ليستقيم معناها ومبناها مع ما ورد من ألقاب لاجين فى وثيقتيه بمحكمة القاهرة وقد شاع فى العصر المملوكى ورود لفظ (عبد الله مسبوقاً بكلمة (ابن) للاشارة إلى بعض المماليك او العتقاء فيقال مثلا « فلان ابن عبد الله » وكان يفهم من هذا أن المملوك أو العتيق المذكور مجهول الأصل ، وقد سمى السلطان الظاهر بيبرس فى مطالع العصر المملوكي باسم « بيبرس بن عبد الله » فى نص إنشاء بتاريخ ٦٦٦ هـ فى المسجد الأبيض بالرملة [٢] .

وفيما يتعلق ببقية ألقاب لاجين فى النص الوارد على الشمعدان فهى « سيد ملوك المسلمين مولانا السلطان الملك المنصور حسام الدنيا والدين » أما لفظ « سيد » فقد ورد معرفا كلقب عام على أصحاب السلطان الحقيقى فى مصر منذ العصر الفاطمى حتى نهاية عصر المماليك ، وقد دخل لقب الـ « سيد » فى تكوين كثير من الألقاب المركبة الأخرى ولكنه دائماً يفيد علو شأن الملقب به على أبناء جنسه المبينين فى المضاف إليه مثل تلقيب لاجين هنا بأنه « سيد ملوك المسلمين » [٣] أى أعظمهم قاطبة . وقد صار لقب « مولانا » من أهم ألقاب السلاطين والملوك منذ عهد صلاح الدين الأيوبى حين أوصى الكتاب فى دساتيرهم باستعماله كعلم على السلطان [٤] ونراه هنا فى نص الشمعدان قد أطلق على لاجين فى ٦٩٧ هـ كما أطلق عليه كذلك فى نص محرابه الجصى بالجامع الطولونى [٥] .

---

(١) أنظر Wiet : *op. cit.* p. 8, Brunnow et Domeszewski : Die Provincia Arabia, vol., II, (Strasbourg) p. 195

(٢) حسن الباشا : الألقاب الاسلامية ص٣٩٦ حاشية رقم ٣ ، Combe, Sovaget et Wiet : Répertoire Chronologiqued'Epigraphie Arab. (Le Caire1943) vol., 12, nº 4588 pp. 123, 124.

(٣) أنظر فى تفسير لقب الـ « سيد » وما أضيف اليه من ألقاب مركبة . حسن الباشا : المرجع السابق الصفحات من ٣٤٥ — ٣٥٠ ولكن لم يرد فيما أوضحه من ألقاب مركبة مضافة إلى « السيد » لقب لاجين « سيد ملوك المسلمين » الذى أوردناه هنا فى المتن كما ورد على الشمعدن المؤرخ ٦٩٧ هـ .

(٤) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٦ ص ٣٠٥ ، جـ ٧ ص ١٧

(٥) أنظر أيضا نقوش لاجين المؤرخة سنة ٦٩٦ هـ فى Van Berchem : C. I. A., Egypte, vol. I., nos 14-16 وكذلك النص الوارد على اللوح النحاس بمتحف الفن الاسلامى — الذى سجل عمارة لاجين بالجامع الطولونى برقم سجل ٢٠٢ بالمتحف .

أما لقب (سلطان) فكان لقباً عاماً على الحكام فى عصر المماليك وقد اتفقت كافة المصادر على ذلك رغم إطلاقه أحياناً على ولى العهد [1] وفى عهد المماليك كذلك استمر إطلاق لقب (الملك) على الرئيس الأعلى للسلطة الزمنية إلى جانب لقب السلطان فأصبح يقال (السلطان الملك) كما هو وارد فى نص شمعدان لاجين [2] وقد استعمل لقب (المنصور) فى مصطلح العصر المملوكي كإحدى الصفات التى تجرى مجرى التفاؤل بالنصر وهو لقب يشير إلى أن لاجين مؤيد من الله لأن النصر من عند الله [3]. وفيما يتعلق بلقب (حسام الدنيا والدين) فهو لقب فخرى أطلق على لاجين فى نص الشمعدان كما أطلق عليه فى معظم السكة التى ضربت باسمه من الدنانير والدراهم بدمشق والقاهرة، وكذلك ورد اللقب على محرابه بالجامع الطولونى كما ورد على الشريط النحاس متحف الفن الاسلامى باسم لاجين الذى تخلف عن عمارة لاجين بجامع ابن طولون. وورود اللقب بهذه الصيغة كناية عن أن لاجين هو (سيف الدنيا والدين) ويقرر القلقشندى أن هذا اللقب كان يطلق فى عصر المماليك على رجال الجيش من الترك ومن المولدين وكان فى الحالة الأولى يختص غالباً بالاسم «لاجين» [4].

لم يبق بعد ذلك من نصوص الشمعدان ما نناقشه غير النص رقم (٣) وهو النص الهام الذى اكتشفت وجوده بين نصوص الشمعدان: «عمل على ابن كسيرات الموصلى سنة سبعة وتسعين وستماية بدمشق المحروسة خلد الله ملك مالكها».

والواقع أنه لم يعد هناك شك فى أن صحة تاريخ هذا الشمعدان كما ورد بالنص هو سنة ٦٩٧ هـ وليس قبل ذلك كما قرر الاستاذ ڤيت Wiet. إذ أنه أرجع تاريخه إلى سنة ٦٩٦ هـ (١٢٩٦ م) [5] ويظهر أنه فى تأريخه لهذا الشمعدان ربط بين وقف شادى للشمعدان على محراب لاجين بالجامع الطولونى وبين عمارة لاجين فى هذا الجامع

---

(١) مثل الملك السعيد بركة قان فى العهد اليه سنة ٦٦٧ هـ والملك الصالح سنة ٦٧٩ هـ والملك الأشرف خليل سنة ٦٨٧ هـ أنظر حسن الباشا: المرجع السابق ص ٣٢٨ ، Van Berchem : *op. cit.*, p. 299

(٢) المقريزى: خطط جـ ٢ ص ٢٣٨ – ٢٣٩ القلقشندى: صبح الأعشى جـ ٥ ص ٤٨٧–٤٨٨

(٣) اشارة إلى الآية رقم ١٢٦ من سورة آل عمران (وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم) والآية رقم ١٠ من سورة الأنفال (وما النصر إلا من عند الله إن الله عزيز حكيم).

(٤) القلقشندى: صبح الأعشى جـ ٥ ص ٤٨٨ ، حسن الباشا: المرجع السابق ص ٢٥٩

(٥) Wiet : obets en cuivre p. 9, Pl. XXX

وهى العمارة التى تمت سنة ٦٩٦ هـ وأشارت اليها نصوص كثيرة مؤرخة سواء بقبة الصحن أو بالمنبر[١] ظناً منه أن الشمعدان لا بد أن يكون قد صنع فى هذه السنة بالذات وفى تلك المناسبة ، ولكن الصحيح هو ما ورد مؤكداً بالنص رقم (٣) على الشمعدان مما يقوم دليلا على أن هذا الشمعدان قد قدم هدية إلى لاجين ، بعد الانتهاء من عمارة الجامع الطولونى تماماً وإقامة المحراب الجصى الذى أوقف عليه شادى هذا الشمعدان سنة ٦٩٧ هـ .

أما « على بن كسيرات الموصلى » فهو الفنان الذى صنع الشمعدان وسجل اسمه ونسبته على قاعدة عمود الشمعدان ، ولكننا نتساءل الآن : هل كان ابن كسيرات هذا « السنكرى » الذى طرق الخامة النحاسية وشكلها فى هيئة الشمعدان ؟ أم هل كان « المطعم » الذى نزّل النحاس الأصفر بالفضة التى تظهر بقاياها على كثير من العناصر الزخرفية بالشمعدان ؟ أم كان « النقاش » الذى نقش كتابات الشمعدان وزخارفه الهندسية والنباتية ؟ إننا لا نستطيع أن نجيب على هذه الأسئلة إجابة قاطعة لأن النص لم يشر إلى مهنة « على ابن كسيرات » ، مع أننا نعرف من نصوص بعض التحف المعدنية المملوكية ما يميز بين كل فنان وآخر بحسب مهنته وهو أمر لم يفعله النص الذى ورد به اسم ابن كسيرات ، ففى متحف الفن الاسلامى شمعدان برقم سجل ١٥١٢١ من مجموعة هرارى مسجل عليه نص باسم « عمل الحاج اسماعيل » ولعل ذلك إشارة ضمنية إلى أنه السنكرى الذى طرق الخامة وشكلها لأن نفس النص سجل عبارة « نقش محمد بن فتوح الموصلى المطعم » وهى إشارة صريحة إلى ان ابن فتوح هو النقاش والمطعم كما أشار النص أيضا إلى نقاش آخر فى عبارة « أجير الشجاع الموصلى النقاش[٢] » وكذلك يوجد بمتحف الفن الاسلامى مائدة (كرسى عشاء) من النحاس المطعم بالفضة من العصر المملوكى باسم الناصر محمد بن قلاوون برقم سجل (١٣٩) ومؤرخه ٧٢٨ هـ (١٣٢٨ م) وعليها نص يشير

---

(١) Van Berchem : C. I. A. Egypte, nos. 14-16.

(٢) وفى المتحف البريطانى ابريق من عمل شجاع الموصلى مؤرخ فى شهر رجب سنة ٦٢٩ هـ (١٢٣٢م) فى الموصل ويبدو أن شجاع هذا كان فنانا مشهورا حتى أن محمد بن فتوح نقاش الشمعدان الذى يقتنيه متحف الفن الاسلامى لم يجد حرجا فى الانتساب اليه كأجير له وربما كان محمد بن فتوح قد قام بالعمل فى ورشة شجاع الموصلى بالشام أو مصر بعد فرار الأخير من الموصل التى استولى عليها المغول سنة ١٢٥٦ م . أنظر دليل موجز متحف الفن الاسلامى (١٩٥٨) ص ٥٠

إلى « المعلم الأستاذ محمد بن سنقر البغدادى السنكرى[١] » وفى متحف برلين صندوق مصحف من النحاس المطعم بالذهب والفضة عليه نص اكتشفه الزميل عبد الرؤوف على يوسف أثناء إقامته بإسن Essen بألمانيا الغربية وقرأه « عمل محمد ابن سنقر البغدادى » و « تطعيم الحاج يوسف بن الفوابى[٢] » .

ولكن رغم كل هذه النصوص التى تميز بين « المطعم » و « النقاش » و « السنكرى » الا أن نص المائدة المملوكية بمتحف الفن الإسلامى الذى سبقت الاشارة اليه يشير إلى « المعلم الأستاذ محمد بن سنقر » دون أن يسجل على التحفة اسم لغيره رغم تحديد مهنته بالسنكرى لذلك لا يبعد أن تكون أعمال السنكرة هى أشمل الأعمال الفنية وأعمها ، ولا يستطيع أن يمارسها الا « معلم أستاذ » كمحمد بن سنقر ليقوم بطرق الخامة وتشكيلها ونقشها وتطعيمها بمعرفته وفى ضوء مهارته الفنية ، وهو أمر يحملنا على الظن أن « على بن كسيرات » كان فنانا قديرا لم يكن فى حاجة إلى من يشاركه العمل فى إنتاج شمعدان لاجين سنة ٦٩٧ هـ بل قام هو بكافة الأعمال الفنية اللازمة لانتاج هذه التحفة الفريدة وانفرد بتسجيل اسمه ولقبه صراحة دون الإشارة إلى تخصص بعينه . ولعل لفظ « الموصلى » الذى ورد بعد اسم « على بن كسيرات » يدل على موطنه الموصل الذى ربما يكون قد تركها أمام غارات المغول واستيلائهم عليها سنة ٦٥٣ هـ (١٢٥٥م)[٣] قبل تحطيمهم بغداد ٦٥٦ هـ (١٢٥٨م) وهاجر مع من هاجر من زملائه الفنانين إلى حيث الأمن والسلامة ورغد العيش ، ولكنه آثر أن يختصر الرحلة إلى مصر المملوكية التى وصلها كثير من المواصلة أمثال محمد بن فتوح

---

(١) إن لفظ « السنكرى » قرأه الأستاذ الدكتور زكى حسن « السنانى » فنون الاسلام ص ٥٥٥ وقرأه Wiet « السناى » Objets en curire p. 18 ولكن الزميل الأستاذ عبد الرؤف على يوسف هو الذى قرأه صحيحا « السنكرى » ولا شك فى صحة هذه القراءة أنظر عبد الرؤف على يوسف : تحف فنية من عصر المماليك (مجلة المجلة مارس ١٩٦٢) ص ٩٨

(٢) عبد الرؤف على يوسف : تحف فنية من عصر المماليك (مجلة المجلة العدد ٦٢ مارس ١٩٦٢) ص ١٠٢

(٣) يشير الأستاذ كريسول إلى تاريخ استيلاء المغول على الموصل ١٢٥٥ م ويشير كذلك إلى أن فن تكفيت المعادن النفيسة قد توقف فى الجزيرة منذ ذلك التاريخ وظهر فى القاهرة بعد ذلك مباشرة أنظر : Creswell : The works of Sultan Bibars. Bull. de L'Institut Francais d'Archéologie Orientale). t., XVI., p. 182.

والبغداديين أمثال محمد بن سنقر ، وفضل على بن كسيرات أن يتخذ دمشق مستقرا ومقاما حيث مارس فيها فنونه قبل أن يستولى عليها المغول وينهبونها تماما سنة ٦٩٩ هـ [١] أى بعد تاريخ الشمعدان بعامين .

ولا نعرف لعلى بن كسيرات إنتاجا آخر غير هـذا الشمعدان الذى ننشره مؤرخا سنة ٦٩٧ هـ ، كما أنه لا يوجد فى متاحف العالم ما نشر من المعادن التى تحمل اسمه على الأقل حتى سنة ١٩٥٩ حين قدم المرحوم الأستاذ Mayer فى كتابه عن الفنانين المسلمين من صناع المعادن ثبتا بكافة الفنانين المواصلة من صناع التحف المعدنية [٢] غير أن أسرة كسيرات أسرة موصلية معروفة بدمشق فى العصر المملوكى ، وقد تولى أحدها وهو « مجد الدين اسماعيل بن كسيرات الموصلى » الوزارة للأمير سنقر الأشقر نائب الشام فى ذى الحجة سنة ٦٧٨ هـ وكان سنقر هذا قد نادى بنفسه سلطانا فى تلك السنة وقبض على الأمير حسام الدين لاجين وهو نائب قلعة دمشق وركب هو بشعار السلطنة [٣] ويهمنا من ذلك أن أسرة كسيرات أسرة موصلية استقرت فى دمشق وكان من بينها من مارس الصناعات الفنية كما كان منها من تولى الوظائف المدنية ومن خلال ذلك تبدو حقيقة هامة هى انتقال أثر مدرسة الموصل الفنية إلى دمشق .

والحق أن الموصل قد اشتهرت منذ القرن ١٢ م بتكفيت المعادن النحاسية والبرونزية [٤]

---

(١) زامبور : الأسرات الحاكمة (الترجمة العربية) جـ ١ ص ٤٧

(٢) Mayer : Islamic Metalworkers and their works (Geneva 1959) p. 62

وقد ذكر فى ص٦٢ كثيرا من المواصلة هم : عبد الكريم بن الترابى ، أحمد بن بارة ، أحمد بن حسين ، أحمد بن عمر ، على بن عبد الله ، على بن محمود ، على بن حسين ، على بن عمر بن ابراهيم ، داوود بن سلامة ، حسين بن محمد ، ابراهيم بن موالية ، اسماعيل بن ورد ، محمد بن فتوح ، محمد بن حسن ، شجاع بن منعه ، يونس بن يوسف .

(٣) المقريزى : السلوك جـ ١ قسم ٣ ص ٦٧٠ — ٦٧١ ويظهر أن أسرة كسيرات لم تكن رغم ذلك ذات مركز رفيع فى المجتمع إذ بعد أن استوزر سنقر الأشقر مجد الدين بن اسماعيل بن كسيرات ، وانتقل من دار السعادة حيث كان يقيم نواب دمشق ، وأمر بغلق باب النصر أحد أبواب قلعة دمشق تهكم عليه عامة الشعب بقولهم « أغلق باب النصر ، وانتقل من دار السعادة ، واستوزر ابن كسيرات فهذا أمر لا يتم » ويعلق المقريزى على ذلك بقوله « وكان كذلك » ص ٦٧١

(٤) E. Combe : Cinq Cuivres Musulmans daté de XIIIe, XIVe et XVe siecles de la Collection Benaki. B. I. F. A. O. t XXX pp. 49—58 حيث أشار الأستاذ كومب إلى أقدم التحف المعدنية المكفتة بالموصل وهى صندوق (حاليا بمتحف بناكى) صنعه اسماعيل بن ورد الموصلى ٦١٧ هـ (١٢٢٠ م) .

حتى أصبحت غاصة بالصناع الذين اشتهروا بمنتجاتهم الفنية على اختلاف أنواعها ولا سيما الأوانى النحاسية وقد انتقل فن تكفيت المعادن بالذهب والفضة من الموصل أمام غارات المغول وتخريبهم لمدن الجزيرة ، وحدثت فى هذا الفن تطورات جديدة « أصبحت من مميزات مدرسة أخرى مركزها القاهرة فى القرن ١٤ م فالجامات التى كانت تتكرر فى الأشرطة الزخرفية أصبحت لها جامات (كنارات) من الرسوم النباتية الدقيقة ، وبعد أن كانت الكتابات شيئا ثانويا أصبحت أهم الزخارف فى هذه المدرسة »[1] كما يذكر الأستاذ Christie ولكن إذا لاحظنا شمعدان لاجين المؤرخ ٦٩٧ هـ (١٢٩٧ م) وما به من زخارف كتابية فى القرن ١٣ م نقشها فنان موصلى وافد على دمشق يمكننا أن نقرر أن الخصائص الفنية التى تطورت إليها مدرسة الموصل قد حدثت فى مدرسة دمشق قبل القاهرة إذ تبدو الكتابات فى شمعدان لاجين هى العناصر الزخرفية السائدة فى أشرطة تحف بها رسوم نباتية دقيقة فى حافتها وأرضيتها .

ومن كل هذا يتضح لنا مدى ما تسهم به هذه التحفة المملوكية فى التعرف على صناعة التحف المعدنية المكفتة فى عصر المماليك ، وقيام مدرسة فنية دمشقية على يدى الفنانين المواصلة فى تاريخ معين يقدر ما توقفنا على اسم فنان جديد من هؤلاء الفنانين الذين هاجروا من الموصل إلى أنحاء الدولة المملوكية وخاصة مصر والشام .

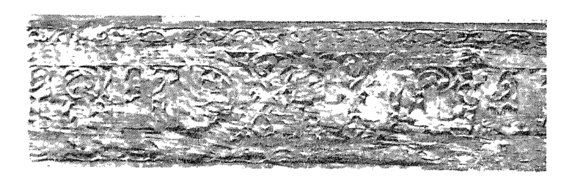
---

(١) تراث الاسلام : ترجمة المرحوم زكى محمد حسن ص ٣٠ وقد أشار الأستاذ كريسول إلى هجرة فنانى الموصل إلى مصر فى بحثه (Creswell : The works of Sultan Bibars (B. I. F A. O. t. XVI p. 182)

(لوحة رقم ١)



النصف الأيمن من اللوح الخشب الفاطمى من مدفن شجر الدر
(متحف الفن الاسلامى رقم سجل ٢٢٦٦١)



النصف الأيسر من اللوح الخشب من مدفن شجر الدر (متحف الفن الاسلامى)



تفاصيل من النصف الأيمن يمن لوح مدفن شجر الدر



تفاصيل من النصف الثانى من لوح مدفن شجر الدر

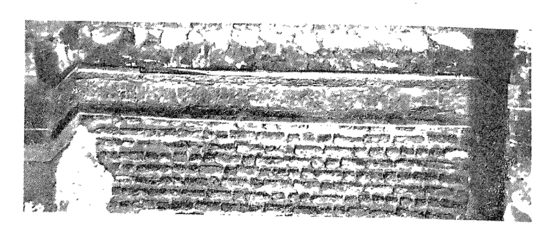


أحد الألواح الفاطمية من بيمارستان قلاوون

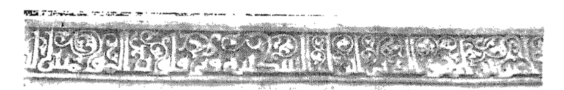


جزء من اللوح الخشب الفاطمى بقاعة الدردير

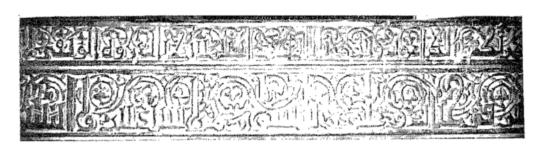
(لوحة رقم ٣)



اللوح الخشب المثبت بقاعة الدردير



كتابات وزخارف جصية من جامع الحاكم (عن Flury)

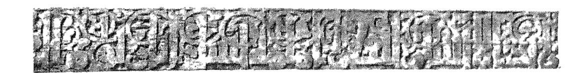


تفاصيل من الزخارف الكتابية بتابوت السيدة رقية
(كلشيه حسن عبد الوهاب)



لوح خشبى من جامع الصالح طلائع
(متحف الفن الاسلامى رقم سجل ٢٤١٠)

(لوحة رقم ٤)



لوح خشبى من جامع الصالح طلائع
(متحف الفن الاسلامى رقم سجل ٢٤٠٩)



لوح خشبى من جامع الصالح طلائع
(كلشيه حسن عبد الوهاب)

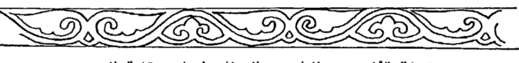


لوح خشبى من جامع الصالح طلائع
(متحف الفن الاسلامى رقم سجل ٢٤١١)

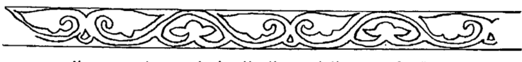
(لوحة رقم ٥)



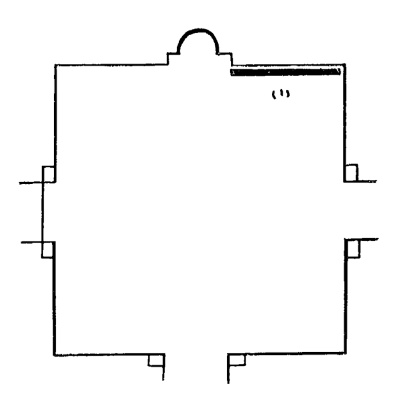
زخرفة الأفريزين العلوى والسفلى فى ألواح بيمارستان قلاوون



زخرفة الأفريزين العلوى والسفلى فى لوح قاعة الدردير

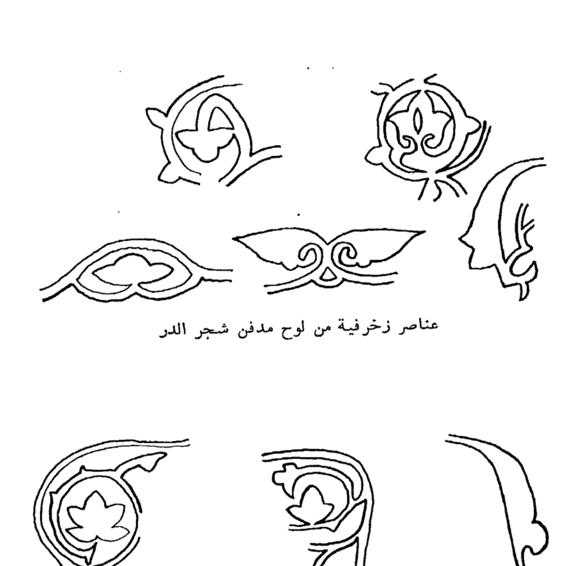


زخرفة الأفريزين العلوى والسفلى فى لوح مدفن شجر الدر



تخطيط لمسقط مدفن شجر الدر يوضح موضع اللوح الخشب الفاطمى

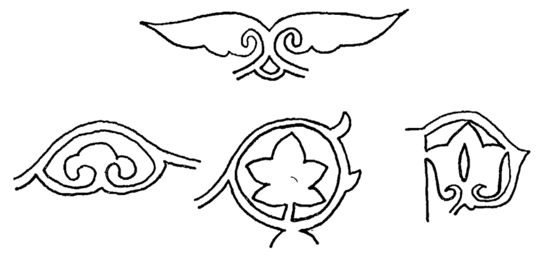
(لوحة رقم ٦)



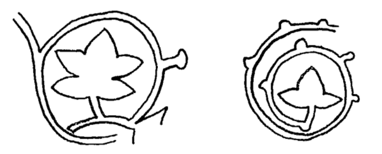
عناصر زخرفية من لوح مدفن شجر الدر

عناصر زخرفية من ألواح بيمارستان قلاوون

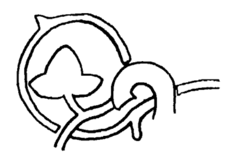
(لوحة رقم ٧)



عناصر زخرفية من لوح قاعة الدردير



عناصر زخرفية من تابوت السيدة رقية

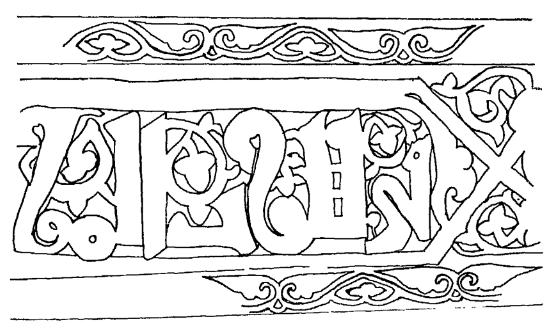


أحد العناصر الزخرفية فى أخشاب جامع الصالح طلائع

(لوحة رقم ٨)

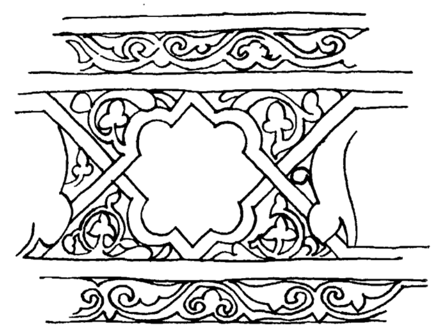


توضيح للعناصر الزخرفية والكتابات على جزء من لوح مدفن شجر الدر

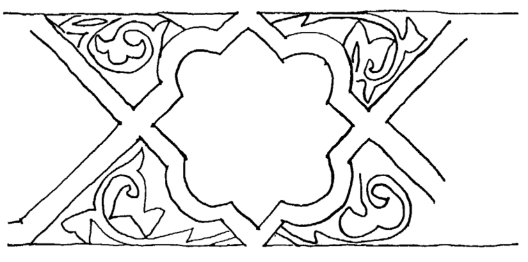


توضيح للعناصر الزخرفية والكتابات على جزء آخر من لوح مدفن شجر الدر

(لوحة رقم ٩)

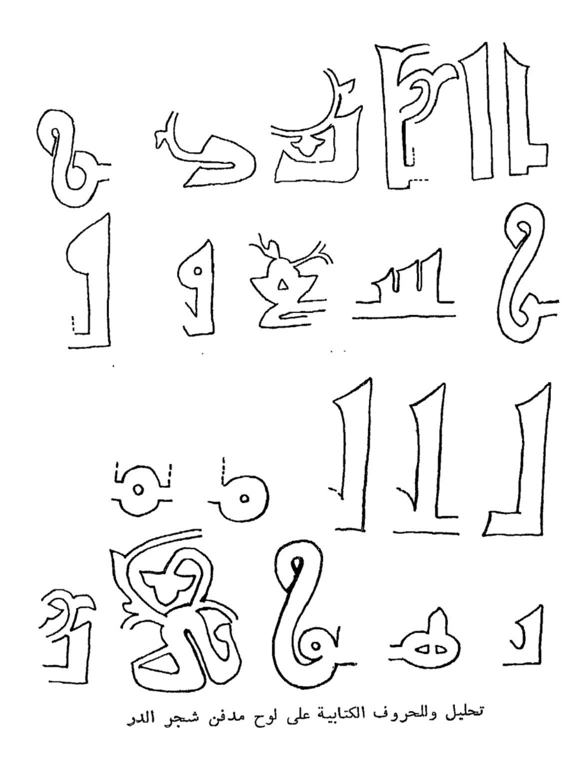


ا ــ المناطق الهندسية فى زخرفة ألواح بيمارستان قلاوون



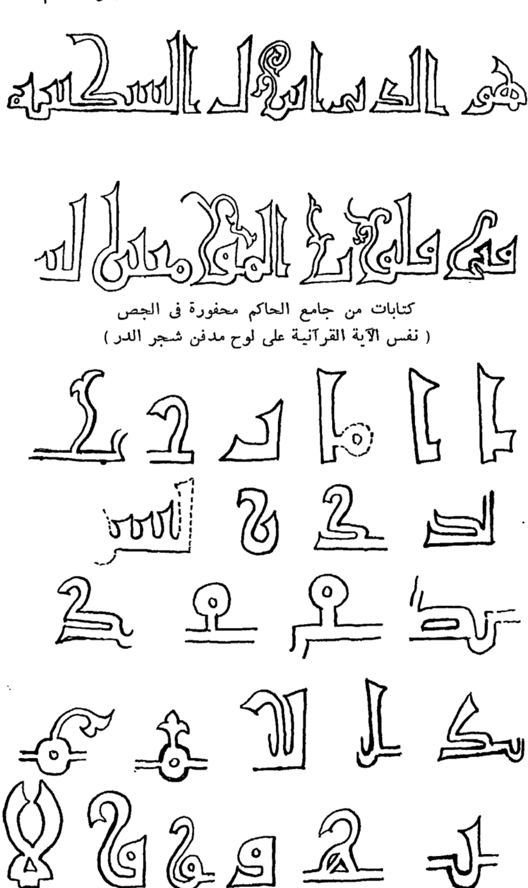
ب ــ المناطق الهندسية فى زخرفة لوح مدفن شجر الدر

(لوحة رقم ١٠)



تحليل والحروف الكتابية على لوح مدفن شجر الدر

(لوحة رقم ١١)



كتابات من جامع الحاكم محفورة فى الجص
(نفس الآية القرآنية على لوح مدفن شجر الدر)

تحليل للحروف الكتابية على ألواح بيمارستان قلاوون

(لوحة رقم ١٢)

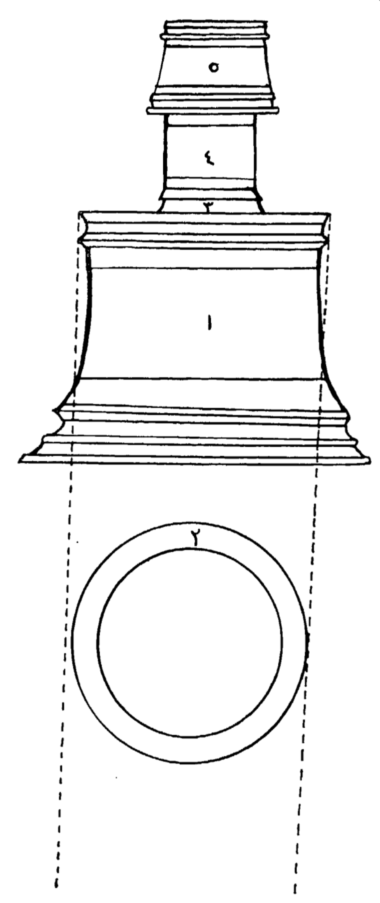
تحليل للحروف الكتابية على أخشاب تابوت السيدة رقية
واخشـــاب جامع الصالح طلائع

(لوحة رقم ١٣)



(شمعدان لاچين صناعة دمشق مؤرخ سنة ٦٩٧ هـ (١٢٩٧ م)
متحف الفن الاسلامى (رقم سجل ١٢٨)

(لوحة رقم ١٤)



المسقط الرأسى والأفقى لشمعدان لاچين لتوضيح مواقع النصوص

(لوحة رقم ١٥)



أجزاء من نصوص الشماعة فى شمعدان لاچين

(لوحة رقم ١٦)





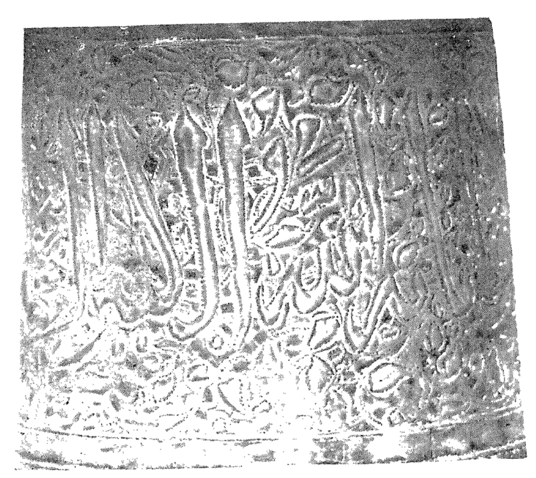
أجزاء من نصوص الشماعة فى شمعدان لاچين

(لوحة رقم ١٧)



أجزاء من نصوص العمود فى شمعدان لاچين

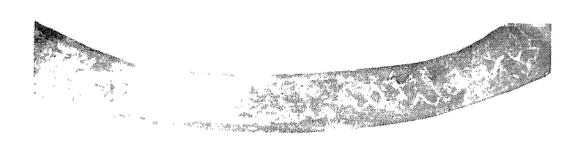




أجزاء من نصوص العمود فى شمعدان لاچين

(لوحة رقم ١٩)

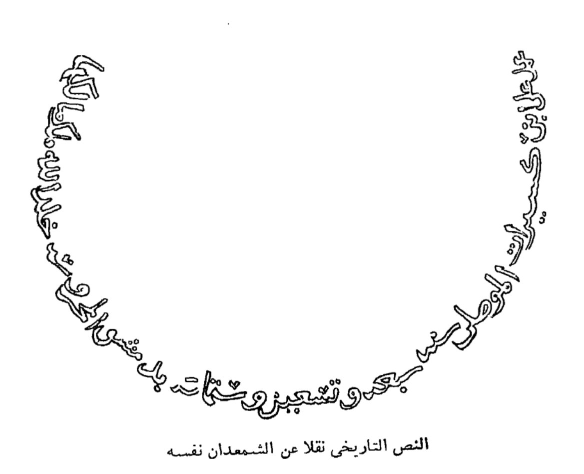




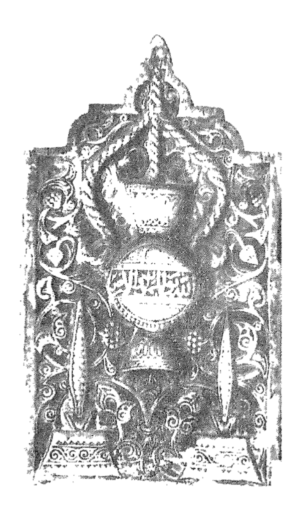


النص التاريخى فى أسفل عمود الشمعدان

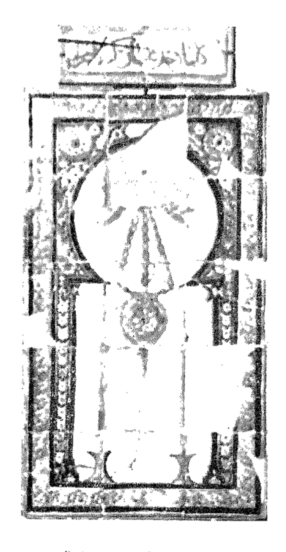
(لوحة رقم ٢٠)



النص التاريخي نقلا عن الشمعدان نفسه

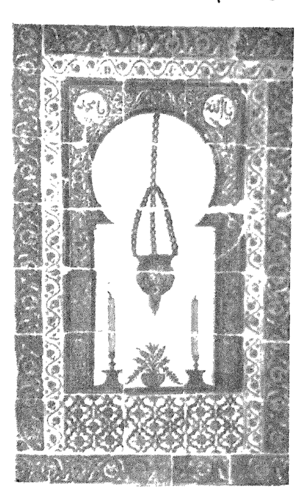


اوح من الرخام المحفور على هيئة محراب تتدلى بوسطه مشكاه وعلى جانبى المحراب شمعدانان متماثلان
مصر القرن ٨ هـ (١٤ م)
متحف الفن الاسلامى (رقم سجل١٩)

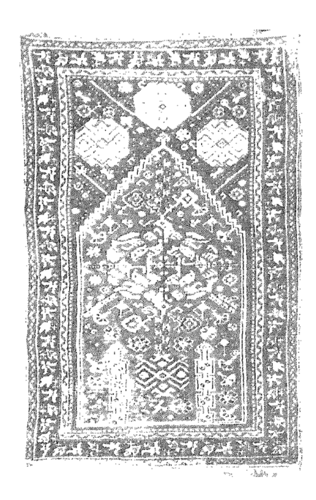


محراب من بلاطات خزفية ويبدو على جانبيه شمعدانان متماثلان — القرن ١٨ م
متحف الفن الاسلامى (سجل٢٠٩٥)

(لوحة رقم ٢٢)

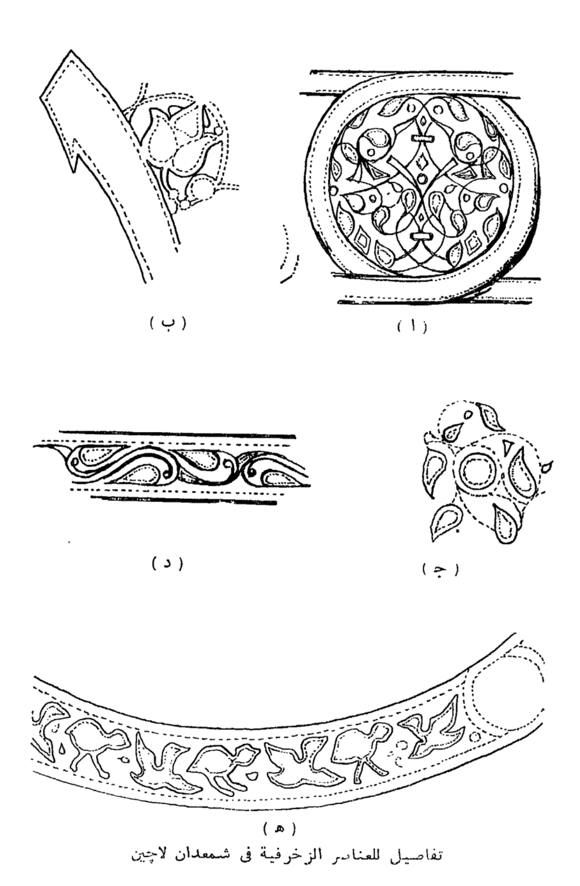


بلاطات من الخزف تشكل هيئة محراب يبدو على جانبيه شمعدانان متماثلان القرن ١٨ م
متحف الفن الاسلامى (سجل ٦٦١٤)



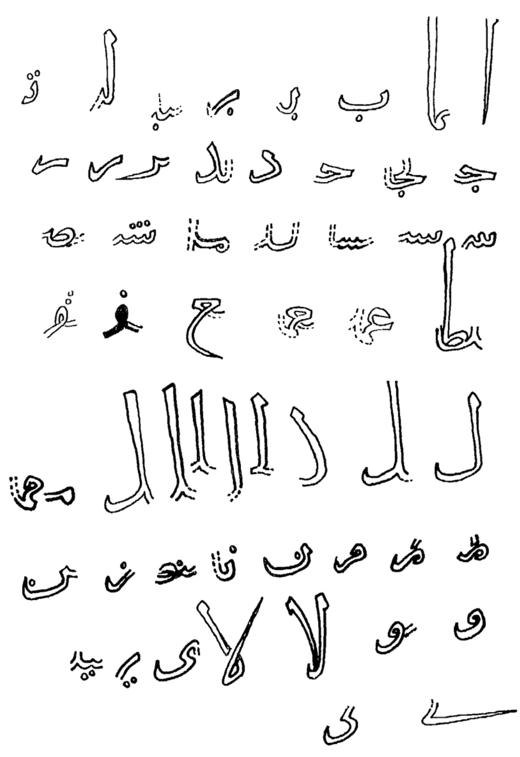
سجادة صلاة تركية من نوع عشاق ويبدو الشمعدانان على جانبى محرابها القرن ١٩
متحف الفن الاسلامى (رقم سجل ١٥٧٧٤)

(لوحة رقم ٢٣)



تفاصيل للعناصر الزخرفية فى شمعدان لاچين

(لوحة رقم ٢٤)



تحليل للكتابات النسخية فى شمعدان لاچين

« جهـادية » الجيش المصرى
والخدمة تحت علم آخر

للدكتور محمد رفعت رمضان
استاذ التاريخ الحديث المساعد بجامعة القاهرة
(فرع الخرطوم)

مقـدمة :

الفترة التى شهدت سقوط الخرطوم فى يد المهدية (١٨٨٥) وصدور قرارات مؤتمر برلين ١٨٨٤ | ١٨٨٥ الخاصة بتنظيم غرب افريقية وتحديد مناطق النفوذ الأوربى فى أعالى النيل ، لها أهمية خاصة فى تاريخ المنطقة الاستوائية من القارة الافريقية . ففى إبان تلك الفترة كانت المنطقة مسرحاً لنوعين من المحاولات : محاولات استعمارية وأخرى تحررية ؛ ومن أمثلة النوع الأول محاولات بعض الدول الأوربية من أجل تثبيت أقدامها فى مستعمرات جديدة ، ومن أمثلة النوع الثانى حركة محمد أحمد فى السودان .

فاذا اتجهنا فى هذه المنطقة من الشرق والغرب وجدنا الألمان فى شرق افريقية ، والانجليز فى زنجبار وكينيا ، كما نجدهم فى أوغندة ، بينما نجد البلجيكيين فى الكونغو الحرة . والألمان والانجليز والبلجيكيون كلهم دخلاء على القارة الافريقية .

وإذا اتجهنا من الجنوب إلى الشمال على امتداد حوض النيل من منابعه فى الجنوب إلى مصبه فى الشمال نجد دولا أو قوى افريقية صميمة تتصارع فى سبيل السيادة أو التحرر : فشعب البانيورو فى الشمال الغربى من أوغندة يحارب شعب الباغندة الذى يدعى حق السيادة عليه ، كما نجد مديرية عموم خط الاستواء المصرية صامدة لغزوات المهدية ، بينما نجد الحركة المهدية فى حوض النيل الاوسط تحاول إجلاء المصريين عن السودان ، بل وتهدد شمال الوادى بالغزو ، كما تهدد المنطقة الاستوائية حيث صمد مدير عموم خط الاستواء وجنوده من أورطتى الجهادية .

وكان واضحاً منذ البداية أن وصول هذه القوى المتصارعة والدول المستعمرة إلى أهدافها إنما يتوقف على مدى ما تعده كل منها من قوة حربية مكتملة العدد والعدة. غير أن التجنيد من داخل المنطقة بالنسبة للدول الاوربية المستعمرة كان فى حكم المستحيل، والتجنيد من خارج المنطقة كان متعذراً بالنسبة لتلك الدول أيضاً. حقاً كان فى وسع كل من ألمانيا وانجلترا وبلجيكا أن تستقدم جنوداً من غير الافريقيين، ولكن تجنيد هؤلاء اعتبر فى ذلك الحين عملية خاسرة لاعتبارات كثيرة، نظراً لما تتطلبه من تكاليف باهظة، فضلا عن عدم تعود الجيوش الآتية من خارج القارة على العمل فى ظروف مناخية وطبيعية وصحية قاسية كظروف تلك المناطق الاستوائية. كما كانت الدول المستعمرة جد حريصة على عدم إثارة شكوك الوطنيين فى تلك المناطق، عندما يروا الرجل الابيض على رأس جيش من البيض أو عندما يروا حشوداً من الملونين من خارج القارة الافريقية؛ والافريقى فى ذلك الحين كان لا يطمئن إلى الرجل الابيض ولا إلى نواياه، كما أن الخبرات السابقة للزنجى الافريقى مع الافريقيين من الاجناس الأخرى، كانت خبرات مريرة قاسية، كثيراً ما كلفته حياته أو أفقدته حريته وهدمت كيان قبيلته. كيف تسنى إذن لتلك الدول أن تحصل على جيوش مدربة من داخل المنطقة؟

فى العمليات الأولى للألمان فى أفريقية الشرقية الألمانية، وللانجليز فى أعالى النيل كانوا يعتمدون على تجنيد الزنزباريين والسواحيليين، ولكن هؤلاء كانوا أصلح كحمالين منهم كجنود، ورغم أنهم تكلفوا كثيراً فإنهم لم يظهروا الجلد الكافى.

وبينما كان الألمان والانجليز والبلجيكيون يشقون طريقهم نحو أهدافهم فى صعوبة ومشقة بجنود تنقصها الخبرة ويعوزها التدريب إذا بحادث خطير هز كيان وادى النيل، أعنى ظهور محمد أحمد المهدى وقيامه بحركة يستهدف بها أهدافا دينية وأخرى سياسية تقوم على تحرير السودان من حكم «التركية» ودعوة المسلمين وغير المسلمين للدخول فى سلك المهدية.

واضطرت الحكومة المصرية تحت ضغط الحوادث وتحت ضغط دولة الاحتلال، بريطانيا، إلى الموافقة على تنفيذ خطة تقوم على انسحاب قواتها من شمال السودان، والاحتفاظ ببعض مراكز استراتيجية فى الشرق ترقبا للفرص. وحاصر الأنصار الخرطوم وسقطت فى يناير ١٨٨٥ وسيطروا على شمال السودان. ولكن السودان الجنوبى فى مديريتى

« بحر الغزال وعموم خط الاستواء » بقى بعيداً عن يد الأنصار عدة سنوات بعد ذلك . وكان لسقوط الخرطوم مغزى معين بالنسبة لمصر فقد قطع عليها طريق الوصول إلى المناطق التى كانت تجند منها الجهادية وهم قوام « أورط » الجيش المصرى فى السودان ، فمن بين أفراد قبائل الشلوك والدنكاو النوير كانت مصر تتخير الصالحين للجندية ، بالاضافة إلى أعداد كبيرة من الزاندى . وكان المجندون من أبناء هذه القبائل يدربون تدريبا عسكريا ممتازاً وينظمون فى « أورط سودانية » بقيادات مصرية بعد تطعيمها بكفايات من ضباط الصف القدامى فى نفس المنطقة .

غير أن مغزى سقوط الخرطوم بالنسبة لمصر لم يكن قاصراً على استحالة تجنيد السودانيين الجنوبيين فى الجيش المصرى ، وإنما كان له وجه آخر أخطر وأعمق ، فإن سقوط الخرطوم فى يد المهدية ، وضع أسفينا بين مصر وحامياتها من الجهادية فى المديريات الاستوائية . ورغم أن محمد أمين مدير عموم خط الاستواء كان قد وطد العزم على عدم التسليم للمهدية ، وعلى أتباع سياسة الاكتفاء الذاتى والاعتماد على موارد المديرية فى البقاء وفى الدفاع عنها ، إلا أن مسألة بقاء تلك المديرية كانت مسألة وقت ليس إلا ، إذا كان المنتظر بعد أن يفرغ المهديون من مشكلاتهم التى لا حصر لها فى الشرق والغرب والشمال ، وبعد أن يأمن الخليفة عبد الله على مركزه فى الداخل ، أن يتطلع إلى الجنوب بغية الاستيلاء على ما بقى من المراكز المصرية فى أعالى النيل .

والموقف على هذا النحو كان مفهوما جيداً لدى محمد أمين وجنوده وموظفيه ، وكان يتردد صداه فى تقاريره التى كتبها إلى الحكومة المصرية ، لا سيما بعد أن أصبح الاتصال بمصر لا يتم إلا بصعوبة ، وأصبح يجهل ماجريات الأمور فى مصر بل وفى السودان الشمالى أيضاً ، كما أصبح وصول النجدة المصرية فى حكم المستحيل (١) . ومن هنا نفهم السر فى اتجاه أمين إلى مناشدة أوربا وخاصة إنجلترا أن تهب لمساعدته .

* * *

ومصر فى ظل الاحتلال البريطانى ما كانت تستطيع إلا أن تتصرف على النحو الذى فعلته ، وبعبارة أخرى ما كانت لتستطيع فى مسألة إخلاء السودان إلا أن تأتمر بأمر انجلترا . والمسئولون البريطانيون فى مصر كانوا يظهرون غير ما يبطنون ، فهم يدعون أن انسحاب

---

(١) Schweinfurth and athers : Emin Pasha in Central Africa P. 465.

مصر من السودان ضرورة حربية يستلزمها فن القتال ، ولكنهم كانوا يبطنون غير ذلك . كانوا يرسمون الخطة للاشتراك مستقبلا مع مصر فى شمال السودان ؛ أما عن الجنوب فكانوا يرون أن الحامية المصرية فى خط الاستواء وهى فى ذلك الحين مكونة من أورطتين من خيرة الجنود المدربين من السودانيين والمصريين بكامل عدتهم وعتادهم بما فيهم من ضباط وضباط صف وجنود وعمال فنيين وبحارة وميكانيكيين وبواخر نهرية مسلحة يمكن أن تصبح كلها لقمة سائغة لانجلترا تحقق بها مصالح انجليزية ، وأداة تسخرها للوصول إلى أهدافها فى إفريقية الاستوائية ؛ سواء فى احتلال أوغندة أو غيرها من بلاد أعالى النيل ، بل ويمكن أن تتخذها أوراق رابحة فى مساومة دولية ، وبذلك تفوز بقصب السبق فى السباق الدولى نحو النيل . وتستطيع بعد أن دخلت مصر محتلة على أشلاء ثورة عرابى أن تدخل السودان منتصرة على أشلاء ثورة المهدى .

وعلى هذا النحو أصبحت أورط الجهادية السودانية صيداً ثميناً يتطلع الكثيرون إلى الحصول عليه . ولم تكن انجلترا وحدها هى التى تطمع فى الحصول على جنود تلك الأورط وإنما شاركتها فى ذلك ألمانيا وبلجيكا وإينورو وحكومة المهدية فى السودان فضلا عن مصر ذاتها ، فمصر حاولت استرداد قوات هذه الأورط ، وأسهمت فى حملة بقيادة ستانلى لانقاذها ، والأنصار حاولوا قطع السبيل على هذه الأورط والحيلولة دون عودتها إلى مصر ، والألمان حاولوا كسب مدير المديرية ليعمل لحسابهم فى مشروعاتهم الاستعمارية فى إفريقية الشرقية الألمانية ، والانجليز حاولوا الاحتفاظ بهؤلاء الجنود للعمل فى احتلال أوغندة وتنظيم حملة لاستعادة السودان . كما أن البلجيكيين حاولوا نفس الأمر رغبة فى التوسع فى الكونغو وأعالى النيل .

* * *

والغرض من هذا البحث أن نبرز ثلاثة أمور : الأول ، أن أورط الجهادية السودانية بالجيش المصرى فى مديرية عموم خط الاستواء أصبحت فى تلك الفترة بالذات العمود الفقرى لجيوش ست دول أو وحدات سياسية إفريقية .

والثانى أن تنافس الدول فى الوصول إلى النيل تضمن فيما تضمن محاولة تلك الدول الاستحواذ على حامية خط الاستواء المصرية واتخاذها نواة لقواتها الحربية .

والأمر الثالث ، أن الخطة التى وضعها الانجليز فى افريقية الشرقية البريطانية لاغتصاب هذه القوات العسكرية النظامية المدربة ، لأنفسهم دون غيرهم من الدول الأخرى ، كانت تقوم على استغلال حملة الانقاذ التى قادها ستانلى ، والاحتفاظ بهؤلاء الجنود فى المنطقة فتكون انجلترا أول وريثة لمصر فى أعالى النيل . فلما فشلت الخطة نتيجة يقظة الجند وتشككهم فى نوايا الانجليز ، عدل هؤلاء خطتهم وراحوا يحاولون تجنيد من عادوا إلى مصر ، ومن فاتتهم قافلة ستانلى ، ومن تمرد من الحامية ظنا منهم بأن أوامر الجلاء التى أرسلتها الحكومة المصرية غير صحيحة وإنما زيفها ستانلى ومن معه .

وقد استخدمت فى هذا البحث وثائق أصلية ، ينشر بعضها لأول مرة ، أصولها موجودة فى محفوظات الخرطوم وكلها متعلقة بافريقية الشرقية الألمانية وأوغندة والكونغو الحرة وفترة المهدية ومصر . إلا أنها موجودة بصورة مشتتة لا توحى بأى شىء ، ولكنها بعد التجميع والترتيب التاريخى تبرز الصورة الجديدة وتهدى إلى الحقائق التاريخية التى وصلنا اليها فى هذا البحث .

(١)

المهدية والجهادية

وكان أمراء جيوش المهدية حريصين على أن تضم جيوشهم فرقاً من الجهادية ، ولذلك كانوا يجمعون أسرى الجهادية ويشكلونهم فى مجموعات من « مائة » على كل مجموعة منها جهادى قديم باسم « رأس مائة » .

ويرجع هذا الحرص إلى أن استخدام الجهادية فى صفوف المهدية كان يحقق للحركة فوائد شتى : فالجهادى محارب صلب المراس ، جيد التدريب ، يقدس النظام ويدين بالطاعة ويتسم بالشجاعة . وفضلا عن ذلك كان يجيد استخدام الأسلحة النارية . فبينما كان معظم الأنصار « حرابة » يتخذون الحربة سلاحاً ، وليس فيهم من « البنداقة » إلا القليل ، كان الجهادية جميعا مسلحين بالأسلحة النارية . وقيمة هذه الأسلحة لا تنكر فى معارك الميدان حيث تقلل المسافات الطويلة من قيمة الحراب . وبالاضافة إلى ما سبق فان أولئك الجهادية كانوا أصلح من غيرهم للقتال فى المناطق الوعرة فى الشرق ضد الانجليز والمصريين ، وضد الأحباش والطليان . بل أنهم كانوا الجنود المثاليين لخوض المعارك فى جنوب السودان حيث مسقط رأسهم ، فهناك بيئتهم الطبيعية ، يألفون جوها ولديهم المناعة ضد أمراضها ،

وقد خبروا سهولها ووهادها ووقفوا على مسالك غاباتها . وكما كان الميدان الشرقى محتاجا إلى خدماتهم فإن الميدان الجنوبى كان يحتم استخدام الانصار لهم نظراً لكفاياتهم الخاصة وتوافق تلك الكفايات مع ما تتطلبه ظروف القتال فى تلك الجهات . وفى هذين الميدانين بنوع خاص كانت كل سرية من سرايا المهدية تحرص على أن يكون ثلث عددها على الأقل من الجهادية .

فسرية « خط الاستوى » مثلا التى كان عاملها وأميرها « عمر صالح » وكان موكولا إليها مهمة تطهير المديريات الاستوائية « بحر الغزال وعموم خط الاستواء » من الأجانب وصد أية قوات تحاول اقتحام المنطقة ، كان عددها ١٥٠٧ محارب ، منهم ٩٨١ من أولاد العرب ، ٥٢٦ من الجهادية [1] . وكانت هذه النسبة العددية تكاد تكون محفوظة دائما فى جيوش المهدية التى تعمل فى الجنوب .

وعندما أخذت الجيوش المصرية فى تنفيذ خطة الانسحاب من السودان حتى حلفا وسقطت الخرطوم فى يناير ١٨٨٥ وأصبح شمال السودان خلوا من الجيش المصرى إلا فى سواكن وكسلا بدأ مورد الجهادية ينضب وشعر الأنصار بحاجتهم إلى ذلك النوع من الجنود ، وأخذوا يفكرون فى تدارك حاجتهم إلى الجهادية بأى ثمن .

كان أمامهم طريقان : الأول تجنيد جهادية جدد وتدريبهم وتسليحهم وتربيتهم ليدخلوا فى سلك المهدية ويحاربوا فى صفوفها وينصروا قضيتها . والثانى محاولة الحصول على أورطتى الجهادية أى حامية مديرية عموم خط الاستواء المصرية ، حيث كان مديرها محمد أمين قد وطد العزم على البقاء مهما كلفه الأمر .

وتحقيق أحد الأمرين كان يحتم على الأنصار غزو الجنوب . ومن هنا يتضح لنا عامل هام من العوامل التى دعت المهدية إلى إرسال « سرية خط الاستوى » ومحاولة إخضاع تلك الجهات لسلطة المهدية . بدأت تلك المحاولة فى عام ١٨٨٤ بغزو مديرية بحر الغزال حيث انتصر المهدويون وسلمت المديرية فى ٢٨ أبريل ١٨٨٤ وانضم معظم الجهادية إلى الأنصار . ومنذ ذلك الحين وهم يحاولون جاهدين إسقاط مديرية عموم خط الاستواء وأسر المدير ورجال أورطتى الجهادية ، وعدم تمكين ستانلى الذى جاء على رأس حملة لانقاذهم من إتمام مهمته .

---

(١) صندوق مهدية – ملف ١ وثيقة رقم ٢ من عمر صالح إلى الخليفة . غرة شوال ١٣٠٥ (١٨٨٨) .

ولم تكن مهمة الأنصار فى الجنوب سهلة هينة ، وإنما استمرت جهودهم فى انجازها من ١٨٨٤ حتى نهاية عهدهم ، واستغرقت ما بقى من حكم المهدى وعهد الخليفة عبد الله التعايشى ، كما تطلبت جهود ثلاثة من عمال المهدية وقوادها المحنكين وهم كرم الله ١٨٨٤ وعمر صالح ١٨٨٨ وعربى دفع الله ١٨٩٣

* * *

وقد حاول الخليفة عبد الله أن يواجه ذلك النقص الخطير فى قوته الحربية بتوفير الصالحين لصنوف الجندية وخاصة عندما « حصل بقفرة — أى معسكر — سواكن ضعف شديد نظراً لقطع تواتر الرقيق المذكور . . . » فأصدر إلى كرم الله كرقساوى أمراً « بمنع بيع الرقيق الذكور مع السماح ببيع الإناث لإزالة ضرورات الأنصار »[1] .

كما كتب عمر صالح عامل سرية خط الاستوى إلى الخليفة عبد الله يوضح أهمية غزو الأقاليم الاستوائية لسد النقص فى القوة الحربيـة فكتب يقول « إن جهات مديرية خط الاستوى متسعة ومشحونة من الجهادية وعبيد الخطرية السابقين والمألفين من عبيد الدار ، ولا يمكن الحصول على ذلك إلا بواسطة وجود القوة الكفاية من الأنصار ، وأن الجيش الذى معنا الآن بالنسبة لاتساع البلد قليل جدا ولا يمكن تفرقته فى وسط العبيد[2] » .

وحاول الأنصار القيام بمثل التجربة التى وفق فيها المصريون من قبل ، أعنى تجنيد زنوج الجنوب وتنظيمهم فى فرق حربية جيدة التدريب باسم « أورط الجهادية » فأخذوا يغزون القبائل وخاصة فى إقليم مكركة — غرب وجنوب بحر الغزال — حيث المورد الخصب من الرجال الذى كانت تستمد منه أورط الجهادية فى الجيش المصرى خيرة رجالها من الزاندى ، وراحوا يجمعون « العبيد » ويؤلفون قلوبهم ، لا للانتظام فى سلك المهدية فذلك كان بعيد المنال لأنهم كما قال عنهم عمر صالح « عبيد مجوس ولا تنفع فيهم المذاكرة ولا التأليف » ولـكن بقصد مسالمة المهدية والقتال فى صفوفها لنشر لوائها ورايتها[3] . فكانوا يتألفون شيخ القبيلة فيكرمونه ويرسلونه إلى البقعة ـ أم درمان ـ حيث يبقى مدة

---

(١) صندوق ١/٣ مهدية — ملف ١١/١ وثيقة رقم ١٧ من الخليفة إلى كرقساوى ١٣٠٤ — ١٨٨٧

(٢) ١/٣ مهدية ملف ٢ وثيقة ٢٤ من عمر صالح إلى الخليفة . ١٣ ربيع آخر ١٣٠٦ (١٨٨٨)

(٣) ١/٣ مهدية ملف وثيقة ٩٤ من عمر صالح إلى الخليفة . ١٢ جماد أول ١٣٠٩ (١٨٩١) .

فى رعاية الخليفة ، يسبغ عليه من عطفه ويتولى مذاكرته وتربيته حتى إذا عاد إلى قومه قام بدوره بتأليف رجال قبيلته [١] .

وبهذه الطرق استطاع الأنصار الحصول على مئات من الجنوبيين الأشداء ، يؤكد هذا ما ورد فى معظم الخطابات المتبادلة بين عملاء سرايا المهدية فى جنوب السودان وبين الخليفة من الاشارة إلى أعداد « الرقيق والعبيد » الذين توالى إرسالهم إلى أم درمان ، بل أن عمال سرايا المهدية كانوا يطالبون الخليفة بارسال إمدادات ضخمة تمكنهم من الحصول على أعداد كبيرة من الجنوبيين لتجنيدهم فى جيش المهدية .

ولم تكن وجهة نظر عربى دفع الله أمير سرايا المهدية فى الجنوب تختلف عن وجهة نظر من سبقه فى هذا المركز، كان يرى أن الأقاليم الاستوائية يمكن أن تصبح مورداً طيباً للمهدية تحصل منه على سن الفيل والجهادية بشرط توفير العدد الكافى من الجيش وكان يعتقد بضرورة توفير ستة آلاف مجاهد حتى يمكنه أن يرسل كل عام إلى أم درمان ستة آلاف قطعة سن فيل وستة آلاف عبد أمرد . ولا زال عربى يغرى الخليفة بإرسال الامدادات ويمنيه بقوله «فإن شاء الله فى أيام قلايل تنزل المردان أفواجا أفواجا حتى تمتلا كاره البقعة منهم ويحتاج الحال لتفريقهم للجهات لحمل السلاح لا سيما وأن هؤلاء العبيد مأمونين العاقبة بعد دخولهم فى سلك المهدية . . . » [٢] .

ونتيجة لهذه الجهود كلها استطاع الأنصار أن يظفروا بأعداد ضخمة من الرقيق والعبيد أدخلوهم فى سلك الجهادية وإن لم يدخلوا فى سلك المهدية ، وأصبح لدى الأنصار سرايا من الجهادية القدامى وآخرون من الجهادية الجدد . غير أن هذه الجهود كانت تفسد على يد الجهادية أنفسهم ؛ « فالمؤلفون من العبيد مكروا وعصوا ، ولم تنفع فيهم المذاكرة ولا التأليف وتمادوا على العصيان ومحاربة أنصار دين الله الملك العلام وقتلوهم فى أيما واقعة قتلة عظيمة وشتتوا شملهم .وفرقوا جموعهم لأنهم حزب الشيطان . . . » [٣] . بل أنهم كانوا ينتهزون فرصة تكليفهم بالغزو فيهربوا ويختفوا « بداخل العبيد العصات » [٤] .

---

(١) ١/٣٢ مهدية ملف ٩ وثيقة ٣٢ من المختار بكر إلى الخليفة ٢٥ القعدة ١٣١٠ (١٨٩٢) .

(٢) ١/٣٢ مهدية ملف ١٠ وثيقة ١٩٨ من عربى دفع الله إلى الخليفة ١٢ جمادى الثانى ١٣١١ (١٨٩٣) .

(٣) ١/٣٣ مهدية ملف ٣ وثيقة ٩٤ من عمر صالح إلى الخليفة ١٢ جماد أول ١٣٠٩

(٤) ١/٣٣ مهدية ملف ٣ وثيقة ٧٢ من عمر صالح إلى الخليفة غاية الحجة ١٣٠٧ (١٨٨٩) .

وهكذا كان الانصار يفقدون الرجال والسلاح بدون حرب . وترتب على ذلك أن امتنع عمال سرايا المهدية عن تكليف هؤلاء الجهادية بأية عمليات حربية فى مواطنهم الأصلية مهما كانت العملية مهمة [١] .

وإذا كان الأنصار لم يوفقوا فى تأليف العبيد إلى الدرجة التى يطمئنون فيها إلى إخلاصهم فانهم بالمثل لم يوفقوا فى إعدادهم للجندية ولا فى تدريبهم . والتقرير الذى رفعه عمر صالح عامل سرية خط الاستوى إلى الخليفة عبد الله رسم بونا شاسعا بين الجهادية القدامى الذين تمرسوا فى أورط الجيش المصرى وبين الجهادية الجدد الذين جندهم الأنصار من أبناء قبائل الجنوب فى بحر الجبل وبحر الغزال .

وكان عمر صالح صريحا إلى حد كبير عندما كتب إلى الخليفة يقول « إن الجهادية الذين معنا هنا من جماعة أبو روف (من الجدد) ولا يفقهون كيفية الجهادية ، وطبيعتهم مايلة إلى طبايع أولاد العرب ، وإذا ضرب البورى فى أمر الجهاد أو لأجل ينبهوهم فى أمر أو للدورية أو الخروج خفر فجميع ذلك لا يعرفون منه شىء ، ومنهجهم بخلاف منهج الجهادية . . . فالأمل إذا تكرمتوا علينا بإرسال الجيش أمكنتنا أن ترسلوا لنا قدر مايتان جهادى من الجهادية الصادقين المتربين القدام وتكون أسلحتهم من صنف رامنتون ومعهم إثنين بروجية تكون لهم معرفة بضرب البورى . . . والجهادية الأصليين لهم نفع لأجل يألفوا إخوانهم الذين يوجدوا هنا لأن كل جنس يألف جنسه ويربوا إخوانهم ... [٢] » .

* * *

وراح الأنصار يجمعون من عساه يقع فى أيديهم من أسرى الجهادية ، إلا أن أعدادهم لم تكن بحيث تكفى حاجتهم الملحة للجهادية . كان عليهم حينئذ أن يبذلوا كل مجهود فى سبيل الحصول على أورطتى الجهادية من حامية مديرية عموم خط الاستواء المصرية . ومن هنا قرر الخليفة استئناف العمليات الحربية فى الجنوب .

وكانت أخبار التمرد الذى حصل فى صفوف الأورطتين يصل إلى أسماع الأنصار ويشد عزائمهم ، ولم تلبث أن وصلت أخبار حملة ستانلى لانجاد أمين باشا إلى أسماع الأنصار وما صحب مجىء تلك الحملة من أحداث جسام نتيجة لموقف جنود الأورطتين من ستانلى

(١) ١/٣٢ مهدية ملف ٩ وثيقة ٣٢ من المختار بكر إلى الخليفة ٢٢ القعدة ١٣١٠ (١٨٩٢) .
(٢) ١/٣٢ مهدية ملف ٢ وثيقة ٢٧ من عمر صالح إلى الخليفة ١٣ ربيع آخر ١٣٠٦ (١٨٨٨) .

وحملته . وأصبح هؤلاء الجهادية طلبة الأنصار وبغيتهم وأرسل عمر صالح يغرى الخليفة بإرسال مدد سريع حتى يحصل على الجهادية ، ويشير إلى تخوفه من أن ينساق هؤلاء خلف ستانلى ويقبلوا الرحيل إلى مصر بعد أن رفضوا الاستجابة لأمين [١] .

ولم يكن الجهادية طلبة الأنصار لمجرد الحصول على « الجهادية القدامى الصادقين المتربين الصالحين للجهاد» وإنما رغبوا فيهم أيضا للحصول على نسائهم . ذلك لأن سرية «خط الاستوى» كانت خلوا من نساء الأنصار ، فلم يسمح الخليفة لرجالها باصطحاب النساء معهم نظرا لبعد الطريق وقسوة الحياة فى تلك الأقاليم وسط قبائل معادية من « العبيد الجورس » ولذلك كتب عربى دفع الله إلى الخليفة بمجرد وصوله لتسلم مقاليد القيادة يشرح ما آل إليه أمر الأنصار وخاصة لأن « رقيق هذه الجهة ليس فيه قابلية ولياقة للتسرى والنسا هنا لا وجود لهن » . حتى لقد اضطرهم الأمر إلى تفريق نساء أسرى الجهادية على الأمراء والمقاديم والاخوان « بعد استخراج الخمس لتسوية أمور معايشهم وتسريهم وإن كانوا كبقية رقيق الجهة فى عدم الأهلية للتسرى [٢] » .

ومن هنا نفهم جانبا من السر فى الكفاح المرير الذى قام به الأنصار فى الجنوب وإسراعهم فى الحصول على أورطى الجهادية بأسلحتهم وذخائرهم ونسائهم ورقيقهم ، قبل أن يرحلوا عائدين إلى مصر مع ستانلى أو يظفر (النصارى) من البلجيكيين والانجليز بتجنيدهم لحسابهم . والمعارك التى دارت بين هذه الأطراف ليست سوى معالم الطريق إلى تحقيق الأغراض التى كانوا ينشدونها .

(٢)

مصر وإعادة تنظيم « أورط الجهادية » بالجيش المصرى

كان لمصر مديريتان فى المنطقة الاستوائية : مديرية بحر الغزال وتكنى بأرض الأنهار إذ كانت تغطى حوض بحر الغزال ويديرها لبتون بك الانجليزى Lupton ، ومديرية عموم خط الاستواء على امتداد النيل الأبيض من فاشودة شمالا إلى حدود أوغندة جنوبا وكان مديرها محمد أمين وهو ألمانى كان يتسمى من قبل باسم الدكتور ادوار شنيزر E. Schnitzer .

---

(١) $\frac{1}{3}$ مهدية ملف ٢ وثيقة ٢٤ من عمر صالح إلى الخليفة ١٣ ربيع آخر ١٣٠٦ (١٨٨٨) .
(٢) الوثيقة السابقة .

ونتيجة لتقدم المهدية عزلت هاتان المديريتان عن الخرطوم وبالتالى عن القاهرة وسواكن ، وكان عزلهما تمهيداً لعمليات الأنصار الحربية فى الجنوب . واستطاع دعاة الأنصار أن يوقدوا نار الثورة بين الجنوبيين وخاصة قبائل الدنكا والبارى ، وهكذا انحصرت الحاميات المصرية فى جنوب السودان بين خطر غزو الأنصار وهجمات الثوار من قبائل الدنكا والبارى والشلوك . وشهدت السنوات من ١٨٨٤ إلى ١٨٩٥ تقدما مضطردا نحو الجنوب انتهى بتسليم لبتون بك الانجليزى مدير بحر الغزال . أما الحامية فقد فر بعض رجالها وتشتت بين القبائل ، بينما انحاز بعضهم إلى المهدية وحارب فى صفوفها[1]. ولم تلبث مديرية عموم خط الاستواء أن تعرضت لخطر المهدية وزاد الخطر بعد سقوط الخرطوم فى يناير ١٨٨٥

كانت حامية المديرية تتكون من أورطتين من الجند النظامى المسلحين ببنادق رمنجتن تبلغ عدتهم ١٥٠٠ جنديا كلهم من الزنوج ماعدا ٤٠ مصريا للمدفعية ، يقودهم عشر ضباط مصريين ، ١٥ ضابطا سودانيا ، بالاضافة إلى بعض البحارة . وكانت كل أورطة مقسمة إلى فصائل يتراوح عدد كل فصيلة منها بين ١٠٠ ، ٢٠٠ رجل يحرسون عشر مراكز ، بكل مركز عدة محطات[2] .

وقد وقعت معارك حامية بين الأنصار وحامية المديرية تبادل فيها الطرفان النصر والهزيمة. وتبودلت بعض المحطات أكثر من مرة ، بل لقد اضطر المدير إلى نقل عاصمة المديرية من لادو إلى دوفيله ومنها إلى وادلاى . وتقارير محمد أمين إلى الحكومة المصرية ورسائل أمراء سرايا المهدية إلى الخليفة عبد الله تفيض بتفاصيل هذه المعارك .

وكان الأمل يراود أمينا فى أول الأمر ، وظل ينتظر مددا من الخرطوم أو نجدة من القاهرة ، فلما انهار صرح آماله نتيجة لسقوط الخرطوم بدأ يتجه بأنظاره نحو زنزبار ونحو أوغنده ، عله يستطيع عن طريق التفاهم أن يفتح طريقا ينسحب منها إلى الساحل ثم إلى مصر . ومن أجل ذلك أنشأ علاقات دبلوماسية مع ملكى أوغنده وأنيورو .

وعند ما استبد به القلق بدأ ينشد المساعدة من أوربا وخاصة من انجلترا ، ومن ثم

---

(١) Wauters : Stanley's Emin Pasha Expedition. P. 86 .

(٢) كان عدد المحطات غير ثابت ولكن عدد المراكز كان أكثر استقرارا وهى مراكز رول ، بور ، لادو ، كيرى ، دوفيله ، فوفيرا ، فادييك ، لاتوكا ، مكركه ، منيوتو .

بدأت حركة قوية فى أوربا بقصد انقاذ أمين وجنوده . وتمخضت تلك الحركة عن إرسال حملة لانقاذه بقيادة الرحلة ستانلى ، أسهمت فيها الحكومة المصرية بالمال والرجال(١) .

وعند هذا الحد انتهى عهد التفاهم بين أمين وفريق كبير من الحامية ، فقد تمردت الأورطة الأولى وقلة من الأورطة الثانية نتيجة لانتشار الاشاعات . فقد أشيع بين الجند أن قوة مسلحة من الأوربيين « المسيحيين » قادمة من الجنوب وأن هدفها حمل امين باشا ورجاله عن طريق غير معروفة حيث اتفق معهم أمين على « بيع » هؤلاء الرجال لأولئك « المسيحيين » .

وبصرف النظر عن التعقيدات التى سببها تمرد معظم رجال الحامية ، مما أضعف مركزهم فى العمليات الحربية ضد الأنصار فإن الأمر انتهى بتشتت الجمع وانفرط عقد الحامية وانقسمت إلى ثلاثة مجموعات رئيسية : مجموعة كبيرة من المتمردين تجمعوا تحت قيادة فضل المولى الأمين وعسكروا فى التلال المجاورة لوادلاى انتظاراً لوضوح الموقف ، ومجموعة ثانية من الموالين لأمين صحبوا ستانلى فى عودته إلى القاهرة ، ومجموعة ثالثة من الموالين الذين فاتتهم قافلة الانجاد وكانوا بقيادة سليم مطر . وقد بقى هؤلاء فى كافالى على بحيرة البرت انتظاراً لوصول نجدة أخرى (٢) .

* * *

وكانت مصر فى إبان ذلك تعمل على إعادة بناء قوتها الحربية وتنظيم فرق الجهادية وفق ما خطط لها الانجليز . وكان يهمها عودة رجال أورطتى الجهادية من خط الاستواء . فلما تأخرت عودة ستانلى فكرت فى تجنيد الصالحين من السودانيين الموجودين فى مصر . وقد خصصت فى التنظيم الجديد أربع أورط للجهادية وهى الأورط التاسعة والعاشرة والثالثة عشرة والرابعة عشرة . وأصدر سردار الجيش المصرى بالقاهرة « إعلانا » للسودانيين يغريهم بالتطوع فى الجيش المصرى أو العودة إلى التطوع إن كانوا قد سرحوا من قبل ،

---

(١) Wnuters : Stanley's Emin Pasha Expedition. pp. 135-137 .
وقد تحركت حملة ستانلى من لندن فى يناير ١٨٨٧ ومر على القاهرة ثم زنزبار حيث أبحر إلى الكونغو فى غرب أفريقية ولكنه لم يعد إلى القاهرة مع شراذم الجهادية إلا فى أوائل سنة ١٨٩٠

(٢) Sudan Intelligence Report No. 3 P. 5

ووعدهم بأنهم سوف « يستقبلون باعزاز فى حلفه وكوروسكو وأصوان ودراوى ومصر وسواكن » (١) .

والوثائق تمدنا بمعلومات طيبة عن عملية تجنيد مصر للسودانيين فى الأورط الأربع . كان التطوع لمدة أربع سنوات للعمل فى مصر أو خارجها . وقد نص عقد التطوع على التعيينات اليومية والمرتبات الشهرية والملابس السنوية ، كما نص على التعويض عند الاصابة بشكل يتدرج مع بساطة الجرح أو شدته . كما نص أيضاً على التعويض للورثة عند الوفاة (٢) .

وقد حرص السردار فى تقريره الذى رفعه إلى مجلس الوزراء المصرى على تحديد نوع الجندى الجهادى المطلوب وحذر من الخلط بين السودانيين المولدين وبين الزنوج من أبناء القبائل السودانية ، مشيراً إلى أن حاجة الجيش الحقيقية هى للسودانيين من سكان المناطق الاستوائية (٣) .

وأخذت أورط الجهادية بالجيش المصرى تستكمل عدداً وعدة وأرسلت فصائل منها إلى حلفا وبعضا منها إلى سواكن . وعندما عاد ستانلى بشرازم الجهادية من خط الاستواء ألحق الصالحون منهم بالأورط سالفة الذكر .

(٣)

التنافس بين الالمان والانجليز بشأن تجنيد السودانيين بالقاهرة

بدأت علاقة الانجليز بأوغنده عندما كشفها الرحالة سبيك فى عام ١٨٥٨ ، ضمن المحاولات التى شجعتها الحكومة المصرية فى ذلك الحين للكشف عن أعالى النيل ومنابعه . ثم توالت رحلات الكشف حتى قام ستانلى فى ١٨٧٥ برحلة كانت لها نتائج خطيرة لا بالنسبة لكشف أوغنده فحسب ولكن بالنسبة لنشر المسيحية وتمهيد تلك البلاد للسيطرة البريطانية ، مما ترتب عليه تغيير الأوضاع والتمهيد للأحداث التى شكلت تاريخ أوغنده

---

(١) اعلان للسودانيين 127 Cairo Intelligence Reports : Cairint $\frac{1}{25}$.

(٢) المصدر السابق «كونتراتو لأجل عساكر أورطة السودانية المتطوعة» .

(٣) المصدر السابق — خطاب من سردار الجيش المصرى إلى مصطفى باشا فهمى رئيس مجلس الوزراء . بتاريخ ٢٣ نوفمبر ١٨٩١

كمجموعة من الممالك المستقلة ، ثم كبلاد تحت حماية شركة أفريقية الشرقية الامبراطورية البريطانية ، حتى انتهى بها الأمر إلى أن تصبح إحدى مستعمرات التاج البريطانى .

ولعب ستانلى بدهائه دور المستكشف والمبشر واستطاع أن يفسد إسلام أمتيسا ملك أوغنده فاعتنق البروتستنتية ، ولا عجب فى ذلك لأن الفترة التى نتكلم عنها كانت فترة عصيبة فى تاريخ ذلك الجزء من افريقية ، وفترة رجراجة غير مستقرة فى تاريخ الأديان . تستدل على ذلك من تصرفات أمتيسا ومن بعده ابنه موانجا ، إذ كانا لا يستقران على عقيدة واحدة (١) . وأصبحت البلاد ميدانا لنشاط الجمعيات المسيحية التبشيرية من بروتستنتية وكاثوليكية فضلا عن نشاط الأحزاب الوثنية والاسلامية . وأصبح للعقيدة الدينية أكبر الأثر فى تشكيل أحداث أوغنده وكاد التنافس بين هذه الجماعات يؤدى بأوغنده إلى حرب أهلية .

ولم تكن أحداث أوغنده لتمر دون أن تستلفت أنظار الألمان فى تنجانيقا حيث افريقية الشرقية الامبراطورية الألمانية ، أو أنظار البريطانيين فى زنجبار وكينيا ، بل أن أوغنده بموقعها على الهضبة التى تضم البحيرات الاستوائية ومنابع النيل الرئيسية كانت قد اكتسبت أهمية استراتيجية نتيجة للأحداث الخارجية التى كانت تدور فى الجزء الشمالى الشرقى من افريقية أعنى مصر ، وفى الجزء الجنوبى من وادى النيل حيث حركة المهدية ، فضلا عن النشاط الفرنسى والبلجيكى فى أعالى وادى النيل .

على ذلك لم يعد اهتمام الألمان والبريطانيين بأوغنده مجرد اهتمام تجار بمناطق خامات وثروات طبيعية ، ولم يعد اهتمامهم قاصراً على نشر المسيحية وحمايتها وإنما أخذوا يهتمون بالعمل على تثبيت أقدامهم فى ذلك الموقع الاستراتيجى حتى يتمكنوا من وقف تقدم المهدية إذا حدث وهددت أوغنده ، حتى يتخذوا من أوغنده قاعدة للتقدم والهجوم لطرد المهدية وتدميرها والقضاء عليها متى ساءت أحوالها وعجزت عن التقدم . وهذا يتطلب احتلال أوغنده وضمها للتاج البريطانى باعتبارها أقاليم جديدة غنية بالثروات الطبيعية من جهة ، ومن جهة أخرى تصبح بحكم موقعها حلقة اتصال تربط الأملاك البريطانية فى جنوب افريقية بالاحتلال البريطانى فى الشمال ، فى مصر .

---

(١) Cairo Intelligence Reports. $\frac{5}{5}$ 49. Uganda P. 4. (Mtesa and Mwanga)

وعمل كل من الانجليز والألمان على تحقيق أغراضهم ، فبادرت شركة شرق افريقية الامبراطورية البريطانية إلى إرسال قافلة للصداقة على رأسها الضابط البريطاني جاكسون فتفاهم مع ملك أوغندة على قبول العلم البريطاني كعربون للصداقة . واعتبر جاكسون أن قبول الملك للعلم البريطاني بمثابة اعتراف من جانبه بدخوله تحت حماية الشركة .

وفي نفس الوقت كانت هناك حملة ألمانية قوية بقيادة الدكتور بيتر تسرع إلى أوغندة . واستطاع بيتر أن يعقد مع الملك معاهدة صداقة ، وفي ظنه أن مثل تلك المعاهدة تعبد الطريق أمام ألمانيا لاحتلال أوغندة (1) .

* * *

وكانت الحملة الألمانية نذيراً من النذر التي جعلت الشركة البريطانية تفكر تفكيراً جدياً في تعديل موقفها من أوغندة وذلك بقطع الطريق على المنافسة الألمانية واحكام قبضتها أكثر من قبل على تلك البلاد .

ولم تكن الرغبة في قطع السبيل على الألمان حتى لا ينافسوا الانجليز في أوغندة هي السبب الوحيد الذي حدا بالشركة إلى تقرير التدخل المسلح في شئون أوغندة بارسال حملة بقيادة لوجارد ، ولم يكن الهدف التجاري الذي يتمثل في الحصول على العاج والملح من بحيرة كيبيرو هو الذي أسال لعاب لوجارد وألهب خياله ودفعه إلى إغراء الشركة بالموافقة على إرسال الحملة هو الهدف الوحيد من الحملة ، ولم تكن حماية المسيحيين من بروتستنت وكاثوليك السبب الرئيسي لتلك الحملة ، وإنما كانت هناك عوامل أهم من ذلك وأعمق ، عوامل تتعلق بمستقبل الامبراطورية البريطانية في ذلك الجزء من افريقية .

وكانت الخطوط العريضة للسياسة البريطانية الجديدة ترسم في وزارة الخارجية ووزارة الحرب البريطانية وفي سردارية الجيش المصري بالقاهرة حيث يجثم فوقها الاحتلال البريطاني وتتلاعب بمصيرها أيدي البريطانيين ، كما كانت تجمع لهـا المعلومات عن طريق المخابرات في مصر ؛ برأسها في ذلك الوقت ونجت wingate وهذه الخطوط العريضة كانت تقوم على محورين : الأول ، سرعة احتلال أوغندة واتخاذها قاعدة لدفع خطر المهدية ثم الهجوم على السودان وإعادة احتلاله . والمحور الثاني ، إخلاء المنطقة الاستوائية

(1) المصدر السابق ص ٦

من الادارة المصرية والأورط المصرية حتى تستطيع بريطانيا أن تتصرف وفق السياسة التى رسمتها فى اغتصاب هذا الجزء أو المساومة مع الدول الأخرى بشأنه .

وقد كتب قنصل بريطانيا فى زنزبار تقريراً لمس فيه بعض جوانب الموضوع فقال « عندما كنت فى زنزبار موظفاً تابعا لوزارة الخارجية فى عامى ١٨٨٥ / ١٨٨٦ ، تقدمت بمشروع أقترح فيه إرسال مدد من السلاح والذخيرة مع عدد من الضباط الانجليز الأكفاء إلى أمين باشا الذى كان يحكم المديرية الاستوائية فى ذلك الحين بقصد تجنيد قوة مسلحة من الأهالى الزنوج بتلك الأقاليم ، لصد الغزو المهدوى المحتمل ودفع الأنصار إلى الخرطوم . . . ولا زلت اعتقد فى جدوى تنفيذ المشروع نظراً للصفات الحربية الممتازة التى يتصف بها الزنوج فى أعالى النيل والتى يتحلى بها جنود الأورط السودانية بالجيش المصرى . . . ونحن لا يتطرق الينا أى شك فى أن أية دولة تحتل أوغندة يجب أن تجعل نصب عينيها التحكم فى أنيورو . . . . وبذلك تمتلك موقعاً هاماً تشرف منه على جميع البحيرات (الاستوائية) وتتحكم منه فى منابع النيل » [١] . كما نلمس نفس الفكرة فى تقرير كتبه ونجت مدير مخابرات الجيش المصرى جاء فيه « أن أية قوة حربية نرسلها إلى أوغندة بعد تجهيزها تجهيزاً كاملا بالسلاح والذخيرة تستطيع أن تتقدم شمالا عبر المديريات الاستوائية المصرية وتعاون معاونة عسكرية فعالة إذا حدث وعاد المهديون إلى محاولة تنفيذ مشروع غزو مصر أو إذا تقرر وضع نهاية للفوضى والعبودية التى تسود الآن فى السودان » [٢] .

الكابتن وليمز وتجنيد الجهادية للخدمة فى أوغندة :

وفى ضوء الظروف السابقة واستجابة للعوامل التى أشرنا اليها ، كان لا بد من حملة بريطانية إلى أوغندة ، تمكن الشركة من إحكام قبضتها على البلاد . لذلك عينت الشركة الكابتن لوجارد على رأس حملة فى أغسطس ١٨٩٠ . ثم عينت الكابتن وليمز مساعداً له . وكانت أوغندة فى ذلك الحين على شفا حرب أهلية ، وتبين لوجارد أن مشكلته الأولى توفير الجنود الصالحين المدربين ، ذلك لأن جنوده من الزنزباريين والسواحيليين لم يكونوا أندادا للعمليات الحربية التى رسم خطته من أجل تنفيذها . ولذلك قرر أن يعمل على توفير

---

(١) Cairint 5/5/49 No. 58 .

(٢) المصدر السابق .

الجندى الصالح قبل أن يقدم على التدخل الحربى، واتجه بخاطره نحو القاهرة حيث الجهادية المدربة . ولذلك أرسل مساعده الكابتن وليمز إلى القاهرة ليجند أكبر عدد ممكن من الجنود السودانيين للخدمة فى أوغنده .

وقدم وليمز إلى القاهرة فى يونية ١٨٩٠ وبدأ مهمته على الفور ، واتصل بالمسئولين البريطانيين وخاصة سردار الجيش المصرى ومدير المخابرات وتدل المكاتبات الرسمية على أن وليمز كان موضع ترحيب الجميع ، وليس فى هذا ما يدعو إلى العجب أو يثير الدهشة فمن الطبيعى أن يرحب البريطانى المحتل فى مصر ببريطانى آخر يعمل لاستعمار أوغندة ، ولكن ما يدعو إلى العجب حقا ويثير الدهشة أن يسخر الانجليز فى مصر مصلحة من مصالح الحكومة المصرية ، جعلت أمانة فى عنقهم ، لخدمة أغراضهم الاستعمارية فى أوغندة ، وبدون تكليف من الحكومة المصرية ، وبذلك خانوا الأمانة . يكشف هذا السر خطاب مرسل من « مدير مصلحة الرقيق » إلى مدير مخابرات الجيش المصرى جاء فيه « أن الضباط والعساكر الذين تعينوا إلى جهة الزنجبار مع جناب اليوزباشى وليمس كان صار جمعهم بمعرفة رجال المصلحة وغيرهم بصفة غير رسمية من نوع المساعدة ليس إلا »[1] . كما أن الرسائل المتبادلة بين وليمز وونجت، وبين ونجت ومدير مصلحة الرقيق تكشف عن «نوع المساعدة» التى بذلت لهذا الغرض . فقد أوفدت مصلحة الرقيق جنودها وصف الضباط بها يجوبون مديريات الغربية والقليوبية والشرقية بحثا عن السودانيين الصالحين للجندية . وأخذ هؤلاء يترصدون السودانيين فى الأسواق المحلية الأسبوعية يغرونهم بالتطوع للخدمة فى أوغندة . وكان وليمز دائم النشاط والتجول فى تلك المناطق يشرف على العملية ويسهم فيها[2] .

ولا ندرى بالضبط هل كانت عملية التطوع تتم بطريقة سليمة ، أى بافادة المتطوعين عن الغرض الأساسى من تطوعهم وهو خدمة الشركة فى مشروعاتها الحربية فى أوغندة وغيرها ، أم أن هذا الغرض بقى سرا فى نفس يعقوب بينما كانوا يصرحون لهم بغرض آخر. أكبر الظن أنهم كانوا يموهون عليهم ويصرحون بأن القصد من التطوع هو إنجاد بقية الجهادية التى فاتتها قافلة ستانلى مع سليم مطر . يرجح هذا الظن ما ذكره أحد المتطوعين العائدين من أوغندة وهو الاونباشى سرور خليل فى تقرير رفعه إلى مدير المخابرات

---

(١) 198 $\frac{1}{34}$ Cairint رسالة من مدير مصلحة الرقيق إلى مدير المخابرات ٢ يونيه ١٨٩٤

(٢) المصدر السابق — رسالة من وليمز إلى ونجت بتاريخ ١٠ يونيه ١٨٩٠

وقد أدلى بأقواله أمام نعوم شقير فقال « كنت توجهت من مصر أونباشى مع شكرى افندى يوزباشى من طرف دولة انجلتيرة على ذمة فتوح طريق خط الاستوى وحضور العساكر المحبوسة هناك . . . »[1] . إن مثل هذا التقرير يؤكد ما كان يحدث من تغرير بالمتطوعين أو على الأقل فإنه يدل على مدى فهم المتطوعين للمهمة التى تطوعوا من أجلها .

وبعد هذه الجهود الجبارة التى بذلها وليمز بالقاهرة واستغرقت النصف الثانى من عام ١٨٩٠ ، وجند لها الانجليز فى مصر جهود جنود وضباط مخابرات الجيش المصرى ومصلحة الرقيق ، غادر وليمز القاهرة إلى أوغندة ومعه فصيلتان من السودانيين برياسة اليوزباشى شكرى أفندى من مهاجرى الاستوائية والملازم ثانى رزق الله افندى سيدهم من ضباط الأورطة التاسعة ، على رأس مائتى جهادى من ضباط الصف والجنود[2] .

لوجارد وتجنيد سليم مطر وجهاديته :

وكان لوجارد قد سار على رأس حملة من ممباسا فى أغسطس ١٨٩٠ ، وهو يأمل أن يلحقه وليمز بالمجندين السودانيين من مصر ، فوصل أوغندة فى ديسمبر من نفس العام ليجد البلاد على شفا حرب أهلية نتيجة التنافس المرير بين جماعات الكاثوليك والبروتستنت والمسلمين والوثنيين ، وزاد الأمر سوءاً عدم استقرار الملك فى سياسته تجاه هذه الجماعات فضلا عن العداء العميق الجذور بين شعبى الباغندة والباينورو . ورغم أن ملك أوغندة كان يدعى حق السيادة على اينورو ، فإن ملك أينورو لم يكن لقمة سهلة فقد كان لديه جيش كبير يضم بين رجاله عددا لا بأس به من جهادية الجيش المصرى الذين كانوا يفرون منه بين الحين والحين[3] .

وقد لعب لوجارد دور السياسى الدبلوماسى قبل أن يلعب دور المحارب المستعمر ، وبذل جهودا جبارة فى سبيل تحقيق السلام فى أوغندة ولكن على أساس سيادة البروتستانت

---

(١) D. 80/73 Cairint $\frac{1}{35}$ تقرير أونباشى سرور خليل .

(٢) كانت الفصيلتان تضمان ضابطين ، ٣ باشجاوشية ، ١٤ من الشاوشية ، ٢٨ أونباشى بخلاف الأنفار الجهادية كما جاء بالكشوف التى حررت بمعرفة « اليوزباشى » سيدهم السودانى بعد عودته من أوغندة إلى مصر . 198 Cairint $\frac{1}{34}$ بتاريخ ٢٠ سبتمبر ١٨٩٣

(٣) Casati : Ten years in Equatoria ... pp. 60—62.

والقضاء على نفوذ المسلمين . وعند ما وصل الكابتن وليمز فى يناير ١٨٩١ على رأس مدد من الجهادية السودانيين والذخيرة ، بدأ لوجارد أعماله الحربية فأقام عددا من الحصون لتأمين الحدود بين أوغندة وأينورو ، حيث لجأ المسلمون ، ولما اطمأن إلى سلامة مركزه وتجهيزاته أراد أن يتخذ من موانجا ملك أوغندة مخلب قط فحرض على إعلان الحرب ضد كباريجا ملك أينورو حامى المسلمين . وجهز الملك موانجا جيشا بقيادة وزيره الأول . واشترك لوجارد فى الحملة بتجريدة بلغت عدتها ٣٠٠ محارب من السودانيين والصوماليين على رأسهم ٤ ضباط من الانجليز . وبعد مفاوضات فاشلة ، دارت رحى معركة حامية على الحدود تمت فيها هزيمة المسلمين وبذلك رسخت أقدام لوجارد والشركة التى يمثلها فى أوغندة [1] .

وبعد أن نجح لوجارد فى الخطوة الأولى من المشروع الكبير بتثبيت أقدام الشركة فى أوغندة ، أخذ يفكر فى الخطوة الثانية وهى خطوة أساسية بالنسبة للمشروع البريطانى الكبير فى احتلال أوغندة والوصول عن طريقها إلى وادى النيل : إما لصد المهدية أو اقتطاع المديريات الاستوائية . وكان تنفيذ هذه الخطوة يتطلب إنشاء عدة حصون تكون بمثابة محطات عسكرية حول أينورو من الجنوب والغرب ، بعد أن أقام حصونا فى الشرق وذلك لحماية أوغندة من جهة ولتيسير عملية احتلال أينورو من جهة أخرى فضلا عن تمهيد طريق المرور من أوغندة إلى وادى النيل .

ولكن كيف السبيل إلى توفير القوات اللازمة لهذه العمليات الحربية كلها ؟ وكيف يمكن تدبير الحاميات اللازمة للحصون ؟ وكيف يمكن إعداد الجيش الضخم الذى يصلح للتقدم نحو النيل لطرد المهدية واستعادة السودان ؟ بل كيف يجهز القوات التى تمكن الشركة البريطانية من مواجهة أطماع الألمان والبلجيكيين فى ذلك الجزء من افريقية ؟

حقاً لقد وفق وليمز فى تجنيد فصيلتين من السودانيين بالقاهرة ، ولكن الأعداد التى بقيت منهم كانت أقل مما تتطلبه حاجة الانجليز ، فضلا عن المشقة وبعد الشقة والتكاليف الباهظة . فهل يمكن تدبير عدد آخر من الجهادية ، بنفس الكفاية ولكن فى وقت أقصر وتكاليف أقل ؟

---

(١) Cairint 5.5.49. P. 7 .

لقد كانت الظروف فى خدمة لوجارد وعلم بما كان من شأن الجهادية الذين فاتهم قافلة ستانلى فى عودته إلى مصر ، وماكان من تجمعهم تحت قيادة سليم مطر فى كافاللى حيث بقوا على ولائهم للحكومة المصرية ينتظرون إرسال نجدة أخرى .

وداعبت الآمال خيال لوجارد ؛ إن تجنيد هؤلاء الجهادية لحساب الشركة يقضى نهائياً على سائر المتاعب الناجمة من قلة الجند ، كما يضمن الفوز للشركة فى أى مشروع حربى تقدم عليه .

ولم يضيع لوجارد Lugard وقتاً طويلا ، فما أن أبلغته إحدى طلائعه بأمر سليم مطر وجهاديته حتى أسرع ميمما شطر كافاللى حيث عسكر سليم مطر فوصلها فى ٦ سبتمبر ١٨٩٠ وهناك أحسنت الجهادية استقباله « وعملوا له التشريفة اللازمة » [(١)] . وجرت بين الطرفين محادثات عرض فيها لوجارد على سليم أن ينضم برجاله لخدمة شركة افريقية الشرقية البريطانية ، فاعتذر سليم عن عدم القبول بأنه لازال فى خدمة الحكومة المصرية ولا يمكن التخلى عن ولائه لها أو العمل تحت راية أخرى مالم تأذن له الحكومة . وأخيراً وصل الطرفان إلى حل وسط : أن يرسل لوجارد من جانبه يستأذن الحكومة المصرية فى الحصول على خدمة سليم مطر وجنوده من الجهادية ، ويتعهد فى نفس الوقت أن يساعدهم فى الوصول إلى الساحل فى طريقهم إلى مصر إذا رفضت الحكومة إجابة ملتمسه ؛ بينما وافق سليم على أن يدخل هو وجنوده فى خدمة الشركة بصفة مؤقتة حتى ترسل الحكومة المصرية رداً قاطعاً يحدد موقفهم ، واستطاع لوجارد بهذه الحركة البارعة أن يضمن للشركة خدمات حوالى ١٠٠٠ جهادى بسلاحهم وذخيرتهم . وقد علق الاميرالاى ونجت مدير المخابرات فى الجيش المصرى على هذا الاتفاق بقوله « لقد أفادت هذه الاتفاقية كلا من الطرفين المتعاندين ، فقد وفق الكابتن لوجارد على مايبدو بمساعدة الجنود المصريين فى تدعيم سلطة الشركة فى أوغندة ، بينما اعتقد سليم بطبيعة الحال أنه قد أدى واجبه فى الاحتفاظ ببقايا الحامية الاستوائية وضمن عودتهم إلى مصر ، ثم هو قد أسهم فى نفس الوقت فى تنفيذ ماكان يتصوره مشروعات مصرية انجليزية » [(٢)] .

---

(١) Cairint $\frac{1}{35}$ D. 8°/73 .

(٢) Sndan Intelligence Reports. No. 3—PP. 5, 14 ويلاحظ أن عدد الجند لم يضبط تماما ، والأرقام المذكورة تقريبية .

وبفضل جهود القوة الجديدة أقام لوجارد ستة حصون جديدة لحماية الحدود ضد أينورو والمهدية وكانت حاميات الحصون من الجهادية . وبذلك هدأ باله من جهة الحدود وتفرغ لحل المشكلات الداخلية لأوغندة .

ولما كان لوجارد حريصاً على الاحتفاظ بهذه القوة الحربية الممتازة ، فقد كتب إلى الخديوى فى شأن الموافقة على تجنيدهم لخدمة الشركة ، كما كتب سليم بك فى هذا الشأن . غير أن الوثائق لا تسعفنا إلا بخطاب من وليمز إلى ونجت وردت فيه إشارة إلى الخطابات سالفة الذكر جاء فيه :

« عزيزى ونجت

يصلك خطابى هذا فى نفس البريد الذى يحمل اليك خطاباً رسميا من لوجارد إلى الخديوى وخطابات من سليم بك الذى أحضره لوجارد من كافاللى . . إن الأمور فى أوغندة تتجه نحو الاستقرار ولكن فى بطء ، فاذا تحلينا بالصبر فلسوف تثمر جهودنا فى ذلك الجزء من جنوبى السودان . إن فى قبضتنا الآن جنوبى أينورو والاقاليم الممتدحتى جبل رونزورى ، فضلا عن بحيرة ألبرت والبرت ادوارد حيث أقمنا محطة للتحكم فى (كبيرو) وهى البحيرة الملحة التى قال عنها ستانلى فى كتابه أنها تدر الخير للاقاليم كما لو كانت منجم ذهب . وبالاضافة إلى هذا فلدينا السودانيين من رجال سليم ، وهم بقايا الأورطتين ، ويبلغ عددهم ٨٠٠٠ من الأنفس وفيهم حوالى ٦٠٠ من الجنود من سائر الرتب . وقد وزعناهم فى الوقت الحاضر على خمس قرى محصنة فى أينورو حتى يصبحوا فى النهاية حاجزاً منيعاً يحمى تورو والبحيرة الملحة [1] . وقد حضر مع البك العجوز جنوده بالاضافة إلى بعض العمال الفنيين وبحارة الباخرة . . . . . ابذل ما فى وسعك لتحصل على إذن لهؤلاء الرجال كى يدخلوا فى خدمة الشركة ؛ إن نقل هذا العدد الضخم إلى مصر سوف يكلف كثيراً ، ولن تكون لهم فائدة إذا عادوا إلى مصر .

وعلى العكس من ذلك إذا حصل هؤلاء على إذن الخديوى بالعمل فى خدمة الشركة فلسوف يقنعون بذلك ، ويصبحون عونا كبيراً لنا فى أى تقدم نحو خط الاستواء . وإنى لأشعر شعورا قويا بأن هذه المنطقة تقع فى دائرة المصالح البريطانية . . » .

---

(١) يقع اقليم تورو إلى الجنوب الغربى من أوغندة من أهم ثرواتها الطبيعية الملح المستخرج من بحيرة كبيرو وهو الثروة التى الهبت خيال لوجارد . أنظر Furley : The Sudanese Troops In Uganda p. 313

وبما يدعو إلى العجب حقا أن أطماع الانجليز فى أوغندة لم تقتصر على هذه المئات من الجهادية المدربة فقط وإنما طمعوا أيضا فى أن تتولى الحكومة المصرية صرف رواتبهم وتعييناتهم ، بل أنهم طلبوا استبدال أسلحة جديدة بما عناه يكون تآلفا مما فى أيديهم من السلاح . ومن أجل ذلك استطرد وليمز يقول فى رسالته . « وإذا وافق الخديوى على أن يعطينا هؤلاء الرجال فلعله يقدم لنا مرتباتهم وتعييناتهم كلها أو بعضها ، وإلا ففى وسعك أن تؤدى لنا عونا كبيراً إذا أرسلت لنا نسخة من اللوائح التى تنص على تحديد المرتبات ومرتب العائلة والملابس . . . ، ولعلك تستطيع أن ترسل إلينا أيضا كمية من البنادق من طراز رمنجتن بدلا مما بأيدى بعضهم من بنادق تالفة »[1] .

وهكذا حاول الانجليز فى أوغندة تدعيم نفوذهم ومد رقعة مستعمراتهم بسواعد الجهادية والأسلحة المصرية .

* * *

محاولات الألمان :

والظروف التى واجهت الألمان فى شرق أفريقية كانت شبيهة بالظروف التى واجهت الانجليز هناك : كلاهما كان يعمل لانشاء مستعمرات ، وكلاهما كان يعمل للتوسع نحو الغرب، ونحو الشمال فى سباق نحو النيل . وكلاهما كانت تعوزه القوة الحربية المنظمة المدربة المسلحة. وفى سبيل توفير تلك القوة الحربية سلك كل منهما نفس الطريق التى سلكها الطرف الآخر وذلك بالحصول على الجهادية من القاهرة أو من الأورط السودانية بالجيش المصرى من حامية خط الاستواء .

وكانت القيادة الألمانية فى شرق افريقية أسبق من لوجارد والشركة البريطانية فى محاولة الحصول على سليم مطر ومن معه من الجهادية وذلك عند ما أرسلت محمد أمين مدير عموم خط الاستواء لهذا الغرض . وكان أمينا قد دخل فى خدمة الحكومة الألمانية بعد الفاجعة التى ألمت به وعوقته عن المضى مع ستانلى والجهادية إلى مصر[2] ، وكلف بالسعى لتجنيد

---

(١) 198 $\frac{1}{34}$ Cairint بتاريخ ١٦ يناير ١٨٩٢

(٢) عندما وصلت قافلة ستانلى برفقة أمين والجهادية إلى محطة أمبابوا Umpapua الألمانية فى طريقهم إلى الساحل أقام لهم الميجور ويسمان المندوب الامبراطورى فى أفريقية الألمانية الشرقية مأدبة حافلة وبعد انتهاء المأدبة كان أمين يتطلع من شرفة المنزل الذى كان يقضى فيه الليل . وفى حوالى منتصف الليل سقط من الشرفة وحمل إلى المستشفى ليقضى شهرين ومن ثم مضت الحملة فى طريقها وتخلف أمين عن اللحاق بها .

السودانيين من فصيلة سليم بك . فسار مع فيتا حسان صيدلى المديرية السابق وبعض الزنزباريين تحت العلم الألمانى قاصدين كافاللى . وفى يوليه ١٨٩١ وصل إلى مشارف المعسكر حيث وجد سليم بك مع الجهادية وبعض الكتبة المصريين .

وخرج سليم بك وزملاؤه لمقدم أمين وقابلوه بالترحاب ظناً منهم أنه جاء لنجدتهم ، ولم يلبث أمين أن صرح لهم بغرضه الحقيقى فرفض سليم قائلا « إنه هو وجنوده من رعايا الحكومة المصرية وأنهم يعتبرون أنفسهم دائما فى خدمتها وعلى ذلك لا يستطيعون إجابة طلبه » وطافت بالمعسكر إشاعة مؤداها أن الحكومة المصرية غضبت على أمين بسبب تركه لبقية الحامية فطردته من خدمتها [١] .

لهذا لم يوفق أمين فى مهمته ، ولم يستطع إلا أن يغرى نفراً من الجند يعدون على أصابع اليد . وقد عثرنا على عدد من الوثائق تحكى قصة أمين مع من غرر بهم من الجهادية ، وهى تقارير كتبها الضباط والجنود الذين صحبوه ثم انفصلوا عنه وقد جاء بعضها على لسان سليم مطر بعد أن لجأ اليه هؤلاء يشكون من سوء معاملة أمين لهم .

وخلاصة هذه التقارير أن أميناً تحايل على « بعض الخدمة وأخذهم معه بوجه المغشوشية حالة كونه يوصلهم إلى الحكومة الخديوية » . ولكن بدلا من ذلك أخذ يعد العدة للتوجه إلى الكونغو حتى لقد أصبح « مشبوه لنا أنه متوجه إلى جهة الكنجوا » . وبعد عدة أشهر من المشقة والجهد وتفشى مرض الجدرى ، تردد أمين بين السماح لهم بالذهاب إلى أوغنده أو إرسال الأصحاء منهم إلى « الطوابى تعلق الجرمل » أى الجرمان ؛ أو المضى فى طريقه غربا نحو الكونغو [٢] .

ورغم أن أميناً كان على علاقات طيبة مع رؤساء القبائل يمدونه بكل ما يلزمه من المئونة والحمالين ويسمحون له بالمرور فى أقاليمهم ، إلا أن علاقته برجال الحملة من الجهادية كانت سيئة للغاية حتى لقد نمى إلى علمه « بأن هناك مؤامرة بين الضباط والجند ضده وأن المتآمرين قرروا مهاجمة منزله ومصادرة البضائع والذخيرة . . . . ثم اللحاق باخوانهم . » فما كان منه إلا أن توقف عن السير وجمع الضباط والجنود وأخبرهم بوقوفه على المؤامرة

---

(١) Cairint $\frac{3}{14}$ 239 Report on Equatoria .

(٢) Cairint $\frac{1}{35}$ 206—D—8/55 بتاريخ ١٨ أبريل ١٨٩٢

وأبنهم . وقد جاء تفصيل تلك الأحداث فى رسالة بعث بها اليوزباشى ريحان أغا راشد والملازم أول أبو بكر أغا محمد إلى سليم مطر فى أوغندة .

والعبارات الواردة بالرسالة تلقى بعض الضوء على الموقف بحيث يتضح موقف كل من أمين والجهادية . أما أمين فكان يعتقد « أن الدنيا صارت حرية » فلا يربطه أو يربط الجهادية أى التزام نحو الحكومة المصرية . غير أنه حاول استغلال هؤلاء الجهادية فلم يعطهم رواتب ولا تعيينات ، فما كان من ضباط الجهادية إلا أن ردوا عليه حجته بقولهم « فما دامت الدنيا صارت حرية فهنا لم فيه مجبورية على السفر بدون ماهية » . ولم يلبث أن طردهم من حضرته وقال لهم « خذوا أولادكم والعساكر ولا تقعدوا عندى أبداً ولا لكم شىء عندى ... » (١) .

إن الحقد الذى كانت تفيض به نفس أمين على الجهادية ، ومعاملته السيئة لهم ، جعلتهم يشعرون أنهم فى حالة ضياع فأرسلوا يلتمسون من سليم أن يرسل من يقودهم إليه فى أوغندة وهكذا أخفق أمين فى مهمته . ولم تلبث حياته أن انتهت نهاية غامضة ، فقد قتل فى قلب الغابة وتشتت حملته وانتهى ذكره .

ويسمان وتجنيد السودانيين من القاهرة :

إن الفشل الذى صادفه محمد أمين حتم على القيادة الألمانية فى افريقية الشرقية الامبراطورية أن تدبر أمر الحصول على مزيد من الجهادية بطريقة أخرى وتطلعت إلى القاهرة . من أجل ذلك اتصلت الحكومة الألمانية من برلين بقنصلها العام فى مصر وهو المستر هلفج Helwig بقصد استئذان الحكومة المصرية فى تجنيد ٣٠٠ من السودانيين للعمل فى خدمة القيادة الألمانية فى شرق افريقية . واتصل القنصل بدوره بوزارة الخارجية المصرية وحصل منها على الاذن المطلوب . وقد اشترطت الحكومة المصرية أن يقتصر تجنيد هؤلاء السودانيين على الموجودين منهم فى القاهرة والاسكندرية دون الأقاليم ، وأن لا يكونوا من رجال الجيش العامل ولا تضمهم كشوف التجنيد فى وزارة الحربية .

وضمانا لسلامة الاجراءات والتحقق من شخصية المتطوعين ، فقد احتفظت الحكومة المصرية لنفسها بحق التفتيش عليهم قبل السفر (٢) .

---

(١) المصدر السابق – رسالة بتاريخ ٧ مارس ١٨٩٢

(٢) 185 $\frac{1}{33}$ Cairint خطاب من وزير الخارجية إلى السردار بتاريخ ١٨ أكتوبر ١٨٩١

وثمة ملاحظتان هامتان على هذه الشروط ؛ الأولى أن السودانيين الموجودين بالقاهرة والاسكندرية يكونون عادة من أولئك الذين استغنى عنهم الجيش على اعتبار أنهم غير لائقين بعكس السودانيين الموجودين فى مدن الأقاليم [١] . وبينما كان وليمز ممثل الشركة البريطانية يجند السودانيين من مدن الأقاليم كطنطا وبنها والزقازيق ، حيث يحتمل وجود خامات صالحة للجندية ، إذا بالحكومة تحرم ذلك على الألمان ، لغرض فى نفس الانجليز . وهذه التفرقة فى المعاملة تدل على محاباة الانجليز على حساب الألمان .

والملاحظة الثانية تتعلق بالموقف السلبى الذى وقفته المخابرات فى مصر من بعثة ويسمان الألمانى بعكس موقفها من بعثة وليمز الانجليزى . فعندما جاء ويسمان إلى القاهرة لتنفيذ العملية ، قابل وزير الخارجية المصرية صباح ١٦ أكتوبر ١٨٩١ للتحية والاستفسار عن الجهة التى ينبغى أن يتصل بها لتزويده بالمعلومات التى تساعده على انجاز مهمته [٢] . غير أن الترحيب الذى لاقاه وليمز الانجليزى من المخابرات ومصلحة للرقيق . والمعونة القيمة التى قدمتها له الجهات الرسمية لم يبذل شيء منها لويسمان الألمانى . وعلى العكس من ذلك وقف السردار ومدير المخابرات وهما بريطانيان موقفا سلبيا من ويسمان كما يبدو من رسالة أرسلها ونجت إلى السردار بهذا الشأن جاء فيها « . . . ليس هناك الآن مورد معين لتجنيد السودانيين فى مصر . إن المورد الذى يحصل منه الجيش المصرى على المجندين السود هو السودانيون ، ولما كانت السودان فى الوقت الحاضر مغلقة فى وجه مصر ، فعلينا أن ننتظر حتى يتسرب بعض هؤلاء عبر الحدود ، وهذا الأمر يحدث عادة عندما تزحف قوة الدراويش إلى الشمال فنحصل على السودانيين اللائقين للتجنيد » [٣] .

والوثائق التى تحت أيدينا تخلو من المعلومات التى تمكننا من معرفة ما تم فى هذا الموضوع ، ومدى توفيق ويسمان فى تجنيد العدد المتفق عليه من السودانين . ويغلب على الظن أنه لم يوفق إلى الحد الذى كان يرجوه نظراً للعراقيل التى أقامها الانجليز فى طريقه . ومما يرجح هذا الظن وجود وثائق أخرى تتحدث عن محاولات تالية لويسمان من أجل التجنيد ، لم يظفر فيها إلا باعداد قليلة .

---

(١) 185 $\frac{1}{33}$ Cairint رسالة من ونجت إلى السردار بتاريخ ١٧ أكتوبر ١٨٩١

(٢) 185 $\frac{1}{33}$ Cairint خطاب من وزير الخارجية إلى السردار بتاريخ ١٨ أكتوبر ١٨٩١

(٣) 185 $\frac{1}{33}$ Cairint رسالة من ونجت إلى السردار بتاريخ ١٧ أكتوبر ١٨٩١

(٤)

قرار مصر بتحريم تجنيد السودانيين لخدمة دولة أجنبية

وخشى الانجليز فى مصر أن يوفق الألمان فى تجنيد مزيد من الجهادية السودانية لأن من شأن هذه الزيادة أن تيسر لهم تحقيق اطماعهم التوسعية فى شرق أفريقية وتمكنهم من التقدم نحو النيل فيعرقلون مشروعات التوسع البريطانية فى المنطقة الاستوائية ولذلك حاولوا من جانبهم قطع كل أمل للألمان فى تجنيد السوادنيين من مصر . وتنفيذاً لتلك المحاولة تقدم سردار الجيش المصرى بتقرير للعرض على مجلس الوزراء جاء فيه « ونظرا لتكرر تجنيد السودانيين للخدمة فى أقاليم افريقية مختلفة . . . فإنى أقترح على حكومة صاحب السمو أن تتخذ من الاجراءات ما تراه كفيلا بمنع تجنيد السودانيين للخدمة خارج الحدود المصرية فى المستقبل »[1] . وقد برر السردار اقتراحه السابق بقلة السودانيين الذين ينتمون إلى القبائل السودانية رغم حاجة مصر إلى الجهادية وهم عصب الأورط السودانية فى الجيش المصرى .

ولم تمض أيام ثلاثة حتى انعقد مجلس الوزراء المصرى لبحث هذا الموضوع . وبعد أن ناقش الاعتبارات التى أبداها السردار فى تقريره المعروض على المجلس ، قرر بجلسته المنعقدة فى يوم الخميس ٢٦ من نوفمبر ١٨٩١ «أن يمنع فى المستقبل تجنيد السودانيين من أجل الخدمة لحساب الدول الأجنبية »[2] .

وقد يبدو السردار مخلصاً فى توفير السودانيين للجيش المصرى ، وقد يبدو اقتراحه بريئاً لا يقصد به الألمان بالذات . عادلا يسوى بين الدول فى التحريم ولا يؤثر إحداها بميزة على الأخرى . وهذا حق إذا أخذنا الأمور بظواهرها . ولكن الآية تنعكس إذا علمنا أن لوجارد ممثل الشركة البريطانية كان قد استطاع فى يولية ١٨٩١ — أى قبل تقديم اقتراح السردار بأربعة أشهر — أن يضم لخدمة الشركة ما لا يقل عن ثمانمائة جهادى وعلى رأسهم سليم مطر وزملائه من الضباط والكتبة . فلم يعد الحصول على مزيد من

---

(١) 127 $\frac{1}{25}$ Cairint تقرير مرفوع من السردار إلى رئيس مجلس الوزراء فى ٢٣ نوفمبر ١٨٩١

(٢) 127 $\frac{1}{25}$ Cairint رسالة من مصطفى فهمى رئيس مجلس النظار إلى وزير الحربية بتاريخ ٢٨ نوفبر ١٨٩١

الجهادية أمراً يهم الانجليز بقدر ما أصبح حرمان الألمان من تجنيد السودانيين من القاهرة يشغل بالهم ويقض مضجعهم . ومن هنا تظهر حقيقة هدف السردار من اقتراحه .

(٥)

الألمان بالقاهرة وتجنيد السودانيين بصفة سرية

عندما أصدرت الحكومة المصرية قرارها بتحريم تجنيد السودانيين للعمل فى خدمة الدول الأجنبية ، كانت القيادة الألمانية فى شرق افريقية لا تزال فى حاجة إلى مزيد من الجهادية . ولذلك فكرت فى أن تزاول عملية التجنيد بالقاهرة بصفة سرية ، بعيداً عن عيون الحكومة المصرية ورقابتها . والوثائق التى تحت أيدينا تثبت تواطؤ القنصلية الألمانية بالقاهرة مع بعض العملاء من الوطنيين فى انجاز هذه العملية لحساب افريقية الشرقية الألمانية .

وبدأت القنصلية بأن تخيرت عميلا لها من سكان حى بولاق وهو « مهران زكي »[١] . واستطاع مهران أن يجند بعض السودانيين للخدمة فى افريقية الشرقية الألمانية ، تذكر منهم الوثائق نجيب أفندى البقارى الضابط بالمعاش وسالم افندى وعبد الله شتا من ضباط الصف وقد رحلهم إلى السويس ومنها أبحروا إلى زنجبار[٢] .

ورغم أن هذه العملية أفلتت من رقابة الحكومة ، إلا أنها سارت ببطء فلم تكف لمواجهة حاجة الألمان الملحة إلى السودانيين ولم ترض عنها سلطاتهم هناك . لذلك عهدت القيادة إلى الميجور ويسمان كي يتوجه مرة أخرى إلى القاهرة ويعمل على تجنيد العدد الكافى من السودانيين بصفة سرية . وبالفعل توجه ويسمان إلى القاهرة فى شتاء ١٨٩٢ وصحب معه أحد الضباط السودانيين ممن جندهم فى المرة السابقة وهو الملازم سيد رخا[٣] .

وفى القاهرة اتصل الميجور ويسمان بقنصل ألمانيا العام ورتبت العملية هذه المرة أيضاً بحيث تتم فى الخفاء ودون أن تستلفت نظر المسئولين . واستمرت عملية التجنيد فعلا

---

(١) لم تسعفنا الوثائق بمعلومات كافية عن مهران زكى ، ويفهم من بعضها أنه مقاول لتقديم العمال .

(٢) 204 $\frac{1}{34}$ Cairint وثيقة رقم ١٣ بتاريخ ١٨ – ٦ – ٩٢

(٣) 204 $\frac{1}{34}$ Cairint وثيقة رقم ٨ بتاريخ ٩ – ٥ – ٩٢

أربعة أشهر . ولم تتنبه السلطات المصرية المسئولة إلا بعد مدة فثارت ثائرة السردار ومدير المخابرات ونجت Wingate .

وقد انفضح أمر العملية فى الأيام الأولى من شهر أبريل ١٨٩٢ عندما قدم أحد رجال المخابرات المصرية تقريره الأسبوعى إلى نعوم شقير . ولم يكن التقرير مفصلا وإنما تضمن خبراً يتلخص فى أن أحد الأجانب يقوم بتجنيد السودانيين من حى العباسية للخدمة فى زنزبار ، يساعده فى ذلك أحد مقاولى العمال من المصريين [1] .

وتعجب نعوم شقير وثارت ثائرة الانجليز فى الجيش والمخابرات ، لأن هذا العمل مخالف لقرار مجلس الوزراء من جهة ومن أخرى فإنه يتيح الألمان فرصة الحصول على السودانيين فتزيد قوتهم الحربية فى افريقية الشرقية وقد ترجح كفتهم فى تلك المناطق ويصبحوا أقدر على منافسة انجلترا فى سباقها نحو النيل .

وأرسل نعوم شقير المخبرين السريين فعادوا يؤكدون المسألة مع تفاصيل يفهم منها أن الضابط الألمانى الميجور ويسمان هو الذى يجند السودانيين للخدمة فى زنزبار . وأنه يزاول هذه العملية فى حى العباسية يعاونه فى ذلك سيد رخا ووكيل أوربى وخادم له يدعى محمد البربرى كان فى خدمته بزنزبار مدة ثلاث سنوات .

وتوخت إدارة المخابرات الحيطة والحذر فى كشف الموضوع وكثر تردد المخبرين السريين على مقر التجنيد بحجة أنهم ضباط سابقين بالجيش المصرى ويرغبون فى التطوع لجهة زنجبار ، فجاءوا بمزيد من التفصيلات عن نشاط سيد رخا ، والأسلوب الذى يتبعه فى إغراء السوداقيين ، إذ كان يدعوهم إلى منزله ويقدم لهم الخمر ويغريهم بالسفر إلى زنجبار حيث « المكاسب الطيبة » فمن تطوع منهم أعطى جنيهان ، أحدهما كمقدم والثانى ثمن تذكرة سفر وتشهيلات إلى السويس فضلا عن جراية يومية قيمتها ثلاثة قروش . وقد فهم المخبرون أن أعداداً من السودانيين يجرى تسفيرها بالتدريج [2] .

ولم يعد ثمة بد من استدعاء سيد رخا لاستجوابه فاستدعاه رئيس إدارة البوليس السرى إلى ديوان المخابرات حيث حقق معه نعوم شقير . ولم يحاول سيد رخا أن يخفى شيئا ،

(١) 204 $\frac{1}{34}$ Cairint وثيقة رقم ١ بتاريخ ١٢ – ٤ – ٩٢

(٢) المصدر السابق – وثيقة رقم ٢ بتاريخ ١٩ – ٤ – ٩٢ ، رقم ٤ بتاريخ ٢٨ – ٤ – ٩٢ ورقم ٥ بتاريخ ٢ – ٥ – ٩٢

فسرد تاريخ حياته وتفاصيل العملية التى يقوم بها لحساب الألمان . ورفع الأمر إلى السردار فهدد سعيد رخا وأنذره بتقديمه إلى المحاكمة أمام مجلس عسكرى عالى إذا عاد إلى تجنيد السودانيين بعد ذلك (١) .

غير أن قصة تجنيد الألمان للسودانيين بالقاهرة ماكانت لتنتهى بتهديد سيد رخا أو بالتعهد الذى قطعه على نفسه ، فقد كان هناك ويسان ومساعده فضلا عن محمد البربرى . ولذلك عهد وبجت إلى نعوم شقير بتقصى الأمر وعمل التحريات بنفسه . وصدع نعوم بالأمر وزار سيد رخا بمنزله فى العباسية الشرقية فتأكدت لديه المعلومات التى وصلت إلى المخابرات من قبل ، كما علم أن « ناهية النفر » تبلغ جنيهين شهرياً يدفع أحدهما الى أسرة المتطوع بالقاهرة عن طريق القنصلية الألمانية ، أما الثانى فيتسلمه المتطوع فى محل وجوده . وكان المتفق عليه أن يتسلم سيد افندى رخا استحقاقات الأسر كلها ثم يوزعها عليهم أو على وكلائهم بمقتضى كشف يوضح أسماءهم وذلك فى مقابل عمولة خاصة تخصم من المرتب .

ولم يكتف نعوم شقير بزيارة سيد رخا بمنزله ، وانما زار أيضا أسر المتطوعين فى منطقتى حلة العرب بالوايلية الصغرى قرب محطة العباسية ، وحلة رقم ١ بالعباسية . وقد ذكر شقير أسماء ١٦ سيدة ممن قابلهن ، وكانت رواياتهن مطابقة لما ذكره سيد رخا ، كما قابل هناك أحمد البربرى ، فأكد نفس القصة ، ظناً من هؤلاء جميعا أن نعوم شقير موفد من القنصلية الألمانية ، كما أكد البربرى أن المتطوعين قد رحلوا إلى السويس وأنهم جميعاً وصلوا سالمين (٢) .

كان على المخابرات بعد ذلك أن تعمل ، وأن تعمل فى حزم وسرعة لتحقيق ثلاثة أمور : الأول ، حفظ حقوق الاسر التى سافر من يعولها . والثانى سرعة اتخاذ الاجراءات التى تمنع سفر هؤلاء المجندين إن لم يكونوا قد سافروا بعد . والثالث ، القضاء على هذه العملية وتحذير القائمين بها .

أما الاجراء الأول فيفهم من الاخطار الذى أرسلته المخابرات « إلى جناب الخواجات برتشنايدر وشركاه » بالقاهرة ، لالغاء التوكيل المعطى لسيد رخا بقبض « مرتبات زوجات

---

(١) Cairint 204 $\frac{1}{34}$ وثيقة رقم ١١ بتاريخ ٢٣ / ٥ / ٩٢

(٢) المصدر السابق — وثيقة رقم ١٣ بتاريخ ١٨ / ٦ / ٩٢ — وقد ذكر سيد رخا وأحمد البربرى أسماء عشرات ممن تطوعوا وسافروا .

المجندين السودانيين الذين صار تشهيلهم إلى زنزبار » على أن تحل المخابرات محله فى هذه المهمة [1] .

ولما كان الأمر الثانى ، وهو منع سفر المجندين ، بالغ الأهمية فقد أبرق السردار إلى محافظ السويس بالبحث عن المجندين والقبض عليهم ، والمحافظ بدوره كلف « معاون بوليس السويس وناظر قلم البسابورتات » بالتنفيذ . وقام الرجلان بالبحث والتحرى والمراقبة فكانوا يفتشون القطارات القادمة من القاهرة و « وابورات البوستة الخديوية » المسافرة من السويس ، ورغم الدقة البالغة فلم تصل السلطات فى السويس إلى نتيجة تذكر [2] . وكتب محافظ السويس يرد على السردار بقوله إن رجاله جميعاً ملتفتين وعلى قدم التيقظ للسودانيين وعدم تمكنهم من السفرية خارج القطر ما لم يكن ذلك بتصريحات من الحربية . . . » [3] .

ومن الطريف أن نعوم شقير كتب تعليقاً ساخراً على خطاب المحافظ وأرسله إلى مدير المخابرات مؤداه « إن سيد رخا الذى جند هؤلاء الرجال وأرسلهم من هنا يؤكد أن السوادنيين الذين نحن بصدد الكلام عنهم قد غادروا القاهرة فعلا إلى السويس . وأن مخبرينا السريين على استعداد لتقديم المزيد من التفصيلات » [4] .

وهكذا انتهت مهمة ويسمان بالنجاح إلى حد ما ، وإن كان الباب قد أغلق نهائيا أمام الألمان وغيرهم ولم يسمح لدولة أجنبية بتجنيد السودانيين من مصر .

(٦)

البلجيكيون فى الكونغو وتجنيد الجهادية المتمردة

وفى الجانب الغربى من المنطقة الاستوائية ، فى حوض الكونغو ، كان ثمة نشاط آخر يقوم به الكونغوليون لحساب الملك ليوبلد الثانى ملك البلجيكيين . وكان ليوبلد فى ذلك الحين يمثل دور الشخصية الطموحة ، ويطمع عن طريق التوسع الاقليمى فى افريقية أن تصبح

---

(١) المصدر السابق — وثيقة رقم ١٢ بتاريخ ٢٨ / ٥ / ٩٢ . وواضح أن برتشنايدر كان موكلا بتسليم الرواتب لسيد رخا من طرف القنصلية الألمانية .

(٢) المصدر السابق — الوثيقتان رقم ٨ ، ٩ بتاريخ ٩ ، ١٠ مايو ١٨٩٢ على التوالى .

(٣) نفس المصدر — وثيقة رقم ١٠ بتاريخ ١٤ مايو ١٨٩٢

(٤) نفس المصدر — وثيقة رقم ١١ بتاريخ ١٦ يونية ١٨٩٢ .

دولته فى المرتبة الأولى بافريقية رغم كونها بين دول المرتبة الثانية فى أوربا . ومهد ليوبلد لنشاطه الاستعمارى بإعلان تأسيس دولة الكونغو الحرة ، ولم تلبث هذه أن أصبحت حقيقة دولية بفضل مؤتمر برلين ١٨٨٤ (١) .

وبدأ ليوبلد فى نشاطه الافريقى نبيلا يعمل لتشجيع الكشف الجغرافى وترقية العلوم وتمهيد مجاهل افريقية لغرس بذور الحضارة الأوربية ، فضلا عن الجانب الانسانى وهو « منع تجارة الرقيق وتحريره » . وسار فى ذلك خطوات ثابتة استغرقت منه عدة سنوات منذ كشف ستانلى حوض الكونغو الأدنى ١٨٧٤ حتى أعلن تكوين دولة الكونغو الحرة ١٨٨٤ (٢) . وخطط ليوبلد لنشاطه البرىء المظهر ، الاستعمارى الجوهر بحيث يتقدم نحو هدفين : حوض الكونغو بما فى ذلك كشفه واستعماره ، وحوض النيل بما فى ذلك احتلال بحر الغزال والحصول على جهادية فضل المولى .

وفى حوض الكونغو بدأ التوسع على النحو الاستعمارى التقليدى وتضافرت جهود المستكشفين من أمثال ستانلى وشوينفرث ويونكر وكازاتى .. مع جهود التجار والرأسماليين والقواد العسكريين من أمثال الضابط البلجيكى Thys الذى أسس شركة الكونغو للتجارة والصناعة فى ديسمبر ١٨٨٦ وشملت مهمتها الكشف الجغرافى إلى جانب الأهداف التجارية والصناعية .

وفيما بين عامى ١٨٨٧ — ١٨٩٠ استطاع الضابط البلجيكى كابتن فان جيل Van Gèle وزملاؤه الكشف عن حوض نهر أوبانجى — ويلى من روافد الكونغو الرئيسية ، حتى وصلوا إلى خط تقسيم المياه بين النيل والكونغو (٣) .

مشروعات ليوبلد النيلية :

ولا ندرى على وجه الدقة متى بدأت أطماع ليوبلد فى وادى النيل ، كان قد زار مصر فى عام ١٨٥٥ ، ثم تكررت زيارته لها فى عامى ١٨٦٢ ، ١٨٦٤ . ويقال أن هذه

---

(١) قبل المؤتمر كانت ثلاث من الدول العظمى قد اعترفت « بحكومة الكونغو » وإن لم تعترف « بدولة الكونغو » . وهذه الدول هى الولايات المتحدة الأمريكية وفرنسا وألمانيا .

(٢) أفاضت كثير من الكتب فى تفصيل هذا النشاط ومن خيرها
Wauters : État Indépendant de Congo.

(٣) Sanderson : Leopold II and the Nile Valley. p. 17.

الزيارات قد أثارت اهتمامه بوادى النيل . وزاد هذا الاهتمام وأصبح عاملا موجها فى سياسته الافريقية وخاصة منذ أن أدخل ضمن أهدافه مكافحة تجارة الدقيق ، وكان غردون ممن استعان بهم ليوبلد لهذا الغرض ، فعينه فى حكومة الكونغو ، وكلفه بتنظيم إدارتها والعمل على مكافحة الرقيق . وكان رأى غردون واضحا صريحا ، فمن الضرورى لحكومة الكونغو أن تحتل مراكز فى بحر الغزال إذا أرادت أن « تقتلع تجارة الرقيق من جذورها [1] » . وارتاح ليوبلد إلى هذه النصيحة لأنها كانت تمثل رأى رجل مجرب خبر المسألة عندما كان حكمداراً عاما للسودان ، كما كانت تتمشى مع الجماعة فى حوض النيل .

غير أن نشاطه الحربى فى حوض النيل كان يتطلب نشاطا سياسيا يؤمن فى ظله عملياته الحربية ويحدد بفضله موقف الكونغو من جيرانها من الدول الاستعمارية فعقد اتفاقيات مع كل من ألمانيا وفرنسا رسمت الحدود ومناطق النفوذ .

محاولة الإتفاق مع أمين باشا :

وكان ليوبلد يدرك أن توسعه نحو النيل يعرضه لخطر الاصطدام مع المهدية ، والحاجز الوحيد الذى كان يفصل بينهما فى ذلك الحين هو مديرية عموم خط الاستواء المصرية ومديرها محمد أمين ، وكانت الحكومة المصرية قد طلبت من محمد أمين إخلاء المديرية كجزء من الخطة العامة للانسحاب من السودان بصفة مؤقتة ، وعول ليوبلد على الصيد فى الماء العكر ، وهداه تفكيره وأطماعه إلى أن يقترح على محمد أمين التخلى عن مديرية خط الاستواء لدولة الكونغو مقابل تعيينه محافظا عليها من قبل ملك البلجيكيين ، وكان يأمل من وراء اقتراحه هذا تحقيق فوائد كثيرة : فالاقليم الذى كانت تشغله المديرية المصرية إقليم فسيح وفيه من الخيرات والامكانيات ما جعلهم يعتبرونه « جنة إفريقية » كما اشتهر حاكم المديرية بحسن علاقته بالوطنيين وخبرته بالاقليم على نطاق واسع . وكان من شأن هذا الاقتراح لو قبله محمد أمين أن يتيح لليوبلد خدمات أورطتين من الجهادية من خيرة الجنود الافريقيين المدربين بسلاحهم وذخيرتهم فيستطيع أن يدفع آماله دفعة قوية ، وهذا فضلا عن أن المديرية

---

(١) كان غردون قد شغل منصب حكمدار عام السودان حتى عام ١٨٧٩ ، ثم استقال وعاد إلى انجلترا . ولم يلبث ليوبلد أن عينه فى حكومة الكونغو فى يناير ١٨٨٤ وذلك قبل أن يعود نهائيا إلى الخرطوم قبل مقتله فى يناير ١٨٨٥

سوف تصبح إقليما حاجزاً يدفع به عدوان المهدويين عن الكونغو إذا حدث وسولت لهم أنفسهم التقدم فى ذلك الاقليم بعد الاستيلاء على المديرية المصرية .

وحمل ستانلى هذا الاقتراح ضمن الاقتراحات التى عرضها على محمد أمين فى مايو ١٨٨٨ غير أن أمينا رفض هذا العرض [1] . وليس مما يهم بحثنا هذا مناقشة العروض المختلفة التى عرضها ستانلى ، ولا العوامل التى دفعت أمينا إلى تحديد موقفه من حملة ستانلى بصفة عامة ، ومن هذه العروض بصفة خاصة ، وإنما تهمنا الاشارة إلى أن هذا الرفض جعل ليوبلد يشعر بوجود ثغرة تعرضه لخطر المهدية فى المستقبل . فكان عليه إذن أن يعمل لتحقيق غرضين أساسيين : إقتطاع أكبر جزء من المديرية الاستوائية وإلحاق جهادية فضل المولى بخدمة دولة الكونغو وذلك لكى يحرم المهدية من خدماتهم فيضعف من قوتهم ويزيد من قوته .

وعمد ليوبلد إلى تامين نشاطه الحربى بالتمهيد له من الناحية السياسية ، كعادته ، ومن ثم تم عقد معاهدة بين دولة الكونغو الحرة وبين الشركة الامبراطورية البريطانية لشرق إفريقية وهى التى عرفت فيما بعد باسم معاهدة ماكينون فى ١٤ مايو ١٨٩٠ . وبمقتضى هذه المعاهدة تقرر اعتبار النيل من بحيرة البرت إلى مدينة لادو حداً بين أملاك دولة الكونغو الحرة وأملاك الشركة . وقد تعهدت الشركة بألا تقوم بأى نشاط سياسى غرب النيل حتى مدينة لادو شمالا وذلك إعترافاً منها « بالحقوق الملكية » فى الأقاليم المحددة على النحو سالف الذكر .

اتصال الكونغوليين بجهادية فضل المولى :

وبعد أن اطمأن ليوبلد إلى موقف الفرنسيين والألمان والبريطانيين من مشروعاته نتيجة الاتفاقيات التى عقدت معهم ، بدأ نشاطه الحربى واستأنف تقدمه نحو النيل . ففى ٣ أكتوبر ١٨٩٠ أرسل الكابتن فان كيركهوفن Van Kirkhoven إلى الكونغو ليقود حملة تستهدف النيل عند وادلاى . ورسم فان كيركهوفن خطة على أساس التقدم فى حربتين : الحربة الأولى تمثلها حملة فرعية تبدأ من ستانلى بول والثانية حملة رئيسية بقيادته تبدأ من ليوبلدفيل واستغرقت الحملتان عاما ونصف عام حتى وصلتا إلى النيل قرب وادلاى (٤ فبراير ١٨٩١ — ١٠ أغسطس ١٨٩٢) قتل فى أثنائها قائد الحملة وتولى نائبه الملازم

---

(١) Stanley : In Darkest Africa. V. I. p. 387

ميلز Milz . وما أن اقترب ميلز من مشارف وادلاى حتى أخذ يبحث عن فضل المولى ومن معه من الجهادية . وما أن علم بوجوده حتى بادر بتحرير رسالة اليه وصحبها بهدية ، وعرض عليه صداقته وأخبره عن الهدايا التى أرسلها اليه الملك وملأت ٨٠٠ صندوقاً . ثم أخذ يغريه بالموافقة على الدخول فى خدمة الكونغو الحرة . ويذكرنا الدور الذى لعبه ميلز مع فضل المولى بالدور الذى سبق أن لعبه ستانلى مع أمين .

وقد لون ميلز فى خطابه أحداث أوربا باللون الذى يتفق مع غرضه بصرف النظر عن تعارض ذلك مع الحقائق التاريخية . فأخبره أن « مؤتمر أوربا الذى كان منعقداً فى برلين بحضور الدول » صرح لليوبلد أن يمتلك كافة بلاد « كونجو » وضواحيها وأن الحكومة المصرية تنازلت بالكلية عن السودان وتخلت عن جنودها ولن ترسل أية نجدة أو حملة لإنجادهم ، وبذلك فهم ليسوا تابعين لأية دولة من الدول ومن حقهم الانضمام إلى من يشاءوا ثم طلب منه فى نهاية الخطاب أن يرسل اليه وفداً للمباحثة قبل أن يحضر لمقابلته فى وادلاى [1] .

ولكى يتقن ميلز الدور الذى يقوم به كلف « ترجمانه » يعقوب افندى سليمان وهو مصرى التحق بخدمة حكومة الكونغو بأن يكتب له فى نفس المعنى [2] .

وفى ضوء الظروف التى كانت تحيط بفضل المولى ورجاله ، استجاب لدعوة ميلز ، وأرسل وفداً من الضباط والكتبة على رأسه البكباشى أحمد أغا على والبكباشى محمود افندى العجمى وكيل المديرية ومحمود صبرى كاتبها [3] .

وفى الاجتماع الذى تم بين ميلز ووفد الجهادية ، وضعت الخطوط الأساسية للاتفاق بين الطرفين ، وذهب الجميع إلى بوره حيث معسكر فضل المولى وهناك تم عقد معاهدة اعترف فيها فضل المولى وزملاؤه السبعة من الضباط والكتبة بالاصالة عن أنفسهم وبالنيابة عن كافة المستخدمين من ملكية وجهادية بقبول خدمة « حكومة كونجو المستقلة »

---

(١) $\frac{١}{٤}$ م مهدية وثيقة رقم ٩١ من نايب حكومة كونجو الحرة إلى قومندان خط الاستوى بتاريخ ٢٥ سبتمبر ١٨٩٢

(٢) $\frac{١}{٤}$ م مهدية وثيقة رقم ١١٦ من يعقوب سليمان إلى قومندان خط الاستوى بتاريخ ٢٥ سبتمبر ١٨٩٢

(٣) $\frac{١}{٤}$ م مهدية وثيقة رقم ٦٤ من فضل المولى إلى ميلز ردا على الرسالة سالفة الذكر — بدون تاريخ .

مع الخضوع لقوانينها وأوامرها والعمل لمصلحتها ، كما تعهدوا برفع علم « بيرق » تلك الحكومة [1] .

ثم أبرم الطرفان عقداً « قونتراتو » وقعه ميلز وفضل المولى وزملاؤه ، تضمن ثمانية بنود تحدد طبيعة التعاقد والمهمة المطلوبة من الجهادية ، كما تحدد مدة التعاقد بسنة واحدة قابلة للتجديد . وقد حرص ميلز فى العقد على أن ينص فى البند الأول منه على تعهد الجهادية « برفع بنديرة » حكومة الكونجو المستقلة ، وأن يقيموا فى المحطات التى تعينها لهم الحكومة . كما نص فى البند السابع على أن تقدم حكومة الكونغو لفضل المولى وجنوده المئون والأسلحة والذخيرة [2] .

وبفضل هذا الاتفاق ، استطاع ميلز أن يضم إلى جيش الكونغوليين مئات من الجهادية المدربة الجيدة التسليح ومن ثم بدأ فى تنظيم قوته الجديدة ؛ فأرسل فضل المولى ومعظم رجاله إلى دوفيله لصد أى زحف مهدوى فى أعالى بحر الجبل ، وأمر الملازم جستين البلجيكى مع الجنود الكونغوليين بالبقاء فى محطة جاندة ، ثم أمر بقية الجهادية وعددهم ١٥٠ جهادى وعلى رأسهم محمود أغا بأن يعسكروا شمالى جاندة .

وبعد أن حمى ميلز ظهره بإقامة خط دفاع قوى ضد المهدية بفضل سواعد الجهادية أخذ يتابع توسعه وينشىء المحطات العسكرية ويقيم فيها الحاميات ، ثم عهد إلى الملازم ديلانج Delange بقيادة المحطات بين النيل والكونغو فدخل تحت إشرافه فضل المولى ومحمود أغا وجستين Gustin [3] .

الاتفاق الثانى وتكوين بلوك رابع من الجهادية :

كان من شأن الخطة التى رسمها ميلز وعهد بتنفيذها إلى ديلانج الحاجة إلى مزيد من الجند ، فى وقت عاد فيه المهديون إلى الاستعداد للزحف جنوباً ، واقترب العقد من نهايته ، بالاضافة إلى عدم رضا فضل المولى والجهادية عن قيادة ديلانج البلجيكى وعدم رغبة الجهادية فى تجديد العقد .

---

(١) $\frac{1}{4}$ مهدية ملف ٣ وثيقة ٧٦ معاهدة بتاريخ ١٩ أكتوبر ١٨٩٢ .

(٢) $\frac{1}{3-4}$ مهدية ملف ٣ وثيقة ٨٠ قونتراتو بتاريخ ١٩ أكتوبر ١٨٩٢

Collins : The Southern Sudan, pp. 100—105 (٣)

ومما زاد الطين بلة أن المرتزقة غير النظاميين من الزاندى ، الذين جندهم الكونغوليون ، راحوا ينهبون متى سنحت لهم الفرص وأفلت زمامهم فلم يعد البلجيكيون أو الكونغوليون قادرين على السيطرة عليهم ، كما أن الأنصار بدأوا يمهدون لغزو الجنوب فأرسلوا الجواسيس والعملاء لإثارة القبائل ضد طوابير الكونغوليين ، بل أنهم حاولوا الاتصال بالجهادية حتى يتخلوا عن البلجيكيين وينحازوا إلى صفوف المهدية .

وفى مثل هذه الظروف احتاجت الكونغو الحرة إلى خدمات فضل المولى ورجاله أكثر من أى وقت مضى . إلا أن العلاقة بين الجهادية والبلجيكيين كانت تمر فى مرحلة عدم ثقة فقد حدث بين الطرفين خلاف خطير فى تفسير بنود العقد ، وكان أساس الخلاف أن النص الفرنسى للعقد لم يشر إلى أمرين مهمين : الأول ، التزام حكومة الكونغو بتزويد الجهادية بالمؤن والسلاح والذخيرة ، بينما نص على ذلك فى الأصل العربى . والأمر الثانى أن الترجمة الفرنسية نصت على عدم سريان العقد إلا بعد موافقة حكومة دولة الكونغو ، بينما لم يرد ذلك النص فى الأصل العربى .

ورغم أن النص العربى هو الأصل والنص الفرنسى ترجمة له ، فان ميلز تمسك بما جاء فى الترجمة الفرنسية رغم مخالفته للأصل العربى .

ولكى تقضى الدولة على هذه المشكلات وتفوز بخدمات الجهادية ، استدعى الأمر تعيين بايرت البلجيكى فى القيادة بدلا من ديلانج . مع التمهيد لتجديد العقد وفق شروط أسخى وأوفق .

وموقف فضل المولى كان سليما لا غبار عليه ، لأن العقد الذى بيده كان يفرض على الدولة أن تمده بالسلاح والذخيرة والمئونة ، وقد رفضت الدولة هذا كله . فهل يلام عندما تخلى عن خدمة الدولة عند انتهاء العقد وأعلن نفسه «حر التصرف» ولم يعد يرفع علم الدولة الحرة ، واتخذ من جانذة مركزاً لتجميع بلوكات الأورطة ؟ ونتيجة لهذه التحركات ، خلت محطات الكونغوليين فى بحر الجبل وأصبح الميدان مفتوحاً لتقدم الأنصار الذين وصلوا فى زحفهم إلى خط تقسيم المياه بين النيل والكونغو وعملوا على كسب الجهادية إلى صفهم .

قرر بايرت أن يحصل مرة أخرى على خدمات الجهادية وأن يبعدهم عن معسكر الأنصار بأى ثمن ومن ثم أصبح الجهادية فى موقف يستطيعون فيه إملاء الشروط التى تتفق مع مصلحتهم ، أو بعبارة أدق تصحيح الأوضاع والأخطاء الماضية .

وقد بدا ذلك بوضوح فى « القونتراتو » الجديد الذى وقعه بايرت بالنيابة عن دولة الكونغو الحرة ، وفضل المولى بك نيابة عن الجهادية بتاريخ أول يناير ١٨٩٤ . والعقد الجديد فيه وضوح وفيه حسم وفيه تحديد دقيق لمهمة كل من الطرفين وحقوقه وواجباته .

والعقد فى مجموعة يتكون من اثنى عشر بنداً : نص فيه على السلطة المطلقة لفضل المولى على الجهادية دون تدخل البلجيكيين أو الكونغوليين فى أعماله (بند ١ ، ٢ ، ٨) كما نص على إنشاء بلوك جديد رابع ، وفى مقابل ذلك تدفع الدولة لفضل المولى ألفين من الجنيهات باسم البلوكات الثلاث القديمة وأربعمائة جنيه انجليزى للبلوك الرابع على أن يصرف نصفه نقدية ونصفه بضاعة مرة كل ستة أشهر (بند ١٠ ، ١١) وفضلا عن المبالغ سالفة الذكر ، تعهدت حكومة الكونغو بأن تقوم بصرف تعيينات شهرية لرؤساء البلوكات وكتابهم (بند ٩) . أما بخصوص السلاح ، فقد نص فى البند السابع على أن تتولى دولة الكونغو تزويد الجهادية بالسلاح والذخيرة . وأخيراً جاء البند الثانى عشر وله مغزى عميق عندما تقرر فيه سريان العقد مهما كانت الظروف لمدة سنة تبدأ من أول يناير ١٨٩٤ سواء اعتمدت الحكومة نص العقد أم لم تعتمده [١] .

خاتمة فضل المولى وتشتت الجهادية :

وبعد إبرام العقد عاد فضل المولى وجهاديته أدراجهم إلى جاندة ، بينما أخذ بايرت يدرس الموقف جيداً . كان يعلم أن البريطانيين يتحركون شمالا من أوغندة إلى بحر الجبل ، كما كان يعلم أن قيادة الأنصار قد انتقلت إلى يد عربى دفع الله ، وأن الأمير الجديد استطاع أن يقضى على المتاعب التى أضعفت فيما مضى من شأن الأنصار وعوقت تقدمهم وقللت من خطرهم ، وأنه استطاع أن يوفق بين القوى الساخطة والقوى المتمردة ويحولها جميعاً إلى وحدة مقاتلة ثم نقل قاعدته إلى الرجاف وحصنها لتكون قاعدة يهجم منها على الجهادية .

ولذلك أصدر بايرت أمراً إلى فضل المولى بالتقدم إلى دوفيله وأن يرفع علم الدولة الحرة قبل أن يسبقه اليها البريطانيون وشجعه بقوله « أنا متكل عليك وعلى جهاديتك العظيمة » ، على أن يتقدم بعد ذلك فيحتل وادلاى بالسرعة الفائقة [٢] .

---

(١) $\frac{1}{4}$ مهدية وثيقة رقم ٦١ بتاريخ أول يناير ١٨٩٤

(٢) $\frac{1}{4}$ مهدية الوثيقتان ٧٥ ، ١٢١

وأسرع فضل المولى إلى تنفيذ الأوامر ، فغادر مقره الحصين فى جانده . وبينما هو فى طريقه إلى وادلاى فاجأه الأنصار وأجبروه على خوض معركة لم يكن مستعداً لها . وبذلك دارت عليه الدائرة واستشهد فضل المولى ومعظم الجهادية فى المعركة . ولم ينج منهم سوى ٢٠٠ جهادى شقوا طريقهم إلى وادلاى ومنها إلى كاڤاللى (١) . وبذلك انتهت علاقة الجهادية بالكونغو الحرة . وكثير من الأوراق التى تلقى الضوء على هذه الفترة من تاريخ الجهادية سقطت فى يد الأنصار فى تلك الموقعة .

(٧)

الانجليز يرثون مصر فى قوتها العسكرية بخط الاستواء

وبينما كان فضل المولى وجهاديته فى محنة قبل المعركة التى استشهد فيها ، كانت انجلترا بصدد التفكير فى تحديد موقفها من أوغنده . وبالفعل عينت السير جيرالد بورتال لفحص أحوالها وتقديم المقترحات الخاصة بالسياسة التى ينصح بها فى المستقبل . ومنحته الحكومة البريطانية سلطات واسعة وسمحت له بإعلان الحماية البريطانية ومن ثم ارتفع العلم البريطانى شهيداً على إهدار استقلال تلك البلاد .

وكان أول ما فكر فيه پورتال تنظيم القوة الحربية وقوامها بلوكات الجهادية التى يرأسها سليم مطر . وبادر فطلب من الحكومة البريطانية أن تتخير أربعة من الضباط البريطانيين ممن عملوا فى الخدمة بمصر فى أورط الجهادية ويلمون باللغة العربية ، لقيادة بلوكات الجهادية التى سبق أن جندها لوجارد ووليمز ؛ والتمس پورتال أن تكون رتبة أحد هؤلاء الضباط كبيرة حتى يمكن أن يعهد اليه بحكم أوغندة فى المستقبل . وقد اختارت الحكومة البريطانية أربعة من الضباط الانجليز ممن سبق لهم العمل فى مصر . وكان على رأسهم الكولونيل كولڤل Colvile والكابتن ثرستن Thruston .

وبدأ كولڤل عمله فى نوفمبر ١٨٩٣ ، فأرسل تجريدات صغيرة لمد النفوذ البريطانى نحو النيل ومنابعه إلى الشمال والغرب . وفى يناير ١٨٩٤ إستطاعت إحدى هذه الحملات أن ترفع العلم البريطانى على المحطة المصرية القديمة فى وادلاى . ولم تلبث أن تواترت الأخبار

---

(١) $\frac{1}{4}$م مهدية الوثيقتان ٦٣ ، ٧٠ بتاريخ ٢٩ شعبان ١٣١١ — أنظر أيضا Sudan Intelligence Report. No—60 pp. 79—82

بوجود « عدد كبير من الزنوج المسلحين ومعهم رجل من البيض » فظن الانجليز أحد أمرين ؛ فهم إما من الكونغوليين وعلى رأسهم ضابط بلجيكي ، وإما بقايا جنود فضل المولى من أورطة الجهادية بعد هزيمتها [١] .

وكان على كولفيل أن يعمل بسرعة حفظاً لحقوق بريطانيا فى تلك المنطقة وفقاً للمعاهدة التى عقدوها مع الكونغوليين فى عام ١٨٩٠ . فأرسل بعض الطلائع بقيادة الكابتن ترستن. وتأكد هذا من أمرهم عندما رأى العلم المصرى يرفرف على المعسكر وسمع الموسيقى تعزف السلام الخديوى .

وقص علينا ثرستون قصة مقابلته مع ضباط الجهادية فقال « وقد حضر لمقابلتى أربعة ضباط من السودانيين متوسطى السن متشحين بثياب بيضاء نظيفة وأوصلونى إلى حديقة يانعة حيث قدمت لى القهوة ، ثم عرفونى بزملائهم » . ثم قصوا عليه قصتهم منذ أن تركهم ستانلى حتى استشهاد فضل المولى وحلولهم بتلك المنطقة حيث اتخذ قائدهم البكباشى أحمد أفندى على معسكره على التلال . ووجد ثرستن فرصته وقال لهم أن الكابتن بايرث قد أخطأ عندما رسم تحركاتهم فى هذه الجهة ، لأنها تدخل فى أملاك انجلترا ، وهو والحالة هذه لا يسمح لقوة مسلحة يظللها علم أجنبى أن تقيم فى هذه الأرض ، اللهم إلا إذا انتظموا فى سلك الجندية فى خدمة بريطانيا . واتفق الطرفان على أن يرجع كل منهما إلى رئيسه : فذهب ثرستن لاستشارة كولفيل ، كما رجع الضباط إلى البكباشى أحمد على وكان فى ذلك الوقت على رأس البلوك المعسكر فى الجبال [٢] .

ولو نزلت على كولفيل مائدة من السماء ، لما شعر بالسعادة التى شعر بها عندما أنهى اليه ثرستن بالخبر ؛ فإن من شأن الحصول على بقايا رجال فضل المولى أن يضم قوة جديدة إلى قوة الجهادية الموجودة بقيادة سليم مطر وبذلك يتدعم نفوذ انجلترا فى محميتها الجديدة ويسهل تحقيق الآمال العريضة التى ينشدها الانجليز فى وادى النيل . وتسلح ثرستن فى عودته إلى الجهادية بكل ما يمهد له طريق النجاح فى مهمته . فصحب معه اليوزباشى السودانى ريحان أفندى راشد وهو ممن جندهم لوجارد فى المرة السابقة . وذلك لتيسير مهمة التفاهم مع الجهادية

(١) Sudan Intelligence Reports No. 29—p. 4

(٢) Thruston : African Incidents. p. 166

نظراً لكونه من الشخصيات المحبوبة المحترمة لديهم . كما أخذ معه طربوشاً وعلامات الرتبة التى كان قد حازها فى الجيش المصرى وبراءة تلك الرتبة وذلك بالاضافة إلى علم مصرى وآخر بريطانى .

وعندما وصل الرجلان إلى معسكر الجهادية استقبلا بالتشريفات المعتادة واجتمعا بالبكباشى أحمد على لبحث الشروط . وكان ثرستن قد درس شخصية أحمد على عن طريق المعلومات التى زوده بها ريحان فعلم أنه مستبد صلب الرأى يسيطر على جنوده ويتصرف فيهم كما لو كان « ملكا » . فضلا عن ولائه العميق لمصر والحكومة المصرية ، شأنه فى ذلك شأن بقية الجهادية . كما لاحظ ثرستن أن الجنود شديدو التعلق براياتهم المصرية ، فقد كانت الرايات المصرية تفوق فى عددها عدد الرايات البلجيكية .

من أجل ذلك عول ثرستن على فراسته ولباقته وقوة حجته أكثر مما عول على أى شىء آخر . وبادر إلى رفع علم مصرى بجانب العلم البريطانى أمام خيمته ، ثم خلع قبعته ووضع طربوشا فوق رأسه وأخرج من حقائبه براءة تعيينه ضابطا فى الجيش المصرى ووضعها فى جيبه لاستخدامها فى الوقت المناسب .

وقد ذكر ثرستن فى مذكراته الخاصة نص الحوار الذى دار بينه وبين أحمد على ، واستخدم فيه الطريقة الأفلاطونية المعروفة فى إقناعه بأن المنطقة التى يعسكرون فيها ليست ملكا للبلجيكيين ، وأن الخديوى لم يتنازل عن مديرية عموم خط الاستواء بل كلف الانجليز باحتلالها إلى أن يروق له استرجاعها . وهكذا زيف ثرستن الحقائق فى سبيل الوصول إلى خداع الجهادية .

ثم راح فى حواره الأفلاطونى يستدرج البكباشى أحمد على فوصل إلى أن كل « مسلم » فى الدولة العثمانية يعتبر السلطان بمنزلة خليفة الرسول وإمام المسلمين ، فمن واجب « المسلم » أن يمتثل لأوامر السلطان أو نائبه ، ولا يستجيب لأوامر ملك « نصرانى » ، وبذلك تصبح طاعة الأمراء فرضاً من فروض الاسلام . ولما كان « أفندينا » أحد هؤلاء فقد وجبت طاعته .

ولم يلبث ثرستن أن أخرج براءة تعيينه ضابطا فى الجيش المصرى وعليها بصمة الخديوى ووضعها على جبينه . ثم أعطاها لاحمد على وقال له « اقرأ أوامر أفندينا واعمل بها » .

وأخذ احمد على البراءة فقرأها وقبل الختم ثم وضعها على رأسه احتراماً لها ثم ناولها للكاتب فقرر أنها براءة حقيقية وفعل بها مثل ما فعل أحمد على [1] .

ولم تمض أيام قلائل حتى كان هؤلاء الجهادية فى أوغندة يعملون إلى جانب جهادية سليم مطر فى خدمة العلم البريطانى .

وهكذا استطاعت انجلترا أن ترث مصر فى قوتها الحربية فى خط الاستواء بعد أن جندت لحسابها أورطتى الجهادية من حامية مديرية عموم خط الاستواء المصرية .

* * *

أن الجديد فى الوثائق المستخدمة فى هذا البحث هو توضيح التنافس المرير بين كل من انجلترا وألمانيا وبلجيكا وحكومة المهدية فى سبيل الحصول على أورطتى الجهادية من حامية تلك المديرية وتفصيل الخدمات الهامة التى أداها رجالها فى ظل العلم البريطانى والألمانى والكونغولى ، فضلا عن العلم المصرى ورايات المهدية ؛ حتى لقد أصبحت هذه الأورط العمود الفقرى لجيوش تلك الدول فى إفريقية .

كما كشفت الوثائق عن الوجه الحقيقى لحملة الانقاذ التى جاء ستانلى على رأسها ؛ لأن أحداث الفترة تدل على أن ستانلى كان يخفى تحت قناعة الأمريكى وجهاً إنجليزياً وآخر بلجيكى . وبين مصالح هؤلاء وهؤلاء ضاعت مصالح البقية الباقية من رجال الجهادية وضاعت مصالح مصر وحقوقها فى خط الاستواء .

أن هذه الحقيقة تحتم إعادة النظر فيما كتبه المؤرخون عن حملة الانقاذ من حيث أهدافها ونتائجها .

---

(١) Thruston : African Incidents. pp. 179—180

(مطبعة جامعة القاهرة ٧٩٦/١٩٦٢/٤٥٠)

JEAN PSICHARI : *Le Poète Solomos.* Paris 1908

JEAN PSICHARI : *Ernest Renan. Jugements et souvenirs* Paris 1925.

JEAN PSICHARI : *Grande grammaire scientifique du romëique*, 3 vols. Paris 1928-1931 (en grec).

EMMANUEL ROIDIS : *Oeuvres Complètes.* 6 vols, Athènes 1913 (en grec. La Correspondance avec Psichari seule est en français).

GEORGES THÉOTOKAS : *Remarques sur la Grèce moderne.* Dans *Permanence de la Grèce.* Les Cahiers du Sud. Paris 1948.

ALBERT THUMB : *La question du néo-grec* (Traduit de l'allemand par Leka ARVANITI (pseudonyme de Alexandre PALLIS) dans *Les Noix creuses.* Leverpool 1915 (en grec).

Cairo University Press, 796-1962-550 ex.

Cette révolution littéraire, avec ses violences inattendues, revêt un aspect unique dans les annales du XXème siècle.

En Grèce, en France, rares sont ceux qui savent que le Psichari professeur d'université à Paris, le philologue français, le révolutionnaire grec, le gendre d'Ernest Renan, le père d'Ernest Psichari, sont une seule et même personne.

Synthèse étonnante et féconde d'où la littérature néo-grecque est sortie.

Bibliographie

LOUIS BRÉHIER : *La Civilisation byzantine. Coll.* « l'Evolution de l'Humanité » Paris 1950.

KARL BRUGMAN : *Langue ecrite et langue démotique ; la question linguistique en Grèce* (Traduit de l'allemand par Leka ARVANITI (pseudonyme de Alexandre PALLIS) dans *Les Noix creuses* ; Liverpool 1915. (en grec).

Correspondance entre Emmanuel ROIDIS et Jean PSICHARI dans Emmanuel ROIDIS : *Oeuvres Complètes.* Tome V. Athènes 1913-(en français).

COSTA FLORIS : *Psichari et son oeuvre.* Le Caire 1916 (en grec).

GROUPEMENT DÉMOTICISTE DU CAIRE : *Pour notre langue.* Le Caire 1916 (en grec)

D. HESSELING : *Littérature grecque moderne* (traduit du hollandais). Paris 1924.

HOMMAGE A JEAN PSICHARI : opuscule publié à l'occasion du 20ème anniversaire de sa mort, par l'Ecole des langues orientales vivantes. Paris 1950.

A. KAMBANIS : *Histoire de la littérature grecque moderne.* Athènes 1948 (en grec).

E. KRIARAS : *Psichari.* Salonique 1959 (en grec).

HELLÉ LAMBRIDIS : *La Poésie grecque des cinquante dernières années.* Belgrade 1931.

P. LASCARIS : *Rizos Neroulos. Les Korakistiques.* Paris 1923

EMILE LEGRAND : *Grammaire grecque moderne.* Paris 1878

ROBERT LEVESQUE : *Domaine grec* (1930-1946). Paris—Genève 1945.

A. MEILLET : *Les langues de l'Europe nouvelle.* Paris 1928

ANDRÉ MIRAMBEL : *La littérature grecque moderne.* Coll. « Que sais-je » Paris 1953.

ANDRÉ MIRAMBEL : *Anthologie de la prose néo-hellenique.* Paris 1950 (en grec. Seuls l'avant-propos et l'introduction sont en français).

CH. PILARINOS : *Notre diglossie.* Le Caire 1954. (en grec).

JEAN PSICHARI : *Autour de la Grèce.* Paris 1887.

JEAN PSICHARI : *Fleurs et Fruits* (Etudes et Polémiques) 6 vols. Athènes 1903-1909 (en grec).

Il vint et aussitôt ce fut la bagarre. Les grammairiens traditionalistes se hérissèrent, le camp tout entier des conservateurs rugit. Ce fut une levée générale de plumes et d'inchiostres, en attendant les pavés qui n'allaient pas tarder à pleuvoir de tous côtés. Psichari, lui, ne se tenait pas d'aise. Son rêve se réalisait. Il adorait provoquer le tumulte, foncer dans le tas, recevoir des injures et rendre les coups. « Est-ce que le combat aussi n'est pas ma destinée » ? écrira-t-il un jour au poète Eftaliotis. « Ma vie, mon ami, c'est la poésie et la guerre ». Et il donnait en plaisantant comme étymologie à son nom : Ψυχή καί "Αρης = Ψυχάρης Ame et Mars. —«Poésie et Guerre, voilà ce qu'est Psichari », ajoute Stamatis Caratzas, qui nous rapporte le fait.

En cet an de grâce 1888, n'avait-il pas décrit, dans une page du livre explosif qui soulevait du coup tant de tempêtes, n'avait-il pas décrit, sur ce ton de plaisante ironie qui lui était coutumier, la bizarre nostalgie qui s'était soudainement emparée de son âme : «Il faut que j'aille voir les miens, voir Constantinople, Cio et Athènes ... Il est temps que je me dispute un peu avec mes compatriotes. Ici, en France où je vis, personne, jamais, ne s'est fâché ni brouillé avec moi, ni ne m'a gardé rancune, ni ne m'a, de ma vie, donné un coup de poing ... Pareille monotonie est-elle possible? Je suis las de mon sort. J'ambrasserai le premier qui m'insultera. Mon âme a soif de bagarres. Mon esprit ambitionne de grandes choses. Je veux de la gloire et des coups de poing ».

Il fut servi. Les coups lui furent prodigués sans avarice et la gloire l'attendait au bord du chemin.

*

Enfant de la Méditerranée, berceau de l'Intelligence, Jean Psichari a ceci de particulier qu'il appartient à deux pays : la France et la Grèce.

A la France, sa patrie d'adoption, qu'il a chantée dans tous ses livres avec une émotion et une reconnaissance enchantées, il a donné ses fils, morts tous deux sur le champ de bataille, au cours du premier conflit mondial.

A la Grèce, sa patrie d'origine, il a consacré son oeuvre, son génie et sa vie.

En dehors du monde des spécialistes, peu de gens connaissent ce double aspect de la personnalité de Psichari, à la fois érudit français et écrivain grec.

En France, Jean Psichari est surtout connu par ses romans et ses souvenirs sur Renan. En Grèce, sa légende plane sur toute la littérature. Il fut l'auteur d'une révolution intellectuelle, la révolution démoticiste, qui ébranla jusqu'en ses fondements l'esprit de la nation grecque. Son mouvement, comme aux temps heroïques de Byzance, provoqua de graves émeutes et renversa un gouvernement.

Né en 1835, Emmanuel Roïdis avait étudié à Gênes avant de se rendre en Allemagne, où il frequenta l'Université. De retour à Athènes, il surprit ses compatriotes par son existence fastueuse de grand seigneur. De goûts très raffinés, doté de fortune et de loisirs, amateur d'ouvrages rares, il aimait l'escrime et les chevaux, collectionnait les livres précieux et les jolies femmes. Polyglotte remarquable, (il avait traduit, entre autres, *l'Histoire d'Angleterre* de Macaulay et *l'Itinéraire* de Chateaubriand), critique averti et pénétrant, c'était aussi un travailleur infatigable de la pensée et son savoir était encyclopédique. La parution du *Voyage* de Psichari le trouvera bien préparé pour entrer dans la lice aux côtés de son remuant cadet.

En 1867, il publia un ouvrage qui fit sensation et scandalisa les esprits austères et les âmes pieuses : *La Papesse Jeanne.* C'était une étude mettant en scène un personnage de légende qui avait exercé la sagacité des historiens pendant près de trois siècles. Nous nous étonnons aujourd'hui que ce faux problème ait fait couler tant de flots d'encre et gaspillé le temps et les forces de quatre générations d'intellectuels. Mais à l'époque où écrivait Roïdis, le sujet était encore à la mode, ce qui explique que, dès sa parution, l'ouvrage ait été traduit en plusieurs langues, alors que le nom de l'auteur devenait célèbre aux quatre coins de l'Occident. (En 1907, quarante ans après l'anathème lancé par Barbey d'Aurevilly, ce sera le succès parisien avec l'adaptation d'Alfred Jarry et Jean Saltas).

Quoi qu'il en soit, la *Papesse Jeanne* est bien oubliée aujourd'hui—les nouvelles générations n'en connaissent plus guère que le titre—et la légende elle-même nous en paraît singulièrement démodée. Mais si ce livre a contribué à faire connaître un peu partout le nom d'Emmanuel Roïdis, il est cependant complètement éclipsé par l'oeuvre critique de ce dernier. C'est, en effet, grâce à ses autres travaux que l'auteur occupe la place qui lui revient dans le mouvement néo-hellénique contemporain. Après la célébrité du « roman historique », ce sera celle de la participation linguistique avec *Les Idoles.* Car bientôt va paraître au firmament des lettres grecques le fameux *Voyage* de Psichari, dont la publication sera saluée par les Vulgaristes comme l'apparition d'une météore. Et Roïdis lui-même, pourtant si pondéré, s'enthousiasmera.

— « Salut à toi, Messie inconnu dont je suis le Précurseur, s'exclamait le nouveau venu dans une explosion de sarcasmes. Salut à toi. Tu viendras nous délivrer de la tyrannie des cuistres et enseigner sa vraie langue à notre peuple. Alors la Grèce vivra heureuse sous le règne de l'Esprit ».

Précurseur ? Que non pas. C'était le Messie lui-même qui arrivait pour donner la victoire à ceux qui l'attendaient . L'heure a sonné. Les temps sont révolus. Les disciples, extasiés, vont entonner un cantique d'espérance. Paix sur la terre aux hommes de bonne volonté. Enfin Psichari vint.

*

Pilarinos compte parmi les premiers et les plus savants adversaires de Psichari et l'un des derniers soutiens du purisme.

Koraïs mourut à Paris en avril 1833 (1), Sur sa tombe on grava cette épitaphe toute simple, dans la langue de sa patrie :

ADAMANTIOS KORAIS DE CIO

En la terre de Paris, étrangère mais aimée
à l'égal de la terre de Gréce,
Tu reposes

Deux noms domineront tout le XIXe siècle littéraire en Grèce : Emmanuel Roidis et Jean Psichari. Mentionnons cependant, à titre de curiosité, le poète Mavilis (né en 1860) qui, élu député, eut le courage—ou l'audace—de prononcer, en 1910, à la Chambre, le seul discours en faveur de la langue populaire qui ait jamais retenti dans son enceinte.

Emmanuel Roïdis fut un écrivain puriste dont la renommée s'étendit rapidement hors des frontières de Grèce. A part un petit conte, d'ailleurs ravissant (Η Μηλιά), son oeuvre entière est en *Katharevoussa*, mais une katharévoussa admirable, car Roidis était à la fois un grammairien très érudit et un styliste dont l'éclat domine toute la production en langue savante de son siècle. Si nous lui faisons une place à part dans cette étude consacrée surtout à la réforme démoticiste, c'est à cause du très grand rôle qu'il joua dans le problème du bilinguisme aux temps héroïques de combats qu'entreprendra Jean Psichari. Roidis présente, en effet, cet étonnant paradoxe d'avoir été le premier puriste à prendre la défense des doctrines psicharistiques. Au milieu des passions qui se donneront libre cours tout au long de la mémorable querelle, il représentera le bon-sens, la fermeté, le sang-froid, l'équilibre. A l'heure où se déchaînera l'orage contre le révolutionnaire tonitruant qui, du haut de sa chaire à Paris (1), orchestrait le tumulte et jetait le désarroi dans les rangs des héritiers de la tradition phanariote, on le verra prendre courageusement parti pour le « rebelle» et brandir l'étendard de la nouvelle Ecole, tout en prêchant la sagesse et la modération.

---

(1) On doit à Korais des traductions de Théophraste, Hippocrate, Héliodore, Strabon, Xénophon, Plutarque, ainsi que de quelques écrits de Platon. Il publia, en outre, des livres de médecine : *La Clinique, Vade-Mecum du Praticien,* etc.

(1) Psichari était professeur à l'Ecole des langues orientales et à l'Ecole des Hautes-Etudes. Il avait épousé en premières noces la fille d'Ernest Renan.

aussi, parfois, les incertitudes d'une langue que des règles grammaticales définies n'étaient pas encore parvenues à fixer. Naturellement, sa doctrine ne pouvait plaire ni aux puristes ni aux démoticistes. Les uns et les autres l'accusaient de vouloir figer la langue, de lui ôter son âme et d'être, par son attitude hésitante et timorée qui ne se décidait pas à pencher carrément en faveur de l'un ou de l'autre système, l'artisan de l'existence, ou tout au moins du maintien de la diglossie que tous s'entendaient à condamner. Un érudit phanariote, Rizos Nézoulos, le prit même à partie dans une pièce qui était une mordante satire : Les Korakistiques (κορακιστικά) Le mot est passé dans la langue et signifie galimatias (1) Mais le doux et bon koraïs ne semble pas avoir été ému outre mesure par cette levée collective de boucliers. La sérinité de son âme et son humeur toujours égale lui permettaient de faire face à la bourrasque et d'attendre tranquillement que l'orage soit passé.

L'attitude extrémiste de ses détracteurs a été, une fois de plus, combattue récemment par Ch. Pilarinos. Dans un grand ouvrage posthume consacré au problème de la diglossie (Η Διγλωσσία μας, Le Caire 1954), cet auteur essaye dediminuer la responsabilité de Koraïs , tout en faisant rossortir ses erreurs dans la discussion d'un sujet où les suceptibilités exaspérées sont toujours prêtes à s'emflammer dès que quelqu'un s'y intéresse.

Il n'est pas équitable, écrit-il en substance, de blâmer et de maudire Koraïs en l'accusant d'être l'auteur de la diglossie, pas plus que d'exalter Psichari à l'égal d'un héros pour nous avoir délivrés de cette insupportable servitude. Certes, Koraïs s'est trompé. Il s'est trompé en ne s'étant pas attaqué à l'enseignement du grec ancien à l'école et à son usage dans l'Eglise ; il s'est trompé en refusant l'enrichissement de la langue par la transfusion d'un sang nouveau, soit l'introduction de mots turcs, arabes, italiens, etc. plus adaptés que les termes archaïques à la forme de son génie ; il s'est trompé enfin en favorisant, par son pédantisme inconséquent, l'éclosion d'une langue surnuméraire—la démotique— instrument inadéquat de la pensée scientifique et philosophique. Mais son péché capital demeure sa tolérance du grec ancien. « Qui donc a jamais osé redresser cette erreur de Koraïs que j'ai été le premier à dénoncer » ? s'écrie Pilarinos. « Ni Psichari, ni Pallis, ni aucun autre démoticiste n'ont, que je sache, en l'audace de proposer la suppression de cette cause fondamentale de la diglossie. Aucun puriste, non plus, n'a eu le courage de reconnaître le bien-fondé de mes assertions ou d'en démontrer la fausseté».

---

(1) Il s'agit, en fait, d'un jeu de mots assez difficile à traduire. *Koraistika* serait quelque chose comme *Voltairiana, Lamartiniana. Korakistika*, avec la différence d'une seule lettre dans le corps du mot, la lettre *k*, signifie littéralement *Langage des Corbeaux*, c'est à dire pathos, galimatias.

prépare un essaí personnel : *De la Peinture* ; Vincent Damodos s'attelle au grand Aristote ; enfin, Nicéphore Théotokis, avec des études d'apologétique chrétienne fait paraître des *Eléments de Géographie* et des *Eléments de Mathématiques.* Quand il mourut en 1800 avec le siècle, le branle était donné. Avec lui, peut-on dire, s'achèvent les premiers balbutiements de la démotique dans un domaine qui n'est plus celui de la pure littérature, et où la langue elle-même n'est déjà plus la première démotique. A ce tournant de son histoire, le problème de la diglossie évolue vers une nouvelle phase avec l'apparition de Koraïs.

*

Honni par les uns, encensé par les autres, Adamantios Koraïs marque une date dans l'histoire des lettres grecques. Sa doctrine ? Se tenir sagement « à mi-chemin entre l'archaïsme et le néo-hellénisme ». Il est bon, ajoutait-il encore, d'éviter les mots tirés du grec ancien, si la langue actuelle en possède des synonymes *sans racine étrangère.* Il fallait donc épurer le vocabulaire de tous les *Xénismes* qui le déparaient.

Contrairement à tant de ses compatriotes éduqués en Italie, Koraïs était, lui, de formation essentiellement française. Originaire de l'île de Cio, il avait étudié la médecine à Montpellier avant de venir s'établir à Paris où le surprit la Révolution de 1789.

« Coray (sic), écrit l'helléniste français Emile Egger, Coray, ce médecin philologue qui fit de la France sa seconde patrie et que sa modestie seule empêcha de mourir membre de l'Institut (1), fut vraiment un grand homme par la noblesse du caractère et par l'infatigable activité du talent. Il mériterait une biographie à la manière des biographies de Plutarque dont il a été l'habile éditeur. On a publié des lettres de lui, on va en publier d'autres encore, qui montrent combien la jeune école des savants littérateurs grecs le vénère avec raison comme un modèle de la science unie à la vertu ».

Très savant, en effet, éditeur d'oeuvres classiques qui lui donnent rang parmi les plus grands maîtres de la philologie de son temps, koraïs fut aussi le premier épistolier de la Grèce au XIXe siècle. Ce sont ses lettres qui ont donné sa valeur à la réforme qu'il préconisait. Son style dans ce genre atteint aisément l'élégante simplicité et la beauté des épîtres antiques. Mais il trahit

---

(1) C'est par modestie aussi qu'il déclina, à deux reprises, l'honneur d'une chaire de philologie au Collège de France. (Lettres à M. Lefèvre Gimau, administrateur du Collège de France, en date du 5 Décembre 1814 et à M. Boissonade, en date du 28 Mars 1816).

Citons enfin, pour clore ce chapitre des origines, le lexicographe français Du Cange, l'auteur du fameux dictionnaire de la moyenne et de la basse latinité (*Glossarium Mediae et infimae latinitatis*) qui, comme tant d'autres parmi ses contemporains, étudia la langue populaire codifiée notamment par Sophianos et Portius et composa aussi un *Glossarium Mediae et infimae græcitatis.* Il convient de souligner, toutefois, que le mouvement démoticiste en Grèce ne vise, pendant près d'un siècle, qu'à la création et à la propagation d'oeuvres édifiantes où le sentiment religieux occupe le premier rang.

Néanmoins, le clergé grec, très conservateur et hostile aux innovations, se tiendra toujours dédaigneusement à l'écart. L'Eglise orthodoxe, gardienne fidèle des traditions, l'était aussi de celle de la langue. C'est pourquoi, dès le début du XVIIe sièclee, quand certaines vélleités modernistes commencèrent à se faire jour et que le Patiarche Kyrillos Loucaris (le Cyrille Lucar des historiens ecclésiastiques) préconisa la traduction des Evangiles en langue vulgaire, ne put-elle que condamner ces idées et mettre un frein à l'enthousiasme dangereux du novateur : hostilité comparable, en quelque sorte, à celle que connut la *Bible en français*, d'odeur calviniste, pendant tout le XVIe siècle, au pays de Marot et qui fit censurer par la Sorbonne les *Psaumes* traduits par l'aimable poète. Ce n'est que bien plus tard, aux environs de 1900, qu'un lettré grec osera braver l'ostracisme et entreprendre cette besogne périlleuse : Alexandre Pallis, un des premiers et des plus fougueux disciples de Psichari, partisan acharné de la démotique à outrance. Mais alors d'autres forces se déchaînèrent, provoquant de sanglantes émeutes et plongeant le pays dans l'anarchie.

*

Le XVIIIe siècle se signale, de la part des écrivains, par un sérieux effort pour assouplir la langue afin de la plier à toutes les exigences de la littérature et, phénomène nouveau, de la pensée scientifique et philosophique. Petit à petit, l'esprit de l'Occident pénètre en Grèce par le canal de traductions dues à la plume de hardis réformateurs, tels Rigas Velestinlis qui donne successivement *Les Amants délicats* de Restif de la Bretonne, *la Bergère des Alpes*, de Marmontel ainsi que plusieurs contes de Boccace. Notons, toutefois, que ces tendances ne constituent pas à proprement parler une nouveauté dans les annales littéraires à cette date. Déjà, au moyen-âge, certaines oeuvres étrangères comme le célèbre roman d'amour courtois *Floire et Blancheflor*, avaient eu les honneurs de l'adaptation dans la démotique archaïsante de la période byzantine. Mais le véritable renouveau réside ici dans la composition ou la traduction d'oeuvres artistiques, philosophiques, au moyen d'un vocabulaire qui n'existe que dans la plus pure *katharevoussa*, à laquelle on emprunte certains de ses éléments, créant ainsi une langue « mixte » pour répondre aux besoins nouveaux de l'érudition. Ainsi, le peintre Panayotis Doxaras traduit Léonard de Vinci , en même temps qu'il

dès sa parution et en dépit d'une certaine absence d'homogénéité [1] et de tendances inspirées nettement de la tradition phanariote, attiré l'attention sur lui et le désignait comme un précurseur. Palamas, qui l'avait apprécié, à jugé l'oeuvre en ces termes :

« Je fus, écrit-il, fortement impressionné par le livre de Papadiamantopoulos, robe bariolée cousue de morceaux divers ... Quelques strophes françaises présageaient, quoique enfantines encore, la gloire future de Moréas. On y trouvait aussi des poèmes élégiaques décapentasyllabes du purisme le plus sévère, des chansons qui frémissaient d'un splendide élan charnel et qui embaumaient comme les sapins de la montagne. Mais de tout cet ensemble émergeaient des strophes dont le son pur et argentin était quelque chose de nouveau parmi les sérénades discordantes des poètes athéniens. On peut dire que dans le *Décembre* sensuel et impudique de Papadiamantopoulos et dans sa *Néreide*, d'une si puissante intensité dramatique, se trouve le germe dont est issue la Muse néo-hellénique... cette muse qui vécut dix ans jusqu'au *Voyage* de Psichari ».

*

Après la poésie la prose, dont la réforme date aussi du XVIe siècle et fut entreprise pour la première fois, systématiquement, par Nicolas Sophianos. Corfiote de culture italienne, ce dernier rêvait de doter son pays d'oeuvres accessibles à la majorité des Grecs. Il composa donc une grammaire (1534) et un dictionnaire du langage simplifié qu'il préconisait et traduisit en grec moderne certaines pages de Plutarque. Certes, sa langue est loin de ressembler à celle d'aujourd'hui et contient encore forcément bien des archaïsmes. Néanmoins, c'est à Sophianos que la Grèce est redevable de sa prise de conscience du problème de la langue et de son importance pour les futures générations.

Au XVIIe siècle, on n'enregistre dans l'évolution linguistique aucun progrès notable. Relevons cependant un détail curieux et digne de remarque : à cette époque, la démotique trouve en France un partisan inattendu en la personne de ... Richelieu ! C'est, en effet, sur l'ordre du cardinal que le philosophe italien Simone Porzio, plus connu sous son nom latinisé de Portius, entreprend la rédaction d'une grammaire de la langue nouvelle (1638) et d'un dictionnaire latin-grec démotique.

---

(1) Par exemple, des poèmes en *Katharevoussa* voisinaient avec d'autres écrits en démotique.

Trébizondios en 1428, Théodore de Gaza en 1430, Bessarion en 1437, Jean Lascaris et Dimitrios Chalcocondylis, qui furent les protégés de Laurent de Médicis et enfin, à la fin du XVe siècle, le Crétois Marcos Mouzouros (Marc Musurus), surnommé « l'Abeille de l'Hymette », célèbre à Padoue, à Venise, à Rome, l'ami d'Erasme et d'Aldo Manuccio, qui devint cardinal et qui fut l'ancêtre de la comtesse de Noailles.

C'est vers cette même époque que le mouvement démoticiste entreprit sa réforme de la poésie grecque. La période poétique de la démotique (1) part, en effet, vraisemblablement du XVIe siècle, pour atteindre son plein éclat au temps de la guerre d'indépendance (avant et après 1821). Elle fleurit dans l'Heptanèse (2) qui, ayant échappé au joug turc, demeurait ouvert aux courants venus de l'Occident. Soumises à Venise pendant plus de trois siècles, les Sept Iles en avaient profondément subi l'influence. Nombreux étaient les lettrés désireux de parfaire leur culture qui se rendaient à cette fin en Italie.

Le grand poète Dionisios Solomos, d'origine crétoise (1798-1857), l'auteur de l'hymne national grec que le compositeur grec Mantzaris allait mettre en musique, fut « le chef incontesté d'une pléiade de jeunes penseurs qui se groupaient autour de lui comme amis, imitateurs ou adeptes». Il avait, comme tant d'autres, commencé par écrire en italien. A sa suite, des poètes, Heptanisiotes ou non, menèrent le bon combat pour le triomphe de la démotique ; mais il est vrai qu'à cette époque le problème de la langue, tout épineux qu'il fût, n'avait pas encore atteint l'acuité au'il devait connaître plus tard et l'on pouvait voir des écrivains démoticistes, tel Valaoritis, par exemple, employer volontiers et sans répugnance, quand les circonstances l'exigeaient, le langage puriste, la *katharevoussa.* Ainsi fera un jour le grand Palamas lui-même, ce qui attirera sur lui les foudres de Psichari.

Néanmoins, l'un après l'autre, les poètes abandonnèrent définitivement l'usage de la *katharevoussa.* Ses derniers adeptes furent notamment Cléon Rangavis et Achille et Georges Paraskhos dont un romantisme, qui se prétendait héritier de Byron et de Musset, ne parvenait pas à réchauffer la glaciale poésie et explique mal la célébrité. Enfin , Jean Moréas. Il est vrai que ce dernier s'appelait alors Jean Papadiamantopoulos. Complètement inconnu en France, le futur auteur des *Syrtes* et des *Stances* s'exerçait encore, à cette époque, à rimer assez maladroitement en français. Par contre, ses premières armes dans les lettres grecques s'annonçaient brillantes. Un recueil de poèmes qu'il venait de publier sous le titre Τρυγόνες και Ἔχιδνες (*Tourterelles et Vipères*) avait,

(1) Pour éviter toute confusion de termes avec le démotique égyptien, nous emploierons partout ce mot, ici, au féminin.

(2) On appelle ainsi les sept îles ioniennes : *Corfou, Céphalonie, Ithaque, Paxi, Leucas, Zante, Cerigo.*

A l'église, il avait déjà entendu le prêtre et le chantre parler un grec incompréhensible. A l'école, il apprit la prière du Seigneur. Il disait « psomi» pour demander du pain à sa mère, mais il apprit que le pain quotidien qu'on demande à Dieu, il faut l'appeler « artos ». Comme il obtenait parfois de sa mère un supplément de vrai pain et qu'il ne vit jamais le pain du Seigneur, il en conclut qu'il s'agissait peut-être d'un pain idéal, suprasubstantiel, symbolique. Il ne fut pas long à comprendre, et en ceci tous ses compatriotes ont le même sentiment, que le mot usuel est le seul qui obtient quelque chose d'utile, mais que seul le mot noble vous élève jusqu'aux régions de la pensée pure. Il en résulte un divorce définitif entre le monde des idées et le monde des besoins. S'exprimant par des mots différents, ces deux mondes ne se touchent jamais, chacun reste prisonnier de son propre moule. Les besoins et leur expression vivent, évoluent, s'adaptent aux nécessités ambiantes ; les idées, esclaves de leur expression immuable, restent en dehors de la vie courante. Aussi les besoins sont peut-être vulgaires, mais ils sont sobres et clairs. Les idées sont toujours sublimes, mais raides et froides. Pour les exprimer, le Grec s'embarrassera de formules créées au temps de Périclès. Il aura pour elles une admiration superstitieuse, mais il n'aura jamais avec elles cette affectueuse intimité qui est seule féconde. Ses besoins seront ardents. Tout ce qui s'exprime en langue usuelle : la bonne olive, l'huile un peu rance, la friture aux âcres relents, il ne les oubliera jamais. Son dévouement à sa mère et à sa soeur, il les poussera jusqu'au martyre, car les sentiments sont aussi du domaine de la langue usuelle. La liberté, l'égalité, la fraternité dont il discourt en langue classique, il les vantera avec grandiloquence, quitte à les trahir à la première occasion. Or le jeu de la politique se jouant en grec pur, il ne se sacrifiera jamais pour une idée sociale. Il en discourra pour le plaisir de façonner de pompeuses périodes, propices à la plus subtile dialectique, mais le jeu s'arrêtera là. Tant que les Grecs auront deux langues, tous se feront tuer pour un besoin et un sentiment, personne pour une idée ».

Nous laisserons à l'auteur l'entière responsabilité de ses opinions et du sel dont il les assaisonne ; mais ces lignes définissent très exactement le conflit qui a déchiré la Grèce pendant de longues années et qui en régit encore toute la littérature.

*

On appelle littérature grecque moderne la période de production qui couvre cinq siècles et qui va de la prise de Constantinople par les Turcs, en 1453, jusqu'à nos jours.

Peu avant cette date, des érudits hellènes s'étaient, on le sait, rendus en France, en Allemagne et surtout en Italie, où ils dispensaient un enseignement qui devait donner son caractère à l'humanisme de la Renaissance : Georges

dans tout l'Orient et remplaça l'araméen comme langue internationale. Syriens, Egyptiens, Arabes, Juifs l'adoptèrent. Un des vestiges les plus importants de cette langue qui fut celle de Lucien, de Plutarque et, plus tard, celle des Pères de l'Eglise, est la traduction de l'Ancien Testament connue sous le nom de *Bible des Septante.*

Mais la Κοινή elle-même, par suite de l'altération de la prononciation, de « la confusion des cas, de la négligence des conjugaisons » et de l'introduction de mots latins, italiens, turcs dans le vocabulaiie, subit de profondes modifications et on la vit bientôt donner naissance à une langue qui, s'éloignant du grec ancien, du grec classique aussi bien que de la Κοινή même, eut tendance à les supplanter : c'était le parler populaire. Cet idiome particulier apparaît déjà sur certains papyrus du IIème siècle. Nous avons aussi des preuves de ce mouvement linguistique dans un manuscrit daté de l'an 1081 et contenant des louanges du peuple de Constantinople à l'adresse de l'empereur Alexis Comnène. On comprend, toutefois, que cela n'alla pas sans entraîner une vigoureuse réaction de la part des lettrés respectueux de la tradition et partisans d'un purisme grammatical intransigeant. La Grèce se trouva, de ce fait, amenée à posséder deux langues; l'une archaïsante, dite *katharevoussa* (καθαρεύουσα) ou langue puriste; l'autre populaire, le néo-grec, baptisé *démotique* (Δημοτική) ou encore *romeique* (ρωμαίικη). Il y eut donc, dès cette lointaine époque, deux écoles opposées qui devaient devenir plus tard farouchement ennemies : celle des *Puristes* et celle des *Demoticistes* ou *Vulgaristes.* Le seul idéal que ces écoles eurent en commun fut leur extermination réciproque.

Dans une page amusante d'un roman paru en France et qui a connu, ces dernières années, un gros succès de librairie, l'écrivain grec C. P. Rodocanachi a effleuré le problème qu'il a résolu dans le sens et selon les voeux des démoticistes ([1]). Cette citation savoureuse aura l'avantage de nous introduire au coeur même du sujet.

« Pendant deux ans qu'il fréquenta l'école, il [Ulysse fils d'Ulysse] n'apprit qu'une vérité claire et indiscutable : c'est que tout objet a au moins deux noms : le nom romaïque ou vulgaire et le nom classique ou noble. Il savait déjà que l'oeuf s'appelle « avgo». Il apprit qu'on devait l'appeler «oon». Quand il répéta ce mot à sa grand-mère, elle le prit pour une injure et lui dit qu'il était un petit impertinent.

---

(1) C. P. RODOCANACHI : *Ulysse fils d'Ulysse.* Paris, Corréa, 1954. p. 9.

« La progonoplexie, poursuit le même auteur, s'était fixé pour but de forcer le peuple à parler coûte que coûte la langue des grands ancêtres, tout au moins, disait-on, la langue de Xénophon». C'était là l'unique moyen de rétablir la continuité , « que l'on croyait accidentellement interrompue », entre les anciens et les modernes.

Cette tendance prit toute son ampleur surtout après la guerre d'Indépendance (vers 1830), grâce à l'influence prépondérante des *Phanariotes*, aristocrates lettrés de Constantinople, si injustement traités par Pierre Loti (1) . Ceux-ci, imbus de culture classique et de traditions ecclésiastiques, occupaient la plupart des fonctions officielles et leur autorité ne se trouvait jamais en défaut ; ils rêvaient d'un retour glorieux à l'atticisme, lequel consistait « à éviter dans le langage écrit les formes et le vocabulaire de l'usage parlé, et à imiter les auteurs anciens, surtout les Attiques ».

Tel est, on le verra, l'origine d'un conflit qui dure encore et qui a bouleversé la vie du peuple grec tout entier.

Dérivé de la progonoplexie, il existe, en effet, de nos jours, en Grèce, un problème dit de la *diglossie* (Διγλωσσία) ou du parler en deux langues. D'une complexité extrême, ce problème se trouve à la base de toute l'histoire de la littérature néo-grecque ; aussi allons-nous tenter d'en donner ici, pour la première fois, un aperçu sommaire.

*

Les conquêtes d'Alexandre-le-Grand avaient eu pour résultat l'établissement et l'expansion d'une langue dite Κοινή (la koïné des hellénistes) ou langue commune qui, absorbant l'un après l'autre les dialectes dorien, éolien, ionien, ainsi que les divers parlers locaux de la Grèce, devint un facteur de civilisation

---

(1) A partir du XIIIe siècle, le gouvernement du Sultan, soucieux d'utiliser les capacités des lettrés grecs qui n'avaient pas émigré, les désigna à des fonctions importantes dans l'Administration. Certains d'entre eux furent même nommés gouverneurs des provinces danubiennes de l'Empire. Il se créa, sous cette impulsion, une nouvelle aristocratie intellectuelle, celle des Phanariotes, ainsi baptisés du nom du quartier du Patriarcat (le Phanar), où se trouvaient leurs résidences. Ayant été pendant longtemps à peu près les seuls à demeurer en contact avec la Grèce continentale coupée de l'Occident, leur influence y fut immense. Ce n'est que plus tard, après le traité de Kainardji (1774) quand les relations avec la France et l'Italie furent rétablies, que des ouvrages sortis des presses viennoises, françaises, italiennes, pourront pénétrer à Athènes où ils seront traduits dans la langue érudite et châtiée des Phanariotes.

BILINGUISME ET LITTERATURE NEO-GRECS (1)

ORIGINE ET EVOLUTION

(De la Septante à Jean Psichari)

par

RENÉ KHOURY

Cet article traite du difficile problème de la diglossie en Grèce. Il l'étudie depuis les origines de la *koine* et en suit l'évolution jusqu'à la réforme révolutionnaire de Jean Psichari, à la fin du XIXème siècle. L'auteur procède en même temps à une vue d'ensemble de la littérature néo-grecque, siècle par siècle, à travers les oeuvres et les écrivains les plus importants. Sujet nouveau et qui, à ma connaissance, n'a jamais été traité de cette manière auparavant, les études existantes s'étant occupées jusqu'ici soit d'histoire de la langue exclusivement, soit d'histoire littéraire. Dans le présent article, l'auteur s'est attaqué à une difficile synthèse et son travail constitue une intéressante contribution à l'ensemble des études grecques. *Dr. Abdellatif Ahmed Aly.*

Vers la fin du siècle dernier, la Grèce se trouva frappée d'un mal étrange, au nom barbare, que l'on ne trouve dans aucun dictionnaire médical, la *progonoplexie* ou *mal des ancêtres.* Cette maladie, explique plaisamment Georges Théotokas, consistait en cette obsession que « les Grecs modernes sont les descendants directs et purs des Grecs anciens et les continuateurs prédestinés de la grande tradition hellénique classique. « Point n'était donc besoin pour eux de s'occuper d'autre chose. Tous leurs efforts devaient tendre vers cette unique fin : revendiquer « en tant que Grecs, des droits à la reconnaissance et au respect des autres peuples du continent ».

---

(1) Cette étude est extraite d'un ouvrage consacré à Jean Psichari, en cours de préparation. Je tiens à remercier ici le grand écrivain grec Georges Théotokas, qui lut ces pages, m'encouragea à les publier et me fit l'amitié de corriger quelques erreurs de détail. Mes remerciements s'adressent aussi à mon érudit ami Th. Nicolopoulos qui, avec une complaisance inépuisable, me laissa piller sa bibliothèque et m'aida dans la révision du texte.

Translation: (179) (Now) look at me (*lit.* behold me) (180) after I reached land and after (181) I saw what I had experienced! Listen (182) to [my speech] (?), for, behold, it is good for men to listen! (183) Then he said to me: Do not (try to) be clever, (184) my friend (*i.e.* do not try to persuade me); for who is (going) to give water (185) to a bird at dawn to kill (186) it in the morning!

(186) ỉw-f pw ḥꜣt-f (187) r pḥwy-fy mỉ gmyt m sẖ(w) (188) [n ỉswt] [m] (?) sẖ sẖ ỉḳr n ḏbꜥw-f (189) Imn-ꜥꜣ sꜣ Imny ꜥnḫ wḏꜣ snb

Translation: (186) This (manuscript) agrees (= ỉw...mỉ) from its beginning (187) to its end with what has been found in the writings (188) of olden times in the manuscript of the scribe, excellent with (*lit.* because of) his fingers, (189) Ameno son of Ameny l.p.h.

Translation: (161) Then I placed myself on my belly, my arms having been bent in front of him. (162) Then he gave me a parcel of myrrh, spice, *iudenb*, (163) *khesayit*, *tisheps*, *shasch*, eye-paint, tails (164) of giraffes, a big heap of incence, tusks (165) of elephants, greyhounds, apes and all beautiful things. (166) Then I loaded them on this ship.

(166) ẖpr.n rdỉ.t-(ỉ) wỉ ḥr ẖt-ỉ (167) r dwꜣ n-f nṯr ʿḥʿ.n ḏd.n-f n-ỉ mk tw r spr r ẖnw (168) m ỉbd 2 mḥ-k ḳnỉ-k m ẖrdw-k rnpy-k (169) m ẖnw (r) ḳrs.t-k ʿḥʿ.n hꜣỉ.kwỉ r mryt (170) m hꜣw dpt tn ʿḥʿ.n-ỉ ḥr ỉꜣš n mšʿ (171) nty m dpt tn rdỉ.n-ỉ ḥknw ḥr mryt n nb n ỉw pn (172) ntyw ỉm-*s* (*s* written by mistake for *f*) r mỉtt ỉry nʿt pw ỉr(w).n-n m ẖd (173) r ẖnw n ỉty spr.n-n ẖnw (174) ḥr ỉbd 2 mỉ ḏdt.n-f nbt ʿḥʿ.n ʿḳ.kwỉ ḥr ỉty (175) ms n-ỉ n-f ỉnw pn ỉn(w).n-ỉ m ẖnw n ỉw pn (176) ʿḥʿ.n dwꜣ.n-f n-ỉ nṯr ẖft-ḥr ḳnbt tꜣ r ḏr-f (177) rdỉ.kwỉ r šmsw (the words *ʿḥʿ.n* at the beginning of the line should be omitted) (178) sꜣḥ.kwỉ m (179) tpw-f

Translation: (166) It happened that I placed myself on my belly (167) to thank him. Then he said to me: Behold, thou shalt reach home (168) in two months and thou shalt fill thy bosom with thy children and thou shalt grow young again (169) at home until thou be buried. Then I, having gone down to the shore (170) in the neighbourhood of this ship, stood calling the people (171) that were in this ship. I gave praise on shore to the lord of this island (172) and its inhabitants as well. We sailed northwards to the residence of the Sovereign and arrived home (174) in two months (time)(Col. Arabic على شهرين) according to all that he had said. Then I, having entered before the Sovereign, (175) brought him this tribute (or gift) which I brought from this island. (176) Then he thanked me before the magistrates of the entire land (177), I having been appointed follower (178) and presented with serfs of his

(179) mꜣ wỉ r (180) sꜣ sꜣḥ-ỉ tꜣ r sꜣ (181) mꜣ-ỉ dpt.n-ỉ sḏm rk (182) [n] (?)-ỉ mk nfr sḏm n rmṯt (183) ʿḥʿ.n ḏd.n-f n-ỉ m ỉr ỉḳr (184) ẖnms-ỉ ỉn-m r dỉt mw (185) [n ʾ]pd hḏ-tꜣ n sft-f (186) dwꜣ(w)

(149) 'ḥ'-n sbt.-f ỉm-ỉ m nn ḏd(w).n-ỉ m nf m ỉb-f (150) ḏd-f n-ỉ n wr n-k 'ntyw ḥprtỉ <m> nb snṯr (151) ỉnk ỉs ḥḳ; Pwnt 'ntyw n-ỉ ỉm sw (152) ḥknw pf ḏd(w).n-k ỉn.t(w)-f bw pw wr n ỉw pn (153) ḫpr ỉs ỉwd-k tw r st tn nn sp (154) m;-k ỉw pn ḫpr m nwy

Translation: (149) Then he laughed at me and at that which I had said as being foolish as he thought (*m ỉb-f*). (150) He said unto me: Thou dost not possess much myrrh although thou art already rich in incense; (151) but I am the ruler of Puni and the myrrh I possess (much of) it. (152) That (famous) spice (*ḥknw*) which thou didst speak of bringing (*lit.* which thou said it would be brought), it is the main thing (*bw pw wr*) of this island. (153) It shall happen, when thou hast left this place (*lit.* when thou sunderest thyself from this place), that never (154) shalt thou see (*lit.* that it shall not pass that thou see) this island (again), it having already transformed into sea.

(154) 'ḥ'.n dpt tf (155) ỉỉ.tỉ mỉ srt.n-f ḫnt *'ḥ'.n-ỉ šm.kwỉ* (the words *'ḥ'n-ỉ šm-kwỉ* were inserted by mistake) (156) rdỉ.n(-ỉ) wỉ ḥr ḫt ḳ; s;.n-ỉ ntyw m ẖnw-s (157) 'ḥ'.n šm.kwỉ r smỉt st gm.n-ỉ sw rḫ st (158) 'ḥ'.n ḏd.n-f n-ỉ snb.tỉ sp-2 nḏs r pr-k m;-k (159) ẖrdw-k ỉmỉ rn-ỉ (r) nfr m nỉwt-k mk ḥrt-ỉ (160) pw ỉm-k

Translation: (154) Then, that ship (155) having come according to that which he foretold beforehand, (156) I placed myself on a high tree and could recognise those who were in it. (157) Then I, having gone to report it, found him having already known it. (158) Then he said to me: Fare thee well, fare thee well, little fellow, to thy home that thou may see (159) thy children. Place my name well in thy city. Behold, that is my due (160) from thee!

(161) 'ḥ'.n rdỉ.n(-ỉ) wỉ ḥr ẖt-ỉ 'wy-ỉ ḥ;m m b;ḥ-f (162) 'ḥ'.n rdỉ.n-f n-ỉ sbt m 'ntyw ḥknw ỉwdnb (163) ḫs;yt tỉšps š;'sḫ msdmt sdw (164) nw mmy mrryt ';t nt snṯr nḏḫyt (165) nt ;bw ṯsmw gwfw kyw špss nb nfr (166) 'ḥ'.n ;tp.n-ỉ st r dpt tn

(living) among them. Then I, already griefshot (*lit.* dead) on account of them, discovered (132) them in the form of one heap of corpses.

(132) ỉr ḳnn-k d;r ỉb-k (133) mḥ-k ḳnỉ-k m ẖrdw-k sn-k (134) ḥmt-k m;-k pr-k nfr st r ỉẖt nbt (135) pḥ-k ẖnw wn(w).n-k ỉm-f (136) m ḳ;b n snw-k

Translatian: (132) If thou art brave subdue thy heart (*i.e.* be patient) (133) and thou shalt (be able to) fill thy bosom with thy children and kiss (134) thy wife and see thy home. It is more beautiful than anything (135) that thou arrive the home wherein thou wast (136) amidst (*lit.* in the folds of) thy brethren.

(136) wn.k(wỉ) rf (137) *dm;.kwỉ (inserted by mistake)* ḥr ẖt-ỉ dmỉ.n-ỉ (138) s;tw m-b;ḥ-f d̲d-ỉ rf *n-k* (*sic, for* n-f) (139) sd̲d-ỉ b;w-k n ỉty dỉ-ỉ sš;-f (140) m ʿ;-k dỉ-ỉ ỉn-tw n-k ỉbỉ ḥknw (141) ỉwdnb ẖs;yt snt̲r n gsw-prw (142) sḥtpw nt̲r nb ỉm-f sd̲d(-ỉ) rf ẖprt (143) ẖr-ỉ m m;t.n-ỉ mb ;w-*f* (*sic, for* k) dw;-tw n-k nt̲r (144) m nỉwt ẖft-ḥr ḳnbt t; r d̲r-f sft-ỉ (145) n-k k;w m sbỉ n sd̲t wšn.n-ỉ n-k (146) ;pdw dỉ-ỉ ỉn-t(w) n-k ḥʿw ;tpw (147) ẖr špss nb n Kmt mỉ ỉrrt n nt̲r mrr (148) rmt̲t m t; w; n rẖ sw rmt̲t

Translation: (136) Having been (137) on my belly I touched (138) the ground in his presence then said to him: (139) I will tell of thy might to the Sovereign and let him be acquainted (140) with thy greatness. I shall cause be brought to thee *ibi*, spice, (141) *iudeneb*, *khesayit* and incense of the temples, (142) wherewith every god is made content. I will relate what happened (143) on account of me as part of what I have seen of thy might. God will be glorified on thy behalf (144) in the city in presence of the magistrates of the whole land. I will slay (145) for thee oxen for burnt-offering after I would have sacrificed for thee (146) geese. I will cause be sent for thee ships laden (147) with all the excellent things of Egypt, as is usually done to a god who loves (148) men (= the Egyptians), in a land far off which men knew not.

Translation: [111] Thereupon he said unto me: Fear not, fear not, [112] young fellow; let not thy face be anxious (?) (? i.e. do not worry) [113] now that thou hast come to me (*lit.* reached me). Behold, God hath caused [114] that thou live and brought thee to this island of the Ka, [115] wherein there is nothing missing, [116] it being full of all good things. [117] Behold, thou art to spend month after (*lit.* upon = plus) [118] month until thou completest 4 months [119] in the interior of this island [120] A ship will come from Home [121] wherein are sailors whom thou already knowest, [122] and thou shalt go with them home [123] and die in thy town.

[124] rśwy sd̲d dpt.n-f snỉ ỉẖt mr [125] sd̲d-ỉ rf n-k mỉtt ỉry ẖprw (sic) m ỉw pn [126] wn(w).n-ỉ ỉm-f ḥnʿ snw-ỉ h̲rdw [127] m ḳ;b-sn

Translation: [124] How joyful is he who relates what he has experienced (*lit.* tasted) when something painful has passed! [125] On this account let me relate to thee something similar that took place in this island, [126] wherein I existed with my brethren with children [127] in their midst (*lit.* in their folds).

[127] km.n-n ḥf;w 75 m [128] msw-ỉ ḥnʿ snw-ỉ nn sẖ;-ỉ n-k [129] s;t ktt ỉnt n-ỉ m sś;

Translation: [127] We numbered in all (*lit.* completed) 75 serpents, comprising [128] my children and (those of) my brethren—not to mention (*lit.* I shall not mention to thee) [129] a little daughter, who was brought to me by accident (*i.e* unexpectedly).

[129] ʿḥʿ.n sb; [130] h;w pr.n n; m ẖt m-ʿ-f ẖpr.n rs nn wỉ ḥnʿ [131] ;m.n-*f* (*head of suffix* f *only written*) nn wỉ m ḥr-ib-sn ʿḥʿ.n-ỉ mwt.kwỉ n-sn gm-n-ỉ [132] st m h̲;yt wʿt

Translation: [129] Then, a star [130] having fallen, these went out in fire by means of it. It happened, in respect of this, that I was not with [131] those whom it (sc. the star) had burnt as I had not been

pw hꜣi. kwi [90] r biꜣw m wpwt [91] ity m dpt nt [92] mḥ 120 m ꜣw-s mḥ 40 m sḫw-s [93] sḳd 120 im-s [94] m stp n Kmt [95] mi-sn pt mꜣ-sn tꜣ [96] mkꜣ ib-sn r mꜣw [97] sr-sn ḏꜥ [98] n ii.t-f nšni n ḫpr.t-f [99] wꜥ im nb mkꜣ ib-f [100] nḫt ꜥ-f r snw-f nn [101] wḫꜣ m ḥr-ib-sn ḏꜥ [102] pr iw-n m Wꜣḏ-wr [103] tp-ꜥ sꜣḥ-n tꜣ fꜣ-t(w) [104] (ḫt)-ṯꜣw ir-f whmyt nwyt [105] im-f nt mḥ 8 in ḫt-(ṯꜣw) ḫḫ [106] n-i s(y) ꜥḥꜥ.n dpt mwtt (sic) [107] ntyw im-s n sp wꜥ im [108] ḥr ḫw-i mk wi r gs-k [109] in.kwi r iw pn [110] in wꜣw n Wꜣḏ-wr *(the words* ꜥḥꜥ.n *at the beginning of the line are put there by mistake).*

Tanslation: [81] He opened his mouth at me while I was [82] on my belly in front of him. [83] And he said to me: Who is it that brought thee, [84] young fellow? Who is it that brought thee to this island [85] of the Deep Green Sea, whose two sides are in the water? [86] And I answered [87] (it) to him, my arms being bent [88] in front of him, and said unto him: [89] Here I am, having gone down [90] to the mine on an errand [91] of the Sovereign in a ship [92] 120 cubits in its length and 40 cubits in its breadth, [93] there being in it 120 sailors [94] who were the choicest of Egypt. [96] Looked they at sky or looked they at earth [96] their hearts were stronger than (those of) lions. [97] They could foretell a storm [98] before it came and a tempest before it happened. [99] Each one of them, his heart was stouter [100] and his arm was stronger than (that of) his fellow, and there was not [101] a fool among them. A storm [102] broke out, as we were on the Deep Green Sea, [103] before we had reached land. The mast was carried off. [104] It (sc. the storm) continued with waves [105] eight cubits (high) (surging) in it. It was the mast that floated [106] itself on to me. Then, the ship, those who were in it perished. [107] Not one of them remained [108] exept me (ḫw-i=Arabic سوای). Behold me at thy side, [109] having been brought to this island [110] by a wave of the Deep Green Sea!

[111] ḏd.in-f n-i m snḏ m sp-2 [112] nḏs m ꜣtw ḥr-k [113] pḥ.n-k wi mk nṯr rdi.n-f [114] ꜥnḫ-k in.n-f tw r iw pn n kꜣ [115] nn ntt nn st m ḫnw-f [116] iw-f mḥ ḥr nfrt nbt [117] mk tw r irt ibd ḥr [118] ibd r kmt-k ibd 4 [119] m ḫnw n iw pn iw [120] dpt r iit m ḫnw [121] sḳdw im-s rḫ.n-k [122] šm-k ḥnꜥ-sn r ḫnw [123] mw-k m niwt-k

cubits. His body was overlaid[65] with gold, his eyebrows were[66] of real lapis lazuli. He coiled himself forward.

[67] ỉw wp.n-f r-f r-ỉ ỉw-ỉ [68] ḥr ẖt-ỉ m-bꜣḥ-f [69] d̠d-f n-ỉ nm ỉn tw sp-2 nd̠s[70] nm ỉn tw ỉr wdf-k[71] m d̠d n-ỉ ỉn tw r ỉw pn [72] rdỉ-ỉ rḫ-k tw ỉw-k m ss [73] ḫpr.t(i) m nty m mꜣ.t(w)-f.

Translation: [67] He opened his mouth at me, I being [68] on my belly in front of him, [69] and he said to me: Who is it that brought thee, who is it that brought thee, young fellow ?[70] Who is it that brought thee ? If thou delayst[71] in telling me who hath brought thee to this island[72], I will cause that thou discover thyself (i.e. realise thy true worth), thou being as ashes[73], having changed into one unseen.

[73] ỉw mdw-k[74] n-ỉ nn wỉ ḥr sd̠m-ỉ (sic)[75] st ỉw-ỉ m-bꜣḥ-k[76] ḫm.n-(ỉ) wỉ

Translation: [73] (I answered): Thou[74] speakest unto me, and I do not understand (*lit.* hear)[75] it. I am in thy presence[76]; and I have forgotten (*lit.* ignored) myself.

[76] ʿḥʿ.n rdỉ-f wỉ [77] m r-f ỉt̠ỉ.t-f wỉ r st-f [78] nt snd̠m wꜣḥ-f[79] wỉ nn dmỉt-ỉ [80] wd̠ꜣ.kwỉ nn ỉt̠ỉt ỉm-ỉ

Translation: [76] Then he placed me [77] in his mouth, and took me to his [78] den (*lit.* lying-place or place of comfort)[79], and he placed me down without touching me, [80] I having been safe without anything being taken away from me.

[81] ỉw wp.n-f r-f r-ỉ ỉw-ỉ [82] ḥr ẖt-ỉ m bꜣḥ-f [83] ʿḥʿ.n d̠d.n-f n-ỉ nm ỉn tw sp-2 [84] nd̠s nm ỉn tw r ỉw pn [85] n wꜣd̠-wr nty gs(wy)-fy m nwy[86] ʿḥʿ.n wšb.n-ỉ [87] n-f st ʿwy-ỉ ḫꜣm [88] m bꜣḥ-f d̠d-ỉ n-f [89] ỉnk

Translation: [37] Then, the ship, [38] those who were in it perished. No [39] one among them remained. Then I, having been cast on to [40] an island by a wave of the Deep Green Sea [41], spent days lonely, [42] my heart being my companion. [43] Having spent nights in a hiding-place [44] of a wood, I enjoyed (*lit.* embraced) the shelter (*i.e.* I felt myself secure).

[45] ʿḥʿ.n dwn.n-ỉ rdwy-ỉ [46] r rḫ dỉt-ỉ m r-ỉ [47] gm.n-ỉ dꜣb ỉꜣrrt [48] ỉm ỉꜣḳt nbt špst [49] kꜣw ım ḥnʿ nḳwt [50] šspt mỉ ỉr.t(w)-s rmw [51] ỉm ḥnʿ ỉpdw nn ntt [52] nn st m ẖnw-f ʿḥʿ.n [53] ssꜣ.n-(ỉ) wỉ rdỉ.n-ỉ r tꜣ [54] n wr ḥr ʿwy-ỉ šd.t-ỉ ḏꜣ [55] sḫpr.n-ỉ ḫt ỉr.n-ỉ [56] sbỉ-n-sḏt n nṯrw

Translation: [45] Then I stretched forth my feet [46] in order to know what I should put into my mouth. [47] I found figs and grapes [48] there and all kinds of fine fruit (?). [49] There were *kaw*-fruit together with *nekut*-fruit and [50] cucumbers as if it were cultivated. Fishes [51] were in it as well as birds. There was nothing [52] which was not within it. Then [53] I satisfied myself, and left (*lit.* placed) upon the ground [54] because (it) was (too) much upon my arms (i e. because I had too much to carry). When I took out a firestick, [55] I created fire, and made [56] a burnt-offering (= ὁλοκαυτώματα and Achmimic Coptic CBNCETE) for the gods.

[56] ʿḥʿ.n sḏm.n-ỉ [57] ḫrw ḳrỉ ỉb.kwỉ [58] wꜣw pw [59] n Wꜣḏ-wr ḫtw ḥr gmgm [60] tꜣ ḥr mnmn kf.n-ỉ [61] ḥr-ỉ gm.n-ỉ ḥfꜣw [62] pw ỉw-f m ỉỉt nỉsw [63] mḥ 30 ḫbswt-f wr-s(y) [64] r mḥ 2 ḥʿw-f sḫrw [65] m nbw ỉnḥwy-fy m ḫsbd [66] mꜣʿ ʿrḳ-(f) sw r ḫnt

Translation: [56] Then I heard [57] the sound of thunder, I having [58] before thought it was a wave [59] of the Deep Green Sea. Trees having broken [60] and the earth having quaked, I uncovered [61] my face and I found it was a serpent [62] on the point of coming. He was [63] 30 cubits (long) and his beard was longer [64] than two

to [16] the King, having thy wits (*lit.* heart) with thee, and (can) answer [17] without faltering. It is the mouth of man [18] that saveth him. It is his speech [19] that covereth the face for him (*i.e* conceals his defects). [20] Act according to thy desire! [21] What thou hast related is painful!

[21] sḏd-ỉ rf [22] n-k mitt ỉrỉ ḫpr m-ʿ-ỉ [23] ḏs-ỉ šm.kwỉ r bỉ;w [24] n ỉty h;.kwỉ [25] r w;ḏ-wr m dpt [26] nt mḥ 120 m ;w-s mḥ 40 m sḫw-s [27] sḳd 120 ỉm-s [28] m stp n Kmt m;-sn [29] pt m;-sn t; mk; [30] ỉb-sn r m;w sr-sn [31] ḏʿ n ỉỉ.t (-f) nšnỉ [32] n ḫpr.t-f

Translation: [21] I shall narrate [22] to thee the like thereof, that happened to me [23] myself, having gone to the mine [24] of the Sovereign and gone down [25] to the Deep Green Sea in a ship [26] 120 cubits in its length and 40 cubits in its breadth [27], there being in it 120 sailors [28] who were the choicest of Egypt. Looked they [29] at sky or looked they at earth their hearts [30] were stouter than (those of) lions. They could foretell [31] a storm before it came and a tempest [32] before it happened.

[32] ḏʿ pr [33] ỉw-n m w;ḏ-wr tp-ʿ [34] s;ḥ-n t; f;-t(w) (ḫt)-ṯ;w [35] ỉr-f whmyt nwyt [36] ỉm-f nt mḥ 8 ỉn ḫt- (ṯ;w) ḥḥ [37] n-ỉ s(y)

Translation: [32] A storm having broken out, [33] while we were on the Deep Green Sea before [34] we reached land, the mast was carried off (= removed). [35] It (sc. the storm) continued with waves [36] eight cubits (high) (surging) in it. The mast floated (*ḥḥ*) itself on to me.

[37] ʿḥʿ.n dpt [38] mwt ntyw ỉm-s n sp [39] wʿ ỉm ʿḥʿ.n-ỉ rdỉ.kwỉ [40] r ỉw ỉn w;w n W;ḏ-wr [41] ỉr.n-ỉ hrw.w wʿ.kwỉ [42] ỉb-ỉ m snw-ỉ sḏr.kwỉ [43] m ḫnw n k;p [44] n ḫt ḳnỉ.n-ỉ šwyt [45]

THE STORY OF THE SHIPWRECKED SAILOR*
TEXT AND TRANSLATION

BY

GIRGIS MATTHA

(1) ḏd ỉn šmsw ỉḳr wḏꜣ (2) ỉb-k ḥꜣty-ꜥ mk pḥ.n-n (3) ẖnw šsp ḫrpw (4) ḥỉ mnỉt (sic) ḥꜣtt rdỉ.tỉ*** (5) ḥr tꜣ rdỉ ḥknw dwꜣ nṯr (6) s nb ḥr ḥpt snw-f (7) ỉswt-t-n ỉỉ.tỉ ꜥḏ.tỉ nn (8) nhw n mšꜥ-n pḥ.n-n (9) pḥwy Wꜣwꜣt snỉ.n-n (10) Snmwt mk rf n ỉỉ-n (11) m ḥtp tꜣ-n pḥ-n sw

Translation: (1) Thereupon** the experienced follower said: May thy heart (2) prosper, Prince! Behold, we have reached (3) home! The mallet has been taken (4) and the mooring-post driven in, the prow-rope having already been placed*** (5) on land. Praise has been given and God glorified (6) while everyone embraced his comrade, (7) our crew having come (back) safe and sound without (8) loss in our company. We reached (9) the end of Wawat and passed by (10) Senmut. Behold us now that we have come (11) in peace! Our land, we have reached it!

(12) sḏm rk n-ỉ ḥꜣty-ꜥ ỉnk šw (13) ḥꜣw ỉꜥ tw ỉmỉ (14) mw ḥr ḏbꜥw-k ỉḫ wšb-k (15) wšd-t-k mdw-k n (16) nsw ỉb-k m-ꜥ-k wšb- (17) k nn nỉtỉt ỉw r n s (18) nḥm-f sw ỉw mdw (19) -f dỉ-f ṯꜣm n-f ḥr (20) ỉr rk m ḫrt ỉb-k swrd (21) pw ḏd.n-k

Translation: (12) Listen to me, Prince. I am one that is free from (13) exaggeration. Wash thyself and pour (14) water on thy fingers that thou (can) answer (15) when thou art addressed and (can) speak

* Contained in *Papyrus Petersburg 1115*. For introduction, bibliography translation and notes cf. G. Lefebvre, *Romans et Contes Égyptiens*, Paris 1949, pp. 29–40.

The papyrus writes *t* for *tw*, *tỉ* and *ṯ*; confuses *s'* with *s* and often omits the writing of the 1st person sing. suffix *ỉ*.

** This possibly shows that the papyrus did not originally begin here.

*** It would be more appropriate to call this '*qualitative absolute*' instead of 'old perfective' or 'pseudoparticiple'.

CONTENTS

OF THE EUROPEAN SECTION

The Bulletin of the Faculty of Arts is issued twice a year, in May and December. All requests for copies should be made to the Cairo University Librarian, Giza. Communications regarding contributions should be addressed to the Editor of the Bulletin, Prof. M. H. El-Bakry, Faculty of Arts, Giza, Egypt.

Back numbers of this Bulletin are available at 30 P.T. for each Part.

BULLETIN

OF

THE FACULTY OF ARTS



VOL. XXI—PART I

MAY 1959

Cairo University Press
1963

BULLETIN

OF

THE FACULTY OF ARTS



VOL. XXI—PART 1

MAY 1959

Cairo University Press

1963

مجلة

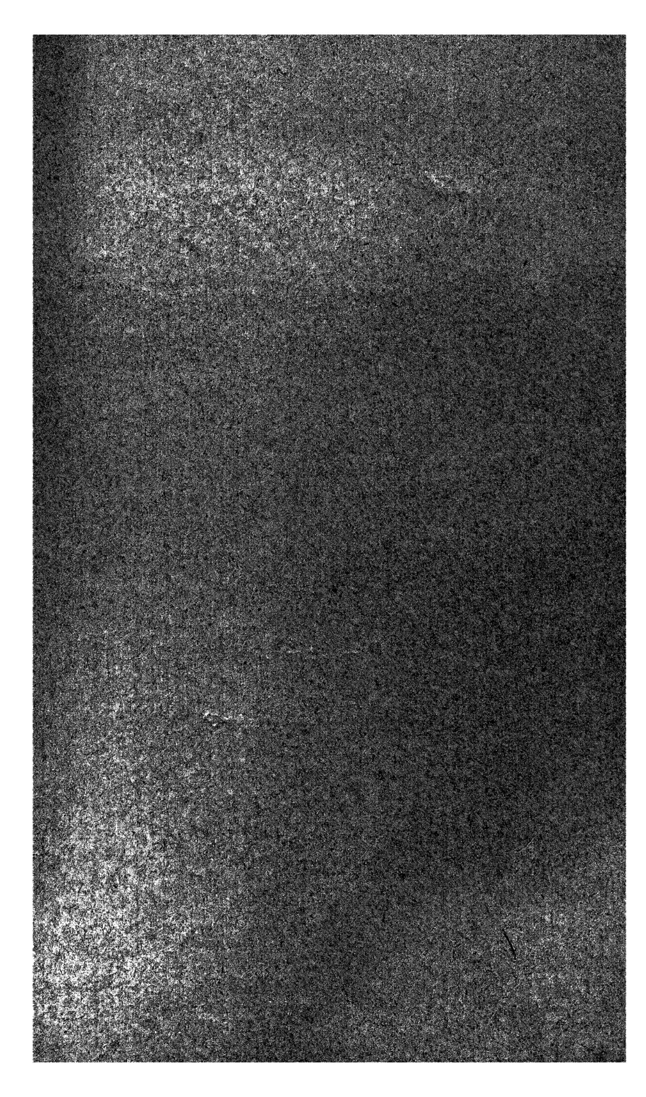
كلية الآداب



المجلد الحادي والعشرون — الجزء الثاني

ديسمبر سنة ١٩٥٩

مطبعة جامعة القاهرة
١٩٦٤







المجلد الحادى والعشرون — الجزء الثانى

ديسمبر سنة ١٩٥٩

مطبعة جامعة القاهرة
١٩٦٤

تصدر هذه المجلة مرتين كل سـنة ، فى مايو وديسمبر ، وتطلب من مكتبة جامعة القاهرة بالجيزة ، وتوجه المكاتبات الخاصة بالناحية العلمية الى المشرف على تحريرها الأستاذ الدكتور محمد حمدى البكرى الأستاذ بكلية الآداب بجامعة القاهرة ، وثمن الجزء الواحد من أى مجلد ثلاثون قرشا مصريا .

فهرس القسم العربى

صفحة

البُجَـــه والعرب فى العصور الوسطى

للدكتور مصطفى محمد مسعد

كلية الآداب — جامعة القاهرة — فرع الخرطوم

عرف العرب فى العصور الوسطى ، القبائل الحامية التى تسكن الصحراء الشرقية جنوبى مصر ، باسم البُجَه (١) ، أو البُجاه . وتمتد الأوطان الحالية لقبائل البجه من محافظة أسوان فى الشمال إلى الأطراف الشمالية لهضبة الحبشة فى الجنوب ، ومن البحر الأحمر فى الشرق إلى النيل الأعظم ونهر أتبرا فى الغرب . وتمثل هذه الأراضى الوطن الأصلى لقبائل البجه من أقدم العصور . غير أن بعض هذه القبائل ، كانت تنتقل خلال تاريخها الطويل ناحية الغرب ، أو ناحية الشمال مؤقتاً ، ثم لم تلبث بعدها أن تعود إلى أوطانها الأصلية (٢) . وحدد المؤلفون العرب أوطان البجه تحديداً واضحاً ، ومن ذلك قول الإدريسى (٣) : « وتجاور أرض الحبشة من جهة الشمال أرض البجة ، وهى بين الحبشة والنوبة وأرض الصعيد » (٤) .

تبلغ مساحة أوطان البجه فى الوقت الحاضر حوالى ١١٠٫٠٠٠ ميل مربع ، موزعة بين مصر والسودان وإرتريا . وتتصف هذه الأوطان بصفات جغرافية خاصة ، منشؤها اختلاف ظروف البيئة الطبيعية فيها ، وإن غلبت على معظمها الصفة الصحراوية . ولعل أبرز ظاهرة تضاريسية فيها ، امتداد سلاسل جبال البحر الأحمر فى حلقات متصلة من الجنوب إلى الشمال ، فيماعدا مكان واحد يشقه خور بركة (٥) . ثم إن هذه السلاسل الجبلية تمتد فى محاذاة البحر الأحمر ، وقد تقترب منه أحيانا ، بحيث تكاد تشرف على مياهه ، وقد تبتعد عنه

---

(١) يعرفون فى الوقت الحاضر باسم البجه بكسر الباء .

(٢) سوف نعرض لهذا الموضوع فى شىء من التفصيل بعد . أنظر ما يلى ، ص١٤ — ١٨

(٣) الإدريسى : صفة المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس ، نشر دى خويه ، ص ٢٦

(٤) المقصود بأرض الصعيد هنا : أرض صعيد مصر .

(٥) محمد عوض محمد : السودان الشمالى ، ص ٢٣

أحياناً أخرى ، بحيث لا تترك إلا سهلا ساحلياً ضيقاً ينحدر نحو البحر . وتنتهى المنحدرات الغربية لجبال البحر الأحمر إلى مناطق سهلة نسبياً ، وهذه تنحدر إنحداراً تدريجياً نحو نهر النيل .

ومع أن أوطان البجه يغلب عليها الجفاف بصفة عامة ، ولا سيما فى الشمال ، حيث توجد صحراء العتمور وصحراء العتباى ، فإنها لا تخلو من بعض الأقاليم التى يغزر فيها النبات ، فى بعض فصول السنة . مرجع ذلك ، اختلاف مواسم سقوط المطر ، فضلا عن اختلاف كميته كثرة وقلة وعدماً ، من منطقة إلى أخرى . فالمرتفعات المنحدرة شرقاً ، وكذلك الجهات الساحلية مطرها شتوى ، أما المرتفعات التى تنحدر ناحية الغرب وما يليها فى هذا الاتجاه فمطرها صيفى . وأغزر هذه الأقاليم مطراً ، سهل البطانة ، بين النيل الأزرق والأتبرا [1]. فالبيئة البجاوية إذن ، بيئة تدعو إلى العزلة لقسوتها ، ولا سيما فى الأقاليم الشمالية ، حيث يشتد الجدب ، وإن كانت الآبار والمراعى الفقيرة المتناثرة فى بعض جهاتها ، تخفف قليلا من وطأة هذه القسوة .

فى هذه البيئة القاسية ، عاش البجه منذ أقدم العصور . ولا بد أن هذه البيئة صارعت البجه وصارعوها ، حتى سلس لهم قيادها ، وطبعتهم هى كذلك بطابعها ، حتى أصبحوا عنصراً هاماً من عناصرها .

والبجه فى الوقت الحاضر ، ينقسمون إلى أربع قبائل كبيرة هى : البشاريون فى الشمال ، يليهم جنوباً الأمرأر ، ثم الهدندوه ، ثم بنى عامر ؛ ويمتد هؤلاء من طوكر فى الشمال ، إلى داخل حدود إرتريا فى الجنوب . وفضلا عن هذه القبائل الأربع الكبيرة ، توجد بعض القبائل الصغيرة ، مثل الأشراف والأرتيقا والكميلاب والحالنقا وغيرهم [2] .

* * *

مما لا شك فيه أن البجه من أقدم العناصر التى سكنت وادى النيل . وتتفق آراء الباحثين ، على أن أسلاف أولئك البجه من الحاميين الذين عبروا البحر الأحمر من جزيرة العرب ، فى زمن معرق فى القدم ، واستقروا حيث تعيش سلالتهم فى الوقت الحاضر ؛ وذلك منذ عمّر المصريون القدماء وادى النيل فى بلاد النوبة ومصر . ويرى سلجمان

(١) المصدر السابق ، ص ٢٥

(٢) Hamilton, J. A. de C., ed : The Anglo Egyptian Sudan from Within. p, 140,

أن أسلاف البجه والمصريين القدماء في عصر ما قبل الأسرات من سلالة واحدة [١] .
أن اختلاف طبيعة البيئة في كل من أوطان البجه ومصر ، سلكت بكل منهما أسلوباً في الحياة غير مختلفاً عن الآخر . ويبدو الشبه أوضح ما يكون بين البجه ، وبين المصريين القدماء ، في شعبة بني عامر ، الذين يتحدثون لغة تجرى السامية ، وهي اللغة التي أخذها أسلافهم عن الغزاة والفاتحين من جنوب الجزيرة العربية . ولم يختلط أولئك الغزاة الساميون بالبجه المفتوحين مدة طويلة ، فحافظ هؤلاء على صفاء جوهرهم ، على حين أن بقية البجه من الهدندوة وبني عامر والأمرأر والبشارين ، تسربت إليهم دماء عربية ، نتيجة التزاوج والاختلاط بالعناصر العربية ، التي دخلت بلادهم من الشمال ، عن طريق مصر ، مما كان له أثره الواضح في تعديل صفاتهم الجثمانية ، مع تمسكهم بعاداتهم وتقاليدهم الحامية ولغتهم التبداوية [٢] . وعلى هذا فالبجه — في رأي پول — شعب حامي سامي، ينقسم إلى مجموعتين رئيسيتين : إحداهما جنوبية حافظت على صفاء جوهرها الحامي ، لقلة اختلاطها بالعناصر السامية ، ولكنها أخذت عن الساميين لغتهم . ويمثل هؤلاء معظم بني عامر . وثانيتهما شمالية ، وهي أقل صفاء ، لاختلاطها بالعرب ، غير أنها تبدو في مظهرها أكثر تمسكا بالعادات والتقاليد واللغة الحامية ، وإن كان أفرادها يعرفون اللغة العربية ، ويمثل هؤلاء بقية البجه [٣] .

* * *

من الضروري أن نشير هنا إلى أن المؤلفين العرب في العصور الوسطى ، لم يكونوا أول من أطلق اسم البجه أو البجاه على سكان الصحراء الشرقية وما يليها جنوباً إلى أطراف الحبشة . فإن لهذه التسمية أصولا تاريخية قديمة ، وإن لم تكن ثابتة ولا مطردة على مدى العصور . من ذلك مثلا ، أنه ورد في النصوص المصرية القديمة أن القائد المصري أوني ، جند عسكراً من رجال القبائل الجنوبية ، من بينها قبيلة « مازوي » لقمع ثورة في فلسطين ، زمن الملك ببي الأول ، وأن رجال هذه القبيلة أيضا ساعدوا هذا القائد في حفر قناة وسط صخور الجندل الأول ، في عهد الملك مرنرع [٤] .

---

(١) Seligman : « Some Aspects of the Hametic Problem in the Anglo Egyptian Sudan .J. R. A. S. No. 43, 1913, pp. 606-607.

(٢) Paul, A. : A History of the Beja Tribes of the Sudan, pp. 23-25.

(٣) Ibid : op. cit.

(٤) Weigall, A. E. P. : A Report on the Antiquities of Lower Nubia, p. 5.

وجاء فى النصوص المصرية القديمة ، التى ترجع إلى عهد الملك تحتمس الثالث ، أن قبيلة « بوكا » أو « بوكاك » ، من بين القبائل الجنوبية التى أخضعها المصريون لسلطانهم . ولعل هؤلاء هم الذين ورد ذكرهم فى نقش أكسومى يرجع إلى القرن الرابع الميلادى باسم بوجايتاى "Bugaitae" [١] .

غير أن اسم البجه ورد صريحاً من غير تحريف على النقوش الأكسومية التى خلفها ملوك أكسوم ، منذ القرن الثانى أو الثالث قبل الميلاد . وبعض هذه النقوش تسجل انتصار أولئك الملوك على قبائل البجه وقمع حركاتهم . والبعض الآخر يتضمن ذكر ألقاب ملوك أكسوم ، والشعوب الخاضعة لهم ، ومن بينها قبائل البجه . ولعل أقدم هذه النقوش الأكسومية ، نقش عدول الذى يشير إلى انتصار أحد ملوك أكسوم على البجه [٢] .

وفى نقش خلفه عيزانا ملك أكسوم تخليداً لانتصاره ، على مملكة مروى سنة ٣٥٦ م ورد اسم البجه ضمن الشعوب التى أحرز عليها هذا الملك نصراً ، وقبض على ملوكهم الستة [٣] . ويتضمن نقش آخر لهذا الملك ذكر الألقاب التى يحملها وهى « ملك أكسوم ، وحمير ، وسبايو والبجه ، وكاسو [٤] ، ملك الملوك » [٥] .

وثمة أهمية خاصة لهذه النقوش ، ذلك بأنها تشير فى كثير من المواضع إلى أوطان أولئك البجه ، وهى فى جملتها تنطبق على الأوطان الحالية للبجه ، سواء فى شمال الحبشة ، أو فى جبال البحر الأحمر ، أو قرب نهر أتبرا ، أو فى الصحراء الشرقية إلى حدود مصر الجنوبية . على أن ادعاء ملوك أكسوم السيطرة على البجه ، لا ينصرف إلى كل البجه ، بل إلى الجنوبيين منهم حتى قرب موضع سواكن الحالية ، وهى أقصى منطقة امتد اليها نفوذ دولة أكسوم شمالا ، على حين أن بقية البجه ، كانوا خاضعين لنفوذ دولة مروى [٦] .

وفى الوقت الذى كان يطلق فيه على القبائل البدوية التى تسكن الأقاليم الواقعة بين النيل والبحر الأحمر جنوبى مصر — كلها أو بعضها — اسم « بجه » ، نرى الكتاب

(١) Beckett, H. W. : The Archaelogical Survey of Nubia, vol. II, 1907-8. pp. 360-367.

(٢) Paul, A. : op. cit. pp. 44-45.

(٣) Woolley—Maciver : Karanog, p. 88 ; Paul, A. : op. cit. p. 44.

(٤) لعل المقصود بلفظ كاسو هنا كاش أو كوش ، وهى - وقتذاك - دولة مروى .

(٥) Arkell, A. J. : A History of the Sudan, p. 172.

(٦) Woolley—Maciver : op. cit. p. 88.

القدماء من اليونانيين والرومان يطلقون على هؤلاء اسم « بليميين » (Blemmyes) .
وأول إشارة إلى أولئك البليميين وردت فى مؤلفات الشاعر اليونانى ثيوقريت ، وقال إنهم يسكنون فى أقصى الجنوب قرب منبع النيل ، بيد أن إراتوسطينى الجغرافى اليونانى (٢٧٦ — ١٩٦ ق م) ذكر أن البليميين والميجاباريين يسكنون المنطقة السفلى من اثيوبياء وعلى طول النيل حول مروى ، وتمتد أوطانهم من النيل شرقاً إلى الصحراء الشرقية .

وتشير الوثائق الديموتيقية فى العصر البطلمى (القرن الثانى قبل الميلاد) إلى وجود جماعات من البليميين فى صعيد مصر . ويبدو أن أولئك البليميين من سلالة البليميين الذين انخرطوا فى صفوف الجيش البطلمى . كما عثر على رسالة ، تشير إلى وجود مستعمرات بليمية ، قرب جزيرة فيلة [١] .

ويذكر سترابون ، أن النوبيين والليبيين يعيشون على الجانب الغربى للنيل ، وأن البليميين والميجاباريين يسكنون الناحية الشرقية من النيل جنوبى الشلال الأول ، وحول مدينة مروى ، ويمتدون شرقاً إلى البحر الأحمر [٢] .

وتزخر الوثائق ومؤلفات الكتاب القدماء من اليونان والرومان ، بأخبار الصراع المرير بين الرومان فى مصر وبين البليميين ، وقد اشتد هذا الصراع منذ القرن الثانى للميلاد ، حيث اتخذوا مدينة كلابشة بالنوبة السفلى عاصمة لهم [٣] غير أن هذه المنطقة لم تصبح الوطن الوحيد للبليميين وقتذاك ، بدليل أن المؤرخ اليونانى أليمبيودوروس (Olympiodorus) زار جماعات البليميين فى أرض النوبة السفلى ، دوديكاشينوس (Dodekaschoinos) ، ثم زار بقية البليميين الذين يعيشون فى الصحراء الشرقية ، حيث توجد مناجم الزمرد [٤] .

وأهم مصدر يشير إلى طرد البليميين من منطقة دوديكاشينوس فى حوالى منتصف القرن السادس الميلادى نقش الملك سلكو على جدران معبد كلابشة ، إذ حاربهم هذا الملك وطردهم إلى مواطنهم الأصلية فى الصحراء الشرقية . يؤيد هذا قول المؤرخ الرومانى بروكوبيوس ونصه :

---

(١) Kirwan, L. P. : The Oxford University Excavations at Firka, pp. 46-47.

(٢) Strabo : The Geography, vol. VIII, P. 7.

(٣) Kirwan, L. P. : Liverpool Annals of Archaelogy and Anthropology, XXIV, 1937, p. 76.

(٤) Ibid : *op. cit.*

« إن شعوباً كثيرة من بينها النباطيون والبليميون تعيش فى المنطقة الممتدة من أكسوم إلى الحدود المصرية عند الفنتين ، بيد أن البليميين يسكنون الجهات الوسطى ، ويحتل النباطيون ضفتى النيل [1] .

غير أننا لم نعد نسمع عن أولئك البليميين شيئاً بعد القرن السادس الميلادى . ومنذ الفتح العربى لمصر فى القرن السابع الميلادى ، عاد إلى تلك القبائل البدوية اسمها القديم « البجاه » مما يدعونا إلى التساؤل ، ما مصدر تسميتهم بالبليميين فى العصر البطلمى ثم الرومانى فى مصر ؟

إن ثم رأياً يقول ، إن البليميين فى وادى النيل ، والبلما (Bilma) — الذين تعيش سلالتهم حالياً جنوبى فزان وإلى الشرق من جماعات التبو — شعب واحد ، ومن سلالة واحدة [2] . بيد أن هذا الرأى لا يمكن قبوله لعدم وجود ما يدل على قيام علاقة بين هذين العنصرين . وعلى العكس من هذا فإن لدينا ما يثبت أن اسم «البجه» — وهو الاسم القديم لسكان الصحراء الشرقية — ظل يطلق على أولئك السكان أنفسهم ، فى الوقت الذى كانوا يعرفون فيه لدى الكتاب الكلاسيكيين ، فى العصرين البطلمى والرومانى فى مصر باسم « بليميين » . من ذلك ما ورد فى تاريخ حياة الأنبا شنودة رئيس رهبان دير بانوبوليس (أخميم) ، فى منتصف القرن الخامس الميلادى وعلاقته بالبليميين ، إذ يشير النص المكتوب باللغة القبطية أواخر القرن السادس الميلادى إلى هؤلاء باسم (Balnemowi) ، ولما ترجم الأصل القبطى القديم ، الذى كتبه أحد تلاميذ الأنبا شنودة ، فى القرن الخامس الميلادى إلى اللغة العربية ، فى القرن الثالث عشر الميلادى ، حل لفظ « البجا » محل لفظ « بالنموى » وهم البليميون بطبيعة الحال [3] .

فضلا عن هذا ، فان التاجر المصرى كوزمس (Cosmas) ، تعرض لذكر سكان الصحراء الشرقية فى كتابه الذى ألفه بين سنتى ٥٣٥ — ٥٤٧ م فذكر فى موضع من كتابه أن « البجه » من سكان الصحراء الشرقية الذين أخضعهم بطلميوس بن أرسينوى لسلطانه [4] .

---

(١) Procopius, History of the Wars, p. 185.

(٢) Beckett, H. w. : Arch. Sur. Nubia, II, 1907-1908, p. 367.

(٣) Kirwan, L. P. : *op. cit.* pp. 69-73.

(٤) MacCrindle, ed. : The Christian Topography of Cosmas, p. 62.

وفى موضع آخر يقول : « إن الأحباش يحصلون على معدن الزمرد من البليميين ، ويبيعونه لتجار الهند مقابل الحصول منهم على المنسوجات الهندية الفاخرة »[١] .

يبدو أن اسم « البليميين » لم يكن عاماً شاملا لجميع سكان الأقاليم التى يسكنها البجه فى الوقت الحاضر ، وإنما انصرف فقط إلى شعبة أو أكثر من أولئك البجه ، ولا سيما القريبين من الحدود الجنوبية لمصر ، وهم الذين سيطروا على مناجم الذهب والزمرد فى الصحراء الشرقية ، واحتلوا إقليم دوديكا شينوس فى النوبة السفلى زمن الرومان فى مصر . ومع هذا فإن هؤلاء كانوا ما يزالون يعرفون ، وتتذاك أيضا ، باسم « البجه » : كما سبق أن أوضحنا. أما بقية البجه ولاسيما الجنوبيون منهم ، فانهم احتفظوا باسمهم القديم الذى عرفوا به فى النقوش الأكسومية .

والراجح أن البليميين هؤلاء طبقة أرستقراطية ، استطاعت بما لديها من خبرات آلية جديدة ، وصفات حربية ممتازة ، أن تسيطر على مجموعة كبيرة من البجه الشماليين ، مدة ثمانية قرون على الأقل ؛ وأن تستعين بهم على تحقيق مصالحها الاقتصادية والحربية التوسعية ، زمن البطالمة والرومان . ولما تخلخل سلطان هذه الطبقة الحاكمة فى القرن السادس الميلادى عاد الاسم القديم « البجه » إلى هذه القبائل ، وبه عرفوا فيما بعد .

بيد أنا نسمع فى القرنين الثانى عشر والرابع عشر للميلاد ، عن وجود جماعة من « البليين » فى الصحراء الشرقية ، ويتصفون بصفات تشبه الصفات التى اشتهر بها البليميون زمن الرومان ، فيقول الإدريسى « . . . وبين أرض النوبة وأرض البجة ، قوم رحالة يقال لهم البليون ، ولهم صرامة وعزم ، وكل من حولهم من الأمم يهادنونهم ، ويخافون ضرهم ، وهم نصارى خوارج على مذهب اليعقوبية ، وكذلك جميع أهل بلاد النوبة والحبشة . . . »[٢] . ويقول الإدريسى فى موضع آخر : « . . . وربما أغار على أطرافها (أى مدينة أسوان) ، خيل السودان المسمين بالبليين ، ويزعمون أنهم روم ، وأنهم على دين النصرانية من أيام القبط ، وقبل ظهور الإسلام ، غير أنهم خوارج فى النصارى يعاقبه ، وهم متنقلون فيما بين أرض البجة وأرض الحبشة ، ويتصلون ببلاد النوبة . وهم رحالة يتنقلون ولا يقيمون بمكان ، مثل ما تفعله لمتونة الصحراء الذين هم بالمغرب الأقصى .. »[٣] .

---

(١) Kirwan, L. P. : *op. cit.*, pp. 69-70.

(٢) الإدريسى : نفس المصدر ، ص ٢٧

(٣) المصدر السابق ، ص ٢١

ويصفهم ابن الوردى فى القرن الرابع عشر الميلادى ، بصفات لا تخرج كثيراً عما ذكره عنهم الإدريسى ، ومنها قوله : « . . . وبين البجة والنوبة ، قوم يقال لهم البليون ، أهل عزم وشجاعة يهابهم كل من حولهم من الأمم ، ويهادوهم ، وهم نصارى خوارج على مذهب اليعقوبية . . »[1] .

من هذه النصوص يمكننا أن نخرج بعدة حقائق منها :

(أولا) أن أولئك البليين من السودان ، وأن مواطنهم تقع بين بلاد النوبة ، وأوطان البجه ، وبلاد الحبشة .

(ثانيا) أنهم من البدو غير المستقرين .

(ثالثا) أن فيهم نزعة حربية ، وميلا للإغارة على جيرانهم .

(رابعا) أنهم على النصرانية التى اعتنقوها قبل ظهور الإسلام . ويبدو من تحديد أوطان أولئك البليين على هذه الصورة أنهم كانوا يعيشون فى الصحراء الشرقية ، لكن وصفهم بأنهم من السودان ، يجعلنا نتساءل : من أى السودان هم ؟ هل هم من النوبة أو من البجه ؟

المعروف أن النوبيين شعب مستقر ، يمارسون الزراعة على ضفتى النيل ، على حين أن البجه بدو ، يمارسون حرفة الرعى[2] . والراجح أن البليين هؤلاء من البجه ، لا من النوبة بدليل قول الإدريسى : « وهم رحالة يتنقلون ولا يقيمون بمكان » . ولو صح هذا ، فإنهم ينسبون إلى البليميين الذين عرفهم البطالمة والرومان من قبل . وبمعنى آخر يمثلون الطبقة الأرستقراطية الحاكمة ، التى عرف بها البجه ، خلال هذين العصرين . يؤيد ذلك ، وصف البليين بأن فيهم نزعة حربية ، وميلا إلى الحروب والإغارة على جيرانهم ، مثلما عرف عن أسلافهم البليميين زمن الرومان . يضاف إلى هذا أنهم ليسوا حديثى عهد بالهجرة إلى تلك الأوطان ، بل إن عهدهم بها قديم ، بدليل اعتناقهم المسيحية فى أوطانهم هذه » قبل ظهور الإسلام .

والراجح أن البليين الذين أشار إليهم كل من الإدريسى وابن الوردى فى القرنين الثانى عشر والرابع عشر للميلاد ، هم بقايا البليميين[3] ، الذين بسطوا سلطانهم على مجموعة

---

(١) ابن الوردى : كتاب خريدة العجائب ، نشر تورنبرج ، ص١٧٠

(٢) Kirwan, L. P. : Firka, *op. cit.* p. 39.

(٣) Kirwan, L. P. Liver. Ann. Arch. Anth. *op. cit.*, pp. 69-75.

من البجه الشماليين فى العصر البطلمى ثم الرومانى فى مصر ، وكونوا طبقة حاكمة عرفوا بها أحيانا كثيرة . وإذا سلمنا بأن البليين من بقايا البليميين القدماء ، وأن البليميين هؤلاء كونوا طبقة حاكمة ، بسطت نفوذها على مجموعة كبيرة من البجه ، فهل يعنى هذا أن البليميين وخلفاءهم البليين هم والبجه المحكومين من أصل واحد ومن سلالة واحدة ؟

ليس من الضرورى أن يكون ذلك كذلك . ومن الجائز أن يكون لكل من هذين العنصرين نشأة مستقلة وأصل مختلف . غير أن هذا لا يعنى أن الحاكمين والمحكومين ظلوا طبقتين منفصلتين تماما ، بل لابد أن يكون هذان العنصران اختلطا ببعضهما عن طريق الزواج ، لا سيما إذا عرفنا أن الزواج كان وسيلة لدعم حق جماعة فى بسط سلطانها ونفوذها على جماعة أخرى ، عن طريق وراثة الأم ، وهو النظام السائد عند الجماعات الحامية ، ومن بينهم البجه بطبيعة الحال . ولابد أن هذا الاختلاط ، أدى إلى صبغ الطبقة الحاكمة وهم البليميون بصبغة الجماعات المحكومة من البجه ، بدليل قول الإدريسى ، إن البليين « من السودان » . بيد أن هذه الصبغة السودانية ، وإن تناولت بعض الخصائص الجثمانية والعادات والتقاليد ، التى اكتسبوها عن البيئة البجاوية ، إلا أنها — فيما يبدو — لم تمس فى كثير بعض الخصائص الثقافية ومظاهرها التى عرف بها البليميون زمن الرومان ، ولا تلك التى ورثها سلالتهم البليون زمن الإدريسى. ولعل أبرز ظاهرة ثقافية اختص بها أولئك البليون هى استخدامهم الخيول فى الحرب ، بدليل قول الإدريسى فى حديثه عن مدينة أسوان ونصه : « . . . وربما أغار على أطرافها خيل البليين . . » والمعروف عن البجه أنهم ينفرون من الخيل [1] ، ولا يقبلون على تربيتها أو استخدامها . وليس لدينا — فيما أعلم — دليل على استخدام البجه للخيول وسيلة من وسائل الحرب أو النقل. فلم نعثر على إشارة واحدة فى كتب المؤلفين العرب أو غيرهم فى العصور الوسطى ، على استخدام البجه للخيل ، إنما جل اعتمادهم على الإبل ، التى أبدوا براعة فائقة فى تربيتها ، ومن ثم أقبلوا على اقتنائها حتى أضحت جزءاً من حياتهم . وإذا كان من غير المعروف تماما ، متى بدأ البجه يربون الإبل ، فإن براعتهم فيها اليوم ، تدل على قدم عهدهم بها [2] ، وأما دخول الخيل إلى أوطان البجه — فيما يبدو — فكان أحدث نسبياً ،

---

(١) Paul, A : op. cit. p. 67.

(٢) محمد عوض محمد : السودان الشمالى ، ص ٣٠ — ٣١

واقتصر اقتناؤها على البليين سلالة البليميين ؛ مما يدعو إلى الاعتقاد أن دخول الخيول إلى أوطان البجه ، اقترن بظهور الطبقة الأرستقراطية الحاكمة من البليميين ، ويعزز رأينا فى أن الطبقة الحاكمة ، وهم البليميون ، والطبقة المحكومة ، وهم البجه ، من شعبين مختلفين . وإذ وضح لنا أن البجه من الحاميين ، فإلى أى السلالات إذن ينتسب البليون وأسلافهم البليميون ؟

الراجح أن هؤلاء وأولئك ، أى البليين والبليميين يرجعون إلى أصل عربى . ذلك أن عهد العرب بتربية الخيول واستخدامها فى الحرب وغيرها قديم جداً ، وإن كانت صلتهم بالإبل وشهرتهم بها ، لا تقل عن شهرتهم باقتناء الخيل وقدم عهدهم بها كذلك . ونجد تأييداً للقول بأن البليين من العرب فى مدلول لفظ بليميين أو بليين فى اللغة التبداوية ، أى لغة البجه . ذلك أن البجه يطلقون على العرب فى لغتهم التبداوية هذه اسم بلاوى Belawye . يقول الشيخ محمد ابراهيم مؤرخ الأمرأر : « إذا سألت بجاوياً : هل تعرف اللغة العربية ؟ فإنه يجيبك بقوله : بلاويت كاكان Balawit Kakan ، أى: إننى لا أعرف العربية » (١) .

وثمة ملحوظة هامة هنا هى أننا نسمع ، فى القرن السادس عشر الميلادى ، بوجود جماعة تدعى البلو Balloos تسكن شمالى الحبشة . وأول من أشار إلى أولئك البلو القسيس البرتغالى الفارز ، الذى زار الحبشة فى المدة من ١٥٢٠ إلى ١٥٢٧م ، وقال : « إن جماعة من العرب تدعى البلو ، يسكنون على حدود الحبشة ، ويجاورهم من الشمال النوبيون Nubii ، وهم على علاقة طيبة بملك الحبشة ويقدمون إليه إتاوة من الخيول . ويبدو أن أولئك البلو من بقايا البليين الذين أشار اليهم الإدريسى وابن الوردى ، وأن أولئك البليين انتقلوا فى القرن الخامس عشر إلى الجنوب بعد أن اضمحل نفوذهم فى الشمال وأقاموا ، فيما هو معروف اليوم بأوطان بنى عامر ، مملكة عرفت وقتذاك باسم « مملكة البلو » واشتهر أولئك البلو دون سواهم ممن جاورهم من البجه والحبشة باستخدام الخيل وبراعتهم فى تربيتها (٢) .

والراجح أن اسم البليين أو البليميين ، ارتبط ثقافيا وفيلولوجيا بالأصل العربى . ومعنى هذا أن ثم علاقة كانت قائمة فعلا بين وادى النيل من ناحية وبين الجزيرة العربية من ناحية

---

(١) Crawford, O. G. S. : The Fung Kingdom of Sennar p. 110.

(٢) Ibid. op. cit. pp. 111-112.

أخرى على مدى العصور . وهذه ظاهرة تؤيدها الحقائق الجغرافية والروايات التاريخية . ذلك أن البحر الأحمر لم يكن حاجزاً يمنع الاتصال بين شواطئه الآسيوية العربية وشواطئه الأفريقية ، إذ لا يزيد اتساع هذا البحر على المائة والعشرين من الأميال عند السودان ، وليس من الصعب اجتيازه بالسفن الصغيرة .

أما فى الجنوب فيضيق البحر الأحمر ضيقاً واضحاً عند بوغاز باب المندب ، وهو الطريق الذى سلكته السلالات والأجناس إلى القارة الأفريقية منذ عشرات الآلاف من السنين [١] .

ولعل التجارة كانت أهم وسيلة لهذا الاتصال . إذ نشطت حركة تجارة العاج والصمغ واللبان والذهب ، بين الجزيرة العربية من ناحية ، وبين موانى مصر والسودان والحبشة من ناحية أخرى . واتخذ التجار العرب من بعض نقط على الساحل الأفريقى ، مراكز لهم يوغلون منها بسلعهم وبضائعهم فى قلب القارة الأفريقية حتى وادى النيل على الأقل . وفى الألفى سنة قبل الميلاد ، هاجرت جماعات عربية من جنوب غربى الجزيرة العربية إلى الحبشة . وبلغت هذه الهجرات أقصاها ما بين ١٥٠٠ — ٣٠٠ ق م ، فى عهد دولتى معين وسبأ . وحمل المعينيون والسبئيون لواء التجارة فى البحر الأحمر ، ووصلوا فى توغلهم غرباً إلى وادى النيل ، ونشطت حركة التجار العرب خاصة زمن البطالمة والرومان . ولا شك أن عدداً غير قليل من هؤلاء استقروا فى أجزاء مختلفة من حوض النيل ، ولحق بهم عدد من أقاربهم وأهليهم . وفى القرنين السابقين للميلاد ، عبر عدد غير قليل من الحميريين (أهل اليمن) ، مضيق باب المندب ، فاستقر بعضهم فى الحبشة ، وتحرك بعضهم الآخر متتبعاً النيل الأزرق ونهر أتبرا ، ليصلوا عن هذا الطريق إلى بلاد النوبة .

وورد فى القصص العربى القديم ، أنباء حملات عسكرية [٢] قام بها الحميريون فى وادى النيل الأوسط وشمال أفريقية ، وتركت هذه الحملات وراءها جماعات استقرت فى بلاد النوبة وأوطان البجه وشمال افريقية . ومن الروايات العربية القديمة ، رواية أوردها ابن خلدون عن حملة قادها أبرهة ذى المنار بن ذى القرنين الحميرى على السودان ، وبلاد النوبة ، وبلاد المغرب ، حوالى أوائل القرن الأول الميلادى . ويشير دى برسفال

---

(١) محمد عوض محمد : السودان ووادى النيل ، ص ٢٨

(٢) MacMichael, H. A. : A History of the Arabs in the Sudan, vol. I, pp. 3-4.

إلى حملة قادها أبو مالك بن شمر يرعش الحميرى إلى معادن الزمرد فى أوطان البجه [1] . ويرى ريد Reid أن هؤلاء الحميريين اختلطوا بالحاميين سكان شرق السودان — وهم البجه — وورثوا ملك أجدادهم من ناحية الأم حسبما يقضى به نظام التوريث المعروف عن الشعوب الحامية ، وهو توريث ابن الأخت أو ابن البنت . وممن انتفع بهذا النظام الوراثى من العرب — جماعة من الحضارمة ، سكان حضرموت — الذين عبروا البحر الأحمر إلى ساحله الأفريقى فى القرن السادس الميلادى ، ثم اختلطوا بالبجه ، وكونوا طبقة حاكمة خضع لها هؤلاء البجه المعروفون بالزنافج ، وتعلموا لغتهم ، واعتنقوا المسيحية حتى يسهل عليهم قيادتهم والسيطرة عليهم . وعلى الرغم من أن عدد هذه الجماعات العربية المهاجرة إلى السودان لم يكن كبيراً ، فمما لا شك فيه أنها تركت بعض آثارها الثقافية فيمن اختلطت بهم من الشعوب الحامية التى تسكن وادى النيل وقتذاك .

أما الطريق الشمالى ، وهو طريق برزخ السويس ، فذو دور خطير فى تاريخ العلاقات بين سكان الجزيرة العربية وسكان وادى النيل الأدنى ، منذ فجر التاريخ . ولم تخل الآثار المصرية القديمة من الإشارة إلى بدو سيناء وفلسطين وسوريا وغيرهم من العرب الشماليين الذين عرفتهم مصر منذ عهد الأسرات الأولى ، إما تجاراً يختلفون إلى الأسواق المصرية أو غزاة كالهكسوس أو مهددين لمصالح الامبراطورية المصرية فى سوريا ، أو لاجئين يرغبون العيش فى كنف الفراعنة . ومهما يكن من أمر هذه العلاقات ، فإنها طبعت اللغة المصرية القديمة بالطابع السامى . ولم تنقطع صلة هذه العناصر العربية بمصر زمن البطالمة والرومان كذلك . من ذلك ما يشير إليه سترابون (٦٦ — ٢٤ ق م) ، وبلينى (حوالى ٧٠ م) من تكاثر العرب على أيامهما فى أعالى صعيد مصر ، واشتغال هؤلاء بنقل المتاجر عبر الصحراء الشرقية ، فيما بين النيل والبحر الأحمر [2] .

وإذا كان من غير المعروف ، من أى قبائل العرب هؤلاء ، فالراجح أنهم أو معظمهم على الأقل من قبيلة بَلى القحطانية . إذ المعروف أن قبائل بلى كانت تنزل سيناء ، وأن مواطنهم امتدت إلى برزخ السويس [3] . وليس ببعيد أن تكون جماعات منهم ،

---

(١) ابن خلدون : العبر ، جـ ١ ، ص ١٧٦

(٢) جرجى زيدان : العرب قبل الإسلام ، ص ١٩٤

(٣) الهمدانى : صفة جزيرة العرب ، جـ ٤ ، ص ١٣٠

قد تجاوزوا إلى الصحراء الشرقية كما فعل الأنباط [1] . وقد تكون هجرتهم هذه سابقة للقرن الأول الميلادى أو القرن السابق له . إذ قد ترجع مطالع هذه الهجرة إلى القرن الثالث قبل الميلاد ، حين بدأ اهتمام البطالمة بتجارة البحر الأحمر ، وإنشاء الموانى على طول ساحله الأفريقى ، مثل برنيس وبطلميوس ثيرون (موضع عقيق الحالية) ، وغيرهما للحصول على السلع الأفريقية الضرورية كالبخور وسن الفيل وأصداف السلاحف والفيلة والعبيد . على أنه ما كان ليتم للبطالمة تحقيق مشروعاتهم التجارية فى البحر الأحمر ، دون الاستعانة بالعناصر الوطنية فى منطقة الظهير ، واستخدامها فى صيد الفيلة ، ونقل المتاجر فيما بين النيل وموانيهم على البحر الأحمر . ولما كان من طبيعة الوطنيين من سكان منطقة الظهير — وهم البجه — النفور من كل غريب يهبط الساحل ، وعدم الاستجابة للبحر وما يجرى فيه من نشاط ، كان من الضرورى ، أن يلجأ البطالمة إلى استخدام عناصر أجنبية من مرتزقة اليونان ، وبعض الجماعات العربية ، ولا سيما من قبائل بلى ، للقيام بهذا العمل . ولا بد أنه أنيط بالجماعات العربية من بلى — وهم ذوو خبرة يشقون الصحراء — القيام بعمليات النقل البرى ، والمحافظة على خطوط المواصلات بين النيل والبحر الأحمر [2] ، ضد أى هجوم محتمل من جانب قبائل البجه ، وهى القبائل التى وصفت آنذاك بالتوحش والهمجية [3] . ويبدو أن الجماعات العربية من بَلى كانت من القوة والكثرة العددية بحيث غدا اسمها فى اللغة التبداوية مرادفا للفظ عرب أو عربى .

وعلى الرغم مما عرف عن أولئك البجه من النفور من كل غريب يطأ بلادهم ، فقد أتيح للعناصر العربية من بَلى أن تختلط بقبائل البجه ، ولا سيما الشماليين منهم ، وأن تبسط سلطانها على معظم هذه القبائل عن طريق الزواج ، وما يترتب عليه من حقوق حسبما يقضى نظام وراثة الأم ، وبذا سلس لقبيلة بلى قيادهم واستخدامهم فى تحقيق أغراضهم السياسية التوسعية والاقتصادية كما سبق أن ذكرنا . وغدت هذه القبائل البجاوية التى سيطرت عليها بَلى تعرف عند اليونان والرومان باسم الطبقة الارستقراطية الحاكمة محرفا إلى Blemmyes أى بليميين .

* * *

---

(١) عبد المجيد عابدين : البيان والاعراب ، للمقريزى ، ص ٨٩

(٢) C/f. Pliny : Natural History, II, p. 463.

(٣) Paul, A. op. cit. PP. 34-35.

وإذا كان البطالمة استطاعوا أن يستعينوا بأولئك البليميين كجنود فى بعض فرق الجيش البطلمى وسلاح الحدود وأدلاء وحرس للطرق التجارية عبر الصحراء الشرقية [1] ، فإن أولئك البليميين ، ونقصد بهم هنا الطبقة الحاكمة ، لم يلبثوا أن أخذوا يعملون لمصالحهم الخاصة بعد زوال الحكم البطلمى فى مصر . فالرومان الذين خلفوا البطالمة فى حكم مصر منذ سنة ٣٢ ق م ، لم يهتموا كثيراً باستغلال مناجم الذهب والزمرد فى الصحراء الشرقية كما كان يفعل البطالمة من قبل . ثم إن الرومان انصرفوا عن تجارة البحر الأحمر ، ولم يهتموا بتأسيس مراكز تجارية على طول ساحله ، ولا رعاية المراكز التجارية التى أسسها البطالمة من قبل ، إنما اتجه الرومان فى سياستهم التجارية الجديدة ، إلى الحصول على منتجات الهند وشرق أفريقية ، وانتزاع سيادة عرب جنوب الجزيرة العربية على البحار الجنوبية ، ولا سيما بعد أن وقفوا على سر استخدام دورة الرياح الموسمية فى موسمى الشتاء والصيف ، والتعرف على قيمتها فى الوصول إلى الهند والعودة منها . ثم أدى اهتمام الرومان بتجارة الهند وشرق أفريقيا ، وسهولة الحصول عليها ، وكفايتها لسد حاجة الرومان ، إلى تدهور المراكز البطلمية على ساحل البحر الأحمر الأفريقى ، وأدى بالتالى إلى تأثر الطبقة الأرستقراطية الحاكمة من البليميين بهذا التحول . فقد حرم البليميون من السيطرة على طرق التجارة البرية ، وخدمة المراكز التجارية على ساحل البحر الأحمر ، وهى أعمال يبدو أنها كانت شبه احتكار لهم . وبذا فقد البليميون مورداً هاماً من موارد ثروتهم وقوتهم .

على أن انصراف الرومان عن تجارة البحر الأحمر وموانيه البطلمية ، لا يعنى — بحال من الأحوال — عدم اهتمامهم بتجارة حوض النيل الاوسط والأعلى وقلب أفريقيا ، بل حاولوا الحصول على هذه المنتجات عن طريق النيل والطرق البرية التى تصل مصر بالسودان . ولذا بدأ الرومان ببسط نفوذهم على إقليم دوديكاشينوس من أسوان إلى المحرقة « Hierosykaminos » ، وذلك لأهمية موقعه الاستراتيجى من ناحية ، وتحكمه فى الطرق المؤدية إلى الأقاليم الجنوبية من ناحية أخرى . واعتمد الرومان فى بسط نفوذهم على هذا الإقليم ، على حقهم الشرعى فيه باعتبارهم ورثة البطالمة فى حكم مصر [2] . غير أن دولة

---

(١) Griffith, FLl. Meroitic Studies, J. E. A. XV, 1929, p. 74.

(٢) Woolley—Maciver : Karanog, p. 85.

مروى لم تعترف للرومان بهذا الحق ، كما لم تعترف بالحدود القديمة التى امتد اليها نفوذ البطالمة من قبل . لكن الرومان استطاعوا أن يتغلبوا على محاولات دولة مروى لاسترداد هذا الإقليم أواخر القرن الأول قبل الميلاد ، وأوائل القرن الأول الميلادى ، كما استطاعوا أن يقيموا به حاميات عسكرية .

وفى منتصف القرن الأول الميلادى فكر الرومان فى غزو بلاد كوش كلها ، ولذا أرسل الامبراطور نيرون (٥٤ — ٦٨ م) بعثة إلى بلاد كوش ، لاستطلاع أحوالها ، ووصلت البعثة جنوباً إلى إقليم السدود . ولما جاء تقرير هذه البعثة الرومانية مخيباً لآمال الامبراطور ، فإنه عدل عن مشروعه ، واكتفى الرومان بعد بمحاولة إيجاد علاقات تجارية بينهم وبين سكان حوض النيل الأوسط والأعلى . ويبدو هذا الاتجاه واضحاً فى تمسك الرومان بإقليم دوديكاشينوس ، وتعزيز حامياتهم العسكرية فيه ، فضلا عن القيام بسلسلة من مشاريع التعمير التى يتطلبها هذا الاقليم . فأقاموا المعابد فى جزيرة فيلة وفى كلابشة ، وكشفوا طريق القوافل القديم الذى يؤدى إلى إقليمى كردفان ودارفور الغنيين بمواردهما الطبيعية ، كما أقاموا معبداً فى الواحة الخارجة . ومما لا شك فيه أن الرومان كانوا يهدفون ، من وراء هذا كله ، إلى قيام علاقات صداقة بينهم وبين القبائل التى تعيش فى الغرب وفى الجنوب ، لتحقيق أغراضهم التجارية [١] .

غير أن هذه السياسة الرومانية الجديدة لم يقدر لها النجاح تماماً بسبب موقف البليميين العدائى من مشروعات الرومان فى هذه الأقاليم ، وهى المشروعات التى أفقدت البليميين ما كانوا ينعمون به فى ظل الإدارة البطلمية ، ولذا أخذ أولئك البليميون ـ الذين استقرت بعض شعبهم فى جهات النوبة السفلى جنوبى المحرقة منذ عهد البطالمة ـ يشنون على الرومان حرباً لا هوادة فيها . ويظهر أن الحركات البليمية ضد الرومان ، اصطبغت بصبغة قومية ، بدليل اشتراكهم فى بعض الحركات القومية المصرية ضد الرومان سنة ٢٥٠ م . واتسعت دائرة هذه الحركات البليمية ، فشملت جهات طيبة وأسوان . ومع أن الرومان استطاعوا التغلب على هذه الحركات المعادية لهم سنة ٢٨٠ م ، إلا أنه بدا لهم صعوبة الاحتفاظ بمنطقة دوديكاشينوس ، لاستمرار إغارات البليميين [٢] .

---

(١) مصطفى مسعد : الإسلام والنوبة فى العصور الوسطى ، ص ٢٨

(٢) Woolley—Maciver : op. cit. P. 91.

اتجهت سياسة الامبراطور دقلديانوس ، إلى التخلى عن إقليم دوديكاشينوس ، على أن يحل النباطيون الذين كانوا ينزلون الواحة الخارجة ، محل الرومان فى المنطقة التى انسحبوا منها ، ليقوموا بدور المنطقة الحاجزة " Buffer State " بين البليميين فى الجنوب وبين الرومان فى الشمال . وقرر الامبراطور دقلديانوس للنباطين والبليميين إتاوة سنوية ، على ألا يقوموا بعمل عدائى ضد الرومان . فضلا عن ذلك ، فإن الامبراطور دقلديانوس ، رأى أن يستغل عاطفة البليميين الدينية ، فأقام معبداً فى جزيرة فيلة ، جمع فيه رموز عقائد البليميين والنباطين والرومان ، ليدل على أن رابطة دينية تجمع بين الرومان وهذه القبائل ، وتذكرها باحترام مواثيقها [١] .

لا يعنى انسحاب الرومان من منطقة دوديكا شينوس ، أنهم تخلوا عن مشروعاتهم التجارية فى قلب أفريقية ، بل حاولوا البحث عن حليف قوى ، والاعتماد عليه فى الحصول على تجارة الشرق (الهند والصين وشرق أفريقيا) ، وفتح طريق التجارة إلى قلب أفريقيا . فاتجه الرومان إلى دولة أكسوم ، لتوثيق علاقاتهم بها ، واستغلالها فى قمع حركات البليميين والنوبا كذلك . وبدت بوادر هذه السياسة على عهد الامبراطور أورليان ، واستمر اتصال التجار الرومان بدولة أكسوم ، حتى إذا كان عهد الامبراطور قنسطنطين الأكبر (٣١٣ - ٣٣٧ م) ، تم عقد معاهدة تجارية بين الرومان وملك أكسوم ، على يد التاجر الصورى فرومنتيوس[٢] . ثم اعتنق الملك عيزانا ملك أكسوم الديانة المسيحية سنة ٣٤٠ م ، على يد فرومنتيوس ، الذى عمده البطريرك أثناسيوس أسقفا لأكسوم [٣] . ويبدو الغرض التجارى لمهمة فرومنتيوس واضحاً ، حين قام الملك عيزانا بحملته المشهورة على مملكة مروى فى حوالى منتصف القرن الرابع الميلادى ، وذلك لتأديب النوبا والبجه (البليميين) ، الذين يغيرون على جيرانهم ، وليس من المستبعد أن يكون هذا تم بإيعاز من فرومنتيوس ، لفتح الطريق للتجارة إلى قلب حوض النيل من جديد [٤] .

غير أن هذه السياسة لم تضع حداً لحركات البليميين المعادية للرومان ، بل على العكس من هذا ، زادت حدتها . ذلك أن البليميين الوثنيين — وقتذاك — بدأوا يحسون بالخطر

---

(١) Ibid : op. cit. p. 92.

(٢) Trimingham, J. S. : Islam in the Sudan, P. 49.

(٣) Ibid : op. cit.

(٤) Bury, J. B. : History of the Later Roman Empire, II, p. 318.

المزدوج عن طريق أكسوم ، بعد اعتناق الملك عيزانا المسيحية ، وعن طريق مرسوم تاوداسيوس سنة ٣٨٥ م ، وهو المرسوم الذى قضى بإبطال جميع مظاهر الوثنية ، وجعل المسيحية الدين الرسمى فى الامبراطورية الرومانية . لذا بدأ البليميون سلسلة إغاراتهم على الأطراف الرومانية ، فاحتلوا معظم إقليم دوديكاشينوس ، وأغاروا على إقليم طيبة والواحة الخارجة سنة ٤٢٩ م [١] . ويدل اشتراك النباطيين مع البليميين فى الاعتداء على كنائس فيلة سنة ٤٤٥ م — وقد كانوا من قبل حماة هذه المنطقة — على أن هذين الشعبين أجمعا رأيهما على الوقوف فى وجه المسيحية أول الأمر [٢] . وإذا كان الرومان استطاعوا أن يرغموا النباطيين والبليميين على الخلود إلى السكينة مدة مائة عام ، بعد هزيمتهم على يد القائد الرومانى مكسيمينوس ثم فلورس ، فى منتصف القرن الخامس الميلادى ، إلا أن السماح لهاتين القبيلتين بالحج إلى فيلة ، وحمل تمثال معبودتهم إيزيس إلى أوطانهم ، يحمل على الظن أن الرومان لم يرغبوا حتى هذا الحين (منتصف القرن الخامس الميلادى) فى فرض المسيحية بالقوة على هؤلاء القوم .

وكيفما كان الأمر ، فان البليميين والنباطيين حافظوا من جانبهم على تنفيذ معاهدة الصلح التى عقدوها مع مكسيمينوس وفلورس ، وظلوا على ولائهم لمعبوداتهم بريابوس ومندوليس وخاصة إيزيس التى كانوا يحجون إلى معبدها فى فيلة كل عام [٣] .

ولعل ضخامة هذه المواكب ، وتجمعها كل عام فى قلب أسقفية فيلة وأسوان — حيث توجد الكنائس والأديرة المسيحية — أثار القلاقل من جديد مع قرب انتهاء أجل الهدنة ، لا سيما وأن النزاع بدأ يدب بين البليميين والنباطيين [٤] .

رأى الامبراطور جستنيان (٥١٧ — ٥٦٥ م) ضرورة القضاء على العبادات الوثنية فى فيلة ، على أن يسبق هذه الحركة طرد البليميين من منطقة دوديكا شينوس ، لتحكمهم فى المسالك المؤدية إلى فيلة . وانبرى لهذه المهمة سلكو ملك النباطيين الذى كان — فيما يبدو — على علاقة بالبيزنطيين بفضل ثيودور أسقف فيلة وأسوان . وشن الملك سلكو على

(١) Woolley—Maciver : *op. cit.*, p. 95

(٢) Emery, W. B. The Royal Tombs of Ballona and Qustul, vol I, p. 11

(٣) Kirwan, L. P. Liver. Ann. Arch. Anths. XXIV, p. 88

(٤) Beckett, H. W. : Arch. Sur. Nubia, Report for 1907-8, II, p. 365

البليميين حرباً شعواء سنة ٥٣٥ م [١] ، استطاع بعدها أن يطردهم إلى أوطانهم بالصحراء الشرقية ، كما يشهد بذلك المؤرخ المعاصر بروكوبيوس [٢] . وأدت هزيمة البليميين على يد الملك سلكو ، إلى كسر شوكة الطبقة الحاكمة من البليميين ، فدب الانقسام فى صفوفها ، وبذا زال خطرها .

* * *

أما عن موقف البليميين من الديانة المسيحية ، ولا سيما بعد أن غدت الديانة الرسمية للامبراطورية الرومانية ، فالمعروف أنهم وقفوا منها أول الأمر موقفاً عدائيا ، وتمسكوا بعباداتهم الوثنية . ومن الدلائل على ذلك ، بردية معاصرة لأواخر عهد الامبراطور تاوداسيوس الثانى (٤٠٨ — ٤٥٠ م) إذ تخبر هذه البردية عن إغارة البليميين على كنائس فيلة ، ولهذا التمس أبيون Appion أسقف أسوان والفنتين من هذا الامبراطور ، أن يكلف القائد الرومانى الذى ترابط قواته فى تلك المنطقة ، أن يحمى هذه الكنائس من إغاراتهم [٣] .

ومن تاريخ حياة الأنبا شنودة ، رئيس رهبان دير أخميم ، وأقواله مايدل على مدى ما تعرض له المسيحيون فى إقليم طيبة من شدائد وأهوال على أيدى البليميين أوائل القرن الخامس الميلادى . فيذكر الأنبا شنودة : أن البليميين كثيراً ما أغاروا على المسيحيين فى إقليم طيبة وحرقوا كنائسهم ، واضطر أولئك المسيحيون إلى الالتجاء إلى دير بانوبوليس ، حيث ظلوا مدة ثلاثة شهور ، يقدم لهم الرهبان خلالها الطعام والشراب ، وكثيراً ما شهر الأنبا شنودة السيف فى وجوه البليميين ، الذين كانوا يغيرون على دير أخميم . ونجح الأنبا شنودة فى حماية الدير من هجماتهم ، بعد أن عجز الرومان عن صدهم . على أن الأنبا شنودة ، لم يفقد الأمل ، أحياناً فى تنصير بعض أولئك البليميين . فكثيراً ماتمنى أن يهديهم الله سواء السبيل ، وأن يتبعوا الحق . ولقد أضاف الأنبا شنودة جماعة من البليميين فى دير أخميم فى منتصف القرن الخامس الميلادى ، وقدم لهم ما تيسر أملا فى اجتذابهم إلى صفوف المسيحيين [٤] . ثم انتهت حياة هذا الراهب الكبير فى إحدى المعارك التى نشبت بينه وبين بعض فئاتهم .

---

(١) De Villard, Ugo, Monneret De : Storia della Nubria Cristiana, pp. 56-57.

(٢) Procopins : *op. cit.*, p. 85.

(٣) Emery : *op. cit.*, p. 11.

(٤) Kirwan L. P. : *op. cit.*, p. 92.

والواضح أن البيزنطيين ، زمن الامبراطور جستنيان ، كانوا يهدفون من إثارة الخلف بين البليميين الوثنيين ، وبين النباطيين ـ الذين أخذت بعض فئاتهم تميل إلى المسيحية ـ إلى طرد البليميين من إقليم دوديكاشينوس ؛ لأنهم كانوا عقبة فى سبيل تقدم المسيحية إلى بلاد النوبة ، على أن يتلو ذلك ، القضاء على مظاهر العبادة الوثنية فى فيلة ، ومحاولة اجتذاب بعض فئات البليميين إلى الديانة المسيحية . وبذا يتسنى للبيزنطيين السيطرة على أوطان البليميين فى الصحراء الشرقية ، وكسب ولائهم عن طريق الوحدة الدينية المسيحية الجديدة . يبدو هذا الاتجاه البيزنطى الجديد واضحاً مما تشير إليه بعض الوثائق الخاصة بمنح البليميين إقطاعاً فى إقليم طيبة بمصر البيزنطية . فقد عثر على ثلاث وثائق مكتوبة باللغة اليونانية على رق غزال ، وربما ترجع هذه الوثائق إلى القرن السادس الميلادى . ففى الوثيقة الأولى : أن الملك البليمى شاراشن منح أولاده الثلاثة حكم جزيرة تنارى ، كما منحهم حق جباية الضرائب بها . ويلاحظ أن اسمى الشاهدين البليميين على هذه الوثيقة ، يحملان علامة الصليب . وفى الوثيقة الثانية ، أصدر ملك بليمى آخر ، اسمه پاكيتمن ، قراراً بتعيين پواى « Poae » القسيس « Lepius » ، حكم جزيرة تنارى . وهذا اللقب من الألقاب المعتادة فى الوثائق المسيحية . وقد اقترن اسم الملك فى هذه الوثيقة الثانية بعلامة الصليب ، مما يرجح اعتناق أولئك البليميين فى هذا الإقليم للديانة المسيحية . أما الوثيقة الثالثة ، فهى إيصال باستلام عشرة صلادى ذهباً [١] .

يبدو أن منح البليميين إقطاعاً فى الأرض المصرية كان جزءاً من سياسة البيزنطيين فى البحر الأحمر للقضاء على نفوذ الحميريين التجارى فى هذا البحر بالتعاون مع مملكة أكسوم المسيحية ، فضلا عن إغراء البليميين بالدخول فى المسيحية والسيطرة على أوطانهم الممتدة جنوب شرقى مصر إلى حدود أكسوم . ولهذا أرسل الامبراطور جوستن الثانى ، وبطريرك الكنيسة المصرية تيموتاوس رسلهما إلى ملك أكسوم لهذا الغرض ، وهو حرب الحميريين . وفى رواية أخرى أن الامبراطور هدد بإرسال جيش من البليميين والنوبيين لحرب الحميريين ، إذا تخاذلت مملكة أكسوم عن هذا الواجب المسيحى [٢] . ولا يبعد أن تكون جزيرة تنارى التى أقطعها الرومان لفريق من البليميين ، ثمناً لخدماتهم للدولة البيزنطية ، وقبولهم الدعوة المسيحية .

---

(١) Emery, W. E. : *op. cit.* p. 12; Kirwan, L.P. : *op. cit.* p. 87-91.

(٢) De Villard. U. M. De : *op. cit.* pp. 57-58.

ومما يدل على أن بعض البليميين اعتنق المسيحية ، ماجاء في بردية نشرها ماسبيرو ، وهي تشتمل على شكوى موجهة إلى حاكم طيبة البيزنطي فلافيوس ماريانوس « Flavius Marianus » ، ضد الفيلارك في منطقة طيبة واسمه كلوذوس « Kallothos » اتهم فيها بتحريض البليميين على إعادة فتح معبد فيلة من جديد والارتداد عن الاعتقاد بوجود إله أزلي والعودة إلى الوثنية « υπεδρεφοντο » . والراجح من هذه الوثيقة أن فريقا من البليميين اعتنق الديانة المسيحية ، بعد إغلاق معبد فيلة الوثني سنة ٥٣٥ م ، وأن كلوذوس أراد تحويلهم إلى الوثنية من جديد (١) .

ثم بدأت المرحلة الحاسمة من مراحل الدعوة للمسيحية في بلاد النوبة زمن الامبراطور جستنيان (٥١٧ ــ ٥٦٥ م) . ذلك أن هذا الامبراطور لم يقنع بأن ينسب إليه القضاء على معاقل الوثنية فحسب ــ كما فعل في فيلة ، عندما أغلق معبدها الوثني ، أو كما فعل في أثينا ، عندما أغلق المدرسة الفلسفية الوثنية بها ــ بل رغب كذلك في أن يدخل القبائل الوثنية على أطراف امبراطوريته في حظيرة الدولة البيزنطية . ولذا سعى هذا الامبراطور إلى اجتذاب البليميين والنوبيين إلى الديانة المسيحية ، ليتسنى له السيطرة على وادي النيل الأوسط . ووضح هذا الاتجاه السياسي عندما بدأت عملية التبشير الحقيقي ببلاد النوبة ، على يد رسل الكنيسة المصرية . وإذا كانت الكنيسة المصرية نجحت في تنصير مملكتي نوباتيا وعلوة ، على أيدي رسوليها يوليان ثم لونجينوس « Longenus » بمساعدة الامبراطورة ثيودورا (٢) ، فإن الملكانيين استطاعوا تحويل مملكة مقرة إلى المسيحية ، على المذهب الملكاني (٣) . ولذا اضطر القس لونجينوس ــ في رحلته من نوباتيا إلى علوة ــ أن يتجنب طريق مملكة مقرة ، لعداء ملكها للملك نوباتيا ، فسلك طريق الصحراء الشرقية حيث يقطن البليميون . وفي ذلك يقول ملك النوبة (نوباتيا) في رسالة بعث بها إلى البطريرك ثيودور بطريرك الكنيسة المصرية : « ولكن بسبب المكيدة الخبيثة التي دبرها ذلك الذي يقيم بيننا ، فقد أرسلت أبي البار إلى ملك البليميين ليوصله إلى داخل البلاد » (٤) . وليس ببعيد أن يكون القس لونجينوس عمّد بعض زعماء البليميين أثناء مروره ببلادهم (٥) .

---

(١) Kirwan, L. P. : *op. cit.* p. 89.

(٢) John of Ephesus : Ecclessiastical History. Book IV., part III, ed. by Payn Smith, pp. 254-258, 317-325.

(٣) Kirwan, L. P. : Firka, p. 50.

(٤) John of Ephesus : *op. cit.* p. 325.

(٥) مصطفى مسعد : الاسلام والنوبة ، ص ٦٩

وكيفما كان الأمر فإن الغالبية العظمى من سكان الصحراء الشرقية الأصليين ، وهم البجه ، ظلوا على وثنيتهم ، باستثناء بعض جماعات من الطبقة الحاكمة فى الأقاليم الشمالية المتاخمة لحدود مصر الجنوبية ــ وهم البليميون ــ الذين اعتنقوا المسيحية . وربما كان تعيين أسقف لميناء عيذاب فى القرن السابع الميلادى ، كان المقصود به ــ فضلا عن رعاية المسيحيين الأجانب فى هذه الميناء ــ الإشراف على الطقوس الدينية المسيحية عند البليميين كذلك[1].

ومنذ القرن السابع الميلادى ، لم نعد نسمع شيئا عن أولئك البليميين الذين ظل اسمهم علما على سكان الصحراء الشرقية ، ولا سيما فى الشمال ، نحو عشرة قرون ، فعاد إلى سكانها الأصليين اسمهم القديم « البجه أو البجاه » ، وذلك باستثناء البقية الباقية من البليميين الذين أطلق عليهم زمن الإدريسى وابن الوردى اسم « البليين » ، ووصفاهم بأنهم « نصارى خوارج على مذهب اليعقوبية » . ويدل ظهور الاسم القديم لسكان الصحراء الشرقية من جديد، منذ القرن السابع الميلادى ، على ضعف الطبقة الحاكمة ، وتدهور نفوذها ، بعد طردهم من منطقة النوبة السفلى « دوديكا شينوس » على يد الملك سلكو حوالى سنة ٥٣٥ م .

* * *

ولعل أول إشارة إلى البجاه فى المراجع العربية ، بعد ظهور الإسلام ، وردت فى كتاب فتوح مصر والاسكندرية للواقدى . فيذكر الواقدى أنه لما حاصر عمرو بن العاص مدينة بلبيس ، وكانت بها أرمانوسة ابنة المقوقس ، الحاكم البيزنطى فى مصر ، أشار ذوو الرأى فى مصر وقتذاك على المقوقس أن يرسل نجدة بيزنطية إلى مدينة بلبيس لانقاذ ابنته ، ثم يطلب مساعدة ملك البجاه وملك النوبة وملك البرابر لحرب العرب وطردهم من مصر[2]. ويذكر الواقدى فى موضع آخر من كتابه : أن أرسطوليس حذّر العرب من الطمع فى مصر لأن البيزنطيين قوة يخشى بأسها ، وأنهم لا يحاربون وحدهم ، ولكن يحارب معهم عساكر النوبيين وعساكر البجاه ، الذين أرسل فى طلبهم ، وهم فى طريقهم اليه . ويضيف الواقدى أن أرسطوليس استنفر همم رجاله لقتال العرب ، وأخذ يطمئنهم عن قرب وصول النجدة من النوبة وملك البجاه[3] . غير أن الأخبار وردت من الجنوب بوقوع خلاف بين

---

(١) Trimingham, J. S. : *op. cit.*

(٢) الواقدى : كتاب فتوح مصر والإسكندرية . نشر هنريك آرند همقر ، ص ٢٧

(٣) المصدر السابق ، ص ٦١

النوبيين والبجاه « وأن أحداً منهم لا يبعث للملك أرسطوليس نجدة ، فصعب ذلك على الملك » [1] .

وإذا كانت المصادر العربية لم تشر إلى مساعدة النوبيين والبجاه للبيزنطيين ضد العرب ، فإن ذكر اسم النوبة فى عقد الصلح الذى عقد بين المقوقس ، وبين عمرو بن العاص ، وهو العقد المعروف بصلح عين شمس ، يدل على اشتراك النوبيين بصورة من الصور فى القتال ضد العرب . فقد ورد فى هذا الصلح : أن على النوبيين الذين يدخلون فى صلح مع المسلمين دفع كذا وكذا من الرؤوس ، وفتح بلادهم لتجارة الصادر والوارد » [2] .

أما البجاه فيبدو أنهم لم يستجيبوا لنداء البيزنطيين ، ولو أن جريفث يذكر : أن ملكهم اشترك مع ملك النوبة فى تقديم ١٢٠٠ فيل محملة بالرجال المسلحين إلى حكام الصعيد الأعلى للدفاع عنه ضد العرب . غير أن عدم الإشارة إلى البجاه فى عقد الصلح يدل على عدم اشتراكهم فى أى عمل حربى ضد العرب أثناء فتحهم لمصر [3] .

إذا كانت أوطان البجاه استقبلت بعض الجماعات العربية من جزيرة العرب ، قبل الإسلام،عبر باب المندب ، أو عبر البحر الأحمر ، أوعن طريق برزخ السويس ، وإذا كانت بعض هذه الجماعات العربية استطاعت — بفضل ما لديها من وسائل الغلبة العقلية والآلية الجديدة — أن تبسط سلطانها على فريق من البجاه فى العصر الرومانى، كما فعلت قبيلة بلى ، فان أثر هذه الجماعات العربية فيمن اختلطت بهم من قبائل البجاه ، كان ضئيلا بالقياس إلى أثر الهجرات العربية الكبرى ، التى شقت طريقها إلى وادى النيل ، من الشمال عن طريق مصر عقب ظهور الإسلام . وتعد حملة عمرو بن العاص على مصر سنة ٦٣٩ م ، إحدى طلائع هذه الهجرات العربية الكبرى . فقد أخذت القبائل العربية المختلفة ، تهاجر منذئذ إلى مصر بانتظام . وتعاقب الولاة على حكم مصر ، ولم يبرحوها إلى بلاد العرب ، كما أخذت قبائل بأكملها تنتشر فى جهات القطر المصرى المختلفة ، من الدلتا إلى أقصى جنوب الصعيد . وتشتمل هذه الهجرات على المجموعتين العربيتين : القحطانيين والعدنانيين . ومن القحطانيين : بنو جـذام ، وطىء ، وبلى ، وجهينة ، ولخم .

---

(١) المصدر السابق ، ص ٦١

(٢) بتلر : فتح العرب لمصر . ترجمة محمد فريد أبو حديد ، ص ٢٣٨

(٣) Griffith FLl : Pakhouras—Pakharas—Faras, J. E. A. XI, 1925, p. 67.

ومن العدنانيين : كنانة ، وقريش ، وقيس عيلان ، وفزارة ، وبنو هلال ، وبنو سليم ، وربيعة ، وبنو كنز . وإذا كان العرب ، فى أول عهود الفتح ، لم يختلطوا بالمصريين ، فذلك لأنهم كانوا ما يزالون فى شبه تجنيد عام ، ولهذا منعوا من امتلاك الأرض والاشتغال بالزراعة ، ثم لم يلبث هذا أن تغير ، بعد أن استتب لهم الأمر فى مصر ؛ فاختلطوا بالسكان ، وتزاوجوا منهم . غير أن عدداً كبيراً من القبائل العربية ، ظل محتفظا ببداوته التى تعودها فى البيئة الأصلية [١] .

اتجهت سياسة المسلمين ، منذ أن تم لهم فتح مصر ، إلى بسط نفوذهم على ما يلى البلاد جنوباً ، وذلك جرياً على السياسة التقليدية التى حاول معظم ولاة مصر اتباعها ، المحافظة على حدود مصر الجنوبية من ناحية ، وضمان سير التجارة بين مصر وبلاد السودان من ناحيةأخرى . ولذا جرد العرب حملتين إلى بلاد النوبة ، الأولى سنة ٦٤١ م والثانية سنة ٦٥٢ م .

وعلى الرغم من أن العرب فى محاولتهم غزو النوبة للمرة الثانية بقيادة عبد الله بن سعد ابن أبى السرح ، دخلوا دنقلة العاصمة ، واستولوا عليها ، إلا أنهم لم يحتلوها بقواتهم ، كما فعلوا فى مصر وغيرها من البلاد التى فتحوها ، ولم يطبقوا عليها القواعد الخاصة بمعاملة أهل البلاد التى تفتح عنوة . بل عقد القائد العربى مع النوبيين معاهدة عرفت فى تاريخ العلاقات بين مصر والسودان فى العصور الوسطى باسم « البقط » . وضمنت هذه المعاهدة للمسلمين الاطمئنان على حدود مصر الجنوبية ، فضلا عن الحصول على عدد من الرقيق فى خدمة الدولة الإسلامية ، وحفظ مصالح المسلمين وحريتهم الدينية فى بلاد النوبة [٢]. ويبدو أن العرب أدركوا ، منذ البداية ، أثر الاتصال البشرى والثقافى الطبيعى بين مصر وهذه البلاد فى تغذيتها بالدماء العربية ، ونشر الثقافة الإسلامية فيها ، فلم يهتموا باحتلالها . ولذا تمسك العرب من ناحيتهم بهذه المعاهدة ، فلم يسمحوا للنوبيين بمحاولة التخلص من تبعاتهم إزاء الدولة الإسلامية . وعلى كل حال ، فإن هذه المعاهدة ، ظلت تمثل نوعاً من الاتصال الدائم بين مصر الإسلامية والنوبة المسيحية ما يقرب من ثمانية قرون .

* * *

(١) MacMichael, H.A. : *op. cit.* p. 160.

(٢) راجع عهد عبد الله بن سعد للنوبيين فى المقريزى : المواعظ والاعتبار ، طبع بولاق ، ج ١ ، ص ١٩٩

أما عن تاريخ قبائل البجاه ، فى العصر الإسلامى ، فيكتنفه الغموض ، بسبب عدم اهتمام هذه القبائل البدوية بتدوين تاريخها من ناحية ، وعدم تعرض المؤلفين العرب لذكر تاريخها من ناحية أخرى . ومعظم ما وصل إلينا من معلومات عن هذه القبائل ، لا يعدو نتفاً قليلة وردت عرضاً فى كتب المؤلفين العرب ، وبالقدر الذى يحتاجه شرح علاقة هذه القبائل بالدولة الإسلامية عامة ومصر بصفة خاصة . وقد يكون عدم اهتمام المؤلفين العرب بهذه القبائل ـ على قول ابن حوقل ـ راجع إلى أن « انتظام الممالك بالديانات والآداب والحكم وتقويم العمارات بالسياسة المستقيمة ، وهؤلاء (البجه والزنج) مهملون فى هذه الخصال ، ولاحظ لهم فى شىء من ذلك ، فيستحقوا إفراد ممالكهم بما ذكرت به سائر الممالك[1] »

ويبدو عدم اهتمام العرب بهذه القبائل ، أول الأمر ، من عدم ورود نص عنها فى عهد الصلح الذى عقده عبد الله بن سعد للنوبيين سنة ٦٥٢ م . وربما كان مرجع ذلك — على قول ابن عبد الحكم — « عدم اكتراث عبد الله بن سعد بهم »[2] . أو ربما كان مرجعه ما قر فى نفوس العرب ، فى المرحلة الأولى من مراحل التوسع الإسلامى ، من أن ديار البجه ليست بدار حرب[3] ، شأنها فى ذلك شأن بلاد الحبشة المتاخمة لبلادهم من ناحية الجنوب ، لأن الحبشة آوت الطليعة الأولى من المسلمين الذين هاجروا إليها زمن الرسول صلى الله عليه وسلم .

وكيفما كان الأمر ، فإن البجه لم يلبثوا أن أغاروا على صعيد مصر حوالى سنة ٧٢٥ م ، فصالحهم عبيد الله بن الحبحاب ، وكتب لهم عقداً ، يقضى بأن يدفع البجه إلى ولاة مصر ثلاثمائة من الإبل الصغيرة ، على أن يجتازوا ريف مصر للتجارة دون الإقامة فيه ، وألا يقتلوا مسلماً أو ذمياً ، وألا يؤووا عبيد المسلمين ، وأن يردوا آبقيهم إذا وقعوا فى أيديهم ، ويظل وكيلهم فى ريف مصر رهينة فى أيدى المسلمين ، لضمان وفائهم بالتزاماتهم للدولة الإسلامية[4] .

غير أنه لم يكد يمضى نحو قرن على هذه المعاهدة ، حتى عاد البجه إلى شن الإغارات من جديد على جهة أسوان ، وكثر إيذاؤهم للمسلمين ، فرفع ولاة الأمور فى أسوان ،

---

(١) ابن حوقل : كتاب صورة الأرض ، نشر كرامرز ، ص ٩

(٢) ابن عبد الحكم : فتوح مصر وأخبارها ، نشر تورى ، ص ١٨٩

(٣) ابن حوقل : نفس الصدر ، ص ٥٦

(٤) ابن عبد الحكم : نفس المصدر ، ص ١٨٩

خبرهم إلى الخليفة المأمون سنة ٢١٦ هـ (٨٤١ م) ، بجرد عليهم حملة بقيادة عبد الله ابن الجهم وكانت له معهم وقائع ، انتهت بموادعتهم وعقد صلح جديد بينه وبين ملكهم كنون بن عبد العزيز ، من شروطه [1] :

١ — أن يكون سهل بلاد البجه وجبلها من منتهى حد أسوان من أرض مصر ، إلى حد ما بين دهلك (مصوع) ، وباضع (جزيرة الريح) ملكاً للخليفة ، وأن كنون ابن عبد العزيز وأهل بلده من البجه عبيد لأمير المؤمنين ، على أن يبقى كنون ملكاً عليهم .

٢ — أن يؤدى ملك البجه الخراج كل عام ، مائة من الإبل أو ثلاثمائة دينار لبيت المال .

٣ — أن يحترم البجه الإسلام ، ولا يذكروه بسوء ، وألا يقتلوا مسلماً أو ذمياً ، حراً أو عبداً ، فى أرض البجه ، أو فى مصر ، أو فى النوبة ، وألا يعينوا أحداً على المسلمين .

٤ — إذا دخل أحد من المسلمين فى بلاد البجه للتجارة أو الإقامة أو مجتازاً للحج ، فهو آمن لآخر حدهم .

٥ — إذا دخل البجه صعيد مصر مجتازين أو تجاراً ، لا يظهرون سلاحاً ، ولا يدخلون المدائن والقرى .

٦ — ألا يهدم البجه شيئاً من المساجد التى ابتناها المسلمون بصيحة وهجر .

٧ — على كنون أن يدخل عمال أمير المؤمنين بلاد البجه ، لقبض صدقات من أسلم من البجه .

ومن الملحوظ هنا أن هذا العقد يختلف اختلافاً واضحاً عن العقد الذى كتبه عبد الله بن سعد للنوبيين : من ذلك أن عقد ابن الجهم ينص على أن بلاد البجه من حد أسوان إلى مصوع ، أضحت جزءاً من الدولة الإسلامية ، بدليل فرض الخراج . ثم إن النص يلزم البجه بعدم التعرض للمسلمين ، الذين يجتازون بلادهم للحج أو التجارة أو الإقامة بأذى ، فضلا عن حفظ المساجد القائمة فعلا فى بلاد البجه ، وجمع صدقات

---

(١) المقريزى : المواعظ والاعتبار ، ج ١ ، ص ١٩٥

من أسلم من البجه ، وفى ذلك دليل على أن الإسلام امتد إلى تلك الأقاليم ، وأن بعض المسلمين يقيمون بها كذلك . فكيف إذن شق الإسلام طريقه إلى هذه الأوطان ؟

يبدو أن جماعات عربية ، ولا سيما من بَلى وجهينة نزحت إلى أوطان البجه للتجارة ، عقب الفتح العربى لمصر . وليس من المستبعد أن ينشر أفرادها الإسلام فى نطاق ضيق ، بحيث شملت جماعات قليلة من البجه فى منتصف القرن السابع الميلادى . ففى رواية لابن حوقل [١] ، أن أفراداً من البجه ، « أسلموا إسلام تكليف ، وضبطوا بعض شرائط الإسلام ، وظاهروا بالشهادتين ، ودانوا ببعض الفرائض » . ولذا سالمهم عبد الله بن سعد ، ولم يحاربهم بعد عودته من حملته على دنقلة سنة ٣١ هـ (٦٥٢ م) [٢] .

وفى نهاية القرن السابع الميلادى ، عبرت جماعات من عرب هوازن البحر الأحمر ، واستقرت فى أرض البجه ، حيث عرفوا باسم الحالنقا ، ثم انتقلت إلى منطقة تاكة . ويرى بول Paul ، أن هؤلاء الحالنقا ، كانوا أول من استقر من العرب المسلمين فى الوطن البجاوى [٣] .

والمعروف أن هجرة الجماعات العربية المختلفة إلى أوطان البجه تأثرت ، إلى حد كبير ، بأحوال العالم الإسلامى السياسية والاجتماعية والحربية . من ذلك أن سقوط الدولة الأموية ، وقيام الدولة العباسية ، أدى إلى هجرة جماعات من بنى أمية ومواليهم ، إلى أوطان البجه . فيذكر المسعودى أنه بعد قتل مروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية ، تفرقت بنو أمية فى البلاد هرباً من مذابح العباسيين . وكان من بين الهاربين ، « ابناه عبد الله وعبيد الله ، وكانا وليى عهده . فهربا فيمن تبعهما من أهلهما ومواليهما وخواصهما من العرب ومن انحاز إليهم من أهل خراسان من شيعة بنى أمية . فساروا إلى أسوان ، ومنها ساروا على شاطىء النيل حتى بلاد النوبة ، ثم توسطوا أرض البجه ميممين باضع ، إحدى موانى السودان على البحر الأحمر . وكانت لهم مع من مروا بهم من النوبيين والبجه وقائع وحروب ، ونالهم جهد شديد ، وضر عظيم . فهلك عبيد الله بن مروان فى عدة من كان معهم قتلا وعطشاً وضراً . وشاهد من بقى منهم أنواع الشدائد وضروب العجائب .

---

(١) ابن حوقل : نفس المصدر ، ص ٥٠ — ٥١

(٢) راجع حملة عبد الله بن سعد على النوبة فى : المقريزى : المواعظ والاعتبار ، ج ١ ، ص ١٩٩

(٣) Paul, A. : *op. cit.* p. 73.

ووقع عبد الله في عدة ممن نجا معه إلى باضع من ساحل المعدن وأرض البجه [1]» .
وإذا كان قد أتيح لعبد الله الهرب إلى مكة ، حيث قبض عليه ، فإنه من غير المستبعد أن يكون خلف وراءه بعض الأمويين ومواليهم ومن تبعهم من العرب والموالى ببلاد النوبة ، وأوطان البجاه ، وبلاد الحبشة كذلك [2] . ويذكر بلوس Bloss [3] . أنه عثر على مقابر أولئك الأمويين على طول الطريق الذى سلكوه من بلاد النوبة حتى ميناء باضع . فضلا عن هذا فإن الأبحاث الأركيولوجية أثبتت وجود جاليات إسلامية فى منطقة خورنبت الواقعة على بعد ٧٠ ميلا غربى سواكن . إذ عثر على شواهد قبور عربية ، يرجع تاريخها إلى منتصف القرن الثامن الميلادى (٧٦٠ م) ، وهو تاريخ يتفق وهجرة الأمويين إلى أوطان البجاه ، مما يدعونا إلى الاعتقاد أن هذه القبور تنسب إلى أولئك الأمويين الهاربين إلى هذه الأوطان . ثم إن البحث الأثرى فى منطقة سنكات ، أثبت وجود مسجد فى هذه المنطقة ، يرجع تاريخ بنائه إلى عام ٨٣١ م [4] .

وفى رواية لابن حوقل ما يدل على أن ثمة علاقة نشأت بين بعض قبائل البجه وبين سكان إقليم أسوان ، وهو الإقليم الذى احتشدت فيه كثير من القبائل العربية ، منذ الفتح العربى لمصر . فى هذا الإقليم — الذى كانت تتردد عليه بعض الجماعات البجاوية ، لقضاء كثير من المصالح التى يتطلبها قرب بيئة حضرية راقية ، زاخرة بالحياة والحيوية ، من بيئة أخرى بدوية فقيرة ـ أتيح للبجه الوقوف على بعض نواحى الحياة العربية الإسلامية ، وذلك على الرغم مما تخلل هذا من عداء واستعداء حيناً ، أو ود وصفاء حيناً آخر . فيذكر ابن حوقل عن أبى المنيع كثير بن أحمد الجعدى الأسوانى ، أن المسلمين فى إقليم أسوان كانوا مستظهرين على من جاورهم من النوبيين والبجه ، وأن البجه كانوا يترددون على مدينة قفط ليمتاروا البُرّ والتمر ، وإذا حضر رئيسهم مُحا إلى قفط لهذا الغرض ، فإنه كان يكرم ويعظم . وكان لأهل قفط رئيس منهم يعرف بإبراهيم القفطى ، وفى سنة ٢٠٤ هـ عزم هذا الزعيم القفطى على أن يحج إلى بيت الله الحرام فى جماعة من أهل قفط عن طريق وادى

---

(١) المسعودى : كتاب التنبيه والإشراف ، نشر دى خوية ، ص ٣٠

(٢) ابن خلدون : العبر ، جـ ٣ ، ص ١٣٢ ، أنظر المقريزى : المواعظ والاعتبار ، جـ ١ ، ص ١٩١

(٣) Bloss J. F. E.: « The Story of Suakin ». S.N.R. XIX, part II, 1936, p. 279.

(٤) Crawford, O. G. S. « The Stone Tombs of the N. E. Sudan, Kush, No. 2, 1954, p. 86 .

العلاقى وعيذاب . فوصلوا إلى بلدة عينونا ، قرب جزائر بنى حدان ، وتطرقوا بمحا البجاوى وجماعته الذين صحبوهم فى الصحراء ليدلوهم على الطريق إلى عيذاب ، لخبرتهم بطرقها ومسالكها . غير أن البجه اجتمعوا إلى رئيسهم محا وقالوا له : « لابد من قتل هذا المسلم لمعرفته بديارنا ومقارنا ومظان مياهنا ، ولسنا نأمنه » . فلم يوافقهم محا على ما طلبوا ، ولكنهم غلبوه على رأيه ، واتفقوا على إتاهة إبراهيم القفطى وجماعته ، فمات الجميع عطشاً ، ما عدا طفل صغير لإبراهيم القفطى ، رق له بعض البجه ، واحتال على إنقاذه ، وأوصله إلى ناحية أتفوا من الصعيد ، فأوصله أهلها إلى قفط . ثم أخبر هذا الطفل أهل مدينة قفط بما حدث لأبيه وصحبه ، فكتموا غيظهم ، ولم يبدوه ، وعزموا على الأخذ بالثأر من البجه . ثم جاء محا على عادته إلى مدينة قفط ، وكان معه هذه المرة نحو ثلاثين رجلا من وجوه قومه ، فأنزلهم أهل قفط فى معبد للبجه ، ثم قتلوهم جميعاً . ولما علم البجه بما حل برئيسهم محا وجماعته ، هاجموا مدينة قفط ، واحتلوها ، وأسروا من أهلها نحو سبعمائة نسمة ، وقتلوا منهم عدداً كبيراً ، ومن نجا من أهل قفط فر ناحية الغرب . وكان يعيش بمدينة قفط ، وقتذاك ، أحد العلويين ، وكان يتمتع باحترام البجه وتقديرهم . فاستطاع هذا العلوى ، بنفوذه الشخصى ، أن يسترجع بعض السبى . أما أهل قفط ، فإنهم ذهبوا إلى الفسطاط ، لرفع شكواهم من البجه إلى والى مصر وحمله على تأديبهم . غير أن الوالى لم يستجب لندائهم ، لأنه كان بعض شأنه مشغولا . فاتجه أهل قفط إلى الحوف للاستنجاد برجل من قبيلة قيس عيلان يدعى حكم النابغى ، وكان ذا يسار وخير وجهاد . وشكا أهل قفط إلى حكم ما حل بهم ، وطلبوا إليه أن يكفيهم شر أولئك البجه . واستطاع أهل قفط أن يحصلوا على فتوى قاضى البلد وشيوخها ، وتقضى بشرعية الحرب ضد أولئك البجه . وفى سنة ٢١٢ هـ سار حكم النابغى فى ألف رجل بين فارس وراجل من قيس عيلان إلى حرب البجه ، وظل يحاربهم حتى استرجع السبى ، بعد أن أقام فى بلادهم ثلاث سنين ، ثم قفل حكم معاوداً إلى أسوان ومنها انحدر إلى بلدة طود قرب قوص ، فملكها وأقام بها (١) .

ليس من المستبعد أن تكون جماعات من قيس عيلان استقروا فى العلاقى حيث توجد آثارهم . فيقول ابن حوقل إن المكان الذى اتخذه حكم النابغى مركزاً لعملياته الحربية

(١) ابن حوقل : نفس المصدر ، ص ٥١ — ٥٢

ضد البجه ، كان لا يزال يعرف فى زمنه باسم « ماء حكم » ، وهو على مرحلة من عيذاب ، وعلى أربع مراحل من العلاقى . ويضيف ابن حوقل إلى هذا أن بعض الذين اشتركوا فى حملة ابن الجهم على البجه آثروا البقاء فى العلاقى ، ولم يعودوا صحبة الجيوش العربية إلى أسوان ، « بعد أن عاينوا التبر وآثار العمل فيه للروم » [1] . ووافقت حملة ابن الجهم على أوطان البجه ، واستقرار كثير ممن اشتركوا فيها فى هذه الأوطان ، هجوماً قامت به بعض الجماعات العربية بقيادة محمد بن يوسف الحسنى على اليمامة ، وانقشاع أهلها من جوره وعسفه إلى مصر ، ثم « تكامل بالعلاقى قبائل ربيعة ومضر ، وهم جميع أهل اليمامة فى سنة ثمان وثلاثين ومائتين [2] » . ويبدو أن الدافع لهؤلاء على الهجرة إلى وادى العلاقى ، ما ترامى إليهم من أنباء المعادن التى تحويها تربة هذا الوادى ، ولا سيا بعد أن بات العرب متمتعين بحماية الدولة الإسلامية لهم فى أوطان البجه .

مما لا شك فيه أن هذه الجماعات العربية المختلفة تركت لوناً من التأثير فيمن اختلطت بهم من البجه ، بل إن بعضهم تعلم اللغة التبداوية ليسهل عليه التعامل مع البجه ، والتأثير فيهم ، وفى الدليل على ذلك أن زكريا بن صالح المخزومى من سكان جدة ، وعبد الله بن إسماعيل القرشى ، قاما بترجمة عقد ابن الجهم إلى اللغة التبداوية [3] .

كانت الحملات الحربية التى وجهها ولاة مصر ضد قبائل البجه ، فرصة أتاحت لبعض الجماعات العربية المشتركة فيها ، التعرف على خصائص البيئة البجاوية ، فاستقرت فيها واختلطت بسكانها ، فضلا عن وضع هذه الأقاليم من الناحية الرسمية ضمن مناطق النفوذ الإسلامى . وتذكر الرواية العربية ، أن البجه عادوا إلى الفتنة . فيقول ابن حوقل [4] إنه وقع بين رجل من العرب الذين استقروا بالعلاقى ، وبين رجل من البجه شحناء ، فسب البجاوى النبى صلى الله عليه وسلم . ولكن البلاذرى [5] يضيف إلى هذا أن البجه أغاروا على صعيد مصر ، وامتنعوا عن دفع الخراج ، وقتلوا كثيراً من المسلمين بمناجم الذهب بالعلاقى . فكتب عامل البريد فى مصر إلى الخليفة المتوكل العباسى ٢٣٢ — ٢٤٧ هـ

---

(١) المصدر السابق ، ص ٥٣

(٢) المصدر السابق .

(٣) المقريزى : المواعظ والاعتبار ، ج ١ ، ص ١٩٦

(٤) ابن حوقل : نفس المصدر ، ص ٥٣

(٥) البلاذرى : فتوح البلدان ، نشر دى خوبة ، ص ٢٣٩

(٨٤٧ — ٨٦١ م) بخبرهم . فأنفذ الخليفة فى سنة ٢٤١ هـ (٨٥٤ م) رجلا من ولد أبى موسى الأشعرى يعرف بمحمد القمى ، وكان القمى هذا فى الحبس مطالباً بدم لا ولى له[١]، وكتب الخليفة إلى واليه على مصر عنبسة بن إسحاق الضبى بأن يمده بالرجال والعتاد [٢] . فسأل القمى أن يختار من الرجال من أحب ، ولم يرغب إلى الكثرة لصعوبة المسالك [٣] . فجهزه بما طلب من الرجال والسلاح[٤] . فخرج القمى من مصر فى عدة قوية ورجال منتخبة [٥]، من عشرين ألفا من الجند والمتطوعة[٦] . وسار القمى إلى أسوان ، وأتى العلاقى ، فأخذ من ربيعة ومضر واليمن ثلاثة آلاف رجل ، من كل بطن ألف رجل [٧] . ولجأ ملك البجه إلى المطاولة لتجويع المسلمين ، غير أن وصول المراكب حاملة المؤن للمسلمين إلى ميناء عيذاب ، حفزت ملك البجه على ملاقاة المسلمين ، فأقبل فى مائتى ألف مقاتل من البجه . فلما عاين المسلمون هذا العدد الضخم من المقاتلة ، أدركوا خطورة موقفهم . وهنا نادى القمى ، « مالنا من محيص ، فقاتلوا عن دمائكم وأحسابكم ، فإنكم حاصلون » . ولما همّ ملك البجه على بابا بكبس المسلمين ، حال بينه وبين ما أراد الليل . فرمى القمى حسك الحديد سورا على عسكره ، ثم لجأ إلى حيلة بارعة تضمن له النصر على البجه : ذلك أنه كتب عدة رقاع فى طوامير ، ورفعها على أسنة الرماح ، وقلد خيل فرسانه بالأجراس ، ولما طلعت الشمس جاء القمى قريباً من البجه ، وهم صافون على إبلهم ، ونادى فيهم ، « هذه كتب أمير المؤمنين إليكم معاشر البجه » . فلما رأى البجه هذه الكتب استطرفوها ، وخرجوا على صفوفهم ، واجتمعوا فى غير نظام لقراءتها . ولما التف البجه بالطوامير ، أمر القمى بضرب الطبول الزنجية ، فنفرت الجمال بالبجه وشردت ، ولم تثبت لصلصلة الأجراس المعلقة فى أعناق خيل فرسان المسلمين ، فوطئت الجمال البجه ، وركب المسلمون أقفيتهم ، وقتلوا منهم عدداً كبيراً ، فضلا عمن وقع منهم فى أسر المسلمين[٨]. ولما حلت بالبجه الهزيمة ،

---

(١) ابن حوقل : نفس المصدر ، ص ٥٣

(٢) البلاذرى : نفس المصدر ، ص ٢٣٩

(٣) المقريزى : المواعظ والاعتبار ، جـ ١ ، ص ١٩٦

(٤) ابن حوقل ، نفس المصدر ، ص ٥٣

(٥) المقريزى : نفس المصدر ، ص ١٩٦

(٦) البلاذرى : نفس المصدر ، ص ٢٣٩

(٧) ابن حوقل : نفس المصدر ، ص ٥٣

(٨) المصدر السابق .

طلب ملكهم على بابا الصلح ، على أن يدفع الخراج لما سلف ، ولما يأتى ، وألا يمنعوا المسلمين من العمل فى المعدن . فصالحهم القمى ، « على أن يطأ على بابا بساط الخليفة بسر من رأى »[1] . ثم عاد القمى إلى أسوان يصحبه ملك البجه وعدد كبير من السبى والغنائم . وقد باع القمى السبى والغنائم بما قيمته خمسون ألف أوقية ذهبا[2] ، وترك فى خزائن أسوان ما كان معه من السلاح ، ليستعين بها غيره من الولاة على هذا الإقليم فى ضبط أطرافه[3] .

غادر القمى وملك البجه أسوان إلى سامرا ، حيث أعلن على بابا الولاء والطاعة للخليفة المتوكل ، ثم عاد إلى أسوان ، بعد تأكيد ما سبق الاتفاق عليه بينه وبين القمى من شروط ، من بينها — فضلا عما سبقت الاشارة إليه — تعيين وال عربى من قبل الخليفة العباسى على أوطان البجه . وكان أول وال هو القمى نفسه . واختار القمى نائباً عنه فى حكم بلاد البجه ، رجلا من بنى حنيفة يعرف بأشهب ربيعة من بنى عبيد بن ثعلبة . غير أن هذا النائب لم يحسن سياسة بعض الجماعات العربية التى استقرت بإقليم العلاقى ، فعزله القمى بعد عودته من سامرا إلى العلاقى . ولذا قابل أشهب هذا العمل من جانب القمى بقتله سنة ٢٤٥ هـ[4] .

يبدو أن قتل القمى على أيدى بعض العناصر العربية فى العلاقى ، كان الغرض منه ، رغبة هذه العناصر العربية فى التخلص من سيادة الدولة الإسلامية على هذه الأقاليم ، ولا سيما بعد أن كشفت هذه العناصر العربية عما يحويه إقليم العلاقى من مناجم للذهب والزمرد ، ومحاولتها الانفراد باستغلال هذه المناجم ، دون تدخل من جانب الدولة الإسلامية بعد أن زاد نفوذ الأتراك فيها على حساب العرب . فيذكر ابن حوقل ، أنه من ذلك الوقت ، أى من سنة ٢٤٥ هـ زال نفوذ الخليفة فى إقليم العلاقى ، على حين أن « الإسلام فى بعضها سريض »[5] . ويعنى هذا أن رقابة الدولة على نشر الإسلام ، وتنظيم جباية الجزية والخراج والزكاة لم تعد قائمة من ذلك التاريخ .

---

(١) البلاذرى : نفس المصدر ، ص ٢٣٩

(٢) ابن حوقل : نفس المصدر ، ص ٥٤

(٣) المقريزى : نفس المصدر ، ص ١٩٦

(٤) ابن حوقل : نفس المصدر ، ص ٥٤

(٥) المصدر السابق .

الواضح أن انتشار الإسلام بين قبائل البجاه منذئذ ارتبط ، ارتباطاً وثيقاً ، بازدياد تيار الهجرات العربية إلى أوطانهم ، ولا سيما منذ النصف الأول من القرن الثالث الهجرى (التاسع الميلادى) ، واختلاط العرب بالبجاه عن طريق المصاهرة . والمعروف أن وجود معدنى الذهب والزمرد فى أوطان البجاه ، ولا سيما فى وادى العلاقى ، أدى إلى اجتذاب كثير من القبائل العربية المختلفة إلى هذه الأوطان للعمل فيها واستغلال مناجمها . ولقد وصف كثير من المؤلفين العرب هذه المعادن وأماكنها فى الصحراء الشرقية ، وطرق استخراجها كذلك . فيذكر اليعقوبى[1] أن ثم طريقين يؤديان إلى مناجم الذهب والزمرد فى الصحراء الشرقية ، أحدهما يبدأ من قفط والآخر يبدأ من أسوان . أما مناجم طريق قفط فمنها : خربة الملك ، وجبل العروس ، وجبل الخصوم ، وكوم الصابونى ، وكوم مهران ، ومكابر ، وسفسيد ، وجبل صاعد ، والكلبى ، والشكرى ، والعجلى ، والعلاقى الأدنى ، والريفة ، ورحم .

أما المناجم التى يفضى إليها من أسوان فمنها : الضيقة ، البويب ، البيضة ، بيت ابن زياد ، عديفر ، جبل الأحمر ، جبل البياض ، قبر أبى مسعود ، عفار ، الحمل ، عست (كذا) ، كعار (كذا) ، بطن داح ، اعماد ، ماء الصخرة ، الأخشاب ، ميزاب ، عربة بطحا ، بركان دح ، سخيت . «فهذه المعادن التى يصل إليها المسلمون ويقصدونها لطلب التبر[2] » .

والواضح أن معظم هذه المناجم يحمل اسماء بجاوية ، غير أن بعضها يحمل اسماء عربية . ذلك أن هذه المناجم اجتذبت إليها جماعات عربية ، قامت على استخراج معادنها والاتجار فيها . واحتكر العرب هذه الصناعة ، لأن البجه ــ فيما يبدو ــ لم يهتموا كثيراً باستغلالها[3] . وربما كان الدافع لولاة مصر على التمكين للعرب من استغلال هذه المعادن ، مشاطرتهم أرباحها . ويظهر أن البجه اطمأنوا إلى العرب الذين عاشوا إلى جوارهم ، واختلطوا بهم ، فقل اعتداؤهم على المسلمين ، مما أدى إلى هجرة جماعات كثيرة منهم إلى أرض المعادن ، بعد أن كشف عن كثير من مناجمها[4] . وأورد اليعقوبى أسماء كثير من الجماعات العربية

---

(١) اليعقوبى : كتاب البلدان ، نشر دى خوية ، ص ١٢٠ — ١٢٢

(٢) المصدر السابق ، ص ١٢٣ — ١٢٤

(٣) المقريزى : المواعظ والاعتبار ، جـ١ ، ص ١٩٤

(٤) المصدر السابق ، ص ١٩٦

التى وفدت إلى أرض المعادن لاستغلال ثرواتها ، ومنها قوله [1] : « وبرَحم قوم من بلى وجهينة وغيرهم من أخلاط الناس ، الذين يقصدون للتجارات » ، « ووادى العلاقى كالمدينة العظيمة ، به خلق من الناس ، وأخلاط من العرب والعجم ، وأصحاب المطالب ، وبها أسواق وتجارات . . » . « وأكثر من بالعلاقى قوم من ربيعة من بنى حنيفة من أهل اليمامة ، انتقلوا إليها بالعيالات والذرية » ، « ووادى العلاقى وما حواليه معادن للتبر ، وكل ما قرب منه يعتمل فيه الناس . . . » . « . . . كفار وبه قوم من أهل اليمامة من ربيعة . . . » ، « . : وميزاب تنزله بلى وجهينة . . » .

مما لا شك فيه أن الحملات الحربية التى وجهها ولاة مصر إلى أوطان البجاه ، أتاحت الفرصة لكثير من الجماعات العربية المشتركة فيها ، للتخلف بهذه الأوطان والاستقرار فيها للمشاركة فى خيراتها ، بعد أن راجت سوقها . ثم ازداد الإقبال على أرض المعادن ، بسبب ما طرأ على أحوال الدولة الإسلامية العامة من تحول من حياة البساطة إلى حياة الترف والرفاهية .

وثم عامل آخر أدى إلى ازدياد هجرات القبائل العربية إلى أوطان البجاه وغيرها من أقاليم السودان ، ازدياد نفوذ الأتراك فى الدولة الإسلامية على حساب العرب : منذ عهد الخليفة المعتصم (٨٣٣ — ٨٤٢ م) . ذلك أن الخليفة المعتصم استكثر من الجند الأتراك وأثبتهم فى الديوان ، ثم أمر واليه على مصر كيدر بن نصر الصفدى بإسقاط من فى ديوان مصر من العرب ، وقطع العطاء عنهم [2] . وأدى هذا القرار الخطير إلى ثورة عربية ضد الوالى ، وانتهت بأسر زعماء الثورة من العرب [3] . ومنذ عزل عنبسة بن إسحاق فى عهد الخليفة المتوكل ، لم يعد حكام مصر يختارون من العرب ، بل من الأتراك الذين يكرهونهم ويحقدون عليهم . وبذا فقد العرب نفوذهم القديم ، وعانوا ضيقاً اقتصادياً شديداً ، بسبب ما فرض عليهم من إتاوات وضرائب مختلفة ابتدعها ابن المدبر والى الخراج فى مصر من سنة ٨٥٢ — ٨٦٧ م . وأثارت التدابير المالية الجديدة حفيظة العرب على الأتراك ، فقاموا بعدة ثورات فى أنحاء مختلفة ، قمعها الأتراك بعنف وقسوة ، وزج بزعمائهم فى السجون ، وفرضت عليهم غرامات باهظة [4] .

---

(١) اليعقوبى : نفس المصدر ، ص ١٢١ — ١٢٤

(٢) المقريزى : المواعظ والاعتبار ، جـ ١ ، ص ٩٤

(٣) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، جـ ٢ ، ص ٢٢٣

(٤) Lane-Poole, S. : History of Egypt in the Middle Ages. P. 43.

كان لهذا الضغط السياسى والاقتصادى أسوأ الأثر فى نفوس العرب ، وبدأت جماعات كثيرة منهم تسعى للرحيل والهجرة ، ولم يكن أمامهم سوى الانسياب جنوباً وغرباً بعيدا عن ضغط الأتراك فى مصر . وحانت لهم هذه الفرصة عقب تأسيس الدولة الطولونية فى مصر ، على يد أحمد بن طولون سنة ٨٦٨ م ، حينما أعلن عن إعداد حملة حربية إلى بلاد البجه ، بقيادة أبى عبد الرحمن عبد الله بن عبد الحميد العمرى . فاشترك فيها كثير من العرب ، معظمهم من ربيعة وجهينة .

بهذا تبدأ مرحلة جديدة من مراحل انتشار الثقافة الإسلامية ، إلى ما وراء حدود مصر الجنوبية ، وروادها من الساخطين على الحكم التركى فى مصر ، والمغامرين الذين تستهويهم الثروة حيثما كانت . ويظهر من رواية المقريزى فى كتابه المقفى الكبير [١] ، أن هدف هذه الحملة ، لم يكن مجرد تأديب البجه ، كما يزعم ابن خلدون [٢] ، والبلوى [٣] بل كان هدفها الكشف عن مناطق جديدة لمعدن الذهب فى أوطان البجه ، والبحث عن مهاجر جديدة تتسع لأولئك العرب ، بعد أن ضاقت بهم مصر .

تقدم العمرى جنوبا سنة (٨٦٨ م) ، متجاوزاً العلاقى إلى إقليم شنقير [٤] . وانتهز العمرى فرصة النزاع الذى نشب داخل البيت الملكى النوبى ، بسبب وراثة العرش ، وحصل من الأمير نيوتى الثائر على خاله الملك جورج الأول ملك النوبة ، على حق إقامة قواعد على النهر للحصول على المياه الكافية لحياة مستقرة فى هذا الإقليم ، بعد تغلبه على قوات الملك جورج الأول [٥] .

غير أن بعض القبائل العربية فى بلاد الشام وهى القبائل التى اشتركت فى حملة العمرى على البجه ، ومن بينها قبيلة سعد العشيرة وقيس عيلان ، خرجت على العمرى ، بعد أن حصلوا من النوبيين على حق الإقامة الدائمة فى منطقة مريس [٦] ، ما بين أدندان وجبل عدة .

---

(١) المقريزى : المقفى : مخطوطة ، المجلد الرابع ، ص ١٦٤ ب .
(٢) ابن خلدون : نفس المصدر ، ج ٤ ، ص ٣٠٢
(٣) البلوى : سيرة أحمد بن طولون ، نشر كرد على ، ص ٦٥
(٤) المقريزى : المواعظ والاعتبار ، ج ١ ص ١٩١
(٥) المقريزى : المقفى ، مخطوطه ، المجلد الرابع ، ص ١٦٦ أ .
(٦) المصدر السابق ، ص ١٦٦ ب .

فانهزم العمرى ، وانسحب بقواته شمالا إلى منجم قريب من منطقة مريس[1] . واتسعت أعمال العمرى ، وامتد نفوذه شرقاً حتى عيذاب ، وشمالا إلى أسوان ، « فكثرت بهم العمارة فى البجه ، حتى صارت الرواحل التى تحمل الميرة إليهم من أسوان ستين ألف راحلة ، غير الجلاب التى تحمل من القلزم إلى عيذاب »[2] .

ويظهر أن العمرى كان يهدف إلى إقامة إمارة إسلامية مستقلة تحت زعامته فى هذه الأقاليم ، بدليل أن ابن طولون ، شك فى نوايا العمرى نحوه ، وخشى ازدياد نفوذه فى هذه البلاد ، فيطمع فى مصر . فأرسل ابن طولون جيشا لمحاربته بقيادة صباح بن حركام البابكى . غير أن العمرى تغلب على قوات ابن طولون ، ولم يكتف العمرى بهذا ، بل تقدم بجيوشه شمالا سنة ٨٦٩ م ، حتى بلغ مدينة أدفو ، ولكنه آثر العودة إلى المناجم[3] . وليس من المعروف تماماً ، سبب تردد العمرى فى التقدم شمالا إلى الفسطاط ، وذلك على الرغم من أن الطريق كان مفتوحاً أمامه . وربما أحس العمرى بقرب وقوع خلاف بينه وبين رجاله ، فآثر العودة إلى مركز أعماله . وقد تحقق ظن العمرى ، فخرجت عليه قبيلة ربيعة ، ونشبت الحرب بينها وبين القبائل التى ظلت على ولائها للعمرى ، وقد تمكنت قوات العمرى من هزيمتها . غير أن العمرى لم يلبث أن قتل على يد أحد أفراد قبيلة مضر . وبهذا انتهت قصة هذا المغامر العربى الشجاع .

استقر كثير من عرب ربيعة وجهينة وغيرهم فى أرض المعادن ، غير أن الشقاق لم يلبث أن دب فى صفوفهم ، وبدأ صراع عنيف بينها جميعا بعد موت العمرى ، على امتلاك المعادن بالعلاقى . ومع أن اليعقوبى (ت ٨٧١ م) ـ وهو المؤرخ المعاصر لمعظم هذه الأحداث ـ أشار إلى وجود جاليات عربية إسلامية بالعلاقى وأوطان البجه ، فأنه لم يشر إلى أثر هذه الجاليات العربية الإسلامية فى نشر الثقافة الإسلامية فى قبائل البجه ، ولكنه تحدث عما أسماه ممالك البجه وعددها خمس وهى :

الأولى : مملكة نقيس[4] ، وتمتد من حد أسوان شمالا إلى حد بركات (خور بركة) جنوباً ، والعاصمة هجر . وينقسم سكان هذه المملكة البجاوية إلى قبائل وبطون

---

(١) المصدر السابق .

(٢) المصدر السابق ، ص ١٦٧ ب .

(٣) المصدر السابق ، ص ١٦٨ ا .

(٤) اليعقوبى : تاريخه ، نشر هوتسما ، ج ١ ، ص ٢١٧ – ٢١٨

منها : الحدرات (الحدارب) ، حبحاب (كذا) ، وعجات ، والعماعر (الأمرأر) ، كوبر (كادبن) ، ومناسة ، ورسفه ، وعربريعة ، والزنافج . وهؤلاء جميعاً علاقتهم حسنة بالمسلمين الذين يعملون فى مناجم الذهب والزمرد فى بلادهم .

الثانية : مملكة بقلين [١] : وتحتوى على مدن كبيرة واسعة ، وتسقط بها الأمطار ، وسكانها من البجه ، وهم وثنيون ، يعرفون الله ، ولكنهم يسمونه الزبحير الأعلى ، ويسمون الشيطان صحى حراقة ، ومن عاداتهم الختان وقلع ثناياهم ونتف لحاهم .

المملكة الثالثة : مملكة بازين [٢]، يحدها شرقا مملكة بقلين ، وغربا مملكة عاوة المسيحية ، يزرع سكانها الذرة (الدخن) وعليه يعتمدون فى غذائهم ، فضلا عن اللبن .

المملكة الرابعة : مملكة جارين [٣] ، وتقع مابين ساحل البحر الأحمر عند ميناء باضع ، وبين خور بركة ، وسكانها يقلعون ثناياهم من فوق ومن أسفل ، ويقولون : لا تكون لنا أسنان كأسنان الحمير ، وينتفون لحاهم .

المملكة الخامسة : مملكة قطعة [٤]، وتمتد من ميناء باضع إلى مكان يقال له : فيكون . ويتصف أهلها بالشجاعة وقوة المراس ، ولهم دار مقاتلة تعرف بدار السوا ، يجتمع فيها شباب من المحاربين ، مستعدون للحرب والقتال .

أما ابن حوقل [٥] الذى وضع كتابه المشهور : « صورة الأرض » بين سنتى ٩٧٦ — ٩٧٧ م ، فإنه أشار إلى أن البجه ينقسمون إلى قبائل وبطون كثيرة ، منها : بطون كديم المعروفة بعجات ، وهؤلاء يسكنون وادى بركة ، يليهم شرقا إلى ساحل البحر الأحمر ، قبائل الجاسة (الخاسة) . وبين وادى بركة ، ووادى دكن (القاش) قبائل بازين وبارية . ومن عادة بارية قلع ثناياها ، وبخر آذانها . وبين وادى بركة وحدود مصر الجنوبية ، يعيش قبائل بواتيكة من البجة ، وتقطن بطون قعصه ، بين وادى بركة وميناء باضع ، وهم أغنى بطون البجه الداخلة ، وأكثرها مالا . وبين وادى بركة

---

(١) المصدر السابق .
(٢) المصدر السابق .
(٣) المصدر السابق .
(٤) المصدر السابق C/f. Crawford, O. G. S. : *op. cit.* pp. 99-108
(٥) ابن حوقل : صورة الأرض ، ص ٥٥ — ٥٦

وجبل مسمار ، تعيش قبائل الماتين ، وسيتراب ، وغركاى ، ودحنت . وتعيش بالقرب من سواكن ، بطون تعرف برقابات ، وحنديبا ، وهم خفراء على الحدربية (الحداربة) .

أما هؤلاء الحداربة فهم من البدو غير المستقرين ، يتنقلون فى طول البلاد وعرضها ، « وتكون بلادهم التى تمطر وتزرع ، وينتجعونها بمواشيهم طولا نحو شهرين مسيرة » ، وتمتد من النيل إلى البحر الأحمر ، يقضون شتاءهم قرب ساحل البحر ، والصيف فى بطون الأودية ، والخريف فيما قارب النيل مغربين عن ديارهم . ويخضع الحدارب لرئيسين من شيوخهم ، رئيس لكل بيت زمام ، ورئيس يسوسهم . وينقسم الحداربة إلى بطون منها : العريتيكة ، والسوتبازوا ، والحوتمة ، والعكنبيرا ، والبحريروا والحنيتيكة ، والواخيكة ، والجوبيب » . وتنقسم كل بطن من هذه البطون إلى نحو مائة فخذ ، لكل فخذ منها رئيس أو رئيسان . وتقرب ألوانهم من ألوان العرب ، بين السواد والبياض ، وتتصل بلادهم ببلاد النوبة والحبشة ، وهم مفترقون مجتمعون إلى أن يحاذوا عدن . وغذاء الحداربة من اللبن واللحم ، يأكل فقراؤهم صيد الوحش كالغزال والنعام والحمار . أما أغنياؤهم ، فلا يرون أكل الصيد ، ولا مخالطة آكله ، ولا استعمال آنية من استجاز ذلك واستحله ، ولا يحلبون فيها ، ولا يشربون . « ويتكلم الحداربة لغة البجة ، ولبعضهم لغة خاصة ينفردون بها » . أما دينهم ، فيذكر ابن حوقل « أنهم مسلمون بالاسم » .

وفى وسط وادى دجن (الجاش) يقع إقليم بقلين ، الذى ينتجعه البجه للرعى فى فصل المطر ، وعليهم ملك مسلم يتكلم العربية ، وهو تابع لملك علوة . وفى إقليم بقلين مسلمون كثيرون يشتغلون بالتجارة ، ويسافرون إلى مكة وغيرها .

أما ابن سليم الأسوانى [1] ، فإنه يضيف إلى ما ذكره ابن حوقل عن البجه ، أنهم بادية يتبعون الكلأ حيثما كان الرعى ، ينامون فى أخبية من جلود . ويتبع البجه نظام وراثة الأم ، فيورثون ابن البنت ، وابن الأخت دون ولد الصلب . والبجه أهل كرم وضيافة ، فإذا طرق أحدهم ضيف ، ذبح له من أقرب الأنعام إليه ، سواء كانت له أو لغيره . وإن لم يكن عنده شىء نحر راحلة الضيف وعوضه ما هو خير منها . ويذكر ابن سليم الأسوانى ، أن بعض نساء البجه لا يكترثن كثيراً بالمحافظة على عفافهن . فصانعات الحراب يقمن على صناعتها فى مكان لا يختلط بهن فيه رجل سوى المشترى منهن . فاذا ولدت

---

(١) المقريزى : المواعظ والاعتبار ، ج ١ ، ص ١٩٤

إحداهن من الطارقين لهن جارية استحيتها ، وإن ولدت غلاماً قتلته . ويقلن : إن الرجال بلاء وحرب . وليس فى البجه رجل إلا منزوع البيضة اليمنى ، وأما النساء فمقطوع أشفار فروجهن التى تلتحم ، ثم يشق عنها عند الزواج [1] .

وفى آخر بلاد البجه جنس يقال لهم البازة ، يتسمى فيهم الرجال والنساء باسم واحد . وحدث أن طرق بلادهم رجل مسلم ، فدعا بعضهم بعضاً وقالوا : هذا الله قد نزل إلينا من السماء . والبجه الداخلة ، الذين يقطنون صحراء علوة مما يلى البحر الأحمر إلى حدود الحبشة ، كفار يعبدون الشيطان . ولكل بطن من أولئك البجه الداخلة كاهن يقتدون به . وقد بقى فى الحدارب من هم على دين البجه الداخلة ، ومنهم من يتمسك بعاداتهم الوثنية رغم إسلامهم [2] .

والواضح أن اختلاط عرب ربيعة بالبجه ، ولا سيما الحداربة ، أملته عوامل سياسية واقتصادية كذلك . أما من الناحية السياسية ، فيبدو أن هؤلاء الحداربة ، كانوا عنصراً بارزاً بين قبائل البجه ، وأنهم أقاموا طبقة حاكمة خضع لها معظم البجه . ويظهر أن البجه كانوا فى نزاع مستمر مع جيرانهم النوبيين فى الغرب حول مواطن المياه والرعى . وكانت الغلبة فى معظم الأحوال للنوبيين . هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى ، ظهر التنافس بين القبائل العربية فى مهاجرها الجديدة ، حول امتلاك معادن الذهب والزمرد . وعادت العصبيات القديمة على ما كان عليه الحال بينها قبل وبعد الإسلام فى مواطنها الأصلية . ولذا جمعت بين ربيعة والحداربة مصالح مشتركة ، اقتضت تعاونهما معاً للتغلب على منافسيهما . ومن ذلك قول المسعودى [3] : « فأما البجة فانها نزلت بين بحر القلزم ونيل مصر ... وتتصل سراياهم ومناسرهم على النجب إلى بلاد النوبة ، فيغزون ويسبون . وقد كانت النوبة قبل ذلك أشد من البجة ، إلى أن قوى الإسلام وظهر ، وسكن جماعة من المسلمين معدن الذهب وبلاد العلاقى والعيذاب ، وسكن فى تلك الديار خلق من العرب من ربيعة بن نزار بن معد بن عدنان . فاشتدت شوكتهم ، وتزوجوا من البجة ، فقويت البجة ، ثم صاهرها قوم من ربيعة ، فقويت ربيعة بالبجة على من ناوأها وجاورها

---

(١) المصدر السابق .

(٢) المصدر السابق .

(٣) المسعودى : مروج الذهب ، نشر دى منار ودى كورتل ج ٣ ، ص ٣٢ – ٣٤

من قحطان وغيرهم ، ممن سكن تلك الديار . وصاحب المعدن فى وقتنا هذا ، وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة ، بشر بن مروان بن إسحاق بن ربيعة ، يركب فى ثلاثة آلاف من ربيعة وأحلافها من مضر واليمن ، وثلاثين ألف حراب على النجب من البجة ، فى الجحف البجاوية ، وهم الحداربة ، وهم المسلمون من بين سائر البجة . والداخلة من البجة كفار يعبدون صنما لهم » .

ويبدو من رواية لابن سليم الأسوانى ، أن عرب ربيعة لجأوا إلى وسائل مختلفة للتقرب من الحداربة ، منها : أنهم تحايلوا على كهانهم للدعوة بطاعة ربيعة والانضواء تحت لوائها ، لتتخذ منهم أعوانا ضد منافسيها من العرب ، للانفراد بحكم هذه البلاد[1] . ومما دعم هذه الصلة وقواها ، مصاهرة زعماء عرب ربيعة لرؤساء البجه . ولابد أن العرب أدركوا قيمة حق الوراثة عن طريق الأم ، أى نظام الأمومة فى وراثة الملك ، فتزوج رؤساء العرب من بنات رؤساء البجه ، لينال أبناء أولئك الرؤساء من العرب حقاً مشروعاً فى السيطرة على قبائل البجه ، حسبما يقتضيه هذا النظام الأموى .

ولعل فيما أورده ابن حوقل ، ما يوضح طبيعة هذه المصاهرة العربية البجاوية . فيذكر أنه فى زمنه ، أى فى النصف الثانى من القرن العاشر الميلادى ، كان على الحداربة رئيسان ، هما: كوك وعبدك . أما كوك فهو خال أبى القاسم حسين بن على بن بشر . وأما عبدك فهو خال ولد أبى بكر اسحاق بن بشر صاحب العلاقى[2] . والمعروف أن بنى بشر هؤلاء من ربيعة التى قدمت إلى مصر حوالى أوائل القرن الثالث الهجرى (التاسع الميلادى) ، وانتشرت فى أرجاء مصر المختلفة . وكان من أبرز بطون هذه القبيلة ثلاث ، استقرت الأولى فى بلبيس ، والثانية حول أسوان ، والثالثة فى وادى العلاقى وعيذاب . ثم سيطر أفراد العشيرة الثالثة على مناجم الذهب والزمرد بالعلاقى ، بعد أن اختلطوا بالبجه ، وطردوا من خالفهم من العرب ، مثل بنى يونس الذين عادوا إلى الحجاز . واستطاع فريق العلاقى أن يضع نواة أول إمارة عربية إسلامية فى العلاقى بزعامة أبى مروان بشر بن اسحاق . ويبدو أن فكرة إقامة إمارة عربية إسلامية لم تكن استقرت بعد تماماً فى أذهان أولئك العرب الذين كانوا ما يزالون قريبى عهد بالبداوة . ولابد أنهم اختلفوا على من يلى الزعامة فيهم ،

---

(١) المقريزى : المواعظ والاعتبار ، ج ١ ، ص ١٩٦ — ١٩٧

(٢) ابن حوقل : كتاب صورة الأرض ، ص ٥٥ — ٥٦

فنشب نزاع بين بنى بشر من ربيعة ، على زعامة العرب فى إقليم العلاقى ، قتل فيه أبو مروان بشر بن إسحاق . ومع هذا فإن ثمة رابطة كانت تربط بين بطون قبيلة ربيعة الثلاث ، بحيث لما قتل أبو مروان بشر بن إسحاق ، خلفه على رئاسة بنى بشر بالعلاقى ابن عمه أبو عبد الله محمد بن على المعروف بأبى يزيد بن إسحاق . ثم انتقل مقر هذه الإمارة العربية من العلاقى إلى أسوان ، حيث يقيم الفرع الثالث لبنى ربيعة . وأتيح لبنى ربيعة فى أسوان أن يختلطوا بالنوبيين ، وأن يتزوجوا من بنات رؤسائهم . وبذا أضحت لهم مصالح مادية فى بلادهم ، لانتفاعهم بنظام الوراثة عند النوبيين ، وهو نظام وراثة الأم . ونجح هذا الفرع من ربيعة كذلك فى أن يقيم طبقة حاكمة خضع لها النوبيون من أهل مريس (النوبة الشمالية) ، ولا سيما بعد أن تحول معظمهم إلى الإسلام [1] .

ثم اعترفت الدولة الفاطمية بهذه الإمارة العربية الإسلامية ، وخلع الخليفة الحاكم بأمر الله على أمير ربيعة فى أسوان لقب : « كنز الدولة » . وتوارث أبناؤه هذا اللقب ، « ولم تزل الإمارة فيهم ، وكلهم يعرفون بكنز الدولة » . وعرف بنو ربيعة فى أسوان والنوبة ببنى كنز . وقصد الكتاب والشعراء بنى كنز ومدحوهم ، ومن أولئك الشعراء : الشديد أبو الحسن بن عرام ، وأبو محمد الحسن ابن الزبير [2] .

ليس من المعروف تماماً ، طبيعة العلاقات بين فروع ربيعة فى أسوان والنوبة الذين عرفوا باسم بنى كنز ، وبين بنى عمومتهم أصحاب العلاقى (بنى بشر) ، بعد انتقال مركز الإمارة إلى أسوان وبلاد النوبة . أما بنو كنز ، فالمعروف أن هزيمتهم على يد الملك العادل أخى صلاح الدين ، أدت إلى رحيلهم عن أسوان ، فلم تعد مركز إمارتهم ؛ بل نقلوا مركز نشاطهم إلى الجنوب ، فى بلاد النوبة ، حيث اندمجوا اندماجاً تاماً فى سكانها . وأتيح لبنى كنز أن يشاركوا فى حوادث مملكة النوبة المسيحية ، باشتراكهم فى معظم الحملات التى جردتها السلطنة المملوكية على بلاد النوبة . ثم مكنوا لأنفسهم فيها ، بمصاهرة البيت المالك النوبى فى دنقلة . وادعى أميرهم كنز الدولة بحقه فى مُلك النوبة عن طريق وراثة الأم ، واستعان بنو كنز بالعرب المهاجرين ، والنوبيين المتوطنين فيها ، فانتزع أميرهم كنز الدولة ملك النوبة ، وأعلن استقلاله عن السلطنة المملوكية سنة ١٣٢٣ م [3] .

(١) مصطفى مسعد : الاسلام والنوبة ، ص ١٣٤

(٢) المقريزى : المواعظ والاعتبار ، ج ١ ، ص ١٩٨

(٣) المقريزى : السلوك ، نشر زيادة ، ج ٢ ، قسم ١ ، ص ١٦١

غير أن أحوال مملكة النوبة ، لم تستقر بعد سقوطها فى أيدى بنى كنز ، بل أضحت مسرحاً للاضطرابات التى كانت من عمل بنى كنز أو غيرهم من القبائل العربية التى استقرت فى بلاد النوبة ، مثل بنى جعد ، وبنى عكرمة ، والهوارة ، وبنى هلال وغيرهم ، بسبب التنافس بينها جميعاً على السلطة فى بلاد النوبة . وفى القرن الخامس عشر الميلادى تم اختلاط هؤلاء وأولئك جميعاً بالنوبيين ، من أسوان حتى دنقلة . وانتشر الإسلام ، وتكونت المجموعات النوبية المستعربة ، التى لا تختلف فى صفاتها الطبيعية وملامحها عن النوبيين الحاليين ، وهم : الكنوز ، والفديجة ، والسكوت ، والمحس ، والدناقلة .

أما بنو ربيعة فى العلاقى (بنو بشر) فلسنا نعرف عنهم شيئاً منذ انتقال مقر إمارة ربيعة إلى أسوان ، فى حوالى النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى (القرن العاشر الميلادى) . والواضح أنه تم اختلاط هؤلاء كذلك بالبجه ، وأنهم اخذوا عنهم اللغة التبداوية ، بعد أن طعموها بكثير من الألفاظ العربية ، وأنهم أعطوهم الدين الإسلامى الذى يربطهم بالنسب العربى .

* * *

أما دور الموانى على الساحل الأفريقى للبحر الأحمر ، وأثرها فى اجتذاب العناصر العربية النشيطة للمساهمة فى خدمة التجارة والاشتغال بها ، فالمعروف أن صلة عرب جنوب شبه الجزيرة العربية بالجانب الأفريقى المواجه لأوطانهم ، أقدم من ظهور الإسلام بقرون عديدة . ولقد دفعت حاجة هؤلاء للحصول على المنتجات السودانية التقليدية إلى الانتقال إلى الساحل الأفريقى للبحر الأحمر والاشتغال بالوساطة التجارية ، وهو نشاط لم يكن يهتم به كثيراً أو قليلا سكان البلاد الأصليون من البجاه ، ولذا تولى هذا العمل غيرهم من سكان شبه الجزيرة العربية . ولما ظهر الإسلام ، وقامت الدولة العربية الإسلامية ، إزداد نشاط العناصر العربية فى البحر الأحمر ، وازدادت بالتالى هجراتها إلى الساحل الأفريقى لهذا البحر ، لإحساس هذه العناصر العربية بقوة الدولة العربية الإسلامية وحمايتها لها ، ولو أنه كان من سياسة الدولة العربية فى المرحلة الأولى من مراحل التوسع الإسلامى ، اعتبار أوطان البجه دار سلام ، لا دار حرب[1] . وإذا كانت الدولة العربية لم تقم

---

(١) ابن حوقل : نفس المصدر .

من جانبها بالإشراف على هذا النشاط التجارى وإخضاعه لتنظيماتها ، أول الأمر ، فإنها لم تلبث أن تدخلت لحماية العناصر العربية الإسلامية العاملة فى الميدان التجارى وغيره بأوطان البجه ، وذلك بعد أن غدت هذه الأوطان ، فيما بين أسوان شمالا ودهلك وباضع جنوبا ، خاضعة للدولة الإسلامية منذ زمن الخليفة المأمون العباسى ، كما سبق أن أوضحنا .

ولعل باضع أقدم مركز مارس العرب فيه نشاطهم التجارى . وليس من المعروف تماماً متى نشأت هذه الميناء . وأول إشارة إليها فى المصادر العربية وردت فى صدد الحديث عن التجاء فلول الأمويين إليها حوالى منتصف القرن الثامن الميلادى . والراجح أن باضع أنشئت بأيد عربية ، وأنها كانت بمثابة نقطة ارتكاز مكنت الجماعات العربية من تثبيت أقدامها فى الوطن البجاوى الجديد[1] . ولما تخربت ميناء باضع فى القرن الحادى عشر الميلادى على الأرجح ، انتقل سكانها العرب إلى مواقع أخرى على ساحل البحر الأحمر ، واتخذوها مراكز جديدة لنشاطهم التجارى فى هذا البحر وما يليه غرباً فى وادى النيل . ومن هذه المراكز التجارية الجديدة : ميناء سواكن ، وميناء عيذاب .

أما عيذاب ، التى كانت تقع فى منطقة حلايب الحالية ، فإن قيامها وشهرتها ، يرتبط ، إلى حد كبير ، بنشاط الجماعات العربية التى انتقلت إليها من مصر . . وأول إشارة إليها فى المراجع العربية ، وردت فى كتاب فتوح البلدان للبلاذرى (ت : ٢٧٩ ﻫ ، ٨٩٢ م) ، وذلك عند الحديث عن الحملة التى قادها محمد بن عبد الله القمى سنة ٢٤١ ﻫ (٨٥٤ م) ضد قبائل البجاه . فيذكر البلاذرى أن القمى استعان بالميرة التى حملتها المراكب من القلزم إلى عيذاب ، فى التغلب على ملك البجه : على بابا[2] . ولم تلبث عيذاب أن أصبحت مركزاً هاماً لخدمة احتياجات القبائل العربية التى انثالت إلى وادى العلاقى فى قلب صحراء العتباى ، للعمل فى مناجم الذهب التى تحويها تربة هذا الوادى . ثم أضحت عيذاب منفذاً رئيسياً لتجميع معدن الذهب المستخرج من وادى العلاقى وتسويقة . وبذا صارت عيذاب بحق — على قول ابن حوقل — ميناء للذهب . وظلت عيذاب هكذا طوال القرنين التاسع والعاشر وكذلك أوائل القرن الحادى عشر . ولما نضب معين مناجم الذهب

---

(١) الشامى : الموانى السودانية .

(٢) البلاذرى : نفس المصدر ، ص ٢٣٩

فى العلاق ، وانصرف العرب عن استخراجه والاتجار فيه ، لم تفقد عيذاب أهميتها ، بل تألق نجمها ، وذاعت شهرتها منذ القرن الثانى عشر الميلادى ، وذلك لتحول قوافل الحجاج من مصر وبلاد المغرب عن طريق سيناء إلى الصعيد الأعلى (قوص) فعيذاب ، بسبب الحركات الصليبية على سواحل الشام وفلسطين ، وقيام الإمارات الصليبية بها . وبلغت عيذاب ذروة مجدها وشهرتها حينما وصلتها كذلك سفن اليمن حاملة الأخشاب والتوابل . وغدت عيذاب ميناء مصر الرئيسى على البحر الأحمر ، منذ أواخر الدولة الفاطمية إلى أوائل دولة المماليك الثانية [١] .

لفتت شهرة عيذاب أنظار الصليبيين ، فحاولوا توجيه الضربات إليها ، لقطع الطريق على الحجاج المسلمين من ناحية ، والقضاء على مركزها التجارى من ناحية أخرى . وعلى الرغم من فشل الحملة الصليبية بقيادة أرناط أمير حصن الكرك ، ضد الأماكن المقدسة الإسلامية فى الحجاز سنة ١١٨٢ م ، فإن سفن هذه الحملة حطمت ست عشرة سفينة للمسلمين فى عيذاب[٢] .

غير أن هذا الهجوم الصليبى لفت الأنظار مرة أخرى إلى أهمية عيذاب ، فازداد اهتمام سلاطين الأيوبيين والمماليك بها كلما ازدادت التجارة المصرية فى البحر الأحمر . ثم إن صحراء عيذاب أضحت « عامرة آهلة بما يصدر أو يرد من قوافل الحجاج [٣] والتجار » . فأشار الرحالة المشهور ابن جبير[٤] (ت ١٢١٧ م) إلى ازدياد النشاط التجارى ، وقوافل الحجاج التى تزخر بها عيذاب والطرق الموصلة إليها بقوله : « ورمنا فى هذه الطريق (طريق قوص — عيذاب) إحصاء القوافل الواردة والصادرة ، فما تمكن لنا ، ولا سيما القوافل العيذابية المتحملة بسلع الهند الواصلة إلى اليمن ، ثم من اليمن إلى عيذاب . وأكثر ما شاهدناه من ذلك ، أحمال الفلفل . فلقد خيل إلينا ، لكثرته ، أنه يوازى التراب قيمة . ومن عجيب ما شاهدناه بهذه الصحراء ، أنك تلتقى بقارعة الطريق أحمال الفلفل والقرفة وسائرها من السلع مطروحة ، لا حارس لها ، تترك بهذه السبيل ، إما لإعياء الإبل الحاملة لها ،

---

(١) المقريزى : المواعظ والاعتبار ، جـ ١ ، ص ٢٠٢

(٢) Newbold, D. : The Crusaders in the Red Sea and the Sudan, S. N. R., XXVIII, part 1 PP. 220-226.

راجع . أبو شامة : كتاب الروضتين ، ص ٣٥ — ٣٦

(٣) المقريزى : المواعظ والاعتبار ، جـ ١ ، ص ٢٠٢

(٤) ابن جبير : رحلته ، نشر Wright ، ص ٦٥

أو غير ذلك من الأعذار ، وتبقى بموضعها ، إلى أن ينقلها صاحبها مصونة من الآفات ، على كثرة المار عليها من أطوار الناس » .

أما عن القائمين على هذا النشاط التجارى الضخم ، فالمعروف أن عيذاب كانت تحت حكم إدارة ثنائية : أى أنه كان يحكمها وال من قبل سلطان مصر ، ووال من قبل ملك البجه . وجرى الرسم بين الطرفين أن يقسم ما يجبى من ضرائب ومكوس على التجارة نصفين [1] . ويذكر ابن الوردى أنه كان على « عامل مصر القيام بطلب الأرزاق ، وعلى عامل البجه حمايتها من الحبشة » . وجرت عادة ملك البجه الحضور إلى عيذاب من حين إلى آخر لمقابلة الوالى المصرى إظهاراً للطاعة لسلطان مصر ، ومقابلة نائبه فى عيذاب كذلك .

أما القوافل بين عيذاب والنيل ، فكانت تسلك إحدى طرق ثلاث : إلى أسوان أو قفط أو قوص . وموضع الأهمية هنا أن القائمين على أعمال النقل فى طريق عيذاب ، وأصحاب القوافل بها ، كانوا من عرب بلى ، وهم ضمانها كذلك [2] . وعلى الرغم من عودة قوافل الحجاج إلى طريق سيناء ، وتوقفها عن المرور بعيذاب ، فانها ظلت تقوم بدورها فى خدمة التجارة بين الشرق والغرب . وظلت عيذاب هكذا حتى خربها السلطان برسباى سنة ١٤٢١ م [3] .

أما سواكن فإنها من أقدم موانى الساحل الأفريقى للبحر الأحمر . غير أن المصادر العربية لم تشر إليها إلا فى منتصف القرن الثامن الميلادى ، حين مر بها فلول الأمويين الهاربين من مذابح العباسيين . فيذكر المقريزى [4] أنه كان يربط بين سواكن وباضع وجزر دهلك من ناحية ، وبين النيل من ناحية أخرى ، طريق . ولعله الطريق الحالى المعروف باسم طريق سواكن — بربر . وسكان سواكن من الخاسة ، وهؤلاء كانوا يكونون الطبقة الدنيا فى المجتمع البجاوى الإقطاعى الذى فرضه الحداربة على سكان هذا الإقليم . ويذكر الدمشقى [5] أن الخاسة هؤلاء منهم طائفة تدعى الخاسة السفلى كفار ، وخاسة العليا مسلمون ،

---

(١) ابن الوردى : نفس المصدر ، ص ١٧٠

(٢) ابن جبير : رحلته ، ص ٦٣

(٣) Browne : The History and Description of Africa by Leo Africanus, done into English by John Pory 1600. Hakluyt Society, vol. III, p. 837

(٤) المقريزى : المواعظ والاعتبار ، ج ١ ، ص ٢٠٢

(٥) الدمشقى : نخبة الدهر ، فى عجائب البر والبحر ، نشر M.F. Mehren ، ص ٢٦٩

وهم أقل الناس غيرة ونخوة على النساء . وغالب هؤلاء لا يلبسون المخيط، ولا يسكنون المدن.

ويتضح اهتمام مصر بتجارة البحر الأحمر وساحله الأفريقي ، من علاقات الدولة المملوكية بميناء سواكن المطل على ممالك النوبة المسيحية . ففي سنة ٦٦٢ هـ (١٢٦٤ م) احتج السلطان بيبرس إلى كل من صاحب سواكن وصاحب جزر دهلك لتعرضهما لأموال المتوفين من التجار المصريين . والراجح أن متملك سواكن لم يستجب للاحتجاج المملوكي ، ولم يكد يمضي عام وبعض عام ، حتى بعث والى قوص ، تنفيذاً لأمر السلطان بيبرس ، حملة حربية لتأديب صاحب سواكن سنة ٦٦٤ هـ (١٢٦٥ م) . ومن نتائج هذه الحملة ، انهيار نفوذ صاحب سواكن وفراره ، واستقرار حامية مملوكية بسواكن نفسها ، فضلا عن فرض أموال الزكاة على سكانها لحساب الدولة المملوكية[1] ، وهي الأموال التي أشرف على جبايتها ، والى عيذاب وقاضيها .

والواضح أن معظم قبائل البجاه ظل محتفظاً بطابعه القديم في العهد العربي ، وهؤلاء هم الذين كانوا يعيشون في الجبال الوعرة والجهات النائية التي لم يشتد فيها النفوذ العربي ، ومن ثم لم يتيسر لهم فيها الاختلاط بالعرب اختلاطاً واسعاً . ومع هذا فإن رؤساء هذه القبائل ، وكثيراً من عامتهم كذلك ، اتصلوا بالعرب ، وشاركوهم في النشاط التجاري ، ولا سيما في الموانى ، والأقاليم المتصلة بها مثل مناجم الذهب والزمرد في العتباى وغيرها .

* * *

والمعروف أن الهجرات العربية التي انثالت على أوطان البجه بعد الفتح العربي لمصر ، تأثر بها بعض قبائل البجه ، وهي القبائل التي اتصلت بالعرب وصاهرتهم . وتسنى لأولئك العرب أن ينشروا الإسلام والثقافة العربية بين أفرادها ، بنسب مختلفة تتفاوت عمقاً وسطحية من إقليم إلى آخر حسبما تمليه ظروف هذا الاختلاط .

يبدو ذلك واضحاً من وصف ابن جبير لبعض أولئك البجه حيث يقول: «وهذه الفرقة من السودان المذكورين (البجاه) ، فرقة أضل من الأنعام سبيلا ، وأقل عقولا ؛ لا دين لهم سوى كلمة التوحيد التي ينطقون بها ، إظهاراً للاسلام . ووراء ذلك من مذاهبهم الفاسدة وسيرهم ما لا يرضى ولا يحل . ورجالهم ونساؤهم يتصرفون عراة ، إلا خرقاً يسترون بها عوراتهم ، وأكثرهم لا يستترون . . . »[2] .

---

(١) المقريزى : السلوك ، ج ١ ، قسم ٢ ، ص ٥٥٨

(٢) ابن جبير : رحلته ، ص ٦٩

إذا كان هذا حال بعض جماعات البجه التى اعتنق أفرادها الإسلام حتى عصر ابن جبير (القرن الثانى عشر الميلادى) فإن أحوال جميع قبائل البجه تغيرت تماماً فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر للميلاد . فاعتنق الجميع الإسلام ، وتأثروا بالثقافة العربية ، وإن بقيت فيهم بعض العادات والتقاليد القديمة التى لم يتخلوا عنها حتى الوقت الحاضر ، وهى ظاهرة يشاركهم فيها كثير من الشعوب التى تدين بالإسلام أو المسيحية فى أقطار أخرى [1] .

أما عن انتشار الإسلام والثقافة العربية بين قبائل البجاه فى هذين القرنين (١٤ — ١٥م) ، فمرجعه انثيال الهجرات العربية على نطاق واسع إلى السودان عبر أوطانهم ، منذ القرن الثالث عشر الميلادى ، بسبب الأحداث التى طرأت على العالم الإسلامى فى هذا القرن وما بعده . فالمعروف أن سقوط بغداد فى أيدى المغول ، وقتل الخليفة العباسى المستعصم وكثير من آل بيته ، أثار موجة من الرعب والفزع ، دفعت بكثير من القبائل العربية إلى الهجرة إلى السودان وغيره من الأقطار .

يضاف إلى هذا أن قيام السلطنة المملوكية فى مصر فى منتصف القرن الثالث عشر الميلادى ، وسقوط مملكة النوبة المسيحية (مقرة) فى أيدى العرب أوائل القرن الرابع عشر الميلادى ، أدى إلى زيادة جموع العرب المهاجرين من مصر إلى السودان . مرجع ذلك — على قول ماكمايكل — أن أولئك العرب لم يطب لهم المقام فى مصر ، ولا سيما بعد أن فقدوا ميزاتهم القديمة ، وأصبح ينظر اليهم على أنهم عنصر غير مرغوب فى بقائه ، فاستبدل بهم قوات حربية نظامية مدربة ، لأنهم لا يجيدون سوى شن الإغارات للحصول على الغنائم ، فضلا عن مماطلتهم فى دفع الضرائب ، وإثارة القلاقل . وفى القرن الرابع عشر أصبح ينظر إليهم على أنهم خارجون على القانون .

ثم إن رغبة العرب فى العيش عيشة البداوة والحرية التى تعودوها فى بيئتهم الأصلية ، والبحث عن مراع واسعة تناسب حياة الإبل والأغنام ، والتى لا يتوفر وجودها فى مصر ، دفعت بالعرب إلى الهجرة جنوباً ، حيث البيئة الرعوية التى تشبه بعض جهاتها البيئة الأصلية فى الجزيرة العربية . هذا فضلا عن رغبة أولئك العرب فى الحصول على الرقيق [2]

---

(١) محمد عوض محمد : نفس المصدر ، ص ٣٥ — ٣٦

(٢) Hamilton, ed. : *op. cit.* pp. 47-50.

C/f. Reid, J. A. : « Some Notes on the Tribes of the White and Blue Nile Provinces ». S. N. R. XIII, part II, 1930, p. 51.

ثم إن السلطنة المملوكية سمحت لأولئك العرب بالرحيل من مصر ، وأكثر من هذا أنها أمعنت فى مطاردتهم فى أوطان البجه ذاتها . من ذلك ما أورده النويرى فى كتابه « نهاية الأرب » ، بصدد حملة مملوكية جردها السلطان الناصر محمد بن قلاون سنة ٦١٧ ﻫ (١٣١٧ م) ضد العرب الذين يسكنون حول عيذاب ، لاعتدائهم على بعثة أرسلها ملك اليمن بهدية إلى السلطان المملوكي . وأوغلت هذه الحملة جنوبا حتى سواكن ، واتجهت غرباً إلى التاكه ، وإلى جهة الأبواب ، ثم عادت إلى مصر عن طريق دنقلة [١] .

والواضح تماماً ، أن سقوط مملكة مقرة المسيحية أوائل القرن الرابع عشر ، أدى إلى ازدياد موجات الهجرات العربية ، ولا سيما بعد أن بات السابقون من العرب فى شغل بمنازعاتهم الداخلية عن المهاجرين الجدد . وربما كان أشد هذه الهجرات العربية عنفاً ، هجرة جهينة التى أشار إليها ابن خلدون .

لكن كيف شق أولئك العرب طريقهم نحو الجنوب عبر أوطان البجه ؟ هل اضطروا إلى استخدام السيف والدخول فى حرب ضد هذه القبائل ، وشن الإغارات عليها ؟ يقول ابن خلدون بصدد هجرة جهينة إلى السودان ما نصه : « وانتشروا (أى جهينة) ما بين صعيد مصر وبلاد الحبشة ، وكاثروا هنالك سائر الأمم . . . وحاربوا الحبشة فأرهقوهم إلى هذا العهد » [٢] . لكن أولئك العرب ، إذا كانوا اضطروا أحياناً إلى اتباع وسائل العنف ، فإن الطابع العام لهذه الهجرات ، كان طابعاً سلمياً ، ونجحوا فى تحقيق مآربهم ، لا بحد السيف ، بل بالاختلاط بالبجه وغيرهم .

أما عن اضطراب أحوال بلاد النوبة وأوطان البجه حتى حدود الحبشة ، فكان بسبب النزاع بين القبائل العربية ذاتها لسبب أو لآخر . فتشير بعض الروايات التاريخية إلى وجود مثل هذا النزاع بين قبيلتى جهينة ورفاعة أواخر القرن الثالث عشر الميلادى قرب عيذاب [٣] .

والمعروف أن الجماعات العربية التى هاجرت إلى السودان عبر أوطان البجه ، اشتملت على قبائل عدنانية وقحطانية . فمن العدنانيين : الكواهلة وبعض القبائل الصغيرة الأخرى ،

(١) النويرى : نهاية الأرب ، ج ٣٠ ، ص ٩٦ - ٩٧

(٢) ابن خلدون : العبر ، ج ٢ ، ص ٢٤٧

(٣) المقريزى : السلوك ، ج ١ ، قسم ٣ ، ص ٧٠٠

انظر كذلك Bloss, J. F. E. : *op. cit.* p. 281

مثل الرشايدة . ومن القحطانيين : قبيلة جهينة وبطونها المختلفة . ولعل أول إشارة إلى بنى كاهل ، وردت فى رحلة ابن بطوطة إلى عيذاب وسواكن ، فى منتصف القرن الرابع عشر (١٣٥٣ م) ، فذكر أن أولاد كاهل يسكنون المنطقة الممتدة من عيذاب إلى سواكن ، وهم مختلطون بالبجه ، عارفون بلسانهم [١] » . وليس من المعروف تماماً ، متى استقر أبناء كاهل بين البجه . والراجح أن هجرتهم إلى هذه الأقاليم سابقة لهذا التاريخ (منتصف القرن الرابع عشر) ، بدليل أنهم كانوا يعرفون وقتذاك لغة البجه .

ويقال إن الكواهلة ينتسبون إلى كاهل بن أسد بن خزيمة ، وأنهم جاءوا إلى السودان من جزيرة العرب مباشرة ، عبر البحر الأحمر ، واستقروا فى الأقاليم الساحلية ، بين سواكن وعيذاب [٢]. غير أنه لا يوجد من الدلائل ما يؤيد هذه الصلة المباشرة بالجزيرة العربية [٣]. والراجح أن هجرة أولاد كاهل كانت عن طريق مصر . إذ تقول روايات العبابدة [٤] ، إنهم ينتسبون إلى عباد من نسل الزبير بن العوام . وإن جدهم عباداً قدم من جزيرة العرب إلى مصر فى القرن الثالث عشر الميلادى ، ثم مات ودفن فى وادى عباد قرب أدفو ، وإن عباداً هذا جد كاهل ، ومن ذريته أولاد كاهل الذين أشار إليهم ابن بطوطة . واختلط أولاد كاهل بالبجه عن طريق المصاهرة ، ونالوا مراكز الزعامة فيهم .

أما جهينة فانها تزعم الانتساب إلى عبد الله الجهنى [٥] . وإذا كان يشك فى صحة هذه النسبة ، فان جميع الشواهد تدل على نسبتها إلى قبيلة جهينة القحطانية التى عاشت حول ينبع من حوالى ١٣٠٠ سنة . ومن هذا المركز توالت هجراتها إلى مصر [٦] . ثم توالت هجراتها إلى السودان عن طريق بلاد النوبة وأوطان البجه ، منذ منتصف القرن التاسع الميلادى . وانتشرت جماعات من جهينة فى أوطان البجه ، حتى وصلت إلى سواكن فى أواخر القرن الثالث عشر الميلادى ، بدليل ما أشار إليه المقريزى من نشوب نزاع بينها وبين رفاعة سنة ٦٨١ هـ (١٢٨١ م) قرب سواكن [٧]. ثم انتشروا جنوباً إلى بلاد الحبشة

---

(١) ابن بطوطة : الرحلة ، ج ١ ، ص ١٥٤

(٢) عوض : نفس المصدر ، ص ١٤٣

(٣) MacMichael, H. A. : *op. cit.* p. 324.

(٤) Murray, G. W. : Sons of Ismail, p. 30.

(٥) عوض : نفس المصدر ، ص ١٤٤ ، MacMichael, H. A. : *op. cit.* p. 237.

(٦) Ibid : *op. cit.* pp. 237-238.

(٧) المقريزى : السلوك ، ج ١ ، قسم ٣ ، ص ٧٠٠

ولا بد أن جهينة كانت من القوة بحيث يقول عنها ابن خلدون : « إنها حاربت الحبشة وأرهقتها حتى هذا الحين» ، وهو أواخر القرن الخامس عشر الميلادى. وأدى توالى وصول هجرات من جهينة إلى السودان إلى كثرة عدد بطونها كثرة واضحة . فتقول إحدى الروايات الوطنية فى السودان : « إنه كان لجهينة ٥٢ وحدة قبلية قرب سوبا على النيل الأزرق ، وأكثر منها فى الأقاليم الغربية ، فى أوائل القرن السادس عشر الميلادى» (١) .

ويبدو أن كثيراً من القبائل العربية من غير جهينة شاركت جهينة فى مواطنها الجديدة بأوطان البجه ، فنشأت فى هذه الأوطان عدة إمارات عربية مستقلة . ويذكر القلقشندى أن من بين الإمارات التى نشأت فى أوطان البجه حتى الحدود الحبشية وبلاد النوبة كذلك ثمانى إمارات ، كان بين أمرائها وبين السلطنة المملوكية فى مصر مراسلات فى القرنين الثامن والتاسع للهجرة (الرابع عشر والخامس عشر للميلاد) ، وهؤلاء الأمراء هم : سمرة بن كامل العامرى ، وعباد بن قاسم ، وكال بن سوار ، وجنيد شيخ الجوابرة من الهكارية بأبواب النوبة أيضاً ، وعلى شيخ دغيم ، وزامل الثانى ، وأبو مهنا العميرانى (٢) . وإذا كان من غير الميسور تحقيق مواطن هذه الإمارات العربية والتعرف على أصولها ، فالواضح أن بعضها يقع فى بلاد النوبة ، والبعض الآخر فى أوطان البجه ، حتى حدود الحبشة . وربما كان الأمير سمرة بن كامل العامرى ، هو سمرة بن ملك شيخ الحداربة أو من سلالته ، وهو الأمير الذى أشار العمرى فى كتابه « التعريف بالمصطلح الشريف » إلى علاقته بالسلطنة المملوكية (٣) .

ومن الجماعات العربية التى هاجرت إلى أوطان البجه واختلطت بهم عن طريق المصاهرة ، قبيلة الأشراف ، وهؤلاء ظهروا لأول مرة فى سواكن حوالى سنة ١٣٥٠م (٤) . ويبدو أن أولئك الأشراف خضعوا للسلطنة المملوكية . فيقول العمرى: « أما سواكن ، ففيها الشريف زيد بن أبى نمىّ الإدريسى الحسنى [وهو] فى طاعة صاحب مصر (٥) » .

(١) MacMichael, H. A. : *op. cit.* II, p. 28.

(٢) القلقشندى : صبح الأعشى ، جـ ٨ ، ص ٥ — ٦

(٣) العمرى : التعريف بالمصطلح الشريف ، ص ٧٧

(٤) Paul, A. : *op. cit.* p. 75

(٥) العمرى : مسالك الأبصار ، مخطوطة ، جـ ٢ ، ص ٣١٢

وثمة ملحوظة هامة هنا ، هى أنه على الرغم من اشتداد تيار الهجرات العربية إلى أوطان البجه منذ القرن الثالث عشر الميلادى ، فإن أثر هذه الهجرات العربية فى هذه الأوطان ، كان محدوداً بالقياس إلى أثرها فى بعض أقاليم السودان الأخرى . مرجع ذلك ، فى الغالب ، أن كثيراً من الجماعات العربية لم يطب لها المقام طويلاً فى أوطان البجه ، بل آثرت هذه الجماعات — ولا سيما تلك التى حافظت على بداوتها — الانتقال غرباً الى أرض الجزيرة وكردفان ودارفور . ويمكن تشبيه تلك الحركة بحركات عرب جهينة الذين هاجروا من مصر إلى السودان بطريق النيل فى القرن الرابع عشر الميلادى . فقد استقرت جماعات منهم مدة فى بلاد النوبة الشمالية ، وهناك أتيح لهذه الجماعات العربية أن تختلط بالنوبيين مدة حتى تم لها تحويل الأقلية المسيحية إلى الإسلام ، والقضاء على ماتبقى من مظاهر المملكة المسيحية فيها . ثم لم تلبث هذه الجماعات الجهنية ، التى لم تتخل عن بداوتها ، أن انتقلت غرباً إلى كردفان ودارفور ، وشرقاً الى جزيرة النيل الأزرق حتى حدود الحبشة ، وذلك لفقر بلاد النوبة وندرة مراعيها بالقياس إلى الأقاليم الجديدة التى هاجروا إليها . ولذا لم يتح للنوبيين، من أسوان الى دنقلة ، أن يتعربوا تعريباً تاماً ، ولكن تعربوا تعريباً جزئياً ؛ بمعنى أنهم اعتنقوا الإسلام ، وتعلموا اللغة العربية ، مع احتفاظهم بلغتهم النوبية ؛ التى لم يتخلوا عنها حتى اليوم .

وعليه يمكن القول إن أوطان البجه كانت أحد الأبواب الرئيسية التى دخل منها الإسلام والثقافة العربية إلى السودان . وإذا كانت بعض القبائل العربية التى هاجرت إلى أوطان البجه فى أعقاب الفتح العربى لمصر قد استقرت فى هذه الأوطان ، ولا سيما بعد كشف مناجم الذهب والزمرد فى إقليم العلاقى ، فإن القبائل العربية التى هاجرت إلى هذه الأوطان منذ القرن الثالث عشر الميلادى لم تستوطنها طويلاً ، بل انتقلت غرباً إلى وسط السودان وغربيه ، وجنوباً إلى الحبشة ، لأسباب منها : قلة الماء والمرعى ، ونفاذ موارد الذهب والزمرد بالعتباى ، وتوقف العمل فى مناجمها منذ القرن الرابع عشر الميلادى على الأقل . ثم إن كثرة الاضطرابات التى كانت تثيرها قبائل البجه ، وهى القبائل التى لم تختلط تماماً بالعرب ، جعلت كثيراً من القبائل العربية تسعى للبحث عن مهاجر جديدة أكثر أمناً وهدوءاً [1] ؛ ولعل تخريب ميناء عيذاب على يد السلطان برسباى سنة ١٤٢٦ م

---

(1) Newbold, D. : «The Beja Tribes ... », Anglo Egyptian Sudan from within, ed. Hamilton, p. 153.

كان بسبب شغب بعض جماعات البجه واعتدائهم على إحدى قوافل الحجاج المسافرة إلى مكة بطريق عيذاب [1] .

ومن أبرز الأمثلة الدالة على أن بعض القبائل العربية التى استقرت مدة فى الوطن البجاوى ، هاجرت منه إلى وسط السودان وغربيه ، هجرة بنى كاهل ، وهؤلاء هم الذين رآهم ابن بطوطة فى منتصف القرن الرابع عشر الميلادى مختلطين بالبجه عارفين بلسانهم ؛ فقد انتقلت بطون منهم إلى جهات أتبرا والنيل الأزرق فى القرن الخامس عشر واحتشدت فيه ، ثم انتقلت جماعات منهم آتية من الشرق ، ونزحت إلى جهات النيل الأبيض وكردفان فى أزمنة متعاقبة [2]. وبذا أضحى لبنى كاهل — الذين عرفوا فيما بعد باسم الكواهلة — أوطان ثلاثة ، ولو أنه لم يبق لهم فى أوطان البجه فى الوقت الحاضر أهمية تذكر ، وذلك على الرغم من انتشارهم الواسع فى هذه الأوطان فى القرن الرابع عشر .

* * *

وإذا كانت الجماعات العربية التى هاجرت الى أوطان البجه بعد الفتح العربى لمصر ، نجحت فى تعريب بعض قبائل البجه تعريباً جزئياً ، باعتناق بعضها الإسلام اعتناقاً ضعيفاً ، فإن أثر الهجرات العربية المتأخرة نسبياً (أى منذ القرن الثالث عشر الميلادى) نجحت فى نشر الإسلام والثقافة العربية بين عامة البجه فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر للميلاد ، بحيث غدت جميع قبائل البجه تعتنق الإسلام ، ويعرف كثير منهم اللغة العربية ، مع تمسكهم بلغتهم التبداوية ، وهى اللغة التى تسرب إليها قدر كبير من الألفاظ العربية ، كما تأثرت ببعض الصيغ النحوية فى اللغة التبداوية باللغة العربية [3].

ويرتبط بهذا الأثر الثقافى أثر آخر لايقل عنه خطراً ، وهو الأثر السلالى . فقد كان لهذه المرحلة من مراحل الهجرات العربية إلى السودان عبر أوطان البجه أثر واضح فى تكوين المجموعات البجاوية كما نعرفها اليوم وهى : البشاريون ، والأمرأر ، والهدندوة ، وبنى عامر . والمعروف أن البشارين والأمرأر وبنى عامر ، ينتسبون إلى بنى كاهل .

---

(١) Paul, A. : *op. cit.* p. 76.
Paul, A. : « Aidhab : A Medieval Sea port » S. N. R., XXXII, part 1, p. 67.

(٢) عوض : نفس المصدر ، ص ١٤٨

(٣) C/f. : Newbold, D. : *op. cit.* p. 153.

ومما لاشك فيه أن الإسلام رفع من شأن هذه النسبة ودعمها . وبذا طغى الإسلام والنسب العربي الجديد على النسب الحامى القديم . وإذا كان يشك فى صحة هذه النسبة العربية ، فليس ثمة شك فى تسرب نسبة كبيرة من الدماء العربية — شمالية وجنوبية سواء — إلى هذه الجماعات البجاوية ، طوال العصر العربي (١) .

ومن الملحوظ هنا أن ظهور المجموعات البجاوية الرئيسية — البشارين ، والهدندوة ، والأمرأر ، وبنى عامر — ارتبط ارتباطاً كبيراً بظاهرة مألوفة فى الشعوب البدوية ، فقد تبرز إحدى وحداتها الصغيرة فى شكل أسرة يتصف بعض أفرادها بالشجاعة وقوة المراس ، ثم لم تلبث هذه الأسرة أو الوحدة الصغيرة أن تتغلب على بعض الوحدات الصغيرة الأخرى وتفرض سلطانها عليها ويندمج المغلوب فى الغالب ويعقد اللواء للوحدة التى استطاعت أن تفرض سلطانها وتوسع نفوذها على حساب غيرها (٢) .

وتكاد تجمع روايات البشارين وقصصهم على أن أجدادهم كانوا يعيشون فى جبل علبة بالقرب من عيذاب ، وأنهم ينتسبون إلى كاهل . وليس بمستبعد أن يكون لهذه الدعوى فى الانتساب إلى كاهل أساس تاريخى ، فابن بطوطة أشار إلى اختلاط بنى كاهل بالبجه من عيذاب إلى سواكن . ومن اليسير أن نتصور أن بعض الأمراء من بنى كاهل أصهر إلى البجه ، ثم ورث الإمارة والرئاسة فيهم . وقد يكون أولئك البجه ممن اختلطوا ببنى بشر بن مروان من ربيعة فى القرن العاشر الميلادى ، وربما كان هؤلاء من سكان مملكة نقيس ، إحدى الممالك البجاوية التى أشار اليها اليعقوبى . ومن هذا الاسم الأخير ظهر اسم بشاريى أم ناجى ، وهو اسم مزدوج ذو أصلين : أصل بجاوى هو نقيس وأصل عربى هو بنو بشر من ربيعة (٣) . وليس من المستبعد أن يكون أولئك البجه نسوا أصول هذه النسبة البجاوية العربية القديمة بمرور الزمن ، ولم يحتفظوا إلا بصلتهم ببنى كاهل . وربما كانت الوحدة البجاوية التى تولت إخضاع الوحدات البجاوية الأخرى من بشاريى نقيس ، غير أنها لم تحتفظ بأصول النسبة البجاويه العربية القديمة لعدم تدوين تاريخها . ولما كانت صلتهم ببنى كاهل أقرب نسبياً ، فإن صداها انتقل من جيل إلى جيل ، وحفظها الخلف

Paul, A. : *op. cit.* pp. 79 (١)

(٢) عوض : نفس المصدر ،

(٣) أنظر ما سبق :

Trimingham, J. S. : Islam in Ethiopia, p. 80. c/f. Crawford, O.G.S. : *op. cit.* p. 114 ,

عن السلف ، فاصطنعوا الأنساب لتأييد هذه الصلة وتدعيمها ، وربط الوحدات البجاوية التي خضعت لهم بهذه النسبة ، وذلك لإدماجها جميعاً في قبيلة واحدة .

وعلى الرغم من اختلاف روايات البجه فى تفاصيل نسبتهم ، فإن هذه الروايات جميعاً تكاد تلتقى حول ثلاث شخصيات بارزة كان لها الفضل فى تأسيس قبيلة البشارين ، وهؤلاء هم : بشار ، وكوكا ، وعنقو . ويعد عنقو المؤسس الحقيقى لقبيلة البشارين كما نعرفها اليوم . ومن هذا الجد أيضا تفرعت فروع البشارين الثلاثة المعروفة : أم على ، وأم ناجى وهنار [١] .

وفى حوالى منتصف القرن الثامن عشر الميلادى ، استطاع البشاريون فى إقليم جبل علبة على البحر الأحمر أن يمدوا نفوذهم على إقليم العتباى . وفى أواخر القرن الثامن عشر ، انتهز زعيم البشارين فرصة النزاع بين بعض قبائل البجه وبين عرب البطاحين ، وغزا الأراضى الواقعة غربى نهر أتبرا وضمها إلى أملاك البشارين [٢] .

ويرتبط بقصة ظهور البشارين وتوسعهم ، اختفاء جماعة أخرى من البجه المعروفين بالحداربة . وهؤلاء هم بقية الحدارب الذين تحدث عنهم المؤلفون العرب فى العصور الوسطى. والراجح أن أولئك الحداربة من أصل عربى ؛ قدموا من حضرموت إلى السودان عبر البحر الأحمر قبل الإسلام ، واختلطوا بقبائل البجه الشماليين ، وورثوا الملك والزعامة فيهم . وقد ساعد اختلاطهم بعرب ربيعة فى العلاقى منذ القرن العاشر الميلادى ، على استمرار تسرب الدماء العربية إليهم . وحتى القرن الرابع عشر الميلادى كان أولئك الحداربة يعتبرون فى سجلات الدولة المملوكية عرباً ، وكانوا وقتذاك أكبر قوة حربية فى الأقاليم التى يحتلها البشاريون اليوم . فيقول العمرى عن الحداربة « . . . وشيخ الحداربة سمرة بن ملك ، وهو ذو عدد جم وشوكة مكينة ، يغزو الحبشة وأمم السودان ، ويأتى بالنهاب والسبايا ، وله أثر محمود وفعل مأثور . ووفد على السلطان وأكرم مثواه ، وعقد له لواء ، وشرف بالتشريف وقلد . وكتب [السلطان] إلى ولاة الوجه القبلى عن آخرهم ، وسائر العربان بمساعدته ومعاضدته والركوب للغزو معه متى أراد . وكتب له منشور بما يفتح من البلاد ، وتقليد بامرة العربان القبلية مما يلى قوص إلى حيث تصل غايته وتركز رايته . أما رسم المكاتبة إليه فيشبه رسم المكاتبة إلى بقية أمراء العربان فى مصر وغيرها [٣] » .

---

(١) عوض : نفس المصدر ، ص ٧١

(٢) Paul, A. : *op. cit.* p. 96.

(٣) العمرى : التعريف ، ص ٧٧

ولقد أدى نضوب مناجم الذهب والزمرد بالعلاقى ، وتخريب ميناء عيذاب ، فى حوالى منتصف القرن الخامس عشر الميلادى إلى ضعف شوكة أولئك الحداربة واضمحلال نفوذهم [1] ؛ فهاجر كثير منهم جنوباً إلى إقليم سواكن ، ولم يبق منهم فى إقليم العتباى سوى جماعات قليلة . وصادفت هذه التطورات ، قيام البشارين واشتداد شوكتهم ، بأن تولى زعامتهم سلسلة متتالية من المحاربين ذوى الكفاية والأطماع البعيدة ، فأفضى تنازع البقاء إلى نشوب نزاع طويل بين البشارين وبين بقايا الحداربة ، انتهى بطردهم أواخر القرن الخامس عشر الميلادى [2] . ومن بقى منهم اندمج فى البشارين اندماجا تاما .

ومن القبائل البجاوية الصميمة التى تحمست للانتساب إلى العرب ـ ولا سيما إلى بنى كاهل ـ قبيلة الأمرأر ، وذلك على الرغم من أنهم يمثلون عنصراً حامياً أصيلاً . ولعلهم الهماعر الذين أشار إليهم اليعقوبى فى القرن التاسع الميلادى . ويزعم الأمرأر أنهم ينحدرون من «أمَر» أحد أبناء أو أحفاد كاهل. ويقال إنه كان لأمَر ثلاثة إخوة :هم مرغم جد «المرغاب» ، وكال جد « الكالاب » ، وكميل جد « الكميلاب » . ولسنا نعرف عن والد أولئك الرجال الثلاثة شيئا . وليس من المستبعد أن يكون فعلاً من إحدى القبائل العربية واستطاع بمصاهرته إحدى الأسر البجاوية أن يؤسس هذه القبيلة البجاوية الهامة بفروعها المختلفة . وفى حوالى منتصف القرن السابع عشر الميلادى ، عقد لواء القبيلة كلها لشعبة عثمان التى نجحت فى أن تتوسع ناحية الغرب خلال المائتى سنة الأخيرة ، حتى تم لها احتلال جميع الأقاليم التى تسكنها قبيلة الأمرأر اليوم [3] .

وعلى الرغم من أن الهدندوة من صميم البجه ، فانهم جاروا جيرانهم من العناصر البجاوية الأخرى مثل الأمرأر والبشارين فى الانتماء إلى أصول عربية . ولا بد أن لهذه النسبة العربية أساساً تاريخياً . فالمعروف أن الإقليم الذى نشأت فيه هذه القبيلة كان يقع بالقرب من سواكن ، وظل هذا الإقليم مركزاً من مراكز النشاط التجارى الذى حمل لواءه العرب منذ القرن الثامن الميلادى على الأقل . غير أن أثر الجماعات العربية التى هاجرت إلى هذا الإقليم ، قبل القرن الثالث عشر الميلادى ، فيمن اختلطت بهم من البجه كان ضئيلا ، بالقياس إلى أثر الجماعات العربية التى وفدت إلى هذا الإقليم

---

(١) Paul, A. : *op. cit.* p. 76.

(٢) Ibid. *op. cit.* p. 78.

(٣) عوض : نفس المصدر ، ص ٩٨ — ١٠٠

منذ القرن الثالث عشر . ويبدو أثر الهجرات العربية المتأخرة نسبياً ، (منذ القرن ١٣ م) ، فى نشر الإسلام والعروبة فى هذا الإقليم ، مما يرويه الهدندوة أنفسهم بصدد الوقوف بنسبهم عند جماعة الأشراف ، وهى الجماعة العربية التى ذكر العمرى أنها كانت تقطن جزيرة سواكن، وكانت خاضعة لسلطان مصر [١]. وتذكر رواية الهدندوة أن شريفاً عربياً يدعى محمد هداب[٢] هاجر من الحجاز الى أرض البجه. ثم تزوج هذا الأمير العربى أميرة من أحفاد أمير بجاوى يدعى شكايتل . وأنجب الشريف العربى من الأميرة البجاوية فتى يدعى محمد مبارك ، وهو الذى عرف باسم محمد براكوين ،أى : محمد الجرىء .ثم تزوج محمد براكوين هذا من فتاة عربية شريفة الأصل تدعى هدات . وقد أنجبت هذه السيدة سبعة أولاد تأصلت فيهم الدماء العربية عن طريق أمهم هدات وجدهم هداب .

ويستدل من روايات الهدندوة أن عهد محمد براكوين ، لا يرجع إلى أبعد من أواخر القرن السابع عشر أو أوائل القرن الثامن عشر ، وهو الوقت الذى بدأ فيه اسم « هدندوة » فى الظهور على مسرح الحوادث فى الوطن البجاوى . ويقال إن اسم « هدندوة » هذا مشتق من « هدابندوه ،أى قبيلة الأسد ، أو من « هداتندوه » أى قبيلة هدات[٣]. ولعله مشتق من اسم قبيلة بجاوية قديمة تدعى « حدان » ، وهى القبيلة التى ذكر ابن حوقل أنها كانت تسكن فى الطريق الموصل بين قفط وميناء عيذاب [٤] .

وليس من شك أن القرن السادس عشر الميلادى ، شهد صراعاً عنيفاً بين قبائل البجه نفسها من ناحية ، أو بينها وبين مملكة الفونج لوقف امتداد نفوذها إلى أوطانهم من ناحية أخرى . وربما يرجع أول نشاط الهدندوة فى سبيل التوسع إلى هذا القرن كذلك . ولم تكن المصاهرة بينها وبين جماعات من البجه ، أو العرب من الجعليين والشكرية ، أو الفونج ، هى الوسيلة الوحيدة لتحقيق مشاريعهم التوسعية ، بل لجأوا إلى وسائل أخرى منها : السلب والنهب ، وشن الإغارات على جيرانهم . ففى أوائل القرن السابع عشر، استطاعت جماعة الهدندوة أن تطرد بقايا البلو مما هو معروف فى الوقت الحاضر باسم إقليم أركويت وسنكات [٥] ، وأن تدفعهم نحو الجنوب . واستطاعت شعبة أخرى أن تزيح

---

(١) العمرى : مسالك الأبصار ، جـ ٢ ، ص ٣١٢

(٢) Paul, A. : *op. cit.* p. 77.

(٣) Ibid. *op. cit.* p. 77, n.

(٤) ابن حوقل : كتاب صورة الأرض ، ص ٥٥ — ٥٦

(٥) Paul, A. : *op. cit.* pp. 77-78.

البشارين نحو الغرب . وانتهز ويلالى محمد اضمحلال مملكة الفونج فى أواخر القرن الثامن عشر، وأخذ فى التوسع على حسابها ناحية الجنوب .ثم تغلب ابنه وحفيده على جماعات كثيرة من الحالنقا وملهتكناب ، حتى تم له احتلال دلتا القاش [1] . ويعتبر الربع الأول من القرن التاسع عشر، آخر مرحلة من مراحل توسع الهدندوة ، وإدماج وحدات صغيرة من البجه ، أو من غير البجه ، حتى أضحوا قبيلة من أعظم قبائل البجه ، وأكثرها عدداً .

أما بنو عامر ، فالمعروف أن ديارهم تقع فى أقصى الجنوب الشرقى من أوطان البجه ؛ وهى موزعة بين السودان وأرتريا . وعلى الرغم من أن موقع هذه الديار يعرضها لمؤثرات مختلفة مصدرها الهضبة الحبشية وسواحل بلاد العرب المقابلة ، فإن هذه المؤثرات اقتصرت ، فى الغالب ، على النواحى الثقافية والاجتماعية . ويعنى هذا أن بنى عامر من سلالة البجه القدماء الذين احتفظوا بكثير من الخصائص الحامية ، على حين أنهم — كغيرهم من قبائل البجه الأخرى — يقفون بنسبهم عند أصول عربية . فتذكر روايات بنى عامر أنهم ينتسبون إلى عامر من بنى كاهل . وليس فى هذه النسبة ما يدعو إلى نفيها أو استبعادها . ذلك أن الإقليم الذى يحتله بنو عامر فى الوقت الحاضر ، كان مجالاً لنشاط عربى واسع قبل الإسلام وبعده . فاللغة التى يتحدث بها معظم بنى عامر فى الجنوب — وهى لغة تجرة — مشتقة من لغة الجعز القديمة ، وهى اللغة التى تشبه اللغة الحميرية اليمنية . أما بقية بنى عامر — ولا سيما فى الشمال — فإنهم يتكلمون اللغة التبداوية [2] . وفى الدليل على ازدياد نشاط العرب التجارى فى أوطان بنى عامر بعد الإسلام ، قيام ميناء باضع ، وهو الميناء الذى ظل مركزاً من مراكز النشاط التجارى العربى مدة خمسة قرون على الأقل [3] . ويبدو أن أوطان بنى عامر كانت تقع فى مملكة بقلين ، أو قريباً منها ، وهى إحدى الممالك البجاوية الخمس التى ذكرها اليعقوبى [4] فى القرن التاسع الميلادى .ولا بد أن سكان بقلين من سلف بنى عامر تأثروا ، إلى حد كبير ، بنشاط الجماعات العربية فى مملكة بقلين ، التى كانت

---

(١) Ibid. *op. cit.* p. 97.

(٢) راجع ، عوض : نفس المصدر ، ص ١٢٧ — ١٢٨

(٣) راجع ما سبق خاصا بميناء باضع .

(٤) راجع ما سبق C/f. Crawfond, O. G. S. : The Fung Kingdom of Sennar, pp. 99-108.

ـ على قول ابن حوقل ـ تحت حكم ملك مسلم يتكلم العربية وبها « مسلمون كثيرون يشتغلون بالتجارة ويسافرون إلى مكة وغيرها »[1] .

غير أن اختلاط العناصر العربية اقتصر ، فيما يبدو ، على الطبقة الأرستقراطية الحاكمة فى بنى عامر ، ولم يتناول عامتهم، ولذا حافظ هؤلاء على صفاء جوهرهم الحامى ، وإن كانوا تأثروا بالمؤثرات العربية ، ثقافية كانت أو اجتماعية . ذلك أن بنى عامر ساد بينهم نظام طبقى صارم . فالعشائر والبطون المختلفة تتألف كل منها من طبقتين : الأولى الطبقة الأرستقراطية الحاكمة ، والثانية طبقة الموالى أو العبيد « Serfs » . ويبدو أن ثم قيوداً كانت تحول دون اختلاط هاتين الطبقتين عن طريق الزواج[2] ، ومن ثم ظلتا طبقتين منفصلتين تماماً . على أن انفراد بنى عامر من دون سائر البجه بالنظام الطبقى الإقطاعى يدعونا إلى التساؤل . ما مصدر هذا النظام ؟

سبق أن ذكرنا أن الإقليم الذى يحتله بنو عامر فى الوقت الحاضر قامت به دولة لم تكن تعرف بدولة بنى عامر ، بل دولة البلو . ولعل هؤلاء البلو من بقايا البليين الذين أشار إليهم كل من الإدريسى وابن الوردى كما سبق أن ذكرنا . وغدا اسم أولئك البليين أو البلو علماً على العناصر العربية فى الأقاليم الجنوبية من أوطان البجه منذ القرن الخامس عشر الميلادى على الأقل[3] . ويبدو أن أولئك البلو من بقايا البليين والحداربة ، كانوا لا يزالون يتصفون بصفات خاصة تميزهم عن سائر الجماعات التى خضعت بعد لسلطانهم؛ ولا بد أنهم أحسوا بضرورة المحافظة على كيانهم ووحدتهم ، ومن ثم أخذوا يحتلون البلاد المجاورة ،حتى بسطوا نفوذهم على جميع الأقاليم التى تمتد على طول ساحل البحر الأحمر، من جنوب مصوع إلى شمال سواكن ، وتمتد غرباً إلى المجرى الأوسط لخور الجاش. وموضع الأهمية هنا أن أولئك البلو ظلوا طبقة أرستقراطية حاكمة لم تختلط بعامة البجه الذين غدوا يمثلون طبقة الموالى أو العبيد .ولعل أهم أثر لجماعات البلو هو نشر الإسلام بين مواليهم من البجه .

عاشت دولة البلو بنظامها الطبقى الإقطاعى وملكها الوراثى ما يقرب من ثلاثة قرون ، أى من القرن الخامس عشر إلى القرن السابع عشر . غير أن بوادر الاضمحلال والتدهور

---

(١) ابن حوقل : نفس المصدر ، ص ٥٥ – ٥٦

(٢) Paul, A. : *op. cit.* pp. 84-87.

(٣) C/f. Crawfond, O. G. S. : *op. cit.* pp. 111-112.

أخذت تدب فى أوصالها منذ القرن السادس عشر الميلادى . فقد أدى احتلال الأتراك العثمانيين لسواكن سنة ١٥٢٠ م إلى الضغط على مملكة البلو الإسلامية من ناحية الشرق ، ومشاطرتها فى جباية رسوم السفن المارة بسواكن ، فضلاً عن مشاركتها فى الإتاوات المفروضة على القوافل الصاعدة إليها والمنحدرة منها إلى داخلية البلاد . أما فى الغرب فقد ظهرت قوة الفونج وحلفائهم العبد اللاب ، وهؤلاء حاولوا مد نفوذهم شرقاً على قبائل البجه . لكن محاولاتهم فى هذا الاتجاه لم يقدر لها النجاح تماماً ، بسبب المقاومة العنيدة من جانب البشارين والهدندوة وغيرهم من البجه . لكن استمرار ضغطهم على مملكة البلو أدى إلى انتزاع بعض أقاليمها ، وإن لم يؤد إلى زوالها [١] .

غير أن ثم تحولاً خطيراً حدث لهذه الدولة فى أوائل القرن السابع عشر . فقد زال اسم البلو الذى عرفت به الدولة ، واختفت الطبقة الأرستقراطية الحاكمة من البلو ، وحل محلها طبقة أرستقراطية حاكمة جديدة تعرف باسم النبتاب . ويلاحظ أن تلك الطبقة الأرستقراطية الحاكمة الجديدة وَرثت عن البلو نظامهم الطبقى المعروف . وليس من المعروف تماماً كيف حدث هذا الانقلاب الفجائى .

تذكر روايات بنى عامر أن فقيهاً من شعبة الشعديناب من العرب الجعليين يدعى على ابو القاسم ، تزوج ابنة إدريس محمد ملك البلو . بيد أن هذه الزيجة لم يرض عنها فريق من البلو ، وأرغموا الملك إدريس على قتل الفقيه الجعلى على أبى القاسم . ثم ولدت الأميرة البلوية طفلاً أسمته عامراً . ولم يلبث عامر هذا أن شب وعرف ما حل بأبيه ، فاستعد للأخذ بثأره . واستعان عامر بأقاربه من الجعليين على حرب البلو ، وما زال يحاربهم حتى أوقع بهم هزيمة ساحقة عند أسارامارد هيب قرب عقيق . ونجح عامر فى تأسيس طبقة حاكمة جديدة عرفت باسم النبتاب نسبة إلى أبيه على ابى القاسم الذى كان يلقب بنابت . وغدت الدولة كلها تعرف باسم دولة بنى عامر نسبة إلى عامر بن على أبى القاسم [٢] .

وكيفما كانت الوسائل التى وصل بها النبتاب إلى الحكم ، فالمعروف أن النظام الطبقى الإقطاعى القديم ظل قائماً ، وكل ما حدث هو تغير اسم الطبقة الحاكمة ، وهى الطبقة المعترف لها بالسيادة والحكم بين جميع قبائل بنى عامر . أما الرئيس الأعلى المعترف له بالزعامة

---

(١) Paul, A. *op. cit.*

(٢) Crawfond. O. G. S. : *op. cit.* p. 112.

على جميع هذه القبائل فقد عرف باسم الدقلال . أما بقية الشعب وكلهم من البجه أهل البلاد الأصليين ، فإنهم ظلوا طبقة موالى أو عبيد (Serfs) خاضعين لسادتهم النبتاب[1] .

ومما لاشك فيه أن نجاح الطبقة الأرستقراطية العربية من النبتاب فى السيطرة على الجماعات البجاوية ، والقضاء على البلو ، تم بمساعدة الفونج . ولذا اعترف النبتاب لملك سنار بالسيادة على بنى عامر . وأصبح بيد ملك سنار تعيين دقلال بنى عامر من بين طبقة النبتاب . وفى سنة ١٧٣٠ م منح دقلال بنى عامر لقب مانجل (Mangel) ، وألبسه ملك سنار الطاقية أم قرنين . وتشير تواريخ العبد اللاب وتقاويمهم إلى امتداد سلطانهم على عشرة مقاطعات فى الصبحا (شرق السودان) ، وتشمل أوطان النبتاب والحالنقا والحمران[2] .

مما سبق نرى أن أوطان البجه كانت دائماً مسرحاً لنشاط الجماعات العربية فى العصرين الجاهلى والإسلامى . وإذا كان العرب الذين وفدوا إلى هذه الأوطان ، اختلطوا بالبجه وتزوجوا منهم وتعلموا لغتهم ، فان هذا الاختلاط ، فيما يبدو ، اقتصر فى الغالب على الأسر الحاكمة ، وذلك لانتفاع العرب بنظام وراثة الأم السائد عند قبائل البجه ، والسيطرة عليهم . ثم إن نفور البجه من كل غريب يطأ بلادهم ، وصعوبة البيئة البجاوية ، لم تساعد على اختلاط واسع بين العنصرين . ولذا ظلت كثير من القبائل البجاوية على وثنيتها فى العصر الإسلامى ، حتى إذا كان القرن الرابع عشر ثم الخامس عشر للميلاد ، تم تحويل هؤلاء جميعاً إلى الإسلام . والغالب أن بنى كاهل كانوا أصحاب الفضل فيما طرأ على المجتمع البجاوى من تحول إلى الإسلام خلال هذين القرنين . ولذا يفضل معظم قبائل البجه — ولا سيما البشاريون والأمرأر وبنو عامر — الانتساب إلى الكواهلة من دون سائر العرب الذين وفدوا إلى ديارهم بعد الفتح العربى لمصر . وكيفما كان الأمر فقد كانت أوطان البجه بمثابة مستودع أمد السودان بعدد من القبائل العربية التى انتشرت منها إلى بقاع السودان شرقاً وغرباً وجنوباً . ومما لا شك فيه أن مصر كانت المصدر الرئيسى لهذه الهجرات العربية إلى السودان عبر أوطان البجه .

Paul, A. : *op. cit.* p. 85. (١)

Ibid. *op. cit.* p. 93. (٢)

الطباعة فى مصر خلال الحملة الفرنسية

١٧٩٨ — ١٨٠١

للدكتور خليل صابات

كانت مصر فى أواخر القرن الثامن عشر ، غارقة فى بحر من الجهالة والفقر والمرض ، يحكمها المماليك حكما استبداديا يسوده الاضطراب والفوضى ؛ فعم الظلم كل أرجائها وانتشر الخراب فى أركانها . وكان الحكام يتفننون فى فرض الضرائب على السكان ويتوسلون بشتى الطرق لجبايتها : فمن تعذيب وتشريد إلى مصادرة وتقتيل ، فلا عجب أن قل عدد السكان ، وحلت الجهالة محل العرفان وخيم البؤس على الأرض الطيبة [١] .

« وكان الدين هو الصلة الوحيدة التى تربط الفلاح — ضحية تلك الفوضى — بالمملوك الذى كان يستغلها أسوأ استغلال » [٢] . وكانت السلطة المحلية مرتبطة بالسلطة المركزية برباط واه يجعلها عمليا فى حكم المستقلة ؛ ودليلنا على ذلك أن الوالى أو الباشا الذى كان يعينه الباب العالى ، لم تكن له ، من حيث الواقع ، أية سلطة فعلية [٣] .

وعلى الرغم من هذه الفوضى التى كانت مضرب الأمثال ، فانه كان على الحكومة ، إن صح أن نطلق عليها هذا الاسم ، أن تتصل برعاياها أو بضحاياها ، إن شئنا الدقة فى التعبير ، لتنهى اليهم أوامرها وقوانينها . ولما كانت أدوات الحكم ووسائله ترجع كلها إلى نظم وضعت فى العصور الوسطى ، لم يكن بد من أن يتوسل الحاكمون بنفس طرق الأعلام التى كانت متبعة فى عهدى الفاطميين والأيوبيين . وإن المراسيم التى كانت تحفر أو تلصق على الحوائط والتى حدثنا عنها ڤان بركم [٤] وجاستون ڤييت [٥] والتى عم استخدامها

---

(١) Volney : Voyages en Syrie et en Egypte, Tome I, pp. 172 et 173

(٢) Volney : *op. cit.*

(٣) Gaulmier, L'Idéologue Volney, p. 52

(٤) Van Berchem, matériaux pour un corpus inscriptionum arabicarum, p. 745 Documents 539 et 720. Document 525.

(٥) G. Wiet, Les Inscriptions Arabes d'Egypte, p. 5.

فى أوائل عهد المماليك ، اختفت تماما فى أواخر القرن الثامن عشر . ولجأ أولياء الأمر إلى الاعلام الشفهى ، ذلك أن الطباعة لم تكن قد عُرفت بعد فى مصر .

ومن العجب أن تظل أرض الكنانة فترة طويلة من الوقت بعيدة عن الاستفادة من الطباعة ، ذلك الاختراع الذى ابتدعه العقل البشرى ، لينشر به نور العلم والعرفان ؛ ويزداد الانسان عجبا عندما يلقى نظرة إلى العصور القديمة ، فيرى فى مصر حضارة فريدة ، كانت المشعل الذى استضاءت به أرجاء العالم المعروف آنذاك . ويرجع سبب هذا التأخير إلى الاضمحلال الذى أصاب الشعب المصرى خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر ، ذلك الاضمحلال الذى نتج عن تعسف المماليك وفقر السكان وإفلاس البلاد الكلى . ويصف الرحالة ڤولنى تلك الحقبة من تاريخ مصر وصفاً دقيقاً رائعاً . فيقول « . . . هنالك عقبة كئود تحول دون حدوث أى تطور فى مصر ، وتلك العقبة هى جهل الشعب المطبق الذى أعمى البصائر ، بحيث أصبحت لا ترى الآفات التى تعانيها البلاد ولا تبحث عن وسائل علاجها . . . ويكفى أن نلاحظ أن هذا الجهل المنتشر بين طبقات الشعب جميعاً ، قد أثر على مختلف أنواع المعارف ، أدبية وعلمية وفنية . . . ولا يجد الانسان فى القاهرة إلا شخصا واحداً يستطيع إصلاح الساعات ، وهو أوروبى . . . ونسج الحرير هو الصناعة الوحيدة التى قطع المصريون فيها شوطاً بعيداً من حيث دقة الصنع وجماله ، غير أن سعر هذا المنسوج أغلى مما هو عليه فى أوروبا » [١] .

فلو أن حكم المماليك للبلاد كان صالحاً ، لعرف أحفاد الفراعنة المطبعة فى أوائل القرن الثامن عشر على أكثر تقدير . وآية ذلك ، أن البلاد المجاورة لمصر أو عدداً كبيراً منها ، عرف الطباعة فى حوالى ذلك التاريخ .

فمما لا شك فيه ، أنه فى أواخر العصر الحديث ، دخلت الطباعة جميع البلاد المتحضرة التى لها حكومة مركزية وقانون مكتوب ومصالح إدارية مختلفة ، إن لم تكن لطبع الكتب ، فلنشر الجريدة الرسمية وما إليها من أوامر ولوائح .

أما مصر ، فإن ضعف الولاة العثمانيين فيها ، والصراع الذى نشب بين المماليك على حكمها حكما بعيداً عن العدل وأبسط قواعد الانسانية ، جعلاها تتخلف عن موكب الحضارة الذى بدأ يحث السير ، وكانا سبباً فى تفشى الجهل والأمية بين سكانها الآمنين . فلم يكن

(١) Volney, Voyage en Syrie et en Egypte, T. I, pp. 186 et 187

يعرف القراءة والكتابة إلا نفر قليل جداً [1] . وكان أغلب السكان يعيشون على الزراعة والتجارة وشراء الرقيق وبيعه وبعض الصناعات المحلية . أما عدد الأدباء والمفكرين ، فكان لا يتجاوز أصابع اليد الواحدة . اشتهر منهم الشيخ عبد الرحمن بن حسن الجبرتى ، صاحب كتاب عجائب الآثار فى التراجم والأخبار ، والشيخ على بن أحمد المالكى ، والشيخ حسن الحجازى الشاعر المصرى المعروف ولسنا فى حاجة إلى القول ، والحالة هذه ، بأن الاقبال على الانتاج الفكرى كان ضعيفاً وأن اهتمام الناس بالأدب كان ضئيلا ، إن لم يكن نادراً .

وكان الذين يستطيعون القراءة فى القاهرة لا يتجاوزون ربع عدد سكانها الذكور ، أما النساء ، فكن فى غالبيتهن لا يعرفن تهجى حرف واحد من حروف الأبجدية [2] .

ويقول لنا جيمار [3] ، إن التعليم العام لم يكن له وجود فى مصر ، إلا بالقدر اليسير . فالتعليم الأولى الذى لم تكن تتمتع به إلا الندرة الضئيلة ، كان من اختصاص المشايخ [4] ذوى الثقافة المحدودة [5] الذين كانوا يقومون بتعليم الصبية فى الكتاتيب ، مبادىء القراءة والكتابة والحساب ويحفظونهم بعض آيات الكتاب الكريم [6] . ولما كان هذا المنهاج التعليمى لا يوافق غير المسلمين ، فإن الأقباط ألحقوا بكنائسهم فصولا لتعليم أطفالهم . وكان «العريف» يقوم بهذه المهمة مستخدما كتاب المزامير أو الانجيل فى تعليم تلاميذه القراءة والكتابة [7] . ويضيف « جالان » إلى ذلك ، الحساب ويقصره على أبناء الأقباط دون غيرهم . ويلاحظ أن التعليم كان امتيازاً يتمتع به أولاد الأغنياء من مسلمين وأقباط [8] .

وقد أهمل المصريون العلوم إهمالا لا مزيد عليه [9] . أما التعليم العالى فكان إسماً على غير مسمى ؛ وكان مقصوراً على طلبة الأزهر ، أى على هؤلاء الذين كانوا يعدون أنفسهم

(١) La Description de l'Egypte, Tome XVIII, p. 63

(٢) La Description de l'Egypte, Tome XVIII, p. 63

(٣) Guemard, Les Réformes en Egypte, p. 290

(٤) Guemard, *op. cit.*, p. 290

(٥) أحمد عزت عبد الكريم ؛ تاريخ التعليم فى عصر محمد على ، ص ١٣

(٦) Guemard, *op. cit.*, p, 290

(٧) La Description de l'Egypte, Tome XVIII, p. 66

(٨) A. Galland, Tableau de l'Egypte, Tome I, p. 151

(٩) Arminjon, Les Universités musulmanes d'Egypte, Revue de Paris. Tome V, 1904, p. 302

للحياة الدينية أو للقضاء . وكان شيوخ الأزهر يعلمون تلاميذهم الشبان القرآن والفقه والحديث والفلسفة الاسلامية (١) .

ولم يكن الأزهر فى ذلك العهد جامعة بكل معنى الكلمة ، بل كان مدرسة كبيرة ، أو كلية لتعليم أصول الدين وعلومه المختلفة لا يأتى أساتذتها بأى تجديد بل لا نغالى إذا قلنا أنهم كانوا يعتبرون التجديد مروقا وزندقة وثورة على الأوضاع القديمة الراسخة فى القلوب لا فى العقول . وكان الشعب يقدر هيئة التدريس هذه كل التقدير ويضعها موضع الاحترام والتكريم ويعتقد أن الله تعالى قد وضع فيها سره وائتمنها على مكنونات العقل فغدت المستودع الأمين الذى يغدق على الناس بين الحين والحين من فيض نعمائه وسليم منطقه (٢) .

صحيح أن الأزهر ظل مركزاً للدراسات الاسلامية ؛ ولكن ، بعد أن كان مبعثاً لحياة ثقافية دافقة فى العهد الفاطمى ، من القرن العاشر إلى القرن الثالث عشر الميلادى ، وفى العهد الأيوبى . بين القرن الثالث عشر والقرن الخامس عشر ، أصبح يعيش على تراث صيته القديم . لقد أضاء الأزهر بشعاعه العالم الاسلامى كله خلال القرون الوسطى (٣) . ولكن هذا العصر الذهبى قد ولى وأدبر . فانخفض مستوى طلبة تلك الجامعة بانخفاض مستوى أساتذتها الثقافى (٤) .

ولما كانت الحكومة تجهل الطبعة تماما ، ولما كان فى غير إمكانها الاتصال بالشعب كتابة ، فقد ظلت محتفظة بأداة الاعلام ذاتها التى كانت مستعملة فى العصور الوسطى ألا وهى « المنادى » ذلك لأنها ، أى الحكومة ، لم تكن تشعر بحاجة ملحة إلى صحيفة رسمية . وإلى جانب الأوامر التى كان يذيعها المنادى على الشعب ، فإن القوانين التى كان لها بعض الصلة بالحياة الدينية ، كانت تذاع من المسجد بعد صلاة الجمعة (٥) . ولا يخفى على أحد الأثر النفسى الذى كانت تحدثه هذه القوانين فى أذهان المؤمنين ، لذا فإن الحكام كانوا كلما أرادوا نشر أمر أو قانون ، طلبوا إلى أئمة المساجد إذاعته ليثبت فى الأذهان وليعمل الكل على تنفيذه كأنه أمر آت من السماء .

---

(١) أحمد عزت عبد الكريم ، تاريخ التعليم فى عصر محمد على ، ص ٩ ، ١٠

(٢) Carra de Vaux, Les penseurs de l'Islam, Tome V, p. 253

(٣) Arminjon, ibid., pp. 306 et 314

(٤) أحمد عزت عبد الكريم ، نفس المرجع ، ص ٨ و La Description de l'Egypte p. 71

(٥) أحمد عزت عبد الكريم ، نفس المرجع ، ص ٦

وخلاصة القول ، فان المنادى والامام كانا فى مصر الوسيلة الوحيدة لإذاعة الأخبار ونقلها قبيل وصول الحملة الفرنسية . وهكذا كتب على المصريين أن ينتظروا إلى عام ١٧٩٨ ليستفيدوا من الخبر المطبوع ، أحدث وسيلة للاعلام فى ذلك العصر . ونستطيع أن نقول ، إنه بفضل مطابع بونابرت ، عرفت مصر الصحافة الرسمية والجريدة الدورية بمعناها الحقيقى .

فقد أمر قائد عام الجيوش الفرنسية بأن تطبع منشوراته وبياناته جميعا . يضاف إلى ذلك أنه أسس صحيفة إخبارية أطلق عليها « كورييه دو ليجبت » ومجلة علمية أدبية أسماها « لاديكاد إيجبسين » .

بيد أن الشعب المصرى لم يستفد من مطابع الفرنسيين أية فائدة . فقد اقتصرت أعمالها على مطبوعات الجيش والمجمع العلمى والمنشورات التى كانت تلصق على أبواب الحارات ، وعلى طبع الصحيفتين . ولم يحاول الفرنسيون تعليم المصريين فن جوتنبرج ، كما فعل محمد على بعد ذلك بحوالى عشرين سنة . ويبدو لنا أن عدم الاستقرار الذى لازم الحملة طوال وجودها فى مصر ، ونفور المصريين من المحتل الأجنبى وجهلهم المطبق ، وعدم اهتمام رجال الحملة بمحو الأمية المتفشية فى مصر ، حالت بين أهل الوادى وتدريبهم على الطباعة أو العناية بها على الأقل . ودليلنا على ذلك أن الجبرتى الذى وصف لنا كل صغيرة وكبيرة ، لم يذكر فى كتابه شيئا عن عناية مواطنيه بالمطبعة واحتفائهم بها .

إعداد مطابع الحملة :

لم يكن احتلال مصر فى نظر بونابرت إلا خطوة أولى ستتلوها خطوات . فقد كان يهدف إلى التوسع شرقا للاستيلاء على الهند والتوجه من مصر شمالا ليوطد أقدام فرنسا فى حوض البحر الأبيض المتوسط الشرقى ، ثم يولى وجهه شطر آسيا الصغرى والآستانة فيحتلهما ليعيد الامبراطورية الرومانية الشرقية إلى الوجود .

إن هذا المشروع الضخم لم يكن فى حاجة إلى جنود يجيدون الطعن والنزال ولا إلى قواد يضعون الخطط الحربية وينفذون أوامر رئيسهم الأعلى بكل دقة ، ولا إلى مدافع وذخائر ، نعم لم يكن بحاجة إلى كل أولئك بقدر حاجته إلى علماء وأدباء وفنانين . إن الشرق لا يمكن إخضاعه بقوة السلاح . فهو إن سكت على الضيم يوما أو أياما ،

فان سكوته لا يعتبر تسليما بالأمر الواقع ، بل صبراً وتحيناً للفرص المواتية . لقد أدرك بونابرت منذ اللحظة التي قرر فيها احتلال مصر ، أن السلاح الماضي الذي قد يكسب به قلوب المصريين هو الدعاية . فكان عليه إذن أن يعد العدة لهـا ويوطد أركانها بمطبعة يحملها معه لتساعده فيما يرمى اليه . ومما يؤيد إيمان بونابرت بقوة المطبعة أنه كتب إلى Arnault فى الثانى عشر من شهر ترميدور سنة ٥ يطلب اليه أن ينشىء مطبعة يونانية فى جزيرة كورفو « لتنوير عقول اليونانيين وإعدادهم لإحياء الحرية فى تلك البقعة المهمة من أوروبا » [١] .

ويحرص بونابرت على أن يزود المطبعة التي سيحملها معه إلى مصر بالحروف العربية [٢] واليونانية والفرنسية . وعلى الرغم من كثرة مشاغله فى تصريف الأمور التي ألقتها على عاتقه تبعات الحملة ، فقد عنى عناية خاصة برجال ومعدات المطبعة الجديدة . إن من أخص خصائص عبقرية بونابرت اهتمامه بكل صغيرة وكبيرة فى المشروعات التي يكلف بتنفيذها فلا غرابة إذن فى أن يبذل عنايته بمطبعته وصحيفته وبالمجمع العلمى المصرى .

وليس التحبب إلى المصريين هو الغرض الوحيد من إحضار المطبعة ، بل هناك صحيفة « كورييه ديلجبت » Courier de l'Egypte التي سوف تحمل إلى جنده وقواده الأخبار من هنا وهناك فتقوى روحهم المعنوية بعد أن تبين لهم أن احتلال مصر ليس مجرد نزهة بحرية . . . ومجلة « لاديكاد اجبسيين » ذلك السجل الحافل الذى سيحوى أبحاث وتقارير علماء الحملة ، وغيرها من المطبوعات التي سيأتى ذكرها فى حينه .

وفى السادس والعشرين من شهر فنتوز عام ٦ ، الموافق السادس عشر من شهر مارس سنة ١٧٩٨ ، اتخذت حكومة الادارة قراراً بتعبئة كافة ما يحتاج إليه بونابرت ، بما فى ذلك الحروف العربية والفرنسية واليونانية الموجودة فى مطبعة الجمهورية [٣] . ولكن يبدو أن الأمور لم تسر وفق مشيئة بونابرت . فما كان منه إلا أن أرسل فى السادس

---

(١) Canivet (Raoul), L'Imprimerie de l'Expédition d'Egypte, Bulletin de l'Institut Egyptien, Série V, Tome III, p. 2

(٢) عرف الفرنسيون المطبعة العربية فى أوائل القرن السابع عشر ، بفضل عناية سفارى دى بريف Savary de Brêves راجع A.A. Paton, A History of the Egyptian Révolution, Vol. I, London 1863, p. 211

(٣) Canivet, L'Imprimerie de l'Expédition d'Egypte, Buelletin de l'Institut Egyptien 5e série, Tome III, p. 2

من شهر جرمينال عام ٧ الموافق السادس والعشرين من شهر مارس سنة ١٧٩٨ ، خطاباً إلى وزير الداخلية يشكو له بطء القائمين على تنفيذ قرار حكومة الادارة ، ويخص بالذكر مدير مطبعة الجمهورية والمواطن لانجليس . ويرجو من الوزير أن يصدر أمره بإرسال جميع الحروف العربية الموجودة فى المطبعة المذكورة عدا قوالبها أو أمهاتها على أن يلحق بها المواطن لانجليس الذى يفهم من رسالة قائد الحملة أنه عدل عن السفر حانثا بالوعد الذى قطعه على نفسه . ويطلب بونابرت من الوزير نفسه أن يأمر بارسال الحروف اليونانية . أما الحروف الفرنسية فيطلب كميات منها من البنط المعتاد تكفى ثلاث مطابع [1] .

لقد رفض لانجليس أن يتبع بونابرت على الرغم من جميع المحاولات التى بذلها هذا الأخير لاقناعه بالسفر . إن سياسة بونابرت الاسلامية لا يمكن أن تستغنى عن مستشرق يعرف اللغة العربية مثل لانجليس . فكان لا بد إذن من التفكير فى غيره حتى يكتب لملك السياسة النجاح التام . وتمكنت الحماة آخر الأمر من اصطحاب عدد كبير من المستشرقين نذكر منهم جوبير Jaubert وحنا يوسف مارسيل .

ويظهر أن معدات مطبعة الجمهورية لم تكن كافية فكلف الجنرال كافارللى Caffarelli بشراء أدوات مطبعية مختلفة بلغ ثمنها ١٠١٦١ جنيها فرنسيا [2] .

جاوز اعتماد بونابرت على المطبعة العربية اعتماده على المطابع الأخرى ، نظراً لما كان يرجوه منها فى سياسته المرسومة إزاء المصريين . وكان حرصه عليها من الناحية السياسية كحرصه على علمائه فى نجاح الحملة من الناحية العلمية . فهو شديد الرغبة فى أن يصحبه إلى مصر العالم مونج Monge ، رئيس المجمع العلمى المصرى فيما بعد ، فاذا اعتذر هذا لكبر سنه[3] ، كتب إليه بونابرت فى ٢ أبريل سنة ١٧٩٨ موضحا له مكانته فى الحملة ، تلك المكانة التى تعادل فى القدر والمسئولية الطبعة العربية ! ! [4] .

ولم يكتف القائد الأعلى للحملة بحروف مطبعة باريس ، بل فكر أيضا فى مطبعة نشر الإيمان الكائنة بالفاتيكان ، فأرسل إلى مونج — وكان وقتئذ فى تلك المدينة — يقول له

---

(١) A. Keller, Correspondance, Bulletins et Ordres du Jour de Napoléon, Tome IV, p. 120, Paris sans date

(٢) Canivet, *op. cit.*, p. 3

(٣) Driault, Napoléon le Grand, Tome I, p. 175

(٤) Correspondance de Napoléon I, Tome IV, p. 89, Document No. 2471

« إنى أعتمد على مطبعة نشر الإيمان وعليك حتى لو كلفنى ذلك صعود نهر التيبر بالأسطول لاصطحابك » [١].

وفى الخامس والعشرين من شهر فنتوز (١٥ مارس) ، أعلن مونج أنه سيأخذ من جمعية نشر الإيمان ثلاث طابعات مع كل الأدوات اللازمة لادارتها . وأنه سيضم لها حروفا لاتينية وعربية وسريانية ، وأنه سيجلب بعض عمال الطباعة معه ، ولكن عددهم لن يكون بالقدر الذى يريده بونابرت[٢] .

وفى السادس عشر من جرمينال الموافق ٥ إبريل ، يكتب بونابرت ملحا : « سيكون معنا من المجمع شخص ثالث . . . إنى أوصيك على الخصوص بمطبعة جمعية نشر الإيمان العربية » . وكتب ديزيه الذى كان بصحبة مونج فى روما ، رسالة فى الخامس عشر من الشهر نفسه ، لينهى إلى القائد العام « أن مونج لم يجد أية خريطة ولكن المطبعة وضعت فى الصناديق وسترسل عبر نهر التيبر إلى سيفيتا فيكيا . وأن هناك أربعة مترجمين ليسوا من الدرجة الأولى ، لكنهم سيكونون خير عون لنا . . . [٣] » .

وفى الثامن والعشرين من جرمينال ، صدر أمر إلى مونج وفيبولت Faipoult ودونو Daunou وفلوران Florent بتأسيس المطبعة الشرقية وبتعيين مستخدميها وتحديد مرتباتهم . ويحتوى الأمر المذكور على اسمى المشرفين على سير العمل فى المطبعة ، وثلاثة منضدى حروف وثلاثة طابعين . أما المترجم فهو من مدينة ديار بكر السورية ، وأحد الملاحظين من دمشق [٤] .

ويتضح مما تقدم أن المطبعة الرسمية للحملة جمعت معداتها من مطبعة الجمهورية بباريس ، ومما أخذه مونج من مطبعة جمعية نشر الايمان بروما [٥] .

وإلى جانب تلك المطبعة الرسمية ، حمل بونابرت معه مطبعة خاصة هى مطبعة مارك أوريل .

---

(١) المصدر السابق .

(٢) Charles-Roux, Bonaparte Gouverneur d'Egypte, p. 12 et 13

(٣) Canivet, *op. cit.*, p. 3

(٤) Charles-Roux, *op. cit.*, p. 13

(٥) J. M. Carret, Voyageurs et Ecrivains Français en Egypte, Tome I, p. 149

كان مارك أوريل إبنا لكتبي وصاحب مطبعة بمدينة ڤالنس سور رون Valence-sur-Rhône عرفه بونابرت عند ماكان معسكرا فى تلك المدينة . فلما عزم القائد الأعلى على السفر إلى مصر اصطحب معه مارك أوريل بحروفه ومطابعه على أن يمارس فن جوتنبرج فى وادى النيل على حسابه الخاص ، دون أن تكون له أية صفة رسمية [١] .

أما المطابع الرسمية للحملة ، فقد انقسمت إلى شعبة شرقية يرأسها إيليا فتح الله الديار بكرى[٢] وإلى شعبة فرنسية ويرأسها مدير يعمل تحت إمرته ملاحظ وثلاثة مصححين وتسعة عشر عاملا [٣] . وكانت هيئة المطبعة الشرقية مكونة من مترجم وملاحظين اثنين وثلاثة منضدى حروف وثلاثة طابعين [٤] .

وقد أطلق على المطبعة الرسمية بشعبتيها ثلاثة أسماء رسمية واسم شعبى . فعرفت أثناء اجتياز الحملة البحر الأبيض المتوسط ، بمطبعة الجيش البحرية [٥] . فلما أنزلت فى ثغر الإسكندرية سميت « بالمطبعة الشرقية الفرنسية [٦] » . وحين استقر بها المقام فى القاهرة اتخذت إسم « المطبعة الأهلية [٧] » . أما من الناحية الشعبية فقد كان الفرنسيون يعرفونها باسم « المطبعة الجديدة [٨] » لأنها وصلت القاهرة بعد مطبعة مارك أوريل بأشهر .

المطابع خلال عبورها البحر :

عين المستشرق حنا يوسف مارسيل على رأس المطابع العربية واليونانية والفرنسية الملحقة بالجيش [٩] . ولما أقلعت العمارة الفرنسية ، كانت المطبعة الرسمية على ظهر سفينة الاميرالية « لوريان » L'Orient التى كانت تقل الجنرال بونابرت وأركان حربه .

---

(١) Charles-Roux, *op. cit.*, p. 193

(٢) Charles-Roux, *op. cit.*, p. 139

(٣) Canivet, *op. cit.*, pp. 4 et 5

(٤) Canivet, *op. cit.*, pp. 4 et 5

(٥) Canivet, *op. cit*,, p. 8

(٦) Charles-Roux, *op. cit.*, p. 139

(٧) Geiss, Histoire de l'Imprimerie en Egypte, Bulletin de l'Institut Egyptien, 5éme série, Tome I, p. 136

(٨) Desgenettes, Souvenir d'un Médecin de l'Expédition d'Egypte, p. 46

(٩) Amin Wassef, L'Information et la Presse Officielle en Egypte p. 66

بيد أن وجود المطبعة على نفس سفينة القائد العام لم يكن وليد الصدفة . فبونابرت يريدها بالقرب منه ليستفيد منها فى أية لحظة يشاء . وها هو ذا يأمر بأن تعمل وهى فى البحر لتطبع النداء الموجه لشعب مصر [١] ، والأمر الموجه للجيش والمؤرخ فى ٤ مسيدور عام ٦ ، الموافق ٢٢ يونيه سنة ١٧٩٨ وفى ١٠ منه ، الموافق ٢٨ يونيه سنة ١٧٩٨ . وتحمل تلك المطبوعات العبارة التالية : « طبع على ظهر لوريان فى مطبعة الجيش البحرية [٢] » . ويقول فرانسوا شارل رو إن بونابرت أمر بطبع البيان العربى إلى الشعب المصرى قبيل احتلال الإسكندرية ، أى يوم ٢ يوليه . وهكذا نرى أن عمل تلك المطبعة بدأ قبل نزول الحملة إلى البر . ولم يقتصر نشاطها على اخراج بعض النشرات الفرنسية بل تجاوزها إلى طبع البيان العربى الذى أذاعه قائد الحملة على المصريين [٣] .

وقد يتبادر إلى الذهن أن مطبعة مارك أوريل لم تبدأ عملها إلا عندما وطئت أقدام صاحبها أرض مصر ، إلا أن « جيس » يثبت لنا عكس ذلك حين يقول . « لقد رأيت بعينى البيان المطبوع فى الثالث عشر من شهر مسيدور (أول يوليه) ، ويقول سيلفستر دى ساسى Silvestre de Sacy إنه قام بطبعه على ظهر الفرقاطة « لاچوستيس » La Justice إحدى سفن الحملة [٤] . فإن فرض وكان مارسيل على ظهر سفينة الاميرالية « لوريان » بمطابعه ، فإن مارك أوريل لا بد وأن يكون على ظهر الفرقاطة « لاچوستيس » . ولا شك فى أن الزميلين قد اشتغل كل منهما بمفرده أو كل بدوره ، حسب الظروف أو الحاجة ، فى طبع البيانات المطلوبة [٥] » . وإن سلمنا بما قاله جيس بالنسبة لمطبعة مارك أوريل ، فمن المؤكد أن هذا الأخير لم يطبع كلمة واحدة باللغة العربية ، لأنه لم يكن فى حوزته حروف لهذا الغرض [٦] .

---

(١) قام باعداد هذا النداء المستشرق الفرنسى فنتور دى بارادى Venture de Paradis راجع Bourrienne, Mémoires ... Tome II, pp. 158 et 159

(٢) Canivet, *op. cit.*, p. 8

(٣) Charles-Roux, Bonaparte Gouverneur d'Egypte, pp. 139 et 140

(٤) و (٥) Geiss, *op. cit.*, p. 154

(٦) Charles-Roux, *op. cit.*, p. 140

المطبعة فى مصر :

وبعد أن تم لبونابرت احتلال الإسكندرية ، وقبل أن يزحف منها على القاهرة ، أصدر فى التاسع عشر من شهر مسيدور عام ٦ الموافق ٧ يوليه عام ١٧٩٨ ، الأمر التالى :

المادة الأولى : تعين هيئة أركان الحرب مساعداً فى مدينة الإسكندرية لانزال المطابع الفرنسية والعربية واليونانية إلى البر .

المادة الثانية : توضع هذه المطابع فى منزل وكيل قنصل البندقية بحيث يمكن الطبع بها ، فى ظرف ثمان وأربعين ساعة ، كل ما يرسل من القيادة العامة .

المادة الثالثة : فى اللحظة التى يتم فيها تركيب المطبعة العربية تطبع أربعة آلاف نسخة من البيان العربى .

المادة الرابعة : يصرف الطعام لرئيس المطبعة وعمالها [١] .

ويعتبر اليوم الذى نفذ فيه هذا الامر يوماً مشهوداً فى تاريخ مصر لأنه اليوم الذى رأت فيه المطبعة لأول مرة . وأول مطبوع خرج من أرض الفراعنة كان الطبعة الثانية لبيان ١٣ مسيدور المكتوب باللغة العربية والذى تحمل نسخه هذه العبارة : « طبعت بالاسكندرية فى معسكر الفرنسين » . وأشرف مارسيل بنفسه على المطبوعات العربية والفرنسية الأولى التى خرجت من مطبعة الاسكندرية [٢] .

والأرجح أن تكون مطبعة مارسيل قد أنزلت إلى البر قبل ٧ يوليه ، وهو التاريخ الذى أذيع فيه أمر بونابرت سالف الذكر . ذلك لأن الأسطول بدأ يتحرك من الاسكندرية متجها نحو أبى قير ، فى الليلة الواقعة بين الخامس والسادس من شهر يوليه . وقد أبحرت السفينة « لوريان » فى صبيحة السابع من يوليه . يضاف إلى ذلك أن هناك نشرة وزعت على الجيش عن «سعر العملة» « Tarif des Monnaies » تحمل هذه العبارة « الاسكندرية ، من المطبعة الشرقية الفرنسية » ومؤرخة فى الثامن عشر من شهر مسيدور عام ٦ الموافق ٦ يوليه سنة ١٧٩٨ . ويمكن أن نخلص من ذلك كله إلى الجزم بأنه فى فترة تقل عن الأسبوع ، منذ أن احتل الفرنسيون الاسكندرية بدأت مطبعة الحملة عملها فى مكان ما ،

---

(١) Correspondance de Napoléon I, Tome IV, p. 323, Document 2723

(٢) Charles-Roux, *op. cit.*, pp. 35 et 36

غير المنزل الفخم — منزل وكيل قنصل البندقية — الذى أمر بونابرت بأن تنقل المطبعة اليه وهو راحل إلى القاهرة (١) .

ونستطيع أن نؤكد أيضا أن مارسيل هو الشخص الوحيد الذى طبع بالاسكندرية دون مارك أوريل ويؤيدنا فى ذلك صاحب ترجمة هذا الطابع الأخير الذى يقول : « إن مطابعه (أى مطابع مارك أوريل) على الرغم من أن تركيبها قد تم بعد ثمان وأربعين ساعة من احتلال الفرنسيين للمدينة ، فانها لم تعمل فى الأغلب ، بل اتجهت رأساً إلى القاهرة » (٢) .

لقد أديرت مطبعة مارسيل فى الاسكندرية ، قبل أن يستقر مارك أوريل فى القاهرة باثنين وأربعين يوما . إذ أن الأخير أخرج أول مطبوع له بالقاهرة فى الخامس عشر من شهر أغسطس سنة ١٧٩٨ .

ونشر مارسيل وهو بالاسكندرية أبجدية عربية وتركية وفارسية طبعها فى المطبعة الشرقية الفرنسية وتمرينات بالعربية الفصحى للمبتدئين ثم غادر الاسكندرية إلى القاهرة فوصلها فى حوالى منتصف شهر أكتوبر سنة ١٧٩٨

وظل مقر « المطبعة الشرقية الفرنسية » بمدينة الاسكندرية إلى نهاية عام ١٧٩٨ ، وعلى الرغم من وجود مطبعة مارك أوريل بالقاهرة ، فقد ظلت — إلى أن تم نقلها إلى العاصمة — المطبعة الوحيدة التى تطبع بالعربية . وكان كليبر يستخدمها فى طبع مطبوعات قيادته بالاسكندرية (٣) .

ويحدثنا « جالان » أن مطبعة الحملة ظلت فى منزل وكيل قنصل البندقية بعد إخلائه من سكانه ، إلى أن صدر أمر بونابرت بنقلها أو بنقل الجزء الأكبر منها إلى القاهرة (٤) .

ويؤكد « كانيڤى » أن المطبعة الرسمية قامت ، أثناء وجودها بالاسكندرية بطبع كل المطبوعات العربية للحملة . ويثبت ذلك خطاب أرسله بونابرت إلى كليبر فى ٢٧ فروكتيدور عام ٧ ، الموافق ١٣ سبتمبر سنة ١٧٩٨ ، يقول له فيه : « أبعث اليك ، أيها القائد المواطن ،

---

(١) Charles-Roux, *op. cit.*, p. 140

(٢) Cité in Geiss, *op. cit.*, p. 145

(٣) Charles-Roux, *op. cit.*, p. 141

(٤) Cité in Canivet, *op. cit.*, p. 10

طى هذا الخطاب ، صورة من الرسالة الموجهة إلى شريف مكة من مشايخ القاهرة ووجهائها ، أرجو أن تأمروا بطبعها وأن ترسلوا لى منها ستمائة نسخة وأن تخصصوا للأرخبيل أربعمائة نسخة . وآمل أن يطبع بوضوح أسماء الموقعين عليها » .

« سلاما »

« بونابرت » [1]

ولم يكف بونابرت عن مطالبة كليبر حاكم الاسكندرية ومينو حاكم رشيد ، بأن يرسلا إلى القاهرة معدات الطباعة وبعض الطابعين . فمنذ آخر يوليه وقائد الحملة يستعجل إرسال المطبعة ، فيكتب إلى كليبر فى السادس والعشرين من شهر أغسطس ، خطابا يقول له فيه : « . . . هناك شىء نحن فى حاجة ملحة اليه ؛ إننا نريد واحدة من المطبعتين العربيتين » [2] .

كان إذن لدى الحملة مطبعتان عربيتان لا مطبعة واحدة . وهذا دليل آخر على اهتمام بونابرت بهما هذا الاهتمام الشديد . ولا شك أنه كان يرغب فى أن يضع إحداهما فى الاسكندرية ، وينقل الأخرى إلى القاهرة ، بحيث تقوم الأولى بخدمة الاسكندرية ورشيد وتهتم الثانية بالقاهرة وما حولها والصعيد .

ولما ملّ بونابرت هذا الإلحاح ، كلف الجنرال برتييه بأن يقوم به مكانه ، فهو يطلب إلى أعضاء لجنة العلوم والفنون الذين ما زالوا بالاسكندرية ورشيد أن يسرعوا بالحضور . ولكن قلة عدد الجمال تقف حائلا دون تنفيذ تلك الأوامر العاجلة . وهكذا لم تصل المطابع إلا فى شهر أكتوبر بعد ثورته المعروفة [3] ، لا على ظهر الجمال ولكن عن طريق النيل [4] .

(١) و (٢) Cité in Canivet, *op. cit.*, p. 11

(٣) Canivet, *op. cit.*, p. 11

(٤) يكتب جالان قائلا : « . . لم يبق من قافلتنا إلا مركب واحد غير مركبنا . وكان الاثنان محملين بمعدات المدفعية وببعض الصناديق الممتلئة بحروف المطبعة الأهلية . وكانت تلك الصناديق على الرغم من صغر حجمها غاية فى الثقل . . . » راجع
Galland, Tableau de l'Egypte ... Tome I, p. 59

وظل جزء من المطبعة فى الاسكندرية ، اعتبر فرعا من المطبعة الأهلية ، وكان يديره المواطن بوسون Besson ويعاونه أحد المصححين [١]. ولكن فى تقويم عام ٩ الذى كانت تصدره الحملة الفرنسية سنوياً لا نجد أثراً لتلك المطبعة . فهل يفهم من ذلك أنها نقلت هى الأخرى إلى القاهرة ؟ إن كل ما نستطيع أن نجزم به هو أن نشاط ذلك الفرع كان محدوداً للغاية . ومما يثبت ذلك أن كافة المطبوعات التى ظهرت فى تلك الأثناء تحمل العبارة التالية : « القاهرة ، من المطبعة الأهلية » [٢] .

مطبعة مارك أوريل :

أما مطبعة مارك أوريل [٣] ، الطابع الفرنسى الحر الذى سمح له بونابرت بالمجىء إلى مصر ، كما سمح لكثيرين غيره من الفرنسيين ، فقد تبعت جيش القائد العام الذى غادر الاسكندرية بعد احتلالها ليزحف على القاهرة . ويقول « شارل رو » : « إن بونابرت ترك بالاسكندرية إلى حين ، أكمل المطبعتين معدات وأكثرهما دقة لصعوبة نقلها واكتفى فى أول الأمر بمطبعة مارك أوريل لتطبع له الأوامر التى يصدرها باللغة الفرنسية . أما مطبوعاته العربية ، فقد ترك أمرها لمارسيل ومطبعته بالاسكندرية ، المجهزة ، دون مطبعة أوريل بالحروف العربية » [٤] .

---

(١) Annuaire de la République Française pour l'an VII, Le Caire, an VIII

(٢) Amin Wassef, *op. cit.*, p. 78

(٣) كانت فى فرنسا رغبة عامة فى مصاحبة بونابرت إلى مصر . إذ كان الجميع يعتقدون أن فى إمكانهم جمع ثروة طائلة من تلك البلاد المليئة بالخيرات ، والعودة بها إلى فرنسا . ولكن لم يكن ذلك ، هدف النخبة التى سارت إلى أرض الفراعنة مع قائد عام الحملة ، نذكر منها على سبيل المثل لا الحصر « دونون » Denon الحفار الفرنسى ، والمواطن مارك أوريل .

كان مارك أوريل قد طبع لبونابرت وهو فى فرنسا « عشاء بوكير » . وليس بمستبعد أن يدعو القائد العام مارك أوريل لمصاحبته إلى مصر أو يطلب هذا الأخير ذلك إلى الشخص الذى كانت تربطه به أواصر صداقة متينة ، يوم كان فى فالانس وحيث كان بونابرت يتردد كل صباح على مطبعة ومكتبة والد مارك أوريل ليتصفح الجرائد . ويضيف Le Grand Dictionnaire Universel du XIX siécle, Pierre Larousse إلى ذلك ، أن جوزيف ايمانويل مارك أوريل ، ولد بفالانس سنة ١٧٧٥ وهو ابن بطرس مارك أوريل ، صاحب مطبعة فى المدينة نفسها . وفى سنة ١٧٩٣ عين جوزيف ايمانويل طابعا للجيش أثناء حصار طولون، ولم يكن عمره أكثر من ثمانية عشر عاما . وفى سنة ١٧٩٤ الحق بمطبعة الجيش البحرية وكان مركزه على ظهر البارجة « سان كولوت » Sans-Culotte . . . وتوفى مارك أوريل فى فرنسا عام ١٨٣٤

(٤) Charles-Roux, *op. cit.*, p. 141

ولما تم للفرنسيين احتلال القاهرة ، ركب « أوريل » مطبعته ، وهى أول مطبعة عرفتها تلك المدينة منذ أن اخترعت الطباعة فى منتصف القرن الخامس عشر . ووضع ذلك الطابع مطبعته تحت تصرف القيادة العامة . ويرى واوول كانيفى ، بعد اطلاعه على الأوامر اليومية الصادرة عن الحملة ، أن إدارة مارك اوريل للمطبعة كانت إدارة شرفية لا أكثر ولا أقل . ولسنا فى حاجة إلى القول بأن أوريل كان أول انسان طبع فى القاهرة بالحروف الفرنسية . كما أن مارسيل كان أول انسان طبع بمدينة الاسكندرية بالحروف العربية والفرنسية [١] .

وكان أول ما طبعه مارك أوريل أمراً يوميا بتاريخ ١٥ أغسطس، قام بتنضيد حروفه بنفسه ، كما فعل مارسيل من قبله على ظهر السفينة « لوريان » ، عندما طلب اليه طبع أمر بونابرت إلى جنده . وأصبح لقب مارك أوريل بالقاهرة « طابع الجيش » . وقد ظل محتفظاً به إلى اليوم الذى رحل فيه عن مصر .

وقام صاحب أول مطبعة بالقاهرة بطبع الأوامر اليومية الصادرة عن القيادة العامة ، وصحيفة كورييه دياجبت ومجلة لا ديكاد اجبسيين [٢] . ففى الثامن عشر من شهر فروكتيدور عام ٦ ، الموافق التاسع والعشرين من شهر أغسطس عام ١٧٩٨ ظهرت فى القاهرة أول جريدة عرفتها مصر ، وقامت بطبعها مطابع مارك أوريل . ويلاحظ على الأعداد التى خرجت من تلك المطبعة أنها رديئة الاخراج كثيرة الأخطاء المطبعية . مثال ذلك أن العدد الثالث يحمل ٢٠ فريمير بدلا من ٢٠ فروكتيدور التاريخ الحقيقى له .

وقد كف مارك أوريل عن طبع الكورييه فى شهر مسيدور عام ٧ . وكان آخر عدد أخرجه من مطبعته هو العدد الثلاثون الصادر فى ١٩ جرمينال عام ٧ . أما العدد الذى يليه والمؤرخ فى التاسع عشر من شهر مسيدور ، فقد طبع فى المطبعة الأهلية . وأعلن العدد الصادر فى ٢٧ فلوريال عام ٨ عن إعادة طبع بعض اعداد الكورييه التى قام بطبعها مارك أوريل نظراً لنفاذها ونزولا على رغبة الجمهور .

وكلف مارك أوريل بطبع مجلة الديكاد أيضاً ، لأن المطبعة الأهلية ، لم تكن قد وصلت بعد إلى القاهرة . وظهر أول عدد من تلك المجلة فى العاشر من شهر فاندمير

---

(١) Charles-Roux, *op. cit.*, p. 142

(٢) Charles-Roux, *op. cit.*, pp. 142 et 143

عام ٧ ، الموافق أول أكتوبر سنة ١٧٩٨ . وتقول الكورييه عن شقيقتها الديكاد ، إنها جريدة أدبية ستصدر من الآن فصاعدا كل عشرة أيام وسيكون كل عدد من فرخين ونصف من الورق أو ثلاثة أفرخ من قطع الثمن . وثمنها عشرون صولديا .

غير أنه لم يلبث أن تبين لبونابرت أن ارسال الأصول العربية إلى الإسكندرية وطبعها أمر يحتاج إلى مجهود شاق ووقت طويل . فما كان منه إلا أن أرسل فى التاسع من شهر ترميدور عام ٦ الموافق ٢٧ يوليه سنة ١٧٩٨ ، خطابا إلى الجنرال كليبر بالإسكندرية ، يقول له فيه : « ارسلوا لنا مطابعنا العربية والفرنسية . . . »(١) .

لماذا طلب القائد العام المطبعة الفرنسية أيضاً ؟ لا شك أنه رأى فى مطبعة أوريل ما لا يشجع على الاستمرار فى الطباعة عنده . ولا شك أنه اطلع على نماذج من أعمال مطبعته لم يرتح اليها كثيراً . لا بأس إذن من أن يطبع أوريل أمر ١٥ أغسطس وغيره من المطبوعات إلى أن يتم احضار مطبعة مارسيل من الإسكندرية .

وينتهى دور مارك أوريل منذ أن ابتدأ نشاط المطبعة الأهلية بالقاهرة ؛ فقد سحب منه بونابرت أولا طبع الديكاد . ويقول شارل رو : « لم يحتفظ مارك أوريل بحق طبع الديكاد مدة طويلة ذلك أن بونابرت كان يريد أن تكون تلك المجلة متقنة الطبع فأمر بتحويلها إلى « المطبعة الأهلية » ، التى يديرها مارسيل ، وذلك فى الرابع والعشرين من شهر نوفمبر أى ابتداء من عددها الرابع(٢) » فقد كتب بونابرت إلى ديجنيت يقول : « بما أن المواطن مارك أوريل لا يستطيع طبع الديكاد ، وبما أنه يطبعها طبعاً رديئاً ، فيمكنك أن تطبعها فى المطبعة الأهلية عند المواطن مارسيل ، مع الحرص على اصدارها بانتظام كل عشرة أيام » . والواقع أن مارك أوريل لم يطبع من تلك المجلة إلا اعدادها الثلاثة الأولى ثم قامت المطبعة الأهلية بإعادة طبع تلك الأعداد الثلاثة واستأنفت طبع الأعداد التالية .

ولكن هل تم الطبع فعلا فى مطبعة مارسيل ابتداءً من ذلك التاريخ ؟ إن الدكتور ابراهيم عبده يشك فى ذلك كثيراً . فالمطبعة الرسمية لم تصل القاهرة كاملة

---

(١) Correspondance de Napoléon I, Tome IV, p. 370, Document 2853

(٢) Charles-Roux, *op. cit.*, p. 151

إلا فى يناير سنة ١٧٩٩ ، وكانت قبل ذلك بالاسكندرية ، « يعنى ذلك أن أصول الصحيفة كانت ترسل إلى الاسكندرية حيث ظلت تجمع وتطبع هناك إلى أن نقلت إلى القاهرة ؟ (١) » .

ولم يكتف بونابرت بسحب الديكاد من مارك أوريل بل أمر أيضاً بسحب الكوريه . وهكذا لم يعد أمام ذلك الطابع أى أمل من بقائه فى مصر بعد تلك الضربة القاصمة ، فباع مطابعه ومعداته للحملة ورحل إلى فرنسا (٢) .

كلف بونابرت ، ديجنيت وڤونتور Venture وبورين بمفاوضة مارك أوريل فى شراء مطابعه وأوصاهم خيراً به لما لوالدته من فضل على قائد الحملة (٣) .

وطلب اوريل خمسة آلاف فرنك ثمنا لمطابعه ، وقبل آخر الأمر أربعة آلاف وخمسمائة . غير أن مفاوضات البيع لم تلبث أن قطعت بسبب زحف بونابرت على سوريا ثم رحيله إلى فرنسا سراً . وقام كليبر بعقد الصفقة مقابل ثلاثة آلاف جنيه فرنسى وذلك فى ٢١ من شهر فروكتيدور عام ٧ الموافق ٧ سبتمبر سنة ١٧٩٩ (٤) .

فقد أرسل الجنرال كليبر فى ذلك التاريخ خطاباً إلى خازندار عام الجيش يقول له فيه : « لقد خوّلت المواطن مارسيل مدير المطبعة الأهلية بأن يفاوض المواطن مارك أوريل فى شراء مطبعته لحساب الحكومة بمبلغ ثلاثة آلاف جنيه تدفع بموجب خطاب تحويل على الخزينة العامة . فأرجو أن تصرفوا للمواطن مارك أوريل خطابات تحويل بالمبلغ المذكور (٥) .

تلك هى قصة أول مطبعة عرفتها القاهرة . وهى مطبعة على الرغم من عيوبها الفنية المتعددة ، استطاعت أن تقدم للحملة الفرنسية خلال الأشهر الثلاثة عشر التى عاشتها تحت إدارة صاحبها ، أجل الخدمات .

المطبعة الرسمية :

أما المطبعة الرسمية للحملة فلها قصة أطول وأمتع ، لا لأنها عاشت حوالى ثلاث سنوات بينما لم تعش شقيقتها إلا شهوراً ، بل لأنها تركت آثاراً تعلن عنها فى كل حين ، ولأن الذين

---

(١) ابراهيم عبده ، تاريخ الطباعة والصحافة فى مصر خلال الحملة الفرنسية ، ص ٨٠ ، ٨١

(٢) Canivet, *op. cit.*, p. 12

(٣) Desgenettes, Mémoires, Tome III, p. 170

(٤) Canivet, *op. cit.*, p. 15

(٥) M. F. Rousseau, Kléber et Ménou en Egypte pp. 21 et 22

أشرفوا عليها كانوا من المبرزين ، ولأنها استرعت اهتمام قائد الحملة منذ أن فكر فى احتلال مصر إلى أن عاد لفرنسا .

وبعد احتلال القاهرة رأى بونابرت أنه فى حاجة ماسة لا إلى المطبعة العربية فحسب ، بل إلى مطابعه الفرنسية واليونانية فأرسل يطلبها حالا . فكانت تصل إليه تباعا وبيطء ملحوظ . فما كان من بونابرت إلا أن كتب فى الرابع من شهر فريمير عام ٧ الموافق الرابع والعشرين من شهر نوفمبر سنة ١٧٩٨ خطابا إلى مينو الذى كان وقتئذ فى رشيد ، يقول له فيه : « لما كنت شديد الاهتمام ، أيها القائد المواطن بأن تبدأ المطابع الفرنسية والعربية عملها على وجه السرعة ، فأرجو أن تأمر بتسليم المواطن « جارو » Garreau عشرين جملا لنقل أربعين صندوقاً ما زالت فى مكانها » [١] .

وأصدر قائد الحملة أمراً فى الخامس عشر من شهر ترميدور عام ٦ ، الموافق ٢ أغسطس سنة ١٧٩٨ ، إلى برتوليه ومونج وقائد فرقة المهندسين الجنرال كافارللى ليشتركوا فى اختيار دار تصلح لإيواء المطبعة الفرنسية والمطبعة العربية ومعمل للكيمياء وقاعة للطبيعة ومرصد ، إن أمكن ، وقاعة للمجمع العلمى ، على أن تكون الدار مطلة على ميدان الأزبكية أو قريبة منه . وطلب اليهم أخيراً أن يقدموا له مشروعاً بتنظيم تلك الدار وكشفاً بمصروفاتها [٢] .

واختير للمطبعة دار عثمان بك الاشقر الكائنة بميدان الأزبكية [٣] وهى الدار التى كان يشغلها المجمع العلمى [٤] ، وعرفت المطبعة منذ ذلك الحين « بالمطبعة الأهلية [٥] » .

---

(١) Correspondance de Napoléon I, Tome V, p. 160, Document 3669

(٢) Keller, *op. cit.*, T. IV, p. 192

ويقول نقولا التركى فى ص ٣٢ من كتابه « ذكر تملك جمهور الفرنساوية الأقطار المصرية والبلاد الشامية » : « . . . ثم أمر أمير الجيوش بأن تفرز محلات معينة لأجل المطابع التى أحضرها من رومية . وجعل لذلك محلات على شاطىء البزبكية . . . » .

(٣) Correspondance de Napoléon I, Tome IV, p. 424, Document 2938

(٤) وفى أثناء إعداد تلك الدار حدث خلاف بين بوسيلج خازندار الجيش ومارسيل مدير المطبعة على مكان إقامة الأخير . فكتب بوسيلج يشكو المدير إلى القائد العام ، وذلك فى الخامس والعشرين من شهر بروميرعام ٧ ، الموافق ١٥ نوفمبر سنة ١٧٩٨ وأحال بونابرت الخطاب إلى الجنرال كافارللى مع لفت نظره إلى الاهتمام بالأشياء قبل الأشخاص .

Cité in Canivet, *op. cit.*, p. 11

(٥) عبد الرحمن الرافعى ، تاريخ الحركة القومية ، الجزء الأول ص ١٤٤

Canivet, *op. cit.*, p. 11

ويزعم « دهيران » Dehéran أن المطبعة الرسمية ، أى مطبعة مارسيل لم تنتقل إلى القاهرة إلا فى يناير سنة ١٧٩٩ [١] . حقاً إن مطابع مارسيل لم تبدأ عملها بالقاهرة إلا فى ذلك التاريخ ، إلا أنها كانت قد وصلت العاصمة أو قل وصل جزء كبير منها فى أكتوبر سنة ١٧٩٨ [٢] ولكن معداتها لم تكتمل وتصبح فى حالة تسمح لها بطبع ما تكلف به إلا فى يناير سنة ١٧٩٩ [٣] .

وبحث « كانيفى » فى وثائق الحملة فعثر على قائمة بأسماء جميع الذين عملوا فى القسم الفرنسى من المطبعة الرسمية وعددهم إثنان وعشرون فيما عدا المدير حنا يوسف مارسيل الذى كان يتقاضى مرتبه بوصفه عضواً فى لجنة العلوم والفنون . ويتبعه فى الأهمية الوكيل وثلاثة مصححين ويأتى أخيراً عمال المطبعة وعددهم ثمانية عشر . وقد بلغ مجموع المرتبات التى كان يتقاضاها هؤلاء ٣٨٥٠ جنيهاً فرنسياً [٤] .

وفى الثامن والعشرين من شهر جرمينال عام ٦ ، الموافق السابع عشر من شهر أبريل سنة ١٧٩٨ قام مندوبو حكومة الإدارة وهم مونج وفيبولت Faipoult ودونو Daunou وفلوران Florent بتكوين هيئة القسم الشرقى من المطبعة الرسمية . فعين الياس فتح الله الديار بكرى مترجما وأنطون مسابكى الدمشقى وچيوڤانى چيورجى ، الذى حل محله چيوڤانى رينو ، ملاحظين . ولم يتجاوز عدد منضدى الحروف ، الثلاثة . وكان عدد الطابعين مساوياً لعدد منضدى الحروف [٥] .

ويعود فضل نجاح تلك المطبعة إلى جهود مديرها حنا يوسف مارسيل . فإنه لم يكن مستشرقا فحسب ، بل كان صحفياً أيضاً . وقد سهلت عليه تلك المهنة الأخيرة الإلمام بالفن المطبعى الذى لم يكن يعرف عنه الشىء الكثير [٦] . وكان مارسيل إلى جانب ذلك مؤرخا من الطراز الأول وموظفاً يؤدى عمله بأمانة وإخلاص . وقد أهلت تلك الصفات مجتمعة ، صاحبها لتولى إدارة المطبعة الأهلية فى مصر ، ثم إدارة مطبعة الامبراطورية بباريس .

---

(١) Hanotaux, *op. cit.*, Tome V, p. 397

(٢) Canivet, *op. cit.*, p. 11

(٣) Charles-Roux, *op. cit.*, p. 144

(٤) Canivet, *op. cit.*, p. 4, et Canivet, L'Expédition d'Egypte, La Revue Internationale d'Egypte, p. 18, Tome III, N° 1, Janvier 1906

(٥) Canivet, *op. cit.*, p. 5

(٦) Belin, Journal Asiatique, 5e série 1854, Tome III, p. 555

ويذكر معجم لاروس عن حنا يوسف مارسيل أنه ولد بباريس سنة ١٧٧٦ وتوفى سنة ١٨٥٤ وألحق سنة ١٧٩٨ بلجنة العلوم والفنون التابعة للحملة الفرنسية[١]. ويذكر الدكتور ابراهيم عبده أنه كان لمعرفة مارسيل « للغة العربية دخل كبير فى اختياره مديرا لمطبعة الحملة ، غير أن نشاطه بعد انتخابه عضوا فى لجنة العلوم والفنون ، كان مقصورا فى أكثره على اللجنة دون المطبعة[٢] » ثم يستطرد : « إن مارسيل كانت وظيفته إدارية محضة لاصلة بينها وبين تقرير ما ينشر فى المطابع ، وإن مسئوليته الرسمية تنحصر فى الأشكال ، فى إخراج الصحيفتين ونشر الأوامر والقرارات دون أن يكون له حق الاضافة أو المحو والتغيير ، بل على مطابعه أن تخرج مطبوعاتها صحيحة خالية من الأخطاء فى ميعاد معلوم »[٣] .

ويخبرنا « دوبون » Dupont أن مارسيل كان أول من حاول الطبع بالذهب ، وقد عرض نماذج من مطبوعاته فى معرض عام ١٨٠٦[٤] . ويستفاد من ذلك أن مارسيل كسب خبرة مطبعية عظيمة أثناء وجوده على رأس مطابع الحملة فى مصر .

وبعد أن استقرت المطبعة الأهلية فى الدار التى خصصت لها ، أصدر بونابرت فى الرابع عشر من شهر أغسطس سنة ١٧٩٨ أمراً بتنظيمها ، يتألف من ست مواد :

المادة الأولى : على المواطن كونتيه Conté أن يوصى بأسرع ما يمكن على صنع خمسة صناديق لحروف المطبعة العربية .

المادة الثانية : على الجنرال كافاريللى أن يضع تحت تصرف مدير المطبعة الأهلية خمسة أولاد يعرفون القراءة ليتعلموا صنعة تنضيد الحروف .

المادة الثالثة : على المواطن ڤانتور أن يقدم للمطبعة العربية خمسة عمال أتراك[٥] ويحدد أجورهم .

المادة الرابعة : على رئيس المباشرين أن يدفع لمدير المطبعة الأهلية المصاريف التى قام بدفعها .

---

(١) Cité in Geiss, *op. cit.*, هامش ص ١٤٠

(٢) ابراهيم عبده ، تاريخ الطباعة والصحافة خلال الحملة الفرنسية ، ص ٣٢

(٣) ابراهيم عبده ، المصدر السابق ، ص ٤٤

(٤) Dupont, Histoire de l'Imprimerie, Tome II, p. 612

(٥) كان الفرنسيون فى ذلك العهد يطلقون اسم تركى على كل مشرق ، تركيا كان أم عربيا .

المادة الخامسة : توضع المطبعة العربية تحت إشراف المواطن ڤانتور رأساً . ولا يمكن لأحد أن يطبع شيئاً دون الحصول على أمر منه . وعلى المدير أن يقدم له كشفاً يومياً بما طبع وأن يشكو العمال إليه ، إن هم أتوا بما يدعو إلى ذلك .

المادة السادسة : توضع المطبعة الفرنسية تحت إشراف المواطن فوڤليه بوريين رأساً . ولا يمكن لأحد أن يطبع شيئاً دون الحصول على أمر منه . وعلى المدير أن يقدم له كشفاً يومياً بما طبع وأن يشكو العمال اليه ، إن هم أتوا ما يدعو إلى ذلك [١] .

غير أن ڤانتور وبوريين اضطرا إلى مصاحبة بونابرت فى زحفه على سوريا ، فحل محلهما فى الاشراف على المطبعة المواطن پوسيلج [٢] .

إن بونابرت لا يترك المطبعة دون مشرف يراقب مطبوعاتها . وهو يعين لها أشخاصاً يثق بهم كل الثقة . فبوريين المشرف على القسم الفرنسى ، هو فى نفس الوقت سكرتيره الخاص ، وڤانتور دى بارادى ، الرقيب على القسم العربى ، هو ترجمانه الملازم له فى روحاته وغدواته . إن المطبعة سلاح ذو حدين ، فلا بد إذن من تشديد الرقابة عليها لئلا تستخدم فى عكس الغرض الذى من أجله أحضرت إلى مصر . أما پوسيلج ، فهو الخازندار أى الرجل الذى ائتمنه بونابرت على مالية الحملة ، فلا عجب أن يعهد إليه بالاشراف على المطبوعات ، بعد سكرتيره وترجمانه .

ولما باع مارك أوريل مطابعه فى السابع من شهر سبتمبر سنة ١٧٩٩ إلى الحكومة الفرنسية ، ضمت إلى المطبعة الأهلية تحت إدارة حنا يوسف مارسيل ، بميدان الأزبكية . غير أنه عندما اشتعلت ثورة القاهرة الثانية فى السادس من جرمينال عام ٨ ، الموافق ٢٥ مارس سنة ١٨٠٠ ، نقلت المطبعة إلى الجيزة [٣] . ثم أعيدت إلى القاهرة فى أوائل شهر فلوريال عام ٨ أى فى أواخر أبريل سنة ١٨٠٠ [٤] ، فى مقرها القديم بميدان الأزبكية .

---

(١) Keller, *op. cit.*, Tome IV, p. 206

(٢) Correspondance de Napoléon I, Tome V. p. 400-401, Document 3951

(٣) انظر صحيفة الكورييه عدد رقم ٦٣

أصيب كل من ديجنيت ومارسيل بجرح فى رأسه خلال ثورة القاهرة الثانية . كما قتل بعض موظفى المطبعة ، نذكر منهم سكرتير مارسيل الذى كان يشرف على نقل معدات المطبعة إلى الجيزة . وقد احتل الثوار مقر المطبعة ، ولكن الجيش الفرنسى تمكن من اجلائهم عنها بعد قتال عنيف . انظر :
Histoire Scientifique et Militaire de l'Expedition Française en Egypte, Tome VII, p. 414

(٤) انظر صحيفة الكورييه عدد رقم ٦٧

ولما انكسر الجيش الفرنسى أمام الانجليز والعثمانيين فى موقعة كانوب وتحرج مركز الحملة فى وادى النيل ، نقلت المطبعة فى أوائل شهر جرمينال عام ٩ ، أى فى أواخر مارس سنة ١٨٠١ إلى القلعة [١] ؛ يؤيد ذلك الأوامر اليومية المختلفة الصادرة عن قواد الحملة المختلفين ومطبوعات تلك المطبعة نفسها .

ويزعم ديبون Dupont فى كتابه عن تاريخ المطبعة أنه فى خلال الحملة الفرنسية ، كانت هناك مطابع بالقاهرة والاسكندرية والجيزة [٢] . والحقيقة التى لا يرقى إليها الشك أنه بعد عودة مارك أوريل إلى فرنسا ، لم يبق فى مصر إلا مطبعة واحدة « المطبعة الأهلية » وفرعها الصغير بالاسكندرية . وتلك « المطبعة الأهلية » هى التى انتقلت إلى الجيزة ثم عادت إلى القاهرة وانتهى أمرها فى القلعة كما تقدم .

إلا أن جيس [٣] يذكر أنه إلى جانب المطبعة الأهلية كانت توجد بالقاهرة ورشة ميكانيكية تولى إدارتها المواطن كونتيه ، عضو المجمع العلمى المصرى وكانت تلك الورشة تشتمل على قسم للطباعة بالحجر يشرف عليه المواطن « هوشو » Hochu . ولا ندرى من أين جاء « جيس » بهذه المطبعة الحجرية التى لم تعرف إلا فى سنة ١٧٩٦ حين اخترعها سنفلدر Senefelder بمقاطعة بافاريا . أما فرنسا فلم يدخلها هذا النوع من الطباعة إلا بعد سنة ١٨٠٦ ، مما يجعلنا نجزم بأن « هوشو » لم يكن يدير مطبعة حجرية .

وآخر عمل قامت به المطبعة الأهلية ، بالقاهرة هو طبع العدد الأخير من الكوريبه الصادر فى العشرين من بلريال عام ٩ واتفاقية الجلاء عن مصر التى وقعها الجنرال بليار . وتعتبر هذه الاتفاقية ملحقاً للجريدة [٤] .

* * *

أحضر بونابرت معه إلى مصر حروفاً عربية وفرنسية ويونانية . واستخدم الحروف الأولى فى طبع المنشورات والبيانات التى كانت تلصق على أبواب الحارات ، وفى نشر بعض النصوص العربية فى مجلة الديكاد . ورأينا كيف استعملت الحروف الفرنسية فى طبع

---

(١) أنظر صحيفة الكوريبه عدد رقم ١٠٩

(٢) Dupont, *op. cit.*, Tome II, p. 516

(٣) هامش صفحة ١٣٧ Geiss, *op. cit.*,

(٤) راجع العدد الأخير من صحيفة الكوريبه .

أوامر القائد العام اليومية وصحيفتيه وغيرها من المطبوعات المختلفة . أما الحروف اليونانية ، فاننا لم نجد مؤرخا واحداً يتحدث عنها بوضوح . فتايفير Taillefer يذكر ، عندما يتحدث عن نشاط مارسيل بوصفه مديراً لمطابع الحملة ، أن خدمات المطبعة كانت منتظمة دائما ، على الرغم من العقبات التى كانت تعترضها ، وقد أخرجت تباعا مطبوعات عربية وتركية ويونانية . . . » [1] . ويقول لنا « ميشو » إن مطابع مارسيل أخرجت « النشرات والبيانات باللغات العربية والتركية واليونانية » [2] . إلا أننا لم نكتف بهذين المصدرين لان ما جاء فيهما عن المطبوعات اليونانية لا يروى غليلا . ولكن خلال تصفحنا مجموعة صحيفة الكورييه عثرنا فى العدد رقم ٩٢ ، المؤرخ فى الأحد والعشرين من شهر فريمير عام ٩ تحت عنوان « القاهرة » ، ما يأتى : « يدعو القائد العام مينو جميع اليونانيين الذين كانوا يحترفون التجارة فى مصر قبل مجىء الفرنسيين إلى استئناف أعمالهم التجارية . وأنهم سوف يجدون فى أى مكان يحلون فيه الأمن والطمأنينة . لقد خفضنا الرسوم الجمركية ومحونا كل ظلم وعدوان . إن المبدأ الذى يسير عليه الفرنسيون مبدأ إنسانى كريم » .

وتكتب تلك الصحيفة فى الهامش العبارة التالية : « طبع هذا البيان باللغتين الفرنسية واليونانية » . وهكذا ، يمكننا ، استناداً إلى تلك العبارة أن نؤكد أن الحروف اليونانية التى أحضرتها الحملة معها استخدمت فى مصر لطبع المنشورات باليونانية وتوزيعها على من يهمهم الأمر .

وثمة مسألة أخرى اعترضتنا أثناء هذا البحث ، وهى كيفية تموين تلك المطابع بالورق والحبر ، إن جميع الذين أرخوا للطباعة فى عهد الحملة الفرنسية لم يفيدونا بكلمة واحدة عن هذا الموضوع . ويبدو أنهم فضلوا السكوت عنه ، إما لعدم أهميته فى نظرهم أو لأنهم لم يتمكنوا من الوصول إلى نتيجة يرضون عنها . غير أن أمين واصف ، فى البحث الذى تقدم به سنة ١٩٥٢ إلى جامعة باريس عن « الاعلام والصحافة الرسمية فى مصر حتى نهاية الاحتلال الفرنسى » يعنى بتلك الناحية عناية خاصة . إذ يذكر : « إن الفقرة التى يتكلم فيها برهيه Brehier عن نشاط أعضاء لجنة العلوم والفنون ، سمحت له أن يسد ذلك النقص . فهو يكتب قائلا : « إن العمل الذى قام به العلماء الفرنسيون فى مصر يلفت النظر ،

---

(١) Taillefer : Notice historique et biographique sur Marcel

(٢) Michaud : Biographie Universelle ,Tome XXVI, p. 461

وذلك بفضل التجاوب المستمر الذى أوجدوه بين الناحيتين النظرية والعملية . فالكشف العلمى أستفيد منه عمليا فى إنشاء مصانع للجوخ والورق والبارود . . . » [1] . ويستطرد أمين واصف قائلا : « تثبت لنا تلك الفقرة أن العلماء كانوا يستثمرون معارفهم . ودليلنا على ذلك أن الجوخ كان يستخدم فى صنع كساوى الجند ، والبارود ، فى صنع الذخائر . أما الورق ، فهو المادة الأولى اللازمة لمطابع الجيش . يضاف إلى ذلك أن تايفير Taillefer فى معرض حديثه عن مارسيل يذكر : أنه — أى مارسيل — كان يستعد وقت الجلاء ، لصنع الورق بكميات كبيرة مستعينا بالقطن ولحاء النخيل » [2] .

إن عبارة « بكميات كبيرة » تجعلنا نفرض أن قبل تلك الفترة كان هناك إنتاج للورق ولكن بكميات صغيرة ، وأن فى خلال الحملة لم يكن جميع الورق المستعمل — أو على الأقل جزء منه — يستورد من فرنسا ، بل كان يصنع محلياً » [3] .

ولا تذكر مجموعة الوثائق النابليونية شيئا عن الورق أو الحبر ، مع أنها لم تترك فرصة إلا وذكرت المطبعة والحروف على اختلاف أنواعها ، والمشرفين عليها من إداريين وفنيين وصبية يتعلمون مهنة تنضيد الحروف .

أما عن الحبر الذى كانت تستخدمه مطابع الحملة ، فليس هناك أدنى شك فى أنه كان يصنع فى مصر ، يؤكد لنا ذلك تايفير Taillefer عندما يقول : « استبدل مارسيل المواد المستعملة عادة فى صنع حبر المطبعة وفى تنظيف الحروف ، بمواد أولية أستخرجت من البلاد وجهزت بمهارة . . . » [4] .

نستطيع إذن أن نؤكد أن علماء لجنة العلوم والفنون ساعدوا فى إدارة المطابع ، التى استغنت بفضلهم عن المواد اللازمة لسيرها والتى كانت تصنع فى فرنسا .

ويهمنا قبل أن نختتم هذه الدراسة أن نبحث فى مصير تلك المطابع بعد جلاء الفرنسيين عن مصر . هل أعيدت إلى فرنسا أم ظلت حيث هى ؟ يقول الفيكونت فيليب دى طرازى [5] ،

---

(١) Cité in Amin Wassef, *op. cit.*, pp. 86 et 87

(٢) المصدر السابق ص ٨٧

(٣) المصدر السابق ص ٨٧

(٤) Taillefer, *op. cit.*, pp. 6 et 7

(٥) الفيكونت فيليب دى طرازى ، تاريخ الصحافة العربية ، الجزء الأول ص ١٤٩

إن الفرنسيين تركوا مطابعهم وحروفهم فى مصر وأن محمداً علياً ، بعد توليه الحكم ، أفرد لها مكانا فى بولاق ، حيث أسس أول مطبعة مصرية رسمية . ولا نعلم من أين أتى صاحب تاريخ الصحافة العربية بتلك المعلومات التى تبدو لأول وهلة أنها قريبة جداً من الصواب ، إن لم تكن الصواب بعينه . إذ أن المنطق لا يستبعد أن يكون الفرنسيون قد قرروا ترك مطابعهم فى القلعة لثقلها ولأن نقلها إلى فرنسا سوف يكلفهم مجهوداً هم فى أشد الحاجة إليه فى هذا الوقت العصيب . إلا أن دهيران Dehérain يخالف زعم طرازى كل المخالفة ، إذ يقول : « بعد تسليم القاهرة ، أنقذ حنا يوسف مارسيل مطابعه وأعادها إلى فرنسا »[1] .

ويقول جيس : « وعندما جلا الجنرال بليار عن القاهرة ، حمل مارسيل مطبعته إلى الاسكندرية حيث أعاد تركيبها »[2] . ولا يذكر جيس المصدر الذى استقى منه تلك المعلومات . إذ ليس من المعقول أن يُعيد مارسيل تركيب المطبعة وهو يعلم علم اليقين أن أيام الحملة الفرنسية فى مصر أصبحت معدودة . ولو سلمنا جدلا بأن حسن تصريف الأمور كان يقتضى وجود مطبعة ، فان فرع المطبعة الأهلية بالاسكندرية لا شك قادر على أن يفى بالغرض إلى أن ينزل الفرنسيون إلى السفن التى أعدت لنقلهم إلى فرنسا .

ويفترض جيس أنه عند جلاء الفرنسيين عن مصر ، اعتبرت المطبعة ملكا لمارسيل الذى أحسن استخدامها خلال وجوده فى مصر[3] . ولكنا لسنا فى حاجة إلى القول إن ذلك الفرض لا يؤيده الواقع بحال من الأحوال كما سنرى فيما بعد .

ويقول الدكتور ابراهيم عبده « إن الوثائق التاريخية تقطع فى وضوح بأن مطبعة الحملة سواء الشرقية منها أو الفرنجية ، عادت إلى باريس »[4] .

ويؤكد پول دوبون فى تاريخه للطباعة أن المطبعة التى أنشأها بونابرت فى مصر سنة ١٧٩٨ لم تبق فيها إلا أثناء وجود الحملة الفرنسية[5] .

(١) Deherain, *op. cit.*, Tome V, p. 367

(٢) Geiss, *op. cit.*, p. 156

(٣) Geiss, *op. cit.*, p. 157

(٤) ابراهيم عبده ، المصدر السابق ، ص ٥٧

(٥) Dupont, *op. cit.*, Tome II, p. 600

ويقول « كانيڤى » : « لقد عرفنا بصفة أكيدة من مذكرات الجنرال بليار ومن مجموعة رسائل نابليون الأول ، أن معدات المطبعة قد أعيدت إلى فرنسا . وها هو ذا الخطاب الذى كتبه « برتييه » Berthier وزير الحربية آنذاك إلى الجنرال بليار ، القائد العام للجيش العائد من مصر [1] .

« باريس فى الثانى والعشرين من فندميير عام ١٠

« من وزير الحربية إلى الجنرال بليار

« لقد تسلمت ، أيها القائد المواطن ، خطاباتك المختلفة المؤرخة فى السابع من هذا الشهر . وقد رفعتها إلى القنصل الأول . وهذه هى القرارات التى اتخذها :

« . . . ترسل جميع المعدات الميكانيكية والمخطوطات العربية والمكتبة وحروف المطبعة العربية إلى باريس حيث تسلم إلى وزير الداخلية الذى اطلب منه أن يتخذ الاجراءات اللازمة نحو نقلها .

« إمضاء : ا . برتييه » [2]

ولكن هذا الخطاب ، وإن كان يثبت لنا عودة الحروف العربية إلى فرنسا ، فانه لا يذكر لنا شيئا عن بقية الحروف ، ولا عن الطابعات نفسها ، إلا أن كان « كانيڤى » قد فهم أن « المعدات الميكانيكية » التى يذكرها وزير الحربية فى خطابه إنما تعنى الطابعات لذا عمدنا إلى البحث عن وثائق أخرى توضح لنا تلك النقطة بالذات . فعثرنا فى محفوظات وزارة الحربية الفرنسية على خطاب من الجنرال « بليار » بمرسيليا إلى الجنرال « برتييه » وزير الحربية ومؤرخ فى الثالث والعشرين من شهر برومير عام ١٠ الموافق الرابع عشر من شهر نوفمبر سنة ١٨٠١ ، نورد ترجمته العربية فيما يلى : « لقد سلمت المكتبة أمس ، أيها الجنرال ، إلى المدير ومعها المطبعة ومختلف الأشياء الخاصة بالعلوم والفنون التى قمنا باعادتها معنا . . ويبدو لى ، أيها الجنرال ، أنكم ترغبون فى أن ترسل جميع تلك الأشياء إلى باريس . وأعتقد أن من واجبى لفت نظركم إلى أن هناك أشياء كثيرة لا تساوى تعب نقلها ؛ لقد أحضرتها إلى فرنسا لكى لا أترك شيئا منها فى مصر . ولكن نقلها إلى باريس

---

(١) Canivet, *op. cit.*, p. 14

(٢) Cité in Canivet, *op. cit.*, p. 15

سوف يكلفنا مالا لا فائدة منه . . . إن فى الإمكان فرز الأشياء الثمينة ونقلها إلى باريس وإيداع الباقى فى متحف مقاطعة مصب نهر الرون لبيعه لحساب الحكومة .

« تحيات واحترامات »

« إمضاء : بليار » (١)

وفى الرابع والعشرين من الشهر نفسه أى فى الخامس عشر من شهر نوفمبر سنة ١٨٠١ ، أرسل شپتال وزير الداخلية إلى الجنرال بليار الخطاب التالى :

« أعلمنى وزير الحربية أنك شحنت عند سفرك من مصر معدات ميكانيكية كثيرة ومخطوطات عربية وحروف المطبعة العربية .

« لقد قرر القنصل الأول أن توضع هذه الأشياء تحت تصرفى

« فأرجو إذن ، أيها الجنرال ، أن تأمر بتحزيم هذه الأشياء بكل عناية وإرسالها إلىّ بباريس .

« وتفضل بقبول شكرى مقدما

« أحييك

« إمضاء : شپتال » (٢)

وفى نفس اليوم ، أرسل شپتال إلى وزير الحربية الرد التالى ، على خطابه المرسل فى ٢٢ فندميير : « لقد أخبرتنى أيها الزميل العزيز بكتابك المؤرخ فى ٢٢ فندميير ، أن الجنرال بليار شحن عند سفره من مصر ، معدات ميكانيكية كثيرة ومخطوطات شرقية وحروف المطبعة العربية ، وتطلب إلىّ أن أصدر أمرى بنقلها إلى باريس حسب رغبة القنصل الأول . لقد كتبت إلى الجنرال بليار بهذا المعنى . . . » .

« إمضاء : شپتال » (٣)

وسواء نقلت المطبعة إلى باريس أم ظلت فى مارسيليا لتباع لحساب الحكومة ، فإنها قد نقلت بجميع أجزائها إلى فرنسا ، كما يؤكد ذلك خطاب الجنرال بليار إلى الجنرال برتييه .

---

(١) Ministère de la Guerre, Archives Historiques, Dépôt de la Guerre N° 220

(٢) Ministère de la Guerre, Archives Historiques, Etat. Major de la Guerre

(٣) Ministère de la Guerre, Archives Historiques, Dépôt de la Guerre

أما عن السبب الذى من أجله تجشمت الحملة أمر نقل المطبعة إلى فرنسا فعائد إلى خوف المسئولين من أن يستخدمها الانجليز أو عملاؤهم فى الدعاية ضد السياسة الفرنسية ، إن هم تركوها فى مصر . فقد يدور الفلك دورته وتعود فرنسا إلى إحتلال البلاد ، بعد القضاء على الانجليز وحلفائهم فى عقر دارهم . ذلك ، فى رأينا ، هو السبب الذى حدا بالفرنسيين إلى « عدم ترك أى شىء فى مصر » .

وقد قال لنا المرحوم الدكتور جاك تاجر أنه علم وهو بباريس من أحد المعنيين بالتاريخ المعاصر أن مطبعة الحملة قد أرسلت بعد ذلك إلى الجزائر مع الجيوش الفرنسية التى اجتاحت أراضيها عام ١٨٣٠ وأنها كانت من أدوات الدعاية الفعالة . غير أننا لم نعثر حتى الآن على مرجع واحد يؤيد هذا الكلام أو ينفيه . وعلى أى حال فليس بمستبعد أن يلجأ الفرنسيون بعد حوالى ثلاثين سنة إلى نفس الوسائل التى عمدوا إليها يوم كانوا فى مصر .

تلك هى قصة أول مطبعة عرفتها مصر ، وهى قصة حافلة على الرغم من قصرها . لقد أدت تلك المطبعة للحملة الفرنسية فى مصر أجل الخدمات وأبقاها على الرغم من عيوبها الفنية الكثيرة . فهى لم تستطع طبع صورة أو لوحة واحدة بوضوح . ويقول الدكتور ابراهيم عبده [1] تعليقا على ذلك « . . . بيد أن هناك بعض الملاحظات على ورق الطبع وحروف المطابع ، تصدمنا فى الورق خشونته فى المطبعتين الرسمية والتجارية [2] ، كأنما اختير للحملة أقل الأصناف جودة . وقد رجعنا فى المكتبة الأهلية بباريس إلى الصحف المعاصرة ، فاذا أكثرها يخرج فى ورق مماثل من حيث المادة للأوراق التى شغلت بها المطابع المصرية نشاطها ، وكانت حروف تلك الصحف المعاصرة على غرار ما عرفناه من حروف مطابع مارسيل وأوريل إلا اختلافا طفيفا بين المؤسستين المصريتين ، ذلك أن المطبعة الأهلية كانت تعنون موضوعاتها وتشير إليها فى لاديكاد ولوكوريه خاصة بحروف كبيرة مفصلة بينما كانت تخرج الجريدتان فى مطبعة أوريل فى حروف صغيرة مزدحمة ، أى أن حروف المطبعة الرسمية كانت أكثر جودة وملاءمة لفن الطباعة منها فى المطبعة التجارية ، على أن من الأمور الواضحة ، أن هناك ضعفا بينا فى طبع الصور والرسوم التى أخرجتها المطبعتان الرسميتان ، وكذلك حرمت المطبعة العربية من الهمزات التى قلما كنا نعثر على إحداها » .

---

(١) ابراهيم عبده ، المصدر السابق ، ص ٤٧

(٢) يقصد مطبعة مارك أوريل .

ويرى شارل رو إن المصريين الذين نالوا قسطاً من التعليم عرفوا قدر تلك المطبعة [1] .

وتفرد صحيفة الكوربيه فى أحد أعدادها ، فصلا عن المطبعة الأهلية وأثرها فى الوطنيين ، رأينا أن نورد ترجمتها العربية لما لها من دلالة .

« إن المطبعة الأهلية بالقاهرة ، هى المؤسسة الفرنسية الوحيدة التى أثارت فضول بعض الوطنيين المثقفين واسترعت حسن التفاتهم .

« وقد زارها مراراً كبار أعضاء الديوان ، نذكر منهم الشيخ المهدى والشيخ الفيومى والشيخ الصاوى . وقد اهتموا خلال زياراتهم بالطرق المتبعة فى طبع نصوص اللغة الفرنسية واللغات الشرقية . إن الشيخ محمد الفاسى الذى شاهد مطبعة الآستانة والمطبعة الموجودة فى أحد أديرة الموارنة بلبنان [2] وافق على أن مطبعة القاهرة خير من هاتين المؤسستين الوحيدتين اللتين عرفهما الشرق قبل تلك المطبعة .

« أما الشيخ البكرى فقد انتظر إلى سنة ١٨٠١ ليزور مطابع مارسيل . وقد وجه عدة أسئلة عن الأثر الذى تتركه المطبعة فى الحضارة . وقال إن هناك عدداً كبيراً من المؤلفات العربية الجيدة يرجو نشرها . . . » [3] .

ولكن هل يكفى إعجاب المشايخ بالمطبعة لنشر فوائدها وتعميمها بين المصريين ؟ لقد كان فى وسع الفرنسيين أن يخطوا خطوة أخرى فى سبيل هدف أسمى ؛ كان فى وسعهم أن يطبعوا كتباً لتعليم القراءة والكتابة يوزعونها مجانا على المصريين ، ولكنهم لم يفعلوا . كان فى مقدورهم أن يلحقوا بمطبعتهم مدرسة لتعليم من يشاء الفن المطبعى ، ولكنهم فضلوا الاحتفاظ به لأنفسهم وللخمسة الصبية الذين يشير إليهم أمر بونابرت الصادر فى الرابع عشر من يناير سنة ١٧٩٩ لتنظيم المطبعة الأهلية والذين لم نعثر لهم على أثر ، لا فى الكتب التى بحثت فى تاريخ المطابع ولا فى وثائق الحملة نفسها . وأكبر الظن أن عمل هؤلاء لم يتعد أعمال الخدم .

---

(١) Charles-Roux, op. cit., p. 152

(٢) يقصد المحرر دير مار يوحنا الصايغ التابع لرهبان طائفة الروم الملكيين الكاثوليك لا للموارنة كما اعتقد خطأ .

(٣) Le Courrier de l'Egypte du 18 Pluviose, an IX الموافق ٧ فبراير سنة ١٨٠١

إن المطابع التى جلبها الفرنسيون إلى وادى النيل اقتصرت فائدتها على أصحابها ولم تتعداهم الى الشعب الذى زعموا له فى أول بيان نشروه عليه ، أنهم جاءوا مصر لرد الحقوق لأصحابها ولتأديب المماليك الذين عاثوا فى الأرض فساداً وملأوا القلوب رعباً . لقد طرد الفرنسيون المماليك ، لا إنصافاً للشعب الذى ظل يرزح تحت نير عبوديتهم القرون الطوال ، بل لكى يحلوا محلهم ويستغلوا أرض الكنانة لصالحهم ولخير وطنهم . شأنهم فى ذلك شأن كل دولة مستعمرة . وهكذا نرى أن المصريين ظلوا ، خلال حكم الفرنسيين لبلادهم ، بمنأى عن الحركة العلمية وعن المطبعة ، الأداة التى لابد منها لنشر الثقافة فى ربوع البلد الذى كان فى يوم من الأيام مركز العالم المتمدن .

قائمة بمطبوعات الحملة الفرنسية فى مصر

رجعنا فى وضع هذه القائمة إلى البحث الذى تقدم به البير جيس إلى المجمع العلمى المصرى والذى نشر فى الجزئين الأول والثانى من مجلة المجمع عام ١٩٠٧ وعام ١٩٠٨، وإلى مجموعة الكوريه ديلجبت ، إذ أن تلك الصحيفة كانت تعلن بين الحين والآخر عن ظهور كتاب أو نشرة عن مطبعة أوريل أو عن المطبعة الأهلية . واستعنا أيضا بكتاب الجبرتى «عجائب الآثار فى التراجم والأخبار» وبكتاب المعلم نقولا الترکی «ذكر تملك جمهور الفرنساوية الأقطار المصرية والبلاد الشامية» . وإلى كتاب شارل رو «بونابرت حاكم مصر»[1]، وإلى قائمة كتب المطبعة الأهلية بباريس ، وإلى رسالة الدكتور أمين واصف «الإعلام والصحافة الرسمية فى مصر حتى نهاية الاحتلال الفرنسى» التى قدمها إلى جامعة باريس . وقد آثرنا أن نضع عناوين تلك المطبوعات باللغة التى كتبت فيها محددين حجمها وعدد صفحاتها كلما استطعنا إلى ذلك سبيلا .

١ — «المنشور الصادر من طرف تحرير عسكر اسكندرية الجمهور الفرنساوية سنة ١٢١٣ هجرية المطبوع باللغة العربية فى اسكندرية سنة ١٧٩٨»[2] .

٢ — Code pénal militaire pour toutes les troupes de la République en temps de guerre.

طبع بالاسكندرية فى عام ٦ . وهو مجلد واحد يقع فى ٧٨ صفحة من حجم الربع .

٣ — Alphabet arabe, turk et persan, à l'usage de l'imprimerie orientale et française, par J. J. Marcel.

طبع بالاسكندرية فى عام ٦ . وهو مجلد واحد صغير يقع فى ١٦ صفحة من حجم الربع .

٤ — Exercices de lecture d'Arabe littéral (Extrait du Koran) à l'usage de ceux qui se livrent à l'étude de cette langue, par. J. J. Marcel.

طبع بالاسكندرية فى عام ٦ . وهو مجلد واحد صغير يقع فى ١٢ صفحة من حجم الربع .

---

(١) François Charles-Roux; Bonaparte Gouverneur de l'Egypte

(٢) نقولا التركى ، ذكر تملك جمهور الفرنساوية الأقطار المصرية والبلاد الشامية .

٥ — Précis d'une nouvelle méthode pour réduire à de simples procédés analytiques la démonstration des principaux théorèmes de géométrie par le citoyen Corancez [1]

مجلد واحد .

٦ — « من حضرة سارى عسكر أمير الجيوش الكبير بونابرته خطابا إلى ديوان مصر المحروسة . . . تحريراً فى رحمانية يوم الأحد فى ١٧ صفر سنة ١٢١٤ وفى ذيله طبع فى مطبعة الفرنساوية العربية [٢] .

٧ — « صورة الفتوى حكم الشرع الشريف الذى صدر من محكمة رشيد دام جلالها على عثمان خواجا خطابا إلى حضرة الجنرال الحاكم فى البلد المذكورة . مؤرخ بأربعة وعشرين من شهر ترميدور سنة السبعة من إقامة الجمهور الفرنساوى يعنى فى الثامن من ربيع الأول سنة ١٣١٤ وفى ذيل الفتوى : طبع بمطبعة الفرنساوية العربية بمصر المحروسة [٣] .

٨ — Notice des événements qui ont en lieu en Europe pendant les quatre premiers mois de l'an VII de la République.

طبع بالقاهرة فى ١٢ ترميدور عام ٧ بالمطبعة الأهلية . ويقع فى أربع ورقات من حجم الربع .

٩ — Vocabulaire usuel Français-Arabe contenant les mots principaux d'un usage journalier par J. J. Marcel.

طبع بالقاهرة عام ٧ . وهو مجلد واحد صغير فى حجم الربع . وكتب العربى فيه بالحروف اللاتينية [٤] .

١٠ — Mélanges de littérature orientale par J. J. Marcel

طبع بالقاهرة عام ٧ . فى مجلد واحد حجم الربع .

---

(١) يذكر البيرجيس هذا الكتاب فى قائمته ويضيف تعليقا عليه أنه لم يعثر له على أثر فى المكتبات الفرنسية المختلفة . لذا فانه لم يستطع معرفة حجمه ولا سنة طبعه .

(٢) نقولا التركى ، المصدر السابق ، ص ١١٧

(٣) نقولا التركى ، المصدر السابق ، ص ١٢٥

(٤) ينتقد أنطوان جالان هذا الكتاب انتقادا مرا . راجع :

A. Galland, Tableau de l'Egypte, T. I, p. 177.

١١ — Descrizione dell'oftalmia di Egitto col metodo curativo della medecina di Antonio Savaresi, medico delle'escrcito fiancese in Oriente.

طبع بالقاهرة بالمطبعة الأهلية عام ٨ ويقع فى مجلد واحد . وهو فى علاج الرمد .

١٢ — « أمثال لقمان الحكيم وبعض أقوال العرب موسوماً بكتاب لقمان الحكيم أبو أنعم » . طبعه باللغة العربية ومعها ترجمة فرنسية ومقدمة من حياة لقمان بقلم حنا يوسف مارسيل . وذكر فى آخره تاريخ الطبع كما يأتى : « بمصر المحروسة طبع بمطبعة الفرنساوية العربية على يد يوحنا يوسف مارسيل ورئيس المطبعة سنة ١٢١٤ » . وهو مجلد واحد صغير يقع فى ١٢٠ صفحة من حجم الربع .

١٣ — Avis sur la petite vérole régnante adressé en Français et en arabe au Divan du Kaire par le citoyen Desgenettes, premier médecin de l'armée d'Orient.

طبع بالقاهرة فى المطبعة الأهلية فى ٢٧ نيفوز عام ٨ . وتوجد طبعة منه باللغة العربية عنوانها : « تنبيه فيما يخص داء الجدرى التساقط الآن . . » .

١٤ — « الرسالة المنفذة من أصحاب ديوان مصر إلى حضرة الأمير الجنرال بونابرته قنصل أعظم الجمهور الفرنساوى باريس . طبع فى دار الطباعة المعمورة الجمهورية سنة ٩ لتاريخ الجمهور .

١٥ — قصة احتلال القسطنطينية لحنا يوسف مارسيل . مجلد واحد [1] .

١٦ — Constitution de la République française an VIII

طبع بالمطبعة الأهلية بالجيزة ، ويقع فى مجلد واحد حجم الربع .

١٧ — Constitution de la République française an VIII

الطبعة الثانية ، طبع بالمطبعة الأهلية بالجيزة . مجلد واحد صغير فى حجم الربع .

١٨ — Constitution de la République française an VIII

الطبعة الثالثة ، طبع بالمطبعة الأهلية بالجيزة . مجلد واحد صغير فى حجم الربع .

---

(١) وجدنا اسم هذا الكتاب مذكورا باللغة الفرنسية فى مؤلف جيمار Guemard Les Orientalistes de l'Armée d'Orient p. 137 وفى مؤلف جان مارى كارى J. M. Carré Voyageurs et Ecrivains Français en Egypte, p. 149.

١٩ — Recueil des pièces relatives à la procédure et au jugement de Soleyman El Halaby, assassin du général Kléber, en langue française, arabe et turque.

طبع بالقاهرة عام ٨ . مجلد واحد فى حجم الثمن [١] .

٢٠ — تنبيه فيما يخص داء الجدرى المتسلط الآن تأليف البارون دوفريش ديجانيت وتعريب دون رافائيل . طبع مع الأصل الفرنساوى سنة ٨ للجمهورية (١٨٠٠) فى ٤٣ صفحة . وطبع المتن العربى بمصر القاهرة سنة ١٢١٥ هـ فى ٢٥ صفحة . (طبعة ثانية) .

٢١ — Extrait de l'ordonnance du 1er Mars 1768 pour régler le service dans les places et dans les quartiers.

طبع بالمطبعة الأهلية بالقاهرة عام ٩ . ويقع فى ١٠٨ صفحات من قطع $\frac{١}{١٦}$.

٢٢ — Grammaire de l'arabe vulgaire à l'usage des français et des arabes [٢].

طبع بالمطبعة الأهلية بالقاهرة فى عام ٩ .

٢٣ — شروط الصلح المطبوعة فى شهر محرم سنة ١٢١٦ هـ باللغة العربية والتى يذكرها الجبرتى فى حوادث شهر محرم من كتابه ؛ فان الفرنسيين « ألصقوا أوراقا بالطرق مكتوبة بالعربى والفرنساوى وفيها شرطان من شروط الصلح التى تتعلق بالعامة . . . » .

٢٤ — « شروط جلاء الجيوش الفرنساوية عن مصر . فى ٢٧ حزيران سنة ١٨٠١ م الموافق ١٦ صفر سنة ١٢١٦ . طبعت فى مطبعة الفرنساوية بمصر » [٣] .

هذا بخلاف المنشورات اليونانية التى كانت توزع من حين إلى حين على الرعايا اليونانيين والتى يشير إلى واحد منها العدد رقم ٩٢ من صحيفة الكوريه ديلجبت .

---

(١) يذكر الجبرتى « . . . وانفضت الحكومة على ذلك وألفوا فى شأن ذلك أوراقا ذكروا فيها صورة الواقعة وكيفيتها وطبعوا منها نسخا كثيرة باللغات الثلاث الفرنساوية والتركية والعربية . .» الجبرتى ، عجائب الآثار فى التراجم والأخبار ، الجزء الثالث ، ص ١١٦ ، ويضيف الجبرتى فى ص ١٣٣ أن « هذه الشريعة والفتوى لازم ينطبعوا باللغة التركية والعربية والفرنساوية من كل لغة قدر خمسمائة نسخة لكى يرسلوا ويتعلقوا فى المحلات اللازمة . . . » .

(٢) لم يطبع من هذا الكتاب سوى ١٦٨ صفحة ويبدو أن مؤلفه حنا يوسف مارسيل اضطر إلى وقف طبع باقى صفحاته بسبب الاضطرابات التى حدثت خلال سنة الطبع .

(٣) نقولا التركى ، المصدر السابق ، ص ٢٢١

قائمة بالدوريات التى طبعت فى مطابع الحملة الفرنسية

١ — Le Courrier de l'Egypte.

١١٦ عدداً ، صدرت من ١٢ فروكتيدور سنة ٦ إلى ٢٠ بلريال سنة ٩ [١] .

٢ — La Décade Egyptienne ; journal littéraire et d'économie politique. Tome I.

طبع بالمطبعة الأهلية بالقاهرة عام ٧ ، مجلد واحد فى حجم الثمن يقع فى ٣٠٠ صفحة[٢].

٣ — Annuaire de la République française an VII.

طبع فى المطبعة الأهلية بالقاهرة عام ٨ ، مجلد واحد فى حجم الثمن .

٤ — Annuaire de la République française calculé pour le méridien du Kaire, l'an VIII de lère française.

طبع فى المطبعة الأهلية بالقاهرة عام ٨ ، مجلد واحد فى حجم الثمن .

٥ — Annuaire pour l'an VIII suivi de la constitution française

طبع فى المطبعة الأهلية بالجيزة ، مجلد واحد فى حجم الربع .

٦ — La Décade Egyptienne, journal de littérature et d'économie politique. Tome second

طبع فى المطبعة الأهلية بالقاهرة سنة ٨، مجلد واحد فى حجم الثمن ويقع فى ٣٠٠ صفحة.

٧ — Annuaire de la République française calculé pour le méridien du Kaire, l'an IX de l'ère française.

طبع فى المطبعة الأهلية بالقاهرة عام ٩ ، مجلد واحد فى حجم الثمن .

---

(١) قام المواطن مارك أوريل بطبع الاعداد الثلاثين الأولى من تلك الصحيفة بمطبعته الخاصة .

(٢) يلاحظ أن الاعداد الثلاثة من تلك المجلة قد طبعت فى مطبعة مارك أوريل .

٨ — La Décade Egyptienne, journal de littérature et d'économie politique. Tome III

طبع فى المطبعة الأهلية عام ٩ ، مجلد واحد فى حجم الثمن ، يقع فى ٢١٦ صفحة .

٩ — La Décade Egyptienne, journal littéraire et d'économie politique.

الأعداد الثلاثة الأولى من الجزء الرابع . ملزمة واحدة . طبعت فى المطبعة الأهلية عام ٩ فى حجم الثمن [١] .

---

(١) Champollion Figeac; Fourier et Napoléon, l'Egypte et les cent Jours, Cité in Canivet.

مصادر البحث ومراجعه

١ — مجموعات المراجع

Bibliothèque Khédiviale. Catalogue ... Section Europèenne II l'Orient. Caire 1899.

Combe (E) : Catalogue de la Bibliothéque Municipale (d'Alexandrie) Section Européenne 1892-1926, T.I. Egypte: L'Expédition de Bonaparte.

Catalogue de la Bibliothèque de l'Institut d'Egypte (1859-1917).

Guémard (G.) : Supplément (addenda et Corrigenda) à la Bibliographie de Mr. René Maunier.

Maunier (René) : Bibliographie Economique, Juridique et Sociale de l'Egypte Moderne, Le Caire, Imprimerie de l'Institut Française d'Archéologie Orientale 1918.

Michaud : Biographie Universelle Ancienne et Moderne, Tomes XXVI et XLIII. Paris, chez Madame C. Desplaces, 1858, 2 volumes in 8.

٢ — وثائق غير مطبوعة

Ministère de la Guerre ; Archives historiques. Dépot de la Guerre. Paris.

Lettre du ministre de l'Intérieur au ministre de la Guerre. (Paris, le 24 Brumaire an 10 de la République.

Lettre du ministre de l'Intérieur au Général Belliard (Paris, le 24 Brumaire an 10 de la République).

Lettre du Général Belliard au Général Berthier (Paris, le 23 Brumaire an 10 de la République).

٣ — وثائق مطبوعة

Annuaire de la République Française calculé pour le méridien du Kaire, l'an VIII de l'ère française. Au Kaire, Impr. Nationale, an VIII.

Annuaire de la République Française calculé pour le méridien du Kaire, l'an IX de l'ère française. Au Kaire, Impr. Nationale, an IX.

Annuaire de l'an VIII, suivi de la constitution Française. Guizeh, Impr. Nationale, an VIII.

Correspondances de Napoléon I, Tomes IV, V et VI, Paris, Imprimerie Nationale, 1858-1869 ; 3 Volumes in 4.

Courrier de l'Egypte, du 12 fructidor an VI (29 Août 1798) an 8 messidor an IX (27 Juin 1801). Kaire VI-IX.

Décade Egyptienne (la), organe de l'Institut d'Egypte, 3 Volumes, Kaire, Années VII et VIII.

Keller (A): Correspondances, Bulletin et Ordres du jour de Napoléon T. IV.

٤ — المذكرات والرسائل والتقارير

Bourrienne (Louis-Antoine Fauvelet de) : mémoires sur Napoléon, le directoire, le cousulat, l'empire et la restauration. Tome II. Paris, Ladvocat, 1829, 1 Volume in 8°.

Desgenettes : Souvenirs d'un médecin de l'expédition d'Egypte. Paris 1893, 1 Volume in 16.

Galland (Antoine) : Tableau de l'Egypte.

٥ — رحلات وأسفار

Carret (Jean-Marie) :Voyageurs et Ecrivains français en Egypte. Tome I. Le Caire, Institut Français d'Archéologie Orientale, 1932, I Vol. in 4°.

Volney (C.P.): Voyage en Syrie en Egypte pendant les années 1783, 1784 et 1785.

٦ — كتابات وبحوث المعاصرين

La Description de l'Egypte ou Recueil des Observations et des Recherches qui ont été faites en Egypte pendant l'Expédition de l'Armée Française, Tomes XVI et XVIII, Paris, Imprimerie de C.L.F. 1826, 2, Vols. in 8°.

Reybaud et Vaulabelle : Histoire de l'Expédition Française en Egypte (10 Vols.) Paris 1830-1836.

٧ — تراجم

Belin (François-Alphonse) : Notice nécrologique et littéraire sur Marcel (1776-1854). Journal Asiatique, 5ième série, Tome III, 1854.

Taillefer (A.) : Notice historique et biographique sur J. J. Marcel (1776-1854). Tirage à part d'un article publié dans la Revue d'Orient, de l'Algérie et des Colonies. Bulletin des Actes de la Société Orientale Algérienne et Coloniale de France, Tome XVI, 1854, 1 Vol. in 8°.

٨ — مراجع عامة ودراسات خاصة

Amin Sami Wassef : L'Information et la Presse Officielle en Egypte, jusqu'à la fin de l'Occupation Française. (Thèse de doctorat présentée à l'Université de Paris en 1952.

Arminjon : Les Universités Musulmanes d'Egypte, Revue de Paris, Tome V, 1904.

Canivet (R.G.) : L'Expédition d'Egypte. La Commission des Sciences et des Arts. La Revue Internationale d'Egypte, Tome III, N° 1, Janvier 1906.

L'Expédition d'Egypte. La Bibliothèque de l'Expédition. La Revue Internationale d'Egypte, Tome IV, N° 4 et 5, Août-Septembre 1906.

Carra de Vaux : Les Penseurs de l'Islam, Tome V, Les sectes, libéralisme moderne. Paris, Paul Gouthner, 1936, 1 Volume in 16°.

Charles-Roux (François) : Bonaparte Gouverneur d'Egypte, Paris, Librairie Plon 1936.

Déhérain (Henri) : dans Hanotaux «Histoire de la Nation Egyptienne» Tome V. L'Egypte Turque, pachas et mameluks du XVI au XVIII S. L'Expédition d'Egypte du Général Bonaparte. Paris, Plon 1937, 1 Volume in 4°.

Dupont (Paul) : Histoire de l'Imprimerie. Imprimerie Paul Dupont, Paris 1854.

Gaulmier (Jean) : L'Idéologue Volney. Imprimerie Catholique, Beyrouth 1951, 1 Vol. in 8°.

Geiss (Albert) : Histoire de l'Imprimerie en Egypte, 1ère partie, « L'Imprimerie de l'Expédition Française en Egypte ». Bulletin de l'Institut Egyptien, 5ième série, Tome I, 1907.

Rigault (A) : Le Général Abdalla Ménou et la Dernière Phase de l'Expédition d'Egypte. Paris 1911.

Rousseau (M.F.) : Kleber et Ménou en Egypte. Août 1799-Septembre 1801. Paris 1900.

Van Berchem : Matériaux pour un corpus inscriptiorum arabicarum, Tome I, Extrait des mémoires de la mission Archéologique française du Caire. Paris, Leroux 1894, 1 Volume in 8°.

Wiet (Gaston) : Les Inscriptions Arabes d'Egypte (Extrait des Comptes—rendus des séances de l'Académie des Inscriptions et Belles—Lettres, 1913). Paris, A. Picard, 1913, 1 Vol. in 8°.

٩ — المراجع العربية

ابراهيم عبده : تاريخ الطباعة والصحافة فى مصر خلال الحملة الفرنسية ، المطبعة النموذجية ، القاهرة ١٩٤٩

أحمد عزت عبد الكريم : تاريخ التعليم فى عصر محمد على ، القاهرة ١٩٣٨

الجبرتى (الشيخ عبد الرحمن) : عجائب الآثار فى التراجم والأخبار . الجزءان الأول والثانى ، بولاق ١٢٩٧

فيليب دى طرازى (الفيكونت) : تاريخ الصحافة العربية (جزءان فى مجلد واحد) ، بيروت ١٩١٣

« الهبة » فى القانون الإتيوبى

ፍትሐ፡ነገሥት፡፡

للدكتور عبد السميع محمد أحمد

مقدمة :

يتناول هذا البحث دراسة باب الهبة من القانون الإتيوبى ፍትሐ፡ነገሥት፡፡ ، وهو القانون الذى ضم التنظيمات والطقوس الكنسية وترتيب الشرائع الدينية . كما شمل ترتيب الأمور المدنية وأحوال الناس العامة فى مأكلهم ومشربهم وملبسهم ، وفى معاملاتهم الدنيوية من بيع وشراء وإجارات وشركات وسائر ما يحتاجونه ويمارسونه من شئون الحياة .

ويقع باب الهبة فى صدر أبواب المعاملات التى عالجها هذا القانون ، وتتلوه أبواب أخرى ربما كانت أكثر مساساً بحياة الناس وأشد اتصالا بمداولاتهم الرتيبة اليومية وأولى بأن تكون لها الصدارة عند الحديث ، بل هى كل ذلك بالفعل ، وذلك كمسائل البيع والشراء والإجارات وغيرها ، مما يشتغل به الناس ويستغرق الكثير من جهدهم .

ودراسة هذا الباب تتطلب محاولة التعرف على مصادر مادته إن وجدت ، ومناقشة أحكامه ، والمقارنة بينها وبين ما ورد فى مصادره أو غيرها مما يفيد فى مجال الدراسة الموضوعية لأحكام الهبة .

على أن لهذه الدراسة جانباً لغوياً هاماً ؛ فقد استقى القانون الإتيوبى هذه المادة مترجمة عن أصل لها عربى وضعه فى القرن الثالث عشر الصفى ابن العسال . ومن ثم كان من الأهمية بمكان عقد المقارنات بين الأصل العربى وترجمته الإتيوبية لتبين مدى إصابة الترجمة ، والوقوف على ما قد يكون بها من أخطاء أو مخالفات أو إضافات رأى أن يزيدها المترجم الإتيوبى لسبب أو لآخر .

ومن الممكن ، بل من الواجب ، بعدئذ أن يعاد نشر أى من النصين العربى أو الإتيوبى على ضوء ما تسفر عنه أمثال هذه الدراسة المقارنة بين النصين .

من أجل ذلك تناولت الدراسة هنا هذه الجوانب التى أشرت إليها فى صدر هذه الكلمة ؛ فقسمت إلى فصول ثلاثة :

الفصل الأول : وعنى بالدراسة الموضوعية لأحكام الهبة .

والفصل الثانى : وقد تناول المظاهر اللغوية فى النص الإتيوبى .

أما الفصل الثالث : فقد تولى إعادة نشر « باب الهبة » من الأصل العربى ، مستفيداً بما توصل إليه البحث من دراسة المظاهر اللغوية فى جوانبها المختلفة .

١ ـــ الدراسة الموضوعية

يضع القانون الإتيوبى ፍትሐ፡ነገሥት:: « باب الهبة » فى صدر أبواب المعاملات ، ويتبعه بباب « القرض والرهن والضمان والكفالة » ، فباب « العارية » ثم « المبايعات » . ولعل تقديم الهبة ، فالقرض ، فالعارية ، لما يقصد منها إبتداء من الإسهام فى تقديم الخير بوجه من الوجوه المشروعة ، وإن كانت الهبة تتحول أحياناً إلى عقد معاوضة إن شرط فيها الثواب عند العقد ، غير أن هذا الأمر لم يلق كبير عناية عند معالجة مسائل الهبة فى هذا القانون الإتيوبى .

ومما يلاحظ أن بعض مصنفى كتب الفقه الحنفية المذهب قدمت الحديث عن « البيع » على « الهبة والعارية » كأبى الحسن القدورى (٤٢٨ هـ .) فى مختصره ، وعلاء الدين الكاسانى (٥٨٧ هـ .) فى كتابه بدائع الصنائع ، أو قدم البيوع على « العارية ثم الهبة » كأبى جعفر الطحاوى (٣٢١ هـ .) فى مختصره ، والمرغينانى (٥٩٣ هـ .) صاحب البداية والهداية . وينهج أبو بكر السرخسى (٤٣٨ هـ .) نهجاً آخر فيقدم « العارية » على « الهبة » « فالبيع » . وتقدم كتب الفقه الشافعية المذهب « كتاب البيوع » على « العارية » ثم « الهبة » كما يرى فى كتاب الأم للشافعى (٢٠٤ هـ .) ، والتنبيه لأبى اسحق الشيرازى (٤٧٦ هـ .) والمهذب له أيضا ، والوجيز للغزالى (٥٠٢ هـ .) . وكذلك يصنع ابن رشد الحفيد (٥٩٥ هـ .) المالكى المذهب فى كتابه بداية المجتهد .

وتعلل كتب الحنفية لتقديم باب العارية على باب الهبة بأن ذلك انتقال من الأضعف إلى الأقوى ؛ فالعارية تمليك المنافع بغير عوض ، والهبة تمليك العين [1] .

(١) قاضى زاده : نتائج الأفكار فى كشف الرموز والأسرار ، وهو تكملة فتح القدير فى شرح البداية ٧ : ١١٣ .

وربما لحظ من قدم الهبة على العارية الاهتمام بتقديم الأقوى على الأضعف ، عكس الاعتبار السابق . وينفرد القانون الإتيوبى ، متابعا « المجموع الصفوى » لابن العسال ، بترتيبه لأبواب المعاملات السابق الإشارة إليه .

ويتحدث القانون الإتيوبى فى أول باب الهبة عن مصدره الذى استق منه مسائله وأحكامه ، ويدعى أن أكثرها مأخوذ عن « التطلسات » [١] ، فيقول : ወመብዝኅቶን፡ እመጽሐፈ፡ ሲኖ፡ ፲ወ፰፡ ፲ወ፫:: [٢] غير أن الناظر فى هذا الباب وفى غيره من أبواب المعاملات لا يقنع بهذا الادعاء ، ويرى نفسه متجها إلى افتقاد مصادر أخرى عالجت أحكام هذه الأبواب ومسائلها بوفاء .

مصادر « باب الهبة » فى القانون الإتيوبى

ፍትሐ፡ነገሥት::

يعدّ القانون الإتيوبى ፍትሐ፡ነገሥት:: المصدر القانونى الوحيد الذى حظى باهتمام الإتيوبيين منذ ترجم عن أصله العربى « المجموع الصفوى » لابن العسال [٣] ، خلال القرنين الثالث عشر والرابع عشر الميلاديين ، وظل كذلك موضع الرعاية إلى الوقت الحاضر . واعتمد جامعه ابن العسال على طائفة من المصادر مسيحية وغير مسيحية ، وأشار فى مقدمة كتابه إلى مصادره المسيحية ، وأغفل الإشارة إلى المصادر الأخرى الهامة ذات الأثر البين فيه خاصة فى أبواب المعاملات ، وهى المصادر الإسلامية ، وكتب الفقه الإسلامى . غير أن الحديث عن مصادره بعامة لا ينبغى أن يتوقف عندما ذكره ابن العسال ، فمن الواجب تتبع هذه المصادر ومعرفة المدى الذى وقف عنده ابن العسال ، وصدى تأثره بها ، أو عدوله عنها ، وما يصح أن يكون قد أضافه أو لوّنه من آراء .

(ا) المصادر غير الإسلامية :

وطبيعى أن يمم ابن العسال وجهه شطر المصادر المسيحية المقبولة لدى الكنيسة القبطية ، وإن كان قد سمح لنفسه بتناول غيرها أيضا مما جعله موضع نقد بعض الباحثين فى الوقت الحاضر .

---

(١) هى قوانين التلاميذ التى أخبر بها اقليمنطس ، وعددها واحد وثمانون قانونا .
انظر الورقة ١٣/ب من المخطوط ١٣١ قانون — المتحف القبطى .

(٢) فتح نجشت ص ١٨٠ / ١ ن / ٢٣ س . (= صفحة ١٨٠ ، نهر ١ : سطر ٢٣) .

(٣) عالم لاهوتى قبطى ارثوذكسى من رجال القرن الثالث عشر الميلادى .

وإذا اتجه النظر إلى « العهد القديم » وجده يعنى بموضوع الصدقات والنذور والعشور والبكور وما إليها [1] ، ويتحدث عن الهدية [2] ، وهى فى معنى الهبة ، ولكنه لا يذكر شيئاً من أحكامها

وكذلك يذكر « العهد الجديد » الصدقة [3] ، ولا يذكر شيئاً عن الهبة . ومن ثم يتجه ابن العسال صوب المصادر المسيحية الأخرى القريبة لديه ، ويخص هنا فى باب الهبة : التطلسات ، بالذكر .

ولكن النظر فى التطلسات لا يفيد كثيراً ، إذ لم تعرض لموضوع الهبة بشىء ، وإنما عرضت لها قوانين الملوك المنسوبة لعهود قسطنطين وتيودسيوس وليون . ويتحدث القانون الثامن منها عن الهبة من الأولاد وأولاد البنت ومن الغرباء ، ويرى أنها جائزة ، وكذلك يتحدث عن كتابة الهبة واستردادها [4] .

وتناولت مدونة جستنيان ، وهى مصدر تتجه إليه الأنظار أحياناً فى مثل هذا الموقف، موضوع الهبة ، وذكرت أنهـا نوعان : هبة بسبب الموت ، وألحقت بالوصية ، ولها صورتان يطلق عليهما علماء المسلمين لفظى : العمرَى ، والرقبى . والنوع الثانى هبة بين الأحياء . ومن الممكن عقد شىء من الصلات بين ما ذكرته المدونة فى هذا الباب [5] ، وما ذكره المجموع الصفوى ، وإن كان من المرجح أن اعتماد ابن العسال كان على مصادره الإسلامية ، كما سيتضح من الدراسات الآتية بعد .

(ب) المصادر الإسلامية :

يوضح القانون الإثيوبى ، تبعاً لمصدره المجموع الصفوى ، المنهج الذى سيسير عليه فى علاج موضوع الهبة ، ويرى أن حديثه ينحصر فى عناصر خمسة هى : الهبة ، والواهب ،

---

(١) انظر أسفار : الخروج ١٣ ، ٢٤ ، ٢٩ ، ٣٠ ، ٣٤ اللاويين ١ ــ ١٠ ، ٢٣ ، ٢٧ ؛ العدد ٦ ، ٧ ، ١٥ ، ٢٨ ، ٣٠ ، ٣١ ؛ التثنية ١٢ ، ١٤ ، ٢٦ وغيرها .

(٢) تك ٣٢ : ١٨ ــ ٢١ ، ٤٣ : ١١ ، ١٥ ، ٢٥ ، ٢٦ .

(٣) مت ٦ : ١ ــ ٣ ؛ لو ١١ : ٤١ ، ١٢ : ٣٣ ــ ٣٤ ؛ ٢ كو ٩ : ١ ــ ١٥ ، ٨ : ١ ــ ١٥ .

(٤) قوانين الملوك . ورقة ١١٦/ب من المخطوط ١٣١ قانون ــ المتحف القبطى .

(٥) مدونة جستنيان . تعريب عبد العزيز فهمى ، ص ٨٦ وما بعدها .

والموهوب له ، والموهوب ، وباق الشروط ወከዊን፡ ሀብት፡ ውእቱ፡ ይከውን፡
እምጅገጻት፡ ወውእቶሙ፡ ሀቢት፡ ወመሃቢ፡ ወዘይሁብዎ፡ ሎቱ፡ ወንዋይ፤
(١) ዘይሁብዎ፡ ለ[illegible]ሁ፡ ወተ[illegible]፡ [illegible]እዘዝት።

وهناك شيء من الصلة بين هذا النهج وما رسمه ابن رشد الحفيد المالكى المذهب فى صدر باب الهبة من كتابه بداية المجتهد ، قال : « والنظر فى الهبة فى أركانها وفى شروطها وفى أنواعها وفى أحكامها . أما الأركان فهى ثلاثة : الواهب والموهوب له والهبة (٢) » . غير أن هذا التشابه الظاهرى لا يعنى استمداد ابن العسال من المذهب المالكى مسائله ، وينبغى عدم التعجل فى إصدار الحكم حتى تناقش قضايا هذا الباب ويستبين السبيل .

١ — الهبة :

يرى ابن العسال أن الهبة من العقود ، وأن بمجرد الارتباط بين العاقدين وتوافق رغبتيهما يترتب عليه أثر هذا الارتباط . وأمارة الارتباط وتوافق الرغبة تلك الصيغة التى تصدر من الواهب موجبة له ، والرد المقابل لها من الموهوب له مفيدة القبول . وهى عقد التزام ؛ فصدور صيغتى الإيجاب والقبول من المتعاقدين يربطهما بنتائج العقد ، ويتم به انتقال الملك من الواهب إلى الموهوب له ، وحق للأخير التصرف فيه .

وعبارات ابن العسال تفيد هذا المعنى إذ يقول : « وإذا أمضاها الواهب وقبل الموهوب له الشيء الموهوب تم له ملكه والتصرف فيه دون واهبه » ، « ولا تصح الهبة إلا لموهوب له معروف ولا تتم إلا إذا قبلها (٣) » .

فركنا العقد هما الإيجاب والقبول . والتسليم ليس شرطا ، فقد تحدث عن « التسليم » شرطاً للتمام فى الهبة التى عقدت بمكاتبة ، ولم يشترطه فى غيرها ، قال : « والهبة التى تكون بكتاب لا تتم إلا بأن يسلم الواهب كتابها للموهوب له إذا كانت لغريب ، وليس له بعد تسليمها له أن يستردها منه » . وواضح أن التسليم المعنىّ هنا ليس تسليم الشيء الموهوب ، وإنما هو تسليم كتاب الهبة ، فهو إذاً ماض فى رأيه من اعتبار الايجاب والقبول ركنين

---

(١) فتح نجشت ٢٤/١/١٨٠ (= صفحة ١٨٠ نهر : ١ سطر ٢٤) .
(٢) ابن رشد الحفيد : بداية المجتهد ونهاية المقتصد ٤٣٥ . ويقول الكاسانى : الكلام فى هذا الكتاب فى الأصل فى ثلاثة مواضع : فى بيان ركن الهبة ، وفى بيان شرائط الركن ، وفى بيان حكم الهبة » . بدائع الصنائع ٦ : ١١٥ .
(٣) ابن العسال : المجموع الصفوى ٢٢٢ ، ٢٢٤ على التوالى .

تتم بهما الهبة ، ولا اشتراط لتسليم الموهوب ، وهو المعبر عنه فى كتب الفقه الإسلامى بالقبض .

ويقف رجال الفقه الإسلامى من شرط « القبض » فريقين : فريقاً يراه شرطاً فى صحة العقد ، فإذا لم يقبض الموهوب له الموهوب لم يلزم الواهب . ومن هذا الفريق الشافعى وأبو حنيفة والثورى . وفريقاً لا يراه شرطاً فى صحة الهبة ، بل إن الموهوب له يجبر على القبض ؛ وهو رأى مالك . فالقبض عند مالك شرط تمام ، لا شرط صحة فى الهبة . على أن فريقاً ثالثاً لا يعد القبض شرطاً أصلا ، لا شرط صحة ، ولا شرط تمام ؛ وهو قول أهل الظاهر ، وقول أحمد بن حنبل فيما روى عنه فى غير المكيل والموزون [١] .

ويترتب على هذا الاختلاف أحكام منها : صحة أو عدم صحة تصرف المالك الواهب فيما وهبه قبل أن يقبضه الموهوب له . ونص عبارة ابن العسال أنه لا يباح له التصرف ، فهو يقول : « وإذا أمضاها الواهب وقبل الموهوب له الشيء الموهوب تم له ملكه والتصرف فيه دون مالكه » . فإنه عقد تبرع بتمليك العين فيفيد الملك قبل القبض . ولكنها من جانب آخر روعى فيها القبض ، « فمن وهب أحداً شيئاً فمات قبل وصوله إليه فليس يصير لورثته [٢] » . فكأنه راعى مبدأ « سد الذريعة » كما يقول الفقهاء [٣] . ولكنه لم يرع هذا المبدأ فى الهبة للأولاد وأولاد الأولاد ، فإن لهم ما فى كتاب الهبة ولو لم يسلمه إليهم [٤] .

ويبدو أن الفقه الرومانى القديم كان يرى انعقاد الهبة دون اشتراط القبض بل إنها تنعقد ، كما جاء فى مدونة جستنيان ، « بمجرد ما يظهر الواهب رغبته فيها سواء بالكتابة أو بغير الكتابة [٥] » .

ويترتب على رأى ابن العسال عدم اشتراط القبض رأيه فى « جهالة » الموهوب ، وكان ينبغى ألا يمنع صحة هبة مجهول القدر ، قياسا على رأيه فى البيع : « والأعواض لا تحتاج

---

(١) بداية المجتهد ٤٣٧ .
(٢) المجموع الصفوى ٢٢٤ .
(٣) الكاسانى : بدائع الصنائع فى ترتيب الشرائع ٦ : ١٢٣ .
(٤) المجموع الصفوى ٢٢٣ .
(٥) مدونة جستنيان ٨٧ .

إلى معرفة مقاديرها ولا مقدار أثمانها فى تمام البيع ، ومعرفة ذلك أولى [1] » . فإن جواز هبة المجهول أولى فى اعتبار التشريع من جواز بيعه ، والعلماء لم يجيزوا بيع المجهول ، ولكنهم اختلفوا فى جواز هبته . يقول الشيرازى : « ولا يجوز هبة المجهول [2] » ، « وما لا يجوز بيعه من المجهول ، وما لا يقدر على تسليمه ، وما لم يتم ملكه عليه كالمبيع قبل القبض لا تجوز هبته ، لأنه عقد يقصدبه تمليك المال فى حال الحياة فلم يجز فيما ذكرناه كالبيع [3] » . وهذا رأى المذهب الحنفى . ويلاحظ أن الحنفية والشافعية يشترطون القبض فى الهبة . أما الإمام مالك ، ورأى ابن العسال فى عدم اشتراطه القبض يوافق رأيه ، فيجيز هبة المجهول ، ويحكى ابن رشد هذا الرأى فيقول : « ولا خلاف فى المذهب فى جواز هبة المجهول [4] » . ومع ذلك يخرج ابن العسال عن متابعة مذهبه بل إنه يخرج عن مقتضى الرأى عنده هو ، حين يجيز بيع المجهول ولا يجيز هبته .

وإذا أمكن أن يقال إن هذا رأى جديد ارتآه ابن العسال ، فقد استتبع ذلك أن يوجه إليه السؤال عن مقتضاه ودواعيه .

ومن آثار انعقاد الهبة بصدور ركنيها ، الإيجاب والقبول ، وانتقال الملك إلى الموهوب له أن نماء الموهوب يصير ملكا للموهوب له بمجرد تمام العقد ، على الوجه الذى اختاره ابن العسال . ويقول فى هذا : « وإن كان الموهوب قرية فالغلة التى تحصل منها هى للموهوب له منذ يوم كتب له الكتاب وسلمه له ، إلا أن يشترط خلاف ذلك . فإنه إن اشترط أن الغلة الحاضرة لا تكون له ، أو مهما اشترطه مما لا ينافى مقتضى الهبة ، وقبل ذلك الموهوب له ، حمل الأمر عليه [5] » . وهذا النص يتعرض لحكم آخر خاص بنماء الموهوب وثمرته ، وقد عرض لهذا الحكم مرة أخرى غير هذه ، وسترد مناقشته بعد قليل .

وواضح من نصوص ابن العسال أنه يعلق أهمية على « كتابة الهبة » ، ويرى أن الهبة التى تكتب لا تتم إلا بأن يتسلم الموهوب له كتاب الهبة . فقبض الموهوب ليس شرطا ، ولكن تسليم كتاب الهبة شرط فى الهبة ، يكاد يكون « ركنا » لا تنعقد الهبة بدونه .

(١) المجموع الصفوى ٢٤٨ .
(٢) التنبيه ١٦٥ .
(٣) المهذب ١ : ٤٥٢ .
(٤) بداية المجتهد ٤٣٧ .
(٥) المجموع الصفوى ٢٢٤ .

والكتابة ليست ضرورية إذا كانت الهبة لولد أو لولد ولد » . . . وإن كانت لولد أو لولد ولد صحت بغير كتاب [(١)] » . وليس سليما أنها لا تصح بغير كتاب إن كانت لغريب ، وليس فى كلامه نص يفيد ذلك ، كما توهم العبارة السابقة .

وتشترط الكتابة عنده ، إن كان الشيء لا يميزه تحديد ولا تخلية كالدنانير والدراهم ، « . . . فإن كان محتملا لذلك فبمكاتبة فيها خط شهود يذكر فيها تحديد الشيء الموهوب وصفاته وشروط الواهب فيه ، وأنه لا يرجع فيما وهبه . . . [(٢)] » .

واهتمام ابن العسال بكتابة العقود تتجلى فى غير هذا الباب كذلك ، وينبغى أن تحمل على قصد توكيد التوثيق دفعاً للنزاع ، بدليل أن أمثال هذه العقود تنعقد دون كتابة فى رأيه . وقد سبقت الإشارة إلى أن القانون الرومانى يقرر أن الهبة تنعقد بمجرد ما يظهر الواهب رغبته فيها سواء بالكتابة أو بغير الكتابة [(٣)] .

ويلاحظ أن كتابة العقود لم تحتل مكانا بارزاً فى الفقه الإسلامى ، بل إن دورها فيه ثانوى ، كما يقول الباحثون [(٤)] .

٢ — الواهب :

والعنصر الثانى من عناصر هذا الباب هو الحديث عن الواهب . ويرى ابن العسال أنه « لا تصح منه الهبة إلا إذا كان بالغاً رشيداً حراً مختاراً ليس عليه خوف من جهة الموهوب له [(٥)] » .

أما اشتراط البلوغ فلأن الهبة عقد تبرع ، والصبى لا يملكه ، ولا يملكه له وليه . وقد عالج ابن العسال هذه المسألة فى باب الحجر ، فقال : « . . . فلا يجوز تصرفه فى عقد ولا إقرار لا لنفسه ولا لغيره [(٦)] » ، كما عالج مدى تصرف الولى فى مال الصبى ، فمنع البيع بدون قيمة المثل فى الوقت والموضع ، والتغرير بشيء من مال الصبى فى سفر أو بيع مؤجل .

---

(١) نفسه ٢٢٣ .
(٢) نفسه ٢٢٤ .
(٣) مدونة جستنيان ٨٧ .
(٤) د . شفيق شحاته : النظرية العامة للالتزامات فى الشريعة الاسلامية ١٣٢
(٥) المجموع الصفوى ٢٢٢ .
(٦) المجموع الصفوى ٢٤٤ .

إلا لغبطة ظاهرة وبضمان أو برهن إذا أمكن ، والإقراض إلا إن أراد سفراً واضطر إلى إيداع المال . . . »[1] .

وما ذكره ابن العسال يتفق وما قرره رجال الفقه بعامة . يقول الكاسانى فى معرض كلامه عن شرائط الهبة : « . . . وأما ما يرجع إلى الواهب فهو أن يكون ممن يملك التبرع . . . فلا تجوز هبة الصبى والمجنون لأنهما لا يملكان التبرع لكونه ضرراً محضاً لا يقابله نفع دنيوى فلا يملكها الصبى والمجنون كالطلاق والعتاق . وكذلك الأب لا يملك هبة مال الصغير من غير شرط العوض بلا خلاف . . . »[2] . فنقص أهلية الأداء عند الصغير يحول دون صحة العقود والتصرفات ذات الضرر المحض . ومقتضى هذا الرأى بطلان الآثار المترتبة على هذه العقود . ولكن ابن العسال لا يسير فى هذا الحكم إلى منتهاه ، ويبدو اضطرابه فى موضعين من مجموعه . يقول فى أحدهما : وإذا وهب من هو دون البلوغ لأحد هبة فله أن يتكلم فيها من بعد بلاغه بأربع سنين ، ويعود يأخذ شيئه إذا أراد »[3] . ولا شك أن هذا نكوص لا يوافقه فيه أحد من رجال التشريع ، ولا يتفق مع ما سبق أن قرره وأعاده فى أكثر من موضع من كتابه ، من أن الصغير لا تصح عقوده التى تلحق به ضرراً محضاً .

والموضع الثانى حين يقول : وإن وهب الذى تحت الحجر بأمر أبيه أو برائه فالهبة للأب تقديراً »[4] . فهذا التردد ، ومحاولة إمضاء عقود الصغير المتمحضة للضرر اعتمادا على أمر من لا يملك التصرف تصرفا ضارا فى أموال الصغير ، أو على مشاهدته وحضوره ، وهذا هو المراد بقوله: « أو برائه » — هذه المحاولة تزيد الأمر تعقيدا حين يجعل ابن العسال الهبة للأب تقديراً . ويتابع النص الإثيوبى هذه المسئلة ويحدث تعديلا لا يخفف من وقعها ، ويضع لفظ : « أو برأى نفسه » مكان : « أو برائه » ، فينقض صراحة ما قرره فى مبدأ حديثه . يقول : ወለእመኒ፡ወሀበ፡ ዘሀሎ፡ ታሕተ፡ ሐፃኒት፡ በትእዛዘ፡ አቡሁ፡ አው፡ በትእዛዘ፡ ርእሱ፡ መጠነ፡ ውእቱ፡ ሀብት፤ ይኩን፡ ለአብ፡፡ [5]

---

(1) نفسه ٢٤٥ .

(2) البدائع ٦ : ١١٨ .

(3) المجموع الصفوى ٢٢٣ .

(4) نفسه ٢٢٤ .

(5) فتح نجشت ١٩/٢/١٨٢ .

وليس فى كلام ابن العسال نص مايبرر هذا التعديل، بل لا مبرر له على الاطلاق، خاصة أن يشمل هذا الحكم المضطرب موضع واحد هو باب الهبة .

واشترط ابن العسال أن يكون الواهب رشيدا ، وأطلق الوصف دون أن يجعل له حدودا من الزمن ، ودون أن يقيد عمر الواهب بسن يجوز أو يستمر منع تصرفه فى ماله إذا بلغها .

والعلماء فى مسألة تصرف السفيه فى ماله بعد أن يبلغ خمسا وعشرين سنة، على خلاف . فأبو حنيفة يرى أن يرفع الحجر عن السفيه متى بلغ هذه السن ، وأبو يوسف ومحمد صاحباه يريان أن يستمر الحجر عليه ما دام سفيها . ومع وجود خلاف بين العلماء فى مسألة السفيه لا يبدو من ابن العسال أى تردد فى منعه من الهبة ، بينما يبدو هذا التردد فى الصغير الذى لم يبلغ ، كما سبق البيان .

٣ — الموهوب له :

رتب ابن العسال الموهوب لهم فجعلهم طبقات يتلو بعضها بعضا ، كما تتلو طبقات الوارثين بعضها بعضا . وإذا جاز ، بل تحتم فى الميراث أن يجعل الورثة طبقات ، دفعا لنزاع غير محبب بين أفراد الأسرة الواحدة فليس من البين أن تسلك التبرعات فى مثل هذا الترتيب ولم أجد من تقدم بمثله من العلماء . ويقول ابن العسال فى ترتيب طبقات الموهوب لهم : « وأما الموهوب لهم فأولا هم الأولاد ثم الآباء ثم الأقارب ثم الأصهار ثم الترابى ثم الأصدقاء ، ثم الخدام ثم المعارف الجيران والرفقة وغيرهم »[1] . فمن أين أتى بهذا الترتيب ؟ وأين مكان « الأزواج » بين من يوهب لهم ؟ أو أن الهبة منهم غير مشروعة ؟ ولم لم يجعل الموصى لهم طبقات كما جعل الموهوب لهم طبقات ، والبابان من واد واحد ؟

ولم يتحدث عن أى شروط خاصة بالموهوب لهم ، وكتب الفقه تشترط فيهم أهلية القبض ، ولا تجيز قبض المجنون والصبى الذى لا يعقل . وتتحدث أحاديث فى قبض ولى الصبى عنه، وقبض الأب عنه ، وعن ابنه الكبير الذى فى عياله . وكل ما ذكره فى هذا المجال أن يكون الموهوب له معروفا ، وهذا طبيعى ، فالهبة تنعقد بإيجاب وقبول،

(١) المجموع الصفوى ٢٢٣ .

أو بكتابة وتسليم الكتابة إلى الموهوب له وقبوله إياها . ولا يتأتى ذلك إذا كان الموهوب له غير معروف .

ويرى ابن العسال التسوية في الهبة بين المتساوين في الدرجة كالأولاد . ويقول : « ويستحب أن يساوى فيها بين المتساوين كالأولاد »[1] .

ويبدو أن ابن العسال يقصد بالتسوية المعنى الذى راعاه في المواريث ، فليست هناك تفرقة بين الذكور والاناث المتساوين فى الدرجة : « فأولاد الميت الذكور والاناث بالسواء » ، « والذكور والاناث بالسواء من أولاد الأولاد مهما نزلوا » ، « الأشقاء من إخوة الميت وأخواته وأمه بالسواء »[2] .

وتحدث كتب الفقه الاسلامى عن استحباب التسوية بين الأولاد فى الهبة تأليفاً لهم. غير أن بعض الأئمة يقصد التسوية على النهج الذى يجرى فى المواريث . وهو الإمام محمد صاحب أبى حنيفة . ويرى أبو يوسف التسوية فى السهام بين الذكور والإناث ، وارتضى هذا الرأى أبو جعفر الطحاوى فى مختصره[3] . ويميل ابن العسال إلى تعميم الحكم فى المتساوين فى الدرجة من غير الأبناء والأبناء جميعا .

٤ — الموهوب :

لعل أبرز ما يعد تأثر ابن العسال بالمذهب المالكى فى هذا الباب ما رضيه من عدم جواز هبة المجهول ، على غير ما يسير عليه المالكيون الذين يجيزون هبته قولا واحدا . فقد قرر ابن رشد هذا الرأى فى قوله : « ولا خلاف فى المذهب فى جواز هبة المجهول والمعدوم المتوقع الوجود ، وبالجملة كل ما لا يصح بيعه في الشرع من جهة الغرر »[4] . على حين يرى الشافعية والحنفية اشتراط أن يكون الموهوب معلوما ، وساروا فى ذلك إلى مدى بعيد ، فقال الحنفية : « لا تجوز الهبة فيما يقسم إلا محوزة مقسومة ، وهبة المشاع فيما لا يقسم جائزة »[5] . واشترطوا من أجل ذلك قبض الموهوب ، وهو أمر لم يشترطه ابن العسال ، كما سبق القول . ويدور كلام كثير حول المشاع الذى لا يقسم ، أو يقسم ،

(١) نفسه .
(٢) المجموع الصفوى ٣٠٣ .
(٣) مختصر الطحاوى ، طبع دار الكتاب العربى سنة ١٣٧٠ هـ ، ص ١٣٨
(٤) بداية المجتهد ٤٣٦ . وأنظر ص ١٠٧ من هذا البحث .
(٥) الهداية ٧ : ١٢١ مطبوعة مع كتاب فتح القدير . وأنظر كتاب الأم للشافعى ٣ : ٢٨٤ .

وصور مسائله ، مما لا مجال له هنا ، فإن ابن العسال لم يتحدث عن مقصده من « المجهول» ولم يذكر لمسائله صورا .

وإذا قرنت عبارة ابن العسال فى هذا الموقف وعبارات بعض رجال الفقه الإسلامى، أمكن الاهتداء إلى ما يمكن أن يعد مصدرا لابن العسال فى هذا الحكم . يقول ابن العسال : « وأما الشىء الموهوب فلا يصح أن يكون مجهولا ، ولا ما لم يتم للواهب ملكه ، ولا أن يكون مما يغلب على ظنه أن الموهوب له ينضر به أو يضر به فى الوقت الحاضر . . . » [1] ويقول الشيرازى فى كتابه : التنبيه : « ولا يجوز هبة المجهول ، ولا هبة مالا يقدر على تسليمه ، وما لا يتم ملكه عليه كالمبيع قبل القبض » [2] . ويقول فى المهذب : « وما لا يجوز بيعه من المجهول ، وما لا يقدر على تسليمه ، وما لم يتم ملكه عليه كالمبيع قبل القبض لا تجوز هبته » [3] .

وعبارتا الشيرازى متقاربتا الصياغة ، وإن كانت الأولى قريبة من عبارة ابن العسال بعد طرح الزيادات فى كل منهما . ومع ذلك فلا ينبغى أن يفهم أن ابن العسال تأثر أحكام المذهب الشافعى ، فإنه قد ظهر من قبل أنه أخذ عن غيره ، وسيظهر كذلك فى مواقف أخر .

وفى عبارة ابن العسال المقتبسة قبل اشتراط ألا يكون الموهوب مما يغلب على الظن أن الموهوب له ينضر به أو يضر به فى الوقت الحاضر ، كمن يهب سيفا لمجنون فإنه ربما قتل به نفسه أو غيره . ورأى رجال الفقه فى هذا ، قياسا على البيع ، أن ذلك مكروه ، وأنه لا يتدخل فى إمضاء الهبة . ورأى ابن العسال هنا ، كرأيه فى البيع ، أن ذلك من شروط الصحة [4] .

والفقرة السابقة التى تتحدث عن جهالة الموهوب أو عدم جهالته تحتاج إلى تكملة يبدو أن ابن العسال تخطى علاجها ولم يقف عند أحكامها وقفة حاسمة ، تلك هى مسئلة تمكين الموهوب له من حيازة الموهوب ، بالتخلية بينه وبينه وتحديده ، فإن كان

---

(١) المجموع الصفوى ٢٢٤ .
(٢) التنبيه ١٦٥ .
(٣) المهذب ١ : ٤٥٢ .
(٤) أنظر باب المبايعات ، من كتاب فتح نجشت ، لكاتب هذا البحث .

مما لا يجدى فيه التحديد لتشابه أجزائه وتماثلها كالدراهم والدنانير لم يحتج الأمر إلى مكاتبة، وإلا احتاج إليها . يقول ابن العسال : « وإن كان الشيء الموهوب لا يميزه تحديد ولا تخلية كالدنانير والدراهم فليس يحتاج إلى مكاتبة ، فإن كان محتملا لذلك فبمكاتبة فيما خط شهود يذكر فيها تحديد الشيء الموهوب وصفاته وشروط الواهب فيه وأنه لا يرجع فيما وهبه . ويستحب أن يكون فيه خطه بذلك »[1] .

والمشكلة هنا ليست كتابة الهبة أو عدم كتابتها ، فقد ذكر ابن العسال أن الهبة بعامة إما أن تكون بكتاب أو بغير كتاب . ورتب أحكاما على كل من الموقفين ، كما سبق الحديث . وإنما المشكلة الحقة ما ذكره رجال الفقه من تفصيلات استتبعت الحديث عن جهالة الموهوب ، وشيوعه ، وعدم إمكان قبضه ، والأحكام التى وردت فى جميع ذلك وأدلتها ، مما كان ينبغى أن يعرض له هنا ابن العسال ، ولكنه لم يفعل أما كتابة الهبة ، بل كتابة سائر عقود المعاملات والإشهاد عليها ، فأمر محبب يغنى كثير الغناء فى رفع الخلاف وإزالة أسبابه ، وما كان فى حاجة إلى ترداد ذكره فى أكثر من موضع فى باب الهبة .

غلة الموهوب ونماؤه :

تنال مسئلة نماء الموهوب وغلته مزيدا من اهتمام أئمة الفقه الإسلامى ، ولها عندهم صور عديدة ، ونوقشت هذه الصور بوجه خاص عند مناقشة موضوع الرغبة فى الرجوع فى الهبة .

غير أن ابن العسال لا يتناول من هذه الصور العديدة إلا موقفين ، أحدهما موقف حصول النماء بعد انعقاد الهبة بكتابة وتسليم كتابها إلى الموهوب له . والنماء فى هذه الحالة من حق الموهوب له[2] ، إذ أن تسليم كتاب الهبة إليه يعد قبضا ، بل إن ابن العسال لا يشترط القبض فى الهبة ، كما سبق توضيح ذلك .

والموقف الثانى عند الرجوع فى الهبة ، وكان من شأن هذا الرجوع أن يلحق إضرارا بالموهوب له ، كأن كان الموهوب جدارا بنى عليه الموهوب له دارا[3] . وستأتى مناقشة هذه المسئلة الأخيرة فى أثناء معالجة موضوع الرجوع فى الهبة .

---

(١) المجموع الصفوى ٢٢٤ .
(٢) المجموع الصفوى ٢٢٤ .
(٣) نفسه ٢٢٣ .

الرجوع فى الهبة :

(١) مبدأ الرجوع فى الهبة : الهبة عقد تبرع يقصد به تأليف القلوب وغرس الود وتقوية الرابطة وصلة الرحم . وقد تعرض أمور يجد الواهب إزاءها أن يعود فى هبته ، ومع أن ذلك غير محبب فى ذاته لأنه يؤدى إلى عكس المقصود من الهبة ، إلا أن المبدأ فى ذاته مقرر مع ما يصحبه من الكراهة . وفى نصوص ابن العسال ما يقرر سريان المبدأ ، كما أن بها ما يشير إلى الحرج بل إلى امتناع الرجوع فيها . يقول ابن العسال : « وإن وهب جميع نعمته فى حال لم يكن له فيها ولد ثم صار له بعد ذلك أولاد ، فله استرجاع ما أراده . . . »[1] ، وقال : « . . . ومن لم يشكر منهم الذى وهبه . . . فله أن يسترجع الهبات . . »[2].

وتقريره الرجوع مستند إلى مصادر مسيحية وأخرى إسلامية . فالقانون الثامن من قوانين الملوك يتحدث عن الرجوع فى الهبة ويقر مبدأه[3] . وكذلك تقر المبدأ قوانين جستنيان فى المدونة[4] .

وفى التشريع الإسلامى يتقرر مبدأ الرجوع فى الهبة مع ما صحب تقرير المبدأ من أسف التشريع ، تمشيا مع روح النصوص من جهة ، ولأنه يؤدى إلى تفويت الأهداف النبيلة للهبة من جهة ثانية . جاء فى كتاب الأم نقلا عن الإمام الشافعى أن الهبة بقصد الثواب يرجع فيها الواهب إن لم يرض عنها[5] . وكذلك جاء فى مهذب الشيرازى : « وإن وهب للولد أو ولد الولد وإن سفل جاز له أن يرجع . . . »[6] .

ويقول إمام العلماء الكاسانى : « حق الرجوع فى الهبة ثابت عندنا » ، ثم ساق الأدلة التى تؤيد هذا الحق[7] . ويقول أبو الحسن القدورى : « وإذا وهب هبة لأجنبى فله الرجوع فيها .. »[8].

---

(١) نفسه ٢٢٢ .
(٢) نفسه ٢٢٣ .
(٣) قوانين الملوك ، ورقة ١١٦/ب من المخطوط ١٣١ قانون ـ المتحف القبطى .
(٤) مدونة جستنيان ٩٩ .
(٥) كتاب الأم ٣ : ٢٨٣ .
(٦) المهذب ١ : ٤٥٣ .
(٧) البدائع ٦ : ١٢٨ .
(٨) مختصر القدورى ، كتاب الهبة .

وذهب الإمام مالك وجمهور علماء المدينة إلى أن للأب أن يعتصر (أى يسترد) ما وهبه لابنه ما لم يتزوج الابن أو لم يستحدث دينا . . »[1] وهكذا يتضح أن حق الرجوع فى الهبة ثابت قانوناً فى التشريعات المسيحية ، والرومانية ، والإسلامية جميعاً ، وأن ابن العسال ارتضاه نقلا عن هذه المصادر جميعا أو عن بعضها على الأقل .

وإذا ثبت هذا الحق ، فمن هؤلاء الذين يجوز الرجوع فى الهبة إليهم ؟ أما فى الفقه الإسلامى فقد أجمع رجاله على « أن الهبة التى يراد بها الصدقة أى وجه الله أنه لا يجوز لأحد الرجوع فيها »[2] . وهذا اللون من الهبة لم يشر إليه ابن العسال فى باب الهبة ، بل لعله لم يرده إطلاقا ؛ فقد عقد موازنة سريعة بين مستحق الصدقة ومستحق الهبة ، مما يفيد أن الهبة لا تجرى مجرى الصدقة عنده ، وأنها تليها فى المنزلة . يقول ابن العسال : أما الهبة فنسبتها إلى غير مستحق الصدقة نسبة الصدقة إلى مستحقيها ، فهى فضيلة مستحبة بعد الصدقة »[3] . وبذلك يبدو أنه جعل إطار الهبة لا يتصل بإطار الصدقة ومجالها ، بينما يجد الفقه الإسلامى أن توجيه الهبة قصد ابتغاء ثواب الله ووجهه الكريم دون التفكير فيما عساه يتبع الإقدام عليها من النظر إلى أعواضها وتقبل نظائر لها من الموهوب له ، أو ما يعن أحيانا للواهب من استرجاعها والنكوص عنها — أن هذا التوجيه يستحق الرعاية والتقدير . فصدور التبرع بلفظ الهبة والنحلة والعطية أجمل أثرا فى نفس المتصدق عليه من ألفاظ الصدقة والزكاة وما ماثلها ، بالإضافة إلى أن الهبة لا تحدُّ بحدود الزمن والحوْل ، والقدرة المالية للواهب ، وأنها تتوجه للقادر وغير القادر ، ممن هم دون منزلة الواهب أو يماثلونه أو يسمون عن درجته الاجتماعية .

والهبة لغير الصدقة يتوقف جواز الرجوع فيها على صلة الواهب بالموهوب له ؛ فالهبة للولد ولولد الولد وإن سفل جائز الرجوع فيها عند الإمام مالك والإمام الشافعى ، غير جائز عند أبى حنيفة . وإن كانت لذى رحم محرمة غير الولد وولد الولد فلا رجوع عند الشافعية والحنفية . أما الهبة للأجنبى ، فإن كانت بقصد الثواب والعوض ففيها حق الرجوع ما لم يرض الواهب عنها ويقبض ثوابها وكذلك إن كانت لغير الثواب عند أبى حنيفة ،

---

(١) ابن رشد الحفيد : بداية المجتهد ٤٣٨ .

(٢) نفسه ٤٣٩ ، وغيره من كتب الفقه .

(٣) المجموع الصفوى ٢٢٢ .

وعند الشافعي : إن وهب وأقبض لم يملك الرجوع . وقال الإمام أحمد وأهل الظاهر : لا يجوز الاعتصار في الهبة لأحد كائن من كان[1] .

فأين يقف التشريع المسيحي من جميع ذلك ؟

يرى ابن العسال أن حق الرجوع ثابت للواهب من جميع من وهب لهم : أولادا كانوا أو غرباء . فهو يقول : « وإن وهب جميع نعمته أو أكثرها في حال لم يكن له فيها ولد ثم صار له أولاد بعد ذلك فله استرجاع ما أراده . . . »[2] « ومن لم يشكر منهم الذي وهبه . . . فله أن يسترجع الهبات »[3] .

وأيا كان الدافع للرجوع في الهبة عند ابن العسال ، فالحق ثابت لديه سواء أكان الموهوب له ولداً أو غريبا . غير أن الهبة للولد أو ولد الولد يجوز فيها الاسترداد سواء أكانت بكتاب أو بغير كتاب . أما الهبة للغريب ، وابن العسال يعني أن تكون بكتاب ، فليس يسوغ فيها بعد تسليم كتابها أن يستردها . وفي هذه المسئلة يتفق ابن العسال والتشريع الإسلامي ، على النحو المبين قبل .

وكذلك يرى القانونان الثامن والتاسع من قوانين الملوك أن الهبة للولد وولد البنت يجوز الرجوع فيها ، أما الهبة للغريب فان كان قد دفع إليه كتاب الهبة لم يقدر أن يسترد منه[4] . وفي القانون الروماني : « الهبة بين الأحياء لازمة ، لا يجوز الرجوع فيها بدون سبب مسوغ »[5] .

(ب) دوافع الرجوع في الهبة : تحدث ابن العسال عن الأسباب التي تبرر الرجوع في الهبة ، فذكر من بينها : تغير حال الواهب الاجتماعية ، كإنجاب الأولاد بعد إمضاء الهبة ، وعدم شكر الموهوب لهم الواهب ، أو إساءتهم إليه وإيذائهم إياه ، والتدبير على

---

(١) أنظر : الأم ٣ : ٢٨٣ ؛ الشيرازي : التنبيه ١٦٦ ، والمهذب ١ : ٤٥٣ ؛ الكاساني : البدائع ٦ : ١٢٨ ؛ المرغيناني : الهداية ٧ : ١٣٠ من مجلدات فتح القدير ؛ القدوري : مختصر القدوري ، كتاب الهبة ؛ أبو جعفر الطحاوي : مختصر الطحاوي ١٣٨ .

(٢) المجموع الصفوي ٢٢٢ .

(٣) نفسه ٢٢٣ .

(٤) قوانين الملوك ورقة ١١٦/ب من المخطوط ١٣١ قانون ـ المتحف القبطي .

(٥) مدونة جستنيان ٨٧ .

حياته . وكل هذه دوافع تحفظ الواهب وتثير نفسه وتجعله فى حال من عدم الرضا عما أقدم عليه . وكذلك جاء فى مدونة جستنيان : « جحود الموهوب له فضل الواهب يجيز لهؤلاء فى بعض الصور أن يرجعوا فى تبرعاتهم »[1] . ولا بأس من تقدير هذه الدوافع ما دامت الهبة لم تؤت ثمرتها من تأكيد الصلة وتدعيم الود .

(ح) موانع الرجوع فى الهبة : ذكر ابن العسال من موانع الرجوع فى الهبة . موت أحد العاقدين ، وانعدام عين الموهوب وقيمته ، وقبض الواهب عوضا عما وهب ، وزيادة الموهوب .

وفى المانع الثانى ، وهو انعدام عين الموهوب وقيمته ، بعض التوقف . فإن الحنفية لا يقولون بالرجوع إلى قيمة الموهوب عند فقده ، لأنها لم تكن موهوبة ولم يرد عليها عقد الهبة[2] ، وكذلك لا يمكن الرجوع فى عين أخرى عند فقد العين الموهوبة[3] . ويتحدث الشافعية عن « قيمة » الموهوب فى معرض اشتراط الواهب أن يعوض عن هبته. فقد جاء فى أحد الأقوال أنه إذا تلفت العين الموهوبة فى هذه المسئلة وجب الرجوع إلى قيمتها كما يحدث فى البيع[4] . ولم يعرض ابن العسال لمسئلة « اشتراط العوض » عند الهبة ، فى كتابه .

وانعدام قيمة الموهوب يلحق الموهوب له بالمفلس الذى لا يملك سداد ديونه ، وقد عولجت أحكامه فى فصل « التداين » من باب المبايعات[5] . على أن ابن العسال قرر أنه « إذا ادعى الموهوب له أنه معسر فليس تلزم مطالبته إلا ببينة تبطل دعواه »[6] . ومن الممكن حينئذ أن يعد الإعسار من موانع الرجوع فى الهبة .

والمانع الأخير يبرره ابن العسال بأنه يحدث ضرراً للموهوب له فى ماله ، بل إنه جعل هذا الإضرار هو المانع من رد الهبة ، ومثل له بهبة جدار بنى عليه الموهوب له داراً ،

---

(١) نفسه ٩٩ .
(٢) الكاسانى : بدائع الصنائع ٦ : ١٢٨ .
(٣) نفسه ١٢٩ .
(٤) الشيرازى : المهذب ١ : ٤٥٤ .
(٥) انظر : باب المبايعات من كتاب : ፍትሐ ነገሥት لكاتب هذا البحث .
(٦) المجموع الصفوى ٢٢٤ .

فإن استرجاع عين الموهوب وحدها غير ممكنة بعد هذا البناء ، وكذلك لا تمكن إعادتها بما عليها من البناء لأنها لم تكن موجودة وقت الهبة ؛ ومن ثم رأى ابن العسال أن يعود الواهب بقيمة الجدار .

ومسألة زيادة الموهوب حظيت بعناية رجال الفقه الإسلامى ، وفصلوا الكلام فيها . فقالوا : إما أن تكون الزيادة متصلة أو منفصلة . والزيادة المنفصلة لا تمنع الرجوع فى أصل الموهوب فقط . أما الزيادة المتصلة بفعل الموهوب له أو بغير فعله فقد منع الحنفية معها الرجوع فى الهبة ، ومنعوا كذلك العود فى قيمتها . وقال الشافعية فى مثال : الأرض الموهوبة يبنى عليها الموهوب له بناء : إنه لا عود فى الهبة ، وإنما يقال للواهب : إن شئت فادفع قيمة البناء لتكون شريكا مع الموهوب له فى النصف من الأرض والبناء [1] . ومعنى هذا أنه لا عود فى قيمة الموهوب كذلك .

ولم يشر ابن العسال إلى شىء من هذه التفاصيل ، ولكنه جعل المنع بسبب الإضرار يلحق الموهوب له ، فى مثل الجدار يبنى عليه دارا . وليس فى الاستطاعة تقرير أن : « الإضرار » مانع عند ابن العسال من استرجاع الهبة ، أيا كانت صور الإضرار ، فإنه لم يعدد أمثلة له ، فينبغى أن يقتصر على ما أشار إليه .

ويرى الإمام مالك أن على الموهوب له أن يعطى الواهب قيمة الموهوب يوم القبض إذا تغير بزيادة أو بنقصان [2] . وهذا الرأى يصلح لأن يكون سندا لابن العسال فيما ارتضاه .

وهناك موانع أخرى ذكرتها كتب الفقه الإسلامى ، منها خروج الموهوب من ملك الموهوب له لسبب ما كالبيع والهبة ؛ ولا يعد هذا هلاكا للموهوب أو فقدا له فإنه قد يعود إلى ملك الموهوب له مرة أخرى ، بالرجوع فى البيع مثلا لشرط الخيار ، أو بالرجوع فى الهبة لسبب ما مما ذكره ابن العسال نفسه . وكذلك وجود معنى العوض بوجه من الوجوه ، كالهبة ابتغاء رضوان الله ، وكهبة أحد الزوجين للآخر ، وغير ذلك مما ذكرته كتب الفقه الاسلامى ولم يعرض له ابن العسال ؛ ومن ثم لا يوجد ما يبرر التعرض لهذه الموانع بالمناقشة إذ لا يستدعيها هذا البحث .

---

(١) الأم ٣ : ٢٨٣ .

(٢) رواه الشافعى فى كتاب الأم ٣ : ٢٨٣ .

(د) وإذا تقرر حق الرجوع فى الهبة لزم لنفاذ ذلك أحد أمرين : رضا الموهوب له ، أو قضاء القاضى . ذلك أن الرجوع فسخ ، وهو لا يتم إلا بما ذكر . يقول أبو جعفر الطحاوى : « . . ولا يرجع إليه إلا بحكم الحاكم له بها ، أو بتسليم الحاكم له بها ، أو بتسليم من الموهوب له إياها إليه »[1] . وقد ارتضى ابن العسال هذا الرأى ، فقال : « . . . فله متى قامت بينة فى مجلس حكم ظاهر بأنه قد أجرى إحدى هذه الخصال ، (يشير إلى دواعى الرجوع فى الهبة) ، أن يسترجع الهبات . . »[2] وفى موضع آخر يقول : « ولا يصح الاسترجاع . . . إلا بتراضيهما . . . »[3] .

٥ — شروط عامة :

مضى فى أثناء الحديث عن العناصر الأربعة السابقة من موضوع الهبة ما اقتضى الأمر ذكره من الشروط المصاحبة لها ، وبقى قدر عرض له ابن العسال يستحق بعض الحديث .

ولعل فى صدر هذه الشروط ما ذكره ابن العسال فى قوله : « وأما باقى الشروط فبأن لا يشترط ما ينافى مقتضى الهبة »[4] . ومقتضى الهبة حسب روح التشريع عنده ، أن تنتقل ملكية الموهوب إلى الموهوب له بمجرد تمام عقد الهبة ، وذلك بقبول الموهوب له الهبة بعد صدور الإيجاب عن الواهب ، أو بتسليم كتاب الهبة إذا تمت الهبة مكاتبة ، كما اتضح من مناقشة ذلك آنفا . ومعنى هذا أن الهبة عقد تمليك فى الحال كما يقول رجال الفقه الإسلامى ، وكما سار ذلك عند ابن العسال نفسه . فإذا رأى الواهب أن يضيف تمليك الموهوب إلى زمن مستقبل ، فقد انبغى رفض ذلك ، وحق إجراء الهبة على مقتضاها من التمليك فى الحال . ومن أجل ذلك بطل شرط «الرقبى» فى الفقه الاسلامى ، وملك الموهوب له العين الموهوبة فى الحال . وكذلك إذا صدرت الهبة بلفظ « العمرى » كانت للمعمر له فى حياته ثم لورثته بعد وفاته . وهاتان المسئلتان أثر لما قرره رجال الفقه ، استناداً إلى النصوص الواردة ، من أن الهبة عقد تمليك فى الحال ، وأنها لا تتأثر بشرط

---

(١) مختصر الطحاوى ١٣٨ ؛ وانظر كذلك : الكاسانى : البدائع ٦ : ١٢٨ ؛ والهداية ٧ : ١٣٥ ؛ القدورى : مختصر القدورى — كتاب الهبـة ؛ دكتور شفيق شحاته : النظرية العامة للالتزامات ١٥٧ .

(٢) المجموع الصفوى ٢٢٣ .

(٣) نفسه ٢٢٢ — ٢٢٣ .

(٤) المجموع الصفوى ٢٢٤ .

إضافتها إلى المستقبل . يقول الشيرازى : « ولا يجوز تعليقها على شرط مستقبل ، لأنه عقد يبطل بالجهالة ، فلم يجز تعليقه على شرط مستقبل كالبيع »[1] .

ولكن ابن العسال يجوز إضافة الهبة إلى زمن مستقبل ، ويجوز إضافتها إلى ما بعد الموت ، وهو بهذا لا يميل إلى رأى رجال الفقه الاسلامى فى هذه المسئلة ، إذ أن ابن العسال يميل كثيرا إلى تقدير شروط العاقدين ورعايتها . وتقول عبارة ابن العسال : « وللواهب أن يمضى الهبة فى حياته إن شاء فى الوقت الحاضر من دون شرط معوق ، فان شاء بعده ، بشرط وقت مخصوص مستقبل . وله أن يجعل وقت إمضائها بعد وفاته »[2] .

وينص ابن العسال فى باب الهبة ، كما صنع فى باب المبايعات[3] على سبيل المثال ، على رعاية شروط العاقد وقبولها ، فيقول مثلا : « وإن كان الشيء الموهوب لا يميزه تحديد ولا تخلية كالدنانير والدراهم فليس يحتاج إلى مكاتبة . فإن كان محتملا لذلك فبمكاتبة فيها خط مشهود يذكر فيها تحديد الشيء الموهوب وصفاته وشروط الواهب فيه . . . »[4] ، ويقول كذلك: « وإن كان الموهوب قرية فالغلة التى تحصل منها هى للموهوب له منذ يوم كتب له الكتاب وسلمه له ، إلا أن يشترط خلاف ذلك ، فإنه إن اشترط أن الغلة الحاضرة لا تكون له أو مهما اشترطه مما لا ينافى مقتضى الهبة ... »[4]. وواضح أن الشرط فى المسئلة الأخيرة ينافى مقتضى الهبة ، كما تقدم بيان ذلك ، ولكنه عند ابن العسال شرط مقبول . ولم يظهر بجلاء ما يريد بقوله: « مما لا ينافى مقتضى الهبة » ، فقد أمضى شرطا ينافى مقتضاها فى نظر رجال الفقه الاسلامى الذين تلقى عنهم ابن العسال ، على حين اعتبروا مثل هذا الشرط باطلا، إذ أنه يجر نفعا لأحد المتعاقدين ، فيبطل الشرط ويمضى عقد الهبة . يقول صاحب الهداية : « . . . أو وهب داراً أو تصدق عليه بدار على أن يرد عليه شيئا منها ، أو يعوضه شيئا منها فالهبة جائزة والشرط باطل ، لأن هذه الشروط تخالف مقتضى

---

(١) المهذب ١ : ٤٥٢ ؛ التنبيه ١٦٥ . وأنظر الكاسانى : بدائع الصنائع ٦ : ١١٥ .

(٢) المجموع الصفوى ٢٢٢ .

(٣) أنظر ፍትሐ፡ነገሥት:: — باب المبايعات ، لكاتب هذا البحث .

(٤) المجموع الصفوى ٢٢٤ .

العقد فكانت فاسدة ، والهبة لا تبطل بها . ألا ترى أن النبى عليه الصلاة والسلام أجاز العمرى وأبطل شرط المعمر »[1] .

وإذا تقرر ذلك ظهر بجلاء تناقض ما ورد فى كتاب ابن العسال فى هذا المجال ، فهو يقبل شروطا تنافى مقتضى الهبة ، ويمنع فى الوقت نفسه الشروط التى تنافيها ، دون أن يحدد المدى الذى يمكن قبول أو رفض الشروط عند بلوغه .

هبة الفضـــولى :

تقرر فى صحة الهبة أن يكون الواهب مالكا للموهوب وقت العقد . وقد يحدث أن يتولى العقد شخص ينيبه الواهب عنه إنابة صريحة بطريق الوكالة . وقد يتطوع إنسان بإجراء هذا العقد دون سابق وكالة تخول له أن ينوب عن الأصيل فيه . والحالة الأخيرة تسمى عقد الفضول .

والمقرر أن نفاذ هذا العقد يتوقف على إذن الأصيل ، فإن أمضاه ظهر أن مباشرة الفضولى له صحيحة منذ العقد ، ومن ثم تعود الالتزامات المترتبة عليه إلى الأصيل ، ويطالب بإمضائها .

وقد أشار ابن العسال إشارة سريعة إلى حكم هبة الفضولى ، ورأى أن نفاذ عقده يستمد إمضاءه من إذن صاحب المال ، ولا يشترط أن يكون الإذن صريحا ، بل يكفى أن يكون العقد بمحضره . ويقول فى هذا : « ومن وهب شىء إنسان برائه فصاحب الشىء هو واهبه »[2] .

ويتفق رأى ابن العسال فى هذه المسئلة ورأى رجال المذهب الحنفى ، ومذهب مالك فى بعض ما حكى عنه . وفى قول آخر عنه أن ما يتولاه من عقود التبرعات يقع باطلا ، وينعقد موقوفا على إجازة صاحب الشأن فى عقود المعاوضات . وعند الحنابلة أن العقد لا ينعقد أصلا فلا تلحقه إجازة . وهو المشهور عند الشافعية[3] .

---

(١) الهداية — شرح نتائج الأفكار ٧ : ١٤١ . وأنظر دكتور محمد يوسف موسى : الأموال ونظرية العقد ٤٢٥ — ٤٢٦ .

(٢) المجموع الصفوى ٢٢٤ .

(٣) د . محمد يوسف موسى : الأموال ونظرية العقد ٣٨٠ — ٣٨٦ .

نظرة عامة :

يتبين من المناقشات السابقة أن ابن العسال رجع إلى مصادر إسلاميه استمد منها أحكام هذا الباب ، ولم تمنه المصادر المسيحية إذ لم تعالج الجوانب التى قصد إليها ، فيما عدا الاشارة السريعة التى وردت فى القانونين الثامن والتاسع من قوانين الملوك .

أما مصادره الإسلامية فقد تجلت تماما فى سائر أحكام الباب . ولم يعش ابن العسال على مائدة مذهب بعينه من مذاهب الفقه الاسلامى ، وأقصد من هذا الآراء المشهورة لمذهب بعينه ، وإنما استفاد منها جميعا .

وكذلك لم أتبين فى هذا الباب ، على غير ما رأيت فى غيره مما دونته فى غير هذا الموضع[1] ، أنه اقتبس حرفيا نصوص كتاب بعينه .

على أن براعة ابن العسال فى جمع هذه الأحكام ، وتنسيق كتابتها على الوجه الذى ارتضاه ، تشهد له بقدرة ومهارة رشحتا كتابه لأن يكون مرجع الكنيسة القبطية الأرثوذكسية فى مصر والحبشة على السواء .

٢ — مظاهر لغـــوية

سنحت الفرصة فى القسم الأول من هذا البحث لمناقشة أحكام الهبة من القانون الاثيوبى ፍትሐ፡ ነገሥት። مترجمة عن المجموع الصفوى لابن العسال . غير أن الترجمة الإثيوبية، رغم وصولها إلى درجة عالية الاتقان ، لم تخل من بعض الملحوظات التى يجب الوقوف عندها إذا أريد مقابلة النصين من جهة ، وإذا ما حدث الرغبة إلى نشر النص مع الافادة من هذه المقارنة من جهة أخرى[2] . وسأعرض هنا لهذه الملحوظات ، وأضعها طوائف ثلاثة :

(ا) طائفة الزيدات فى أحد النصين .

(ب) وطائفة مخالفات الترجمة الاثيوبية نتيجة عدم كمال التوفيق فيها .

(ح) والطائفة الثالثة : مخالفات ربما كان سببها إبداء وجهة نظر خاصة للمترجم الاثيوبى .

---

(١) انظر : ፍትሐ፡ ነገሥት። لكاتب هذا البحث .

(٢) سأقوم فى القريب ان شاء الله ، باعادة نشر « المجموع الصفوى » لابن العسال نشرة علمية مقارنا بالترجمة الاثيوبية له .

(أ) مزيدات النصين[1]

النص العربي :

ولا أن يكون (الشيء الموهوب)[2] مما يغلب على ظنه أن الموهوب له ينضر به [أو يضر به] فى الوقت الحاضر .

(٤ / ٢٢٤)[3]

النص الإثيوبي :

ወኢይኩን፡ እንከ፡ እምነ፡ ዘትመ
ውሁብ፡ በቱ፡ ኅሊናሁ፡ እስመ፡ ዘይሁ
ብ፡ ኪያሁ፡ [ይበውእ፡ ውስተ፡ ልቡ፡
ፍቅረ፡ ንዋይ፡] ወኢኮ፡ እስ፡ ያደውዮ፡
በውእቱ፡ [illegible]

(١٤ / ١ / ١٨٢)[3]

ترجمة الفقرة الإثيوبية : وألا يكون مما يغلب على ظنه أن الموهوب له [يغلب على قلبه حب المال] ، ولا مما يضره فى هذا الوقت .

وما بين الحاصرتين ، وهو مزيد فى النص الاثيوبى ، لا أثر له إطلاقا فى صحة الهبة ، إذ لم يشترط هذا الشرط أحد من المشرعين . ومن ثم كانت إضافته عبثا على النص ، وعبثا على التشريع .

وقد أسقط النص الاثيوبى عبارة : [أو يضر به] الموجودة فى الاصل العربى وهى على عكس ما سبق ، ذات أثر له حسابه ، وقد رتب النص العربى عليها حكما ، هو عدم صحة الهبة .

وإن وهب الذى تحت الحجر بأمر أبيه أو برائه ، فالهبة للأب تقديرا .

(١٦ / ٢٢٤)

ወለእመ፡ ወሀበ፡ ዘሀሎ፡ ታሕተ፡
ሐፃኒ፡ በትእዛዘ፡ አቡሁ፡ አው፡ [በት
እዛዘ፡ ርእሱ፡] መጠነ፡ ውእቱ፡ ሀብት፡
ይትዐወቅ፡ ዘአብ።

(١٩ / ٢ / ١٨٢)

---

(١) سأضع النصوص المقابلة فى نهرين : النص العربى فى النهر الأيمن ، والترجمة الاثيوبية له فى النهر الأيسر ، وسأضع الزيادات من كلا النصين بين حاصرتين ، هكذا [ ] ، مشيرا الى النص العربى بالرمز « ج » ، والى الاثيوبى بالرمز « ش » .

(٢) زيد ما بين القوسين للتوضيح .

(٣) ما بين القوسين يشير الى رقم الصفحة ، فالنهر ، فالسطر من النص الاثيوبى ، ورقم الصفحة ، فالسطر من النص العربى .

تقول الترجمة الإتيوبية : وإن وهب من تحت الحجر بأمر أبيه ، أو [بأمر نفسه] ، فقدر تلك الهبة يكون للأب .

ولا حاجة لأن يزاد هنا لفظ [بأمر نفسه] ، فقد ذكر فى مبدأ باب الهبة أن من شروط الواهب أن يكون بالغا رشيدا ، وغرض النص العربى هنا أن يذكر صورة ثانية لهبة المحجور عليه ، وهى أن يهب على مرأى أبيه ، وهذا هو القصد من لفظ [برائه] الذى أسقطه النص الاتيوبى .

هذا ؛ ولا توجد مزيدات أخرى فى باب الهبة فى كلا النصين غير ما سبق ذكره . وحق الانتقال بعدئذ إلى الفقرة التالية التى تعالج مخالفات النص الاتيوبى .

(ب) مخالفات النص الإتيوبى

أما الهبة فنسبتها إلى غير مستحق الصدقة نسبة الصدقة إلى مستحقها .

(٦ / ٢٢٢)

ሀብትሰ፡ ይደሉ፡ ከመ፡ የሀብዎ፡
ለእለ፡ ኢ.ከኑ፡ ድልዋነ፡ ለመጽውቶ፡
ወምጽዋትኒ፡ ትከውን፡ ለዘይደልዎ።

(٤ / ٢ / ١٨٠)

تقول الترجمة الاتيوبية : أما الهبة فيجب أن تعطى لغير مستحق الصدقة ، والصدقة تكون لمن يستحقها .

وقصر تقديم الهبة على غير مستحق الصدقة ليس من هدف النص العربى ، بل ليس من هدف التشريع إطلاقا ، وكل مايريده ابن العسال أن هناك صلة بين الهبة ومستحقها ، تساوى الصلة بين الصدقة ومستحقها . أما منع الهبة عن أن تصرف فى وجوه الصدقات فليس بمراد .

وإذا أمضاها الواهب ، وقبل الموهوب له الشىء الموهوب [تم له[1]] ملكه ، والتصرف فيه دون واهبه .

(٧ / ٢٢٢)

ወእምከመ፡ ወሀበ፡ ወሃቢ፡ ኪያሃ፡
ወተወክፈ፡ ዘይሁብዎ፡ ሎቱ፡ ንዋየ፡
ዘትትወሀብ፡ ወእምዝ፡ ይደሉ፡ ሎቱ፡
ሥልጣን፡ ላዕሌሁ፡ ወይሥራዕ፡ በቱ፡
ከመ፡ ወሃቢሁ።

(٩ / ٢ / ١٨٠)

---

(١) ما بين الحاصرتين ساقط من مخطوط المتحف القبطى ١٣٨ قانون ، ورقة ٨٦/ب .

ترجمة النص الاثيوبى : وإذا وهبها الواهب ، وقبل الموهوب له الشىء الموهوب ، تم له السلطان عليه ، ويتصرف فيه كواهبه .

والجملة الأخيرة : « ويتصرف فيه كواهبه » لا تؤدى هدف العبارة العربية التى تحجز الواهب عن التصرف فى الشىء الموهوب ؛ فقد خرج عن ملكه وصار لغيره . بينما لا تفيد الترجمة الاثيوبية هذا المعنى .

فإن كان عليه (أى على الواهب)[1] خوف من جهته (أى الموهوب له)[1] فلا تم له [إلا][2] إن مات الواهب ولم يرجع عنها بشهادة مقبولة لا فى السر ولا فى الجهر .	ወእመሰ፡ ዘይፈርሀ፡ እምዘ፡ ወሀበ፡ ኢይትፌጸም፡ ሎቱ። ወእመኒ፡ ሞተ፡ ወሃቢሁ፡ ኢይግባእ፡ እሞኔሃ፡ በስምዕ፡ ውኩፍ፡ ኢበኅቡእ፡ ወኢበክሡት።
(١٠ / ٢٢٢)	(١٦ / ٢ / ١٨٠)

ترجمة النص الاثيوبى : فان كان خوف من الواهب فلا تتم له .

وإن مات الواهب لا يرجع عنها بشهادة مقبولة لا فى السر ولا فى الجهر .

ويلاحظ أن النص الاثيوبى جعل العبارة فقرتين منفصلتين لكل منهما حكم لا يتصل بالآخر . وتتحدث الفقرة الأولى عن خوف الواهب ووقوع التأثير عليه من جهة الموهوب له . وحكم هبته حينئذ أنها لا تتم له .

والضمير فى : ሎቱ ـ له ، يعود إلى « الواهب » الوارد ذكره فى الجملة نفسها ، بينما يعود الضمير فى عبارة ابن العسال إلى مرجع الضمير فى لفظ « جهته » ، أى الموهوب له . وهذا أوفق ، من قبيل أن الموهوب له ، وهو المكره الذى أثر فى صدور الهبة من الواهب ، لا ينبغى أن ينتفع بنتيجة هذا الاكراه . وسبب هذه الملحوظة أن الترجمة الاثيوبية لم يرد فيها إلا متحدث عنه واحد ، هو الواهب ، ولم تتعرض لذكر الموهوب له .

ويرد فى الفقرة الثانية من الترجمة الاثيوبية حكم جديد غير متصل بالحكم الأول أو مرتبط به . وهو أن الواهب إذا مات لا يرجع عن هبته بشهادة مقبولة لا فى السر

(١) زيد ما بين القوسين للتوضيح .

(٢) ما بين الحاصرتين ساقط من مخطوط المتحف القبطى ٨٦/ب .

ولا فى الجبر . وواضح أن الواهب إذا مات لايملك إصدار حكم ما ، إذ لا حياة له إطلاقا وإذا كان المراد أن الموت يمنع الرجوع فى الهبة ، فلا جديد فى هذا الحكم كذلك ، لأنه قد تقرر فى موضع غير هذا الموضع ، حين نحدث النص العربى وترجمته الاتيوبية عن موانع الرجوع فى الهبة .

وقد أحدث هذا الارتباك حذف الرابط الهام بين الفقرتين المشار إليهما قبل ، وهو أداة الاستثناء : « إلا » ، مما جعل المترجم الحبشى يفصل بين شطرى العبارة ، ويبدأ الشطر الثانى بحرف العطف « ወ » ، ويحذفه من بدء جملة : « يرجع عنها » ، فيضيع بذلك الحكم الذى أراده ابن العسال ، وهو أن الواهب إذا أكره على أن يهب أحدا شيئا فقد فات عنصر « الرضا » الذى يجب تحققه عند صدور العقود ، فإذا أمضى الهبة ولم يثبت أنه رجع عنها حتى فارق الحياة ، ظهر أن العقد الذى سبق أن أمضاه فى حياته كان صحيحا .

وللواهب أن يمضى الهبة فى حياته إن شاء فى الوقت الحاضر من دون شرط معوق . فإن شاء بعده بشرط وقت مخصوص مستقبل . وله أن يجعل وقت إمضائها بعد وفاته .

(١٣ / ٢٢٢)

ወለወሃቢሰ፡ ይደልዎ፡ ከመ፡ የሀብ፡ በሕይወቱ፡ እመ፡ ፈቀደ፡ በጊዜሁ፡ ዘእንበለ፡ ውሳኔ፡ ዕድሜ።ወለእመ፡ ፈቀደ፡ እምድኅሬሁ፡ በትእዛዝ፡ ወበጊዜ፡ እሙር፡ ዘይመጽእ፡ ወሎቱ፡ ድልው፡ ከመ፡ ይግበር፡ በጊዜ ሞቱ፡ ተፍጻሜታ፡እምድኅረ፡ ዕረፍቱ።

(٢٠ / ٢ / ١٨)

ترجمة النص الاتيوبى : وللواهب أن يمضى الهبة فى حياته إن شاء فى الوقت الحاضر دون تعيين وقت . وإن شاء بعده بشرط وفى وقت معلوم مستقبل . وله أن يجعل عند موته تمامها بعد وفاته .

والكلام فى هذه الفقرة من وجوه . فقد ختمت العبارة الأولى فى نص ابن العسال بقوله : « من دون شرط معوق » ، ووضعت الترجمة الاتيوبية موضع هذا تعبيرا آخر لا يغنى غناءه ، وهو : « دون تعيين وقت » . ولعل المترجم الحبشى رأى فى عموم الفقرة ضغطا على « الوقت » وتحديده أو عدم تحديده ، فمال إلى ما ارتآه .

وفى الجملة الثانية رأى المترجم الحبشى أن يجعل كلا من المضاف والمضاف إليه فى تعبير ابن العسال : « بشرط وقت مخصوص مستقبل » ، شرطا مستقلا ، فقال : « بشرط ، وفى

وقت معلوم مستقبل ، » فكرر حرف الجر : በ ، وسبقه بحرف العطف : ወ ، فصار كل من المضاف والمضاف إليه أمرا مقصودا لذاته . وليس ذلك مرادا .

وفى الجملة الأخيرة أضاف المترجم الحبشى ظرف زمان بعد الفعل : يجعل ، فضلا على ظرف الزمان فى ختام الجملة . وقد أدت زيادة هذا الظرف معنى جديدا لم يطرقه ابن العسال ، وجعل زمن صدور عقد الهبة فى وقت موت الواهب ، أى فى مرض موته ، لأنه لا نتيجة من زيادة تعبير : በጊዜ፡ሞቱ፡፡ بعد الفعل ይግበር፡ إلا أن يكون المراد : أن عقد الهبة حدث فى مرض موته ليكون إمضاء الهبة ونفاذها معلقا إلى ما بعد وفاته . وهكذا تضع هذه العبارة حكما جديدا لم يرد عند ابن العسال .

وإن ادعى الموهوب له أنه معسر ، فليس تلزم مطالبته إلا ببينة تبطل دعواه .

(١ / ٢٢٤)

ወለእመኒ፡ ይቤ፡ ዘወሀብዎ፡ ለሎቱ፡ ከመ፡ ጽኑስ፡ ውእቱ፡ አልቦ፡ ዘይክልእ፡ ኀሠሣሁ፡ ዘእንበለ፡ በስምዕ፡ ዘያፀርዕ፡ ኀሠሣሁ፡፡

(٤ / ١ / ١٨٢)

ترجمة النص الاتيوبى : وإن قال الموهوب له إنه محتاج ، فلا تمتنع مطالبته إلا ببينة تبطل مطالبته .

وبين الأصل العربى وترجمته شىء من الاختلاف ؛ فالأصل العربى يرى أن تتوقف المطالبة إذا ادعى الموهوب له الاعسار ، بينما ترى الترجمة الاتيوبية ألا تتوقف المطالبة إلا عند ظهور بينة على الاعسار .

ولا تصح الهبة إلا لموهوب له معروف ، ولا تتم إلا إذا قبلها .

(٢ / ٢٢٤)

ወኢይቀውም፡ ሀብት፡ ለዘይሁብ ዎ፡ ዘእንበለ፡ ለዘቦቱ፡ ጥሪት፡ ወኢ ትትፌጸም፡ ዘእንበለ፡ ሶበ፡ ይትዌከፉ፡፡

(٧ / ١ / ١٨٢)

ترجمة النص الاتيوبى : ولا تصح الهبة للموهوب له إلا لمن يملك مالا ، ولا تتم إلا إذا قبلوا .

والنص العربى يتحدث فى الفقرة السابقة عن شرطين من شروط الهبة ، أحدهما يتعلق بالموهوب له وهو ألا يكون مجهولا ، والثانى يتعلق بعقد الهبة ذاته وهو ركن « القبول » من الموهوب له .

غير أن الترجمة الاتيوبية أهملت الشرط الأول ، ووضعت مكانه ملكية المال ، أى مال ، ولم تحدد : أهو المال الموهوب أو مطلق مال . فإن كان الأول فقد تكفل النص بعلاجه فى موضع آخر ، وإن كان الثانى فهو لغو لا محل له .

أما الشرط الثانى ، أو بالأحرى ركن الهبة ، وهو قبول الموهوب له الهبة ، فقد عمم المترجم الإتيوبى من يقع منهم القبول ، فوضع ضمير الجمع « ሙ » ولم يخصصه بالموهوب له فقط ، بينما يضع النص العربى ضمير الهبة وهو « ها » . وبذلك ابتعدت الترجمة الإتيوبية عن نص ابن العسال .

وإن كان الشيء الموهوب لا يميزه تحديد ولا تخلية كالدنانير والدراهم فليس يحتاج إلى مكاتبة .

(٦ / ٢٢٤)

ሀ እመሰ፡ ከነ፡ ንዋይ፡ ዘተውህበ፡ ኢይትፈለጥ፡ ለተፈቅዶ፡ ወኢበውኂብ፡ ከመ፡ ዲናራት፡ ወጠፋልሐ፡ ብሩር፡ ኢይትፈቀድ፡ ኀበ፡ ጽሒፍ።

(١٩ / ١ / ١٨٢)

ترجمة النص الاتيوبى : وإن كان الشيء الموهوب لا يميز للانتفاع ، ولا بالهبة كالدنانير والدراهم ، فليس يحتاج إلى مكاتبة .

ويلاحظ تعبير المترجم الاتيوبى : وإن كان الشيء الموهوب لا يميز للانتفاع ولا بالهبة . . » فإنه لا يؤدى المعنى الاصطلاحى الذى أشار إليه نص ابن العسال ، وهو : تحديد الشيء الموهوب إن كان مما يقبل القسمة ويمكن إحرازه ، أو التخلية بين الموهوب له وما وهب إن كان الموهوب عقارا مثلا . ويبدو أن هذا المعنى الاصطلاحى لم يتيسر أداؤه لدى المترجم الحبشى .

ومن وهب أحدا شيئا فمات قبل وصوله إليه ، فليس يصير لورثته .

(١٥/ ٢٢٤)

ወእመ፡ ወሀበ፡ ፩ለመኑሂ፡ ምንተኒ፡ ንዋየ፡ ወሞተ፡ እምቅድመ፡ ብጽሐቱ፡ ኀቤሁ፡ ኢይደልዎሙ፡ ለወራስያኒሁ፡ ከመ፡ ይሰድዎ።

(١٦ / ٢ / ١٨٢)

ترجمة النص الاتيوبى : ومن وهب لأحد شيئا من المال فمات قبل وصوله إليه فلا يدفعه ورثته .

ويلاحظ الضميران فى : ኀቤሁ ، وفى : ወራስያኒሁ وهما يعودان إلى أقرب مذكور إليهما وهو الموهوب له الذى مات قبل أن يتسلم الشيء الموهوب . ولفظ « ورثته »

يقصد به كذلك ورثة الموهوب له ، وليس فى يدهم الموهوب ، إذ لم يسبق وصوله إلى مورثهم ، فكيف يمكن أن يدفعوا ويردوا شيئا ليس فى يدهم ! هذا ، ونص ابن العسال يقول : إن الشيء الموهوب لا يصير إليهم ، فقبض الموهوب له الموهوب شرط فى تمام الهبة ، ومن حق الواهب أن يسير فى هبته وأن يعود فيها .

(ح) توجيهات النص الإتيوبى

وأما الموهـوب لهم فأولا هم الأولاد ثم الآباء ثم الأقارب ثم الأصهار ثم الترابى ثم الأصدقاء ثم الخدام ثم المعارف الجيران والرفقة وغيرهم .

(١٢ / ٢٢٣)

ወእለሂ፡ ይሁበሙ፡ ቀዳሚ፡ እሉ፡ እሙንቱ፡ ደቂቅ። ወድኅሬሆሙ፡ ወላድያኒሁ፡ ወእምነ፡ አዝማዲሁ፡ ወእምነ፡ ሐማን፡ ወእምነ፡ ሐፃኒሁ፡ ወእምነ፡ ፍቁራን፡ ወእምነ፡ ላእካን፡ ወእምነ፡ አግዋር፡ምእመናን፡ወአብያጽ፡ ወዘይመ ስሎሙ።

(٦ / ٢ / ١٨١)

وضع المترجم الحبشى لفظ « الجيران المؤمنون : አግዋር፡ምእመናን » موضع : « المعارف الجيران » فى نص ابن العسال ، وأرجح أن لذلك هدفا لدى المترجم الحبشى .

وفى ختام الفقرة الإتيوبية وضع المترجم لفظ : « ومن شابههم : ወዘይመ ስሎሙ » موضع لفظ : « وغيرهم » فى كلام ابن العسال . ولسائل أن يسأل الآن : ماذا يقصد المترجم بلفظه الذى استبدله بلفظ ابن العسال ؟ ويبدو أنه لا جواب .

هذا ما تجدر الإشارة إليه عند مقابلة الترجمة الاتيوبية ونص ابن العسال ، وهى مقابلة مفيدة مثمرة يتحتم معها أن يعاد نشر النص العربى مع الافادة من أمثال هذه الملحوظات ، فربما أرشدت إلى توجيهات وآراء جديدة فى التشريع الاتيوبى بعد أن نقل عن مصدره العربى ، وربما أرشد إلى أصل عربى « غير الذى بأيدينا أفاد منه المترجم الحبشى عند ما ترجم . وقد أشرت إلى أهمية ذلك كله فى موضع آخر[1] . ويحسن أن أعيد هنا نشر « باب الهبة » على الوجه الذى قصدته حتى تتم الفائدة المرجوة من هذا البحث .

---

(١) انظر لكاتب هذا البحث :: ፍትሐ፡ነገሥት

٣ ـ الباب السادس والعشرون[1]

فى الهبـة

وأكثره من التطلسات[2]

(١٢ ، ١٣) النظر فى الهبات من خمس جهات ، وهى : الهبة ، والواهب ، [والموهوب له][3] ، والموهوب ، وباقى الشروط .

أما الهبة فنسبتها إلى غير مستحق الصدقة نسبة الصدقة إلى مستحقيها[4] . فهى فضيلة مستحبة بعد الصدقة . وإذا أمضاها الواهب وقبل الموهوب له الشيء الموهوب تم له ملكه والتصرف فيه دون واهبه[5] .

وأما الواهب فلا تصح منه الهبة إلا إذا كان بالغا رشيدا حراً مختاراً ، ليس عليه خوف من جهة الموهوب له . فإذا كان عليه خوف من جهته فلا تتم له [إلا[6]] إن مات الواهب ولم يرجع عنها بشهادة مقبولة لا فى السر ولا فى الجهر[7] .

وللواهب أن يمضى الهبة فى حياته إن شاء فى الوقت الحاضر من دون شرط معوق[8] ،

---

(١) اتخذت النص العربى الذى نشره مرقس جرجس سنة ١٩٢٧ ، اذ هو فى مكتبتى ، مصدرا أشير الى صفحاته وسطوره وأرمز له بالحرف ج ، مقابلا بمخطوطة معهد الدراسات القبطية بالقاهرة برقم ٣٢٦٧ لاهوت ، فهى أقدم مخطوطة أهتديت اليها ، وكذلك مخطوطة المتحف القبطى بالقاهرة ١٣٨ قانون . والمخطوطة ٣٢ قانون ـ بمكتبة البطريركية بالقاهرة ، وهى أقدم مخطوطتين بها ، والمطبوع الذى نشره جرجس فيلوثاوس عوض سنة ١٩٠٨ . واعتمدت كذلك على النص الاتيوبى المنشور باللغة الجعزية ، وكان قد نشره جويدى سنة ١٨٩٧ بمدينة روما ، وأشرت اليه بالرمز ش .

(٢) اتضح من الدراسات السابقة أن أكثر ما ورد فى هذا الباب ، بل كله ، عدا ما استفاد فيه ابن العسال بالقانونين الثامن والتاسع من قوانين الملوك ـ مستمد من التشريع الاسلامى ، على النهج الذى أوضحته قبل .

(٣) ما بين الحاصرتين سقط من ج ٥/٢٢٢ .

(٤) فى ش : أما الهبة فيجب أن تعطى لغير مستحقى الصدقة ، والصدقة تكون لمن يستحقها . ش ٤/٢/١٨٠ .

(٥) فى ش : ... تم له السلطان عليه ويتصرف فيه كواهبه . ش ٩/٢/١٨٠

(٦) ، (٧) ما بين الحاصرتين ساقط من ش . وقد أدى ذلك الى تغيير فى تركيب الجملة أنتج بالتالى تغييرا فى الحكم ، فصارت الفقرة فى ش هكذا : فان كان خوف من الواهب فلا تتم له . وان مات الواهب لا يرجع عنها بشهادة مقبولة لا فى السر ولا فى الجهر . ش ١٦/٢/١٨٠ .

(٨) فى ش : دون تعيين وقت ... ش ٢١/٢/١٨٠ .

فان شاء بعده بشرط وقت مخصوص مستقبل[1] ، وله أن يجعل وقت إمضائها بعد وفاته[2] .

وإن وهب جميع نعمته أو أكثرها فى حال لم يكن له فيها ولد ثم صار له بعد ذلك أولاد فله استرجاع ما أراده ، وأن يعمل فيه ما بدا له ، إما عين ما وهب إن كان موجوداً وإلا فقيمته .

ولا يصح الاسترجاع بعد موت أحدهما ، ولا مع عدم الموهوب له عين ما وهب وقيمته ، ولا إذا قبض الواهب عوضا عما وهب إلا بتراضيهما ، ولا بأن يحصل بالاسترجاع إضرار الموهوب له فى ماله ، كما إذا وهبه جدارا فبنى عليه دارا فليس له استرجاع عينه لكن له استرجاع قيمته .

وإذا وهب من هو دون البلوغ لأحد هبة فله أن يتكلم فيها من بعد بلاغه بأربع سنين ويعود يأخذ شيئه إذا أراد .

(مك ٨ ، ٩)[3] والهبة التى تكون بكتاب لا تتم إلا بأن يسلم الواهب كتابها للموهوب له إذا كانت لغريب ، وليس له بعد تسليمها له أن يستردها منه . وإن كانت لولد أو لولد ولد صحت بغير كتاب ، وجاز له أن يستردها فى حياته وأن يغير ما كتب لهما كما أحب . فأما بعد موته فلهما ما فى الكتاب ولو لم يسلمه لهما .

وأما الموهوب لهم فأولا هم الأولاد ثم الآباء ثم الأقارب ثم الأصهار ثم الترابى ثم الأصدقاء ثم الخدام ثم المعارف الجيران[4] والرفقة وغيرهم[5] :

ويستحب أن يساوى فيها بين المتساوين كالأولاد .

ومن لم يشكر منهم الذى وهبه ، بل خرج إلى شىء من القبيح فمد يده إليه بظلم فاحش أو خسره خسارة عظيمة من سعاية أو عمل فى هلاك حياته أو قطع عنه ما جرت الموافقة عليه بشهادة فى شىء يحمله عما وهب له ـ فله ، متى قامت بينة فى مجلس حكم ظاهر

---

(١) فى ش : بشرط ، وفى وقت معلوم مستقبل . ش ٢٣/٢/١٨٠ .
(٢) فى ش : وله أن يجعل عند موته تمامها بعد وفاته ش ٢٤/٢/١٨٠ .
(٣) فى ش : (١٠ ، ٩) وما فى ج هو الصحيح ش ٢٠/١/١٨١ .
(٤) فى ش : ثم الجيران المؤمنون . ش ١٠/٢/١٨١ .
(٥) فى ش : ومن شابههم . ش ١١/٢/١٨١ .

نظرة عامة :

يتبين من المناقشات السابقة أن ابن العسال رجع إلى مصادر إسلامية استمد منها أحكام هذا الباب ، ولم تعنه المصادر المسيحية إذ لم تعالج الجوانب التى قصد إليها ، فيما عدا الاشارة السريعة التى وردت فى القانونين الثامن والتاسع من قوانين الملوك .

أما مصادره الإسلامية فقد تجلت تماما فى سائر أحكام الباب . ولم يعش ابن العسال على مائدة مذهب بعينه من مذاهب الفقه الاسلامى ، وأقصد من هذا الآراء المشهورة لمذهب بعينه ، وإنما استفاد منها جميعا .

وكذلك لم أتبين فى هذا الباب ، على غير ما رأيت فى غيره مما دونته فى غير هذا الموضع[1] ، أنه اقتبس حرفيا نصوص كتاب بعينه .

على أن براعة ابن العسال فى جمع هذه الأحكام ، وتنسيق كتابتها على الوجه الذى ارتضاه ، تشهد له بقدرة ومهارة رشحتا كتابه لأن يكون مرجع الكنيسة القبطية الأرثوذكسية فى مصر والحبشة على السواء .

٢ — مظاهر لغــــوية

سنحت الفرصة فى القسم الأول من هذا البحث لمناقشة أحكام الهبة من القانون الاتيوبى ፍትሐ፡ ነገሥት። مترجمة عن المجموع الصفوى لابن العسال . غير أن الترجمة الإثيوبية ، رغم وصولها إلى درجة عالية الاتقان ، لم تخل من بعض الملحوظات التى يجب الوقوف عندها إذا أريد مقابلة النصين من جهة ، وإذا ما حدث الرغبة إلى نشر النص مع الافادة من هذه المقارنة من جهة أخرى[2] . وسأعرض هنا لهذه الملحوظات ، وأضعها طوائف ثلاثة :

(ا) طائفة الزيدات فى أحد النصين .

(ب) وطائفة مخالفات الترجمة الاتيوبية نتيجة عدم كمال التوفيق فيها .

(حـ) والطائفة الثالثة : مخالفات ربما كان سببها إبداء وجهة نظر خاصة للمترجم الاتيوبى .

---

(١) انظر : ፍትሐ፡ ነገሥት። لكاتب هذا البحث .

(٢) سأقوم فى القريب ان شاء الله ، باعادة نشر « المجموع الصفوى » لابن العسال نشرة علمية مقارنا بالترجمة الاتيوبية له .

(أ) مزيدات النصين(1)

النص العربى :

ولا أن يكون (الشيء الموهوب)(2) مما يغلب على ظنه أن الموهوب له ينضر به [أو يضر به] فى الوقت الحاضر .

(4 / 224)(3)

النص الإثيوبى :

[illegible] ከነ፡ እምነ፡ [illegible] ውእቱ፡ በኀ፡ [illegible] እስመ፡ ዘይሁብ፡ [illegible]ሁ፡ [ይበውእ፡ ውስተ፡ [illegible] ፍቅረ፡ ን[illegible]ይ፡] [illegible] እ[illegible]፡ ይደውዮ፡ ይወእ[illegible]

(14 / 1 / 182)(3)

ترجمة الفقرة الإثيوبية : وألا يكون مما يغلب على ظنه أن ا[illegible] [illegible] [يغلب على قلبه حب المال] ، ولا مما يضره فى هذا الوقت .

وما بين الحاصرتين ، وهو مزيد فى النص الاتيوبى ، لا أثر له [illegible] فى صحة الهبة ، إذ لم يشترط هذا الشرط أحد من المشرعين . ومن ثم كانت إضافته عبثا على النص ، وعبثا على التشريع .

وقد أسقط النص الاتيوبى عبارة : [أو يضر به] الموجودة فى الأصل العربى وهى على عكس ما سبق ، ذات أثر له حسابه ، وقد رتب النص العربى عليها حكما ، هو عدم صحة الهبة .

وإن وهب الذى تحت الحجر بأمر أبيه أو برائه ، فالهبة للأب تقديرا .

(16 / 224)

ወለ[illegible] [illegible]ሆ፡ ዘሀበ፡ ታሕት፡ ሕፃ[illegible]፡ በቀ እዛ[illegible]፡ አቡሁ፡ አው፡ [በት እዛ[illegible]፡ ርእ[illegible]፡] መጠነ፡ ውእቱ፡ ሀብት፡ ይኩን፡ [illegible] ለ።

(19 / 2 / 182)

(1) سأضع النصوص المقابلة فى نهرين : النص العربى فى النهر الأيمن ، والترجمة الاتيوبية له فى النهر الأيسر ، وسأضع الزيادات من كلا النصين بين حاصرتين ، هكذا [ ] ، مشيرا الى النص العربى بالرمز « ج » ، والى الاتيوبى بالرمز « ش » .

(2) زيد ما بين القوسين للتوضيح .

(3) ما بين القوسين يشير الى رقم الصفحة ، فالنهر ، فالسطر من النص الاتيوبى ، ورقم الصفحة ، فالسطر من النص العربى .

تقول الترجمة الإثيوبية : وإن وهب من تحت الحجر بأمر أبيه ، أو [بأمر نفسه] ، فقدر تلك الهبة يكون للأب .

ولا حاجة لأن يزاد هنا لفظ [بأمر نفسه] ، فقد ذكر فى مبدأ باب الهبة أن من شروط الواهب أن يكون بالغا رشيدا ، وغرض النص العربى هنا أن يذكر صورة ثانية لهبة المحجور عليه ، وهى أن يهب على مرأى أبيه ، وهذا هو القصد من لفظ [برائه] الذى أسقطه النص الاتيوبى .

هذا ؛ ولا توجد مزيدات أخرى فى باب الهبة فى كلا النصين غير ما سبق ذكره . وحق الانتقال بعدئذ إلى الفقرة التالية التى تعالج مخالفات النص الاتيوبى .

(ب) مخالفات النص الإتيوبى

أما الهبة فنسبتها إلى غير مستحق الصدقة نسبة الصدقة إلى مستحقها .

(٦ / ٢٢٢)

ሀብትሰ፡ ይደሉ፡ ከመ፡ የሀብዎ፡ ለእለ፡ ኢኮኑ፡ ድልዋነ፡ ለመጽውቶ፡ ወምጽዋትኒ፡ ትከውን፡ ለዘይደልዎ።

(٤ / ٢ / ١٨٠)

تقول الترجمة الاتيوبية : أما الهبة فيجب أن تعطى لغير مستحق الصدقة ، والصدقة تكون لمن يستحقها .

وقصر تقديم الهبة على غير مستحق الصدقة ليس من هدف النص العربى ، بل ليس من هدف التشريع إطلاقا ، وكل ما يريده ابن العسال أن هناك صلة بين الهبة ومستحقها ، تساوى الصلة بين الصدقة ومستحقها . أما منع الهبة عن أن تصرف فى وجوه الصدقات فليس بمراد .

وإذا أمضاها الواهب ، وقبل الموهوب له الشىء الموهوب [تم له[1]] ملكه ، والتصرف فيه دون واهبه .

(٧ / ٢٢٢)

ወእምከመ፡ ወሀበ፡ ወሃቢ፡ ኪያሃ፡ ወተወክፈ፡ ዘይሁብዎ፡ ሎቱ፡ ንዋየ፡ ዘትት፨ሀብ፡ ወእምዝ፡ ይደሉ፡ ሎቱ፡ ሥልጣን፡ ላዕሌሁ፡ ወይሥራዕ፡ ቦቱ፡ ከመ፡ ወሃቢሁ።

(٩ / ٢ / ١٨٠)

(١) ما بين الحاصرتين ساقط من مخطوط المتحف القبطى ١٣٨ قانون ، ورقة ٨٦/ب .

ترجمة النص الاثيوبى : وإذا وهبها الواهب ، وقبل الموهوب له الشىء الموهوب ، تم له السلطان عليه ، ويتصرف فيه كواهبه .

والجملة الأخيرة : « ويتصرف فيه كواهبه » لا تؤدى هدف العبارة العربية التى تحجز الواهب عن التصرف فى الشىء الموهوب ؛ فقد خرج عن ملكه وصار لغيره . بينما لا تفيد الترجمة الاثيوبية هذا المعنى .

فإن كان عليه (أى على الواهب)[1] خوف من جهته (أى الموهوب له)[1] فلا تم له [إلا][2] ان مات الواهب ولم يرجع عنها بشهادة مقبولة لا فى السر ولا فى الجهر .	ወእመሰ፡ ዘይፈርሀ፡ እምዘ፡ ወሀበ፡ ኢይትፌጸም፡ ሎቱ። ወእመኒ፡ ሞተ፡ ወሃቢሁ፡ ኢይግባእ፡ እሞኔሃ፡ በስምዕ፡ ውኩፍ፡ ኢበኅቡእ፡ ወኢበክሡት።
(١٠ / ٢٢٢)	(١٦ / ٢ / ١٨٠)

ترجمة النص الاثيوبى : فان كان خوف من الواهب فلا تم له .

وإن مات الواهب لا يرجع عنها بشهادة مقبولة لا فى السر ولا فى الجهر .

ويلاحظ أن النص الاثيوبى جعل العبارة فقرتين منفصلتين لكل منهما حكم لا يتصل بالآخر . وتتحدث الفقرة الأولى عن خوف الواهب ووقوع التأثير عليه من جهة الموهوب له . وحكم هبته حينئذ أنها لا تم له .

والضمير فى ፡ሎቱ። ـ له ، يعود إلى « الواهب » الوارد ذكره فى الجملة نفسها ، بينما يعود الضمير فى عبارة ابن العسال إلى مرجع الضمير فى لفظ « جهته » ، أى الموهوب له . وهذا أوفق ، من قبيل أن الموهوب له ، وهو المكره الذى أثر فى صدور الهبة من الواهب ، لا ينبغى أن ينتفع بنتيجة هذا الاكراه . وسبب هذه الملحوظة أن الترجمة الاثيوبية لم يرد فيها إلا متحدث عنه واحد ، هو الواهب ، ولم تتعرض لذكر الموهوب له .

ويرد فى الفقرة الثانية من الترجمة الاثيوبية حكم جديد غير متصل بالحكم الأول أو مرتبط به . وهو أن الواهب إذا مات لا يرجع عن هبته بشهادة مقبولة لا فى السر

(١) زيد ما بين القوسين للتوضيح .

(٢) ما بين الحاصرتين ساقط من مخطوط المتحف القبطى ٨٦/ب .

ولا فى الجبر . وواضح أن الواهب إذا مات لايملك إصدار حكم ما ، إذ لا حياة له إطلاقا وإذا كان المراد أن الموت يمنع الرجوع فى الهبة ، فلا جديد فى هذا الحكم كذلك ، لأنه قد تقرر فى موضع غير هذا الموضع ، حين تحدث النص العربى وترجمته الاثيوبية عن موانع الرجوع فى الهبة .

وقد أحدث هذا الارتباك حذف الرابط الهام بين الفقرتين المشار إليهما قبل، وهو أداة الاستثناء : « إلا » ، مما جعل المترجم الحبشى يفصل بين شطرى العبارة ، ويبدأ الشطر الثانى بحرف العطف « ወ » ، ويحذفه من بدء جملة : « يرجع عنها » ، فيضيع بذلك الحكم الذى أراده ابن العسال ، وهو أن الواهب إذا أكره على أن يهب أحدا شيئا فقد فات عنصر « الرضا » الذى يجب تحققه عند صدور العقود ، فإذا أمضى الهبة ولم يثبت أنه رجع عنها حتى فارق الحياة ، ظهر أن العقد الذى سبق أن أمضاه فى حياته كان صحيحا .

وللواهب أن يمضى الهبة فى حياته إن شاء فى الوقت الحاضر من دون شرط معوق . فإن شاء بعده بشرط وقت مخصوص مستقبل . وله أن يجعل وقت إمضائها بعد وفاته .

(١٣ / ٢٢٢)

ወለወሃቢሰ፡ ይደልዎ፡ ከመ፡ የሀብ፡ በሕይወቱ፡ እመ፡ ፈቀደ፡ በጊዜሁ፡ ዘእንበለ፡ ውሳኔ፡ ዕድሜ። ወለእመ፡ ፈቀደ፡ እምድኅሬሁ፡ በትእዛዝ፡ ወበጊዜ፡ እሙር፡ ዘይመጽእ፡ ወሎቱ፡ ድልው፡ ከመ፡ ይግበር፡ በጊዜ ሞቱ፡ ተፍጻሜታ፡ እምድኅረ፡ ዕረፍቱ።

(٢٠ / ٢ / ١٨)

ترجمة النص الاتيوبى : وللواهب أن يمضى الهبة فى حياته إن شاء فى الوقت الحاضر دون تعيين وقت . وإن شاء بعده بشرط وفى وقت معلوم مستقبل . وله أن يجعل عند موته تمامها بعد وفاته .

والكلام فى هذه الفقرة من وجوه . فقد ختمت العبارة الأولى فى نص ابن العسال بقوله : « من دون شرط معوق » ، ووضعت الترجمة الاتيوبية موضع هذا تعبيرا آخر لا يغنى غناءه ، وهو : « دون تعيين وقت » . ولعل المترجم الحبشى رأى فى عموم الفقرة ضغطا على « الوقت » وتحديده أو عدم تحديده ، فمال إلى ما ارتآه .

وفى الجملة الثانية رأى المترجم الحبشى أن يجعل كلا من المضاف والمضاف إليه فى تعبير ابن العسال : « بشرط وقت مخصوص مستقبل » ، شرطا مستقلا ، فقال : « بشرط ، وفى

وقت معلوم مستقبل ، « فكرر حرف الجر : በ ، وسبقه بحرف العطف : ወ ، فصار كل من المضاف والمضاف إليه أمرا مقصودا لذاته . وليس ذلك مرادا .

وفى الجملة الأخيرة أضاف المترجم الحبشى ظرف زمان بعد الفعل : يجعل ، فضلا على ظرف الزمان فى ختام الجملة . وقد أدت زيادة هذا الظرف معنى جديدا لم يطرقه ابن العسال ، وجعل زمن صدور عقد الهبة فى وقت موت الواهب ، أى فى مرض موته ، لأنه لا نتيجة من زيادة تعبير : በጊዜ:ሞቱ:: بعد الفعل ይግበር: إلا أن يكون المراد : أن عقد الهبة حدث فى مرض موته ليكون إمضاء الهبة ونفاذها معلقا إلى ما بعد وفاته . وهكذا تضع هذه العبارة حكما جديدا لم يرد عند ابن العسال .

وإن ادعى الموهوب له أنه معسر ، فليس تلزم مطالبته إلا ببينة تبطل دعواه .	ወለእመኒ፡ ይቤ፡ ዘመሀብዎ፡ ለሙቱ፡ ከመ፡ ጽኑስ፡ ውእቱ፡ ኢልቦ፡ ዘይከልእ፡ ኀሠሣሁ፡ ዘእንበለ፡ በስምዕ፡ ዘያፀርዕ፡ ኀሠሣሁ::
(١ / ٢٢٤)	(٤ / ١ / ١٨٢)

ترجمة النص الاتيوبى : وإن قال الموهوب له إنه محتاج ، فلا تمتنع مطالبته إلا ببينة تبطل مطالبته .

وبين الأصل العربى وترجمته شىء من الاختلاف ؛ فالأصل العربى يرى أن تتوقف المطالبة إذا ادعى الموهوب له الاعسار ، بينما ترى الترجمة الاتيوبية ألا تتوقف المطالبة إلا عند ظهور بينة على الاعسار .

ولا تصح الهبة إلا لموهوب له معروف ، ولا تتم إلا إذا قبلها	ወኢይቀውም፡ ሀብት፡ ለዘይሁብዎ፡ ዘእንበለ፡ ለዘቦቱ፡ ጥሪት፡ ወኢትትፌጸም፡ ዘእንበለ፡ ሶበ፡ ይትዌከፉ::
(٢ / ٢٢٤)	(٧ / ١ / ١٨٢)

ترجمة النص الاتيوبى : ولا تصح الهبة للموهوب له إلا لمن يملك مالا ، ولا تتم إلا إذا قبلوا .

والنص العربى يتحدث فى الفقرة السابقة عن شرطين من شروط الهبة ، أحدهما يتعلق بالموهوب له وهو ألا يكون مجهولا ، والثانى يتعلق بعقد الهبة ذاته وهو ركن « القبول » من الموهوب له .

غير أن الترجمة الاتيوبية أهملت الشرط الأول ، ووضعت مكانه ملكية المال ، أى مال ، ولم تحدد : أهو المال الموهوب أو مطلق مال . فإن كان الأول فقد تكفل النص بعلاجه فى موضع آخر ، وإن كان الثانى فهو لغو لا محل له .

أما الشرط الثانى ، أو بالأحرى ركن الهبة ، وهو قبول الموهوب له الهبة ، فقد عمم المترجم الإتيوبى من يقع منهم القبول ، فوضع ضمير الجمع « ū » ولم يخصصه بالموهوب له فقط ، بينما يضع النص العربى ضمير الهبة وهو « ها » . وبذلك ابتعدت الترجمة الإتيوبية عن نص ابن العسال .

وإن كان الشيء الموهوب لا يميزه تحديد ولا تخلية كالدنانير والدراهم فليس يحتاج إلى مكاتبة .

(٦ / ٢٢٤)

ወእመሰ፡ ከነ፡ ንዋይ፡ ዘተውህበ፡ ኢይትፈለጥ፡ ለተፈቅዶ፡ ወኢበውሂብ፡ ከመ፡ ዲናራት፡ ወጠፋልሰ፡ ብሩር፡ ኢይትፈቀድ፡ ኀበ፡ ጽሒፍ።

(١٩ / ١ / ١٨٢)

ترجمة النص الاتيوبى : وإن كان الشيء الموهوب لا يميز للانتفاع ، ولا بالهبة كالدنانير والدراهم ، فليس يحتاج إلى مكاتبة .

ويلاحظ تعبير المترجم الاتيوبى : وإن كان الشيء الموهوب لا يميز للانتفاع ولا بالهبة .. » فإنه لا يؤدى المعنى الاصطلاحى الذى أشار إليه نص ابن العسال ، وهو : تحديد الشيء الموهوب إن كان مما يقبل القسمة ويمكن إحرازه ، أو التخلية بين الموهوب له وما وهب إن كان الموهوب عقارا مثلا . ويبدو أن هذا المعنى الاصطلاحى لم يتيسر أداؤه لدى المترجم الحبشى .

ومن وهب أحدا شيئا فمات قبل وصوله إليه ، فليس يصير لورثته .

(١٥/ ٢٢٤)

ወእመ፡ ወሀበ፡ ፩ለመኑሂ፡ ምንተኒ፡ ንዋየ፡ ወሞተ፡ እምቅድመ፡ ብጽሐቱ፡ ኀቤሁ፡ ኢይደልዎሙ፡ ለወራስያኒሁ፡ ከመ፡ ይሰድዎ።

(١٦ / ٢ / ١٨٢)

ترجمة النص الاتيوبى : ومن وهب لأحد شيئا من المال فمات قبل وصوله إليه فلا يدفعه ورثته .

ويلاحظ الضميران فى : ኀቤሁ ، وفى : ወራስያኒሁ وهما يعودان إلى أقرب مذكور إليهما وهو الموهوب له الذى مات قبل أن يتسلم الشيء الموهوب ، ولفظ « ورثته »

يقصد به كذلك ورثة الموهوب له ، وليس فى يدهم الموهوب ، إذ لم يسبق وصوله إلى مورثهم ، فكيف يمكن أن يدفعوا ويردوا شيئا ليس فى يدهم ! هذا ، ونص ابن العسال يقول : إن الشىء الموهوب لا يصير إليهم ، فقبض الموهوب له الموهوب شرط فى تمام الهبة ، ومن حق الواهب أن يسير فى هبته وأن يعود فيها .

(حـ) توجيهات النص الإثيوبى

وأما الموهوب لهم فأولا هم الأولاد ثم الآباء ثم الأقارب ثم الأصهار ثم الترابى ثم الأصدقاء ثم الخدام ثم المعارف الجيران والرفقة وغيرهم .	ወእለሰ፡ ይሁብሙ፡ ቀዳሚ፡ እሉሂ፡ እሙንቱ፡ ደቂቅ። ወድኅሬሆሙ፡ ወላድያኒሁ፡ ወእምዝ፡ አዝማዲሁ፡ ወእምዝ፡ ሐማን፡ ወእምዝ፡ ሐፃኒሁ፡ ወእምዝ፡ ፍቁራን፡ ወእምዝ፡ ላእካን፡ ወእምዝ፡ አግዋር፡ምእመናን፡ወአብያጽ፡ ወዘይመ ስሎሙ።
(١٢ / ٢٢٣)	(٦ / ٢ / ١٨١)

وضع المترجم الحبشى لفظ « الجيران المؤمنون : አግዋር፡ምእመናን፡ » موضع : « المعارف الجيران » فى نص ابن العسال ، وأرجح أن لذلك هدفا لدى المترجم الحبشى .

وفى ختام الفقرة الإتيوبية وضع المترجم لفظ : « ومن شابههم : ወዘይመ ስሎሙ። » موضع لفظ : « وغيرهم » فى كلام ابن العسال . ولسائل أن يسأل الآن : ماذا يقصد المترجم بلفظه الذى استبدله بلفظ ابن العسال ؟ ويبدو أنه لا جواب .

هذا ما تجدر الإشارة إليه عند مقابلة الترجمة الاتيوبية ونص ابن العسال ، وهى مقابلة مفيدة مثمرة يتحتم معها أن يعاد نشر النص العربى مع الافادة من أمثال هذه الملحوظات ، فربما أرشدت إلى توجيهات وآراء جديدة فى التشريع الاتيوبى بعد أن نقل عن مصدره العربى ، وربما أرشد إلى أصل عربى « غير الذى بأيدينا أفاد منه المترجم الحبشى عند ماترجم. وقد أشرت إلى أهمية ذلك كله فى موضع آخر[1] . ويحسن أن أعيد هنا نشر «باب الهبة» على الوجه الذى قصدته حتى تتم الفائدة المرجوة من هذا البحث .

---

(1) أنظر لكاتب هذا البحث ፍትሐ፡ነገሥት።

٣ ــ الباب السادس والعشرون[١]

فى الهبة

وأكثره من التطلسات[٢]

(١٢ ، ١٣) النظر فى الهبات من خمس جهات ، وهى : الهبة ، والواهب ، [والموهوب له][٣] ، والموهوب ، وباقى الشروط .

أما الهبة فنسبتها إلى غير مستحق الصدقة نسبة الصدقة إلى مستحقيها[٤] . فهى فضيلة مستحبة بعد الصدقة . وإذا أمضاها الواهب وقبل الموهوب له الشىء الموهوب تم له ملكه والتصرف فيه دون واهبه[٥] .

وأما الواهب فلا تصح منه الهبة إلا إذا كان بالغا رشيدا حراً مختاراً ، ليس عليه خوف من جهة الموهوب له . فإذا كان عليه خوف من جهته فلا تتم له [إلا[٦]] إن مات الواهب ولم يرجع عنها بشهادة مقبولة لا فى السر ولا فى الجهر[٧] .

وللواهب أن يمضى الهبة فى حياته إن شاء فى الوقت الحاضر من دون شرط معوق[٨] ،

---

(١) اتخذت النص العربى الذى نشره مرقس جرجس سنة ١٩٢٧ ، اذ هو فى مكتبتى ، مصدرا أشير الى صفحاته وسطوره وأرمز له بالحرف ج ، مقابلا بمخطوطة معهد الدراسات القبطية بالقاهرة برقم ٣٢٦٧ لاهوت ، فهى أقدم مخطوطة أهتديت اليها ، وكذلك مخطوطة المتحف القبطى بالقاهرة ١٣٨ قانون . والمخطوطة ٣٢ قانون ــ بمكتبة البطريركية بالقاهرة ، وهى أقدم مخطوطتين بها ، والمطبوع الذى نشره جرجس فيلوثاوس عوض سنة ١٩٠٨ . واعتمدت كذلك على النص الاتيوبى المنشور باللغة الجعزية ، وكان قد نشره جويدى سنة ١٨٩٧ بمدينة روما ، وأشرت اليه بالرمز ش .

(٢) اتضح من الدراسات السابقة أن أكثر ما ورد فى هذا الباب ، بل كله ، عدا ما استفاد فيه ابن العسال بالقانونين الثامن والتاسع من قوانين الملوك ــ مستمد من التشريع الاسلامى ، على النهج الذى أوضحته قبل .

(٣) ما بين الحاصرتين سقط من ج ٥/٢٢٢ .

(٤) فى ش : أما الهبة فيجب أن تعطى لغير مستحقى الصدقة ، والصدقة تكون لمن يستحقها . ش ٤/٢/١٨٠ .

(٥) فى ش : ... تم له السلطان عليه ويتصرف فيه كواهبه . ش ٩/٢/١٨٠

(٦) ، (٧) ما بين الحاصرتين ساقط من ش . وقد أدى ذلك الى تغيير فى تركيب الجملة أنتج بالتالى تغييرا فى الحكم ، فصارت الفقرة فى ش هكذا : فان كان خوف من الواهب فلا تتم له . وان مات الواهب لا يرجع عنها بشهادة مقبولة لا فى السر ولا فى الجهر . ش ١٦/٢/١٨٠ .

(٨) فى ش : دون تعيين وقت ... ش ٢١/٢/١٨٠ .

فإن شاء بعده بشرط وقت مخصوص مستقبل[1] ، وله أن يجعل وقت إمضائها بعد وفاته[2] .

وإن وهب جميع نعمته أو أكثرها في حال لم يكن له فيها ولد ثم صار له بعد ذلك أولاد فله استرجاع ما أراده ، وأن يعمل فيه ما بدا له ، إما عين ما وهب إن كان موجوداً وإلا فقيمته .

ولا يصح الاسترجاع بعد موت أحدهما ، ولا مع عدم الموهوب له عين ما وهب وقيمته ، ولا إذا قبض الواهب عوضا عما وهب إلا بتراضيهما ، ولا بأن يحصل بالاسترجاع إضرار الموهوب له في ماله ، كما إذا وهبه جدارا فبنى عليه دارا فليس له استرجاع عينه لكن له استرجاع قيمته .

وإذا وهب من هو دون البلوغ لأحد هبة فله أن يتكلم فيها من بعد بلاغه بأربع سنين ويعود يأخذ شيئه إذا أراد .

(مك ٨ ، ٩)[3] والهبة التي تكون بكتاب لا تتم إلا بأن يسلم الواهب كتابها للموهوب له إذا كانت لغريب ، وليس له بعد تسليمها له أن يستردها منه . وإن كانت لولد أو لولد ولد صحت بغير كتاب ، وجاز له أن يستردها في حياته وأن يغير ما كتب لهما كما أحب . فأما بعد موته فلهما ما في الكتاب ولو لم يسلمه لهما .

وأما الموهوب لهم فأولا هم الأولاد ثم الآباء ثم الأقارب ثم الأصهار ثم الترابي ثم الأصدقاء ثم الخدام ثم المعارف الجيران[4] والرفقة وغيرهم[5] :

ويستحب أن يساوي فيها بين المتساوين كالأولاد .

ومن لم يشكر منهم الذي وهبه ، بل خرج إلى شيء من القبيح فمد يده إليه بظلم فاحش أو خسره خسارة عظيمة من سعاية أو عمل في هلاك حياته أو قطع عنه ما جرت الموافقة عليه بشهادة في شيء يحمله عما وهب له ـ فله ، متى قامت بينة في مجلس حكم ظاهر

(١) في ش : بشرط ، وفي وقت معلوم مستقبل . ش ٢٣/٢/١٨٠ .
(٢) في ش : وله أن يجعل عند موته تمامها بعد وفاته ش ٢٤/٢/١٨٠ .
(٣) في ش : (١٠ ، ٩) وما في ج هو الصحيح ش ٢٠/١/١٨١ .
(٤) في ش : ثم الجيران المؤمنون . ش ١٠/٢/١٨١ .
(٥) في ش : ومن شابههم . ش ١١/٢/١٨١ .

بأنه قد أجرى إحدى هذه الخصال ، أن يسترجع الهبات : أعيانها إن كانت موجودة أو قيمتها إذا لم توجد . وإن اختلفا فى قيمة المثل فالقول قول الموهوب له ما لم تقم بينة تبطل قوله .

وإن ادعى الموهوب له أنه معسر فليس تلزم مطالبته إلا ببينة تبطل دعواه(1) .

ولا تصح الهبة إلا لموهوب له معروف ، ولا تتم إلا إذا قبلها(2) .

أما الشىء الموهوب فلا يصح أن يكون مجهولا ، ولا ما لم يتم للواهب ملكه ، ولا أن يكون مما يغلب على ظنه أن الموهوب له ينضر به أو يضر به فى الوقت الحاضر(3) ، كمن يهب سيفا لمجنون فإنه ربما قتل به نفسه أو غيره .

وإن كان الشىء الموهوب لا يميزه تحديد ولا تحلية(4) كالدنانير والدراهم فليس يحتاج إلى مكاتبة . فإن كان محتملا لذلك فبمكاتبة فيها خط شهود يذكر فيها تحديد الشىء الموهوب وصفاته وشروط الواهب فيه ، وأنه لا يرجع فيما وهبه . ويستحب أن يكتب فيه خطه بذلك .

وإن كان الموهوب قرية فالغلة التى تحصل منها هى للموهوب له منذ يوم كتب له الكتاب وسلمه له ، إلا أن يشترط خلاف ذلك . فانه إن اشترط أن الغلة الحاضرة لا تكون له ، أو مهما اشترطه مما لا ينافى مقتضى الهبة ، وقبل ذلك الموهوب له ، حمل الأمر عليه .

وأما باقى الشروط فبأن لا يشترط ما ينافى مقتضى الهبة .

ومن وهب أحدا شيئا فمات قبل وصوله إليه فليس يصير لورثته(5) .

وإن وهب الذى تحت الحجر بأمر أبيه أو برائه فالهبة للأب تقديرا(6) .

ومن وهب شىء إنسان برائه فصاحب الشىء هو واهبه(7) .

---

(1) فى ش : ... فلا تمتنع مطالبته الا ببينة تبطل مطالبته ش ٢٤/١/١٨٢ .

(2) فى ش : ولا تصح الهبة الا لمن يملك مالا ، ولا تتم الا اذا قبلوا . ش ٧/١/١٨٢ .

(3) فى ش : .. وألا يكون مما يغلب على ظنه أن الموهوب له يغلب على قلبه حب المال ، ولا مما يضره فى هذا الوقت . ش ١٤/١/١٨٢ .

(4) فى ش : وان كان الشىء الموهوب لا يميز للانتفاع ، ولا بالهبة كالدنانير الخ . ش ١٩/١/١٨٢ .

(5) فى ش : ... فلا يدفعه ورثته . انظر شرح هذه الفقرة فى ص ١٢٨ من هذا البحث . وانظر ش ١٦/٢/١٨٢ .

(6) فى ش : وان وهب من تحت الحجر بأمر ابيه أو برأى نفسه فقدر تلك الهبة يكون للأب . ش ١٩/٢/١٨٢ .

(7) فى ش : ومن وهب انسانا شيئا بارادته ... الخ : ش ٢٢/٢/١٨٢ .

وثيقة وقف

مسرور بن عبد الله الشبلي الجمدار

دراسة ونشر وتحقيق

للدكتور عبد اللطيف ابراهيم

لم يحظ موضوع فى الفترة الأخيرة بالرعاية والاهتمام من جانب الدولة والعلماء على السواء مثل موضوع الوثائق التاريخية لأهميتها الكبيرة ـ باعتبارها مصدر أصيل ـ فى إعادة كتابة التاريخ القومى العربى فى مصر ، وهذا أمر يبشر بالخير لمستقبل الدراسات الوثائقية والتاريخية المبتكرة على السواء .

وبعد ـ فهذه رابع وثيقة من مجموعة الوثائق المملوكية المحفوظة بأرشيف محكمة الأحوال الشخصية بالقاهرة ، نقوم بدراستها ونشرها وتحقيقها اليوم لأول مرة ، وهى إحدى الوثائق العربية فى العصور الوسطى التى انتهينا من دراستها ونعمل على نشرها تباعا .

* * *

أما علاقتى العلمية ـ كباحث ـ بأرشيف محكمة الأحوال الشخصية بالقاهرة (المحكمة الشرعية سابقا) فهى ترجع إلى أكثر من عشر سنوات ، أفدت فيها فائدة كبيرة من مجموعة الوثائق التاريخية التى يحتفظ بها فى هذا الأرشيف التاريخى الكبير ، فى بحوث مختلفة نشر أغلبها فيما بين سنة ١٩٥٦ ، ١٩٦٢ منها :

(أولا) دراسات تاريخية وأثرية فى وثائق من عصر الغورى [١] .

(ثانيا) الوثائق فى خدمة الآثار [٢] .

(ثالثا) وثيقة الأمير آخور كبير قراقجا الحسنى [٣] .

---

(١) رسالة دكتوراه (تحت الطبع) ١٩٥٦ .

(٢) كتاب المؤتمر الثانى للآثار فى البلاد العربية سنة ١٩٥٧ .

(٣) مجلة كلية الآداب بجامعة القاهرة م ١٨ ج ٢ ديسمبر ١٩٥٦ .

(رابعا) التوثيقات الشرعية والاشهادات [1] .

(خامسا) وثيقة بيع [2] .

(سادسا) وثيقة السلطان قايتباى [3] .

(سابعا) فى تاريخ المكتبات - المكتبة المملوكية [4]

(ثامنا) مكتبة فى وثيقة [5] .

(تاسعا) وثيقة باستلام كتب [6] .

* * *

كما قمت بتصوير كثير من الوثائق العربية فى العصور الوسطى ، التى ترجع إلى عهد الفواطم وآل ايوب ، والمماليك البحرية والجراكسة - إلى جانب مجموعة من الوثائق العثمانية - تصويرا كاملا بغية دراستها ونشرها مصححة محققة ، هذا إلى جانب قيامى بتصوير نماذج مختلفة من بقية الوثائق والسجلات التى يحتفظ بها فى هذا الأرشيف التاريخى الهام .

ولا أذيع سرا إذا قلت إن كثيرا من هذه الوثائق ، قد انتهيت تماما من دراستها وتقويم نصوصها وتحقيق أغلبها ، وسأدفع بها إلى المطبعة - بعون الله - فى أقرب وقت وهى وثائق كل من :

الناصرى محمد بن خليل الخطيرى [7] .

ياقوت بن عبد الله الكمالى [8] .

---

(١) مجلة كلية الآداب بجامعة القاهرة م ١٩ ج ١ مايو ١٩٥٧ .

(٢) مجلة كلية الآداب بجامعة القاهرة م ١٩ ج ٢ ديسمبر ١٩٥٧ .

(٣) كتاب المؤتمر الثالث للآثار فى البلاد العربية سنة ١٩٥٩ .

(٤) دراسة فى تاريخ المكتبات المملوكية معتمدة على الوثائق العربية فى العصور الوسطى .

(٥) وثيقة سليمان بن على الابشادى المالكى محكمة رقم ٢٧٨ محفظة رقم ٤٣ .

(٦) وثيقة عيسى الزواوى المغربى محكمة رقم ١٨٦ محفظة رقم ٢٨ وهذه البحوث الثلاثة الأخيرة نشرت فى كتابنا « دراسات فى الكتب والمكتبات الاسلامية » ، القاهرة ١٩٦٢ .

(٧) وثيقة بيع بتاريخ ٢ ربيع أول سنة ٨٤٦ هـ رقم ١٠٢ محفظة ١٦ .

(٨) وثيقة تمليك (عقد ملكية) بتاريخ ٢٧ شعبان سنة ٨٧٢ هـ رقم ١٥٧

ابراهيم بن محمد بن نور الدين على[1] .
السيفى يشبك من مهدى الدوادار[2] .
يحي بن محى الدين عبد القادر[3] .
الزينى عبد القادر[4] .
محمد على الدهان[5] .
السيفى طومان باى أميرسلاح[6] .
الست دلبار معتوقة الملك المؤيد ابو الفتح احمد[7] .
السيفى بكبردى بن عبد الله من عبد الكريم[8] .
قرقماس من على باى[9] .
السيفى طراباى بن عبد الله[10] .
زين الدين رمضان بن السيفى طوغان[11] .
محمد بن تغرى برمش[12] .
دولات باى بن عبد الله[13] .
شهاب الدين أحمد بن زين الدين بركات[14] .

---

(١) وثيقة بيع بتاريخ ٢٧ ذى الحجة سنة ٨٦٤ هـ ووقف بتاريخ ١١ محرم سنة ٨٨٠ هـ رقم ١٧٦ محفظة ٢٧ .
(٢) وثيقة وقف بتاريخ ٩ ربيع أول سنة ٨٨٥ هـ رقم ١٨٨ محفظة ٢٨ .
(٣) وثيقة بيع بتاريخ ٢٣ ذى الحجة سنة ٨٩٣ هـ رقم ٢٠٦ محفظة ٣٣ .
(٤) وثيقة بيع بتاريخ ٧ ذى القعدة سنة ٨٩٥ هـ رقم ٢٠٩ محفظة ٣٣ .
(٥) وثيقة وقف بتاريخ ٢٠ جماد آخر سنة ٩٠٣ هـ رقم ٢٢٣ محفظة ٣٦ .
(٦) وثيقة بيع بتاريخ ١٤ جماد آخر سنة ٩٠٥ هـ رقم ٢٢٦ محفظة ٣٦ .
(٧) وثيقة وقف بتاريخ ٢٣ ربيع آخر سنة ٩٠٨ هـ رقم ٢٣٥ محفظة ٣٧ .
(٨) وثيقة وقف بتاريخ ١٧ رمضان سنة ٩٠٨ هـ رقم ٢٣٩ محفظة ٣٨ .
(٩) وثيقتا بيع بتاريخ أول ذى الحجة سنة ٩٠٩ هـ رقم ٢٤٤ محفظة ٣٩ ، ٢ محرم سنة ٩١٠ هـ رقم ٢٤٥ محفظة ٣٩ .
(١٠) وثيقة بيع بتاريخ ١٩ رمضان سنة ٩١٠ هـ رقم ٢٤٨ محفظة ٣٩ .
(١١) وثيقة استبدال بتاريخ ١٨ رجب سنة ٩١٢ هـ . رقم ٢٥٩ محفظة ٤٠ .
(١٢) وثيقة استبدال بتاريخ ٢١ رمضان سنة ٩١٢ هـ رقم ٢٦١ محفظة ٤١ .
(١٣) وثيقة بيع ووقف بتاريخ ١٦ ذى الحجة سنة ٩١٢ هـ رقم ٢٦٣ محفظة ٤١ .
(١٤) وثيقة بيع بتاريخ ٢٥ صفر سنة ٩١٥ هـ رقم ٢٦٧ محفظة ٤١ .

سلوار بنت عبد الله[1] .
الأمير خاير بك والأمير جانم الحمزاوى[2] .
قانى باى المحمدى[3] .
أحمد أغا نائب القلعة [4] .
أحمد بن عبد الله دزدار اغاة طائفة مستحفظان [5] .
عبد الجواد بن سعد الدين[6] .

وهذه الوثائق وغيرها من وثائق العصور الوسطى والعصر العثمانى ، وسجلات المحاكم المختلفة ستكون موضع دراسات تهم المشتغلين بعلوم الوثائق العربية بصفة خاصة ، وغيرهم من الباحثين فى التاريخ الاقتصادى والاجتماعى وتاريخ القانون والآثار بصفة عامة .

* * *

رقم الوثيقة : ٣٩
رقم المحفظة : ٦
نوع الوثيقة : خاصة
موضوع التصرف : وقف
المتصرف : الواقف مسرور بن عبد الله الشبلى الجمدار
ابعاد الوثيقة : ٥ر٣٢١ X ٢ر٣٢ سم

أولا — الدراسة

فى شكل الوثيقة :

هذه الوثيقة أصل وليست صورة ، وهى مكتوبة من كلا الوجهين ، على ستة أوصال من الرقوق المحيطة على حد مصطلح كتاب الوثائق العربية فى العصور الوسطى ، وهامشها الأيسر متآكل قليلا ، ولون الحبر باهت فى نهاية بعض السطور[7] ، وبالرغم من ذلك

(١) وثيقة بيع بتاريخ أول ذى القعدة سنة ٩١٧ هـ رقم ٢٧٦ محفظة ٤٢ .
(٢) وثيقة وقف بتاريخ ٨ محرم سنة ٩٢٧ هـ رقم ٢٩٢ محفظة ٤٤ .
(٣) وثيقة استبدال بتاريخ ٢١ شعبان سنة ٩٢٧ هـ رقم ٢٩٣ محفظة ٤٤ .
(٤) وثيقة بيع بتاريخ ١٤ شعبان سنة ٩٤٦ هـ رقم ٣٠٨ محفظة ٤٦ .
(٥) وثيقة بيع بتاريخ ٢٤ ذى القعدة سنة ٩٤٨ هـ رقم ٣١٠ محفظة ٤٦ .
(٦) وثيقة بيع بتاريخ أول ذى القعدة سنة ٩٦٦ هـ رقم ٣٢٩ محفظة ٤٩ .
(٧) انظر وجه الوثيقة سطر ٦١ — ٦٧ ، لوحة رقم ٤ .

فالوثيقة فى حالة جيدة إذا ما قارنا حالتها بكثير من الوثائق المحفوظة فى أرشيف محكمة الأحوال الشخصية بالقاهرة .

وفى وجه الملف نجد نص وثيقة الوقف بتاريخ ١٤ شوال سنة ٧٦٠[١] وفى ظهره ثلاثة توثيقات شرعية أو إشهادات فى تواريخ مختلفة هى ١٤ ، ١٧ ، ١٨ شوال سنة ٧٦٠ هـ على التوالى [٢] .

وقد ورد على الهامش الأيمن لوجه الوثيقة نصان :

الأول : يثبت جريان المتصرف فيه (الأراضى الموقوفة) فى ملك الواقف وحيازته حين صدور الوقف[٣] ، بشهادة شرعية مقبولة ــ لدى القاضى الموثق الحاكم بصحة التصرف من شاهدين عدلين بتاريخ ١٤ شوال سنة ٧٦٠ هـ .

الثانى : يثبت أن الواقف لا مطعن له فيما شهد به فى هذه الوثيقة (الوقف) ، ولا فيمن شهد فيه ولا فى شىء من ذلك ، بشهادة شرعية مقبولة أيضا لدى القاضى الموثق من شاهدين من الشهود العدول فى نفس التاريخ[٤] .

* * *

وطول الوثيقة كلها ٣٢١٫٥ سم ، ويتراوح طول الدرج من الرق بين ٣٨٫٥ ــ ٦٤٫٤ سم ، وعرضه بين ٣١٫٨ ــ ٣٣٫٣ سم ، وعدد السطور فى وجه الوثيقة ١٠٦ سطر ، والكتابة تغطى مساحة الوجه كله تقريبا فيما عدا الهامش الأيمن الذى تركه الكاتب بياضا .

والوثيقة مكتوبة بحبر أسود بخط ديوانى ، مقروء بسهولة فيما عدا بعض الألفاظ التى أغفل الكاتب بعض حروفها أو ألحقها بغيرها تبعا لطريقته وسرعته فى الكتابة[٥] ، أما النقط والإعجام فقد أهمله الكاتب كثيرا .

---

(١) وجه الوثيقة سطر ٩٧ ، لوحة رقم ٦ .

(٢) ظهر الوثيقة : الاسجال الحكمى سطر ٨ لوحة رقم ٧ ، الاسجال التنفيذى الأول سطر ١٨ لوحة رقم ٧ ، الاسجال التنفيذى الثانى سطر ٨ لوحة رقم ١٠

(٣) هامش وجه الوثيقة فيما بين السطرين ٤٠ ــ ٤٩ ، لوحة رقم ٣ .

(٤) هامش الوثيقة فيما بين السطرين ٥٥ ــ ٦١ لوحة رقم ٤ .

(٥) انظر الأشكال الواردة فى نهاية هذا البحث فى اللوحات رقم ١٢ ــ ١٧ .

ومهما يكن من أمر فقد قمنا بتقويم النص ، ونشره نشرا علميا ، وإخراجه فى صورة صحيحة مستقيمة دون الإخلال بأصله ، ودون ما تعديل أو تغيير فى شكله .

جدول لبيان طول كل درج من دروج الوثيقة وعرضه بالسنتيمتر وعدد سطوره

رقم الدرج	طول الدرج	متوسط عرض الدرج	متوسط عرض الهامش الأيمن	عدد سطور الدرج
١	٤٦ر٢	٣٢ر٤	٨	١٠
٢	٦٠ر٤	٣٣ر١	٨ر١	٢١
٣	٥٨	٣٣ر٢	٧ر٥	٢٠
٤	٥٤	٣٣ر١	٨ر٧	١٨
٥	٦٤ر٤	٣٢ر٥	٧ر٥	٢٢
٦	٣٨ر٥	٣٢	٦ر٩	١٥

فى موضوع الوثيقة :

(١) الوجه :

تبدأ افتتاحية الوثيقة بالبسملة والحمدلة والتصلية[١] أما الموضوع (الوقف) فقد جاء ذكره هكذا « هذا كتاب وقف صحيح شرعى . . . » ، وعلى الهامش الأيمن فى بداية الوثيقة نجد عبارة « ليسجل بثبوته والحكم بصحته »[٢] وهى بخط القاضى الموثق الشيخ الماردينى الحنفى .

أما المتصرف فهو الواقف مسرور بن عبد الله الشبلى الجمدار[٣] ، وقد عرف فى الوثيقة بذكر القابه ووظيفته ، والدعاء له . ثم نجد المتصرف فيه وهو ما حبسه الواقف ، مما هو له وبيده ، وجارى فى ملكه وحوزه وتصرفه ، بدلالة كتاب شرعى (عقد بيع) يشهد له بابتياع ذلك (الموقوف) وهو مؤرخ بيوم الجمعة ١١ شوال سنة ٧٦٠ ﻫ أى قبل صدور الوقف بثلاثة أيام ، والموقوف هو « جميع القطع الأراضى المعروفة بالجور المعدة لضرب

(١) وجه الوثيقة سطر ١ ، لوحة رقم ١ ، شكل ١ .
(٢) وجه الوثيقة بين السطرين ١ – ٥ ، لوحة رقم ١ ، شكل ٢ .
(٣) وجه الوثيقة سطر ٤ ، لوحة رقم ١

الطوب وعدتها ثلاثة عشر جورة ، وهى فيما بين القاهرة ومصر المحروستين بوسط الخليج الحاكمى »[1] وتذكر الوثيقة لنا مساحة كل قطعة منها ، وحدودها الأربعة ، والأماكن المجاورة لها .

وقد تصرف الواقف مسرور بن عبد الله الشبلى الجمدار فيما ذكر بالوقف ـ بجميع حقوق ذلك كله وما يعرف به جميعه وينسب إليه ـ وقفا صحيحا شرعيا لا يباع ولا يوهب ولا يورث ولا يملك ولا يرهن[2] .

كما أشترط الواقف :

أولا : أن يكون التصرف فى الريع على الوجه الآتى :

١ ـ أن يبدأ الناظر والمتولى عليه بعمارته ، ودفع أجرة من يتولى استخراج ريعه وجباية أجوره[3] .

٢ ـ ما فضل بعد ذلك يفرز منه فى كل سنة ألف درهم نقرة تصرف على النحو التالى:

(ا) الحرم المدنى :

١ ـ ٣٠٠ درهم لقارىء مصحف بحرم المدينة المنورة[4] .

٢ ـ ٣٥٠ درهم فى مصالح الحرم النبوى فيما يحتاجه من عمارة وترميم وفرش ووقود وآلة وغير ذلك[5] .

٣ ـ ٣٥٠ درهم للفقراء المجاورين بالمدينة الذكور والاناث السنيين غير الزيدية والروافض على ما يراه الناظر[6] .

(ب) الحـــرم المكى :

فى حالة تعذر الصرف للحرم المدنى فإنها تصرف للحرم المكى على ما شرطه الواقف لحرم المدينة[7] .

---

(١) وجه الوثيقة سطر ٨ ـ ١٠ لوحة رقم ١ .
(٢) وجه الوثيقة سطر ٦٢ ـ ٦٣ لوحة رقم ٤ .
(٣) وجه الوثيقة سطر ٦٤ ـ ٦٥ لوحة رقم ٤ .
(٤) وجه الوثيقة سطر ٦٦ ـ ٦٨ لوحة رقم ٤ .
(٥) وجه الوثيقة سطر ٦٩ ـ ٧٠ لوحة رقم ٤ .
(٦) وجه الوثيقة سطر ٧١ ـ ٧٣ لوحة رقم ٤
(٧) وجه الوثيقة سطر ٧٣ ـ ٧٤ لوحة رقم ٤

(ح) تصرف الفقراء والمساكين المسلمين أينما كانوا وحيثما وجدوا إذا ما تعذر الصرف للحرمين المدنى والمكى[1] .

٣ — باقى الريع يتناوله الواقف لنفسه مدة حياته دون مشارك ولا منازع ، وبعد وفاته يكون ذلك لعتقائه بالسوية بينهم مدة حياتهم ، ومن مات منهم صرف نصيبه فى مصالح الحرمين المكى والمدنى ، وللفقراء المجاورين بهما الذكور والاناث من أهل السنة[2] .

ثانيا : أن يكون النظر لنفسه أيام حياته[3] ، وله أن يوصى بذلك ويسنده ويفوضه لمن يختار ، وله عزله كذلك ، فإن توفى عن غير وصية أو اسناد أو وصى وتعذر ، كان ذلك لكل من الأشخاص المذكورين على التوالى وهم :

١ — الجناب العالى الأميرى السعدى بشير الجمدار[4] .
٢ — المجلس السامى الزينى مقبل الطويل الرومى[5] .
٣ — الطواشى شجاع الدين عنبر الحبشى[6] .
٤ — زمام الآدر الشريفة الكبير[7] .
٥ — حاكم المسلمين الشافعى المذهب[8] .

* * *

ثم نجد بعد ذلك الفقرات الختامية للوثيقة التى تنص على تمام الوقف ولزومه ونفاذه وانبرامه[9] ، والشروط الجزائية لمن يبطله أو يسعى فى إبطاله[10] ؛ ثم فقرات لضمان الفعل القانونى تؤكد أن الواقف قد رفع يد ملكه عما وقفه ، ووضع عليه يد ولايته ونظره ، واعترف بذلك المعرفة الشرعية النافية للجهالة[11] على حد قول الفقهاء المسلمين .

(١) وجه الوثيقة سطر ٧٥ لوحة رقم ٥
(٢) وجه الوثيقة سطر ٧٦ — ٨١ لوحة رقم ٥
(٣) وجه الوثيقة سطر ٨٤ — ٨٥ لوحة رقم ٥
(٤) وجه الوثيقة سطر ٨٧ — ٨٨ لوحة رقم ٥
(٥) وجه الوثيقة سطر ٨٨ لوحة رقم ٥
(٦) وجه الوثيقة سطر ٨٩ لوحة رقم ٥
(٧) وجه الوثيقة سطر ٩٠ لوحة رقم ٥
(٨) وجه الوثيقة سطر ٩١ لوحة رقم ٥
(٩) وجه الوثيقة سطر ٩٣ لوحة رقم ٦
(١٠) وجه الوثيقة سطر ٩٤ — ٩٥ لوحة رقم ٦
(١١) وجه الوثيقة سطر ٩٦ لوحة رقم ٦

ثم نجد تاريخ التصرف وهو يوم الاثنين ١٤ شوال سنة ٧٦٠ هـ ، والدعاء الختامي وهو الحسبلة ، ثم شهادات الشهود الأربعة وتوقيعاتهم ، وتصديق القاضي الموثق على ذلك[١].

(ب) الظهر :

يوجد في ظهر الوثيقة ثلاثة إشهادات أو إسجالات تجيء على الترتيب حسب تواريخها :

١ — الاسجال الحكمي يبدأ بالبسملة وعلامة القاضي الموثق «الحمد لله وبه استعين»[٢] وهو الشيخ جمال الدين أبو محمد عبد الله بن علاء الدين أبو الحسن علي بن فخر الدين أبو عمر عثمان المارديني الحنفي الذي حكم بصحة الوقف ولزومه ونفوذه في يوم الاثنين ١٤ شوال سنة ٧٦٠ هـ[٣] ثم الحسبلة وشهادة الشهود العدول .

٢ — الاسجال التنفيذي الأول : يبدأ بالبسملة وعلامة القاضي الموثق « احمد الله وأسأله التوفيق »[٤] وهو الشيخ عز الدين أبو عمر عبد العزيز بن بدر الدين أبو عبد الله محمد بن أبو اسحق ابراهيم بن زين الدين سعد الله بن جماعة الكناني الشافعي في يوم الخميس ١٧ شوال سنة ٧٦٠ هـ[٥] ثم الحسبلة وشهادة الشهود العدول .

٣ — الاسجال التنفيذي الثاني : يبدأ بالبسملة وعلامة القاضي الموثق « الحمد لله الكافي وحده »[٦] وهو الشيخ تاج الدين أبو عبد الله محمد بن علم الدين أبو عبد الله محمد أبو المناقب أبي بكر السعدي المالكي في يوم الجمعة ١٨ شوال سنة ٧٦٠ هـ[٧] ثم الحسبلة وشهادة الشهود العدول .

* * *

وجدير بالملاحظة أن هذا التصرف (الوقف) قد حكم بصحته ولزومه ، وتنفيذه ، وتنفيذ تنفيذه ، من كل القضاة الموثقين التابعين للمذاهب السنية الثلاثة الحنفي والشافعي والمالكي على التوالي دون قاضي المذهب الحنبلي ، لأن فقهاء الحنابلة بالديار المصرية قليل جداً[٨].

(١) وجه الوثيقة سطر ٩٧ — ١٠٦ لوحة رقم ٦
(٢) ظهر الوثيقة سطر ١ لوحة رقم ٧ شكل رقم ٣٣
(٣) ظهر الوثيقة سطر ٨ لوحة رقم ٧
(٤) ظهر الوثيقة سطر ١ لوحة رقم ٧
(٥) ظهر الوثيقة سطر ١٨ لوحة رقم ٧
(٦) ظهر الوثيقة سطر ١ لوحة رقم ١٠
(٧) ظهر الوثيقة سطر ٨ لوحة رقم ١٠
(٨) السيوطي : حسن المحاضرة ج ١ ص ٢٧٤ ، المقريزي : السلوك (نشر زيادة) ص ٥٠٣ ، عرنوس : تاريخ القضاء ص ١٠٧ .

ثانيا — نص الوثيقة

(أ) الوجه :

يسجل بثبوته والحكم بصحته (٦)

بسم الله الرحمن الرحيم (١) الحمد لله وحده وصلوته + على * سيدنا محمد واله وصحبه وسلامه (٢)

هذا كتاب وقف (٣) صحيح شرعى وحبس صريح دايم مرعى لا ينتسخ حكمه ولا يندرس رسمه ولا

ينقطع ثوابه واجره . ولا يضيع عند الله الكريم جزاوه وبره اكتتبه المجلس العالى الاميرى الاجلى

الكبيرى الاخصى الاعزى الاكملى الزينى زين الدين ثقة الملوك والسلاطين مسرور بن عبد الله الشبلى (٤) الجمدار (٥)

٥ الملكى الناصر ادام الله نعمته وتقبل معروفه وصدقته واشهد على نفسه وهو فى حال صحته وسلامته ورغبته فى × الخير

وارادته (٧) انه وقف وحبس وسبل وابد وحرم وتصدق بما هو له وبيده وملكه وحوزه وتصرفه واحضر بين يده

كتابا شرعيا (٨) يشهد له بابتياع ذلك وهو مورخ بيوم الجمعة الحادى عشر من شوال المبارك سنة ستين وسبعماية

واصل له وخصم كل منهما بفصل بهذا الوقف موافق لتاريخه ولشهوده وهو جميع القطع الاراضى

المعروفة بالجور المعدة لضرب الطوب وعدتها ثلثة ** عشر جورة وهى فيما بين القاهرة ومصر المحروستين بوسط الخليج

١٠ الحاكمى (٩) واول هذه الاراضى المذكورة من زريبة المنشر المعروف بالامير سيف الدين منجك (١٠) بالقرب من

\+ انظر شكل رقم ٣
* انظر شكل رقم ٤
× انظر شكل رقم ٥
** انظر شكل رقم ٦

قنطرة السباع[١١] من الجهة البحرية واخرها مما يلى القنطرة المعروفة بقنطرة السد[١٢]
الاول مما يلى مصر المحروسة .

يقابل المكان المعروف بالعوحه * (؟) الذى به بحرة لطيفة باخر زريبة بستان
المناخ من بر مصر المحروسة

ومصلى × تعرف بالحاجة ستحدق الناصرية[١٣] مما يلى بر منشاة الامان باخر الحكر[١٤]
المعروف بها وذرع كل

واحدة من القطع المذكورة طولا وعرضا فى التكسير خمسة وثلثون + ذراعا
بالعمل[١٥] يفصل ذلك من قبليها الى

١٥ بحريها مما يلى شرقها وغربها سبعة اذرع ومن شرقها الى غربها مما يلى قبليها وبحريها
خمسة اذرع بالعمل

فاحدى القطع المذكورة فيه يحيط بها حدود اربعة[١٦] الحد القبلى ++ ينتهى الى بقية
ارض الخليج الفاصلة

بين ذلك وبين الادر المطلة على الخليج والحد البحرى ينتهى الى بقية ارض الخليج
الفاصل بين ذلك وبين اسطبل

السقايين وما يجاوره والحد الشرقى ينتهى الى القطعة الارض الكشف الفاصل بين ذلك
وبين الجورة

الثانية الاتى ذكرها فيه وسعة ما بينهما ثلثون ذراعا بالعمل والحد الغربى ينتهى الى
بقية ارض الخليج

٢٠ الفاصلة بين ذلك وبين الادر المطلة على الخليج والقطعة الثانية يحيط بها حدود اربعة
الحد القبلى

ينتهى الى ** بقية ارض الخليج مما يلى الحكر السيفى اقبغا[١٧] من جهة بر مصر المحروسة
والحد البحرى ينتهى الى بقية ارض

---

* كذا فى الأصل .

× أنظر شكل رقم ٧ ، واللفظ مكتوب بطريقة تصعب قراءته .

+ أنظر شكل رقم ٨

++ أنظر شكل رقم ٩

** أنظر شكل رقم ١٠

الخليج الفاصلة بين هذه القطعة وبين القطعة الثالثة الاتى ذكرها فيه وسعة ما بينهما
اربعون ذراعا

والحد الغربى ينتهى الى بقية ارض الخليج الفاصلة بينها وبين القطعة الاولى المذكورة
فيه والقطعة

٢٥ الثالثة يحيط بها حدود اربعة الحد القبلى ينتهى الى بقية ارض الخليج الفاصلة بين ذلك
وبين الحكر السيفى

اقبغا والحد البحرى ينتهى الى بقية ارض الفاصلة بين ذلك وبين حكر ست حدق
والحد الشرقى ينتهى

الى* الارض الفاصلة بين ذلك وبين القطعة الرابعة الاتى ذكرها فيه وسعة ما بينهما
اربعون ذراعا والحد الغربى

ينتهى الى بقية ارض الخليج الفاصلة بينهما وبين القطعة الثانية المذكورة فيه والقطعة
الرابعة يحيط بها حدود

اربعة الحد القبلى ينتهى الى بقية الارض الفاصلة بين ذلك وبين الحكر السيفى اقبغا
والبحرى ينتهى الى بقية

٣٠ الارض الفاصلة بين ذلك وبين حكر ست حدق والشرقى ينتهى الى بقية الارض الفاصلة
بينهما وبين القطعة الخامسة

الاتى ذكرها فيه وسعة ما بينهما ثلثون ذراعا والحد الغربى ينتهى الى الارض الفاصلة
بين ذلك

وبين القطعة الثالثة المذكورة والقطعة الخامسة يحيط بها حدود اربعة [الحد]+ القبلى
[ينتهى]+ الى بقية الارض

الفاصلة بين ذلك وبين الحكر السيفى اقبغا والبحرى الى بقية الارض الفاصلة بين ذلك
وبين حكر ست حدق

---

* انظر شكل رقم ١١
+ مابين الحاصرتين اضافه الناشر .

والشرق الى الارض الفاصلة بينهما وبين القطعة السادسة الاتى ذكرها فيه والغربى الى الارض الفاصلة

٣٥ بين ذلك وبين القطعة الرابعة المذكورة فيه وسعة ما بين هذه الارض وبين السادسة الاتى ذكرها عشرون

ذراعا بالعمل والقطعة السادسة يحيط بها حدود اربعة الحد القبلى ينتهى الى بقية الارض الفاصلة

بين ذلك وبين الحكر السيفى اقبغا والحد البحرى ينتهى الى الارض الفاصلة بين ذلك وبين حكر ست حدق

والشرق الى الارض الفاصلة بين ذلك وبين القطعة السابعة الآتى ذكرها فيه وسعة ما بينهما خمسة وعشرون

ذراعا والغربى الى الارض الفاصلة بين ذلك وبين القطعة الخامسة المذكورة والقطعة السابقة

٤٠ + حدها القبلى الى الارض الفاصلة بين ذلك وبين الحكر السيفى اقبغا والبحرى الى الارض الفاصلة بين ذلك

+ ورد على الهامش الأيمن بين السطرين ٤٠ – ٤٩ النص التالى :
« الحمد لله شهوده الواضعون خطوطهم اخره يشهدون ان المجلس العالى الزينى مسرور الجمدار الملكى الناصرى اعزه الله تعالى وهو الواقف المسمى فيه مالك حايز لما وقفه فيه حين الوقف المشروح فيه يعلمون ذلك ويشهدون به وكتب بتاريخ الرابع عشر من شوال سنة ستين وسبعماية

اشهد بذلك — اشهد بذلك
كتبه على بن احمد المالكى — كتبه محمد بن عيسى القطورى

شهدا عندى بذلك

أنظر الأشكال رقم ٢٨ ، ٢٩ ، ٣٠ حيث تجد توقيع الشاهدين وتأشيرة القاضى الموثق

وبين حكر ست حدق والشرق الى الارض الثامنة الاتى ذكرها فيه وسعة ما بينهما ثلثون
ذراعا والغربى

الى الارض الفاصلة بين ذلك وبين القطعة السابعة المذكورة والقطعة الثامنة حدها القبلى

الى الارض الفاصلة بين ذلك وبين الحكر السيفى اقبغا والبحرى الى الارض الفاصلة بين
ذلك وبين حكر ست حدق*

والشرقى الى الارض الفاصلة بين ذلك وبين الارض التاسعة الاتى ذكرها فيه وسعة
ما بينهما عشرون

٤٥ ذراعا بالعمل والغربى الى الارض الفاصلة بينها وبين القطعة السابعة المذكورة فية
والقطعة

التاسعة حدها القبلى الى الارض الفاصلة بين ذلك وبين الحكر السيفى اقبغا
والبحرى الى الارض

الفاصلة بين ذلك وبين حكر ست حدق والشرقى× الى الارض الفاصلة بينها وبين القطعة
العاشرة الاتى

ذكرها فيه وسعة ما بينهما خمسون ذراعا والغربى الى الارض الفاصلة بين ذلك وبين
القطعة الثامنة

المذكورة فيه والقطعة العاشرة حدها القبلى ينتهى الى الارض الفاصلة بين ذلك

٥٠ وبين الحكر السيفى اقبغا والبحرى الى الارض الفاصلة بين ذلك وبين حكر ست حدق
والشرقى

الى الارض الفاصلة بين ذلك وبين القطعة الحادية عشر وسعة ما بينهما ثلثون ذراعا والغربى

الى الارض الفاصلة بين ذلك وبين الارض التاسعة المذكورة والقطعة الحادية عشر حدها

---

* أنظر شكل رقم ١٢

× أنظر شكل رقم ١٣

القبلى الى الارض الفاصلة بين ذلك وبين الحكر السيفى اقبغا والبحرى الى الارض الفاصلة بين ذلك

وبين حكر ست حدق والشرقى الى الارض الفاصلة بين ذلك وبين القطعة الثانية عشر الاتى ذكرها فيه

٥٥ +والغربى الى الارض الفاصلة بين ذلك وبين القطعة العاشرة المذكورة والقطعة الثانية عشر

حدها القبلى (ينتهى)* الى بقية الارض مما يلى حكر بن البابا[١٨] والبحرى الى (بقية)* الارض الفاصلة بين ذلك

وبين حكر ست حدق والشرقى الى الطريق المتوصل منها الى حكر ست حدق وسعة ما بين هذه الارض

وبين القطعة الاتى ذكرها عشرون ذراعا والغربى الى الارض الفاصلة بين ذلك وبين القطعة الحادية عشر

والقطعة الثالثة عشر حدها القبلى الى بقية ارض مما يلى حكر بن البابا والبحرى الى الارض

٦٠ الفاصلة بين ذلك وبين حكر ست حق والشرقى الى بقية ارض الخليج التى مساحتها ثلثون ذراعا والغربى

+ ورد على الهامش الأيمن بين السطرين ٥٥ ــ ٦١ النص التالى :
« اشهد عليه المجلس العالى الزينى مسرور الواقف المسمى فيه اعزه تعالى انه لا مطعن له
فيما شهد به فى هذا المكتوب ولا فيمن شهد فيه ولا فى شى من ذلك بتاريخ الرابع عشر من شوال سنة ستين وسبعمية
شهد بذلك   شهد بذلك
كتب .... (؟) شهدا عندى بذلك ابراهيم بن .. الشافعى
أنظر أشكال بعض الألفاظ الواردة فى السطر الثانى من هذا النص شكل ٢٥ ، ٢٦ ، ٢٧

* ما بين الحاصرتين الفاظ سقطت من الكاتب وأضافها بعد ذلك بين سطور المتن .

الى الارض الفاصلة بين ذلك وبين الارض الثانية عشر (المذكورة فيه) بجميع × حقوق
ذلك كله وما يعرف بذلك (جميعه) وينسب اليه

وقفا صحيحا شرعيا وحبسا صريحا مرعيا لا يباع اصل ذلك ولا يوهب ولا يورث
ولا يملك

ولا يرهن ولا يناقل به ولا يحل عقد من عقوده قايما على اصوله محفوظا على شروطه مسبلا
على سبلة التى تذكر فيه

الى ان يرث الله الارض ومن عليها وهو خير الوارثين على ان * الناظر (١٩) فى ذلك والمتولى
عليه يبدا من ريع ذلك بعمارته (٢٠)

٦٥ وباجرة ** من يتولى استخراج ريعة وجباية اجوره (٢١) وما فضل بعد ذلك افرز منه
[فى كل سنة] + الف درهم واحد نقرة (٢٢) فيصرف من

ذلك لقارى يقرا فى مصحف شريف بحرم مدينة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى
كل يوم جزوا ++ من القران العظيم

من تجزية ثلثين جزأ +× ثم يقرا سورة الاخلاص والمعوذتين ويصلى على سيدنا رسول
الله صلى الله عليه وسلم ويدعو

عقب ذلك للواقف المذكور ولجميع المسلمين ثلثماية درهم نقرة ×× وباقى المبلغ المذكور
وهو سبع ماية درهم نقرة يقسم

× هذا اللفظ مكتوب على كشط .
* أنظر شكل رقم ١٤
** هذا اللفظ كتب بطريقة سريعة وتصعب قراءته ــ أنظر شكل ١٥
+ ما بين الحاصرتين ألفاظ سقطت من كاتب الوثيقة وأضافها بعد ذلك بين سطور النص .
++ انظر شكل ١٦
+× أنظر شكل ١٧
×× انظر شكل ١٨

نصفين فالنصف منه وهو ثلثماية درهم وخمسون درهما نقرة يصرف فى مصالح الحرم الشريف النبوى (٢٣) على الحال به

٧٠ افضل الصلاة والسلم* على مايراه الناظر من عمارة بالمسجد الشريف** وترميم وفرش ووقود والة وغير ذلك***

من مصالح الحرم المشار اليه والنصف الثانى وهو ثلثماية درهم وخمسون درهما نقرة يصرف الى الفقرا المجاورين

بحرم مدينة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم الذكور والاناث السنيين غير الزيدية والروافض(٢٤) يصرف ذلك

اليهم على ما يراه من زيادة ونقصان واعطا وحرمان ومتى تعذر صرف الالف درهم المذكورة اعلاه فى

الحرم النبوى صرف ذلك فى الحرم المكى على الوجه المذكور اعلاه فان عاد امكان الصرف الى ذلك عاد الصرف اليه

٧٥ فان تعذر الصرف والعياذ بالله تعالى فيهما صرف الى الفقرا والمساكين× المسلمين ايما كانوا وحيثما وجدوا فان عاد

امكان الصرف الى ما تعذر عاد الصرف اليه وباقى الريع المذكور يتناوله الواقف(٢٥) المذكور اعزه الله تعالى لنفسه مدة حياته

ابدا ماعاش ودايما مابقى لا يشاركه فى ذلك مشارك ولا ينازعه فيه منازع ولا يناول عليه

عليه×× فيه مناول ثم من بعد وفاته يصرف ما كان يتناوله من ذلك الى عتقايه الموجودين حين+ ذلك بالسوية بينهم مدة

---

* أنظر شكل ١٩

** هذا اللفظ مكتوب على كشط .

*** أنظر شكل ٢٠

× أنظر شكل ٢١

×× هذا اللفظ مكرر – أنظر السطر رقم ٧٧

+ أنظر شكل ٢٢

حياتهم ومن مات منهم صرف ما كان مختصابه من ذلك فى مصالح الحرمين الشريفين حرم مكة وحرم المدينة شر[فهما]×

٨٠ الله تعالى والى الفقرا المجاورين بهما الذكور والاناث السنيين غير الزيدية والروافض بالسوية على ما يراه الناظر فى

ذلك ويودى + اليه اجتهاده ومتى تعذر صرف شى من الفاضل المذكور فى احد الحرمين صرف فى الحرم الاخر فان تعذ[ر]×

صرف ذلك جميعه فى الحرمين المذكورين والعياذ بالله تعالى صرف الى الفقرا والمساكين المسلمين اينما كانوا وحيثما وجد[وا]×

فان عاد امكان الصرف الى شى مما تعذر عاد الصرف اليه يجرى* الحال فى ذلك كذلك وجودا وتعذرا الى ان

يرث الله الارض ومن عليها وهو خير الوارثين وشرط الواقف المذكور النظر فى هذا الوقف

٨٥ والولاية عليه لنفسه (٢٦) ايام حياته وله ان يوصى بذلك ويفوضه ويسنده ويوصى به لمن يختار وله عزل من يفوضه

ويسنده ويوصى به اليه فان توفى عن غير وصية ولا اسناد او وصى وتعذر نظر الموصى اليه او المسند

او المفوض اليه كان النظر فى ذلك للجناب العالى الاميرى الكبيرى العضدى الذخرى السعدى بشير الجمدار (٢٧)

الملكى الناصرى اعزه الله تعالى فان تعذر كان النظر فى ذلك للمجلس السامى الزينى مقبل الطويل الرومى (٢٨)

× ما بين الحاصرتين حروف متآكلة وغير واضحة فى الأصل .
+ أنظر شكل ٢٣
* أنظر شكل ٢٤

العلايى فان تعذر كان النظر فى ذلك للطواشى شجاع الدين عنبر (٢٩) المعروف بالسسى*
الحبشى فان تعذر كان النظ[ر] ×

٩٠ فى ذلك لزمام (٣٠) الادر الشريفة الكبير منهم يتولى ذلك زماما بعد زمام فان تعذر كان
النظر فى ذلك

لحاكم المسلمين (٣١) الشافعى المذهب بالقاهرة المحروسة ومتى عاد امكان النظر الى من
تعذر نظره

عاد النظر اليه يجرى الحال فى ذلك كذلك الى ان يرث الله الارض ومن عليها وهو
خير الوارثين

فقد تم هذا الوقف ولزم نفذ حكمه وانبرم (٣٢) فلا يحل لاحد يومن بالله العظيم ويعلم
انه صاير الى

ربه الكريم ان يبطل هذا الوقف ولا شى منه ولا يسعى فى ابطاله ولا فى ابطال شى
منه فمن فعل ذلك او اعان

٩٥ عليه فالله تعالى طليبه وحسيبه ومواخذه بفعله ومجازيه بعمله يوم لا ينفع الظالمين
معذرتهم ولهم اللعنة

ولهم سو الدار (٣٣) ورفع الواقف المذكور عن ذلك يد ملكه ووضع عليه يد ولايته
ونظره واعترف انه عارف بذلك

المعرفة الشرعية النافية للجهالة (٣٤) وبه شهد فى اليوم المبارك يوم الاثنين الرابع عشر من
شوال سنة ستين وسبع مايه (٣٥)

فيه مصلح الشرقى ومصلح الثانية فى موضعين ومصلح بينها فى ثلاث مواضع ومصلح بجميع
حقوق ولحق ينتهى وبقيه والمذكور فيه

وجميعه وفى كل سنة ومصلح ويدعوا عقب كل ذلك صحيح معتد به فى مواضعه (٣٦)
حسبنا الله ونعم الوكيل (٣٧)

---

* كذا بالأصل .

× مابين الحاصرتين غير ظاهر فى الأصل .

١٠٠ اشهد[٣٨] على المجلس العالى الزينى
مسرور الجمدار الملكى الناصرى
الواقف المسمى اعلاه. تقبل الله
منه بجميع ما نسب اليه اعلاه فى
تاريخه المذكور اعلاه وكتب
١٠٥ محمد بن احمد بن الحسن الكركى[٣٩]

اشهد على المجلس العالى الزينى
مسرور الجمدار الملكى الناصرى
الواقف المسمى اعلاه تقبل الله منه
بجميع ما نسب اليه اعلاه فى تاريخه
المذكور اعلاه وكتب
محمد بن محمد بن الحسن الكركي[٤٠]

اشهد على الجناب العالى الزينى
مسرور الجمدار الملكى الناصرى
الواقف تقبل الله منه بجميع
بما نسب اليه اعلاه فى تاريخه
المعين اعلاه وكتب
عبد اللطيف بن محمد بن عبد الباقى[٤١]

اشهد على المجلس العالى الزينى مسرور
الجمدار الملكى الناصرى الواقف
المسمى اعلاه تقبل الله منه بجميع ما
نسب اليه اعلاه فى تاريخه المعين اعلاه
وكتب محمد بن احمد بن الفرات[٤٢]
شهد عندى بذلك

شهد الثلاثة عندى بذلك[٤٣]

ب ــ الظهر

١ ــ الأسجال الحكمي :

لسجال ثبوته وتنفيذه (٤٥)

بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله و به أستعين[٤٤]

هذا ما اشهد به على نفسه الكريمة سيدنا ومولانا العبد الفقير الى الله تعالى
جمال الدين+ قاضى المسلمين ابو محمد عبد الله ابن سيدنا ومولانا العبد الفقير الى الله تعالى
علا الدين قاضى المسلمين ابى الحسن على ابن سيدنا العبد الفقير الى الله تعالى
٥ اقضى القضاة فخر الدين شرف العلما اوحد الفضلا مفتى المسلمين ابى عمرو عثمان
الماردينى الحنفى[٤٦] الناظر فى الحكم العزيز[٤٧] بالديار المصرية اعز الله احكامه واحسن اليه
من حضر مجلس حكمه[٤٨] وقضايه وهو نافذ القضا والحكم ماضيهما وذلك
فى اليوم المبارك يوم الاثنين الرابع عشر من شوال[٤٩] سنة ستين وسبع مايه
انه ثبت[٥٠] عنده وصح لديه احسن الله اليه بمحضر من متكلم جايز كلامه
١٠ مسموعة دعواه على الوضع × المعتبر الشرعى[٥١] بشهادة من اعلم[٥٢] تلو رسم شهادته
آخر كتاب
الوقف المسطر باطنه[٥٣] علامة الادا والقبول على الرسم المعهود فى مثله
اشهاد المجلس العالى الزينى مسرور الجمدار الملكى الناصرى الواقف
المسمى باطنه اعزه الله تعالى على نفسه بما نسب اليه فى كتاب الوقف المسطر
باطنه على ما نص وشرح[٥٤] باطنه وباطنه مورخ بتاريخ هذا الاسجال
١٥ وثبت ايضا عنده اعز الله احكامه وادام* ايامه بشهادة من اعلم تلو رسم
شهادته اخر فصل الملك والحيازة[٥٥] المسطر بحاشية باطنه علامة الادا والقبول
ان° المجلس العالى الزينى مسرور الجمدار الملكى الناصرى الواقف المسمى باطنه
مالك حايز لما وقفه فى باطنه حين الوقف المشروح باطنه وهو مورخ
بتاريخ هذا الاسجال ايضا وثبت ايضا عنده اسبغ الله نعمه

+ انظر شكل ٣٤
× انظر شكل ٣٦
* انظر شكل ٣٧
° انظر شكل ٣٨

٢٠ عليه واحسن اليه بشهادة من اعلم تلو رسم شهادته اخر فصل الاعذار(٥٦)
المسطر بحاشية باطنه علامه الادا والقبول اشهاد المجلس
العالى الزينى مسرور الواقف المسمى باطنه اعزه الله تعالى على نفسه بعدم الدا[فع]
لذلك ثبوتا شرعيا(٥٧) معتبرا مرضيا وحكم(٥٨) اعز الله احكامه
واحسن اليه بصحة(٥٩) الوقف المذكور ولزومه(٦٠) ونفوذه حكما شرعيا معتبرا مرضيا
٢٥ اجازه وامضاه وقضى به والزم بمقتضاه مسيولا فى ذلك مستوفيا[لـ]
شرايطه الشرعية(٦١) وذلك مع علمه اعز الله احكامه واحسن اليه باختلاف العلما(٦٢)
رضى الله عنهم فى صحة وقف الانسان على نفسه واشتراطه النظر لنفسه
فى وقفه لجواز+ ذلك عنده على مقتضى رايه ومعتقده واشهد على نفسه
الكريمة حرسها الله تعالى بذلك فى التاريخ * المقدم ذكره اعلاه المكتوب
٣٠ بخطه الكريم(٦٣) اعلاه شرفه الله تعالى واعلاة وابقى . . . . . . (؟)×
احكامه . . . . . (؟)× حجة معتبرة على حجته . . . . . (؟)×

حسبنا الله ونعم الوكيل(٦٤) اشهدنى(٦٥) سيدنا

ومولانا العبد الفقير الى الله تعالى جمال الدين قاضى المسلمين الحاكم المسمى اعلاه
اعز الله احكامه واحسن اليه على نفسه الكريمه بما نسب اليه فى اسجاله++ المسطر
باعاليه فشهدت عليه بذلك فى تاريخه وكتب(٦٦)
٣٥ محمد بن احمد بن الحسن الكركى
شهد عندى بذلك(٦٧)
وبذلك اشهدنى أدام الله ايامه فشهدت عليه به فى تاريخه وكتب
عبد اللطيف بن محمد بن عبد الباقى
شهد عندى بذلك
٤٠ وبذلك اشهدنى ادام الله ايامه فشهدت عليه فى تاريخه وكتب
| محمد بن يوسف القيراطى |

وبذلك اشهدنى ادام الله ايامه واعز احكامه فشهدت عليه به فى تاريخه وكتب عبد الخالق بن على بن الفرات(٦٨)

+ أنظر شكل ٣٩
* أنظر شكل ٤٠
× هذه ألفاظ صعبة القراءة تماما ، وقد آثرت أن أترك مكانها بياضا .
++ أنظر شكل ٤١

وبذلك اشهدنى ادام الله ايامه فشهدت عليه فى تاريخه وكتب

محمد بن احمد الحسنى

وبذلك اشهدنى ادام الله ايامه فشهدت عليه فى تاريخه وكتب

٤٥ احمد بن عيسى بن احمد

وبذلك اشهدنى ادام الله ايامه فشهدت عليه به وكتب محمد بن محمد بن محمد بن مسعود

وبذلك اشهدنى اعز الله احكامه فشهدت عليه به وكتب

محمد بن احمد بن الفرات

٢ ــ الأسجال التنفيذى الأول :

أحمد الله وأسأله التوفيق*

ليسجل بثبوته وتنفيذه (٦٩)

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا ما اشهد به على نفسه الكريمة

سيدنا ومولانا العبد الفقير الى الله تعالى

عز الدين قاضى المسلمين ابو عمر عبد العزيز ابن

٥ سيدنا ومولانا العبد الفقير الى الله تعالى

بدر الدين قاضى المسلمين ابى عبد الله

محمد بن سيدنا الشيخ الامام العالم

العامل العلامة برهان الدين شيخ الاسلام

والمسلمين ابى اسحق ابرهيم بن سيدنا الشيخ

١٠ الامام العالم العامل القدوة زين الدين

* انظر شكل ٤٣

شيخ الاسلام بركة المسلمين قدوة العارفين
ابى الفضل سعد الدين بن جماعه
الكنانى الشافعى(٧٠) الناظر فى الحكم
العزيز بالديار المصرية اعز الله احكامه
١٥ واحسن اليه من حضر مجلس حكمه
وقضايه وهو نافذ القضا والحكم
ماضيهما وذلك فى اليوم المبارك
يوم الخميس السابع عشر من شوال+
سنه ستين وسبع مايه انه ثبت
٢٠ عنده وصح لديه احسن الله اليه بمحضر
من متكلم جايز كلامه مسموعه دعواه
على الوضع المعتبر الشرعى بشهادة
من اعلم تلو رسم شهادته اخر الاسجال
المسطر يسرته(٧١) علامة الادا والقبول
٢٥ على الرسم المعهود فى مثله اشهاد الحاكم
المسمى فى الاسجال المذكور سيدنا ومولانا
العبد الفقير الى الله تعالى جمال الدين قاضى
المسلمين ابى محمد عبد الله بن سيدنا ومولانا
العبد الفقير الى الله تعالى علا الدين قاضى
٣٠ المسلمين ابى الحسن على بن سيدنا العبد
الفقير الى الله تعالى اقضى القضاة فخر الدين
شرف العلماء اوحد الفضلا مفتى المسلمين
ابى عمرو عثمان الماردينى الحنفى الناظر
فى الحكم العزيز بالديار المصرية اعز الله احكامه
٣٥ واحسن اليه على نفسه الكريمة بما نسب اليه فى

+ انظر شكل ٤٤

اسجاله المشار اليه على ما نص وشرح فيه
وهو مورخ بيوم الاثنين الرابع عشر من شوال سنة ستين وسبعميه
ثبوتا صحيحا شرعيا معتبرا مرضيا ونفذ (٧٢)
سيدنا ومولانا عز الدين قاضى المسلمين الحاكم المشار
٤٠ اليه اعز الله احكامه واحسن اليه حكم سيدنا
ومولانا جمال الدين قاضى المسلمين الحاكم المشار اليه
المنسوب اليه فى اسجاله المذكور تنفيذا شرعيا
معتبرا مرضيا اجازه وامضاه والزم بمقتضاه واشهد على نفسه الكريمة حرسها الله تعالى
بذلك بعد استيفا الشرايط
الشرعية بسوال من جاز سواله شرعا فى التاريخ المقدم ذكره اعلاه المكتوب بخطه
الكريم شرفه الله تعالى
٤٥ حسبنا الله ونعم الوكيل + اشهدنى سيدنا ومولانا العبد الفقير الى الله تعالى
عز الدين قاضى المسلمين الحاكم المسمى اعلاه اعز الله احكامه واحسن اليه على نفسه
الكريمة بما نسب اليه فى اسجاله المسطر
باعاليه فشهدت عليه بذلك فى تاريخه وكتب
محمد بن احمد بن الحسن الكركي
شهدى عندى بذلك
٥٠ وبذلك اشهدنى اعز الله احكامه بما نسب اليه فى اسجاله اعلاه فشهدت عليه به فى
تاريخه وكتب
محمد بن . . . . (؟)
وبذلك اشهدنى اعز الله احكامه وادام ايامه فشهدت عليه به فى تاريخه وكتب
احمد بن محمد . . . . . . (؟)
وبذلك اشهدنى ادام الله ايامه فشهدت عليه به فى تاريخه وكتب
٥٥ عبد اللطيف بن محمد بن عبد الباقى
شهد عندى بذلك

+ انظر شكل ٤٥

٣ ـ الاسجال التنفيذي الثاني :

بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله الكافي وحده +

هذا ما اشهد به على نفسه الكريمة سيدنا ومولانا العبد الفقير الى الله تعالى تاج الدين
قاضي المسلمين ابو عبد الله محمد بن سيدنا ومولانا العبد الفقير الله تعالى علم الدين
قاضي المسلمين ابي عبد الله محمد ابن سيدنا العبد الفقير الى تعالى اقضى القضاة
٥ شمس الدين شرف العلماء اوحد الفضلا مفتى المسلمين ابى المناقب ابي بكر السعدى
المالكي (٧٣)
الناظر فى الحكم العزيز بالديار المصرية اعز الله احكامه واحسن اليه من حضر مجلس
حكمه وقضايه وهو نافذ القضا والحكم ماضيهما وذلك فى اليوم المبارك
الثامن عشر من شوال سنة ستين وسبع مايه
انه ثبت عنده وصح لديه احسن الله اليه بمحضر من متكلم جايز كلامه
١٠ مسموعة دعواه على الوضع المعتبر الشرعي بشهادة من اعلم تلو رسم شهادته اخر الاسجال
المسطر اعلاه (٧٤) علامة الاداء والقبول على الرسم المعهود فى مثله اشهاد
الحاكم المسمى فى ++ الاسجال المذكور سيدنا ومولانا العبد الفقير الى الله تعالى
عز الدين* قاضي
المسلمين ابي عمر عبد العزيز بن سيدنا ومولانا العبد الفقير الى الله تعالى بدر الدين
قاضي المسلمين
ابي عبد الله محمد بن سيدنا الشيخ الامام العالم العامل العلامة برهان الدين شيخ الاسلام
١٥ والمسلمين ابي اسحق ابرهيم × ابن سيدنا الشيخ الامام العالم العامل القدوة زين الدين
شيخ الاسلام بركة المسلمين قدوة العارفين ابي الفضل سعد الله بن جماعة
الكناني الشافعي الناظر فى الحكم العزيز بالديار المصرية اعز الله احكامه وادام ايامه
على نفسه الكريمة بما نسب اليه فى اسجاله المشار اليه على ما نص وشرح فيه وهو
مورخ بيوم

+ أنظر شكل ٤٦
++ أنظر شكل ٤٧
* أنظر شكل ٤٨
× أنظر شكل ٤٩

الخميس السابع عشر من شوال سنه ستين وسبع مايه ثبوتا صحيحا شرعيا معتبرا مرضيا
٢٠ ونفذ اعز الله* احكامه تنفيذه المشروح فى اسجاله المذكور تنفيذا
شرعيا اجازه وامضاه والزم بمقتضاه وذلك بعد الاعذار الى الخصم
المدعى اليه واعترافه لديه اعز الله احكامه واحسن اليه بمجلس الحكم العزيز بعدم الدافع
لذلك واشهد على نفسه الكريمة حرسها الله تعالى بذلك بعد استيفا الشرايط
الشرعية بسوال+ من جاز سواله شرعا فى التاريخ المقدم ذكره اعلاه المكتوب
٢٥ بخطه الكريم شرفه الله تعالى حسبنا الله ونعم الوكيل اشهدنى
سيدنا ومولانا العبد الفقير الى الله تعالى تاج الدين قاضى المسلمين الحاكم المسمى اعلاه
اعز الله تعالى× احكامه واحسن اليه على نفسه الكريمة بما نسب اليه فى اسجاله
المسطر اعلاه
فشهدت عليه بذلك فى تاريخه وكتب
محمد بن احمد بن الحسن الكركي
٣٠ وبذلك اشهدنى اعز الله احكامه واحسن اليه فشهدت عليه به فى تاريخه وكتب
محمد بن احمد بن الفرات
وبذلك اشهدنى أعز الله احكامه فشهدت عليه به فى تاريخه وكتب
عبد اللطيف بن محمد بن عبد الباقى

---

* أنظر شكل ٥٠
+ أنظر شكل ٥١
× أنظر شكل ٥٢

ثالثا — التحقيقات العلميـة

١ ، ٢ — عن البسملة والحمدلة فى افتتاحية الوثائق العربية فى العصور الوسطى . انظر القلقشندى: صبح الأعشى حـ ٣ ص١٣٦ — ١٣٧ ، حـ ٦ ص٢١٩ — ٢٢٤ ، ٢٢٧ —٢٢٩، حـ ١٤ ص ٣٤٩

دائرة المعارف الاسلامية مادة « البسملة » ، « الحمدلة »

عبد اللطيف ابراهيم : بسملة (مجلة المكتبة العربية مجلد ١ عدد ١ يونيو ١٩٦٣) ص ٨٥ — ٩٢ ، بحثنا هذا شكل ١

٣ — عبد اللطيف ابراهيم : دراسات تاريخية وأثرية فى وثائق من عهد الغورى (رسالة دكتوراه — تحت الطبع) حيث تجد دراسة وافية للوقف الاسلامى وخاصة فى عصر المماليك .

٤ — هو مسرور بن عبد الله الحبشى المعروف بالشبلى شيخ الخدام بالمدينة النبوية ، مات معزولا لعجزه فى سنة ٨٠٦ هـ . السخاوى : الضوء اللامع حـ ١٠ ص ١٥٦ رقم ٦٢٤

العسقلانى : أبناء الغمر بابناء العمر (مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٢٤٧٦ تاريخ) حـ ١ ص٦٥٦

٥ — الجمدار هو الموظف الذى يتولى الباس السلطان أو الأمير ثيابه .

القلقشندى : صبح الأعشى حـ ٥ ص ٤٥٩ ، المقريزى : السلوك (نشر زيادة) حـ ١ ص ١٣٣ ، ٣٧١ ، محمد مصطفى : الرنوك فى عصر المماليك (مجلة الرسالة مارس ١٩٤١)

زكى محمد حسن : فنون الاسلام ص٣٢٦ Mayer : Saracenic heraldry PP. 14-15

٦ — هذه العبارة بخط القاضى الموثق الماردينى الحنفى — انظر شكل ٢ ، وهى تدل على الأمر بتسجيل الوثيقة بعد أن حكم بثبوت التصرف وصحته ولزومه فى الاشهاد التوثيقى الاول أو الاسجال الحكمى .

عبد اللطيف ابراهيم : وثيقة بيع (مجلة كلية الآداب بجامعة القاهرة م ١٩ حـ ٢ ديسمبر سنة ١٩٥٧) ص ١٥٦ — ١٦١ تحقيق رقم ٢ وما به من مصادر .

٧ — صيغة قانونية اصطلح عليها كتاب الوثائق فى العصور الوسطى للدلالة على صحة التصرف .

أبو زهرة : مشكلة الأوقاف (مجلة القانون والاقتصاد السنة الخامسة عدد ٧) ص ٧٩٢ ـ ٧٩٧

زيد : مباحث الوقف ص ١٧ ـ ١٨

وقد وردت هذه الصيغة تقريبا فى كثير من وثائق وقف المماليك البحرية والبرجية .

٨ — يقصد بذلك أن الواقف يملك الشىء المتصرف فيه (الموقوف) ، وأنه جار بيده وفى ملكه وله حق التصرف فيه بالوقف ، بدلالة كتاب شرعى (مستنده) وهو عقد بيع مؤرخ فى يوم الجمعة ١١ شوال سنة ٧٦٠ هـ ، وقد ثبت ذلك كذلك بشهادة الشاهدين الواردة على الهامش الأيمن لوجه الوثيقة بين السطر ٤٠ ـ ٤٩

وتصرف الواقف الشيخ مسرور بن عبد الله الشبلى الحبشى صحيح شرعا ، لأنه تصرف بالوقف فيما يملك . ومن المعروف أن العقد أحد أسباب الملك التام ، كما أن هذا المستند (عقد البيع) دليل خطى ثابت ـ أخذ به الموثق بعد أن تحقق من صحته . ويظهر أن الواقف كان عليه أن يقدم المستندات (الوثائق) التى تثبت ملكيته لما يتصرف فيه . انظر :

عبد اللطيف ابراهيم : وثيقة بيع ص ١٧٧ ـ ١٧٨ وما بها من مصادر ، التوثيقات الشرعية (مجلة كلية الآداب م ١٩ عدد ١ مايو ١٩٥٧) ص ٣٨٦ ـ ٣٩١ وما بها من مصادر .

٩ — هو نفسه خليج مصر الذى ذكره المقريزى فى كتابه الخطط حـ ٢ ص ١٣٩ـ١٤٤، وقال إن العامة تسميه بالخليج الحاكمى وتزعم أن الحاكم بأمر الله الفاطمى احتفره وليس هذا بصحيح ، فقد كان هذا الخليج قبل الحاكم بمدد متطاولة .

وقد ذكره ابن تغرى بردى فى كتابه النجوم الزاهرة حـ ٤ ص ٤٣ باسم خليج القاهرة.

١٠ — هو الأمير الكبير سيف الدين منجك بن عبد الله اليوسفى الناصرى ، أتابك العساكر المنصورة ونائب السلطنة الشريفة بالديار المصرية ، من أشهر أمراء عصر أسرة قلاوون ، وكان يتردد إلى الشام فى المهمات الكبرى ، وقد تولى حجوبية دمشق فى رجب سنة ٧٤٨ هـ ، ثم صار وزيراً واستادارا فى شوال من نفس العام ، وكان ذا مهابة وسطوة ، تمكن من الدولة وأصبح له الأمر والنهى فى كثير من أمورها ووقائعها . سجن بالاسكندرية سنة ٧٥٢ هـ ثم أفرج عنه ، وسار إلى صفد بطالا فى ربيع الآخر سنة ٧٥٥ هـ ، ثم استقر فى نيابة طرابلس ، كما ولى حلب فى سنة ٧٥٩ هـ . وقد توفى بداره قرب مدرسة السلطان

حسن بالقاهرة عن بضع وستين سنة فى ٢٩ ذى الحجة سنة ٧٧٦ هـ ، ودفن بتربته المجاورة لجامعه تحت القلعة خارج باب الوزير .

العسقلانى : الدرر الكامنة حـ ٤ ص ٣٦٠ رقم٩٨٥ ، إنباء الغمر (مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٢٤٧٦ تاريخ) حـ ١ ص ٧٠ ، المقريزى : الخطط حـ ٢ ص ٣٢٠ ـ ٣٢٤ ، ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة حـ ١٠ ص ٢١٧ ، ٢٦٣ حاشية ٢ ، حـ ١١ ص١٣٣ـ١٣٤ حاشية ٤ ، ٥ ، المنهل الصافى والمستوفى بعد الوافى (مخطوط بدار الكتب رقم ١١١٣ تاريخ) حـ ٣ ص ٣٦٤ ـ ٣٦٦

١١ ـــ قناطر السباع أنشأها الملك الظاهر بيبرس البندقدارى ، ونصب عليها سباعا من الحجارة لأن رنكه كان على شكل سبع . المقريزى : الخطط حـ ٢ ص ١٤٦ ـ ١٤٧ ، السلوك حـ ١ ص ٦٣٩ . ويقول المرحوم محمد رمزى إنه شاهدها ، وكانت تعرف باسم قنطرة السيدة زينب ، وفى سنة ١٨٩٨ م تم ردم الجزء الأوسط من الخليج ، وبردمه اختفت هذه القنطرة . ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة حـ ٧ ص ١٩١ حاشية ٥

١٢ ـــ هى القنطرة المعروفة بسد مصر ، كانت على الخليج المصرى فيما بين مصر والقاهرة ، أنشأها السلطان الصالح نجم الدين الأيوبى سنة ٦٤٣ هـ على الخليج بالقرب من فمه ، وقد عرفت القنطرة بذلك الاسم بسبب السد الذى كان يقام سنويا من التراب بجوار هذه القنطرة عند ما يبدأ ماء النيل فى الزيادة وقت الفيضان لكى يصد الماء ، ومتى وصلت الزيادة إلى ست عشرة ذراعا يفتح السد حينئذ باحتفال رسمى عظيم .

المقريزى : الخطط حـ ١ ص ٤٧٠ ، ٤٩٣ ، حـ ٢ ص ١٤٦

وكان الماء يمر فى الخليج فتملأ منه صهاريج مدينة القاهرة وبركها ، وتروى منه بساتينها كما تروى الأراضى الزراعية الواقعة على جانبى الخليج حتى نهايته الشمالية . ويقول المرحوم محمد رمزى إن هذه القنطرة كانت موجودة ومعروفة كما شاهدها باسم قنطرة الماوردى إلى منتصف سنة ١٨٩٩ م التى تم فيها ردم الخليج واختفاء هذه القنطرة . ابن تغرى بردى : النجوم حـ ٦ ص ٣٨١ مبارك : الخطط التوفيقية حـ ١٨ ص ١١٤ ـ ١١٥

١٣ ـــ هى ست حدق القهرمانية الناصرية ، كان الناصر محمد بن قلاوون قد جعل لها أمور نسائه ، فتحكمت فى داره تحكما عظيما ، حتى صار لا يقال لها إلا الست حدق، وحجت مرة فضرب المثل بما فعلته من الخيرات والمبرات ، وكان يقال لها ست مسكة . وقد أخطأ

المقريزى ـ وكذلك ابن تغرى بردى الذى أخذ عنه ونقل منه ـ إذ اعتبر ست حدق غير ست مسكة ، بينما الحقيقة أن الاسمين لسيدة واحدة هى الست حدق التى اشتهرت بست مسكة .

وقد توفيت وهى بكر عذراء ، وكان موجودها شيئا كثيرا .

المقريزى : الخطط حـ ٢ ص ١١٦ ، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة حـ ٩ ص ١٩٦ حاشية ٣ ، حـ ١٠ ص ٢٢١ ـ ٢٣٢ ، العسقلانى : الدرر الكامنة حـ ٢ ص ٧ رقم ١٤٨٣

١٤ — هذا الحكر كان يعرف على أيام المقريزى باسم المريس ، وكان بساتين من بعضها بستان الخشاب ، وقد أنشأت الست حدق به جامعا كان موضعه منظرة السكرة ، وبنى الناس حوله ، وكان أكثرهم من السودان . المقريزى : الخطط حـ ٢ ص ١١٦ ويقول التقى المقريزى إن هذا الجامع بخط المريس فى جانب الخليج الغربى بالقرب من قنطرة السد ، أنشأته الست حدق سنة ٧٣٧ هـ ؛ وقد دثر هذا الجامع .

المقريزى : نفس المصدر والجزء ص ٣١٣ ، ابن تغرى بردى : النجوم حـ ٩ ص ١٩٧ حاشية ١

وهذا الحكر ـ والجامع (المصلى) ـ هو الذى ورد ذكره فى الوثيقة ، وهو غير حكرها بسويقة السباعين الذى أنشأت به جامعا فى سنة ٧٤٠ هـ بالقرب من قنطرة آق سنقر على الخليج الكبير خارج القاهرة ، وهذا الجامع لا يزال باقيا إلى الآن .

المقريزى : الخطط حـ ٢ ص ١١٦ ، ٣٢٦ ، ابن تغرى بردى : نفس المصدر السابق والجزء والصفحة .

١٥ — ذراع العمل طوله ثلاثة أشبار بشبر رجل معتدل ، وكان يقاس به أرض البنيان من الدور وغيرها ، ولعله الذراع الذى كان يقاس به أرض السواد بالعراق ، فقد ذكر الزجاجى أنه ذراع وثلث بذراع اليد ، وهو أقل من الذراع الهاشمى . ويقال لذراع العمل الذراع الزيادى نسبة إلى زياد بن أبيه . القلقشندى: صبح الأعشى حـ٣ ص٤٤٢-٤٤٣

١٦ — لابد من ذكر الحدود الأربعة للعقار الموقوف ، وروى عن أبى يوسف أن التعريف يحصل بذكر حدين ، وفى آراء أخرى بثلاثة حدود ، إلا أن زفر قال إنه لا يحصل إلا بذكر الحدود الأربعة .

وفى هذه الوثيقة نلاحظ أنها كتبت على أحوط الوجوه ، وتحرز فيها الكاتب عن مواضع الخلاف ، ولذلك ذكرت الحدود الأربعة لجميع القطع الأراضى الموقوفة وعدتها ثلاثة عشرة قطعة ، حتى يكون التعريف حاصلا على جميع الأقوال .

قراءة : مذكرة التوثيقات الشرعية ص ١٧ - ١٩ ، ٢٤

١٧ — هو حكر الأمير علاء الدين اقبغا عبد الواحد الناصرى استادار الملك الناصر محمد بن قلاوون ، فقد حكر بستانا بجوار بركة قارون ظاهر القاهرة بجوار السبع سقايات وكان بعضه يعرف ببستان المحلى ، وقد بنى فيه عدة مساكن ، وكان يجبى حكره ويصرف فى مصارف المدرسة الاقبغاوية التى أنشأها الأمير اقبغا سنة ٧٤٠ هـ بجوار الجامع الأزهر .

المقريزى : الخطط حـ ٢ ص ١١٦ ، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة حـ ٩ ص ١٩٦ حاشية ١ ، حسن عبد الوهاب : تاريخ المساجد ص ٥٧ ، ١٥١

وكان أقبغا جمدارا ثم ترقى وصار استادارا وشادا للعمائر ومقدما للماليك السلطانية وغير ذلك ، وكان جبارا كثير الظلم ، صودرت أمواله ورد ما اغتصبه ، ثم ولى نيابة حمص أيام المظفر كجك ، كما ولى إمرة دمشق ، وقتل بالاسكندرية سنة ٧٤٤ هـ .

العسقلانى : الدرر الكامنة حـ ١ ص ٢٩١ رقم ١٠٠١ ، المقريزى : الخطط حـ ٢ ص ٣٨٤ وما بعدها .

١٨ — هو حكر الأمير جنكل بن البابا استادار الأمير اقبغا عبد الواحد ، وهو أول من عمر فى حكر اقبغا ، فتبعه الناس وبنوا فيه وخاصة التتر والوافدية من أصحاب الأمير جنكل ، الذى عمر تجاه هذا الحكر حمامين . المقريزى : الخطط حـ ٢ ص ١١٦

١٩ — عن وظيفة الناظر أو المتولى على الوقف انظر :

القلقشندى : صبح الأعشى حـ ٥ ص ٤٦٥ ، السيوطى : حسن المحاضرة (ط . الوطن) ص ١٨٦ المقريزى : السلوك (نشر زيادة) حـ ١ ص ١٠٤١ ، ١٠٤٨ - ١٠٤٩ عن نهاية الأرب للنويرى ؛ المقصد الرفيع المنشأ الهادى لصناعة الانشا (مخطوط - تصوير شمسى بمكتبة جامعة القاهرة رقم ٢٤٠٤٥) ص ١٣٢ - ١٣٣ .

هذا والولاية أو النظر لا يجوز لفاسق ولا لخائن أو عاجز ، ولابد من أهلية الناظر وأمانته وعدله وكفايته . القرشى : العقد الفريد ص ١٨٣ - ١٨٤ ، السيواسى : فتح القدير حـ ٥ ص ٦١ .

انظر كذلك الطرابلسي : الاسعاف ص ٤١ ، أبو زهرة : مشكلة الأوقاف (مجلة القانون والاقتصاد سنة ٦ عدد ٣) ص ٢٥٠ - ٣٦١ ، احمد ابراهيم : أحكام الوقف ص ٩٨ ، السبكي : معيد النعم ومبيد النقم ص ٦٤ ، زيد : مباحث الوقف ص ٤٩ ـ ٥٠

٢٠ — تنص كثير من وثائق الوقف العربية في العصور الوسطى على وجوب البدء بعمارة الأوقاف من ريعها ، وكانت هناك وظيفة لذلك تعرف باسم « شهادة العمارة » .

انظر وثيقة الغوري أوقاف ٨٨٣ سطر ١٥٩٢ (تحت الطبع) ، وثيقة بدر الدين الوفائي محكمة ٢٢١ ، وثيقة المؤيد شيخ المحمودي أوقاف ٩٣٨ ، وثيقة سبيل المؤمنين أوقاف ٨٨٤ سطر ٦٣ ـ ٦٤ ، وثيقة المقياس أوقاف ٨٨٢ ص ٥٠٢ ، وثيقة جوهر اللالا أوقاف ١٠٢١ ، وثيقة السلطان حسن اوقاف ٨٨١ ص ٤٧١ ، وثيقة صرغتمش اوقاف ٣١٩٥ ، وثيقة طومان باى اوقاف ٨٨٢ ص ٥٥٤ .

٢١ — كان الجابي يتولى وظيفة الجباية لريع الأوقاف (المباني والأراضي) شهريا وسنويا ، وكان يشترط فيه أن يكون من أهل الخير والدين ، أمينا ذا قوة وقدرة على جباية الريع وقبضه وضبطه وكتابة حسابه باذن الناظر .

وثيقة الجمالي يوسف محكمة ١٠٥ ، وثيقة السيفي طقطباى أوقاف ١٠٢٠ ، وثيقة قانى باى أوقاف ١٠١٩ ، وثيقة الزيني عبد اللطيف محكمة ٢٢٢ ، وثيقة ازدمر محكمة ٢٤١ ، وثيقة قايتباى أوقاف ٨٨٧ ، ٨٨٦ ص ١٤٥ ، وثيقة ازبك من ططخ محكمة ١٩٨ .

وقد يشغل وظيفتي الجابي والصيرفي شخص واحد كما ورد في وثيقة المقياس أوقاف ٨٨٢ ص ٥٠٨ ، كما قد يكون الجابي هو المعمار . وثيقة تغرى بردى محكمة ٩٨ ، وثيقة جمال الدين الاستادار محكمة ١٠٦ .

٢٢ — الدرهم النقرة من أجود الدراهم عيارا ، ثلثاه ـ أو أكثر ـ من فضة وثلثه من نحاس ، وهذا هو الذي عليه قاعدة العيار الصحيح كما يقول ابن فضل الله العمرى ، وكانت الدراهم النقرة تسك بدور الضرب بالسكة السلطانية ، ويكون منها دراهم صحاح ، وقراضات مكسرة .

القلقشندي : صبح الأعشى حـ ٣ ص ٤٦٢ ـ ٤٦٣ ، الكرملي : النقود العربية وعلم النميات ص ٢٣ حاشية ٤ ، ١١٣ ، ١١٧ ـ ١١٨ ، ابن مماتي : قوانين الدواوين ص٣٣٣

٢٣ — لا غرابة فى ذلك بتاتا فقد اشترط كثير من الواقفين فى وثائقهم صرف جزء من ريع الأوقاف على الأماكن المقدسة بالحجاز والمجاورين بها من الفقراء ، وكان الريع يرسل سنويا صحبة ركب الحجاج نقداً وعينا . السيوطى : حسن المحاضرة (ط . الشرفية) حـ ٢ ص ١٦٥ انظر وثائق جقمق محكمة ١٠٨ ، قايتباى أوقاف ٨٨٥ ص ٢٨ ، ١٥١ ، وثيقة خاير بك من مال باى (الأستاذ صلاح الدين العظم) ، وثيقة السلطان حسن محكمة ٤٢ ، ظهر وثيقة الغورى أوقاف ٨٨٣ ، ابن اياس : بدائع الزهور حـ ٤ ص١٠٣،١٦٠ ، حـ ٥ ص ٢٢٤ ، ٣٩٤ ؛ Enc. of Islam art. Wakf.

وبالاضافة إلى ذلك فالواقف كان شيخا للخدام بالمسجد الشريف بالمدينة النبوية .

السخاوى : الضوء اللامع حـ ١٠ ص ١٥٦ رقم ٦٢٤

والراجح أنه كان من واجبه عمارة المسجد النبوى وترميمه ، وفرشه بالبسط والسجاجيد، ومده بالوقود (الزيت والشمع) وما يحتاجه من آلات وأدوات للاضاءة والنظافة .

٢٤ — هذه إشارة إلى وجود عدد من الشيعة الزيدية وغيرهم فى مدن الحجاز ، وقد اشترط الواقف عدم الصرف لهم ، وأن يقتصر صرف الجزء الذى خصصه من ريع وقفه على الفقراء المجاورين من أهل السنة الذكور والاناث .

٢٥ — يدل هذا النص على أن باقى الريع بعد ما عين الواقف صرفه فى جهاته المختلفة، يكون للواقف من غير مشارك له فى ذلك ، ثم من بعد وفاته يصرف لعتقائه بالسوية بينهم ثم فى مصالح الحرمين المكى والمدنى والمجاورين بهما من أهل السنة .

وإلى مثل هذا تشير كثير من وثائق الوقف الاسلامى فى العصور الوسطى . انظر وثيقة الأمير آخور كبير قراقجا الحسنى أوقاف ٩٢ سطر رقم ١٩٥ — ٢٠٩

٢٦ — لاحظنا فى كثير من وثائق الوقف أن الواقف يشترط النظر لنفسه أيام حياته ، ثم لأولاده أو لمن يوصى له بذلك من الأمراء والشيوخ (القضاة) .

السيوطى : حسن المحاضرة (ط . الوطن) حـ ٢ ص ١٨٦

هذا ومن حق الواقف أن يكون ناظرا على وقفه بمفرده ، ومن حقه أن يشرك معه ناظرا ثانيا لأن الموقوف يحتاج إلى من يقوم برعايته ويحوطه بعنايته ، وإصلاح ما يتهدم منه ، والعمل على نمائه واستغلاله ، وذلك لا يكون إلا بالنظر والولاية .

وهذه الولاية تثبت أولا للواقف عند أبي يوسف ولو لم ينص عليها ، وفى مذهب محمد الولاية للواقف بالشرط . أما عند الشافعية فالولاية لا تثبت للواقف إلا بالشرط عند إنشاء الوقف أيضا ، ومذهب الامام أحمد بن حنبل يقارب مذهب الشافعى فى ذلك ، أما مالك ابن أنس فيمنع أن يكون الوقف فى يد الواقف .

الطرابلسى : الاسعاف ص ٤١ ، أبو زهرة : مشكلة الأوقاف (مجلة القانون والاقتصاد سنة ٦ عدد ٣) ص ٣٥٠ - ٣٦١ ، زيد : مباحث الوقف ص ٤٩ - ٥٠ ، احمد ابراهيم : أحكام الوقف ص ٩٨ ، قدرى : قانون العدل والانصاف ص ٦٨ .

٢٧ — هو سعد بن عبد الله الحبشى عتيق الطواشى بشير الجمدار ، اعتنى به سيده وعلمه القرآن ورتبه فى وظائف ، استمر بعد سيده على طريقة حسنة ، وتزيا بزى الفقهاء ، وكان محبا فى السنة وأهلها ، جميل العشرة كثير الحج ويقال أنه حج ستين حجة ، توفى سنة ٨١٥ هـ .

السخاوى : الضوء اللامع حـ ٣ ص ٢٤٨ رقم ٩٣٣ ، العسقلانى : أنباء الغمر حـ ٢ ص ٦٨ وقد عمر الأمير الطواشى سعد الدين بشير الجمدار فى الجامع الأزهر سنة ٧٦١ هـ وأنشأ سبيلا وكتابا عند الباب القبلى للجامع ، وكذلك قام بتكملة الرخام فى المدرسة السلطانية حسن بن قلاوون بعد وفاته سنة ٧٦٢ هـ .

المقريزى : الخطط حـ ٢ ص ٣١٦ ، حسن عبد الوهاب : تاريخ المساجد الأثرية ص ٥٤ ، ١٦٨ - ١٦٩

٢٨ — لعله الزينى مقبل الرومى الزمام بالدور السلطانية ، كان رأسا فى الخدام ، وعنده حشمة ورياسة ، تولى الزمامية فى الدولة الناصرية فرج بن برقوق ، عمر عدة أملاك ودور حبسها على مدرسته التى أنشأها بخط البندقانيين بالقاهرة للجمعة والجماعات ، ورتب فيها وظائف وخزانة كتب . توفى فى أول ذى الحجة سنة ٨١٠ هـ وخلف مالا كثيرا .

السخاوى : نفس المصدر حـ ١٠ ص ١٦٨ رقم ٦٩٧ ، العسقلانى : أنباء الغمر حـ ١ ص ٧٦٢ انظر وثيقتى الزينى مقبل الرومى محكمة رقم ٦١ ، ٧٥

٢٩ — هو شجاع الدين عنبر العزى الطواشى الحبشى ، أحد خدام الحرم الشريف النبوى توفى سنة ٨٠١ هـ .

السخاوى : نفس المصدر حـ ٦ ص ١٤٨ رقم ٤٦٦

٣٠ — الزمام بمعنى القائد أو المشرف ، والزمام دار تحريف من الزنان دار ، وهو لقب الذى يتحدث على باب ستارة السلطان أو الأمير من الخدام والخصيان الطواشية ، وهو مركب من لفظين فارسيين : زنان ومعناه النساء ، ودار ومعناه ممسك ؛ فيكون المعنى « ممسك النساء » أو الموكل بحفظ الحريم ، إلا أن العامة عبروا عنه بالزمام دار . هذا ويقصد بالآدر الشريفة الحريم السلطانى .

القلقشندى : صبح الأعشى حـ ٥ ص ٤٥٩ - ٤٦٠

على مبارك : الخطط التوفيقية حـ ٩ ص ٣٥

Van Berchem : C. I. A., Egypté, T. I, pp. 186-188, 201.

٣١ — يقصد بذلك قاضى قضاة المذهب الشافعى بالقاهرة .

٣٢ — هذه صيغة توثيقية تؤكد تمام التصرف القانونى (الوقف) ولزومه وانبرامه.

٣٣ — هذه صيغة جزائية تواتر كتاب الوثائق العربية فى العصور الوسطى على اثباتها فى ختام كثير من وثائق الوقف ، وهى ذات أسلوب دينى مناسب لروح العصر المملوكى .

انظر وثيقة الأمير آخور كبير قراقجا الحسنى أوقاف ٩٢ سطر ٢٤٦ - ٢٤٩

٣٤ — لا يعتبر الواقف راضيا عن تصرفه (وقفه) رضا صحيحا إلا إذا كان عالما به علما كافيا ، وعارفا بذلك المعرفة الشرعية النافية للجهالة بنفسه .

والعلم الكافى هو العلم النافى للجهالة .

الكاسانى : بدائع الصنائع حـ ٥ ص ٢٩٥ - ٢٩٦ ، الزيلعى : تبيين الحقائق حـ ٤ ص ٢٨ ، احمد فتحى زغلول : شرح القانون المدنى ص ٢٢٧ ، احمد ابراهيم : كتاب المعاملات ص ١٢٠ ، محمد سلام مدكور : الفقه الاسلامى ص ٥٥٤

ولا شك أن الواقف مسرور بن عبد الله الشبلى الجمدار كان عالما بتصرفه علما كافيا ، ويعتبر العلم كافيا إذا اشتملت وثيقة الوقف على بيان الموقوف وموقعه وأوصافه وحدوده الأساسية بيانا يمكن من تعرفه ، مما يجعل الموقوف مميزا عن غيره ، واضحا فى ذهن الواقف ، كما أن إقرار الواقف واعترافه صراحة أنه عارف بذلك يجعل إقراره حجة عليه ، كما يسقط حقه فى إبطال الوقف بدعوى عدم علمه به .

ومهما يكن من أمر ، فقد تحقق فى وثيقة الوقف : وصف الموقوف ، وإقرار الواقف واعترافه بما وقفه ، مما يجعل تصرفه لازما نافذا .

٣٥ — هذا هو تاريخ التصرف القانونى (الوقف) الوارد فى ختام وجه الوثيقة ، وقد أثبته كاتب الوثيقة باليوم والشهر والسنة بالتقويم الهجرى ، وهومدار التأريخ الاسلامى .

انظر عبد اللطيف ابراهيم : التوثيقات الشرعية ص ٣٨٢ تحقيق رقم ٥٠ وما به من مصادر ، وثيقة بيع ص ١٩٢ تحقيق رقم ٤٥ وما به مصادر .

٣٦ — هذه العبارة وأمثالها كثيرا ما نجدها فى نهاية بعض الوثائق التى قد يحدث فيها شطب أو كشط وتصليح أو إضافة والحاق لبعض الألفاظ ، وهى ترد قبل الحسبلة مباشرة فى أغلب الأحوال . وقد اعترف كاتب الوثيقة بصحة ذلك كله فى مواضعه .

عبد اللطيف ابراهيم : وثيقة الأمير آخور كبير قراقجا الحسنى ص ١٩٦ حاشية ٢ ، ص ٢٥١ تحقيق رقم ٩٤ — ٩٦

٣٧ — الحسبلة هى الدعاء الختامى فى نهاية الوثيقة وقبل شهادة العدول مباشرة .

عبد اللطيف ابراهيم : التوثيقات الشرعية ص ٣٩٨ تحقيق رقم ٦٣ وما به من مصادر.

٣٨ — تبدأ صيغة الشهادة بلفظ « اشهد » وهى صيغة ذاتية ، واللفظ الأخير فى كل شهادة « وكتب » يدل على أن الشاهد قد وقع بخط يده بعد أن قام بكتابة صيغة الشهادة.
عبد اللطيف ابراهيم : التوثيقات الشرعية ص ٣٩٩ تحقيق رقم ٦٤ وما به من مصادر .

ويتضح لنا من دراسة الشهادات الأربعة أنها متفقة فى المعنى ، مع تطابق فى الألفاظ لحد كبير ، ومن المعروف أن العبرة فى الشهادة للمعانى لا للألفاظ ، لأن اختلاف لفظ الشهادة الذى لا يوجب اختلاف المعنى لا يضر .

ابن قاضى سماوه : جامع الفصولين حـ ٢ ص ٣٢٦ ، السيواسى : فتح القدير حـ ٦ ص٥٥ ، الفتاوى الهندية حـ ٣ ص ٥٠٣ ، السرخسى : المبسوط حـ ١٦ ص ١٧٢ ومابعدها، الزيلعى : تبيين الحقائق شرح كنز الدقائق حـ ٤ ص ٢٢٩ وما بعدها ، الفتاوى المهدية حـ ٣ ص ٣١٣ ، قراعة : الأصول القضائية ص ١٨٢ — ١٨٣ ، أحمد ابراهيم : طرق الاثبات ص ١٩٠ — ١٩٣ ، ٢٠٣ حاشية ١ ، طرق القضاء ص ٣٦٤ — ٣٦٥

٣٩ ، ٤٠ — هذان الشاهدان من أسرة واحدة ، وقد بحثنا عن ترجمة لهما فى كتب التراجم والتاريخ المتداولة بين أيدينا فلم نعثر لهما على ترجمة ، هذا وهناك تراجم مختلفة لأفراد آخرين من أسرة الكركي فى كل من الضوء اللامع للسخاوى وشذرات الذهب لابن العماد الحنبلى .

٤١ — هو عبد اللطيف بن محمد بن عبد الباقى سراج الدين ابن الشامية ، موقع الحكم بالديار المصرية مات فى سنة ٧٦٨ هـ وقد ناهز السبعين .

العسقلانى : الدرر الكامنة حـ ٢ ص ٤٠٩ رقم ٢٥٠١ انظر توقيعه بخط يده شكل ٣١

٤٢ — هو تقى الدين محمد بن احمد بن الحسن بن محمد بن عبد العزيز بن محمد بن الفرات الحنفى ، اشتغل بالعلم ومهر فى العربية ، وفى الشروط ، حتى كان عمه سراج الدين يفضله فى ذلك على نفسه وعلى أبيه مع أنهما كان قد انتهت إليهما الرياسة فى معرفة الشروط ويقال إنه لم يكتب مكتوبا فعثر أحد فيه على لحنة . مات فى جمادى الآخرة سنة ٧٦٤ هـ هو وولده تاج الدين فى ليلة واحدة بالطاعون الذى عم الديار المصرية والشامية .

العسقلانى : نفس المصدر السابق حـ ٣ ص ٣١٣ رقم ٨٣٨ ، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة حـ ١١ ص ١٧

انظر توقيعه بخط يده شكل ٣٢

٤٣ — هذه هى تأشيرة القاضى الموثق جمال الدين أبو محمد عبد الله الماردينى الشافعى، الذى قام بتوثيق الفعل القانونى والحكم بصحة الوقف ولزومه عقب توقيعات الشهود ، بعد أن ثبتت لديه البينة الشرعية على صحة التصرف وسلامته بشهادتهم أمامه وقبل أن يصدر حكمه بصحة الوقف ، انظر شكل ٣١ .

وهذه التأشيرة تدل على أن الشهود منتصبون للشهادة انتصاباً عاماً متسمون بالعدالة . ولا يكتب القاضى الموثق ذلك أسفل التوقيعات إلا إذا كان قاصدا الاعلام بصحة التوقيعات وسلامتها من الريب من جميع النواحى .

جعيط : الطريقة المرضية ص ٢٣١ ، ابن قاضى سماوه : جامع الفصولين حـ ٢ ص ٣٢٦

٤٤ — هذا هو نص الحمدلة فى بدايه الاسجال الحكمى فى ظهر وثيقة الوقف وهى بخط القاضى الموثق الماردينى الحنفى ، انظر شكل ٣٣

عبد اللطيف ابراهيم : وثيقة بيع ص ١٩٥ تحقيق رقم ٥٤ وما به من مصادر

٤٥ — هذه العبارة تدل على الأمر بتسجيل الاشهاد أو الاسجال الحكمى وهى بخط القاضى الموثق ابن جماعة الشافعى .

عبد اللطيف ابراهيم : التوثيقات الشرعية والاشهادات ص ٣٦٣ تحقيق رقم ٣

٤٦ — هو قاضى القضاة جمال الدين أبو محمد عبد الله بن على بن فخر الدين عثمان ابن ابراهيم بن مصطفى بن سليمان الماردينى الأصل المعروف بابن التركمانى الحنفى ، ولد سنة ٧١٩ هـ وتفقه على علماء عصره ، وسمع من الوانى والختنى وغيرهما ، اشتغل ودرس وأفتى وحدث بالكاملية بعد أن نزل له عنها القاضى عز الدين بن جماعة ، كما درس فى التفسير بالجامع الطولونى . وقد مات بالطاعون فى شهر رمضان سنة ٧٦٩ هـ ودفن بتربة والده خارج باب النصر . وكان رحمه الله وافر الوقار ، لطيف الذات ، مقدما عند الملوك محسنا لطائفته ، عارفا بالأحكام ، لين الجانب ، شديدا على المفسدين متواضعا مع أهل الخير ، امتنع من استبدال الأوقاف وصمم على ذلك ، وكان من أشهر علماء الحنفية ، بارعا فى الفقه والأصول والعربية .

ابن تغرى بردى : المنهل الصافى حـ ٢ ص ٢٦٩ وما بعدها ، النجوم الزاهرة حـ ١١ ص ٩٩

٤٧ — الناظر فى الحكم هو القاضى . انظر بحثنا التوثيقات الشرعية ص ٣٧١ تحقيق رقم ٤٤ ، شكل ٣٥

٤٨ — بحثنا وثيقة بيع ص ١٩٧ تحقيق رقم ٦٠ وما به من مصادر

٤٩ — هذا هو تاريخ الاسجال الحكمى وهو بخط القاضى الموثق ، ويلاحظ أنه موافق لتاريخ التصرف القانونى الوارد فى وجه الوثيقة .

نفس المرجع السابق والصفحة تحقيق رقم ٦١ وما به من مصادر .

٥٠ — المرجع السابق ص ١٩٦ تحقيق رقم ٥٥

٥١ — بحثنا التوثيقات الشرعية ص ٣٨٥ تحقيق رقم ٥٣ وما به من مصادر .

٥٢ — المرجع السابق ص ٤٠٧ تحقيق رقم ٧٣

٥٣ — يقصد بذلك وجه الوثيقة .

٥٤ — المراد بذلك نص وثيقة الوقف وما ورد فيها من وقف وشروط مختلفة

٥٥ — يقصد بذلك الشهادة الواردة على الهامش الأيمن لوجه وثيقة الوقف بين السطرين ٤٠ ـ ٤٩ والدالة على ملكية الواقف لما وقفه .

بحثنا التوثيقات الشرعية ص ٣٨٦ وما بعدها ـ تحقيق رقم ٥٤ وما به من مصادر

٥٦ — المراد بفصل الأعذار ، النص الوارد فى هامش وجه الوثيقة بين السطرين ٥٥ ـ ٦٢ بحثنا وثيقة بيع ص ١٨٦ تحقيق رقم ٤٠

٥٧ — بحثنا التوثيقات الشرعية ص ٣٨٠ تحقيق رقم ٤٨ وما به من مصادر

٥٨ — بحثنا وثيقة بيع ص ١٩٨ تحقيق رقم ٦٦

٥٩ — بحثنا التوثيقات الشرعية ص ٣٩٣ تحقيق رقم ٥٧ وما به من مصادر

٦٠ — المرجع السابق ص ٣٩٤ تحقيق رقم ٥٨ وما به من مصادر

٦١ — بحثنا وثيقة بيع ص ١٩٩ تحقيق رقم ٦٨ وما به من مصادر

٦٢ — المرجع السابق ص ٢٠٠ تحقيق رقم ٦٩ وما به من مصادر

٦٣ — نفس المرجع السابق والصفحة تحقيق رقم ٧٠

٦٤ — المرجع السابق ص ٢٠١ تحقيق رقم ٧٢

٦٥ — نفس المرجع السابق والصفحة تحقيق رقم ٧٣ وما به من مصادر

٦٦ — بحثنا التوثيقات الشرعية ص ٣٩٩ تحقيق رقم ٦٤ وما به من مصادر

٦٧ — المرجع السابق ص ٤٠١ تحقيق رقم ٦٧ وما به من مصادر

٦٨ — هو عبد الخالق بن على بن الحسين بن الفرات المالكى موقع الحكم، كان بارعا فى الفقه وكتب الخط المنسوب ودرس ووقع على القضاة ، توفى فى جماد الآخر سنة ٧٩٤ ﻫ ابن العماد الحنبلى . شذرات الذهب جـ ٦ ص ٣٣٣ ، شكل ٤٢

٦٩ — هذه العبارة تدل على الأمر بتسجيل الاشهاد التنفيذى الأول وهى بخط القاضى الموثق أبى بكر السعدى المالكى (الاخنائى)

بحثنا التوثيقات الشرعية ص ٣٦٣ تحقيق رقم ٣

٧٠ — هو عز الدين عبد العزيز بن محمد بن سعد الدين بن جماعة بن صخر الكنانى الشافعى ، ولد فى ١٩ محرم سنة ٦٩٤ هـ بدمشق ، وقد درس على والده وغيره من العلماء بالشام ، كما درس على علماء وفقهاء عصره بمصر ، وكان كثير الحج والمجاورة ، وكان حسن الأخلاق كثير الفضائل ، ولى قضاء الشافعية بمصر سنة ٧٣٨ هـ ، وقد درس وأفتى وألف كثيرا ، وكان حسن السيرة فى القضاء محبا لأهل العلم ، وقد جعل له السلطان الناصر تعيين قضاة الشام . وكان عزوفا فى القضاء غير راغب فيه ، فعزل نفسه مرتين فى سنة ٧٥٤ هـ ، سنة ٧٦٦ هـ ، وقد درس الفقه والحديث بالجامع الطولونى وحج فى سنة ٧٦٧ هـ ومات بمكة ودفن بها فى جمادى الاول من نفس العام .

العسقلانى : الدر الكامنة جـ ٢ ص ٣٧٨ رقم ٢٤٤٣

ابن العماد الحنبلى . شذرات الذهب جـ ٦ ص ٢٠٨

٧١ — يقصد بذلك الاسجال الحكمى للقاضى الموثق الماردينى الحنفى . انظر اللوحة رقم ٨

٧٢ — بحثنا التوثيقات الشرعية ص ٤٠٨ - ٤١١ تحقيق رقم ٧٤ وما به من مصادر

٧٣ — هو محمد بن محمد بن أبى بكر بن عيسى بن بدران الاخنائى بن القاضى علم الدين السعدى ، سمع من الكردى وست الوزراء والحجار ، ولى نظر الخزانة ثم قضاء المالكية بعد عمه تقى الدين ، وكان تقيا مشكور السيرة - توفى فى صفر سنة ٧٦٣ هـ

العسقلانى : الدرر الكامنة جـ ٤ ص ٢٤٥ رقم ٦٥٨

٧٤ — يقصد بذلك الاسجال التنفيذى الأول للقاضى الموثق ابن جماعة الشافعى انظر لوحة رقم ١٠

لوحات وأشكال من خط الوثيقة

(لوحة رقم ١)

٣٣٩

بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله وحده وصلواته على سيدنا محمد وآله وصحبه

الافتتاحية وبداية وجه الوثيقة

(لوحة رقم ٢)

جزء من الوثيقة ورد فيه ذكر الموقوف

(لوحه رقم ٢)

جزء من نص الوثيقة وعلى الهامش الأيمن شهادة تثبت ملكية الواقف لما تصرف فيه

(لوحة رقم ٤)

جزء من الوثيقة ورد فيه شرط الواقف فى توزيع الريع

(لوحة رقم ٥)

جزء من الوثيقة ورد فيه ذكر النظر على الوقف.

(لوحة رقم ٦)

نهاية وجه الوثيقة وشهادة الشهود الأربعة

٢٣٩ ٧

الحمد لله وبه نستعين

بسم الله الرحمن الرحيم

بداية ظهر الوثيقة وعلامة كل من القاضى الموثق الماردينى
الحنفى وابن جماعة الشافعى

(لوحة رقم ٨)

جزء من ظهر الوثيقة

توقيعات الشهود عقب الاسجالين الحكمى والتنفيدى الأول

(لوحة رقم ١٠)

الاسجال التنفيذى الثانى وعلامة القاضى الموثق الاخنائى المالكى

(لوحة رقم ١١)

نهاية الاسجال التنفيذى الثانى وشهادة الشهود

(لوحة رقم ١٢)

بسم الله الرحمن الرحيم

١

٢ ٣

٤ ٥ ٦ ٧

٨ ٩ ١٠ ١١

١٢ ١٣ ١٤ ١٥

(لوحة رقم ١٣)



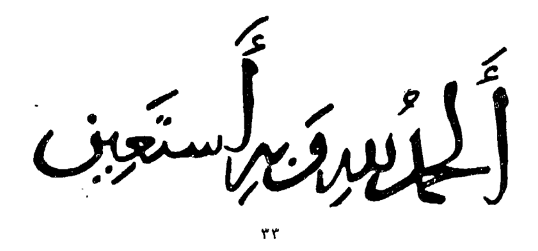
٣٠

(لوحة رقم ١٤)

٣١

٣٢

(لوحة رقم ١٥)



٣٣

٣٧ ٣٦ ٣٥ ٣٤

٤٠ ٣٩ ٣٨

٤٢ ٤١

أحمد الله وأسأله التوفيق

٤٣

يوم الخميس السابع عشر من شوال

٤٤

حسبي الله ونعم الوكيل

٤٥

(لوحة رقم ١٦)

(لوحة رقم ١٧)

٤٦

٤٧ ٤٨ ٤٩

٥٠ ٥١ ٥٢

ضبط النيـــــل والتوسع الزراعى

فى الجمهورية العربية المتحدة

للدكتور صلاح الدين على الشـــامى

أستاذ الجغرافيا المساعد بكلية الآداب

جامعة القاهرة ـ فرع الخرطوم

« حمداً لك أيها النيل . . . والويل للأرض ومن عليها حين يقل ماؤه ويجىء فيضانه شحيحا قليلا . . . » يعبر ذلك القول الذى تغنى به شاعر فى ذكر النيل فى القرن التاسع عشر قبل الميلاد ، عن الاشفاق واللهفة الشديدة ، بقدر ما يعبر عن الادراك السليم للقيمة الحقيقية لماء النهر وجريانه المنتظم الرتيب . ونحن نعيش فى القرن العشرين على ضفاف النيل ، وما زلنا نحس باللهفة ، كما يلاحقنا الاشفاق الشديد على ماء النهر وضبطه والعمل على التحكم فى جريانه . ذلك أنه من الطبيعى أن نمارس ذلك كله على اعتبار أن النيل وإيراد الماء فيه كان وما زال يعول الحياة ، ويحفظ استمرار الحضارة وتراثها الأصيل على الضفاف وفى الأرض الفيضية الغنية . ويمكن للباحث فى مجال الدراسات النيلية أن يتابع على امتداد النيل العظيم العمل المضنى المستمر ونتائجه الايجابية فى مجالات التهذيب والضبط للسيطرة على المجرى . كما يمكن أن يتابع فى الوقت نفسه كل الأعمال الانشائية الضخمة البالغ بعضها حد الاعجاز ؛ فى مجالات السيطرة على الايراد المائى الطبيعى وتسويته ، وتنظيم الاستفادة منه فى خدمة الانتاج الزراعى .

ومهما يكن من أمر ، فإن ذلك كله كان ومازال سببا دافعا نحو المزيد من الدراسة والبحث ، من أجل المزيد من المعرفة بالجريان وإيراد النيل الطبيعى . ويمكن القول فى اطمئنان وثقة تامتين أن نهرا من أنهار العالم لم يلق مثل ذلك الاهتمام ، ولم يحظ بمثل هـذا التعمق فى الدراسة والبحث . ويتلخص البحث فى التعرف على طبيعة الجريان النيلى والإلمام بصفة النظام المائى لكل رافد من روافده ، وحساب فائض المـاء

(١) دكتور محمد عوض محمد . نهر النيل هامش صفحة ٤

Run Off الذى ينساب إلى المجرى من كل حبس من الأحباس العليا ، وحساب الإيراد الطبيعى حين يفيض وحين يغيض . كل هذا من أجل استئناس النهر وترويض الجريان ترويضا يفى باحتياجات الزراعة ، وتدبير ماء الرى خلال الفترة الحرجة ، التى تهبط المناسيب فيها هبوطا يتناسب مع حجم الإيراد المائى الطبيعى الضئيل ، الذى ينساب من أحباس النيل العليا الإستوائية . وسواء كانت هذه الدراسات ونمو الخبرات من أجل توفير المياه وتقليل الفاقد وزيادة حجم الإيراد الطبيعى للنيل ، أو كانت من أجل تسوية الإيراد كله وتنظيم توزيعه حسب المناوبات المتبعة فى رى الأرض المنزرعة ، فإن زيادة السكان الطبيعية والرغبة فى متابعة التوسع الأفقى فى الزراعة فى مصر مازالت تلهب الظهور ، وتدعو إلى بذل المزيد من الجهد فى مجال زيادة حجم الإيراد المائى وتسويته .

ونود بهذه المناسبة أن نتعرف فى إيجاز شديد على ملامح التطور والزيادة فى عدد السكان فى مصر ، قبيل متابعة خطط السياسة المائية والأساليب التى اتبعت فى مجال زيادة حجم الماء كوسيلة لممارسة الرى الدائم ، وزيادة مساحة الأرض المنزرعة ، وبالتالى زيادة مساحة المحاصيل ويذكر الفنيون أن مشكلة مصر الأساسية تنبثق من زيادة أو نمو حجم السكان بالزيادة الطبيعية زيادة كبيرة تحمل الأرض المنزرعة والإنتاج الزراعى عبئا ثقيلا [1]. ويمكن للباحث أن يتابع ملامح هذه الزيادة التى ظهرت بوضوح منذ وقت بعيد ، يعود إلى نهاية القرن التاسع عشر الميلادى ذلك أن عدد سكان مصر فى فجر هذا القرن وحسب تقديرات علماء الحملة الفرنسية ، كانوا لا يزيدون عن حوالى ٢½ مليون نسمة تقريبا . وقد جاء هذا التقدير متفقا اتفاقا تاما مع تقديرات عدد السكان فى سنة ١٨٢١ . ثم ظهرت الزيادة الكبيرة لأول مرة ، عند ما قفز تقدير عدد السكان فى سنة ١٨٤٦ إلى حوالى ٤½ مليون نسمة . ويعلل بعض الباحثين سبب زيادة السكان باستقرار الحياة فى ذلك الوقت الذى بدأ فيه الأخذ بسياسة الرى الدائم . وقد تعبر هذه السياسة عن زيادة مساحة المحاصيل ، كما تعبر من ناحية أخرى عن التوسع الأفقى فى مساحة الأرض المنزرعة . وليس ثمة شك فى أن ممارسة الأساليب التى تؤدى إلى التوسع الأفقى والتوسع الرأسى وزيادة حجم الغلة الزراعية ، قد أدت بالضرورة إلى الزيادة فى حجم الدخل القومى بصفة عامة ، وفى دخل الأفراد بصفة خاصة .

---

(1) Jomard, :Memoire Sur La Population Comparé de l'Egypte Ancienne et Medorne
Description de l'Egypte. Vol. II.

وهكذا يمكن القول إن زيادة عدد السكان وارتفاع الكشافات ، وإن كانت فى رأى بعض الباحثين معبرة عن المغالاة وسوء التقدير بصفة عامة ، إلا إنها تتفق وتتناسق تناسقا تاما مع بجر الانقلاب الزراعى ، الذى أدى الى كل التغيرات الجذرية فى الأوضاع الزراعية من حيث الأساليب فى الرى ونظام توزيع الماء والمناوبات ، ومن حيث المواسم الزراعية ، ومن حيث نوع المحاصيل وقيمتها فى الأسواق العالمية والتجارة الدولية . وقد توالت الزيادة فى عدد السكان بشكل منتظم ورتيب ، حيث ارتفع الرقم التقديرى لعدد السكان فى سنة ١٨٧٧ إلى حوالى ½ ٥ مليون نسمة ، ثم إلى حوالى ٦٫٧ مليون نسمة فى سنة ١٨٨٢[١] . وقد أوحت هذه الزيادة المستمرة بالاستقرار فى سياسة التوسع الزراعى ، وبالمضى فى الانقلاب الزراعى أو الثورة الزراعية إلى نهاية الشوط . ويمكن القول أن سياسة التوسع الزراعى وخطط الانقلاب الزراعى كانت تعتمد على ضبط النهر وتسوية الايراد ، على اعتبار أنه حجر الزاوية فى هذا المجال . وقد رسمت ـ من أجل ذلك ـ سياسة ضبط النيل بدقة وإحكام بالغتين ، لكى تتلاءم مع زيادة عدد السكان ، ولكى تحافظ على حجم الماء اللازم لمتابعة التوسع فى زراعة المحاصيل ورى كل المساحات التى تنمى باحتياجات السكان المتزايدين . ويمكن للباحث على ضوء الأرقام الواردة فى الجدول التالى ، أن يتابع

السنة	عدد السكان [٢]	النسبة المئوية الزيادة السنوية	المساحة المنزرعة	نصيب الفرد	مساحة المحاصيل	نصيب الفرد
	نسمة		فدانا		فدانا	
١٨٩٧	٩,٧٠٥,٣٥٩	٢٫٩ ٪	٤,٩٠٠,٠٠٠	٫٥٠		
١٩٠٧	١١,٢٨٧,٢١٨	١٫٦ ٪	٥,٤ ٠,٠٠٠	٫٤٨	٧,٦٦٢,٠٠٠	٫٦٨
١٩١٧	١٢,٢٨٧,٩١٨	٫٤ ٪	٥,٢١٩,٠٠٠	٫٤٦	٧,٦٨٦,٠٠٠	٫٦٠
١٩٢٧	١٤,٢١٧,٠٦٤	١٫٧ ٪	٥,٥٤٤,٠٠٠	٫٣٩	٨,٦٦١,٠٠٠	٫٦٢
١٩٣٧	١٥,٩٣٢,٦٩٤	١٫٢ ٪	٥,٥٨١,٠٠٠	٫٣٣	٨,٣٠٧,٠٠٠	٫٥٢
١٩٤٧	١٩,٠٢١,٨٤٠	١٫٩ ٪	٥,٧٦١,٠٠٠	٫٣٠	٩,١١٦,٠٠٠	٫٤٨
١٩٦٠	٢٦,٠٦٩,٠٠٠	٢٫٦ ٪	٦,٢٠٠,٠ ٠	٫٢٤	١٠,٣٠ ,٠٠٠	٫٣٩

(١) هذه الارقام تقديرية بحتة ومع ذلك فهى مفيدة فى مجال المقارنة ولأنها تلقى الضوء على نمو السكان .

(٢) دكتور صبحى عبد الحكيم . سكان مصر دراسة ديموجرافية صفحة ٥١٥

بعض الحقائق الهامة التى تعبر عن نتائج هذه السياسة والتخطيط المرسوم بشأن تنفيذها وتطويرها .

ويمكن للباحث من دراسة هذه الأرقام التى تدل على عدد السكان ومساحة الأرض المنزرعة ومساحة المحاصيل أن يلاحظ بعض الأمور الهامة التى تعبر عن العلاقة بين معدلات النمو السكانى ومعدلات النمو الزراعى ، مع ظهور انخفاض ملحوظ فى نصيب الفرد من كل من المساحة المنزرعة ومساحة المحاصيل . وأهم هذه الأمور من وجهة النظر الموضوعية هى :

(أولا) يلاحظ الباحث أن عدد السكان فى مصر يزداد زيادة مستمرة فى انتظام رتيب منذ سجلت أول تقديرات فى فجر القرن التاسع عشر ، بل لعلنا نذكر أن عدد السكان قد تضاعف فى أثناء الخمسين سنة الماضية من سنة ١٨٩٧ الى سنة ١٩٤٧ ثم هو يقفز بعد ذلك فى تعداد سنة ١٩٦٠ ، قفزة كبيرة لكى يبلغ حوالى ثلاثه أمثال عدد السكان فى فجر القرن العشرين . ولا تكاد تتكافأ هذه الزيادة الكبيرة المستمرة فى السكان من حيث العدد والكثافات ، مع الزيادات التى طرأت على مساحة الأرض المنزرعة بأى صورة من الصور . ذلك أن مساحة الارض المنزرعة فعلا لم تزد إلا من حوالى ٩ر٤ مليون فدان الى حوالى ٢ر٦ مليون فدان ، منها ٦٧ر٣ مليون فدان فى مصر السفلى ، و ٥٥ر٢ مليون فدان فى مصر العليا . وكان المفروض حدوثه بالنسبة لمساحة الأرض المنزرعة ، أن يسير اتساعها على نفس المعدل الذى سار عليه تزايد السكان ، أى أن يصل الى حوالى ١٢ مليون فدان ، ولكن الذى حدث فعلا هو اتساع رقعة الأرض المنزرعة فى أثناء نفس الفتره البالغ طولها حوالى ستين عاما ، بمقدار ٣و١ مليون فدان فقط ، أو ما يعادل حوالى ٢٥ ٪ من مساحة الأرض المنزرعة كلها ، ويعنى ذلك إنه فى الوقت الذى تضاعف فيه السكان ثلاث مرات ، زادت مساحة الأرض المنزرعة بمقدار مرة وربع مرة فقط ويمكن القول إن النتيجة الحتمية فى هذه الحالة يعبر عنها الهبوط الواضح والتدهور المستمر فى نصيب الفرد ، حيث هبط من حوالى نصف فدان فى سنة ١٩٠٧ الى أقل من ربع فدان فقط فى الوقت الحاضر .

(ثانيا) يلاحظ الباحث أن الزيادة الفعلية فى رقعة الأرض المنزرعة لاتكاد تتفق أو تتماثل مع الزيادة الفعلية فى مساحة المحاصيل بأى حال من الاحوال . ذلك إن مساحة

المحاصيل ارتفعت وزادت زيادة حقيقية ، من حوالى ٧٫٦ مليون فدان فى سنة ١٩٠٧ الى حوالى ١٠٫٣ مليون فدان فى الوقت الحاضر . وهذا معناه الانجاه الى مضاعفة الإنتاج فى المساحة المنزرعة والتوسع الرأسى عن طريق زراعة قطعة الأرض اكثر من مرة فى السنة الواحدة ، للحصول على أكثر من محصول واحد . ويمكن القول إن ممارسة الرى الدائم وتنظيم الدورة الزراعية كانت الوسيلة المثلى لزيادة الانتاج الزراعى ومساحة المحاصيل ، ولخلق نوع من التوازن والتكافؤ بالنسبة للزيادة الرتيبة فى عدد السكان ، ولمجابهة النقص المستمر فى نصيب الفرد من رقعة الأرض المنزرعة ، هذا ونود أن نشير الى أن نصيب الفرد فى الوقت الحاضر من مساحة المحاصيل ، يبلغ حوالى عشرة قراريط ، على حين أن نصيبه من المساحة المنزرعة قد تدهور الى حوالى ستة قراريط فقط ، وقد تبدو هذه الزيادة فى مساحة المحاصيل غير ذات قيمة بالنسبة للزيادة الهائلة فى عدد السكان ، ومع ذلك فانها تمثل أقصى محاولة لزيادة حجم الانتاج الزراعى دون التوسع فى مساحة الأرض المنزرعة فعلا ، وقد يعبر ذلك فى نهاية الأمر عن احتمال الهبوط فى مستوى الدخل القومى ودخل الأفراد معا ، ومع ذلك فقد استنفدت هذه المحاولات لزيادة مساحة المحاصيل وزيادة حجم الإنتاج الزراعى بهذه الطريقة جهودا مضنية ؛ من أجل توفير مزيد من الماء ، للوفاء باحتياجات الرى الدائم وتنظيم الدورة الزراعية بمواسمها الثلاث ، الصيفى والنيلى والشتوى .

ومهما يكن من أمر فيمكن للباحث أن يتابع العمل المضنى والمجهود المستمر من أجل تحقيق هذه السياسة المائية ، التى استهدفت زيادة مساحة الأرض المنزرعة ومساحة المحاصيل وتحقيق الرى الدائم ، على اعتبار أنه استغرق ثلاث مراحل أساسية . وقد شملت المرحلة الأولى البدايات المبكرة للثورة الزراعية والانقلاب الزراعى فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر . وقد اعتمد العمل فيها على إنشاء وتشغيل القناطر فى مجرى النهر لرفع مناسيب المياه فى موسم انخفاض المناسيب إلى أفمام ترع التوزيع . أما المرحلة الثانية فهى التى أكدت المضى فى تحقيق أهداف الثورة الزراعية ، ومتابعة العمل على رفع مستوى الكفاءة الزراعية وتحسين حجم الغلة من ناحية وزيادة مساحة الأرض المنزرعة ، ومساحة المحاصيل من ناحية أخرى . وقد شهدت هذه المرحلة التنظيمات التى حققت سياسة مرسومة تعتمد على أسلوب التخزين السنوى ، وتسوية الايراد الطبيعى للنيل من موسم الى موسم آخر ، وكانت المرحلة الثالثة التى لم تبدأ بعد بكامل طاقتها ، مشتملة على أساليب من شأنها تسوية الإيراد المائى

فى المدى الطويل ، أو ما نعبر عنه بالتخزين المستمر ، والمفروض أن يفى بزيادة حجم حصة الماء السنوية لمتابعة التوسع الزراعى . ويعنى ذلك أن العمل الانشائى فى هذه المرحلة يتضمن تعبيرا عن الانطلاق فى الثورة الزراعية الى أقصى مدى ، ومتابعة التوسع الأفقى والرأسى فى الانتاج الزراعى على السواء . ويهمنا فى هذا المجال أن نتعرف على صفة العمل فى كل مرحلة من هذه المراحل ، و النتائج المرتبطة بها و بكل الأعمال الإنشائية الضخمة ، التى تنفذ للوفاء بالاحتياجات المائية للنمو فى قطاع الزراعة بصورة أساسية . كل هذا فى إيجاز شديد ودون الدخول فى تفاصيل فنية بالنسبة للعمل الهندسى . كما يهمنا أن نتعرف بعد ذلك كله على خطط المستقبل التى تحقق الاستمرار فى سياسة يكون من شأنها الوصول الى أوسع مساحة يمكن زراعتها والوفاء بالماء اللازم لها .

أولا — مرحلة إنشاء وتشغيل القناطر[1] :

بدأ التفكير فى فجر القرن التاسع عشر الميلادى فى زيادة رقعة الأرض المنزرعة فى موسم انخفاض المناسيب . وكان ذلك يستهدف زيادة حجم الإنتاج الزراعى وتنويعه ، على اعتبار زراعة محصول صيفى جديد بعد أن ينضج المحصول الشتوى ، الذى يعتمد على ماء النيل فى موسم الفيضان . ولما لم يكن من الممكن الاعتماد على الآلات لرفع المياه فى رى مساحات كبيرة فقد اتجه التفكير نحو تعميق أفمام الترع لكى تصل إليها مياه النيل فى موسم انخفاض المناسيب . ولكن تكاليف المشروع الباهظة وحجم مكعبات الحفر الكبير ، وانخفاض منسوب الماء فى ترع التوزيع بعد التعميق بشكل يحمل الفلاح نفقات غالية فى رفع الماء إلى مناسيب الحقول والأرض المنزرعة ، كان — كل ذلك — سببا فى العدول عن هذه الفكرة غير الناضجة وغير الاقتصادية . وقد اتجهت الأفكار مرة أخرى إلى عمل يكون من شأنه رفع منسوب الماء فى النيل الرئيسى ارتفاعا يحقق تغذية أفمام ترع توزيع الماء على الأرض المنزرعة . وكان ذلك سببا دافعا إلى الأخذ بسياسة إنشاء القناطر على مجرى النيل . ويمكن القول أن سنة ١٨٣٣ كانت البداية المبكرة لهذه المحاولات ، التى استهدفت ثورة زراعية شاملة فى الأساليب والمناوبات وفى نظام المواسم والمحاصيل . وقد تم فى هذه السنة

---

(١) راجع الفصل الخـاص عن انشاء القناطر فى كتاب Egyptian Irrigation من صفحة ١٤٦ الى ١٦٩

قفل فم فرع رشيد بسد من الصخور والأحجار الكبيرة لتحويل كل الجريان المائى إلى فرع دمياط ، لكى يرتفع منسوب الماء فيه إلى أفمام ترع التوزيع الكبرى .

وليس ثمة شك فى أن هذا العمل كان مقدمة طيبة أوحت بفكرة استخدام وتشغيل القناطر التى توضع فى مجرى النهر ، وتشتمل على فتحات لها بوابات ضخمة قوية للتحكم فى الجريان وحجم الماء الذى يسمح له بالمرور . وتنحصر وظيفة القناطر فى رفع منسوب الماء أمام جسم البناء الكبير فى عرض النهر ، إلى الارتفاع المعين الذى يصل به إلى أفمام الترع التى تقع على مناسيب أعلى من مناسيب الجريان الطبيعى فى موسم الفيضان ، وبعد انتهاء الفيضان مباشرة . وقد كانت قناطر الدلتا أول تجربة يدخل بها الإنسان المصرى إلى مشارف الثورة الزراعية ، ويمارسها من أجل تحقيق أهداف اقتصادية عظمى . وقد شهدت أرض مصر الزراعية فى سنة ١٨٦٣ بشائر النتائج الايجابية الخطيرة ، التى ترتبت على إتمام العمل فى هذه القناطر وتشغيلها . ويمكن القول أن هذا تسجيل حقيقى للبداية الفعلية فى الثورة الزراعية التى حققت نتائج مؤدية إلى انقلاب زراعى خطير وتنمية اقتصادية شاملة ، واشتمل الانقلاب الزراعى على ممارسة أساليب جديدة فى الرى وزيادة فى مساحة الأرض المروية ريا دائما فى مصر السفلى على الأقل ، كما اشتملت على تنوع كبير فى المحاصيل التى نذكر من بينها القطن . وكان القطن كمحصول نقدى يعنى زيادة فى الدخل العام ، كما يعنى زيادة فى دخل الفرد .

وهكذا تحققت نقطة الانطلاق فى تخطيط شامل جديد للزراعة والانتاج الزراعى من جوانبه المختلفة . وكان النجاح فى تشغيل قناطر الدلتا سببا دافعا مرة أخرى للاستمرار فى إنشاء مجموعة من القناطر المماثلة فى مواقع متفرقة مناسبة على النيل الرئيسى ، لإمكان حجز المياه على المناسيب المناسبة لتغذية ترع توزيع كبرى جديدة ، وزيادة مساحة رقعة الأرض المزروعة المروية ريا دائما ـ ومع ذلك فلقد برهنت السنوات التالية على أن حجم الإيراد الطبيعى فى موسم انخفاض المناسيب لا يكاد يفى بالتوسع فى الرى الدائم . وكان ذلك سببا فى التفكير الجدى فى الأخذ بنظام التخزين السنوى وتسوية الايراد السنوى . وربما كان من الطبيعى أن يدعو ذلك التخزين وزيادة حجم الماء فى موسم انخفاض المناسيب ، أو ما تسمى بالفترة الحرجة إلى المضى فى تنفيذ إنشاء عدد من القناطر . ويبدو أن بناء تلك القناطر فى كل من أسيوط سنة ١٩٠٢ وزفتى سنة ١٩٠٣ ، كان مطلوبا بإلحاح للافادة

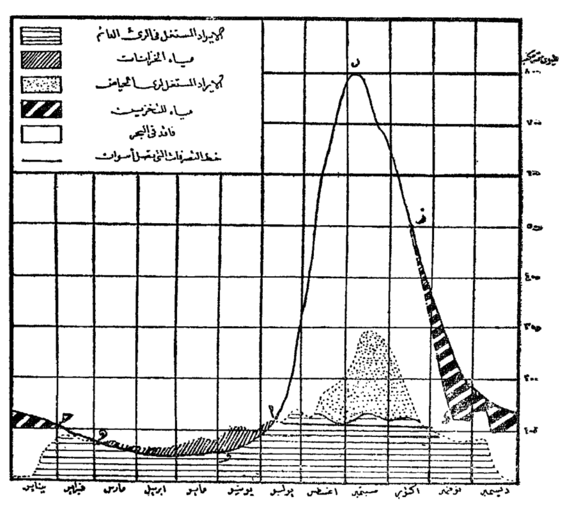
من حجم الماء الذى يختزن فى حوض الخزان أمام سد أسوان ، الذى كان العمل فيه جاريا فى نفس الوقت . ثم تم بعد ذلك بناء قناطر نجع حمادى وقناطر اسنا لزيادة مساحة الأرض المروية والمنزرعة . بل لعل بناء وتشغيل سد جبل الأولياء كان سببا فى تقوية قناطر أسيوط وتعليتها لمجابهة التوسع فى الرى الدائم وزيادة مساحة المحاصيل . وجدير بالذكر أن نشير إلى أن هذه المرحلة التى بدأت فى حوالى منتصف القرن التاسع عشر ، قد استمرت وتداخلت تداخلا تاما مع المرحلة التالية ، التى مارست مصر فيها سياسة التخزين السنوى ـ ذلك أن مجرد تسوية الإيراد السنوى بهذه الطريقة ، وتخزين بضعة مليارات من الأمتار المكعبة كان فى حاجة إلى تنظيم لضمان وصول المياه على مناسيب معقولة إلى الأرض المنزرعة .

ثانيا ــ مرحلة التخزين السنوى وزيادة حجم الإيراد الصيفى :

يمكن القول أن الأخذ بسياسة التخزين وتسوية الايراد الطبيعى السنوى سجل بداية مرحلة خطيرة من مراحل الانقلاب الزراعى والثورة الهادفة إلى زيادة مساحة الأرض المنزرعة بصفة عامة ، وتلبية احتياجات مساحات جديدة تروى ريا دائما وتحقق زيادة فى مساحة المحاصيل وتنظيم الدورة الزراعية فيها . وجدير بالذكر أن نظام الدورة الزراعية كان قد استقر استقرارا تاما فى مساحات كبيرة ، وبات القطن الغلة الرئيسية التى لها كل السيادة فى تنظيم الدورة سواء كانت ثنائية أو ثلاثية . والمفهوم أن التخزين السنوى يكون بصفة عامة من أجل تسوية إيراد النيل من موسم إلى موسم آخر . ويعنى ذلك وضع حد أو التقليل ــ على الأقل ــ من أثر الذبذبة بالنقصان والزيادة التى تتعرض لها مناسيب الجريان الطبيعى فى النيل .

ونود بهذه المناسبة أن نشير الى نظرية التخزين السنوى ، وإلقاء الاضواء على تسوية الايراد المائى الطبيعى ، على النحو الذى يحققه التخزين فى أحواض التخزين أمام جسم السد فى أسوان وجبل الاولياء . ويمكن للباحث على ضوء الرسم البيانى التالى [1] الوقوف على عملية تسوية الايراد من موسم الى موسم آخر ، ويظهر من الرسم البيانى ــ لأول وهله ــ أن خط التصرفات الذى يعبر عن الايراد الطبيعى للنهر طول العام عند أسوان ، لايكاد

(١) دكتور الشامى : مياه النيل دراسة موضوعية صفحة ٩٢ و ٩٣



(١) رسم بيانى يوضح نظرية التخزين السنوى

يوفر كل المياه اللازمة للرى واحتياجات الزراعة فى أثناء الشهور الخمسة من فبراير الى يونيو . ذلك أن الايراد المائى الطبيعى يكون محدودا وضئيلا . بل لعله يتناقص بشكل ملحوظ من شهر الى شهر آخر ، حتى يسجل النهاية الصغرى وأقل المناسيب فى شهر مايو ويونيو من كل عام . واذا كانت صفة الايراد الطبيعى على المناسيب المنخفضة فى الفترة الحرجة Critical Period لاتفى بكل الاحتياجات ، فان الايراد الطبيعى فيما بعد شهر يوليو يسجل زيادة كبيرة على مناسيب عالية . ويزيد الايراد فى هذه الفترة عن الاحتياجات على النحو الذى يبينه خط التصرفات المرموز له بالحروف ا — ب — ج فى الرسم البيانى .

ويتجه التخزين السنوى الى تسوية ذلك الايراد الضخم والفائض الكبير فى أثناء الفترة من شهر أغسطس الى آخر يناير، بحجز جزء من هذا الماء الزائد عن الحاجة ، والذى يمثله فى الرسم البيانى الجزء المرموز له بالحروف ز — د — ج ، ويكون الحجز فى حوض

التخزين أمام جسم السد الكبير الذى يمتد فى وادى النهر من جانب إلى جانب آخر ، ويعلو الى ارتفاع مناسب للحجز . ويمثل هذا الماء المخزون رصيدا ، تضاف منه دفعات تنطلق مع الايراد الطبيعى ، فى كل شهر من شهور الفترة الحرجة ، على النحو الذى يبينه الجزء المرموز له بالحروف ا — و — ه فى الرسم البيانى . ويمكن للباحث أن يلاحظ أن حجما كبيرا من الماء والايراد المائى فى شهور الفيضان وارتفاع المناسيب والذى يحدده الجزء المرموز له بالحروف ا — ب — د ، لا يمكن التحكم فيه أو حجزه . ذلك أنه يمثل المياه التى تزداد فيها نسبة المواد العالقة والرواسب الطبيعية ، والتى لا يمكن حجزها أو استخدامها فى ملء حوض التخزين أمام جسم السد خشية الإطماء والتأثير المباشر على سعة الحوض فى المدى الطويل ، أو بعد عدد من الفيضانات المتتالية . ويعنى ذلك أن هذا الحجم من الايراد المائى فى موسم الفيضان يكون جريانه حرا . ويتحول جزء كبير من هذا الجريان الى فاقد فى البحر المتوسط فى أثناء شهور أغسطس وسبتمبر .

ومهما يكن من أمر فان استخدام هذا الأسلوب من أساليب التخزين وتسوية الايراد كان معناه — كما قلنا — تعديلات هامة وحيوية فى نظام المواسم الزراعية . ذلك أن التحكم فى جزء من ايراد النهر وتخزينه وإطلاقه فى الفترات المناسبة ، كان سبيلا لتحقيق الزيادة المطلوبة فى حجم الإيراد المائى فى الفترة الحرجة ، للوفاء باحتياجات الرى الدائم فى مساحات كبيرة . ولعلنا نشير بهذه المناسبة إلى أن مساحة الأرض المنزرعة قد زادت بصفة عامة من ٤٫٩ مليون فدان فى سنة ١٨٩٧ ، الى ٥٫٤ مليون فدان فى سنة ١٩٠٧ . وكانت الزيادة البالغ قدرها حوالى نصف مليون فدان ، تمثل توسعا أفقيا فى المساحة المنزرعة ، كما كان تنظيم الدورة الزراعية على اعتبار الوفاء باحتياجات الرى فى الفترة الحرجة ، يعنى التوسع الرأسى فى انتاج المحاصيل وزيادة الغلة بصفة عامة . ذلك أن تشغيل سد أسوان فى سنة ١٩٠٣ لأول مرة حقق زيادة فى مساحة المحاصيل ، يمكن أن يدركها الباحث على ضوء المقارنة بين مساحة الأرض المنزرعة فعلا فى سنة ١٩٠٧ ، والبالغ قدرها ٥٫٤ مليون فدان ، ومساحة المحاصيل فى نفس السنة والبالغ قدرها حوالى ٧٫٦ مليون فدان ، وهذا معناه أن حوالى ٢٫٢ مليون فدان كانت تخضع لنظام الدورة الزراعية ، وتعطى أكثر من محصول واحد فى السنة . وتظهر نتائج مماثلة ترتبت على تعلية سد أسوان فى سنة ١٩٣٣ ، وتشغيل سد جبل الأولياء لأول مرة فى سنة ١٩٣٧ وزيادة حجم الماء المخزون لتلبية الإحتياجات المتزايدة فى الفترة الحرجة . وقد سجلت الأرض المنزرعة فى سنة ١٩٤٧ زيادة طفيفة ،

بالقياس إلى مساحة الأرض المنزرعة فى سنة ١٩٣٧ ، حيث ارتفعت من حوالى ٥ر٥ مليون فدان إلى ٨ر٥ مليون فدان ، على حين أن مساحة المحاصيل ازدادت من ٣ر٨ مليون فدان فى سنة ١٩٣٧ ، إلى حوالى ١ر٩ مليون فدان فى سنة ١٩٤٧ . وليس ثمة شك بعد ذلك فى أهمية حجم الماء المختزن فى تحقيق الزيادة الكبيرة فى مساحة المحاصيل على أساس ممارسة الرى الدائم ، ويمكن القول أن حوالى ٣ و ٣ مليون فدان على الأقل من المساحة المنزرعة . كانت تروى ريا دائما وتخضع لنظام الدورة الزراعية ، وتعطى اكثر من محصول واحد فى المواسم الزراعية الثلاث فى السنة .

والمفهوم أن سد أسوان الذى تم تشغيله لأول مرة فى سنة ١٩٠٣ ، وصارت تعليته فى سنة ١٩١٢ ، وتعليته للمرة الثانية فى سنة ١٩٣٣ . يخزن فى حوض التخزين أمامه قدرا من الماء يبلغ خمسة مليارات من الأمتار المكعبة [١] أما سد جبل الأولياء على النيل الأبيض فان حوض التخزين أمامه يحقق خزن كمية أخرى تبلغ مقدرة عند أسوان ٥ر٢ مليارا من الأمتار المكعبة . ويعنى ذلك أن سد جبل الأولياء وسد أسوان يحققان معا ٥ر٧ مليارا من الأمتار المكعبة ، التى تضاف الى الايراد الطبيعى لزيادة المناسيب من أجل الرى الدائم وتحقيق مناوبات الرى الموضوعة بكل دقة للوفاء باحتياجات الزراعة فى الفترة الحرجة . وعلى الرغم من ذلك كله فان التخزين السنوى الذى مارسته مصر والسودان كان يثير القلق فى نفوس بعض الفنيين . ذلك أنهم كانوا يشعرون باستمرار بخطورة الاعتماد على هذا النوع من التخزين ، لأنه لايحقق فى نظرهم كل الرجاء . ويذكرون فى هذا المجال أنه بمراجعة الأرقام الدالة على كل تصرفات النهر والايراد فى مواسم الفيضان فى الثمانين سنة الماضية ، يظهر أنه قد يستحيل امتلاء أحواض التخزين فى حوالى تسع سنين منها [٢] . وبات العجز الطارىء أو المحتمل فى ايراد النهر فى سنة من السنوات خطرا قد يقعد الفنيين ، ويعنى عجزا تاما من مجابهة الاحتياجات وتلبيتها فى الفترة الحرجة ، التالية للفيضان الشحيح . وكان لابد من دراسات مستفيضة عميقة لمواجهة المستقبل ومتابعة زيادة مساحة الأرض المنزرعة ومساحة المحاصيل .

ونود أن نشير الى ما كان متوقعا منذ سنه ١٩٤٦ من حيث عدم كفاية الايراد المائى وماء التخزين للاحتياجات بعد سنة ١٩٥٠ ، والاستمرار فى التوسع الزراعى . والمفهوم أن

(١) Hurst. H. Black, E. q Simaika. Y. M. : The Nile Basin Vol VII p. 44-46

(٢) Simaika, Y. M. : Filling the Asman Reservoir.

ممارسة التوسع كان ضروريا لزيادة مساحة الأرض المنزرعة زيادة تتكافأ مع التطورات المتوقعة في زيادة عدد السكان . وكان تأليف لجنة خبراء مشروعات النيل سنة ١٩٤٨ [١] لدراسة البرامج المعدة لضبط النيل ومتابعة البحث في المراحل التالية للتوسع الزراعي بعد سنة ١٩٥٠ ، أمرا ضروريا تقتضيه السياسة الزراعية والرغبة الملحة في المحافظة على حد أدنى من الأرض المنزرعة كنصيب للفرد ، وقد أشارت اللجنة في تقريرها المفصل الى مساحات الأرض الصالحة للزراعة ، والتي يمكن أن تصل اليها رقعة الأرض المنزرعة في مصر في حالة تدبير حجم الماء الكافي لها ، وزيادة حصة مصر السنوية من مياه النيل . وتتضمن هذه المساحات بعض الأراضي التي تتطلب مجهودا معينا من أجل استصلاحها وإعدادها إعدادا تاما للزراعية . وفيما يلي بيان عام بتلك المساحات بملايين الأفدنة [٢] :

الوصف	مصر السفلى	مصر العليا	المجموع	ملاحظات
مساحة الأرض الصالحة للزراعة	٤,١٨٨	٢,٦٦٢	٦,٨٥٠	
مساحة الأرض التي يمكن زراعتها على ارتفاع ١٠ أمتار	١,٥٦٠	—	١,٥٦٠	
مساحة الأرض التي يمكن زراعتها على ارتفاع ٢٠ متراً	—	٠,٦٧٠	٠,٦٧٠	
نصف مساحة البحيرات الشمالية	,٢٧٠	—	٠,٢٧٠	تتطلب التجفيف والاستصلاح
المساحة الكلية للأرض الصالحة للزراعة	٦,٠١٨	٣,٣٣٢	٩,٣٥٠	
مساحة المجرى وأرض المنافع	٠,٤٢٤	٠,١٧٢	٠,٥٩٦	
مساحة أرض المباني	٠,٠٣٨	٠,٠٣٦	٠,٠٧٤	في المدن والقرى
المساحة الكلية للأرض المستخدمة في غير الزراعة	,٤٦٢	٠,٢٠٨	٠,٦٧٠	
المساحة الكلية	٦,٤٨٠	٣,٥٤٠	١٠,٦٢٠	

(١) كانت هذه اللجنة مشكلة من السادة المهندسين عبد القوى أحمد وحسين سرى وعثمان محرم .

(٢) تقرير لجنة الخبراء لسنة ١٩٤٩ صفحة ١٨

ويظهر من دراسة الأرقام فى هذا الجدول أن المساحة التى قدرتها لجنة الخبراء مخصوما منها مساحة أرض المنافع والمبانى تصل إلى حوالى ٥ر٩ مليون فدان . ويعبر هذا الرقم فى نظرهم على الأقل عن أقصى توسع ممكن فى حدود الوادى الفيضى فى الصعيد والأرض الطينية فى الدلتا وأطرافها الشمالية . ولما كانت المساحة المنزرعة فعلا فى الوقت الحاضر تبلغ حوالى ٦ر٢ مليونا من الأفدنة فقط ، فإن ذلك يعنى إمكانية التوسع فى حوالى ٣ ملايين من الأفدنة الجديدة . وقد أشارت اللجنة فى دراستها وفى التقرير المقدم منها إلى أن تحقيق هذا التوسع الأفقى فى المساحة المنزرعة يتطلب مزيداً من الماء ، ورفع حصة مصر من الماء سنوياً وخاصة فى أثناء الفترة الحرجة . كما أشارت إلى أهمية هذا التوسع وضرورة تحقيقه فى أسرع وقت ممكن لمجابهة الزيادة الرتيبة المنتظمة فى عدد السكان ، وعلى اعتبار أن تنمية قطاع الزراعة وزيادة المساحة المنزرعة وسيلة مثلى للمحافظة على مستوى دخل الأفراد والدخل القومى بصفة عامة .

ويهمنا بهذه المناسبة أن نتعرف على التقديرات العامة لاحتياجات مصر من مياه النيل على ضوء ما عرضه الخبراء فى تقريرهم ، وكل الدراسات الشاملة التى أجريت بشأن هـذا الموضوع . هذا مع العلم بأنهم قد أدخلوا فى حسابهم كل مراحل التوسع الأفقى فى الأرض الصالحة للزراعة والقابلة للاستصلاح من جانب ، كما وضعوا فى اعتبارهم كل العوامل المحيطة بالجريان المائى وطبيعة الإيراد المائى السنوى من الأحباس العليا الحبشية والاستوائية، وحساب التصرفات فى كل الأوقات من جانب آخر . وقد قدر الخبراء للمساحة المنزرعة أن تتسع فى المرحلة الأولى اتساعا أفقيا فى المساحات التى تصل بالرقعة المنزرعة إلى حوالى ٥ر٨ مليونا من الأفدنة ، ثم يزداد الاتساع الأفقى فى مرحلة تالية إلى حوالى ١٠ مليونا من الأفدنة . وقد أوصوا بسياسة مائية جديدة لتوفير حجم الحصة من الماء ، التى تفى باحتياجات التوسع فى كل مرحلة من هاتين المرحلتين . ويبدو أنهم اتجهوا هذه الوجهة لأنهم أدركوا أن السياسة المائية الموضوعة فى سنة ١٩٤٠ ، جاءت مبنية على تقديرات غير صحيحة بالنسبة للنمو السكانى على الأقل . وقد جاء تقرير سنة ١٩٤٠ [١] على أساس إحصاء

---

(١) راجع بحث المهندس حامد سليمان فى سنة ١٩٤٧!

السكان لسنة ١٩٣٧ — مقدرا للعمل الهندسى وتنظيم الجريان وزيادة حصة مصر من الماء أن يحافظ على مستوى نصاب الفرد من الأرض المزروعة بحوالى سبع قراريط . وجدير بالذكر أن أصحاب هذا التقرير قد وضعوا فى اعتبارهم أن احتياجات مصر من ماء التخزين ستزداد من ٧٫٥ مليارا من الأمتار المكعبة ، يحققها تشغيل سد أسوان وسد جبل الأولياء إلى ١٨ مليارا من الأمتار المكعبة فى سنة ١٩٧٠ وقد اقترح هذا التقرير لسنة ١٩٤٠ توقف التوسع الأفقى الزراعى فى سنة ١٩٧٧ ، عندما تبلغ مساحة الأرض المزروعة حوالى ٧٫٥ مليونا من الأفدنة . وأساس الخطأ فى تقديرات مقررى السياسة المائية والتوسع الزراعى سنة ١٩٤٠ ، أنهم افترضوا وصول عدد السكان على أساس معدل زيادة طبيعية مفترض بنسبة ١٫١٪ فى سنة ١٩٧٧ إلى حوالى ٢٥ مليون نسمة . ولكن لما صدرت نتائج تعداد سنة ١٩٤٧ ، تحطم هذا الرقم وذلك المعدل المفترض ، حيث قفز عدد السكان بمعدل زيادة سنوية بلغت ١٫٩ ٪ إلى أكثر من ١٩ مليون نسمة .

وهكذا كان من الطبيعى أن تتجه لجنة الخبراء لسنة ١٩٤٩ الى رسم خطة مائية جديدة تتلاءم مع الواقع الجديد من ناحية ، ومع احتمالات ازدياد معدلات النمو السكانية بعد اهتمام الحكومة بالخدمات الصحية والعمل على رفع مستوى المعيشة من ناحية أخرى . وقد استغرقت مجهودات لجنة الخبراء — كما قلنا — دراسات وافية للنهر وايراده المائى ، وانتهت الى تحقيق شامل لكل احتياجات الزراعة والتوسع الزراعى المرتقب . ويبين الجدول التالى بالتفصيل الحاجة الى الماء بمليارات الأمتار المكعبة للتوسع الزراعى الى مساحة ٨٫٥ مليون فدان ، ثم إلى ١٠ مليون فدان . وهذا الرقم الأخير فى رأى لجنة الخبراء وكل الباحثين على وجه العموم أقصى توسع زراعى ممكن فى كل من مصر العليا ومصر السفلى ، وعلى الهوامش المرتفعة على مناسيب تتراوح بين ١٠ و ٢٠ متراً .

ويمكن للباحث أن يدرك قيمة هذه الأرقام والتقديرات التى يوضحها هذا الجدول ، وأن يتعرف على كل النتائج المترتبة عليها على ضوء عدد من الأمور .

الموسم	التاريخ	رى السواحل	رى منخفض ج	احتياجات الملاحة	مساحة ٨ر٥ مليون فدان		مساحة ١٠ مليون فدان	
					الرى الدائم	الجملة	الرى الدائم	الجملة
الفيضان	١ — ٣١ أغسطس	١ر	١ر	٤ر٠	٨ر١	١٢ر٣	٩ر٥	١٣ر٧
	١ — ١٩ سبتمبر	١ر	١ر	٢ر٥	٥ر١	٧ر٨	٦ر٠	٨ر٧
	المجموع	٢ر	٢ر	٦ر٥	١٣ر٢	٢٠ر١	١٥ر٥	٢٢ر٤
التخزين	٢٠ — ٣٠ سبتمبر	٠٥ر	—	١ر٣	٢ر٦	٣ر٩٥	٣ر١	٤ر٤٥
	١ — ٣١ أكتوبر	١٥ر	—	—	٧ر٥	٧ر٦٥	٨ر٨	٨ر٩٥
	١ — ٣٠ نوفمبر	١٥ر	—	—	٥ر٤	٥ر٥٥	٦ر٤	٦ر٥٥
	١ — ٣١ دسمبر	٠٥ر	—	—	٤ر٤	٤ر٤٥	٥ر٢	٥ر٢٥
	١ — ٣١ يناير	—	—	—	٣ر٠	٣ر٠	٣ر٠	٣ر٠
	المجموع	٤ر	—	١ر٣	٢٢ر٩	٢٤ر٦	٢ر٦٥	٢٨ر٢
الصيفى	١ — ٢٨ فبراير	—	—	—	٤ر٣	٤ر٣	٥ر١	٥ر١
	١ — ٣١ مارس	—	—	—	٤ر٤	٤ر٤	٥ر٢	٥ر٢
	١ — ٣٠ أبريل	—	—	—	٤ر٤	٤ر٤	٥ر٢	٥ر٢
	١ — ٣١ مايو	—	—	—	٦ر٠	٦ر٠	٧ر١	٧ر١
	١ — ٣٠ يونيه	—	—	—	٦ر٩	٦ر٩	٨ر٢	٨ر٢
	١ — ٣١ يوليه	—	—	—	٨ر٧	٨ر٧	٩ر٧	٩ر٧
	المجموع	—	—	—	٣٤ر٢	٤٣ر٢	٤٠ر٥	٤٠ر٥
الاحتياجات السنوية						٧٨ر٩		٩١ر١

ويتعلق الأمر الأول بالفهم السليم للارقام الدالة على كل الاحتياجات الفعلية فى الوقت الحاضر ، وعلى اعتبار أن مساحه الأرض المنزرعة فى مصر ما زالت لا تتجاوز ٦ر٢ مليون فدان . وتشير تقارير الخبراء فى هذا المجال الى أن جملة الاحتياجات لكل من مصر

والسودان تبلغ حوالى ٦٤ مليارا من الأمتار المكعبة فى السنة ، وأن توزيعها يكون على اعتبار أن حصة مصر تبلغ حوالى ٥٨٫٣ مليارا من الأمتار المكعبة ، وأن حصة السودان — مقدرة عند أسوان — تبلغ حوالى ٥٫٧ مليارا من الأمتار المكعبة سنويا[1] . والمفهوم أن جملة هذه الاحتياجات لا تقل عن متوسط حجم الإيراد الطبيعى للجريان النيلى طول العام ، ومع ذلك فإن الخطورة تنجم عن علمنا بأن إيراد الفترة الحرجة لا يكاد يزيد فى المتوسط عن ١٣٫٥ مليارا من الأمتار المكعبة ، وأن اى توسع فى المساحة المنزرعة يتطلب مزيدا من الماء . ذلك أن تسوية الإيراد السنوى فى الوقت الحاضر وتخزين سبع مليارات ونصف مليار من الأمتار المكعبة لصالح مصر ، يكاد يفى بالكاد بحاجة المساحة المنزرعة فعلا الآن ، ولا يمكن التوسع الأفقى فى مساحات جديدة دون زيادة الحصة السنوية من الماء فى الفترة الحرجة .

أما الأمر الثانى فيرتبط بالفهم السليم لعدم جدوى الأخذ بسياسة التخزين السنوى لتحقيق التوسع الكبير الأفقى فى المساحة المنزرعة فى مصر . ذلك أن سياسة التخزين السنوى اصطدمت بحقيقة هامة مرتبطة باحتمالات العجز فى الفيضان فى سنة من السنوات ، وعدم الوفاء بالحجم الكافى لكى تمتلأ الخزانات . ويمكن القول أن هذا مرجعه إلى العلم بالأرقام التى تعبر

---

(١) احتياجات مصر الحالية لزراعة ٦٫٢ مليون فدان يصير توزيعها والوفاء بها على النحو التالى :

(ا) الاحتياجات عند اسوان فى موسم الفيضان	١٣٫٣٠ مليارا
(ب) الاحتياجات عند اسوان لملء الخزانات من اكتوبر الى يناير	١٧٫٠ مليارا
(ج) الاحتياجات عند اسوان فى الفترة الحرجة من فبراير الى يونيو	٢١٫٢ مليارا
(د) الاحتياجات عند اسوان فى الفترة الحرجة من ١ يوليو الى ٣١ يوليو	٦٫٨ مليارا
جملة الاحتياجات السنوية لمصر	٥٨٫٣ مليارا

أما احتياجات السودان فيصير توزيعها على النحو التالى :

(ا) الاحتياجات فى الفترة الحرجة من يناير الى يوليو	٢٫٨ مليارا
(ب) الاحتياجات فى الفترة من يوليو الى ديسمبر	٤٫٤ مليارا
جملة الاحتياجات عند سنار	٧٫٢ مليارا
جملة الاحتياجات مقدرة عند اسوان	٥٫٧ مليارا

جملة الاحتياجات لكل من مصر والسودان = ٥٨٫٣ + ٥٫٢ = ٦٣٫٥ مليارا

عن متوسط الايراد النهرى فى السبعين أو الثمانين سنة الماضية ، وتعرض الإيراد السنوى فى بعض السنوات للتدهور الشديد على النحو الذى حدث فى سنة ١٩١٣ ، حيث سجل الايراد النيلى رقما يبلغ ٤٥ مليارا من الامتار المكعبة فقط . وهذا الرقم الخطير لايمكن مهما بذلت الجهود فى سبيل تسوية الايراد ، أن يفى بالاحتياجات المائية السنوية بالنسبة لمصر وحدها . أما الأرقام التى تعبر عن متوسط الايراد الطبيعى للفترة من سنة ١٨٧١ الى سنة ١٨٩٨ ، وهى ١٠٣ مليارا من الامتار المكعبة ، ومتوسط الايراد الطبيعى للفترة من سنة ١٨٩٩ ، الى سنة ١٩٣٦ ، وهى ٨٣ مليارا من الامتار المكعبة ، فانها تظهر من ناحية أخرى وتعبر عن عدم الوفاء فى حالة استخدام التخزين للسنوى بالاحتياجات الكاملة للتوسع الأفقى فى المساحة المنزرعة فى مصر الى حوالى ١٠ مليونا من الأفدنة . ذلك أن الخبراء أشاروا الى أن الاحتياجات المائية المطلوبة لهذا التوسع فى مصر تبلغ ٩١٫١ مليارا من الأمتار المكعبة . وهذا الرقم يزيد عن متوسط الايراد النهرى الطبيعى للفترة من سنة ١٨٧١ الى سنة ١٩٣٦ [1] .

وهكذا كان من الضرورى أن يتجه التفكير السليم فى اتجاهين هامين . يحقق الاتجاه الأول مزيدا من الاطمئنان على الاحتياجات والوفاء بها ، ويحقق الثانى تقليل حجم الفاقد من الايراد الطبيعى للنيل ، وزيادة ايراد النهر بصفة عامة . ويعنى ذلك أن التفكير والبحث اقتضى ضرورة الاعتماد على التخزين المستمر Over Year Storage ، لتسوية الايراد الطبيعى للنهر على عدد كبير من السنوات . كما كان يعنى مجابهة الفاقد من ماء النهر الوارد من الأحباس الإستوائية العليا ، ويصير ضياعه فى مستنقعات بحر الجبل . وقد سار البحث فى أمر مشروعات كثيرة ، بعضها له القدرة على ممارسة التخزين المستمر ، كمشروع التخزين المستمر فى بحيرة فكتوريا وبحيرة البرت وبحيرة تانا ، ويفى بعضها الآخر بالتخزين السنوى لمصر كمشروع خزان شلال دال ، ومشروع خزان الشلال الثانى ، ومشروع خزان مروى ، أو للسودان كمشروع خزان الرصيرص ومشروع خزان خشم القربة ومشروع خزان غمبيلا . كما اهتمت الدراسات والبحث بأمر الفاقد فى مستنقعات بحر الجبل وتوفير قدرا من الماء الضائع الذى يقدره هرست بحوالى ٣٠ مليارا من الأمتار المكعبة سنويا . [2] ولعلنا

(١) الشامى مياه النيل صفحة ١٢١ و ١٢٢
(٢) هرست موجز عن حوض النيل صفحة ٧٥

نشير الى أن كل هذه المشروعات كانت تركز على ايراد النهر من المنابع الاستوائية ، وتعمل على زيادة حجمه وتسوية جريانه للوفاء بكل الإحتياجات . ويعنى ذلك من ناحية أخرى صرف النظر كلية عن معظم الايراد الموسمى الذى يضيع معظمه فى البحر فى الشهور الأولى من الفيضان فى أغسطس وسبتمبر . ذلك أنه لايمكن التحكم فيه نتيجة لارتفاع نسبة الرواسب والمواد العالقة به والخوف من تأثير الإطماء على سعة أحواض التخزين السنوى . وهذا معناه خسارة كبيرة أخرى وفاقد عظيم لمعظم الإيراد المائى الموسمى ، الذى يمثل حوالى ٦٠ ٪ من الإيراد الطبيعى السنوى للنيل .

ومهما يكن من أمر فإن البحث فيما حول كل هذه الأمور والرغبة الملحة فى التوسع الزراعى فى مصر لم تنته إلى نتيجة إيجابية ، حتى صار التفكير فى إنشاء السد العالى ، وتحقيق التخزين المستمر وزيادة حجم الماء والحصة السنوية لمصر ،وبالتالى تحقيق التوسع فى مساحات جديدة لمجابهة الزيادة فى عدد السكان .

(ثالثا) مرحلة التخزين المستمر وإنشاء السد العالى :

قلنا أن الاتجاه إلى التخزين المستمر وتسوية الإيراد الطبيعى لمدة عدد كبير من السنوات قد استغرق جهدا عظيما من حيث الدراسة والمباحث المائية ، التى قامت بها مصر على الطبيعة على طول امتداد النيل وروافده . وكانت هذه الدراسات المستمرة من أجل البحث عن الموقع أو المواقع الصالحة ، للوفاء بأهداف هذا النمط من أنماط التخزين . ونود أن نذكر أن من أهم النتائج التى صار اتفاق الفنيين والمختصين عليها ، هو البحث عن الموقع الملائم للتخزين المستمر شمال النقطة التى يقترن عندها النيل الأزرق والعطبرة بالنيل الرئيسى ، وذلك على اعتبار تخزين بعض الماء الذى يمثل فاقدا كبيرا فى موسم الفيضان . وقد دلت الأبحاث الفنية قبل ثورة ٢٣ يوليو على أنه لا يكاد يوجد على النيل الرئيسى من فم نهر العطبرة إلى موقع وادى حلفا أى موقع مناسب أو صالح لإنشاء السد العظيم الذى يحقق أهداف التخزين المستمر فى مجرى النهر وواديه الضيق . هذا وقد دلت الأبحاث من ناحية أخرى على أن نسبة الفاقد بالتبخر فى أى حوض من أحواض التخزين التى تستخدم فى حدود هذه المسافة المذكورة ، تزيد عن نسبة الفاقد بالتبخر فى حوض التخزين أمام جسم سد أسوان الحالى . وتبلغ نسبة هذا الفاقد بالتبخر بالنسبة لحوض خزان أسوان حوالى ٧ ٪ من مكعب التخزين الكلى ، على حين أن هـذه النسبة تتراوح بالنسبة للمواقع الأخرى

بين حلفا وعطبرة بين ٨ر٥./و ١٠ ٪ من مكعب التخزين السنوى ونحو ١٨ ٪ بالنسبة للتخزين المستمر (١) .

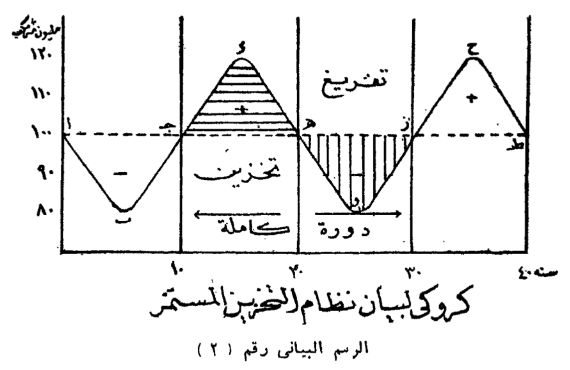
ومع ذلك فقد وجدت فكرة التخزين المستمر فى وادى النهر نفسه بعد الثورة ترحيبا شديدا ، لأن مصر كانت ترغب رغبة حقيقية فى عدم الاعتماد على التخزين المستمر فى خارج حدودها السياسية ، حتى لا يستغل كأداة للضغط عليها من وجهتى النظر الاقتصادية والسياسية معا وقيل فى مجال تفضيل الأخذ بهذه السياسة الجديدة أن التخزين المستمر فى وادى النهر فى داخل الأرض المصرية من شأنه التحكم والسيطرة على مياه النيل بطريقة تضمن لها زيادة كبيرة تصل بالحصة السنوية لمصر الى ٧٠ مليارا من الأمتار المكعبة ، على حين أن التخزين المستمر بالنسبة للمشروعات الأخرى فى الهضبة الاستوائية لاتضمن بالنسبة لاحتياجات مصر والسودان معا مقدرة عند اسوان ، أكثر من ٦٦ مليارا من الأمتار المكعبة . وهكذا كانت فكرة السد العالى التى ظهرت لأول مرة فى نوفمبر سنة ١٩٥١ فى بحث صغير اعده وكتبه مستر ادريان دانينوس ، محققة للآمال وكل الأهداف الرامية الى تحقيق حجم كبير من الماء من أجل التوسع الأفقى فى المساحة المنزرعة وزيادة مساحة المحاصيل وتعميم الرى الدائم . ونود قبيل الاشارة الى هذا المشروع الضخم والتعريف به وبأهميته البالغة فى تحقيق التوسع الأفقى والرأسى فى الأرض المنزرعة ، أن نتحدث عن نظرية التخزين المستمر وتسوية الايراد المائى النيلى لعدة سنوات .

والمقصود من ممارسة التخزين المستمر هو تسوية الايراد الطبيعى لعدد كبير من السنوات تسوية يكون من شأنها أن تضع حدا للذبذبة التى تطرأ على الايراد الطبيعى من سنة إلى سنة أخرى . ويمكن القول إن احتمال الذبذبة فى الإيراد الطبيعى لنهر النيل بالزيادة أو بالنقصان كبير بشكل ملحوظ . ذلك أن الايراد الطبيعى للسنة يتراوح بين نهاية صغرى تقدر بحوالى ٦٥ مليارا من الأمتار المكعبة ، ونهاية عظمى تقدر بحوالى ١٣٠ مليارا من الأمتار المكعبة . بل لعل بعض السنوات الشاذة الطارئة التى يسجل الايراد الطبيعى فيها هبوطا خطيرا ، تكون شحيحة بحيث يتدهور الايراد السنوى الى ٤٥ مليارا من الأمتار المكعبة فقط (٢) . وعندئذ يكون الخطر محتما وجسيما ،

(١) تقرير مجلس الانتاج القومى لسنة ١٩٥٥ صفحة ١٢٩ و ١٣٠

(٢) سجل هذا الايراد الطبيعى فى سنة ١٩١٣ ، حيث كان النيل شحيحا الى أبعد حدود الشح .

لأن هذا الرقم يقل بشكل ملحوظ عن حجم الاحتياجات المائية اللازمة للرى فى كل من مصر والسودان فى الوقت الحاضر . وهكذا يمكن القول أن التخزين المستمر لن يؤدى الى زيادة وتسوية الايراد الطبيعى والإستفادة منه فى زيادة حصة مصر وحصة السودان لمتابعة التوسع فى الارض المنزرعة فحسب ، بل لعله الوسيلة المثلى لوضع حد لكل خطر محتمل حدوثه بشأن الذبذبة التى تصل تقديرا الى حوالى ٥٠ ٪ بالزيادة ، أو بالنقصان ، بالنسبة لمتوسط حجم الايراد الطبيعى السنوى .



الرسم البيانى رقم (٢)

ويمكن للباحث أن يعتمد على الرسم البيانى (٢) للتعرف على نظرية التخزين المستمر ، التى تقوم على تسوية الايراد الطبيعى لعدة سنوات وحجز كل المياه الزائدة عن الاحتياجات فى سنوات الزيادة للوفاء بالاحتياجات فى بعض السنوات التى يتميز الايراد الطبيعى فيها بالشح والنقصان . ويمثل الخط المرموز له بالحروف (ا ، ب ، جـ ، د ، هـ ، و ، ز ، ح ، ط) فى الرسم البيانى خط الايراد الطبيعى للنهر فى أثناء فترة طويلة تستغرق اربعين سنة كاملة . ولعل من الواضح أن التصرف من الايراد الطبيعى يتذبذب بين نهاية صغرى قدرها ٨٠ مليونا من الأمتار المكعبة فى اليوم الواحد ، ونهاية عظمى قدرها ١٢٠ مليونا من الأمتار المكعبة فى اليوم الواحد . وتكون هذه الذبذبة واضحة غاية الوضوح وهى منسوبة للخط الذى يحقق الاحتياجات ، والذى يرمز له فى الرسم البيانى بالخط المنتظم

المستقيم الممتد من ا الى ط ، ويسجل تصرفا يبلغ قدره ١٠٠ مليونا من الامتار المكعبة فى اليوم الواحد . ويظهر من مقارنة خط التصرفات الطبيعية بخط الاحتياجات أن هناك مرحلة أو فترة تحددها على الرسم البيانى المثالى الحروف ج ، د ، ه ، و ، ز ، تمثل دورة كاملة هى التى يتناولها التخزين المستمر بالتسوية . ونحن اذا ما بدأنا من النقطة ج ، نلاحظ أن الايراد الطبيعى يتمشى تماما مع معدل الاحتياجات ، ولكنه يأخذ بعد ذلك فى الارتفاع والزيادة الى أن يصل الى نهاية عظمى عند النقطة د . ثم نلاحظ بعد ذلك الارتفاع إلى النهاية العظمى هبوطا الى النقطة ه ، وهى التى تتمشى فيها تصرفات الايراد الطبيعى مرة أخرى مع معدل الاحتياجات للزراعة . ويعنى ذلك على كل حال أنه فى هذه الفترة تكون الفرص مواتية لزيادة فى حجم الايراد الطبيعى تتفاوت من سنة الى سنة أخرى ولكنه يصل فى سنة من السنوات الى قمة تمثل نهاية عظمى . ويلاحظ الباحث بعد ذلك هبوطا واستمرارا فى الهبوط يسجله الايراد الطبيعى فيما بعد النقطة ه ، حتى يصل الهبوط الى نهاية صغرى عند النقطة و . ويظهر الاعتدال والعودة الى الزيادة الى أن تصبح النقطة ز معبرة عن وصول التصرف من الايراد الطبيعى الى الحد الذى يتعادل فيه مع معدل الاحتياجات . وهذه الفترة التى تستغرق هبوط التصرف من الايراد الطبيعى عن المعدل ، من النقطة ه الى نهاية صغرى يرمز لها الحرف و ، وعودة الى المعدل فى النقطة ز ، تسجل عجزا فى الايراد الطبيعى السنوى فى كل سنة من سنواتها ، وبحيث ينخفض بدرجات متفاوتة عن المعدلات ، وكانت النقطة د رمزا للقمة أو للنهاية العظمى ، قد استغرقت عشر سنوات كاملة ، وأن فترة الشح والنقصان التى يسجل الايراد الطبيعى فيها نقصانا عن المعدلات وكانت النقطة ز رمزا للنهاية الصغرى ، وقد استغرقت عشر سنوات أخرى ، فان ذلك يعنى بوضوح أن الجزء على الرسم البيانى المرموز له بالحروف ج ، د ، ه يسجل الزيادة والفائض عن المعدلات ، على حين أن الجزء المرموز له بالحروف ه ، و ، ز يسجل الشح والنقصان عن المعدلات ، ويمكن أن يؤدى التخزين المستمر فى موقع من المواقع الصالحة من وجهة النظر الفنية إلى تسوية الايراد الطبيعى ، تسوية تكفل تحقيق الاحتياجات فيما بين فترتى الشح والزيادة . ذلك أن التخزين المستمر سوف يحجز ويختزن قمة الماء الزائدة عن معدلات الاحتياجات ، والتى يمثلها على الرسم ج ، د ، ه ، لكى تكون رصيدا يصير صرفه وإضافته إلى الإيراد الطبيعى ، لتعويض العجز والشح فى الفترة التالية ، التى يسجل الإيراد الطبيعى فيها نقصانا عن معدل الاحتياجات [1] .

---

(١) الشامى مياه النيل دراسة موضوعية صفحة ٩٤ ، ٩٥

وكانت مصر ترى ضرورة الأخذ بسياسة التخزين المستمر فى الموقع الصالح والمناسب ، الذى يوفر لها كل الاحتياجات المائية ، ويقلل الفرص أمام الذبذبة الكبيرة فى حجم الإيراد الطبيعى ، ويكفل لها سبل التوسع الأفقى والرأسى فى مساحات جديدة تسد حاجة السكان المتزايدين بمعدل كبير . وقد أشرنا الى الاتجاه نحو تنفيذ مشروع السد العالى ، لاعتبارات كثيرة متعددة . ونذكر منها بصفة خاصة الإعتبارات المرتبطة بالموقع الجغرافى وقرب حوض التخزين من أرض مصر ، بالشكل الذى يضمن للزراعة سرعة الاستجابة ، كما يضمن الاستفادة من مياهه على الوجه المطلوب . ونحن على كل حال لن ندخل فى سرد تفاصيل كثيرة حول تنفيذ مشروع السد العالى ، سواء كانت تتعلق بمجرد الفكرة فى بداية المراحل المبكرة من حيث الإعداد والتجهيز والتصميم والتمويل ، أو كانت تتعلق بالبحث والدراسات من أجل الإنشاء والعمل ووضع خطة التشغيل . ومع ذلك فلا يفوتنا أن نقرر ضخامة العمل الذى يعبر عن كل معنى من معانى قوة العزيمة والتصميم ، بقدر ما يعبر عن الأمل المرتقب بشأن التوسع الأفقى والرأسى فى مساحات جديدة من الأرض المنزرعة . وتنمية قطاع الزراعة . بل لعلنا نسجل فى هذا المجال حقيقة الارتباط الوثيق بينه وبين العمل الوطنى القومى ، حتى بات رمزا على كفاح شعب كبير ، من أجل وضع كل الطاقات والقدرات فى سبيل تطوير الزراعة والمضى بالثورة الزراعية وزيادة مساحة الأرض المنزرعة من ناحية ، وتنمية قطاع الصناعة على اعتبار أنها سوف تجد فى الكهرباء الناجمة عن استغلال تدفق الماء منه ، قوة محركة هائلة من ناحية أخرى . ويعنى ذلك أنه تعبير واقعى عن المضى بالثورة الزراعية والانقلاب الزراعى إلى قمة جديدة ، تسجل الجهد فى سبيل رفع مستوى المعيشة والدخل القومى .

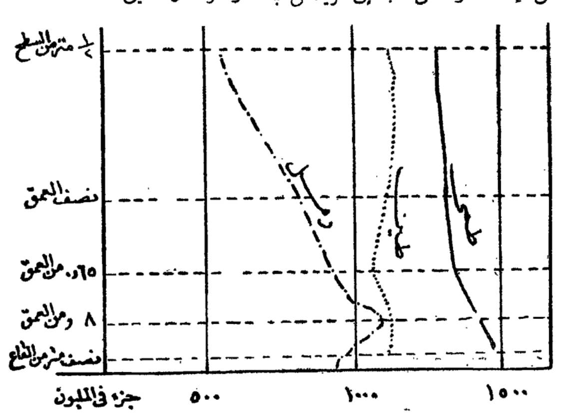
ونحن عندما نهتم بدراسة السد العالى من وجهة النظر الموضوعية ، يكفينا فى هذا المجال أن نتعرف على سعة حوض التخزين وتشغيله لكى ندرك حجم الماء ، أو الحصة التى يحققها لمصر هذا النوع من التخزين المستمر من ناحية . كما يهمنا من ناحية أخرى أن نتعرف على كل الآثار الاقتصادية التى سوف تتحقق بعد وصول العمل فيه والتشغيل إلى نهاية الشوط . ويعنى ذلك إننا لن نجد الفرصة المناسبة أو المجال الذى يسمح لنا بالتعريف بالتصميم المعتمد للمشروع أو بكل الخطوات الإيجابية فى مجال الإنشاء والبناء ، ووضع جسم السد موضع التنفيذ الفعلى .

وقد استغرقت عملية تقدير سعة حوض التخزين أمام جسم السد العالى عملا شاقا ، وخبرة فنية عالية . واشتمل العمل على مساحة وتحقيق ١٧ قطاعا عرضيا فى الوادى ، فى المسافة فيما بين أسوان وشلال دال جنوب حلفا . وكان من حساب النتائج أن سطح حوض التخزين فى هذه المسافة يصل إلى حوالى ٣٣٠٠ كيلو مترا مربعا . وكان حساب الفاقد بالتبخر مبنيا على اعتبار أن متوسط الفاقد فى السنة من سطح هذا الحوض ، يبلغ حوالى ١٫٨ مترا . وقد قدر هذا الفاقد بحوالى ٩ مليارات من الأمتار المكعبة . وأسهمت الدراسات المبنية على المساحة الهيدروجرافية ، ودراسات أخرى مرتبطة بالمساحة الجوية فى تقديم كل البيانات اللازمة لتقدير سعة حوض التخزين . ويمكن القول إنها سعة كبيرة للغاية ، وإنها تنقسم إلى ثلاثة أقسام رئيسية ، هى السعة للتخزين المفقود ، والسعة للتخزين الحى ، والسعة المعمول حسابها للوقاية من الفيضان وارتفاع المناسيب .

والمقصود بالسعة للتخزين المفقود هو حجم القطاع الذى سوف يتعرض فى المدى الطويل، لإرساب المواد العالقة بالماء كالرمل الناعم والخشن والسلت والطين . وقد قدرت هذه السعة بحوالى ٣٠ مليارا من الأمتار المكعبة . وتتحقق هذه السعة عند منسوب ١٤٧ مترا أمام جسم السد . ويقدر الفنيون القطاع الذى يشمل هذه السعة ، على اعتبار أنه يكفى لإرساب وتراكم المواد العالقة فى مدة تبلغ حوالى ٥٠٠ سنة . وذلك على أساس أن معدل الإرساب المتوقع سوف يكون حوالى ٦٠ مليونا من الأمتار المكعبة فى السنة الواحدة . ونود بهذه المناسبة أن نشير إلى أن الدراسات الخاصة بحساب المواد العالقة قد استغرقت وقتا طويلا وجهدا عظيما ، وخاصة لأنها اتصلت دائما بتشغيل سد أسوان والحجز عليه ، وتوقيت التواريخ المناسبة لبداية مراحل الحجز والتخزين . وأثبتت هذه الدراسات والمباحث أن نسبة المواد العالقة فى مياه النيل ، تبلغ فى موسم انخفاض المناسيب ٤٠٠ جزء فى المليون ، ثم تتزايد فى موسم الفيضان إلى ٤٠٠٠ جزء فى المليون . وقد قدر الفنيون كمية الطمى والرواسب والمواد العالقة بالماء المارة بالموقع بحوالى ٣ ملايين من الأطنان فى اليوم الواحد ، أو ما يعادل إرساب طبقة يبلغ سمكها ٤ ملليمترات على قاع حوض التخزين . ويظن أن الحجم من المواد العالقة الذى يمر بوادى حلفا فى السنة الكاملة يزن حوالى ١١٠ مليونا من الأطنان فى المتوسط[1] . ويتفاوت حجم هذه المواد العالقة

(١) يزن المتر المكعب من المواد العالقة بماء النيل حوالى ١٫٨ طنا .

كما تتفاوت أقطارها ؛ لكى تتراوح بين الرمل الخشن والرمل الناعم والطين والغرين [١] .
ويمكن الاعتماد على الرسم البيانى التالى لبيان توزيع المواد العالقة فى القطاع الرأسى للجريان المائى فيما بين حلفا وأسوان . وجدير بالذكر أن نشير إلى إن معظم هذه المواد العالقة تصل فى شهور الفيضان ، ويمثل الرمل الناعم ٣٠ ٪ من هذه الحمولة ، ويمثل الطين حوالى ٣٠ ٪ أخرى ، على حين إن نسبة الطمى ترتفع قليلا لكى تمثل ٤٠ ٪ من مجموع الحجم الكلى للحمولة العالقة [٢] . ومهما يكن من أمر فإن السعة المحسوبة للتخزين المفقود كبيرة ، ويكفى أن ندرك إنها سوف تستغرق خمسمائة سنة قبل أن تمتلأ بالرواسب تماما ، وتتأثر تبعا لذلك السعة الأساسية للتخزين الحى - وليس ثمة شك بعد ذلك فى أن المعلومات عن الإطماء ما زالت فى حاجة إلى المزيد من البحث والدراسة والتحقيق .



رسم بيانى يوضح توزيع المواد العالقة فى الجريان الطبيعى بين حلفا وأسوان

وإذا انتقلنا الى الحديث عن السعة المقدرة للتخزين الحى ، فيجب علينا أن نشير الى إنها مقدرة على اعتبار أن حجم الماء فيها مطلوب منه الوفاء باحتياجات الرى والملاحة

---

(١) Selim, M.A. ; The High Dam Project P. 119

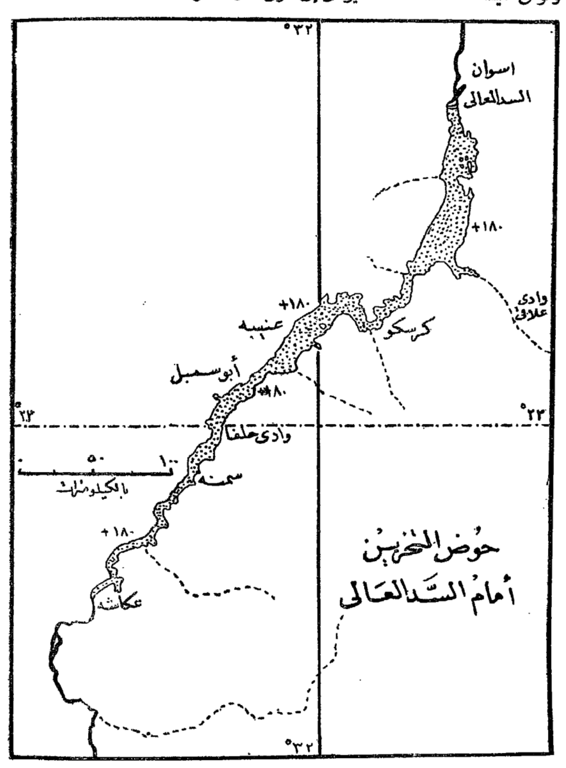
(٢) Simaika, Y.M ; The Suspended Matteu in the Nile,

فى كل المساحات المنزرعة فى الوقت الحاضر ، والتوسع فى مساحات جديدة تزداد بها رقعة الأرض المنزرعة ومساحة المحاصيل . وتبلغ هذه السعة المقدرة للتخزين الحى حوالى ٧٠ مليارا من الأمتار المكعبة فى السنة . والمفهوم أن هذه السعة يحققها حجم الماء الذى يحجز فى حوض التخزين بين منسوبى ١٤٧ مترا و ١٧٥ مترا ، أمام جسم السد العظيم . ولعلنا نتوقف عند هذه النقطة ، لكى نشير الى أن هذا القدر من الماء الرصيد للاحتياجات بعد اتمام البناء والتشغيل الكامل ، يزيد بحوالى ١٢ مليارا من الأمتار المكعبة عن حصة مصر التى تستخدم الآن ، وقبل تشغيل السد العالى . وهذا القدر الزائد فى حصة مصر يحقق الفرصة الكاملة للتوسع فى مساحة الأرض المنزرعة الى حوالى ٨ ملايين من الأفدنة ، التى تروى ريا دائما ، وتعطى أكثر من محصول واحد فى السنة — ومع ذلك فان هذه الحصة المتوقعة تقل عن الحصة المقدرة بواسطة لجنة خبراء مشروعات النيل لسنة ١٩٤٩ ، للتوسع فى مساحات تصل بالأرض المنزرعة الى حوالى ٨٫٥ مليون فدان .

أما السعة المقدرة للتخزين من أجل الوقاية من الفيضانات وأخطار ارتفاع المناسيب ، فانها تؤدى الى زيادة المنسوب الذى يصير الحجز عليه أمام جسم السد العالى ، فى حوض التخزين زيادة كبيرة . وقد قدرت هذه السعة بحوالى ٣٠ مليارا من الأمتار المكعبة ، على اعتبار أن حجم الإيراد المائى فى الفيضان العالى الخطير ، لايمكن أن يتطاب أو أن يستغرق أكثر من هذه السعة . ويمكن القول أن تحقيق هذه السعة يتطلب الإرتفاع بمنسوب الحجز أو التخزين ، الى ١٨٢ أمام جسم السد . ويعنى ذلك أن سعة التخزين للوقاية من الفيضانات بكافة الاحتمالات ، تتم بين منسوبى ١٧٥ مترا و١٨٢ مترا . ونكرر القول بشأن هذه السعة ، فنذكر إنها محسوبة على اعتبار أنها تحقق الوقاية من الفيضانات فى أخطر حالاتها ، وعلى اعتبار أن أقصى تصرف يمكن أن يحقق هذه الوقاية فى سنوات الفيضانات العالية ، هو ٥٠٠ مليونا من الأمتار المكعبة فى اليوم الواحد .

ومهما يكن من أمر فإن سعة حوض التخزين أمام جسم السد العالى سوف تصل إلى ١٣٠ مليارا من الأمتار المكعبة . وتشمل هذه السعة الكلية ٣٠ مليارا كسعة للتخزين المفقود ، و٧٠ مليارا كسعة للتخزين الحى ، مضافا إليها ٣٠ مليارا كسعة لتحقيق الوقاية من خطر الفيضانات فى موسم ارتفاع المناسيب . وتتحقق هذه السعة الضخمة — كما ذكرنا — على اعتبار الوصول بالحجز إلى منسوب ١٨٢ مترا أمام جسم السد ، وعلى اعتبار أن الفاقد بالتبخر ، يبلغ قدرا يتراوح بين ٩و١٠ مليارات من الأمتار المكعبة سنويا . وتشير تقارير

الخبراء الفنيين إلى أن امتلاء حوض التخزين إلى السعة الكاملة له والوصول إلى منسوب ١٨٢ مترا أمام جسم السد ، سوف يستغرق خمس سنوات على الأقل ، وبحيث يكون الايراد المائى الطبيعى فى كل سنة منها عاديا وغير شحيح . ويعنى ذلك إن الزيادة فى حجم الايراد المائى ، وخاصة فى موسم الفيضان قد تعجل بامتلاء حوض التخزين ، كما أن التدهور وتوالى الفيضانات المنخفضة ، قد يؤدى إلى طول الفترة اللازمة لذلك .



والمفهوم أن تشغيل السد العالى وفق الخطة الموضوعة تشغيلا كاملا ، لن يتحقق إلا بعد أن يمتلأ حوض التخزين تماما فى الفترة المقدرة . ويخضع التشغيل الكامل لخطة مرسومة بدقة بالغة (1) ، وتقسم السنة إلى قسمين متباينين تماما . ويشمل القسم الأول من السنة فترة تستغرق ستة أشهر من أغسطس إلى نهاية يناير ، وهى الفترة المعروفة بفترة الملء . والمفهوم أن مياه الفيضان تصل خلال هذه الفترة ، ويصير حجز المياه ، ولا يسمح بتمرير أكثر من ٥٠٠ مليونا من الأمتار المكعبة فى اليوم الواحد من الأنفاق الجانبية . هذا على اعتبار أن هذا التصرف اليومى ، يفى تماما بكل الاحتياجات اللازمة للزراعة والملاحة ، وفق الخطة المرسومة للمناوبات التى تستخدم فى رى الأرض ريا دائما . ويستغرق القسم الثانى من السنة فترة أخرى ، تبدأ من شهر فبراير إلى نهاية شهر يونيو . ويكون التصرف فى هذه الفترة خاضعا لنظام معين ، يحقق الاحتياجات للزراعة ونظام المناوبات فى الرى الدائم ، وزراعة المحاصيل الصيفية . هذا ويلاحظ أن خطة التشغيل تقضى بأن يتحقق فى نهاية يوليو من كل عام صرف كل الماء فى حوض التخزين فوق منسوب ١٧٥ مترا ، على اعتبار أن الاستعداد لاستقبال حجم الماء الكبير من الفيضان التالى يستلزم هذا التفريغ .

والآن بعد أن ألقينا بعض الأضواء على السد العالى ، وقيمته الكبرى كبداية ضخمة لتحقيق التخزين المستمر وتسوية الإيراد الطبيعى لعدة سنوات ، نود أن نتعرف على أهميته وقيمته الحقيقية من وجهة النظر الاقتصادية البحتة . وقد أشرنا فى أكثر من موضع من هذا البحث ، الى التناقض الشديد الواضح بين معدلات الزيادة الطبيعية فى السكان من ناحية ، وبين معدلات الزيادة فى مساحة الأرض المنزرعة والانتاج الزراعى بصفة عامة من ناحية أخرى . وذكرنا أن فى ذلك تعبيرا صريحا عن عدم التناسق بين النمو السكانى والنمو الاقتصادى فى أهم وأخطر قطاعاته ، الأمر الذى يؤدى بالضرورة الى هبوط خطير فى نصيب الفرد من المساحة المنزرعة ، وتدهور حقيقى فى دخل الفرد والدخل القومى بصورة عامة . وهذا معناه من وجهة النظر الاقتصادية تدهورا خطيرا فى مستوى المعيشة . ولابد أن نتصور بعد ذلك كله أن الأخذ بكل الوسائل التى انتهت الى وضع خطة إنشاء السد موضع التنفيذ ، من شأنها أن تحقق كسبا فى ميدان المحاولات الجدية من أجل تنمية الانتاج بقطاعاته المختلفة ، تنمية أفقية ورأسية ، ووضع حد لصفة التناقض وعدم التناسق بين النمو

---

(1) كتاب المجلس الدائم لتنمية الانتاج القومى لسنة ١٩٥٥ صفحة ١٣٩

السكانى والنمو الاقتصادى ، وضمان عدم التدهور فى مستوى المعيشة . وليس ثمة شك فى أن السد العالى سوف يؤدى بالضرورة الى نتائج إيجابية فى تنمية قطاعين من قطاعات الانتاج وهما قطاع الزراعة وقطاع الصناعة .

ونذكر فى مجال الحديث عن أهمية السد العالى من وجهة النظر الاقتصادية بالنسبة لقطاع الزراعة [1] والانتاج الزراعى ، أن حجم الماء أو الحصة التى سوف يحققها للوفاء بالاحتياجات تكون كفيلة بتحقيق نموا وتوسعا فى الزراعة على المستويين الأفقى والرأسى فى وقت واحد . والمفهوم أن تقرير لجنة خبراء مشروعات النيل لسنة ١٩٤٩ ، قد أورد جدولا يتضمن احتياجات مصر من الايراد المائى للتوسع الزراعى وزيادة مساحة الارض المنزرعة فعلا . وقد حددت اللجنة بمليارات الأمتار المكعبة الأرقام اللازمة للوصول بمساحة الأرض المنزرعة الى ٨٫٥ مليونا من الأفدنة أو الى ١٠ ملايين فدان . وروعيت الدقة البالغة فى تقدير هذه الحصة ، على اعتبار حاجة الفدان الواحد فى مساحات الرى الدائم إلى حوالى ٨٠٠٠ متراً مكعباً فى السنة . ويعنى ذلك أنها وضعت التقدير على اعتبار تحويل كل الأرض المنزرعة إلى الرى الدائم ، واستصلاح مساحات أخرى جديدة تضاف إلى رقعة الأرض المنزرعة . وليس ثمة شك فى أن وضع السد العالى موضع التنفيذ يعتبر خطوة إيجابية فى سبيل تحقيق هذه الأهداف . ذلك انه سوف يحقق كما قلنا زيادة فى حصة مصر من الإيراد المائى ، حيث ترتفع من ٥٨٫٣ ملياراً من الامتار المكعبة فى السنة ، إلى ٧٠ ملياراً من الأمتار المكعبة . وهذا القدر الزائد من الماء ، هو الذى يمكن الاعتماد عليه فى تحقيق التوسع فى مساحة الأرض المنزرعة لكى تصل إلى حوالى ٨ ملايين من الأفدنة على الأقل .

وتشير التقارير الموضوعة بشأن خطة استصلاح الأرض ومتابعة تجهيزها للزراعة على مياه السد العالى ، إلى إنه يمكن لمصر بعد عشر سنوات من بدء العمل فى المشروع ، التوسع فى مساحة جديدة تقدر بحوالى ١٫٤ مليون فدان . وبيان توزيع هذه المساحات الجديدة يشمل ٢٥٠ ألف فدان يصير اقتطاعها من مساحة البحيرات الشمالية وتجفيفها واستصلاحها وتحويلها للرى الدائم ، كما يشمل ٥٥٠ ألف فدان ، يصير استصلاحها فى شمال الدلتا فى الأرض المعروفة باسم البرارى و٥٥٠ ألف فدان أخرى من الارض على هامش

---

(1) Selim, M. A : The High Dam Project.

الصحراء ، على طول امتداد السهول النيلية الفيضية . ويعبر هذا الأمر فى حد ذاته عن التوسع الأفقى المترتب على زيادة مساحة الأرض المنزرعة من ٦ر٢ مليون فدان إلى ٨ر٧ مليون فدان على الأقل . هذا بالإضافة إلى علمنا بأن حصة الماء سوف تؤدى إلى تحويل مساحة الأرض التى تروى ريا حوضيا فى مصر العليا إلى الرى الدائم أيضا . ويعتبر هذا التحويل ـ فى حد ذاته ـ كسبا مجزيا من وجهة النظر الاقتصادية ، لأنه يؤدى إلى زيادة حقيقية فى مساحة المحاصيل ، أو ما نعبر عنه بالتوسع الرأسى وزيادة حجم الغلة . وهذا معناه فى نهاية المطاف ارتفاع وزيادة مساحة الأرض المنزرعة سنويا إلى حوالى ثمانية ملايين من الأفدنة ، وزيادة مساحة المحاصيل إلى حوالى ١٥ مليونا من الأفدنة .

ويمكن اعتبار وفرة الماء واستجابة التخزين أمام السد العالى للاحتياجات ، والمحافظة على تصرف معين من الماء فى اليوم الواحد ، سببا من أهم الاسباب المؤدية إلى التوسع الأفقى والرأسى فى مساحة الأرض المنزرعة أرزا سنويا . ذلك أن حجم الماء والتصرف من ماء التخزين سوف يحقق زراعة ٧٠٠ ألف فدان سنويا وبصفة مستمرة ، دون أن يرتبط ذلك بإيراد النهر السنوى وطبيعة الجريان فى الفترة الحرجة فى كل سنة من السنوات[1] . ولعل من الضرورى أن نشير إلى أن مساحة الأرض التى تزرع أرزا فى الوقت الحاضر ، السابق لتشغيل السد العالى ، تتعرض لذبذبة خطيرة ، وترتبط ذبذبتها اتساعا وضيقا زيادة ونقصا ، بطبيعة وصفة وحجم الإيراد النهرى الصيفى . ويكون منح التصاريح لزراعة هذا المحصول الحيوى الخطير من وجهة النظر الاقتصادية ، خاضعا خضوعا حقيقيا لمشيئة الظروف التى تتغير من سنة إلى أخرى ، وتؤثر على حجم الايراد المائى فى الفترة الحرجة . وهكذا يضمن التخزين فى حوض الخزان الكبير أمام السد العالى ، حصيلة من الماء تمول التوسع الأفقى والرأسى ، فى قطاع الزراعة فى المساحات المرتقبة ، فى كل سنة من السنوات ، بل فى أكثر السنوات شحا . ويعنى ذلك أن شبح الانخفاض فى الايراد الطبيعى للنهر فى سنة من السنوات ، لم يعد مبعث خوف أو قلق بأى صورة من الصور . بل لعله يحقق إلى جانب ذلك كله فرصة كاملة تتمثل فى ضمان انتظام وصول مياه الرى ، بالكميات المناسبة والمواعيد المناسبة التى تستجيب لنظام المناوبات ، لتلبية احتياجات الأرض المنزرعة حسب نظام الدورة الزراعية المتبعة .

---

(١) الشامى مياه النيل دراسة موضوعية صفحة ١٨٢

وكما يقوم السد العالى وتشغيله وتخزين الماء فى حوض التخزين امامه بهذا الدور الايجابى المباشر ، فى خدمة قطاع الزراعة وتطوير الانتاج الزراعى تطويرا أفقيا ورأسيا ، فإنه يحقق من ناحية أخرى خدمات ومزايا يكون من شأنها الاسهام بطريق غير مباشر فى تنمية الانتاج الزراعى . ذلك إنه سوف يحقق فرصة صرف الأرض بالراحة فى الصعيد ، الأمر الذى يؤدى الى تخليصها من أخطر عامل من عوامل إفساد التربة ، وتدهور غلة الفدان . بل لعلنا نشير الى إن ذلك الصرف لن يكون فى حاجة الى محطات ضخمة للصرف ، سواء ما كان منها قائما ، أو المزمع إنشاؤه على النيل ، أو على بحر يوسف . ويمكن القول إن تنظيم السد للجريان المائى فى النهر ، وإمكانية التحكم فيه فى كل يوم من أيام السنة ، وعلى اعتبار تمرير دفعات من الماء لتلبية الاحتياجات فقط ، سوف يؤدى من جانب آخر الى الانخفاض الملحوظ فى منسوب الماء الباطنى على جانبى النهر ، فى الأرض المنزرعة فى كل من مصر العليا ومصر السفلى . ويكفل ذلك وحده زيادة فى القدرة الانتاجية للفدان وحجم الغلة ، بالنسبة للمحاصيل المختلفة فى كل موسم من مواسم الزراعة المعروفة . ويعنى ذلك إن التحكم فى الجريان فى النيل وفروعه ، والتحكم فى مناسيب الجريان فى ترع التوزيع الكبرى والصغرى ، التى تنتشر وتتخلل الأرض المنزرعة . سوف يقلل من أخطر مايواجه الانتاج الزراعى من أخطار مترتبة على ارتفاع نسبة الرطوبة فى التربة والتربة التحتية . ويجب علينا أن نسجل بهذه المناسبة أكبر خطأ وقعت فيه مصر ، يوم أن أخذت بسياسة الرى الدائم ، وقطعت شوطا فى الانقلاب الزراعى ، دون أن تهتم بالصرف وتخليص التربة من الرطوبة التى تتسرب اليها ، وتؤدى الى التدهور الشديد فى غلة الفدان .

أما قطاع الصناعة الذى تعمل الجمهورية العربية المتحدة على تنميته وتطويره تطويرا يؤدى الى إنتاج كبير ، يسهم فى زيادة حجم الدخل القومى ، ورفع مستوى المعيشة ومجابهة الاحتياجات المتزايدة مع النمو السكانى ، وارتفاع معدلات الزيادة الطبيعية ، فسوف يجد فى انتاج السد العالى من الطاقة الكهربائية قوة محركة رخيصة . ويعبر ذلك عن كسب حقيقى فى زيادة حجم الانتاج الصناعى من ناحية ، وفى انخفاض تكاليف السلع المصنوعة من ناحية أخرى ، كنتيجة مباشرة لانخفاض سعر الكهرباء . والمفهوم أن اتمام العمل فى السد العالى وتشغيله تشغيلا كاملا ، واستغلال كل المولدات الكهربية المرتبطة بهذا التشغيل ، سوف يحقق فرصة الحصول على حوالى ١٠ مليار كيلووات ساعة فى السنة [١] . ويمكن أن توفر هذه الطاقة الكهربائية الكبيرة نتائج هامة وخطيرة ، فى خدمة الصناعة

---

(١) الكتاب السنوى للجمهورية العربية المتحدة لسنة ١٩٦٣ صفحة ١٠٠

الثقيلة والصناعة الخفيفة والتحويلية على حد سواء . كما إنها تكون كفيلة برفع نصيب الفرد من ٦٠ كيلوات ساعة إلى حوالى ٤٠٠ كيلوات ساعة فى السنة . ويعنى ذلك أيضاً من وجهة النظر الاقتصادية - توفير ثمن حوالى ٦ر٢ مليون طناً من الوقود ، المستخدم فى مصر سنوياً فى الوقت الحاضر ، والتى يقدر ثمنها حسب مستوى الأسعار العالمية الآن بحوالى ١٨ مليوناً من الجنيهات ، يدفع معظمها بالعملات الصعبة .

ومهما يكن من أمر فإن الباحث يتصور أهمية هذ المشروع العظيم ليس على اعتبار أنه يحقق معجزة هندسية جبارة ، أو إنه يعبر عن التصميم والتفوق البشرى فى مجال إحكام السيطرة على كل الجريان المائى فى النيل فحسب ، بل لأنه من حيث الواقع يمثل حجر الزاوية فى تخطيط هادف مرسوم ، من أجل رفع مستوى القدرة الإنتاجية فى قطاعات الزراعة والصناعة ، وزيادة الدخل القومى بصفة عامة . وليس ثمة شك فى أن تكاليف إنشاء السد العالى ، وكل الأعمال العظيمة المتصلة بتشغيله واستغلاله ، سوف تتكافىء مع مزاياه ومنافعه والعائد منه على الدخل القومى . ويقدر الباحثون الدخل المباشر العائد على خزينة الدولة ، من تشغيل السد العالى بكامل طاقته بحوالى ٢٢ مليوناً من الجنيهات فى السنة (١). أما تحويل المزايا الاقتصادية فى قطاع الزراعة وفى قطاع الصناعة إلى أرقام ، فيعنى زيادة فى الدخل القومى بصفة عامة ، تصل إلى ٢٣٤ مليونا من الجنيهات (٢) هذا بالإضافة

---

(١) بيان زيادة دخل الحكومة فى أرقام :

(أ) ضرائب الأطيان جديدة وزيادة فى الضرائب الحالية بعد تحسن الانتاج	٩ مليون
(ب) زيادة متوقعة لتحسن الملاحة	٥ر٢ مليون
(ج) زيادة متوقعة ثمنا للكهرباء	٥ر١٠ مليون

جملة الزيادة = ٢٢ مليونا من الجنيهات

(٢) الزيادة فى الدخل القومى فى أرقام :

(أ) التوسع فى مساحات جديدة وتحويل الحياض الى الرى الدائم	٦٣ مليون
(ب) العائد من زراعة ٧٠٠ الف فدان أرزا	٥٦ مليون
(ج) الوقاية من الفيضان	١٠ مليون
(د) تحسين حالة الملاحة النهرية	٥ مليون
(هـ) توليد ١٠ مليار كيلوات ساعات كهرباء	١٠٠ مليون

جملة الزيادة = ٢٣٤ مليونا من الجنيهات

إلى مزايا وفوائد حقيقية يتيحها تشغيل السد العالى للسودان . ويأتى فى مقدمتها إمكانية التوسع فى مساحة الأرض المنزرعة على مياه النيل إلى حوالى ثلاثة أمثال المساحة المنزرعة الآن . هذا ويحقق السد العالى للسودان فرصة إنشاء المزيد من السدود على النيل أو على روافده الرئيسية ، التى نذكر منها سد خشم القربة ، وسد الرصيرص المقترح للتوسع فى زراعة أرض كنانة الذى يناظر مشروع الجزيرة . بل لعله فوق كل ذلك يعطى السودان فرصة مؤكدة فى مجال ملء أحواض التخزين السنوى المستخدمة فى السودان فى وقت متأخر نسبيا ، من المياه التى تقل المواد العالقة بها إلى حد كبير . وهذا معناه كسب حقيقى من وجهة النظر الفنية ، لأن التأخير يقلل من تأثر سعة أحواض التخزين بالإطماء . ويقدر الباحثون فى مجال الدراسات الاقتصادية على ضوء ذلك كله زيادة مؤكدة فى دخل الحكومة السودانية ، والدخل القومى السودانى من الانتاج الزراعى بنسبة ٣٠٠٪ سنويا .

* * *

وعند هذا الحد الذى تمضى إليه الثورة الزراعية الشاملة ، وعلى ضوء الفهم الكامل والتقدير الشامل لكل النتائج والمزايا التى يحققها إنشاء وتشغيل السد العالى بالنسبة لكل من الجمهورية العربية المتحدة والسودان ، تتدافع الأسئلة وتفرض نفسها على الباحث فرضا . ويتعلق سؤال من بين هذه الأسئلة بالعلاقة بين الزيادة فى مساحة الأرض المنزرعة ومساحة المحاصيل ، التى ستتحقق بعد تشغيل السد العالى من ناحية ، وبين الزيادة أو النمو السكانى واستمرار هذا النمو فى المستقبل بالمعدلات التى تسجلها أرقام الاحصاء الأخير فى الجمهورية العربية المتحدة فى سنة ١٩٦٠ ويتضمن سؤال آخر رغبة ملحة فى مجال الدراسة والبحث على المدى الطويل للاطمئنان على احتمالات المستقبل القريب والبعيد ، فى أثناء العشرين أو الخمسين سنة القادمة ، من حيث السياسة الزراعية العامة وتطويرها تطويرا يحقق التوسع الرأسى وزيادة حجم الغلة ، ومن حيث المضى فى الأخذ بسياسة توسيع رقعة الأرض المنزرعة ، للوصول بها إلى حوالى ١٠ ملايين فدان . والواقع إن سياسة مصر الاقتصادية التى تخضع لقواعد وتخطيط شامل وتوجيه كامل ، تضع فى اعتبارها الاهتمام بكل أساليب التنمية والتطوير فى مجال الانتاج الزراعى والانتاج الصناعى على السواء ، لتحقيق حياة أفضل لكل الناس ، ولمتابعة سد حاجة النمو السكانى الكبير . وليس ثمة شك فى أن قطاع الزراعة الذى يحتل مركزاً هاما وخطيرا فى الإقتصاد القومى فى مصر ، يحظى وسيظل يحظى بكل اهتمام

وبكل تقدير . بل لعلنا نؤكد إن الانقلاب الزراعى الهائل الذى انطلقت أول شرارة له فى حوالى منتصف القرن التاسع عشر الميلادى ، لن يكون تشغيل السد العالى بكامل طاقته ، ورى كل المساحات المقدرة على مياه التخزين المستمر أمام جسمه الكبير ، نهاية يصل إليها هذا الانقلاب أو الثورة ، أو قمة ينتهى عندها التوسع الزراعى فى الاتجاهين الأفقى والرأسى . وهذا معناه — بما لا يدع مجالا للشك — الاستمرار فى إصرار تام فى البحث ، وبذل الجهد فى سبيل التوسع الأفقى والتوسع الرأسى فى قطاع الزراعة .

ويمكن للباحث أن يسجل بهذه المناسبة السبب الرئيسى الذى دعا الى تشكيل هيئة مياه النيل ، من مصريين وسودانيين وفقا لأحكام اتفاقية سنة ١٩٥٩ بين الجمهورية العربية المتحدة وجمهورية السودان ، وعلى اعتبار أنهما معا أصحاب المصلحة الحقيقية فى مياه النيل وضبط النيل ، هو الاستمرار فى البحث فى شأن الايراد النيلى ، وتحقيق مزيدا من السيطرة ومزيدا من الماء . ذلك أن المزيد من الماء هو وحده السبيل الذى يعطى السودان والجمهورية العربية المتحدة ، فرصة الحصول على إيراد إضافى كبير يضاف الى حصة كل منهما . ويكفل هذا القدر المضاف الى حصة كل منهما ، فرصة توسيع مساحة الأرض المنزرعة مرة أخرى ، والوصول بها بالنسبة للجمهورية العربية المتحدة الى الرقم الذى قدره خبراء لجنة مشروعات النيل لسنة ١٩٤٩ وقد تحقق سياسة الأخذ بنظام التخزين المستمر فى مواقع جديدة زيادة فى حجم الايراد الطبيعى بصفة عامة ، ولكن هل هذه الزيادة المتوقعة كافية لأن تبلغ حصة مصر منها الى الرقم المحدد للوفاء بالاحتياجات ، التى تحقق الاستمرار فى التوسع الأفقى فى الأرض المنزرعة الى حوالى عشرة ملايين فدان ؟ والمفهوم أن حصة مصر مطلوب لها أن تصل الى حوالى ٩٢ مليارا من الأمتار المكعبة سنويا ، لتحقيق هذا التوسع ، ومع ذلك نحن لا نتصور الوصول الى هذا الرقم الكبير الذى يزيد عن متوسط ايراد النيل الطبيعى فى السبعين سنة الماضية ، إذا ما أخذت مصر بسياسة التخزين المستمر فى بحيرة البرت وبحيرة فكتوريا (١) فقط ، لأن طبيعة الفاقد فى حوض بحر الجبل وقدرة المجرى على تصريف الماء تقف عند حد مناسيب معينة ، يتحول كل الإيراد بعدها الى فاقد فى المستنقعات بالتسرب والتبخر والنتح . ويعنى ذلك ضرورة

---

(١) تم انشاء سد أوين للتخزين المستمر فى بحيرة فكتوريا . وقد أسهمت مصر فى تكاليفه للاستفادة منه فى المستقبل القريب او البعيد .

الانتقال الى مرحلة جديدة ، يكون من شأنها أو من شأن العمل الهندسى فيها زيادة الايراد الطبيعى من الأحباس الاستوائية ، والاطمئنان على انطلاق المياه من أحواض التخزين المستمر فى الهضبة الاستوائية النيلية ، القائم منها والمقترح عند البرت ، دون أن تتعرض للضياع ، أو الفقدان فى مستنقعات بحر الجبل .

ونود أن نشير فى بداية الحديث عن خطط المستقبل وطبيعة العمل الهندسى ، الذى يجب أن نتجه اليه فى أقرب فرصة ممكنة ، إلى أن إنشاء السد العالى وتشغيله حقق جانباً واحدا فقط من جوانب تقليل الفواقد فى الإيراد النيلى الطبيعى . ذلك إن حجما كبيراً من ماء الموارد الحبشية كان ينساب فى فصل الفيضان إلى البحر المتوسط ، وكانت لا تتحقق منه أى فائدة فى مجال الرى والزراعة فى مصر أو فى السودان . ويعنى تشغيل السد العالى حجز كل قطرة من هذا الماء الفاقد والاستفادة منه ، أما العمل فى مرحلة قادمة لا ريب فيها ، فإنه يجب أن يكون موجها بالكلية إلى معالجة الفاقد من إيراد النيل الطبيعى من الأحباس الاستوائية وتقليله إلى أقل قدر ممكن . ذلك أن صافى الايراد الطبيعى الوارد إلى النيل من الأحباس الاستوائية ، وبعد حساب كل الفاقد فى مستنقعات بحر الجبل وبحر الزراف ، لا يكاد يزيد عن ١٦ ٪ من الإيراد الطبيعى الكلى للنيل طول العام [١] . وتشير الدراسات والمباحث المائية المستمرة إلى أن النهر فيما بعد منجلا شمالا ، يبدو غريباً جدا ، حيث تتبدل طبيعة الجريان فيه نتيجة مباشرة للانحدارات الهادئة ، التى تزداد اعتدالا كلما تقدم النهر شمالا إلى بحيرة نو ، ومجرى النهر إلى فم السوباط [٢] . ويعنى ذلك تعريض حجم كبير

(١) هرست موجز عن حوض النيل صفحة ٥٠

(٢) فيما يلى بيان بحساب الانحدارات فى بحر الجبل ، والتى قيست بدقة على أساس خط الميزانية من الدرجة الأولى .

الحبس من بحر الجبل	طول الحبس	المنسوب فى أول الحبس	المنسوب فى آخر الحبس	فرق المناسيب	الانحدار فى الكيلومتر
	كيلومتر	مترا	مترا	مترا	سم
من البرت إلى نيمولى . .	٢٧٥	٦١٧٫٢٢	٦١٢٫٢١	٥٫٠١	١٫٨
من نيمولى إلى رجاف . .	١٥٦	٦١٢٫٢١	٤٥٦٫٢٧	١٥٥٫٩٤	١٠٠٫٠٠
من رجاف إلى حنجيج . .	١٢٦	٤٥٦٫٢٧	٤٢٨٫٥	٢٧٫٧٧	٢٢٫٠٠
من حنجيج إلى شامبي . .	٢٧٢	٤٢٨٫٥٠	٤٠٥٫٨٣	٢٢٫٦٧	٨٫٢
من شامبي إلى حلة نوير . .	٢٠٥	٤٠٥٫٨٣	٣٩٤٫٤٦	١١٫٣٧	٥٫٥
من حلة نوير إلى نو . .	٢٢٢	٣٩٤٫٤٦	٣٨٦٫٢٣	٨٫٢٣	٣٫٦
من نو إلى فم السوباط . .	١٢٤	٣٨٦٫٢٣	٣٨٤٫٧٥	١٫٤٨	١٫٢

من الماء ، لأن يفترش ويتدفق إلى المستنقعات على جانبى المجرى ، ويضيع بالتبخر أو التسرب أو النتح .

وقد جمعت كل البيانات الاحصائية التى تعبر عن هذا الفاقد بصفة منتظمة منذ وقت بعيد ، وعلى الرغم من صعوبة العمل المبنية على عدم تماسك الجسور وانتشار المستنقعات والأمراض الوبائية . وتحقق هذه البيانات الاحصائية فرصة التعرف على طبيعة الخسارة الكبيرة السنوية ومعدل الفاقد من إيراد الأحباس الاستوائية . ويبين الجدول التالى صفة هذا الفاقد ونسبته المئوية ، محسوبة على اعتبار حساب الفرق بين تصريف النهر عند منجلا ، وتصريف النهر عند خروجه من منطقة السدود والمستنقعات ، فى الفترة من سنة ١٩٢٣ إلى سنة ١٩٤٨

ويظهر من دراسة هذه الأرقام الواردة فى الجدول التالى ، أنه كلما زادت التصرفات الداخلة إلى منطقة السدود زادت بالتالى احتمالات الفاقد فى المستنقعات ، التى تتراوح مساحتها بين ٨٣٠٠ كيلومترا مربعا فى حالة المناسيب المنخفضة ، و ١٢٠٠٠ كيلو مترا مربعا فى حالة ارتفاع منسوب الجريان فى بحر الجبل ٥٠ سنتيمترا فقط . وقد وصل البحث إلى قاعدة عامة تقضى بأن كل زيادة عن قدر معلوم من مليارات الأمتار المكعبة فى السنة من الأحباس الاستوائية ، يكون مصيرها الضياع فى المستنقعات بالتبخر أو التسرب أو النتح . ذلك أن تصرف النيل العام الخارج من منطقة السدود يتراوح بين نهاية عظمى تقدرها ١٦٫٦ مليارا من الأمتار المكعبة ، ونهاية صغرى قدرها ١١٫١ مليارا من الأمتار المكعبة وهكذا يكون متوسط الإيراد النيلى الطبيعى من الهضبة الاستوائية حوالى ١٤ مليارا من الأمتار المكعبة ، وأن حوالى ٥٠ ٪ من المياه الاستوائية يصير ضياعها وفقدانها كل عام . وإذا أضفنا إلى هذا الفاقد كمية المطر السنوى على حوض بحر الجبل ، التى تبلغ مساحته حوالى ١٠ آلاف كيلومترا مربعا ، والتى تقدر بحوالى ٩ مليارات من الأمتار المكعبة ، لظهر لنا بوضوح أن حجم الفقدان فى حوض بحر الجبل كبير للغاية ، ويتراوح هذا الفاقد بين ١٥ مليارا من الأمتار المكعبة كنهاية صغرى ، و ٢٨ مليارا من الأمتار المكعبة كنهاية عظمى . وهذا الفاقد الكبير السنوى هو الذى يدفع الفنيين والمختصين إلى اعتبار التخزين فى بحيرة من بحيرات الهضبة الاستوائية عديم القيمة ، لأن معظم الماء سوف يضيع حتما فى الطريق فيما بين منجلا وملكال [١] .

---

(١) Hurst, H. The Nile P. 305

صفة الفاقد ونسبته المئوية

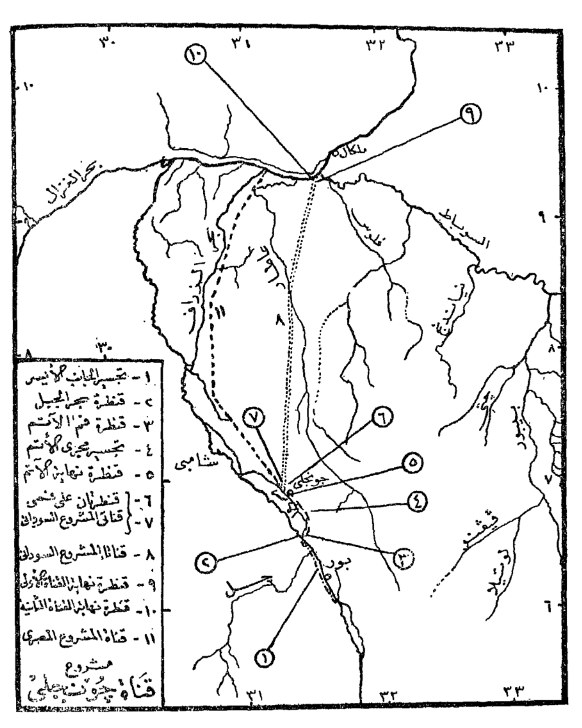
السنة	التصرف عند منجلا	التصرف الخارج من السدود	الفاقد	النسبة المئوية للفاقد
١٩٢٣	١١ر١ مليار م٣	١١ر١ مليار م٣	٨ر٢ مليار م٣	٤٢ ٪
١٩٢٤	٢٠ر٤	١٣ر٠	٧ر٤	٣٦ ٪
١٩٢٥	١٨ر٩	١٢ر٩	٦ر٠	٣٢ ٪
١٩٢٦	٢٤ر٨	١٣ر٠	١١ر٨	٤٨ ٪
١٩٢٧	٢٦ر٠	١٤ر٠	١٢ر٠	٤٦ ٪
١٩٢٨	٢٦ر٦	١٤ر٠	١٢ر٦	٤٧ ٪
١٩٢٩	٢١ر٣	١٤ر٢	٧ر١	٣٢ ٪
١٩٣٠	٢٢ر٨	١٤ر٢	٨ر٧	٣٨ ٪
١٩٣١	٢٩ر٠	١٣ر٩	١٥ر١	٥٢ ٪
١٩٣٢	٣٢ر٦	١٥ر٤	١٧ر٢	٥٣ ٪
١٩٣٣	٣٠ر٦	١٦ر٦	١٤ر٠	٤٦ ٪
١٩٣٤	٢٦ر٣	١٦ر٧	٩ر٦	٣٧ ٪
١٩٣٥	٢٣ر٥	١٦ر٢	٨ر٣	٣٥ ٪
١٩٣٦	٢١ر٤	١٤ر٤	[illegible]ر٠	٣٨ ٪
١٩٣٧	٢٨ر١	١٤ر٣	١٣ر٨	٤٩ ٪
١٩٣٨	٣٠ر٢	١٤ر٧	١٥ر٥	٥١ ٪
١٩٣٩	٢٤ر٩	١٤ر٨	١٠ر١	٤١ ٪
١٩٤٠	٢٢ر٢	١٤ر٤	٧ر٨	٣٥ ٪
١٩٤١	٢٤ر٩	١٣ر٤	٩ر٥	٤١ ٪
١٩٤٢	٣٢ر١	١٣و٩	١٨ر٢	٥٧ ٪
١٩٤٣	٢٨ر٢	١٤ر٦	١٣ر٦	٤٩ ٪
١٩٤٤	٢٠ر٧	١٤ر٧	٦ر٠	٢٩ ٪
١٩٤٥	١٨ر٧	١٣ر٠	٥ر٧	٣٠ ٪
١٩٤٦	٢٢ر٢	١٢ر٩	٩ر٢	٤٢ ٪
١٩٤٧	٢٧ر٩	١٣ر٧	١٤ر٢	٥١ ٪
١٩٤٨	٣١ر٩	١٤ر٠	١٧ر٩	٥٦ ٪

وليس ثمة شك في أن تقليل هذا الفاقد ، أو وضع حد على الأقل له ، يعني زيادة في حجم الإيراد الطبيعي من الأحباس الاستوائية ، وبالتالي زيادة الإيراد الطبيعي للنهر بصفة عامة . ونصف هذه الزيادة ، وهي الحصة المفروض أن تحصل عليها مصر بمقتضى الاتفاق القائم بينها وبين السودان بشأن أي زيادة في حجم الإيراد المائي الطبيعي للنيل ، سوف تحقق مزيدا من القدرة على التوسع ، وزيادة مساحة الأرض المنزرعة . ذلك أن هذه الحصة المفترضة سواء صار تقديرها على اعتبار توفير الحد الأدنى للفاقد بحوالي ٧ مليارات ، أو صار تقديرها على اعتبار الحد الأعلى للفاقد بحوالي ١٤ مليارا من الأمتار المكعبة في السنة ، إذا أضيفت إلى حصة مصر التي يحققها تشغيل السد العالي ، فإنها تمنح مصر فرصة التوسع في نصف مليون فدان جديد آخر على الأقل . والمفهوم أن استغلال التخزين المستمر الذي يحققه سد أوين القائم فعلا ، على فم النهر الخارج من بحيرة فكتوريا ، واستغلال موقع بحيرة البرت لإنشاء سد آخر للتخزين المستمر ، يمكن أن يحقق مزيدا من الماء [1] . وقد تزيد حصة مصر السنوية عندئذ عن الرقم المقدر للوصول بالأرض المنزرعة إلى المساحة المقدرة في سنة ١٩٤٩ وهي ١٠ مليون فدان . ويكون ذلك رهن شرط واحد ، هو وضع حد للفاقد في منطقة المستنقعات .

ومهما يكن من أمر فإن حجر الزاوية في كل هذه المشروعات ، والتخطيط بشأن زيادة حجم الإيراد المائي الطبيعي ، وتقسيم الزيادة مناصفة بين مصر والسودان ، يتمثل في إتمام عمل هندسي على صورة معينة يكون له القدرة على تقليل الفاقد في منطقة السدود إلى أقصى حد ممكن . وجدير بالذكر أن هذا العمل الهندسي كان من بين الأعمال التي تناولها البحث والدراسة منذ أوائل القرن العشرين بقصد ضبط النهر والسيطرة على جريانه . وقد نبه سير وليم جارستون الأذهان إلى ضخامة حجم الفاقد من الايراد النيلي الطبيعي ، من الأحباس الاستوائية . وقد أجريت بعض الأعمال الأولية التي قصد منها تقليل الضغط على جسور بحر الجبل ، وتحويل بعض المـاء إلى بحر الزراف ، وذلك في الفترة ما بين سنة ١٩١٠ وسنة ١٩١٣ . واقترح سير مردوخ ماكدونالد شق قناة صناعية لتصريف ١٩٠٠ مترا

---

(١) راجع كتاب مياه النيل للتعرف على سد أوين وتشغيله والمقترحات بشأن التخزين في البرت وانشاء سد عند نيمولي أو عند موتير صفحة ١٤٦ ــ ١٥٦!



فى الثانية [١] وتمرير المياه فى حالة ممارسة التخزين المستمر فى البرت. وهكذا كان التفكير المبكر وتعددت الاقتراحات وزادت عمليات البحث والدراسة زيادة مستفيضة. وانتهى الأمر إلى الأخذ بمشروع قناة جونجلى. ثم كانت دراسات إضافية ومباحث أخرى فى سنة ١٩٣٦، ووصل الرأى إلى المفاضلة بين مشروعين لوضع حفر قناة جونجلى موضع

---

(١) ماكدونالد. م. ضبط النيل من صفحة ١٣٨ — ١٤٠

التنفيذ . وهذان المشروعان هما ، مشروع بوتشر الذى يعتمد على الحفر بالكراكات المائية ، ومشروع آخر يفضل حفر القناة فى ظهر الأرض المرتفعة على حدود المنطقة الشرقية للمستنقعات ، ويعتمد على الحفارات الأرضية . وقد فضلت لجنة خبراء النيل سنة ١٩٤٩ المشروع الأول ، لأنه يقلل من مكعبات الحفر والنفقات على الأول . ونحن — على كل حال — لا نرى ما يدعونا إلى الدخول فى تفاصيل دقيقة للتعريف بالقناة فى المشروع المصرى أو فى المشروع السودانى [1] . ولكن الذى نراه فقط ، هو أن الوقت قد حان ، لأن توضع خطة متكاملة تلتزم بها مصر والسودان ، لوضع المشروع موضع التنفيذ فى الوقت المناسب ، الذى يتناسق مع كل الخطط الرامية لزيادة مساحات الأرض المنزرعة فيهما بصفة عامة .

---

(٢) راجع هذه التفاصيل فى كتاب مياه النيل من صفحة ١٥٧ — ١٦٢

أهم المراجع

١ ــ امين سامى (باشا) تقويم النيل ، جــزء أول ســـنة ١٩١٦ ، جزء ثان سنة ١٩٢٨

٢ ــ محاضرة المهندس حامد سليمان بجمعية المهندسين ، سنة ١٩٤٧

٣ ــ صلاح الدين الشـــامى (دكتور) مياه النيل . دراسية موضـــوعية ، سنة ١٩٥٨

٤ ــ محمد عوض (دكتور) نهر النيل ، سنة ١٩٥٦

٥ ــ مردوخ ماكدونالد . ضبط النيل (النســـخة العربية) ، ســـنة ١٩٢٠

٦ ــ مشروعات للرى الكبرى . تقرير لجنة الخبراء . سنة ١٩٤٩

٧ ــ هرست . موجز عن حوض النيل (النسخة العربية) ، سنة ١٩٤٦

٨ ــ كتاب المجلس الدائم لتنمية الانتاج القومى ، سنة ١٩٥٥

٩ ــ الكتاب السنوى للجمهورية العربية المتحدة ، سنة ١٩٦٣

1. Awad, H. M. : El Sadd El Ali, Les Plus Grande Reservoir du Monde et ses Consquences Geographiques. Bull. Soc. Geog D'Egypte 1957.

2. Butchet, A. D. : The Jouglie Canal Diversion Scheme. M.P.W., 1938.

3. Hurst, H. E. : The Nile London, 1951.

4. Hurst, H. E. : The Nile Basin vol. I. Cairo, 1931.

5. Selim, M. A. : The High Dam Project. Bull. Soc. Geog. D'Egypte 1955.

6. Simaika, G. M. : The Suspendid Matter in the Nile, M.P.W. 1940.

7. Simaika, G. M. : Filling As was Reservoir in the Future. M.P.W.

الرأى العـام والحياة السـياسية *

للدكتور حسنين عبد القادر

١

وسائل الإعلام والدعاية ودورها فى تكوين الرأى العام

يحسن أن أبدأ بتعريف الرأى العام . وهناك تعاريف كثيرة أرى أن من أحسنها مايأتى :

— الرأى العام هو مجموعة الأفكار أو المعتقدات التى تكونها الشعوب عادة فى مسألة معينة ، وفترة معينة ، وتحت تأثير الدعاية .

— الرأى العام هو الحكم الذى تصل إليه الجماعة فى مسألة ذات اعتبار عام بعد مناقشات علنية وافية .

— الرأى العام هو اصطلاح يستخدم للتعبير عن مجموعة من الآراء التى يدين بها الناس إزاء المسائل التى تؤثر فى صالح الجماعة .

ومن خصائص الرأى العام مايأتى :

— يظل الرأى العام ساكنا كامنا حتى تبرز قضية للجماعة . والقضية تظهر حينما يوجد تصادم أو قلق أو خيبة أمل .

---

* بحوث قدمها الدكتور حسنين عبد القادر الى المؤتمر الدولى الثالث للعلوم السياسية المنعقد فى بيروت فى المـدة من ١٤ الى ١٧ نوفمبر سـنة ١٩٦٣ لبحث موضوع « الرأى العام والحياة السياسية » . وقد حضره ممثلون للأمم المتحدة والولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفييتى وبريطانيا وفرنسا وألمانيا الغربية وايطاليا ويوغوسلافيا ولبنان والعراق والمغرب والجمهورية العربية المتحدة .

— اذا أعطى الشعب فى البلد الديموقراطى الحر فرصة التعليم والاعلام الطيب ، فان الرأى العام يبدو صلب العود ، ولا يسهل خداعه عن طريق الدعاية .

ـ من السهل على الناس أن يحـــددوا الأهداف ، لكنه من الصعب عليهم أن يبينوا الوسائل التى توصلهم الى هذه الأهداف (١) .

وأهم خصائص الرأى العام فى نظرنا أنه سريع التقلب ، وأنه يتأثر بالأحداث اليومية أكثر من أى شىء آخر ، وأن منطق المادة يبهره أكثر من منطق العقل والخطب الرنانة ، وأن الكوارث التى تصيب المجتمع تجعله فى الذروة من حيث الحماسة وشدة الاحساس بالفجيعة . . . وقد تتسبب الأحداث التى تثير السخط العام إلى تحويل الرأى العام من النقيض إلى النقيض ، ومن أقصى اليمين إلى أقصى اليسار .

ومن نواحى الضعف فى الرأى العام مايلى :

— تستطيع التغييرات السطحية فى التقاليد والعادات الشعبية والأخلاق العامة أن تهدىء من ثائرة الرأى العام .

— يضطرب الرأى العام بما يعلنه الأخصائيون من نتائج الاستفتاءات والدراسات الإحصائية عن المسائل المختلفة التى تشغل باله .

ويمكننا أن نتبين هنا عناد الجماهير الشبيه بعناد الطفل فتأبى إلا أن تختار الطريق الآخر أو تعتنق الرأى المضاد أو تسير وراء القافلة ، فتأخذ النتائج كقضية مسلمة غير قابلة للمناقشة أو الجدل .

وقد تخضع الجماهير للايحاء فتستخدم الدعاية القوية الناجحة هذه النتائج للتدليل على صدق آرائها ولتدعيم وجهة نظرها .

— كلما قويت الرغبة فى الحرب وسادت الروح العسكرية فإن الرأى العام يصبح أقل تعقلا ورشدا .

---

(١) راجع كتابنا (الرأى العام والدعاية) ــ الطبعة الثانية ــ ص ١٠ ــ ٢١ وص ٤٦ ــ ٤٨ للوقوف على تعاريف أخرى للرأى العام لبعض العلماء الأمريكيين مثل دوب Doob وتشيلدز Childs وألبورت Allport وغيرهم ، وكذلك خصائص أخرى للرأى العام يعتبرها كانتريل Cantril قوانين له .

— لا يمكن خلق رأى عام عالمى إلا إذا تقاربت الأخلاق العامة للشعوب .

وفى رأيى الشخصى ان الرأى العـام يتأثر تأثرا كبيرا باحتياجات الشعب الى مطالب الحيـاة ، وخاصـة تلك المطالب اليوميـة من مأكل وملبس .. ذلك لأن الجماهير تتأثر عادة بنداء البطون أكثر مما تتأثر بنداء العقـل ، أو بعبارة أخرى مجازية انها تفكر ببطونها لاعقولها .

ولذلك تستطيع أية حكومة استبدادية أو أية دولة استعمارية أن تكسب قلوب الجماهير وتأييدها عن طريق غمر الأسواق بالسلع الضرورية ، وتخفيض الأسعار ، ورفع الأجور وتهيئة حياة شعبية تتسم بالرخاء .

وعلى العكس من ذلك تستطيع أية مجاعة أو أية أزمة اقتصادية طاحنة أن تحرض الجماهير على الاطاحة بأية حكومة وطنية قد عجزت عن إصلاح الأحوال الاقتصادية لأسباب خارجة عن إرادتها وفوق طاقتها .

ولذلك يجب أن تضع الحكومة الوطنية مسألة الرخاء الاقتصادى ومكافحة الغلاء فى أول قائمة أعمالها إذا أرادت أن تكسب ثقة الجماهير ، لأن الجماهير لا تستطيع أن تأكل من الدعايات والخطب السياسية الرنانة والوعود المتكررة دون جدوى ، والتى لاطائل تحتها ، ولا تلبث أن تكتشف أنها مخدوعة فى تلك الدعاية وتلك الخطب والوعود ، فتثور وتنقض على حكامها .

فالثورة الفرنسية الكبرى لم تقم إلا بسبب جوع الجماهير وتعذر حصولها على لقمة الخبز .

والحرية السياسية وحرية الرأى وحرية الاجتماع وحرية الصحافة وما إلى ذلك من الحريات العامة لا يهتم بها رجل الشارع كثيراً ، وإنما تهتم بها فئة قليلة من الناس وهى طائفة المثقفين .

وهذه الظاهرة ليست مقصورة فقط على الشعوب المتخلفة بل إننا نجدها أيضاً فى الشعوب المتقدمة .

ففى عام ١٩٥١ بينما كانت الحرب الكورية على أشدها ، وكانت الحرب مشتعلة أيضاً فى الهند الصينية طرح على الفرنسيين السؤال الآتى :

ما هى المشكلات التى تهمكم أكثر من غيرها ؟

فكان جوابهم * كالآتى :

٣٣ ٪ سعر اللحم .

١٥ ٪ إعادة تسليح ألمانيا .

٤ ٪ أحداث كوريا .

والرأى العام – فى نظرى – منقاد لقوتين كبيرتين : الأولى هى الزعامة الشعبية . والثانية : هى القيادة الفكرية للصفوة .

لكن للأسف الشديد يلاحظ أن الزعماء المستبدين لا يسمحون لمثل هذه القوة بالوجود ، فضلا عن ممارسة حقها فى إبداء الرأى . والزعماء المستبدون يكممون الأفواه الحرة ، ويحاربون الأفكار المناهضة لأفكارهم . وإذا استطاعت القوة الثانية أن تؤدى عملها بحرية كانت صمام الأمان بالنسبة للديموقراطية ، وحالت دون الطغيان الفردى والاستبداد .

دور الزعامة فى تشكيل الرأى العام :

وتلعب الزعامة دوراً كبيراً فى تشكيل الرأى العام وتوجيهه والسيطرة عليه . ومع تسليمنا بأن الزعيم هو وليد الرأى العام ، وأنه حينما يتصدر الجماعة إنما يعبر عن آلامها وآمالها ، فإنه بعد أن يسيطر على الموقف لا يسير من خلف الجماعة وأهوائها ، وإنما يتقدمها دائماً فى الطريق الذى يرى أنه خير طريق ، ولو كان مخالفاً للرأى الأصيل للجماعة .. وهذه هى خاصة الزعيم الرشيد التقدمى .

نوعان من الزعامة :

فنحن نفرق بين نوعين من الزعامة .

الزعامة الرشيدة العاقلة ، والزعامة غير الرشيدة التى تتصف بالرعونة والعناد ، وتسخير الجماهير لتحقيق مطامع فردية بحثاً عن المجد الشخصى الزائف .

---

* راجع كتاب (مناهج السياسة الخارجية فى دول العالم) لطائفة من علماء السياسة . اشراف روى مكريدس ترجمة الدكتور حسن صعب . (منشورات المكتبة الاهلية . ببيروت) س ٩٤ و ٩٥ .

والزعامة الرشيدة تستفيد باستمرار من القيادات الفكرية فى الأمة ، وتستمع اليها عن كثب ، ولا ترى غضاضة فى استشارة أهل الرأى من الفنيين والمتخصصين .

بينما تجنح الزعامة غير الرشيدة إلى ركوب رأسها والتفكير على هواها ، وتكميم أفواه المعارضين ، بل وسد الطرق فى وجوههم ، والقضاء على نشاطهم فى مجال القيادة الفكرية .

إن هؤلاء الزعماء المستبدين هم الذين جلبوا لشعوبهم الدمار ، وزجوا بهم فى ميادين الحروب ، كما فعل هتلر وموسولينى وغيرهما .

ولا شك أن النقابات المهنية والاتحادات والجمعيات المختلفة والأندية وسائر التنظيمات المهنية تقوم هى الأخرى بدور كبير فى تشكيل الرأى العام داخل الجماعات الصغيرة ، ولا يلبث هذا الرأى أن ينمو وينشط على مر الأيام والسنين .

دور وسائل الاعلام الكبرى :

ومع ذلك فإن وسائل الاتصال الكبرى بالجماهير Media of Mass Communication هى التى تلعب الدور الأول فى تكوين الرأى العام ، وذلك لالتصاقها الدائم بالجماهير ، والتقائها اليومى بالناس بشكل منتظم ، وبصورة رتيبة .

وعلى رأس هذه الوسائل الصحافة والراديو والتليفزيون .. وكذلك السينما والمسرح .

فالمقالات المتتابعة فى الصحافة أشبه بقطرات المياه التى تتساقط باستمرار — وانتظام — فوق حجر ، ولا بد آخر الأمر من أن تفتته وتصل إلى باطنه .

كذلك تستطيع الصحافة عن طريق تلوين الأخبار والإثارة أن توقظ الرأى العام وتدفعه إلى الحركة .

والصحافة فضلا عن ذلك هى التى تمد الجماهير بالحقائق والمعلومات والآراء والأفكار التى هى النسيج الذى يتألف منه الرأى العام الناضج .

لكن دور الصحافة فى البلاد المتخلفة اجتماعياً وثقافياً واقتصادياً محدود بالنسبة لدورها فى البلاد المتقدمة التى ينعم فيها الشعب بمستوى مرتفع من المعيشة .

ففى الأولى تكون الصحافة عادة فقيرة وتوزيعها محدوداً للغاية ، ولا يشترى الصحف إلا نسبة ضئيلة من السكان ، ولا يستطيع المواطن أن يقرأ سوى صحيفة واحدة . والنتيجة

هى أنه يظل منساقاً وراء هذه الصحيفة ويصدق كل ما تنشره . . . ولا حيلة له فى ذلك .

أما فى البلاد المتقدمة فإن المواطن يستطيع الحصول على أكثر من جريدة وأكثر من مجلة ، ويوازن بينها ويرجح خبراً على خبر أو رأياً على رأى .

وإذا انحرفت الصحافة فى البلاد المتخلفة عن جادة الطريق فإنها لابد وأن تضلل الرأى العام ، وأن تخلق رأياً عاماً فجا وعاجزاً عن حل المشكلات العامة ، أو اتخاذ أية خطوة إيجابية فى سبيل مواجهة أية أزمة طارئة أو أى خطر داهم .

ومن أخطر الأشياء فى الصحافة أنها تستخدم العناوين على نطاق واسع ، وتكثر من هذه العناين ، وتتفنن فى صياغتها بطريقة تبعدها فى أغلب الأحوال عن الحقيقة . فالصحف تلون العناوين ، وتبالغ فيها أحياناً ، بل وتعمد أحياناً إلى التحريف أو الخداع أو الكذب لأسباب تجارية محضة ، فهى تريد أن تثير الناس ، وتجذب المشترين وتجبرهم على شراء الصحيفة ، لكى يروج توزيعها ويتضاعف ، ومن ثم تزيد إيراداتها وأرباحها فى آخر العام .

وهذه العناوين نفسها تصرف الناس عن قراءة تفاصيل الأخبار أو التحقيقات الصحفية أو التقارير المصورة أو المقالات .. فى حين أنه لا غنى عن معرفة هذه التفاصيل إذا أريد تكوين رأى عام ناضج عليم بحقائق الأمور .

ولهذا يطالب بعض علماء الرأى العام والصحافة والاجتماع بضرورة الكف عن استخدام العناوين ، أو على الأقل الاقتصاد فى نشرها ، وعرضها بطريقة موضوعية تدفع الناس إلى قراءة باقى التفاصيل والمواد التى تجىء تحت هذه العناوين .

أما الراديو فإن صوته قد وصل إلى جميع الأسماع حتى فى القرى والدساكر . والشوارع والطرقات . . ولا يخلو منزل الآن فى المدينة أو الريف من جهاز للراديو . بل إن كثيراً من المواطنين وخاصة من الشباب والعمال والفلاحين يحملون أجهزة الراديو الصغيرة ذات البطاريات الجافة (الترانزستور) أينما ذهبوا .

وقد استطاع الراديو عن طريق استخدام العوامل المساعدة من موسيقى وغناء وتمثيل أن يجذب الناس إلى استماعه ، وأن يدخل فى رءوسهم الأفكار والآراء التى يريدها المهيمنون على برامج الاذاعة ، وتريدها السلطات المسيطرة على الاذاعة .

بيد أن تأثير الراديو لايزال أوضح فى جماهير الشعب غير المتعلمة أو التى لم تظفر بقسط من الثقافة .

وقد ثبت من بعض البحوث التي أجريت في أمريكا أنه كلما انخفض المستوى الثقافي والاقتصادي للفرد ، زاد اعتماده على الراديو كوسيلة من وسـائل الاعلام والترفيه .. والعكس بالعكس [1] .

والملاحظ أن جمهرة المثقفين لاتقبل كثيراً على برامج الراديو لأن مستوى البرامج ضحل بوجه عام ، ويتسم أحياناً بالسطحية والسذاجة والسخف . . ذلك لأن واضعي هذه البرامج يتجهون إلى رجل الشارع ، ويعمدون إلى تقديم برامج تلائم أذواق الجماهير من الفلاحين والعمال وغيرهم من الفئات المشابهة .

أما المثقفون فإن الاذاعة تقدم لهم برامج خاصة كالبرنامج الثاني في إذاعة الجمهورية العربية المتحدة أو البرنامج الثالث في الاذاعة البريطانية .

وهذه البرامج لاتحقق الهدف المقصود لثلاثة أسباب :

الأول : أن مدتها قصيرة جداً بالقياس إلى مدة البرنامج العام .

الثاني : أن توقيتها لا يناسب كثيراً من الفئات التي يضطرها عملها إلى عدم الاستماع إليها .

الثالث : أنه قد يطغى عليها لون معين من التفكير كالفن أو الأدب أو الموسيقى الكلاسيكية مثلا ، لأن المشرفين على هذه البرامج ينتمون إلى أحد هذه الألوان الفكرية المختلفة ، أو يحبذون أحدها دون الألوان الأخرى .

لكن يلاحظ أن برامج الاذاعة آخذة في تحسين مستواها ، وأنها ترتفع تدريجياً لتلائم روح العصر والتطور الثقافي والاجتماعي ، ولتوائم بين نفسها وبين وسائل الاعلام الأخرى كالصحافة .

وفي بعض البلدان — كبريطانيا — يرى بعض المفكرين — ومنهم إرنست باركر Ernest Barker أستاذ علم السياسة بجامعة كمبردج — أن مستوى الاذاعة البريطانية أعلى من مستوى الصحافة هناك . . وأن الصحافة تعمل على رفع مستواها لتلحق بمستوى الاذاعة من النواحي الفكرية [2] .

---

(1) راجع كتابنا (الرأى العام والدعاية) — الطبعة الثانية — ص ٧٨ .

(2) راجع كتابه .Britain and the Britsh People. pp. 108,109

أما الوسيلة الثالثة الكبرى وهى التليفزيون فتمتاز بأنها يجتمع فيها فى آن واحد العناصر الثلاثة المؤثرة فى المخيلة وهى الصورة والصوت والحركة . . . ولذلك كان التليفزيون أقوى وسائل الإعلام المؤثرة فى نفوس الناس ، خصوصا بالنسبة للأطفال وطبقة العوام وغير المتعلمين بوجه عام .

هذا فضلا عن أن التليفزيون يستخدم العوامل المساعدة من موسيقى وغناء وتمثيل ومناظر جميلة خلابة — يستخدمها خير استخدام ، وفى أقوى صورة وأعلى درجة .

لكن لايزال للراديو ميزة على التليفزيون وهى أن الأول تخترق موجاته كل أنحاء الأرض فى لمح البصر ، إذ أن موجة الأثير تدور حول الكرة الأرضية فى ⅐ ثانية ، وتخترق كل الحدود والسدود فوق البحر واليابس . . بينما لا يزال مجال التليفزيون محدوداً ولا يتعدى دائرة قطرها نحو ١٠٠ ميل ، ولا بد من وجود محطات تقوية كلما أريد توسيع هذه الدائرة . والمشاهد أن برامج التليفزيون لا تتعدى فى الغالب حدود البلد الذى تتبعه محطة التليفزيون ، بينما تصل الاذاعات الموجهة بالراديو إلى جميع بلدان العالم .

وعلى ذلك فان الراديو أقدر على تكوين الرأى العام العالمى وتشكيله بجانب قوة تأثيره على أغلبية الشعب من الفئات غير المتعلمة ، بينما يتفوق التليفزيون عليه من ناحية تكوين الرأى العام المحلى أو الوطنى ، ومما يؤكد ذلك أن أكثر الناس تنصرف الى مشاهدة برامج التليفزيون كلما وجد جهاز التليفزيون بين أيديهم دون الاستماع الى الراديو حتى ولو كان الجهازان موجودين معا فى غرفة واحدة أو مسكن واحد .

أما السينما فان أكثر روادها من الشباب . وقد ثبت من بحث أجرى فى أمريكا قبل الحرب العالمية الثانية أن ثلثى هؤلاء الرواد هم دون الثلاثين ، وأن السينما أقوى وسائل الإعلام تأثيراً فى الأطفال . كما ثبت من بحث آخر أجرى خلال الحرب العالمية الثانية بين الجنود الأمريكيين فى ميدان القتال أن السينما أقدر على تغيير المعلومات ولكنها لا تستطيع تغيير الأفكار والآراء[1] .

والأفلام السينمائية التجارية أغلبها ذات مستوى منخفض من الناحية الفكرية والفنية ،

---

(١) راجع كتابنا (الرأى العام والدعاية) الطبعة الثانية ص ١٥٨

والقليل النادر من الأفلام ما يرقى إلى المرتبة العالمية حتى بالنسبة لأكبر مدينة للانتاج السينمائى وهى مدينة هوليود الامريكية .. لأن هذه الافلام الممتازة تحتاج إلى نفقات طائلة ، فضلا عن أن جمهورها محدود جداً فهى لاتلائم سوى ذوق الطبقة المثقفة .

أما الجماهير فإنه لايروقها إلا الافكار السطحية وألوان الصخب والتهريج ، وما يشبع الغرائز المنحطة ، ويتملق النزعات والعواطف البشرية .

ومن الأفلام السينمائية ما يتخصص فى الإعلام كالجريدة السينمائية ، وفيها ما يتخصص فى التعليم والتثقيف . . ولكن هذه الأفلام تكون فى العادة قصيرة جداً ، ويكون إنتاجها متواضعا من الناحية الفنية. وقد ثبت من البحوث التى أجريت أخيراً أنها ذات فائدة محدودة من ناحية التربية والتعليم ، وتحقيق الرسالة المنشودة .

والمسرح — وهو أبو السينما — له جمهوره المحدود . . ورواده فى العادة أقل عدداً وأعلى فى مستوى الثقافة والمستوى الاجتماعى والاقتصادى ، وهم أكثر تجانساً من رواد السينما . لكن أمكن فى بعض البلاد — كالجمهورية العربية المتحدة — تنشيط المسرح وتيسيره لعامة الشعب ، بحيث أصبح ينافس السينما فى ميدان التوجيه والارشاد والتثقيف والترفيه .

والمسرحية فى العادة ذات مستوى أعلى من الناحية الفكرية من القصة السينمائية . كما أن المسرحية تتعمق المشاكل الاجتماعية وتعرضها بطريقة موضوعية وواقعية أكثر مما نجده فى الروايات السينمائية .

بل إن السينما قد تشوه الانتاج الأدبى أحيانا ، وتبتعد عن القصة الأصلية لأسباب فنية أو تجارية .

وكل هذه الظواهر ينعكس تأثيرها على الرأى العام والى جانب هذه الوسائل الكبرى يشترك فى تكوين الرأى العام الكتب العامة التى تلائم أذواق الجماهير المثقفة ، وكذلك الكتيبات والنشرات والمنشورات والملصقات . . الخ . كما يشترك التعليم والمحادثات الشخصية التى تدور بين الناس على قارعة الطريق أو فى المركبات أو فى الأماكن العامة أو على موائد الطعام ـ تشترك فى هذه العملية ، وقد تتخذ صورة حملة قوية من الشائعات أو الأقاويل ، وهى ما يعبر عنها بحملات الهمس ، أو تتخذ صورة الاغتياب « والدردشة » التى تتناول سيرة الناس وقد تنهش لحمهم . وهنا يتبادر هذا السؤال :

هل استطاعت وسائل الاعلام أن تؤدى دورها كما ينبغى من ناحية تكوين الرأى العام ؟

وللاجابة على هذا السؤال نقول إن هذه الوسائل ليست محررة من الضغط والتوجيه والاستقلال الذاتى حتى فى البلاد الديموقراطية ، فهى تستغل فى الغالب للدعاية السياسية أو المذهبية أو التجارية .

كما أن هناك ظاهرة خطيرة تهدد حرية الصحافة بالذات ، وهى تركيز الصحف [١] فى أيدى عدد قليل من الناشرين الرأسماليين أو الشركات الرأسمالية الكبرى ، حتى لقد أصبح الطريق مسدوداً أمام الأفراد الذين يفكرون فى إنشاء صحف جديدة ، لضخامة رأس المال اللازم لمثل هذا المشروع ، ويقدر بمليونين من الجنيهات على الأقل بالنسبة للمدن الصغيرة فى الدول الغربية الكبرى كالولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا ، وبضعف هذه القيمة (أى نحو أربعة ملايين من الجنيهات) بالنسبة للمدن الكبرى .

وقد تطور الأمر إلى اندماج [٢] كثير من الصحف لمواجهة الأعباء المالية المتزايدة والأزمات المالية التى تهدد أكثر الصحف ، واختفاء عدد كبير من صحف الرأى فى نصف القرن الأخير ، الأمر الذى يهدد الديموقراطية نفسها . وكأن الصحف قد أصبحت كالسمك يأكل منه الكبير الصغير . وأقرب مثال على ذلك صحيفة (نيوز كرونيكل) لسان حزب الأحرار فى بريطانيا (وكان توزيعها ١٫٥ مليون نسخة) التى باعها صاحبها مستر كادبورى صاحب مصانع الشيكولاتة العالمية المشهورة إلى غريمتها (الديلى ميل) الناطقة بلسان حزب المحافظين فى عام ١٩٦٠ . وكانت (النيوز كرونيكل) تطالب الحكومة البريطانية بتغيير سياستها الاستعمارية والقضاء على التفرقة العنصرية فى جنوب أفريقيا ، ووقفت أيضاً هذه الصحيفة الحرة إلى جانب مصر ضد حكومة إيدن أثناء العدوان الثلاثى الغادر فى عام ١٩٥٦ بينما المعروف عن (الديلى ميل) أنها صحيفة استعمارية ، وأنها لا تزال متعلقة بالإمبراطورية البريطانية ، وتؤيد التمييز العنصرى ، وقد أيدت أيضاً العدوان الثلاثى على مصر ، وكانت قبل العدوان تحرض إيدن على استخدام القوة ضد مصر بعد تأميمها قناة السويس .

---

(١) و (٢) راجع كتابنا (ادارة الصحف) ــ الطبعة الثانية ــ ص ٣٣ ــ ٣٩ وكتابنا (الرأى العام والدعاية) ــ الطبعة الثانية ــ ص ٣٦٢

كذلك تلاحظ ظاهرة التركيز أيضاً فى محطات الاذاعة والتليفزيون فى كل البلاد الرأسمالية ، ويغلب الطابع التجارى والاستغلالى على هذه الوسائل جميعاً بما فيها الصحافة .

وأكثر من هذا أن بعض هذه الوسائل يسخر لخدمة المصالح الأجنبية أحياناً عن طريق الرشاوى والإعانات المالية المستترة فى صور طلبات نشر الاعلانات السياحية وغيرها . وبعض هذه الوسائل — كالراديو والتليفزيون — خاضع للحكومة مباشرة فى صورة احتكار سافر .

والصحافة نفسها رسمية أو شبه رسمية فى بعض البلدان ، وتسيطر عليها الحكومة عن طريق الرقابة الإدارية الدائمة أو الاشراف والتوجيه المستمر . كما أن الصحافة ليست منتشرة فى معظم الشعوب بالقدر الكافى ، ولا يقرأ الصحف إلا نسبة ضئيلة جداً من السكان ، بل إن جمهور قراء الصحف لا يستفيد من كل ما ينشر فى الصحف كما هى الحال بالنسبة للأخبار الخارجية التى ثبت من استقصاءات أجريت فى البلاد المتقدمة ذاتها — ومنها الولايات المتحدة الامريكية وفرنسا — أن رجل الشارع لايهتم بها ولا يقرأ منها شيئاً . ومعنى هذا أن الرأى العام فى تلك البلاد يجهل السياسة الدولية والمشاكل الدولية .

وهناك فوق ذلك كله أزمة خلقية فى محيط المشتغلين بالاعلام بالرغم من صدور « عهد الشرف الصحفى » الذى كافحت « لجنة حرية الاعلام » بالأمم المتحدة فى سبيل تقريره .

والذى يسيطر على وسائل الاعلام يسيطر على (الرأى العام) ويشكله كيف يشاء .

ولهذا فان الضمان الوحيد لتكوين رأى عام حر ناضج فاهم أن تعمل هذه الوسائل بحرية وأمانة . وهذا لا يتحقق الا فى ظل الديموقراطية ، وفى ظل التقاليد المرعية لمهنة الاعلام وآدابها .

أما فرض السيطرة الحكومية أو التوجيه الحكومى أو الرقابة الادارية على هذه الوسائل فإن هذا كله يعوق قيامها بوظيفتها فى خدمة الحقيقة ، وخدمة مصالح الشعب ، وحماية السلام العالمى .

ومن ناحية العلاقات الدولية تقوم وسائل الإعلام بعرض السياسة القومية والدولية والدعاية لها أيضاً . وقد يكون هذا العرض وافيا بالغرض ، وقد يكون مشوهاً . . ومن هنا

يحدث تضليل الرأى العام المحلى ، وتكدير صفو العلاقات الطيبة بين الدول والشعوب .

فنحن نريد من الذين يعملون بوسائل الإعلام أن يقولوا كلمة الحق والصدق ، وأن يتحروا الحقيقة فيما ينشرونه أو يذيعونه من أخبار وتعليقات ، خصوصا ما يتعلق منها ببلاد غير بلادهم .

أنواع الرأى :

يفرق الاستاذ بوجاردوس Emory S. Bogardus [1] بين أنواع كثيرة من الرأى منها :

رأى الفرد (ومنه رأى ظاهر وآخر باطن) ورأى الأغلبية ورأى الأقلية والرأى الائتلافى والرأى الساحق (أو الرضى العام) والرأى الجامع (أو الإجماع) والرأى العام .

والرأى الباطن بالنسبة للفرد يستطيع أن يبين عن نفسه ، ويصبح إيجابياً فى الانتخابات العامة إذا أحيطت بالسرية وكانت حرة .

ورأى الاغلبية هو رأى ما يزيد على نصف عدد أفراد الجماعة ، وقد يتكون نتيجة الدعاية القوية أو بسبب زعامة ناجحة . وهذا الرأى يتكون فى الغالب نتيجة الانقياد للزعامة أو لفئة قوية من القيادة .

وأما رأى الأقلية فهو رأى ما يقل عن النصف ، وقد يتصف بالنضوج ويضم العناصر الطيبة .. وفى إمكان هذا الرأى أن يصبح رأى أغلبية لو استخدم الدعاية الناجحة .

ورأى الأقلية يحفظ التوازن بين القوى السياسية المختلفة ، ويحول دون طغيان الأغلبية وانقلابها إلى دكتاتورية مستبدة بالأقلية.

وللأقلية فى البلاد الديموقراطية احترامها لأنها تقوم بوظيفة هامة فى تحقيق الديموقراطية .. ولولا المعارضة لأصيب الرأى العام بالجمود والتبلد . .

ولهذا لم يكن عجيباً أن يمنح زعيم المعارضة فى مجلس العموم البريطانى راتبا مساويا لرئيس المجلس وهو ممثل حزب الأغلبية الذى يتولى الحكم .

---

(۱) راجع كتابه بعنوان The Making of Public Opinion pp. 7-16

أما الرأى الائتلافى فهو رأى مصطنع يتألف من عدة أقليات قد اجتمعت سوياً لمواجهة ظرف طارىء وتحقيق مصلحة مشتركة . فاذا زال هذا العامل الخارجى تفتت الرأى الائتلافى من جديد ، وعادت الأقليات متنافسة وأنشط مما كانت فى التشاحن والتطاحن .. بل إن هذا التشاحن والتطاحن لاينعدم أو يختفى أثره فى وقت الائتلاف ذاته ، وقد يكون على أشده أحياناً نتيجة للصراع الحزبى والأطماع الحزبية والشخصية .

ووجود الرأى الائتلافى دليل على عدم نضج الرأى العام وأن النظام الديموقراطى نفسه مهدد بالخطر .

ولا يوجد هذا الرأى عادة إلا فى البلاد التى تفتت فيها الرأى العام تفتتاً كبيراً ، واضطربت فيها أحوال البلاد السياسية .

أما الرضى العام فمعناه أن كل الشعب تقريباً قد آمن بالقضية أو الفكرة أو الشخص .. فالرضى العام هنا شىء أكبر بكثير من رأى الأغلبية وهو يناهز ٩٠ ٪ أو أكثر .

ووجود هذا النوع من الرأى — فى نظر بعض المفكرين — فيه اتهام صريح للجماهير بأنها صماء بكماء عمياء لا تعقل ، وأنها لم تفكر فى المشكلة أو تكلف نفسها عناء البحث . وإذن فهذا النوع من الرأى هو وليد الانقياد والتقليد أو التسليم .

ولو أمكن وصول الجماعة إلى هذا النوع من الرأى عن تفكير وروية فإنه يعد أرقى مراتب الديموقراطية .

أما الرأى الجامع فإنه يستمد أصوله من تاريخ الأمة وعاداتها وتقاليدها وعقائدها وميراثها الثقافى بوجه عام .

وهو يمتاز بالثبوت والاستقرار ، ولا يتغير إلا فى القشور ، أما الجوهر فإنه مصون لا يمس ، ولا يقدر سوى الأنبياء والرسل والفلاسفة وأصحاب المذاهب الاجتماعية الجديدة (كالشيوعية مثلا) على مواجهة هذا النوع من الرأى والتصدى له .

ومعنى وقوف الفرد فى وجه الرأى الجامع أنه يقف فى وجه الجماعة ، ويتحدى وجودها وكيانها ، وهذا مما يعرضه لأذاها أو احتقارها على الأقل .

والرأى الجامع هو الوسط أو المجال الذى تعمل بداخله كل أنواع الرأى .

وأما الرأى العام فإنه ينقسم فى رأى إميل دوفيفات Emile Dovifat [1] مدير معهد الصحافة بجامعة برلين إلى ثلاثة أقسام :

الرأى العام اليومى :

وهو الذى يتكون نتيجة لنشاط الهيئات المختلفة كالحكومة والبرلمان . وهو متقلب من يوم إلى آخر تقلب الطقس فى شهر أبريل على حد قول الانجليز . والصحف تعيش على هذا النوع من الرأى وهو يؤلف عناوينها الرئيسية بالصفحة الأولى (المانشيت) .

الرأى العام المؤقت :

وتمثله الأحزاب السياسية . وهو موقوت بوجودها .

الرأى العام الكلى :

وهو الرأى الثابت على مر الأجيال والذى أطلقنا عليه الرأى الجامع .

وهناك أيضا التقسيم المتعارف عليه وهو أن الرأى العام يتألف من ثلاثة أنواع :

١ — رأى عام نابه .

٢ — رأى عام قارىء .

٣ — رأى عام منساق (أو منقاد) .

والأول يؤلف نسبة ضئيلة جداً فى كل المجتمعات ، ويتمثل فى فئة المفكرين وأصحاب المهن الرفيعة وهؤلاء هم الذين يؤثرون فى وسائل الاعلام ويوجهونها ولا يتأثرون بها .

والثانى (القارىء) تتوقف نسبته على انتشار التعليم ، وهو يتأثر بوسائل الاعلام ويؤثر فيها إلى حد ما .

والثالث (المنساق) يؤلف الأغلبية الساحقة من الشعب ويتأثر بكل وسائل الاعلام ولا يؤثر فيها على الاطلاق .

---

(١) راجع كتاب Karl Bômer-Das Internationale Zeitungswesen. pp. 5-9

وظائف الرأى العام :

نستطيع أن نجمل وظائف الرأى العام فى أربعة وظائف :

الأولى : أنه يسن القوانين ويلغيها عن طريق البرلمانات .

الثانية : أنه يسند الهيئات الاقتصادية والاجتماعية .

الثالثة : أنه يرعى المثل الخلقية .

الرابعة : أنه يحافظ على الروح المعنوية ويملؤها قوة [1] .

فمن ناحية الوظيفة الأولى لا يمكن أن ننتظر أن القوانين تفرض بالقوة على الناس ، وتستطيع أن تخلق الرأى العام .

كذلك لا تستطيع أن تعيش أية هيئة بدون مساندة الرأى العام والحصول على السمعة الطيبة بين الناس .

كذلك يعتبر الرأى العام حارسا على الأخلاق . والرأى العام أيضا إذا اتحد يستطيع أن يصل بالروح المعنوية إلى الذروة .

وعلى العكس من هذا تضعف الروح المعنوية فى الشعب وتتضعضع اذا انقسم الرأى العام على نفسه انقساما كبيرا ، أو اذا تألف من قوتين فقط متصادمتين ومتعاديتين أشد العداوة أو اذا تألف الشعب من طبقتين اجتماعيتين اثنتين فقط احداهما رأسمالية ذات ثراء فاحش ، والثانية معدمة لا تملك عيرا ولا قطميرا .

وإذن فالاتحاد بين أبناء الشعب والثقة بالزعماء وبالشباب وتقريب الفوارق بين الطبقات من العوامل الهامة فى رفع الروح المعنوية والحيلولة دون التصادم الاجتماعى والثورات الدموية .

ولا شك أن الاشتراكية هى التى تستطيع أن تعالج كل هذه الأدواء والمشاكل .

والثورة الاشتراكية فى الجمهورية العربية المتحدة تعمل على اذابة الفوارق بين الطبقات من غير اجحاف بحق الفرد فى تحصيل ثمرة كده وكفاحه وعلمه وعمله ، دون الاضرار بمصالح الغير أو استغلال الجماهير .

---

(١) راجع كتابنا (الرأى العام والدعاية) ــ الطبعة الثانية ص ٥٨ ــ ٦٩

كيف يمكن كسب الرأى العام ووقوفه الى جانب الحكومة ؟

هذه مهمة « العلاقات العامة » سواء داخل الحكومة أو بين الحكومة والشعب .

فينبغى أن تقوم إدارات العلاقات العامة بالوزارات والمصالح والمؤسسات العامة بالواجبات الآتية :

أولا — إعلام الموظفين والعمال بكل ما يهمهم من ناحية العمل والخدمات المختلفة التى تؤديها لهم الجهة الحكومية التى يعملون بها واختيار وسائل الاتصال المناسبة لتحقيق هذا الغرض من مجلات ونشرات خاصة وكتيبات وأفلام سينمائية . . . الخ ؟

ثانياً — استفتاء الموظفين والعمال من آن لآخر للوقوف على آرائهم واتجاهاتهم ومطالبهم إزاء سياسة التوظف والخدمات العامة التى تؤديها لهم الحكومة ، وكذلك السياسة العامة التى تنتهجها الجهة الحكومية التى يعملون بها فى أداء الخدمات للقطاعات المختلفة .

ويمكن تحقيق هذا الهدف عن طريق المؤتمرات التى تعقد بصفة دورية ولو مرة على الأقل كل عام ، أو بواسطة المحاضرات والمناظرات والندوات ، أو المجلات الخاصة التى تفرد باباً لآراء الموظفين والعمال ومقترحاتهم وشكاواهم .

ثالثاً — وضع برامج تثقيفية وترفيهية متنوعة للموظفين والعمال واختيار وسائل الاتصال المناسبة لكل فئة من الفئات كالمحاضرات والمكتبات والدوريات الصحفية والمختلفة والحفلات والرحلات . . . الخ .

رابعاً — توفير الظروف الطيبة للعمل من حيث المكان والأثاث والإضاءة والتهوية وكذلك الخدمات العامة المتصلة بالمصاعد الكهربائية وما يلزم الموظف أو العامل من شراب (أو طعام أحيانا) أثناء العمل .

خامساً — تيسير حصول الموظف أو العامل على ما يلزمه هو وأسرته من مسكن صحى ملائم وغذاء وكساء وترفيه بأقل تكلفة ممكنة وذلك عن طريق الجمعيات التعاونية .

سادساً — تقديم المساعدات المادية للموظفين والعمال (أو عائلاتهم) الذين يصابون بكوارث ومواساتهم فى أحزانهم .

سابعاً — تقديم الهدايا الصغيرة أو باقات الزهور إلى الموظفين والعمال فى المناسبات السارة الخاصة بهم (كالزواج مثلا) أو على الأقل إرسال برقيات التهنئة أو البطاقات

الشخصية من رئيس المصلحة التى يعمل بها ، إشعاراً للموظف أو العامل المشاركة الوجدانية والاهتمام بشئونه الخاصة . وفى رأينا أن العلاقات العامة الطيبة داخل الحكومة ينبغى أن تسبق العلاقات العامة مع جماهير الشعب وان يكون لها المحل الأول . ذلك لأنه لا ينتظر لأداة حكومية لا أثر للعلاقات العامة الطيبة فى داخلها أن تقوم بالخدمة العامة على أى وجه حسن ، وأن تكون صلتها بالشعب على ما يرام . . فالصورة التى تكون عليها الأداة الحكومية نفسها هى نفسها الصورة التى تنطبع فى أذهان الشعب عن هذه الأداة .

وبالنسبة للعلاقات العامة بين الحكومة والشعب ينبغى أن تقوم أولا وقبل كل شيء على أساس من التفاهم بين الجانبين عن طريق تبادل المعلومات والآراء ، ويتم هذا بوسائل الاعلام المختلفة .

كما ينبغى أن تتوفر فى هذا الاتصال صفة الاستمرار والدوام حتى تظل الصلة وثيقة بين الطرفين ، فلا تقتصر الجهة الحكومية على عمل الحملات الدعائية فى مواسم خاصة أو مناسبات معينة .

كذلك هناك وسيلة سهلة للوصول إلى هذا الغرض وهى تخصيص مكاتب لتلقى شكاوى الجمهور وتحقيقها ، ومتابعة تنفيذ الأعمال الحكومية حتى لا تتعطل مصالح الناس ، أو تتاح الفرصة لاستغلال النفوذ الحكومى للمصالح الشخصية والضغط على الجمهور لدفع الرشاوى لضعاف النفوس من الموظفين .

وفى الامكان أيضاً إنشاء قسم للاستفتاءات بكل إدارة للعلاقات العامة للاتصال المباشر بأفراد الشعب عن طريق الاستفتاء المكتوب أو الشفهى للتعرف على رأى الشعب فيما تقدمه الحكومة له من خدمات ، أو ماسوف تقدم عليه من مشروعات أو تنظيمات جديدة . بل إننا ننصح بانشاء مثل هذا القسم لتحليل الرأى العام من حين لآخر .

ونستطيع أن نجمل الأسس التى تقوم عليها العلاقات العامة الحكومية مع الشعب فيما يلى :

أولا — يجب أن تتعاون الحكومة مع الصحافة باعتبار الأخيرة مرآة الرأى العام ، وأن تمد مندوبى الصحف والاذاعة والتليفزيون ووكالات الأنباء يومياً بالأخبار والحقائق والمعلومات التى تتعلق بأعمال الجهات الحكومية المختلفة ، كما ينبغى على المسئولين أن يجيبوا على أسئلة هؤلاء المندوبين .

وعلى ذلك فليس من المستساغ فى النظام الديموقراطى أن تفرض الرقابة على وسائل الاعلام ، أو أن توضع القيود عليها ، لأنها تعوق مهمة رجال الصحافة والمشتغلين بالمسائل العامة . وتحجب كثيراً من الحقائق التى يجب أن يعرفها الجمهور ، وتفسد العلاقات بين الحكومة والشعب .

والرقابة — فضلا عن ذلك — تمهد الطريق لانتشار الشائعات الضارة بالحكومة والمجتمع وترويج الأكاذيب .

ثانياً — ليس من مصلحة الدولة الديموقراطية أن تعتمد الحكومة على وكالة أنباء رسمية بالنسبة للرأى العام العالمى ، لأن مثل هذه الوكالة تكون أخبارها محل شك باستمرار باعتبارها وسيلة من وسائل الدعاية .

ثالثاً — يجب أن يكون هدف العلاقات العامة كسب الرضى العام والتأييد من الجمهور والهيئة التشريعية ، وهذا لايتم إلا باحاطة المواطنين بالخدمات التى تؤديها الحكومة للشعب فى مختلف الميادين ، وتمكينهم من الافصاح عن آرائهم بحرية .

رابعاً — يجب أن تقوم الحكومة بشرح وتفسير التنظيمات والتشريعات الجديدة للشعب ، وبيان المزايا التى يجنيها منها ، حتى لايشعر بأنها مفروضة عليه قسراً وقهراً ، فيتقبلها بصدر رحب ، ويقوم بتنفيذ القوانين عن رضى واقتناع .

خامساً — يجب الرد على الأكاذيب والمفتريات والحملات الهجومية على الحكومة فى الأحوال التى تتطلب ذلك أو القيام بحملات الدعاية المضادة دون الاشارة إلى الشائعة الرائجة أو مصدرها ، فتذكر الحقائق والمعلومات المتعلقة بالموضوع والتى تهدم الأقاويل التى تدور على ألسنة الناس .

وقد تدعو الضرورة أو المصلحة العامة فى بعض الأحوال أن تلوذ الحكومة بالصمت نحو خبر أو أخبار أو شائعات معينة رائجة على ألسنة الجماهير ، أو نحو محادثات سياسية جارية مع إحدى الدول الأجنبية أو بعضها [1] .

---

(١) للاستزادة فى هذا الموضوع ارجع الى كتابنا (أصول العلاقات العامة) وكتابنا (العلاقات العامة فى الحكومة) . وكذلك مقالنا بعنوان (أهمية العلاقات العامة فى سياسة الحكم ودورها فى الدولة الاشتراكية) بالمجلة المصرية للعلوم السياسية بعدد مايو سنة ١٩٦٢

٢

الرأى العام والحياة السياسية فى الجمهورية العربية المتحدة

من الظواهر التى تلفت النظر بالنسبة للرأى العام فى الجمهورية العربية المتحدة الآن أمران :

الأول — زوال الانقسامات التى كانت موجودة فى الرأى قبل الثورة والتى كانت نتيجة لتعدد الأحزاب السياسية .

الثانى — ازدياد قوة الرأى العام بعد القضاء على الفوارق الكبيرة بين الطبقات واندحار الإقطاع والرأسمالية المستغلة فى ظل الثورة الاشتراكية ، مما رفع الروح المعنوية فى صفوف الطبقة العاملة من الفلاحين والعمال وهم الذين يكونون الأغلبية الساحقة من الشعب .

ومن أسباب هذا التغيير الجذرى فى الرأى العام المصرى ما يأتى :

أولا — القضاء على الأحزاب السياسية والصحافة الحزبية .

ثانياً — تسخير وسائل الإعلام لخدمة الشعب وتمليكه المؤسسات الصحفية الكبرى، واستحداث وسيلة جديدة لها أعمق التأثير فى الرأى العام لتوجيهه وهى التليفزيون . وقد بدأ عمله فى يوليه سنة ١٩٦٠ .

ثالثاً — تحسين وتنويع براج الراديو والتليفزيون ومضاعفة مدة الارسال بحيث يستغرق البرنامج العام فى الاذاعة الآن نحو ١٩ ساعة أو أكثر بالاضافة إلى عدة براج إذاعية أخرى تذاع فى نفس الوقت مثل (إذاعة الشعب) وإذاعة (صوت العرب) و (البرنامج الثانى) والبراج الموجهة إلى العالم الخارجى . وتبلغ مدة هذه البراج مجتمعة نحو ١٢٠ ساعة يوميا (١) .

---

(١) راجع كتاب (الاذاعة فى عشر سنوات) لهيئة الاذاعة والتليفزيون ص ١١ وقد بلغ متوسط ساعات الارسال اليومى فى عام ١٩٦٢ ما يزيد على ١١٧ ساعة وهذا مقابل ١٥ ساعة فقط فى عام ١٩٥٢

كذلك يقدم التليفزيون العربى ثلاثة برامج مختلفة على ثلاث قنوات مستقلة ويعتبر فى المرتبة الأولى بين تليفزيونات العالم من حيث طول مدة الارسال :

كما تحتل إذاعة الجمهورية العربية المتحدة المرتبة الثانية بين إذاعات العالم من حيث قوتها وتلى إذاعة الاتحاد السوفييتى مباشرة ، وهى أقوى إذاعة فى العالم .

رابعاً — إنشاء جهاز قوى للإعلام والدعاية فى الداخل والخارج وهو (مصلحة الاستعلامات) التابعة لوزارة الثقافة والارشاد القومى الآن . وقد ظلت هذه المصلحة منذ إنشائها تحت إشراف السلطة العليا فى البلاد .

وللمصلحة مكاتب ومراكز تغطى جميع أنحاء الجمهورية وتمتد إلى أكثر العواصم فى الخارج . وكذلك تجوب قوافل الاستعلامات جميع أنحاء الريف فى الداخل .

خامساً — العناية بنشر الكتاب الشعبى على نطاق واسع وإنتاج مئات الكتب السياسية والثقافية وتتكفل بهذه المهمة الآن (الدار القومية للطباعة والنشر) إلى جانب دور النشر الأخرى ، وكذلك مصلحة الاستعلامات وإدارة الثقافة بوزارة الثقافة والإرشاد القومى .

سادساً — العناية بالسينما والمسرح وإنشاء مؤسسة دعم السينما (وهى مؤسسة عامة تابعة لوزارة الثقافة والارشاد القومى) . وتأليف نشرات الفرق المسرحية واستغلال الفن فى الدعوة الاشتراكية والدعاية للثورة .

سابعاً — التوسع فى التعليم وتقرير مجانية التعليم فى جميع مراحله بما فى ذلك مرحلة التعليم الجامعى والعالى .

ومما ساعد على تنوير الرأى العام المصرى أن أجهزة الاعلام عندنا وخاصة الاذاعة والتليفزيون تحرص على نشر الحقيقة ، وقول الكلمة الصادقة ، وتتسم فى أحاديثها بالصراحة ، وهى الطريقة التى تسير عليها الدولة سواء فى سياستها الداخلية أو الخارجية .

والذى لا شك فيه أن الرئيس جمال عبد الناصر يعتبر أصرح زعيم وأصرح رئيس دولة فى العصر الحديث . وقد رسم طريقا جديدا للدبلوماسية الدولية قائما على الصراحة والصدق والشجاعة الأدبية ، مما يخالف الأساليب الدبلوماسية

التقليدية التى تقوم على أســاس المناورات السياسية واللف والدوران والخداع السياسى والكذب أحيانا [1] .

كذلك لم يتقيد الرئيس جمال عبد الناصر بالأساليب التقليدية فى أحاديثه وخطبه حينما يتناول سياسة رؤساء الدول والحكومات بالنقد ، فهو يتحدث بصراحة لاذعة ويستخدم أحياناً عبارات وأساليب لا تعجب أتباع مدرسة الدبلوماسية التقليدية .

وكان لتحديه للدول الكبرى ومهاجمتها هجوما عنيفا فى خطبه السياسية ضجة كبرى فى العالم كله ، وكان لهذا الأسـلوب الجـديد فى الخطابة السياسية لرئيس دولة ناشـئة آثار بعيدة المدى فى قلب السياسة الدولية ، وتشجيع كل الدول الصغيرة حديثة العهد بالاستقلال على الصمود فى وجه القوى الاستعمارية ، بل كان لأسلوب عبد الناصر وانتصاره على العدوان الثلاثى الغـادر على مصر فى عام ١٩٥٦ أثر عميق فى دفع حركات التحرر الثورية كما حدث فى الجزائر والعراق واليمن .

وكان لنجاح عبد الناصر أيضا فى سياسة التأميم وتحدى الدول الأجنبية أثير كبير على دول أخرى غير عربية فى الشرق والغرب اتبعت نفس الأسلوب فيما بعد كما حدث فى إندونيسيا وكوبا وغيرهما .

ثامنا — ولعل أهم هذه العوامل جميعاً تكتل قوى الشعب العاملة فى تنظيم سياسى شامل كبير وهو (الاتحاد الاشتراكي العربى) حيث يجتمع كل أبناء الشعب من الفلاحين والعمال والجنود والمثقفين والمشتغلين بالاقتصاد القومى فى صعيد واحد ، وتتألف منهم وحدة واحدة ، تتفاعل كل عناصرها مع بعضها البعض، فى بوتقة (الديموقراطية الاشتراكية التعاونية) التى يؤمن بها الجميع كما صورها (الميثاق) .

وقد سبقت هذه التجربة تجربتان أخريان :

---

(١) يشاطرنا هذا الراى الكاتب الصحفى البريطانى توم ليتل Tom Tittle الذى قال فى كتابه عن الرئيس جمال عبد الناصر انه « يتحدث عن الدول الغربية بازدراء وبجراة لم يسبقه اليها اى زعيم فى الشرق الأوسط » ـ راجع كتابه عن السيد الرئيس الذى ترجمته لجنة من الأسـاتذة الجامعيين ببيروت تحت عنوان (جمال عبد الناصر رائد القومية العربية) ص ٣٨٠

الأولى — تجربة (هيئة التحرير) التى تشكلت عقب قيام الثورة . وقد استطاعت أن تؤدى دورها فى ذلك الوقت من ناحية تعبئة الرأى العام والقوى الشعبية لمقاومة الاحتلال البريطانى حتى تم الجلاء بحمد الله فى يونيه سنة ١٩٥٦

الثانية — وهى تجربة (الاتحاد القومى) الذى تشكل عام ١٩٥٨ ، وقد استطاع الاتحاد جمع شمل الأمة ، وفتح صدره لكل العناصر دون تحرز أو احتياط ، مما أعطى الفرصة للعناصر الرجعية والانتهازية بأن تتسرب إلى منظماته ، بل لأن تصل إلى الصفوف الأولى ، والمراكز القيادية [1] .

وكان هذا أحد أسباب (نكبة الانفصال) فى سوريا ، وخروجها من الجمهورية العربية المتحدة تحت تأثير الرجعية والدعاية الاستعمارية والصهيونية ضد سيادة الرئيس جمال عبد الناصر .

وقد فطن فيما بعد الضباط السوريون الأغرار الذين نفذوا الحركة الانفصالية إلى أنهم قد خدعوا ووقعوا فى الشرك الذى نصبه أعداء القومية العربية والوحدة العربية ، ثم أتيحت الفرصة للعناصر الوحدوية لتصحيح هذا الخطأ فى شهر مارس سنة ١٩٦٣ ، وقامت ثورة تدعو إلى الوحدة وصدر إعلان الوحدة ثم ميثاق الوحدة فى ١٧ ابريل من نفس العام بقيام الدولة العربية الكبرى وهى (الجمهورية العربية المتحدة بأقطارها الثلاثة مصر وسوريا والعراق) . ولكن حدثت نكسة ثانية بسبب (حزب البعث) الذى يحكم الآن فى سوريا والعراق والذى أقصى العناصر الوحدوية عن الجيش والمناصب الحكومية مما دعا مصر إلى إعلانها أن لا وحدة مع حزب البعث) .

فلما كانت التجربة الأخيرة (وهى تجربة الاتحاد الاشتراكى العربى) وقد استفادت مصر درسا نافعا من التجربة التى سبقتها (وهى تجربة الاتحاد القومى فى سوريا) ســد الطريق أمام العناصر الرجعية والانتهازية وأعداء الشعب ، فلم يدخلوا تنظيمات الاتحاد .

---

(١) لمعرفة الفروق الجوهرية بين (الاتحاد القومى) و (الاتحاد الاشتراكى العربى) راجع مقالنا بعنوان « كيف حققنا الديموقراطية فى بلادنا بعد الثورة » بعدد أكتوبر سنة ١٩٦٢ من المجلة المصرية للعلوم السياسية .

الفرق بين تجربتنا الديموقراطية الجديدة فى الجمهورية العربية المتحدة وبين الديموقراطية التقليدية القائمة على تعدد الأحزاب :

لست أنكر أن الأحزاب السياسية تقوم بدور كبير فى الحياة السياسية ، وأن بعض البلاد قد نضجت فيها الحياة الحزبية بحيث أصبح هناك أحزاب لها برامج محددة ومذاهب سياسية واضحة الأهداف ، فضلا عن التنظيم الحزبى السليم الذى يمكن كلا من القيادة الحزبية وسائر الأعضاء من الاضطلاع بواجبهم الحزبى والسياسى .

وهذا كله كان نتيجة للتجربة الديموقراطية طويلة الأمد لتلك البلاد ، ونتيجة أيضاً للتطور السياسى والاقتصادى والاجتماعى والثقافى ، وخاصة من ناحية سعة انتشار التعليم ، وانعدام الأمية وحرص الأغلبية العظمى من الناس على قراءة الصحف والمجلات والكتب العامة والاستماع إلى برامج الراديو والتليفزيون ومتابعة القضايا العامة .

ولكن الوضع بالنسبة لوطننا العربى يختلف عن ذلك كله . فلا زالت الأمية متفشية بين غالبية السكان . ولا يعرف أكثر الأقطار العربية من الديموقراطية الا اسمها فقط .. وان وجدت الأحزاب فهى فى الغالب تشكيلات تجرى وراء الأشخاص لا وراء المبادىء أو البرامج المرسومة أو الأهداف المحددة لصالح الشعب .

وفى الجمهورية العربية المتحدة بالذات كان يوجد قبل ثورة ٢٣ يوليه سنة ١٩٥٢ نظام ديموقراطى اسماً وشكلا ، لا فعلا وعملا . كانت هناك ديموقراطية زائفة تقوم على أحزاب أشخاص ، وعلى برلمان مؤلف من الإقطاعيين والرأسماليين المستغلين وبعض الانتهازيين من المثقفين الذين يأكلون على كل الموائد ، ويتحينون الفرص للتسلق ولو على جثث أصدقائهم بالأمس ، فهم قوم مذبذبون متلونون ، ويحسنون تغيير لون جلودهم وقت اللزوم .

وكان الحكم قبل الثورة لصالح الملكية والاقطاع والرأسمالية المستغلة بل وأقول أيضا لصالح الاستعمار الذى استطاع أن يسيطر على الاقتصاد القومى ، وأن يتحكم فى تجارتنا الخارجية وميزاننا التجارى — ولم يكن ذلك الحكم بطبيعة الحال لصالح الشعب .

وكان هناك برلمان ولكنه كان يمثل مصالح هذه الفئات المستغلة للشعب ، والتى نهبت خيرات البلاد ، وحرمت الفلاح والعامل من ثمرة كده وعرق جبينه وتركت لهما الفتات .

وإذن فتجربة الأحزاب فى بلادنا كانت تجربة فاشلة من وجهة الديموقراطية . بل إن وجود تلك الأحزاب كان السبب الجوهرى والرئيسى فى إطالة أمد الاستعمار الأجنبى والاحتلال البريطانى فى بلادنا الذى أخذ يلعب بالأحزاب ، ويراوغ الشعب فى مفاوضات ظلت حلقاتها متصلة طوال عشرات السنين ، ولم يكن الاحتلال خالص النية فى تلك المفاوضات فى أى وقت من الأوقات من ناحية الجلاء ، وإنما كان يريد أن يكسب الوقت من وراء هذه المفاوضات التى تكررت على يد الأحزاب . وفى نفس الوقت كان الاحتلال هو الذى يقيم الحكومات الحزبية ويقصيها عن الحكم ، ويلوح لرئيس هذا الحزب أو ذاك برئاسة الوزارة ، بل إن الاحتلال فرض أحد رؤساء الأحزاب فرضاً — وبالقوة العسكرية — لكى يرأس الحكومة فى حادث ٤ فبراير سنة ١٩٤٢ المشهور خلال الحرب العالمية الثانية [1] .

فكيف ينتظر أن تقوم حكومة حزبية هى من صنع الاحتلال بطرد الاحتلال ؟

ولهذا لم يجل المحتلون عن مصر الا عندما تألفت لأول مرة فى تاريخها تحت الاحتلال البريطانى ــ حكومة وطنية حرة ــ هى حكومة الثورة ــ ليس للاحتلال يد فى حصولها على الحكم .

لقد استولت الثورة على الحكم بالقوة ، ووقفت فى وجه الاحتلال وقفة المصمم الذى لا يلين . وهنا أسقط فى يد الاحتلال ولم ير بدا من حمل عصاه على كتفه ومغادرة البلاد مخذولا مدحورا .

وإذا حللنا الديموقراطية التقليدية القائمة على تعدد الأحزاب لوجدنا أن هذه الاحزاب إنما تنقاد أكثرية أعضائها فى الغالب لرئيس الحزب أو فئة قليلة من أعضائه البارزين الذين يمثلون مجلس إدارة الحزب أو هيئة مكتب الحزب .

وعلى هذا يكون حكم الأغلبية فى الظاهر ، بينما هو — فى حقيقة الأمر — حكم هذه الفئة القليلة الممثلة فى زعامة الحزب وقيادته ، واستبداد هذه الفئة أحياناً بالحزب

---

(١) حاصرت الدبابات البريطانية قصر عابدين حيث كان يقيم الملك السابق فاروق ، وهدده السفير البريطانى ــ باسم الحكومة البريطانية ــ بنفيه خارج البلاد ، اذا لم يستجب للانذار البريطانى بتعيين مصطفى النحاس (باشا) رئيس حزب الوفد رئيسا للوزارة وكان هذا الحزب أكبر الأحزاب السياسية فى ذلك الوقت .

نفسه ، ومن باب أولى بالحكم وبأحزاب الأقلية الأخرى . بل إن هذه القيادة الحزبية تفرض آراءها فرضاً أحياناً على الحزب ، وتضع القرارات مقدماً لكى يقرها بقية الأعضاء ، أو تستخدم على الأقل أساليب ناجحة فى الاقناع ، تنم عن الدهاء والذكاء ، بحيث تنقاد أكثرية الحزب لهذه الفئة القليلة التى تضطلع بدور القيادة .

أما فى تجربتنا الديموقراطية الجديدة ، فان الأغلبية هنا تمارس حقها على نطاق الشعب كله ، وهكذا تفعل الأقلية أيضا .

ولكن كلتيهما – أعنى الأغلبية والأقلية – ليست ثابتة ولا متكتلة فى صورة أحزاب .

فالأغلبية فى نطاق (الاتحاد الاشتراكى العربى) لا تمثل حزبا ، ولا تنقاد الى شخص معين أو قيادة حزبية معينة ، ولا يتبعها أفراد بعينهم على طول الخط . وهكذا الحال بالنسبة للأقلية . فالفرد الواحد قد يكون اليوم مؤيدا لقضية من القضايا أو مسألة من المسائل ، ثم يصبح غدا معارضا لقضية أخرى أو مسألة أخرى .

وما دامت حرية الرأى مكفولة لجميع المواطنين بمقتضى « الميثاق » فلكل واحد أن يناقش القضايا والمسائل العامة بحرية داخل تنظيمات الاتحاد على مستوياته المختلفة طالما كان مقيداً بمبادىء « الميثاق » الذى ارتضاه الشعب منهاجاً للحياة وخطة للعمل .

لقد أقر الشعب « الميثاق » على يد « المؤتمر الوطنى للقوى الشعبية »[1] الذى انتخبته القطاعات الشعبية المختلفة (من فلاحين وعمال ومثقفين ومشتغلين بالاقتصاد القومى) انتخاباً حراً . وكان لى شرف العضوية فى ذلك المؤتمر ممثلا لقطاع أساتذة جامعة القاهرة .

وناقش المؤتمر « الميثاق » مناقشة حرة صريحة أذيعت على الهواء بالراديو والتليفزيون (أى فى نفس الوقت الذى دارت فيه هذه المناقشات) كما نشرت عنها ملخصات وافية بالصحف اليومية ، والأسبوعية والمجلات .

---

(١) بدأ المؤتمر جلساته فى ٢١ مايو سنة ١٩٦٢ وقدم الرئيس جمال عبد الناصر اليه « مشروع الميثاق » ثم أخذ المؤتمر يناقش المشروع فى جلسات متتالية انتهت بموافقته عليه وعلى تقرير « لجنة الميثاق » الذى يعتبر مكملا له ، ويحتوى هذا التقرير على بعض المبادىء الهامة والتوجيهات العامة . وأنهى المؤتمر أعماله فى يوم ٤ يوليه سنة ١٩٦٢

انني أعتقد أن هذه التجربة الجديدة وهى تجربة (الاتحاد الاشتراكى العربى) ستصهر أمتنا العربية وتخلصها من الشوائب التى علقت بها طوال القرون بسبب الاقطاع والاستعمار والاستبداد . وستتيح لها ممارسة الديموقراطية ممارسة فعلية . وسينضج الرأى العام العربى على مر الأيام الى الحد الذى يخلق قيادات فكرية وسياسية جديدة لا تلبث أن تصبح النواة التى تلتف من حولها عناصر أخرى مؤيدة ، وهكذا يتمخض المستقبل عن تشكيلات سياسية ذات معدن أصيل شبيه بتلك التشكيلات التى توجد فى البلاد العريقة فى الديموقراطية .

أما المرحلة الحالية فى تاريخ الأمة العربية — وهى مرحلة التحرر من الاستعمار والصهيونية والنفوذ الأجنبى والسيطرة الأجنبية على الاقتصاد العربى . . . ومرحلة التحرر من الرجعية والتخلف الاقتصادى والاجتماعى . . ومرحلة البناء الاشتراكي — فلا أجد من صالح أمتنا العربية أن تنقسم على نفسها شيعاً وأحزاباً فتتفتت جهودها ، وتضل طريقها ، أو على الأقل تتعثر فيه .

ان الوحدة الوطنية ، والوحدة العربية هما طريق الأمان للأمة العربية فى هذه المرحلة التاريخية الحاسمة من حياتها .

وحبذا لو استمعت الأمة العربية فى كل الأقطار العربية إلى صوت العقل ، وتخلت عن عواطفها وأوهامها ، وتخلت أحزابها عن أنانيتها وحب ذاتها ، وأخذت بالتجربة الواقعية العاقلة التى قام بها أبناء الشعب العربى فى الجمهورية العربية المتحدة حتى تصل السفينة إلى بر السلامة .

ومن أقوى دلائل وقوف الرأى العام فى مصر من وراء الرئيس جمال عبد الناصر أنه حينما أعلن تأميم قناة السويس هلل الشعب وكبر لهذا القرار التاريخى العظيم الذى أعاد القناة لصاحبها الشرعى وهو شعب مصر . حتى الذين كانوا يعارضون عبد الناصر من قبل أصبحوا من المؤيدين .

وحينما حدث العدوان الثلاثى على مصر كانت إذاعات الأعداء تقول للمصريين إن عبد الناصر دكتاتور وحرم الشعب نعمة الديموقراطية . وكانوا يأملون أن يثور الشعب ضد عبد الناصر أثناء العدوان ، ولكن الذى حدث أن عبد الناصر وزع السلاح على جميع المصريين ووقف الشعب كله إلى جانب الجيش مع عبد الناصر ، يدافع عن مصر ، وعن القناة .

لمـاذا ؟

لأن الشعب يؤمن بعبد الناصر ويؤمن بالثورة .

لقد وقف الجميع أيام العدوان الثلاثى يدافعون عن وطنهم وعن ثورتهم حتى أسـاتذة الجامعة كانوا فى المعركة مع طلابهم .. وكان لى شرف التطـوع للتدريب العسكرى قبل العدوان الثلاثى بأسابيع قليلة فى أول فرقة من المتطوعين من أساتذة جامعة القاهرة ، فقد كنا نتوقع الحرب . وكان يقف الى جانبى فى الصف أساتذة كبار فى السن فوق الخمسين ، وهم يحملون البنـادق الثقيلة ، ويزحـفون على بطونهم ، ويلقون بالقنابل اليدوية .

وطوال سنى الثورة وإذاعات العدو تهاجم سياسة عبد الناصر ، وقد تعددت الإذاعات السرية الموجهة ضد بلادنا حتى بلغ عددها بضع عشرة محطة ، ولكن الرأى العام المصرى لم ينخدع بهذه الإذاعات . بل إنه لم يستمع إليها لأنه مؤمن بثورته وزعيمه ، عن وعى وفهم .

وهناك سؤال يخيل إلى أنه يتردد فى أذهان بعض المفكرين من المهتمين بالرأى العام والحياة السياسية وهو :

هل نضمن أن الديموقراطية تأخذ مجراها الصحيح فى (الاتحاد الاشتراكى العربى) بعد اعطاء الفلاحين والعمال نصف مقاعد التنظيمات الشعبية والسياسية وهم على ماهم عليه من أمية وجهل ، أو على الأقل من ضيق أفق ؟

وللرد على هذا السؤال أقول إن الفكرة الشائعة بين علماء الاجتماع والسياسة والرأى العام أن أغلبية الشعب — أى شعب — من تلك الفئة التى يطلقون عليها (الرأى العام المنساق أو المنقاد) . وهو الذى يضم الطبقة العاملة وعلى الأخص من الفلاحين والعمال وسائر الفئات التى حرمت من التعليم ، أو لم تحصل على أى قسط من الثقافة .

وهذه الفئة هى فى نظر هؤلاء المفكرين أشبه بالقطيع من السائمة يوجهها الزعماء كيفما يشاءون .

واذا صح هـذا الوصـف على الطبقـة العاملة التى تعيش فى كنف النظم الاستبدادية والرجعية فانه لا يجوز فى البلاد الديموقراطية .. ولا يقبل على وجه الخصوص فى البلاد التى تعيش فى ثورة .

إن طبول الثورة تدق فى كل مكان فى بلادنا ، ويستمع اليها الجميع ، فى طول البلاد وعرضها ، ويحس الجميع بضرباتها القوية ، ويفكر الجميع فى كل ما تقوله وتصنعه ، ويتدبرونه بإمعان .

ولهذا لم يعد هناك فلاح أو عامل فى الجمهورية العربية المتحدة الا ويشعر بمشاعر الثورة ، ويحس بأحاسيسها ، ويتتبع خطاها ، ويعرف ماذا قامت به بالأمس ، وماذا تفعله اليوم ، وما الذى ستصنعه غدا .

إن كل فلاح فى الجمهورية العربية المتحدة يعرف الآن حقه فى الحصول على قطعة أرض ، وحقه فى زراعة الأرض التى يستأجرها ، وحقه فى تحديد الايجارات ، وفى الحصول على البذور والماشية وسلفة مالية من الجمعية التعاونية الزراعية ، وحقه فى الانتخاب والترشيح لعضوية لجان الاتحاد الاشتراكي العربى والمجالس المحلية ... الخ .

وإن كل عامل فى الجمهورية العربية المتحدة يعرف الآن حقه فى الأرباح وفى تحديد ساعات العمل ، وحد أدنى من الأجر ، ويعرف حقه فى التأمينات الاجتماعية والصحية والحصول على معاش .

وقد تبين لى فى (المؤتمر الوطنى للقوى الشعبية) أثناء مناقشة ((الميثاق)) أن زملائى من أعضاء المؤتمر من الفلاحين والعمال كانوا على وعى كبير لا يقل عن وعى المثقفين ، بل كان بعضهم أشد تحمسا وأفصح لسانا فى التعبير وأوضح فى عرض آرائه ومقترحـاته . واستمع المؤتمر الى آراء ناضجـة من بعض الفلاحين والعمال تدل على تفكير سليم ، ووعى أكيد ، وتجربة طويلة مثمرة ، وكان من هؤلاء السيد أنور سلامة الذى كان يمثل قطاع العمال ثم اختير بعد ذلك أول وزير للعمل من العمال فى عهد الثورة تمشيا مع روح (الميثاق) الذى أعطى الفلاحين والعمال نصف مقاعد التنظيمات الشعبية والسياسية بما فى ذلك المجلس النيابى .

ولهذا فانى أحب أن أطمئن أولئك المتسائلين المتشائمين الذين ينكرون على (الميثاق) اعطاء الفلاحين والعمال هذه النسبة الكبيرة من مقاعد التنظيمات الشعبية والسياسية ومجلس الأمة ، لانى واثق أنه لم يصل الى هذه المقاعد ــ ولن يصل اليها ــ الا العناصر الطيبة الواعية من صفوف الطبقة العاملة .

وإنما أراد (الميثاق) أن يرد لهم حقهم المسلوب والذى حرموا منه أجيالا طويلة .

كما أن هؤلاء الفلاحين والعمال هم الذين يؤلفون أغلبية الشعب ، وهم أصحاب المصلحة الحقيقية فى الثورة واستمرارها والمحافظة على المكاسب الكبيرة التى حققتها لهم ، والتى يجب أن يعضوا عليها بالنواجذ .

ومع ذلك فلا يزال للمثقفين فى التنظيمات الشعبية والسياسية فى بلادنا ــ سواء داخل (الاتحاد الاشتراكى العربى) أو فى البرلمان (مجلس الأمة) ــ لايزال لهم القيادة الفكرية ، وعليهم الا يهملوا هذه القيادة أو يفرطوا فى أداء هذا الواجب الذى يعتبر من أثقل واجباتهم فى المرحلة الحالية من حياة أمتهم .

إن سلبية المثقفين قد تمهد الطريق للانحراف عن الطريق المستقيم من جانب العناصر الأخرى التى تكون الأغلبية العددية ، ولهذا يجب على المثقفين أن يقوموا بدور إيجابى فى مجال الرأى العام ، وأن يتصفوا باليقظة والشجاعة الأدبية ، مع مراعاة الاتزان وعدم التعصب للاتجاهات الفكرية الأجنبية التى تناقض تراثنا الفكرى والثقافى والدينى ومثلنا الاجتماعية بوجه عام .

ثم هناك مسألة أخرى لابد من الاشارة اليها لتمكين الديموقراطية والحرية فى ظل (الاتحاد الاشتراكي العربى) — وقد تعرضت اليها فى كلمتى بالمؤتمر الوطنى — وهى ضرورة هيمنة الاتحاد نفسه على جميع وسائل الاعلام والتوجيه بما فيها الصحافة والراديو والتليفزيون والسينما والمسرح ، حتى تعبر جميعاً عن إرادة الشعب ، وتعكس الرأى العام على حقيقته ، وتحافظ على تقاليد الامة وعاداتها الحميدة ، ومثلها الاجتماعية والخلقية والعقائدية . وكذلك

يجب تمكين الاتحاد من استخدام الراديو والتليفزيون بحرية ، فضلا عن إشرافه على تخطيط برامجهما [1] .

كما طالبت بضرورة إسناد القيادات الصحفية إلى العناصر المشهود لها بحسن السيرة من الاشتراكيين المخلصين قولا وعملا ، وأن يحترم الصحفيون « عهد الشرف الصحفى » فى أداء رسالتهم الجليلة ، واحترام الحقيقة ، والتزام الصدق ، وعدم استغلال مهنتهم للأطماع الشخصية أو التشهير بالناس .

ونبهت أيضا الى ضرورة الاهتمام بالصحافة الاقليمية باعتبارها وسيلة ضرورية للاعلام والتوجيه والارشاد بالنسبة لسكان الريف والأقاليم ، والاهتمام كذلك بالصحافة المتخصصة التى تخدم فئات بذاتها فهى أقدر على التأثير بدرجة أكبر من الصحف العامة التى تصدر فى العاصمة والتى لا تتسع صفحاتها لمناقشة جميع المشاكل المحلية والاقليمية والمهنية .

وفى رأيى أيضاً أنه ينبغى تشكيل (مجلس أعلى للإعلام والدعوة الاشتراكية) يتولى وضع السياسة العامة لجميع وسائل الإعلام والتوجيه والثقافة ، وتحديد نظم العمل بها ، ووضع لوائحها الادارية والمالية ، ويتألف هذا المجلس من ممثلين للاتحاد الاشتراكي العربي والحكومة والهيئات المشتغلة بالإعلام والثقافة العامة ، على أن تتبعه ستة مجالس أخرى وهى مجلس الصحافة ، ومجلس الاذاعة والتليفزيون ، ومجلس السينما والمسرح ، ومجلس الثقافة والإعلام ، ومجلس العلاقات العامة ، ومجلس السياحة والآثار [2] .

ان تنفيذ هذه المقترحات سوف يساعد على خلق رأى عام فى بلادنا أكثر نضوجا وفهما لشئوننا العامة ، وأقدر على القيام بأعبائه السياسية فى هذه المرحلة الحاسمة من تاريخ شعبنا .

---

(١) للاستزادة فى هذا الموضوع راجع الفصل الخاص بفلسفة الدعاية فى الجمهورية العربية المتحدة فى كتابنا (الرأى العام والدعاية) — الطبعة الثانية من ص ٢٤١ الى ص ٢٨٣ وكذلك كلمتنا بالمؤتمر الوطنى بمضبطة الجلسة التاسعة للمؤتمر بتاريخ ٣ يونيه سنة ١٩٦٢ والواردة بالملحق رقم ٢ من كتابنا المشار اليه ص ٣٧٠ — ٣٧٧

(٢) يمكن الرجوع الى تفصيلات هذا المشروع بكتابنا (الرأى العام والدعاية) الطبعة الثانية — من ص ٢٧٧ الى ص ٢٨٣

٣

مسئولية الصحافة نحو الرأى العام العالمى

ودور الأمم المتحدة فى تحقيق حرية الإعلام

اهتم معهد الصحافة الدولى[١] بمدينة زيوريخ بسويسرا بدراسة الأخبار الخارجية فى صحافة عشر دول من بينها الولايات المتحدة الأمريكية وبعض دول غرب أوروبا والهند، وذلك من ناحية الكم والكيف ، ومن ناحية أثر تلك الأخبار فى شعوب تلك الدول ، وهل هى كافية لإحاطة القارىء بما يجرى خارج بلاده من أحداث هامة فى البلاد الأجنبية ، وهل ما ينشر من تلك الأخبار كفيل بأن يربط الدول بعضها ببعض برباط متين ، ويؤلف بين قلوب شعوب العالم باعتباره وحدة واحدة ، فيساعد ذلك على تدعيم السلام وتوطيد أركانه . ذلك لأن سياسة الحكومات المختلفة تتأثر بالرأى العام فى شعوبها ، ولن يكون هذا الرأى العام مبنياً على أساس سليم فى مجال السياسة الدولية إلا إذا كان الشعب مزوداً بالمعلومات الصحيحة الكافية عن الشعوب الأخرى .

وكان منهج البحث على أساس قاعدتين :

الأولى : جمع الأخبار الخارجية التى نشرت فى أهم الصحف اليومية المحلية .

والثانية : تحليل هذه الأخبار واستخلاص النتائج المختلفة من حيث المساحة التى تشغلها فى الصحيفة ، ونوع تلك الأخبار وكيفية عرضها ووفائها بالغرض من ناحية الاعلام واحاطة القارىء بالمعلومات الكافية المفيدة التى تساعده على تكوين رأى صحيح عن الأحداث العالمية الجارية .

وقد أسفرت تلك الدراسة عن نتائج هامة نجملها فيما يلى :

١ — أن وكالات الأنباء هى المصدر الأساسى الذى يزود الصحافة بالأخبار

(١) نشر المعهد نتائج بحوثه فى كتاب بعنوان : The Flow of The Newe وراجع كتابنا (الصحافة كمصدر للتاريخ) — الطبعة الثانية — من ص ١٤٢ الى ص ١٦٢

الخارجية ، ولكن الأخبار التى تنساب من وكالات الأنباء هى أولا وقبل كل شىء — وفى معظمها — أخبار ذات صبغة محلية ، كما أنها أخبار عناوين ، ولو أن وكالات الأنباء قد أخذ اهتمامها يزداد شيئاً فشيئاً بتفسير الأخبار التى تقوم بتوزيعها .

٢ — أن ماينشر من أخبار خارجية فى الصحف اليومية العالمية محدود وغير كاف لتعريف القراء بماجريات العالم الخارجى .

٣ — أن تلك الأخبار تنشر مقتضبة وقد يصل الحال إلى إهمال بعض فقرات الخبر مما يجعله غامضاً مبهماً فى نظر القراء وبالتالى لايفيدون منه شيئاً . هذا فضلا عن أن الخبر قد يفتقر أحياناً إلى الإيضاح والتفسير لمساعدة القارىء على متابعة قراءته وفهمه على وجهه الصحيح .

٤ — أن القراء لايهتمون بالأخبار الخارجية إلا قليلا ، ومستوى معلومات القراء عن الحوادث الخارجية الهامة حتى تلك الحوادث التى يخصص لها باستمرار أكبر مساحة منحط للغاية . وقراء الأخبار الخارجية فى الصحف يكوّنون نسبة ضئيلة من القراء ، وتزداد هذه النسبة بين المثقفين والمتعلمين ، وتقل أو تنعدم فى غيرهم . كما أنها أعلى فى الرجال منها فى النساء فى نفس الطبقة الثقافية .

ومن أسباب عزوف القراء عن هذا اللون من الأخبار اعتقادهم أنها أخبار للدعاية ، وأنها لاتهمهم فى حياتهم اليومية . ويبدو أن القارىء غير مستعد للتضحية بجزء من مساحة الأخبار الداخلية والوطنية فى صحيفته لحساب الأخبار الخارجية .

وقد أجرى استفتاء فى الولايات المتحدة الامريكية لتعليل انصراف القراء عن الأخبار الخارجية ، وكان نص السؤال هو :

كثير من الناس لايهتمون اهتماماً كبيراً بالأخبار الخارجية فيم تعلل ذلك ؟

وكانت الإجابة كالآتى :

	النسبة المئوية
أنهم أكثر اهتماماً بأنواع أخرى من الأخبار ولا يجدون لذة فى قراءة الأخبار الخارجية	٤٥
أنهم لايفهمونها فهى معقدة جداً وليس لديهم فكرة أساسية عنها إلخ . .	١٣

ليس لها تأثير مباشر عليهم	١١
حاجتهم إلى فسحة من الوقت فهم مشغولون جدا	٨
أنهم يكرهون الأخبار الخارجية ومعلولون من الحرب	٦
فيها قدر كبير من الدعاية فهم لايعرفون ماذا يصدقون	٤
ذات صبغة وطنية إلى درجة كبيرة	٢
فقر الصحف فى تغطية الأخبار الخارجية	٢
إجابات أخرى	٦
لايعرفون شيئاً	١٥
	١١٢٪

ملحوظة : يزيد المجموع على ١٠٠ ٪ نظراً لأن بعض الأشخاص أدلوا بأكثر من سبب .

٥ — أن اهتمام القراء بالأخبار الخارجية ينصرف أولا وقبل كل شىء إلى الأخبار الانسانية التى تمس شغاف القلوب ، مثل أخبار ضحايا الفيضانات والسيول والزلازل والأوبئة ، وحوادث قتل الأطفال والنساء والطاعنين فى السن ، بصرف النظر عن أسماء الضحايا وأهميتهم فى الهيئة الاجتماعية . كما أن القراء مولعون بأخبار الأسماء اللامعة أيا كانت هذه الأخبار . ويأتى فى المرتبة التالية بالنسبة لاهتمام القراء أخبار السياسة العالمية وأخبار الاقتصاد والمال والثقافة . . . الخ .

لكن بالرغم من ذلك فلا تزال الأخبار الرسمية وغير الرسمية الهامة مثل أخبار الحرب والسياسة والعلاقات الدولية والدفاع والاقتصاد تحتل المكانة الأولى فى أخبار وكالات الأنباء . وقد وجد أن هذه المجموعة تكون نحو ثلثى أخبار جميع الوكالات بالولايات المتحدة . أما المجموعة الثانية فهى الأخبار التى لها أهمية اجتماعية ، وتشمل الأخبار الثقافية والتعليمية والعلمية والفنية والدينية والقضائية والقانونية والاخبار ذات الصبغة الاجتماعية . وهذا النوع من الأخبار الخارجية يكوّن فى الولايات المتحدة الامريكية نحو ١٢ ٪ من جملة الأخبار التى تم فحصها .

وأما المجموعة الثالثة فذات أهمية شخصية وتشمل الأخبار ذات الطابع الإنسانى وأخبار الجرائم والكوارث والرياضة . وهذا النوع من الاخبار يكوّن نحو ٢٢ ٪ من جملة أخبار الوكالات .

ويمثل الجدول الآتى متوسط النسبة المئوية لأنواع الأخبار الخارجية فى أربع وكالات للأنباء فى الولايات المتحدة الأمريكية لمدة أربع أسابيع :

الموضوع	الوكالة (ا)	الوكالة (ب)	الوكالة (جـ)	الوكالة (د)
الحرب	٢٨ر١	٥ر٢	١٧ر٧	١٢ر٩
السياسة	١٦ر٨	٣١ر٢	٢١ر٩	٢١ر٧
العلاقات الخارجية . .	٢٣ر٠	١٠ر٤	٢٠ر٩	٢١ر٥
الدفاع	٥ر٦	٥ر١	٢ر٨	٤ر٥
الاقتصاد	٢ر٨	٧ر٩	٣ر١	٥ر٦
الأخبار الثقافية . . .	٠ر١	٠ر٩	٠ر٥	٠ر٦
الأخبار التعليمية والعلمية .	٠ر٧	٣ر٩	١ر٩	٢ر١
الدين	٢ر٢	٢ر٦	٣ر٣	٣ر٢
الجريمة	١ر٤	٢ر٢	٣ر١	٢ر٠
الأخبار القضائية والقانونية .	٥ر٦	٤ر٧	٦ر٢	٥ر٣
الدمار	٤ر٧	٥ر٠	٦ر٥	٥ر٦
الأخبار الإنسانية . . .	٧ر٩	١٧ر٦	١٢ر٥	١٢ر٧
المسائل الاجتماعية . . .	٠ر٥	١ر١	٠ر٣	١ر٠
الرياضة	٠ر٦	٢ر٢	٠ر٣	١ر٣
	١٠٠	١٠٠	١٠٠	١٠٠

٦ — أن سكان المدن الكبيرة أكثر اهتماما بالأخبار الخارجية من سكان المدن الصغيرة ، والأخيرون أكثر اهتماما بتلك الأخبار من سكان الريف . وهذا يفسر لنا لماذا كانت طبعات الصحف فى المدن الكبرى تقدم قسطا أكبر من الأخبار الخارجية ، بينما هى تقتصد فى طبعاتها الإقليمية فى هذا اللون من الأخبار .

وفيما يلى أهم أسباب هذا التقصير :

١ ـ أن وكالات الأنباء والمراسلين الخصوصيين للصحف فى الخارج لا يتحرون الدقة فى جمع الأخبار ، وهم يميلون الى نشر الأخبار المبالغ فيها لجذب القراء مما يؤدى أحيانا الى تكدير العلاقات بين الشعوب .

ويلاحظ أن بعض الصحفيين ورؤساء التحرير يتركون العنان لخيلاتهم أحيانا بطريقة تبعدهم عن الحقيقة والواقع ، وقد يخلطون أحيانا بين الخبر والتعليق عليه فى آن واحد مما يشوه الحقائق ، ويضلل الرأى العام .

٢ ـ أن الصحف لاتولى الاحصائيات ما تستحقه من عناية هذا العصر الذى يتسم بالتقــدم الاقتصادى والعلمى والفنى . والاحصائيــات تعتبر دراسة فنية ولا يمكن أن يغفلها أى شخص شغوف بتتبع الأحداث العالمية .

٣ ــ أن رئيس التحرير أو بالأحرى رئيس قسم الأخبار الخارجية فى أية صحيفة يومية كبرى يرد إليه سيل جارف من الأخبار الخارجية عن طريق وكالات الأنباء المختلفة والراديو ، وهو مقيد بمساحة الصحيفة التى لاتسمح بنشر هذه الكمية الضخمة من الأنباء والقصص والمعلومات الخارجية . وعليه أن يختار من بينها ما تتسع له المساحة المحدودة المخصصة من الصحيفة للأخبار الخارجية . ولذلك فهو يفاضل بين خبر وآخر ، ويحذف بعض الفقرات من الخبر الواحد ، ويهمل بعض الأخبار إهمالا تاما ، واضعا نصب عينيه دائما أنه لاينشر من تلك الأخبار الخارجية إلا ما يعرف ويعتقد أنه يروق قراء صحيفته الذين اعتادوا قراءتها ويفضلونها على غيرها من الصحف ، وتشبع رغباتهم وهواياتهم ، وتتفق مع العرف والتقاليد ، فضلا عن سياسة الصحيفة .

ومعنى هذا أن القائم على نشر الأخبار الخارجية فى الصحيفة ليس حر التصرف فى النشر كما يبدو لأول وهلة ، وإنما هو فى حقيقة الأمر مقيد بسياسة الصحيفة وطبيعة قرائها ، ودرجة ثقافتهم وميولهم بوجه عام .

ولعل هذا هو السبب فى أن ماينشر من أخبار خارجية بالصحف العالمية لا يمكن أن نعده كافيا سواء من ناحية الكم أو ناحية الكيف ، لإعلام القارىء بما يجرى فى العالم الخارجى وتزويده بالقسط الكافى من المعلومات التى تؤهله لتكوين رأى سليم فى السياسة

الدولية . ولعله السبب أيضا فى اختلاف صحيفة عن أخرى سواء فى نوع الأخبار الخارجية التى تقدمها للقراء ، أو فى المساحة المخصصة لهذا اللون من الأخبار .

فالصحف الجادة المحافظة التى يقرؤها الصفوة والمثقفون من الشعب تحرص على أن تنشر معلومات مدروسة مستفيضة فى السياسة الدولية والمشكلات الدولية ، وهى تهتم أولا وقبل كل شىء بنشر الأخبار السياسية والاقتصادية والثقافية ، وان كانت لا تغفل الأخبار الانسانية ، بينما تجنح الصحف الشعبية الى ابراز الأخبار الانسانية التى تستهوى القارىء العادى أو رجل الشارع ، وتستحوذ على مشاعر المرأة التى تكون نصف المجتمع ، وتعتبر عميلا هاما للصحيفة فى الأمم الراقية ، فى حين تضع الاخبار السياسية الخارجية فى المحل الثانى .

ومهما يكن من شىء فإن الصحف اليومية العالمية بوجه عام لا تزال شحيحة فى أخبارها الخارجية بالنسبة لما ينبغى أن تقدمه لقرائها من تلك الأخبار . ولا تزال المساحة المخصصة لهذا اللون من الأخبار محدودة جدا بالقياس إلى الأخبار الداخلية والمواد الأخرى الصحفية .

وقد تبين أن الصحيفة المتوسطة فى الولايات المتحدة الأمريكية تنشر من الأخبار الخارجية ما يزيد على أربعة أعمدة بقليل من كل مائة عمود ، بينما تنشر الصحيفة المتوسطة فى أوروبا والهند أقل من ذلك ، ولو أنها حين تفعل هذا تخصص نسبة أكبر من مساحتها للأخبار الخارجية من مثيلتها الأمريكية . بيد أنه من المشاهد أن الصحف قاطبة ليست مقيدة بحد أقصى أو حد أدنى من المساحة التى تخصصها لإشباع رغبة القراء من الأنواع المختلفة من الأخبار الخارجية .

لكن الذى يعنينا هو كيف يتسنى لأية صحيفة أن تحقق الغرض المنشود من الأخبار الخارجية فى هذه المساحة الصغيرة ؟ وتظهر أهمية هذه المسألة اذا تذكرنا أن قارىء الصحيفة لابد له فى أحيان كثيرة من الاحاطة بالأخبار الخارجية ، حتى يستطيع أن يتابع بعض الأخبار المحلية والوطنية ويفهمها على وجهها الصحيح . وهذا واضح كل الوضوح بالنسبة للمسائل السياسية والدولية التى تشغل بال الرأى العام فى كل دولة على حدة .

وعلى ذلك فالصحيفة مطالبة بتزويد قرائها بالقسط الكافى من الأخبار الخارجية التى تعينهم على تفهم أحوال بلادهم ومشكلات وطنهم فى مجال السياسة والاقتصاد والثقافة .

ثم إن هذه المساحة المحدودة المخصصة للأخبار الخارجية لا يمكن بأية حال أن تصور لنا حياة الشعوب فى الخارج تصويرا صادقا دقيقا ، وتعطى القارىء فكرة صحيحة عن تلك الشعوب . وإنما الذى يحدث عادة هو أن الصحف تشير إليها إشارات طفيفة من وقت لآخر ؛ وهى لاتستطيع أن تتابع الحديث عن جميع شعوب الأرض ، وحسبها أن تفعل ذلك بالنسبة لأربعة أو خمسة شعوب فقط . وهى مع ذلك تقدم الشىء اليسير عن حياتها مما لا يشفى الصدر أو يطفىء الغلة .

والذى لاشك فيه أن الأخبار الخارجية أصبحت لها أهمية أكبر منذ قيام الحرب العالمية الثانية . وبعد انتهاء تلك الحرب وتأسيس هيئة الأمم المتحدة التى تضم جل دول الأرض فى صعيد واحد ، أصبحت تلك الهيئة تلعب أهم دور على مسرح السياسة الدولية . فجميع الشعوب — سواء منها الكبيرة أو الصغيرة — حريصة أشد الحرص على متابعة نشاط هذه الهيئة ، وجهود الهيئات المتفرعة منها كمجلس الأمن ومجلس الوصاية الدولية والمجلس الاقتصادى والاجتماعى ومحكمة العدل الدولية وسائر المنظمات الدولية الأخرى فضلا عن الجمعية العامة للأمم المتحدة . ذلك لأنه لم تعد هناك دولة على وجه الأرض لاتمسها من قريب أو بعيد قرارات الأمم المتحدة ونشاط المنظمات الدولية المختلفة .

لكن للأسف لايزال اهتمام الناس بالأخبار الخارجية محدودا حتى فى البلاد الغربية الراقية ، وهم يتفاوتون فى ذلك — كما سبق أن بينا — تبعا لدرجة الثقافة . وللتدليل على ذلك نسوق الاستقصاء التالى عن الصحافة الأمريكية والذى يبين مدى إلمام الشعب الأمريكى بالأحداث الخارجية ، وهذا الاستقصاء الذى أجرى منذ سنوات مبنى على سؤال عينة من ٢٠٠٠ شخص . وكان من بين الأسئلة التى وجهت ما يأتى :

١ — ماذا تفيد الحروف N. A. T. O .

الاجابة :	٪
التعريف الصحيح	٢١
عاجزون عن الاجابة	٧٩
	١٠٠

٢ — من هو زعيم الصين الوطنية ؟ ٪

إجابة صحيحة	٥١
إجابة غير صحيحة أو لا يعرفون شيئاً	٤٩
	١٠٠

٣ — ما اسم الرجل الذى خلف ستالين كرئيس لوزراء الاتحاد السوفييتى ؟

إجابة صحيحة	٦٠
إجابة غير صحيحة أو لا يعرفون شيئاً	٤٠
	١٠٠

٤ — من هو رئيس وزراء المملكة المتحدة الآن ؟

إجابة صحيحة	٧٩
إجابة غير صحيحة أو لا يعرفون شيئاً	٣١
	١٠٠

واتضح من هذا الاستقصاء أن أغلبية القراء يجهلون المعلومات الدولية ، وأن المثقفين أقدر من غيرهم على تتبع الأخبار الخارجية ، وأن الرجال أكثر إلماما من النساء بتلك الأخبار ، وأن سكان المدن الكبرى يتفوقون على سكان المدن الأقل تعدادا من هذه الوجهة .

كذلك اتضح أن الاشخاص الذين اعتادوا قراءة الصحف بانتظام هم أكثر إلماما بالماجريات الدولية من غير المواظبين على مطالعة الصحف ، وهذا أمر طبيعى .

تلك هى الحال فى الولايات المتحدة الامريكية على سبيل المثال . ولا بد لنا من أن نلقى نظرة على صحفنا العربية من وجهة الأخبار الخارجية .

والحق إن صحفنا اليومية الكبرى أصبحت تنشر علينا يوما بعد يوم من الأخبار الخارجية ما يفوق الصحف اليومية الكبرى فى أمريكا وغرب أوروبا سواء من ناحية الكم أو ناحية الكيف . فنحن نلحظ تنوعا كبيرا فى الأخبار الخارجية التى تنشرها صحفنا اليومية الكبرى . فهناك باستمرار أخبار الأمم المختلفة والمنظمات الدولية والسياسة الدولية خصوصا فى الدول

الكبرى والدول العربية . وهى تعرض بطريقة تمكن القارىء العادى من متابعتها وفهمها بسهولة . وتعمل الصحيفة فى أحيان كثيرة على تفسير ما غمض من السياسة الدولية فى مقالات منتظمة أو فى تعليقات .

وهناك الأخبار الإنسانية والاقتصادية والثقافية والرياضية . . . الخ . وصحفنا لاتقصر أخبارها الخارجية على الدول الكبرى والمعسكرين الغربى والشرقى ، بل تشمل أيضاً العالم العربى والعالم الإسلامى ودول الشرق الأدنى والأوسط والأقصى عامة ، أى أنها لا تغفل الأخبار الهامة التى ترد إليها من أركان المعمورة الأربعة .

ومعنى هذا أن صحافتنا تخدم قرائها من ناحية الإعلام الخارجى بدرجة تفوق على أكثر الصحف الأمريكية والأوروبية . بل إنها تخدم القراء فى جميع البلاد العربية باعتبار القاهرة مركزاً لجامعة الدول العربية ، وقلباً لنشاط العالم العربى ، سواء من الوجهة السياسية أو الاقتصادية أو الثقافية .

وإذن فالمنتظر والحالة هذه أن يكون شعبنا أعلم بالمشكلات الدولية والسياسية العالمية وأحوال الشعوب الأجنبية ، وأن يكون الرأى العام العربى أكثر نضوجاً ووعياً بالمشكلات الدولية المعاصرة ، ما دامت صحافتنا تقدم له كل يوم وجبة دسمة من المعلومات عن الماجريات الدولية .

فهل هذا ما حدث حقاً ؟

الحقيقة المرة أن شعبنا لم يفد مما تقدمه له صحفنا اليومية كما كان منتظرا . فان قراء الصحف عندنا فى الجمهورية العربية المتحدة ـ وهى أكبر دولة عربية ـ لايزالون يكونون نسبة ضئيلة جدا من السكان قد لا تتجاوز المليون أى حوالى ٤ ٪ فقط من السكان . وليت هذه النسبة الضئيلة من القراء كانت كلها تهتم بقراءة الأخبار الخارجية . فالواقع أن الذين يتابعون تلك الأخبار قلة ضئيلة أيضا من هؤلاء القراء . فلا يعنى بقراءتها سوى المثقفين ، بل نفر قليل من المثقفين وأعنى بهم الرأى العام النابه أو الصفوة أو القادة . أما الأغلبية الساحقة من القراء فهم منصرفون عن أنباء العالم الخارجى ، متلهفون على قراءة الأخبار المحلية عامة والأخبار المثيرة خاصة ، وأخبار الجرائم (خصوصا الجرائم الجنسية) بوجه أخص .

وإذن فلا بد للشعب العربي — إذا أراد أن يكون له رأى عام مستنير فى المشكلات الدولية — أن يتضاعف عدد قراء الصحف فيه أولا أضعافا كثيرة ، ثم على هؤلاء القراء ألا يهملوا قراءة الأخبار الخارجية التى تتكلف صحفنا اليومية مشقة كبيرة فى تقديمها لهم كل يوم ، تلك الصحف التى تفوقت على صحف الغرب فى هذا المضمار .

ونحن لن نصل إلى هذا الطور الذى نرجوه لأمتنا العربية إلا إذا قضينا على الأمية ، وعممنا التعليم ، ونشرنا الثقافة بين جميع أفرادها من الجنسين ، وصنعنا شيئاً فعالا لرفع مستوى المعيشة بين الطبقات المتوسطة والفقيرة ، وهى التى تكون سواد هذه الأمة .

دور الأمم المتحدة فى تحقيق حرية الاعلام :

أولت الأمم المتحدة موضوع حرية الاعلام اهتمامها ، رغبة فى تيسير سبل التفاهم بين الشعوب ، والمحافظة على السلام العالمى .

وقد كان لأستاذنا المرحوم الدكتور محمود عزمى الذى كان يرأس « لجنة حرية الإعلام » بالأمم المتحدة الفضل فى إعداد « عهد الشرف الصحفى » الذى أقرته اللجنة ، ووافقت عليه « لجنة حقوق الانسان » ثم « اللجنة الاجتماعية للمجلس الاقتصادى والاجتماعى » فى عام ١٩٥٢

ويتألف « عهد الشرف » من المبادىء الآتية :

١ — يجب على رجال الصحافة والإعلام أن يبذلوا كل ما فى وسعهم لتزويد الجمهور بالأنباء الصحفية المطابقة للحوادث التى وقعت ، وأن يتحققوا من صحة المعلومات التى يحصلون عليها ، وألا يغفلوا أى حادث مهم أو يشوهوا الوقائع عمدا .

٢ — تتطلب المزاولة الشريفة للمهنة الصحفية الإخلاص للمصلحة العامة ، ولذلك يجب على الصحفيين أن يتجنبوا السعى وراء منفعتهم الشخصية أو تأييد المصالح الخاصة المتعارضة مع المصلحة العامة أيا كانت الأسباب والدوافع .

فالافتراء والتشهير المتعمد والتهم التى لا تستند إلى دليل وانتحال أقوال الغير ، كل ذلك يعد أخطاء مهنية خطيرة .

وخلاص النية إزاء الجمهور يعتبر أساسا للصحافة المحترمة الجديرة باسمها .

وكل نبأ يتضح كذبه وضرره بعد إذاعته يجب تصحيحه على الفور وطواعية ، كما يجب صياغة الشائعات والأنباء التى تفتقر إلى الإثبات فى قالب متسم بطابعها الحقيقى .

٣ — يتحتم على رجال الصحافة والإعلام ألا يقبلوا لأنفسهم أو يكلفوا غيرهم بأعمال لا تتفق مع أمانة المهنة وكرامتها ، ويجب أن تسرى هذه القاعدة على جميع الذين يشتركون فى الأعمال الاقتصادية والتجارية التى تتصل بالمهنة الصحفية .

ولا بد للمشتغلين بإذاعة الأنباء وكتابة التعليقات أن يتحملوا كامل المسئولية المترتبة عليها مالم يرفضوا صراحة ومقدما تحمل المسئولية .

ولكل من تمسه تهمة فى أخلاقه أو سمعته الحق فى تيسير الرد على هذه التهمة التى قد ترد فى الأنباء أو التعليقات .

إذ يجب أن يكون احترام سمعة الناس قاعدة من قواعد المهنة الصحفية ، ولا يجوز التعرض لحياتهم الخاصة أو المساس بسمعتهم إلا إذا اقتضت ذلك المصلحة العامة .

ومن واجب الصحفى الاحتفاظ بسرية المصادر التى يستقى منها الأنباء . إذ أن الأخبار والمعلومات التى تصرح بها بعض المصادر بصفة سرية لرجال الصحافة تسرى عليها سرية المهنة الصحفية التى ينبغى الاستمساك بها إلى أقصى حدود القانون .

٤ — يجب على الصحفيين الذين يريدون الكتابة والتعقيب على الحوادث التى تقع فى بلاد غير بلادهم أن يحصلوا على معلومات تتيح لهم الكتابة والتعقيب على هذه الحوادث بإنصاف وصدق .

٥ — بمقتضى المبدأ الذى يقوم عليه هذا العهد تقع المسئولية فى كفالة احترام المهنة وشرفها على رجال الصحافة والإعلام لا على الحكومات ، ومن ثم لا يجوز تفسير أية مادة من مواد هذا العهد على نحو يسوغ تدخل الحكومات أيا كان هذا التدخل لتنفيذ الالتزامات الواردة فى وثيقة هذا العهد * .

---

* راجع كتابنا (الرأى العام والدعاية) — الطبعة الثانية — ص ٢٣٠ الى ٣٣٥

اتفاقية التصحيح :

كما وضعت « لجنة حرية الاعلام » أيضا « اتفاقية التصحيح » التى أقرها « المجلس الاقتصادى والاجتماعى » وكذلك « الجمعية العامة للأمم المتحدة » بعد جهد جهيد بذلته الدول الصغيرة وعلى رأسها مصر ، والحرب الباردة قائمة على أشدها بين كتلتى الشرق والغرب .

وتنص « الاتفاقية » على أنه من حق كل حكومة ترى أن صحيفة أو وسيلة من وسائل الإعلام الأخرى كالراديو والسينما قد صدر عنها مايمس هذه الحكومة أو ما يمس مقومات الأمة التى تمثلها هذه الحكومة أن تقدم لحكومة البلد الذى تتبعه الصحيفة أو وسيلة الإعلام وتبلغها تصحيحا وتطلب إليها العمل على إذاعته ونشره ، فإذا مضت خمسة أيام على وصول الإبلاغ من جانب الحكومة الشاكية إلى المشكوة ولم يذع التصحيح اتجهت الحكومة الشاكية إلى الأمين العام للأمم المتحدة ، وفى هذه الحالة يتولى هو بوسائل إعلام الأمم المتحدة نشر هذا التصحيح ، وهى أوسع انتشارا وأقوى فى سبيل النشر من وسائل أية دولة لذاتها .

الحرب الباردة لا زالت قائمة :

بالرغم من إقرار « عهد الشرف الصحفى » و « اتفاقية التصحيح » فان الحرب الباردة لازالت قائمة بين الدول ، وعلى الأخص بين الكتلتين الشرقية والغربية ، ولا تزال القيود مفروضة على المراسلين الأجانب فى كثير من الدول غير الديموقراطية ، فضلا عن فرض الرقابة الإدارية على الصحافة وسائر المطبوعات ووسائل الإعلام المختلفة فى كثير من البلاد التى يسود فيها الحكم المطلق .

ومعنى هذا كله أنه لا سبيل الى ايجاد تفاهم صحيح بين الدول والشعوب ما دامت الدعاية السياسية هى الطابع العام لكل وسائل الاعلام فى العالم ، وما دام الطريق مسدودا أمام بعض الحقائق التى تخفيها بعض الدول أو تشوهها بطريقة تضلل الرأى العام المحلى والرأى العام العالمى لأغراض سياسية بحتة .

كذلك أحب أن أشير بصفة خاصة إلى سلوك وسائل الإعلام الأمريكية إزاء الدول العربية والجمهورية العربية المتحدة بالذات وقضية فلسطين على الأخص . فالملاحظ

أن الصحافة الأمريكية ومحطات الاذاعة والتليفزيون الأمريكية تخضع لسيطرة الصهاينة الأمريكيين ، ولذلك تقف إلى جانب إسرائيل ، وتدافع عنها بكل قواها ، وتحض الشعب الأمريكى على جمع التبرعات لإسرائيل ، كما تطالب الحكومة الأمريكية بزيادة الاعانات المالية والامدادات العسكرية وغيرها إلى إسرائيل . وتقف هذه الوسائل ضد العرب وضد اللاجئين ، حتى وصل الأمر إلى أن الصحافة الأمريكية لا تحترم (حق الرد) وهو من أبسط الحقوق المقررة فى الصحافة ، ولا تحترم أيضا (اتفاقية التصحيح) التى أقرتها الأمم المتحدة حينما يريد العرب الرد على المفتريات والأكاذيب التى تنشرها الصحافة الأمريكية ضد العرب . فاذا بعثت إحدى الهيئات الدبلوماسية العربية ردها إلى رئيس التحرير ألقى به فى سلة المهملات .

ومن هذا يتضح أن المواثيق الدولية لا قيمة لها طالما كان بعض الدول يفتقر إلى حسن النية ، وتضمر فى نفسها شعورا آخر نحو هذه المواثيق .

والأمل معقـود على اقرار « اعـلان حرية الاعلام » الذى بذلت الدول غير المنحازة جهودا كبيرة فى اعداد مشروعه ، ولا يزال معروضا على الجمعية العامة للأمم المتحدة ، وعلى أن تحترم جميع الدول ــ وخاصة الدول الكبرى ــ هـذا الاعلان ، حتى يسود التفاهم والوئام بين جميع الشعوب ، ويصبح الطريق ممهدا لخلق رأى عام عالمى يكون أقوى دعامة للسلام ، ويقف فى وجه أى عدوان من جانب أية دولة تسول لها نفسها خرق « ميثاق الأمم المتحدة » والقانون الدولى .

مطبعة جامعة القاهرة

The Bulletin of the Faculty of Arts is issued twice a year, in May and December. All requests for copies should be made to the Cairo University Librarian, Giza. Communications regarding contributions should be addressed to the Editor of the Bulletin, Prof. M. H. El-Bakry, Faculty of Arts, Giza, Egypt.

Back numbers of this Bulletin are available
at 30 P. T. for each Part.

BULLETIN

OF

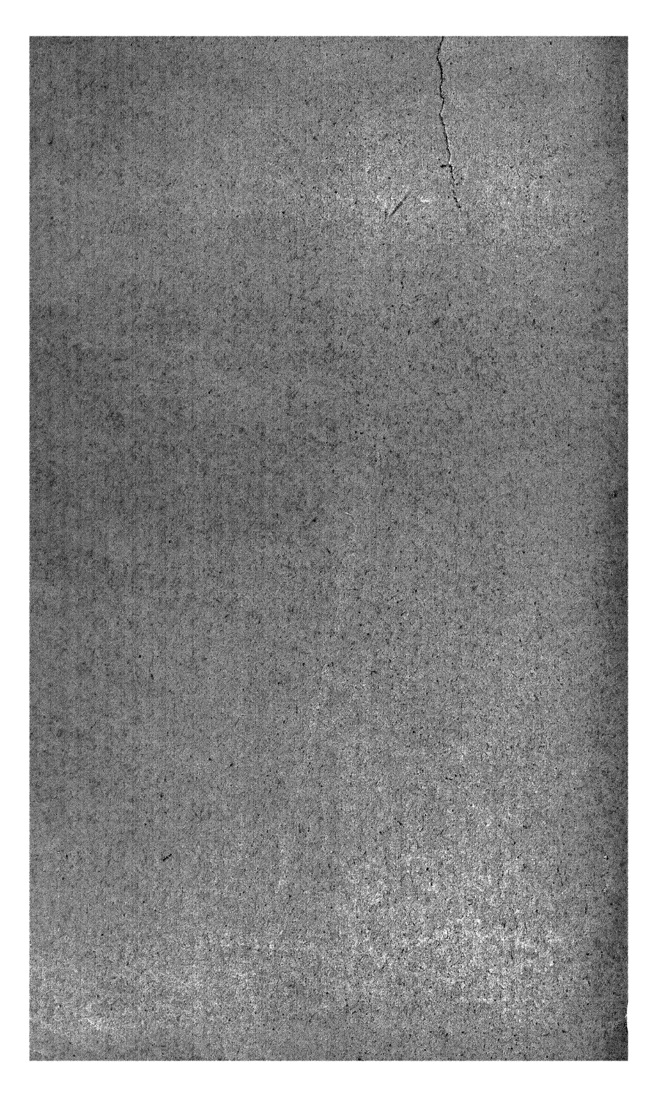
THE FACULTY OF ARTS



VOL. XXI—PART II

DECEMBER 1959

CAIRO UNIVERSITY PRESS
1964



BULLETIN

OF

THE FACULTY OF ARTS



VOL. XXI—PART II

DECEMBER 1959

CAIRO UNIVERSITY PRESS

1964


Bibliotheca Alexandrina
05442788